إعترافات

القديس أوغستينوس

نقله من اللاتينية: إبراهيم الغربي



إعترافات

القديس أوغستينوس

تأتي هذه الترجمة بعد 50 سنة على ترجمة الخوري يوحنا الحلو لهذه الإعترافات. وهي منقولة عن اللاتينية، وتميّزها هوامش وتعليقات، يصعُب فهم النص من دونها، وضعها العلّامة بيار دي لابريول، إضافة إلى معجم عربي لاتيني فرنسي لمصطلحات وألفاظ القديس أوغستينوس.

يُعدّ أوغستينوس، من أشهر آباء الكنيسة، ومن أبرز مؤسّسيها. وهو من أصل بربريّ، تَرَوْمَنَت أسرته. وكان أبوه متشبّثاً بالوثنيّة القديمة، في حين كانت أمّه "مونيكا" مسيحيّة متّقدة الإيمان، أثّرت في ابنها أيّما تأثير، حتى بعد أن تجاوز طور المراهقة وطيش الشباب، تاب واعتنق دينها.

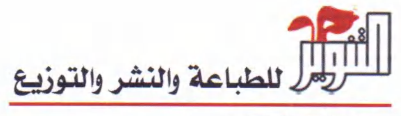
كان أوغستينوس قاضياً وداعية وخطيباً، يُلقّب بالأفريقيّ، وكان فعلاً أفريقيّا أصيلاً، يلبس قميصاً أبيض من صوف ويضع على رأسه قلنسوة بيضاء وفي رجليه نعل، ويجوب المقاطعة الأفريقية على ظهر حمار أو بغلة، أو على قدميه، مقاوماً الفساد والشعوذة وبقايا الوثنيّة.

لهذا النصّ قيمة مرجعيّة تاريخيّة، إذ نقل الفلسفة الروحانيّة اليونانيّة من ثوبها الأفلاطونيّ الحديث، وخاصّة الأفلوطينيّ، إلى أجواء مسيحّية صرف، مُمهّدًا بذلك الطريق إلى الفكر اللاهوتيّ الغربي. ولئن طغت العقيدة المسيحيّة على أعمال أوغستينوس الأخرى، فإنّ "الاعترافات" مثّلت الفترة التاريخيّة التي تأرجح فيها الفكر الإنسانيّ بين العقلانيّة والتصوّف، كما مثّلت نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط.

في هذه "الاعترافات" مراجعة للنفس وتأصيل للنقد الذاتي ومشروع روحاني ترك تأثيرًا كبيرًا على المسيحية من بعده. وهي بمثابة "شاهد" أو علامة فكرية بارزة، في مسيرة الحضارة الكونية.

لوحة الغلاف: ساندرو بوتيشللي


ISBN 978-9938-886-66-5


التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar_altanweer.com

إعترافات

القديس أوغستينوس

الكتاب: إعترافات
المؤلف: القديس أوغستينوس
نقله من اللاتينية: ابراهيم الغربي
مراجعة: محمد الشّاوش

عدد الصفحات: 376 صفحة

الترقيم الدولي: 5 - 66 - 886 - 9938 - 978

الطبعة الثانية: دار التنوير 2015

الطبعة الأولى:
المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون - بيت الحكمة. تونس 2012

الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

رقم الناشر: 60 - 14/440

إعترافات

القديس أوغستينوس

نقله من اللاتينية إلى العربية
ابراهيم الغربي

مراجعة: محمد الشّاوش



تقديم

عاش أوغستينوس (بين سنتي 354 – 430 م) آخر أيّام الإمبراطورية الرومانيّة، التي تهاوت إثر تفكـك داخليّ وزحف خارجيّ، فكان شاهدًا على نكبتها الكبرى بعد أن اكتسحتها المسيحيّة وحلـّت محلّ الوثنية الرسمية. ويُعدّ صاحب هذه «الاعترافات» التي ألـّفها بين سنتي 397 و401 بعد المسيح من أشهر آباء الكنيسة ومن أبرز مؤسّسيها. وكان من أصل بربريّ، لكنّ أسرته ترَوْمَنت كغيرها من الأسر، فكانت اللاتينيّة بالنسبة إليها أكثر من لغة ثقافيّة، إذ غدت «اللغة الأمّ» المستعملة في البيت والشارع. وكان أبوه متشبثا بالوثنيّة القديمة، في حين كانت أمـّه «مونيكا» مسيحيّة متقدة الإيمان، فأثرت في ابنها أيّما تأثير، بعد أن تجاوز طور المراهقة وطيش الشباب، وتاب وهي على قيد الحياة، واعتنق دينها سنتين قبل وفاتها.

وفي هذه «الاعترافات» مراجعة للنفس وتأصيل للنقد الذاتي ومشروع روحاني متكامل ومساهمة جديـّة في بثّ المعتقدات والقيم المسيحيّة.

كان أوغستينوس – أيّ الامبراطور الصغير – يُلقـّب في الأوساط الإيطالية بالأفريقيّ، وكان فعلا أفريقيّا أصيلا، يلبس قميصا أبيض من صوف (كالذي يُعرف بالكدرون في البلاد التونسية) وكان على رأسه قلنسوة بيضاء وفي رجليه نعل. وكان يجوب المقاطعة الأفريقيّة من أدناها إلى أقصاها على ظهر حمار أو بغلة، أو يجوبها على قدميه، مقاوما الفساد، وباثـّا تعاليم المسيح في مختلف فئات الشعب، ومكافحا الشعوذة وبقايا الوثنيّة. وكان أيضا قاضيا وداعية وخطيبا.

هذا النصّ الذي نضعه بين يدي القارئ العربي له قيمة مرجعيّة تاريخيّة لا نزاع فيها، إذ نقل الفلسفة الروحانيّة اليونانيّة في ثوبها الأفلاطونيّ الحديث، وخاصّة الأفلوطينيّ، إلى أجواء مسيحيّة صرف، فأشبعها بروح الإنجيل مُمهّدًا بذلك الطريق إلى الفكر اللاهوتيّ الغربي. ولئن طغت العقيدة المسيحيّة على أعمال أوغستينوس

الأخرى وخاصّة «مدينة الله»، فإنّ «الاعترافات» مثّلت الفترة التاريخيّة التي تأرجح فيها الفكر الإنسانيّ بين العقلانيّة والتصوّف، كما مثّلت نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط. فهذا الكتاب بمثابة «الشاهد» أو العلامة الفكرية البارزة في مسيرة الحضارة الكونية.

ظهر هذا الكتاب في ربوعنا، ولم يكد يُطالعه أحد منّا بأكمله، رغم إجماع الدارسين على اعتباره من روائع التراث البشري وهذا أمر غريب، فمن المشروع إذن إعادتُه إلى ذاكرتنا الجماعيّة. والحقّ أنّه يعبّر بصفة عجيبة عن تجربة وجودية وروحانية في نفس الوقت أخرجت صاحبها من شكّه ومجونه في طور الشباب إلى أرقى درجات الإيمان. وهو يرويها بعبارات شعرية رقيقة فإذا بها معجزة فنيّة صادقة، تستخدم أبسط الكلمات للبوح عن أعمق الحقائق الأبديّة وأبعدها تأثيرا، وإذا بالشخصي يلتقي بالكوني في صفحات قلّت مثيلاتها.

لقد كُتبت هذه «الاعترافات» قبل انبثاق نور الإسلام بقرنين ونصف، وطُبعت مئات المرّات، وتُرجمت إلى عشرات اللغات، فرأينا نقلها مباشرة من لغتها اللاتينيّة الأصليّة إلى العربيّة. واخترنا لهذا الغرض صديق «بيت الحكمة» المرحوم إبراهيم الغربي، أحد كبار أساتذة الجامعة التونسية وأبرز الحاذقين للغتين اللاتينيّة والعربيّة، المعروف بتجربته الكبيرة واطّلاعه الواسع وغزارة علمه. وقد سبق أن ترجم لنا، سنة 1997، « شرح ابن رشد الكبير لكتاب النفس لأرسطو» فاسترجعنا بفضله واحدًا من أهمّ النصوص الرشْدية، وقد ظلّ مفقودا بالعربية ولم تبق منه إلّا الترجمة اللاتينية. وتعاونّا معه ثانية لتجسيم مشروع «بيت الحكمة» الطموح في مجال الترجمة. وتجدر الإشارة إلى أنّنا اعتمدنا الأصل اللاتيني الذي نُشر في نسخة «الآداب الجميلة» اللاتينية/ الفرنسيّة بتحقيق «بيار لابريولو».

ولقد فكّرنا طويلا، قبل الإقدام على إنجاز هذا المشروع، في تناسب ترجمة عربية لهذا الكتاب مع ثقافتنا الإسلامية وتصوراتنا العامة للكون وللحياة، وفي ملاءمتها لأوضاعنا القومية. وتساءلنا كثيرا عما يمكن للقراء المغاربيين أن يستفيدوا من هذا الكتاب والحال أن العديدين منهم لا يهتمّون أصلا بالطقوس الدينية عامة، فما بالك بتصورات أوغستينوس وكفاحه المرير لزرع المسيحية في ربوع بلادنا وإعطائها مكانة كونية. أيّ وقع يكون لهذا الكتاب – على أهميته التاريخية – بل أيّ صدى له في ضمائرنا اليوم وقد أصبحت همومنا ومشاغلنا بعيدة شكلا ومضمونا عن توجهات الأوغوستينية، ثقافة ونظرة إلى الكون والحياة؟

نعلم تاريخيا - لا وجدانيا - أن أوغستينوس لعب دورا عجيبا وحاسما، أكثر من معاصريه من آباء الكنيسة المؤسسين لها كأمبرواز وجيروم وأوريجان وغيرهم، في توطيد دعائم المؤسسات الكاثوليكية وبلورة المعتقدات وتثبيت طقوسها. وكان داعيا وأستاذا غرس المسيحية في نفوس البرابرة وأذكى الإيمان فيهم بل تجاوز حدود إفريقية إلى أوسع رقعة ممكنة في العالم. وقد نظّر للعقيدة وأطّر المذهب وشرح الكتب المنزّلة وبثّ الوعي وأدّب وربّى، فكان له دور أساسي في إرساء قواعد الكاثوليكية الكونية الصلبة التي بقيت كما هي أو كادت حتّى يومنا هذا.

لقد ركّز العقيدة حول الثالوث الأقدس وحبَل مريم البتول ورسّخ مفهوم الخطيئة الأصلية مؤكّدا أنّها تلاحق ذرية آدم جيلا بعد جيل فلا يفلت منها إلّا من منّ الله عليه من بني آدم بنعمة الخلاص، لأنّ قدر الإنسان محتوم ومحسوم قبل ميلاده. الكتاب مشحون بمثل هذه المعتقدات وبغيرها ممّا نجح في تمريرها وتوجيهها في عديد المناسبات التاريخية. ولدعم أفكاره باللسان والقلم كان يأمر بإجبار الناس على اعتناق المسيحية متخذا منحى جديدا أعطاه لعبارة الإنجيل: «compelle intrare».

ولم يكن يتردّد في الاستنجاد بشوكة الأمير لتطويع المتشكّكين، ذلك أنّ النزعة التبشيرية التي لازمت الكنيسة الكاثوليكية حتّى يومنا هذا كانت واضحة عنده بل اعتبرها واجبا مقدّسا يتجاوز مجرّد الدّعوة السلمية لدينه.وهكذا ساهم أوغستينوس بقسط وافر في غلق أبواب حرية المعتقد بتبريره ما كانت تشكو منه المسيحية في بداية عهدها من اضطهاد سلطته عليها وثنية الإمبراطورية الرومانية. ومثّل موقفه هذا تراجعا خطيرا عمّا صرّح به آباء الكنيسة قبله من أمثال ترتوليانوس الذي عاش في ربوعنا في نهاية القرن الثاني والذي كان يقول: «ليس للدين أن يفرض دينا بل تقبّل الدين بكامل العفوية هو عين الدين». وظلّت الكنيسة تنفي حريّة المعتقد على مدى قرون طويلة حتّى سنة 1965 لمّا اعترفت في أعقاب انعقاد مجمع فاتيكان الثاني بتلك الحريّة. ويبدو أنّها أخذت اليوم تتراجع عن توجّهاتها الجديدة وترجع إلى مسالكها المعتادة.

كان التعصب إذن جبلّة في أوغستينوس وكان من طبعه التشنيع بمن يخالفه في الرأي. ومن الكلمات المحبّبة إليه كلمة contra أي «تفنيدا»، إلى حد أن أحد تلاميذه بوزيدوس - الذي ألّف أوّل ترجمة له فيها تصنيف لمؤلّفاته - قسّمها حسب الخصوم الذين كان أوغستينوس يهاجمهم: «تفنيدا للوثنيين» و«تفنيدا لليهود» و«تفنيدا للفلاسفة» و«تفنيدا للمانويين» و«تفنيدا للأريانيين»... واللافت أن دراسات

أوغستينوس الأولى تركـتزت على الخطابة التي درّسها في ميلانو. ونعلم أن الخطابة قامت آنذاك على الإقناع بكلّ الوسائل مهما كانت، فكان يسخّر ملكاته وقدراته الكلامية لمقاومة من كان يعتبرهم أعداء الدين المنحرفين والمنشقين. وقد تغيروا حسب أطوار حياته الطويلة وتغيرت وجهات نظره هو وتطورت عبر العقود إذ كان يؤمن بالفلسفة قبل أن يرى فيها مجرد تهافت وهذيان وآمن بالمانوية قبل أن يتنكتر لها فيما بعد.

لقد تساءل كثير من المفكرين المسيحيين أنفسهم واللاهوتيين عن صواب اختياراته ومشروعية جداله وكفاحه وقالوا إنّ التعصب الديني كان مدعّما بالخطابة أكثر منه بالحجج. وما صراع فريق «جانسن» الذي كان ينتمي إليه «باسكال» و«أرنو» في القرن السابع عشر مع اليسوعيين إلّا مظهر من عدّة مظاهر أخرى خلـتفها أوغستينوس من تعاليم وتوجّهات صلبة طبعت الكنيسة الكاثوليكية بطابعه، بفضل حزمه الفكري ونشاطه الديني التوعوي. ولذا قدّسته ورأت فيه أحد الآباء البارزين المؤسسين لها فتناولت بالدرس والنشر والتعليق مئات الكتب والكتيبات والخطب والمراسلات المطولة التي خلـتفها والتي نعجب من غزارتها إذ تمتلئ بها خزائن ضخمة برمّـتها.

ما لنا إذن وهذا المبشـتر المناضل المتعصّب؟ نحن نؤمن بحريّة المعتقد وندعو إلى التسامح ونسعى لدعمهما في مجتمعاتنا في حين أنـته لم يتـتخذ هذه القيم طريقا له ولا منهجا. نحن نقول: «لكم دينكم ولنا ديننا» ونؤمن «بألّا إكراه في الدين». فلماذا إذن ننشر أوغستينوس مع كل ما ذكرنا؟

ذلك أن كتابَيْ أوغستينوس «الاعترافات» و«مدينة الإلـه» يشذّان عن سائر مؤلفاته إذ يتجاوز فيهما الخصوصيات المسيحية ولا يبقى في حدود الكاثوليكية الضيّقة. هذان الكتابان ينمّان عن عبقرية فريدة ويصلان إلى أعلى قمم الإبداعات البشرية ولا يزال القرّاء من كلّ ملـتة ودين يجدون فيهما تجاوبات وجودية ونفيسة.

لنبدأ «بمدينة الإلـه» وهو من أواخر ما كتب أوغستينوس في ظروف اضطرابات سياسية وتقلبات تاريخية زعزعت أركان الإمبراطورية الرومانية ثمّ هدمتها نهائيا بعد زحف الفندال عليها. لقد اعتبر عديد المؤرخين هذا الكتاب فاصلة بين «نهاية» العهود القديمة وبداية العصر الوسيط. نعلم أن أوغستينوس مات في مدينة عنابة – وكانت محاصرة – فعاش آخر أيّامها. وبفضل إيمانه الفياض، وككلّ من عاش مثل هذه الظروف العصيبة، عاد إلى ربّه وجدّد رجاءه فيه.

إنّ المدينة الخبيثة التي نعيش فيها والتي نقاسي من شرّها ومن ظلم حكـتامها ونعاني

من بطشهم مدينة زائلة. فهي تموت بسمومها ومن سمومها ويبقى الملك لله الواحد القهار الذي له ملكوت كل شيء وله المدينة الحقيقية، «مدينة الإلـه» أو كما يقول أوغستينوس «القدس السماويّة». إنّ جوهر الكتاب مقاربة بين المدينة الأرضية الدنيا والمدينة الإلـهية العليا وبحث في كيفية التخلص من الأولى للالتحاق بالثانية. وهكذا انقلب التاريخ الواقعي حاضرا وماضيا إلى تاريخ ماورائي وإلى أمل مستقبلي وأضحت التجربة انفتاحًا ورجاءً. وتحوّل ما كان في كتابات أوغستينوس العديدة التي أشرنا إليها من تشاؤم ومرارة ويأس من الإنسان تحوّلا خلاّبا إلى توجّهات تفاؤلية تفتح المجال واسعا للأمل. هذا الكتاب عجيب في حدّ ذاته، ويتنزّل بين نوعين من الكتب تناولا نفس الموضوعات وإن بطرق مختلفة، ولكن بنفس الحدس والتصوّر: «الجمهورية» لأفلاطون و«السياسة» لأرسطو. فقد اصطبغا بصبغة الفلسفة اليونانية من ناحية، وكتابي «آراء أهل المدينة الفاضلة» للفارابي وحي ابن يقظان لابن طفيل المطبوعَيْن بطابع الثقافة الفكرية الإسلامية من ناحية أخرى. ويندرج كتاب «الاعترافات الذي نضعه اليوم بين يدي القارئ في هذا السياق الفكري، ويمتاز بحيويّته الخاصّة التي خلـدته وأفردته وجعلت منه مرجعا هامّا.

لا يمكن لنا بالطبع في هذه التوطئة السريعة إلّا مجرد الإشارة إلى بعض ما في هذا الكتاب من تحليل طريف وتجارب نفسيّة فريدة. لقد أبقينا على العنوان «اعترافات» لأنه متداوَل معروف، إلّا أنّ مضمون الكتاب مزيج، في الواقع، من الذكريات والتأملات في شتى معاني الحياة ومشاكل الوجود. ومن أبرز صفحات الكتاب رواية بليغة لحيرة محرقة ولكيفيّة الخروج منها بعد تأرجح مضنٍ بين الشك واليقين وبين ارتكاب الإثم والندم عليه. باح أوغستينوس بأعمال دنيئة ارتكبها فبالغ في تقبيحها ونقلها من مستوى العمل غير الحميد إلى مستوى الخطيئة الماورائية لمّا تحدّث عن اختلاسه وهو في سن المراهقة لإجّاصات على ملك جاره كان قد قطفها من شجرتها قبل نضجها ولم يكن ينوي أكلها أو بيعها ولكن شماتة في جاره ونكاية به. كما تحدّث بإطناب عن الغريزة الجنسيّة: فالحبّ لم يكن عنده إلّا مجرّد مباضعة. «ما كنت أحب بقدر ما كنت أحبّ أن أحبّ (nondum amabam, amabam amare). فالعلاقة مع بعض بنات قرطاج بعد إغرائهن لم تتجاوز مستوى الزهو والعبث، وقد يعتبر بعضهم ذلك من مظاهر الطيش والاستهتار، خاصّة في ذلك الوقت. إلّا أن هذه التجربة التي خرج منها بالندم والتوبة ألقت عليه أسئلة كثيرة.

كان حائرا قلقا يبحث عن الحقيقة وكانت أمته مونيكا مسيحيّة مفعمة بالإيمان

الملتهب، وكانت تلحّ على إصلاحه وإدخاله في صلب الكنيسة، في حين كان أبوه وثنيا مقلدا لا أكثر ولا أقل. وتعلق بفتاة أنجب منها ابنًا أحبه كثيرا، سماه «عطية الله» Adeodat فطردت مونيكا، بلا شفقة ولا رحمة، الأمّ والرضيع وأصرّت أن تزوّجه بفتاة من الطبقة الأرستقراطيّة العليا، فأبى وفاء لقرينته. وكان قد أهداها عددًا من مؤلفاته في ما بعد (Ad matrem Adeodati). وماتت أمته مونيكا بعد حادثة أوستيا فبقي وفيا لأم ولده ولوالدته على حدّ السواء.

أمّا قصّة أوستيا فإنّها من أشهر صفحات الأدب الكوني يقصّها علينا بصفة مؤثرة للغاية. كان في حديقته بأوستيا متأرجحا بين الشك واليقين، في مهب الرياح الفكرية والعواصف العاطفية وبين مساءلات وأجوبة وما أكثرها وما أشدّها تعقيدا وغموضا. وإذا بصوت فتاة يهتف وراء ظهره ولا يعلم كيف أتى ومن أين قائلا: «خذ واقرأ» (tolle et lege). وكان بيده سفر «بولس»، ولمّا فتحه انقدح نور الإيمان، إذ وجد بالصفحة التي فتح فيها الكتاب تحذيرا من الغرور والاستهتار وحثا على الإيمان والتقوى، فكانت بداية عهد جديد اعتنق فيه المسيحية وأصبح ركنا من أبرز أركانها. وتوفيت بعد ذلك أمته مونيكا راضية عنه تمام الرضا.

إنّها قصة نجد العديد من أمثالها قديما وحديثا. فـ«المنقذ من الضلال» والنور الذي قذفه الله في صدر الغزالي يتنزلان في نفس الثوابت البشرية. والكتابان جديران بأن يدرسا ويقارنا بتجارب الإيمان الوجدانية وما تفضي إليه من أسئلة محرقة وقلق فكري وتيه وجودي وإرادة فهم مصادر الشرّ والإقلاع عنه وعبء المسؤوليّة البشريّة ونوعيّة الحريّة. هذه قضايا أبديّة خاض فيها الفلاسفة والمفكرون ورجال الدّين قديما وحديثا، وحاول المتفلسفون فهمها، في سعيهم إلى فهم «دلالة الحائرين». كلّ ذلك ينصبّ في دائرة الاستقطابات الفكرية في كلّ الثقافات والتصورات الدينية. فالدين يتأصّل حتى عند المفكرين العقلانيين واللائكيين في هذه المعاني التي نعطيها للمحدودية البشرية وما وراءها. إنّنا نتساءل اليوم عن تفاهة حضاراتنا وهشاشتها، على ما فيها من مكاسب باهرة واكتشافات علمية رائعة وإنتاجات عملاقة ووعي بأهمية القيم والدفاع عن الحرية والعدالة والكرامة وحقوق الإنسان. كل ذلك يمثل مكسبا حضاريا تنصبّ فيه ملاحظات وتحليلات وتجليات لا تزال تنير الطريق... وما «اعترافات» أوغستينوس إلّا إنارة صائبة وتجربة جديرة بأن نعرّف بها.

كل حضارة عائدة إلى التراب وكل حياة نهايتها الموت. فهل الموت سقوط في الفناء والعدم أم «بداية تاريخية لما وراء التاريخ»؟ كلّ حضارة محكوم عليها بعدم

الاكتمال والسقوط والأفول. ولعل الحضارات، حضارة الغرب وحضارة الإسلام وغيرهما، معجزات بين ردهتين من الفناء. إنّ التأمّل في المصير البشري، مهما كان، يعود بنا في نهاية الأمر إلى أنفسنا ويساعد على فهم الكينونة وتقييم المنزلة التاريخية، ومعجزة الإنسان تكمن في أنّه يموت ويحيا ويتغلّب على قهر الزمن. هذه المواقف الأوغستينية مواقف «بطولية» حقا تستحقّ الاحترام.

ما أبدع ما قاله أوغستينوس في الحبّ والمحبّة والأخوّة البشريّة، بصرف النّظر عن مواقفه الصلبة التي أشرنا إليها في بداية هذا الحديث. فكلامه عن المحبّة جدير بأن يردّد لأنّه عنصر تلاق بين تعاليم المسيح ابن مريم عليه السّلام وتعاليم محمد عليه الصلاة والسلام. يقول أوغستينوس (Ama et fac quod vis) «كن محبا وافعل ما تريد». هذه القولة تبعدنا كثيرا عن تصورات شبابه للمحبّة المنحصرة في الاستجابة للنهم الجسدي. قال آنذاك: كنت «أحب أن أحبّ»، ومعناه أن «الحب» السطحي يدور في حلقة مفرغة لا غاية له إلّا نفسه. فهو نرجسية بحتة وانحصار في الذات فلا هدف له ولا مستقبل ولا معنى، وإنّما هو مجون مجاني. أمّا الحبّ الحقيقي الذي سيسمّيه العرب العشق فإنّ غايته هي التعلّق بالغير، وهو بهذه الصّفة خروج من فلك النفس الضيّقة وهو «صلة» قبل كلّ شيء. وهذه الصلة هي الأساس لأنها تمثل تغلبا على النفس وهدما لجدران الأنانيّة الضيّقة. ولا يحدّد أوغستينوس المعنيّ بالحب، ولا حتّى موضوعه: قد يكون الحبّ عشقا إلـهيّا وقد يكون بشريّا وقد يكون حبّا للطبيعة أو للفنّ، المهمّ هنا هو الخروج من الذّات وإعطاء الغيريّة قيمتها الضروريّة والكافية. إنّ معنى الحب يكمن في هذه الغاية: فقد يخيّب أمل مَن أحَبّه، وقد أتراجع أنا أيضا في تقييمي لهذا الغير، وقد تتحول آمالي أو تنتكس. أجل، كلّ هذا جائز ولكن مهما يكن من أمر فإن العشق الفَيّاض بذات نفسه يحملني ويهديني سواء السبيل ويَنهاني عن السيّئ، لذا قال أوغستينوس: افعل ما تريد. إنّ كلمة vis تعني هنا الإرادة والإرادة المقيّدة بالحب، وهي إرادة صالحة مهما يكن من أمر. وسيعبّر ابن عربي عن ذلك أحسن تعبير:

أدين بدين الحبّ أنّى توجَهَت ركائبه فالحبّ ديني وديدني.

الحب غاية مهما كان موضوعه، وهو غاية أيضا مهما تغيرت نظرتي إلى المحبوب، وهو غاية أصلا وفصلا لأن الإنسان المحبّ يجد فيه «المقوّمات» الكافية «للقيم» الأخلاقية الأخرى. فهو «قيمة» مركزية أو قُل قيمة القيم، عليها يتأسس تواصل الإنسان وتغلّبه على النفس والصعود من أعلى إلى أعلى. الحبّ الحقيقي علوّ وتعال. وفي الحبّ تتلاقى كلّ الأديان.

هذه عيّنة من الفوائد الفكرية التي يمكن للقارئ العربي المسلم أن يجنيها من مطالعة هذا الكتاب وغيرها كثير جدا. إنّ المفارقات والقضايا التي خاض فيها أوغستينوس سيخوضها المسلمون. وهي من القضايا التي شغلت بالنا قديما وحديثا وحيّرتنا وأرّقتنا ولا تزال: العقل والإيمان، الوحي والحكمة، الخير والشر، الحرية والمسؤولية، القضاء والقدر، وهي من القضايا الخالدة التي يطرحها كتاب خالد.

لكلّ هذا أقدمنا على نشر هذه الترجمة التي تأتي ستة عشر قرنا أو ما يزيد بعد تأليف هذا الكتاب، وبها نسترجعه إلى مدوَّنة ثقافتنا العملاقة، اعتقادا منّا أنّه يفتح مجالا جديدا للدرس والبحث والتلاقي والحوار مع غيرنا ومع ماضينا.

على الرغم من عديد المآخذ التي أشرنا إليها أو لم نشر، يبقى أنّ أوغستينوس فتح - ولا يزال يفتح - أمام قرّائه آفاقا عديدة مثمرة، تجد الفلسفة فيها روحا ونَفَسًا طويلين، إذ طوَّرت الفكر الأفلاطوني الجديد وطعّمته بما يتيح تلاقيه وتناغمه مع مفهوم الوحي والتنزيل. يجد فيها عالِم النفس تحليلات عميقة وثريّة حول التربية وعلاقات البشر بعضهم ببعض، وحول الزمنية كما يعيشها الإنسان حسب أطوار حياة الفرد وحسب تعاقب الأجيال، وكذلك حول الذاكرة والمخيّلة والإرادة والبصيرة. إنّ المسائل العديدة التي خاض أوغستينوس غمارها تهمّنا بصفة خاصّة لأنّها تثير قضايا أبديّة وتطرحها باستمرار إذ لا نزال نخوض فيها كالشكّ واليقين والحريّة والقضاء والمسؤولية الإلـهية في وجود الشرّ ومصير الفرد ومكانَة الإنسان في طيّات الكينونة والصيرورة الكونية ومصدر الحقيقة وقيمتها، ومكانة المعرفة البشرية في ظلّ الإلهام والوحي والحدس. وقد نعجب أحيانا من هذه النظرة الثاقبة التي سبق بها أوغستينوس عديد المفكرين بقرون. وقد لا يعلم الكثيرون أنّه توصّل إلى إدراك أهميّة «الكوجيتو» إذ بنى عليه مسالك عديدة وجديدة للفكر لما قال: «أخطئ إذن أنا موجود». ولكلّ هذه الاعتبارات ينبغي لنا أن نضع هذا الكتاب ضمن قائمة المراجع الكونية التي تفيدنا خاصّة عندما نريد الاستنارة لتطهير النفس وتزكية العقل بالعين النقدية اللاّزمة، فنأخذ ما نأخذ منها ونطرح ما نطرح.

عبد الوهّاب بوحديبة

الكُتبُ الثّلاثَة عشَرَ

لاعْترافات القدّيس أوْريليُوس أوْغُسْتينُوس

ملاحظة هامّة: استعملنا في ترجمتنا النصّ اللاتينيّ الذي نشره بيار دي لابريول (Pierre de LABRIOLLE)، في طبعته الباريسيّة، بدار الآداب الجميلة (Paris,, les Belles Lettres)، في مجلدين (الأوّل يحتوي على الكتب الثمانية الأولى، والثاني على الخمسة الأخيرة من الاعترافات: Les Confessions). وتعود هذه الطبعة إلى عشر سنين خلت، في حين كانت الطبعة الأولى قد ظهرت، سنة 1925، بنفس الدار (ISBN 2.251.01209 - 5 et9). ومن عام 1925 إلى عام 1996 أعيد طبع «الاعترافات» أربع عشرة مرة، وهذا دليل على الاهتمام البالغ بالكتاب.

الكتاب الأوّل

I.1. «أنتَ عظيم، يا مؤلاي، لك الحمد، كل الحمد، عظيمة هيَ قوّتك ولا حصر لحكمتك».

أنت الذي يريد مدحَك الإنسان، ذلك الجزء الضئيل من خليقتك، الإنسان الذي يحمل فناءه معه في كل مكان، ويحمل معه دليل خطيئته، ويحمل الدّليل على أنك «تتصدّى للمتكبّرين».

ومع ذلك يريد الإنسان مدحَك، وهو نتفة ضئيلة من خليقتك.

أنت الذي تحضّنا على أن ننعم بحمدك، لأنك خلقتنا لك، ولأنّ قلوبنا لا تعرف الطمأنينة، حتى تطمئن وتقرّ عندك.

يسّر لي، يا مولاي، أن أعلم وأن أفهم هل الابتهال إليك[1] سابق لحمدك وهل العلم بك سابق للابتهال[2]. ولكن كيف يبتهل[3] إليك غيرُ العالم بك؟ إذ من لا يعرفك قد يبتهل[4] إلى أحد سواك. أم هل يبتهل إليك المبتهل[5] ليعرفك ويعلم بك؟ «ولكنْ كيْفَ سيبتهلُ[6] الناسُ لمن لم يؤمنوا به؟ وكيْفَ يكون الإيمان دُون مبشّر؟ «سيحمَدُ المؤلى من بحث عنهُ وطلبَهُ». ومن طلب المولى وجدهُ، ومن وجده حمدهُ.

---

(1) Inuocare (bis)... vous invoquer = الابتهال إليك

(2) Inuocare (bis)... vous invoquer = الابتهال إليك

(3) Inuocat (ter)... vous invoque = يبتهل إليك

(4) Inuocare(quater)...... en invoquer (un autre) = ابتهل إلى شخص آخر:
الأثر أسلوبيّ، انظر تراكم ذلك في الصفحات الموالية. وتتواصل السلسلة إلى ما لا نهاية له تقريبا.

(5) Inuocaris... n'êtes - vous pas invoqué...? = ألمْ يُبتهَل إليك؟

(6) Inuocabunt... comment invoquer? = كيف يُبتهَل...؟

كم أودّ، يا مولاي، أن أبحث عنك وأنا أبتهل إليك[1]،وأن أبتهل[2] إليك وأنا مؤمن بك! فقد بشّرونا بك. يبتهل[3] اليك، يا مولاي، إيماني الذي وهبْتَنِيهِ، والذي ألهمْتنيهِ بإنسانية ابنك وبكهنوت المبشّر بك[4].

II.2. لكن كيف سأبتهل[5] إلى إلـٰهي، إلى إلـٰهي ومولاي، بما أن الابتهال إليه إنما هو أن أدعوه هو بعينه في قرارة ذاتي[6]؟ وهل في ذاتي مكان يمكن أن يحل به إلـٰهي وينزل فيه؟ يمكن أن يأتي إليه فيّ إلـٰهي الذي «خلقَ السماءَ والأرضَ»؟ وهل في ذاتي مكان يمكن أن يحلّ فيه إلـٰهي؟ أم أين سيحل إلـٰهي من نفسي، إلـٰهي الذي «خلق السموات والأرض»؟ هل يوجد في كياني إلـٰهي ومولايَ، شيء يستطيع أن يسعك؟أم هل تسعك السماء والأرض اللتان خلقتهما وخلقتني فيهما؟ أم هل يلزم من هذا، بما أنّ كلّ شيء لا يوجد إلّا بوجودك، أنّ كلّ ما يوجد يضمّك ويحويك؟ وبما أني إذن موجود أيضا، فلمَ أتوسّل أن تأتي في ذاتي وتحلّ فيها، أنا الذي ما كنت لأوجد لو لم تكن أنت فيّ؟ لم أنزل إلى الجحيم بعد، ومع ذلك فأنت موجود هناك أيضا، إذ «لو نزلت إلى الجحيم لوجدتك حاضرا فيه».

إذن ما كنتُ لأكون، يا إلـٰهي، ما كنت البتّة لأكون لو لم تكن أنت فيّ. أو قل ما كنتُ لأكون لو لم أكن أنا فيك، أنت الذي «منْكَ وبكَ وفيكَ يكُونُ كلّ شيء»؟ هو كذلك، يا مولاي، نعم هو كذلك. أين أبتهل إليك، والحال أنّني فيك؟ ومن أين تُرى ستأتي وتحلّ فيَّ؟ وأين ترى سألوذ خارج السماء والأرض، حتى يحلّ في ذاتي هناك إلـٰهي الذي قال: «أنَا الذي أمْلأُ السماءَ والأرْضَ»؟

III.3. أتحتويك إذن السماء والأرض إذن، بما أنّك تملؤهما؟ أم أتملؤهما ويبقى شيء منك، بما أنهما لا تتسعان لك؟ وأين تصبُّ من جديد ما يتبقّى منك، عندما تُملأُ بك السماء والأرض؟ أم هل أنّه لا حاجة لك البتّة أن يسعك أيّ شيء، أنت الذي تسع كل شيء، بما أنّ ما تملؤه تملؤه وأنت تسعه وتحويه؟ فليست الأوعية الملأى بك هي التي تكسبك صفة القرار والثبات، لأنها لو تكسّرتْ لما أُرِقْتَ وسلت خارجها. وعندما

(1) **Inuocans te: en vous invoquant** = عند الابتهال إليك

(2) **Inuocem: vous invoquer** = الابتهال إليك

(3) **Inuocat te: (cette foi) vous invoque** = هذا الإيمان يبتهل إليك

(4) **Inuocabo: comment invoquerai – je mon Dieu?** = كيف أبتهل إلى الله

(5) **Inuocabo: comment invoquerai – je mon Dieu?** = كيف أبتهل إلى الله

(6) **Inuocabo eum: (quand) je l'invoquerai...** = عندما سأبتهل إليه

تُنثر علينا فأنت لا تسقط على الأرض بل ترفعنا، وأنت لا تتلاشى بل تجمعنا وتلملمنا.

ولكن كلّ ما تملؤه أتملؤه بذاتك كاملة؟ أم هل أن الأشياء، لما كانت لا تقدر أن تحتوي ذاتك كاملة، فهي لا تحتوي إلّا جزءا منك، وتحتوي جميع الأشياء الجزء نفسه؟ أم هل يحتوي كل شيء جزءا مناسبا له، أكبر الأجزاء جزءا أكبر، وأصغرها جزءا أصغر؟ هل لديك إذن جزء أكبر، وجزء أصغر؟ أم هل أنت كامل في كل مكان ولا شيء يحتويك بأكملك[1]؟

IV.4. ما تكون إذن، يا إلـهي؟ أسألك ما تكون، إن لم تكن مولاي إلـهي؟ إذ «من هو المولى سوى المولى؟ ومن هو الإله سوى إلـهنا؟».

يا رفيع الشأن، يا رحمان، يا قوي، يا قدير، يا رحيم، يا أعدل إله، يا شديد الخفاء يا شديد الحضور يا كثير الجمال والقوة، يا قارّا ولامحدودا، لا متغيّرا ومغيّرا كلّ شيء، لا تصيبك الجدة أبدا، ولا يدركك القِدم، مجدّدا كلّ شيء، «مُوصِلاً الْمُتَكَبِّرِينَ إلى التَّدَهْوُرِ وهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»، فاعلا على الدوام، ساكنا على الدوام، جامعا، مثريا عن غير حاجة، حاملا، مالئا، واقيًا، خالقًا، مغذّيًا، مكمّلا، تبحث، وإنْ لا شيء ينقصك! تحبّ ولا تفور، تغار وأنت هادئ، تتوب ولا تتألّم، تغضب وأنت وديع، تغيّر أعمالك ولا تغيّر مقاصدك، تسترجع ما تجده دون أن تكون قد فقدته، لست فقيرا أبدا فتفرح للأرباح، ولا بخيلا أبدا فتُلزم بالرّبا. يُعْطى إليك الأكثر حتى تكون مدينا، ومن يملك شيئا ليس لك؟ تفي بديون لست مدينا بها لأحد، وتسدّد الديون ولا تضيّع منها شيئا، وماذا قلنا، يا إلـهي، يا حياتي، يا عذوبتي المقدّسة، وماذا يمكن أن نقول عندما نتكلّم عنك؟ تبّا للصّامتين فيك، بما أن الثرثارين كانوا بُكْما.

V.5. من سيعطيني أن أجد السكينة فيك؟ من سيَهبُني أن تحلّ في قلبي وتُسْكِرهُ حتى أنسى شروري وأعانقك أنت، يا خيري الوحيد؟

ما أنت حيالي؟ اِرأفْ بي حتى أنطق. ما أنا نفسي حيالك حتى تأمرني أن أحبّك، وإن لم أفعل، حتى تغضب عليّ وتهدّدني بالويلات الكبرى؟ أليس بعض الويل في ألّا أحبّك؟ الويل لي! قل لي برحمتك، يا مولاي وإلـهي، ما أنت إليّ. قل لروحي: «إنّي أنا نجاتك». قل لي هكذا كي أسمعك. ها هو قلبي مصغٍ إليك، يا مولاي. اِفتحه وقل

(1) «هذه الاستدلالات الواردة في صورة تساؤلات ليست بالأمر النادر في الأقسام الفلسفية من الاعترافات. والقارئ لا يتحمّلها دائما دون تعب وعناء». نقلا عن الملاحظة عدد 2 بهامش الصفحة 4 من المرجع السابق.

لروحي : «إنّي أنا نجاتك». أريد أن أعدوَ وراء هذا الصوت وأقبض عليك. لا تُخْفِ عنّي وجهك : لأمتْ - حتى لا أموت - ولكن لأرَهُ!

6. ضيّقة هي دار روحي كي تدخل إليها، فلْتُوسّعْها أنت. هي متهدمة فرمّمها. بها ما يصدّ عينيك، أعلم ذلك وأقرّ به، ولكن من سيطهّرها؟ أم من سواك سأنادي قائلا : «طهّرْني، موْلايَ، من عُيوبي الخفيّة واحفظ خادمك من عيوب الآخرينَ»؟ أنا أومن، ولهذا أتكلّم. مولاي، أنت تعلم هذا. ألم أسرد لك ضدّ نفسي «خطاياي»، يا إلـهي، أولم «تعفُ عن كفْر قلبي؟ لا أنازعك الحكْم»، أنت الذي هو الحقّ، وأنا لا أريد أن أخطئ بنفسي، «حتى لا يكذب جَوْري ضد نفسه». نعم لا أنازعك الحكْم، لأنك «لوْ تَأمّلْتَ فِي جَوْرِنَا، مَوْلاَيَ، مَوْلاَيَ، فَمَنْ سيقدر على الاحتمال والصبر»؟

VI.7. ومع ذلك دعني أتكلم بحضرة رحمتك، أنا المخلوق من تراب ورماد، دعني أتكلّم، بما أنّي أتوجّه إلى رحمتك، ولا أكلم إنسانا قد يستهزئ بي. ولعلك أنت تستهزئ بي، ولكن لو التفتّ نحوي لرأفْتَ بي. إذ ما الذي أريد أن أقوله، مولاي، سوى أني لا أعلم من أين أتيتُ إلى هنا، أعني إلى هذه الحياة المائتة أو قل إلى هذا الموت الحيّ؟ لا أعلم من أين. لقد استقبلني عزاء رأفتك، كما سمعته من منجبَيْ جسدي، وقد بعثتني من أحدهما وسوّيتني في الآخر، كلّ شيء في إبّانه، لأني لا أتذكّره.

استقبلني إذن عزاء اللبن الإنسانيّ، لا أمّي ولا مرضعاتي كنّ يملأن به من أجل ذلك أثداءهن، بل أنت كنت بواسطتهن تعطيني غذاء الطفولة وفق مشروعك الذي يوزّع الثروات حتى على أضعف المخلوقات. أنت كنت تجعلني أيضا لا أرغب في أكثرَ ممّا كنتَ تعطيني، وتجعل مرضعاتي يردن إعطائي ما كنتَ تعطيهنّ: إذ كنّ بحنان سابق التدبير يُردْن إعطائي ما كنّ يفضْنَ به من فضلك. فكنّ يجدن كلّ الخير في ذلك الخير المتدفق إليّ منهنّ والذي لم يكن منهنّ بالذات بل بواسطتهنّ:لأنك لعمري مصدر كل خير، يا إلـهي، ومن إلـهي نجاتي قاطبة. فذاك ما تبيّنْته إثر ذلك، وأنت تناديني بما مننت به عليّ من الداخل والخارج. إذ كنت آنذاك أعرف الرّضاع والسكينة في الملاذ، أو البكاء لآلام الجسد، ولا أكثر.

8. ثم بدأتُ أضحكُ أيضا، في النوم أوّلا، ثم في اليقظة بعد ذلك. هذا ما قيل لي عن نفسي، وصدّقت، لأننا نرى هكذا الأطفال الآخرين؛ ولكوني لا أتذكّر من ماضيّ شيئا. وها أنّي كنت أدرك شيئا فشيئا أين كنت، وكنت أريد أن أبرز إرادتي لمن كانوا قادرين على إرضائها، ولم أكن أقْدر، لأنها كانت في الدّاخل، وكانوا هم في الخارج، ولم يكونوا قادرين بأيّة حاسة من حواسّهم أن يلجوا روحي. لذا كنت ألوّح بأطرافي

وصيحاتي وبهذا القدر القليل من الإشارات الشبيهة بإرادتي التي كنت أستطيع التعبير عنها بعض الشيء، لكنها لم تكن تعبر عنها بكامل الدِّقة[1]. وإذا ما لم أُطع، إما لأنهم لم يفهموني أو لكي لا يلحقوا بي بعض الأذى، كنت أسْخط على الكبار غير المطيعينَ لي والأحرار الرافضين خدمتي، وكنت أنتقم منهم بالبكاء. هكذا حال الأطفال الذين استطعت أن أدرسهم، فقد علّموني بصورة أوضح، ودون وعي منهم بذلك، عن شأني طفلا أكثر مما علّمَني إياه العارفون الذين قاموا على إطعامي.

9. ها هـي طفولتي قد ماتت منذ زمن بعيد وأنا حيّ. أما أنت، يا مولاي، أنت دائما حيّ ولا يموت فيك شيء، لأنك - قبل بداية الأزمان وقبل كل ما يمكن أن يعدّ أكثر قدما - موجود وإلـٰه كل ما خلقت ومولاه، فيك تستقرّ أسباب جميع الأشياء غير المستقرّة وتقطن الأصول الثابتة لجميع الأشياء المتغيّرة وتحيا العلل السرمدية لكل الأشياء الدنيوية وغير العاقلة. فقل لي، أنا المتضرّع إليك، يا إلـٰهي، والرحيم لعبدك الشقيّ، قل لي : هل إنّ طفولتي تَلَت جزءا من حياتي قد ولّى بعد، أم هل هو ذلك العمر الذي قضيته في أرحام أمّي؟ فقد حدثوني عنه بعض الحديث، ورأيت بنفسي نساء حوامل. لكن ماذا كنت قبل ذلك الزمان أيضا، يا عذوبتي، يا إلـٰهي؟ هل كنت في مكان ما أو شخصا ما؟ ليس لي من يقدر أن يخبرني، لا أبي استطاع ذلك ولا أمي ولا تجربة الآخرين ولا ذاكرتي. أتسخر منّي وأنا ألقي هذه الأسئلة، أوَتأمرني بتمجيدك وحمدك على ما أعرفه؟[2]

10. أمجّدك، يا مولى السماء والأرض، شاكرا لك بدايات حياتي وطفولتي. أنا لا أتذكّرهما : لكنك مكّنت الإنسان أن يحدسَ فيهما من غيره لنفسه، وأن يثق أيضا في شأن الكثير مما يخصّه في شهادات نسوة ساذجات. إذن كنتُ موجودا وكنتُ أحيا أيضا آنذاك وأبحث بعد في نهاية طفولتي عن إشارات أستطيع بها أن أجعل إحساساتي بيّنة للآخرين.

---

(1) «أغوستينوس نفسه يذكر في نهاية هذه الفقرة وفي الفقرة عدد 12 أنّ هذه الملاحظات البسيطة للغاية، والصائبة للغاية ملاحظات صيغت صياغة سريعة أولى، وأنه حدسها وتصوّرها اعتمادا على ملاحظة سلوكات الأطفال الصغار، ولا بدّ أنه كان هو نفسه واحدا مثلهم. لكنه لم يكن ليصوغها إلّا ليخرج منها بنتائج لاهوتية، لكونه كان مشدودا منذ ذلك العصر... بمسألة الخطيئة الأصلية»، نقلا عن الملاحظة عدد 1 بهامش الصفحة 7 من المرجع السابق.

(2) «مسألة أصل الروح أيضا من المسائل التي أقضّت مضجع أوغستينيوس. ولم يستطع أبدا، حتى في ذلك العهد، في آخر حياته... أن يجد لها حلاّ نهائيا». نقلا عن الملاحظة عدد 1 بهامش الصفحة 8 من نفس المرجع.

ممّن سواك، يا مولاي، يأتي مثل هذا الكائن الحي؟ ومن يكون صانع نفسه أو خالقها؟ أم هل هناك مَعين آخر منه ينسكب فينا الوجود والحياة سوى ذلك الذي خلقتنا منه، يا مولاي، أنت الذي ليس الوجود والحياة لديك شيئين مختلفين، لأن الوجود الأسمى والحياة الأسمى عندك سيان؟

فأنت الكائن الأسمى وأنت الصَّمَد لا يعرف التغيّر. لا يتمّ فيك يومنا الحاضر، ومع ذلك فهو فيك يتمّ، لأنك تسَع كلّ شيء : فلو لم تحْوِهِ أنت لما اهتدى إلى سبل العبور. وبما أن «أعوامكَ لا تنتهي»، فأعوامك هي يوم حاضر لا تعرف نهايته : وما أكثر أيامنا وما أكثر أيام آبائنا التي مرّت بيومك الحاضر هذا فتقبّلت منه مقاييسُها أكيافَ وجودها، وستمرّ بعدها أيام أخر وستتقبّل منه أيضا أكياف وجودها. أما أنت «فذاتك واحدة». ومن جميع أيام «غدًا» وما يليها ستصنع اليومَ الحاضر، ومن جميع أيام «أمس» وما سبقها صنعت اليوم الحاضر.

وما حيلتي، إن لم يفهمني أحد؟ فليفرح أيضا هذا القائل : «ما هذا السرّ يا تُرى»؟ ليفرح ولو لهذا، وليفضّل أن يجد دون أن يجد على ألّا يجدك وهو يجد. وليفضّلْ ألّا يجد ويجدُك على أن يجدَ ولا يجدُك.

11.VII. أصغ إليّ، يا إلـٰهي. وتبّا لخطايا البشر! يقول الإنسان هذا، وترأف به، لأنك أنت خلقته ولم تخلق الخطيئة فيه.

من يذكّرني بخطيئة طفولتي[1]، «بما أنه لا أحد منزّه عن الخطيئة أمامكَ، حتى الطفل الذي لم يعِش على وجه الأرض إلّا يوما واحدا»؟ من يذكّرني بها؟ قد يكون صبيّا، أيّا كان، ومهما بلغ من الصغر، فيه أرى ما لا أتذكّره عن نفسي؟

إذن ماذا كانت آنذاك خطيئتي؟ أكانت بكائي طلبا للثدي بكل شغف؟ فلو فعلت ذلك الآن وطلبت بنفس الشغف لا ثدي أمّي بل الطعام المناسب لسنّي، لاستُهْزِئ بي ولوُبّختُ بالحقّ أيّما توبيخ. فعلتُ إذن آنذاك ما يستحق التوبيخ، ولكن نظرا لعجزي عن فهم موبّخي، فلا العُرْفُ ولا العقل كانا يسمحان بتقويمي. وإن كنّا مع الكبَر نستأصل تلك العيوب ونرمي بها بعيدا؛ ولم أر أحدا يُلقي عن دراية ما هو حسن في

(1) «كان أوغستينوس في هذا الشأن مقتنعا بالفساد المتأصّل في الطبيعة البشرية التي نخرتها الخطيئة الأولى، مما جعله يقبل على ملاحظة يقظة الميول الشريرة حتى في أغوار نفس الطفل (infans): من سوْراتِ غضب جامحة وتهديدات حانقة سلاحها الدموع لاستعباد الكبار وحملهم على إتيان نزوات ضارةً أحيانا، إلخ،...»، نقلا عن الملاحظة عدد 1 بهامش الصفحتين 9 و10 من نفس المرجع.

الشيء الذي يريد أن يصلحه. وهل كان من الخير، ولو إلى لَأي، أن أطلب باكيا ما لو أعطيته لألحق بي الضرّ، وأن أسخطَ سخطا شديدا على قوم أحرار وأكبر مني سنّا لا يذعنون، وعلى أبويّ اللذيْن نشأت منهم، وعلى أناس آخرين كثيرين أحصف منيّ، عندما لا يطيعون أية إشارة من إرادتي، أضربهم وأحاول أن ألحق بهم كلّ الأذى، لعدم إذعانهم لأوامري رغم أنّ الإذعان لها كان يؤذيني؟

وهكذا فإنّ براءة الأطفال تكمن في ضعف أعضائهم أما أرواحهم فآثمة. رأيت مرة صبيّا حسودا وتمعّنت فيه: كان لا ينطق بعد، وكان شاحب اللّون، يحدّق بمرارة في أخيه من الرضاع. من يجهل ذلك؟

يُقالُ إنّ الأمّهات والمرضعات يكفّرن عن هذه العيوب بما لا أدري من الوسائل. اللهمّ أن تتمثل البراءة في أن ينساب اللبن بغزارة من منبع فيّاض، وأن ترى الطفل لا يطيق أن يوجد معه أخ في أشد الحاجة إلى القوت ولا قوام لحياته إلّا بذلك الغذاء. إلّا أنّنا نتحمل هذه العيوب بلطف، لا لأنها ليست عيوبا أو لأنها طفيفة، بل لأنها ستضمحلّ مع تقدم العمر. والدليل على هذا أنّ تلك العيوب عينها لا يمكن تحمّلها بنفس الدرجة من اللامبالاة متى صدرت عن امرئ أكبر سنا.

12. إذن، مولاي وإلـهي، أنت الذي وهبت الطفل الحياة ووهبته معها الجسد الذي جهّزته - كما نرى - بحواسّ وركّبته بأعضاء، وزيّنته ببنيته وأدخلت فيه من أجل كماله وسلامته كل غرائز الحياة، تأمرني أن أحمدكَ على هذا «وأن أُمجّدكَ وأن أُنشدَ لاسمكَ، أنت الأعلى»، لأنك طيّب وعلى كل شيء قدير، وإن فعلتَ هذا فقط، وهو ما لا يستطيع أحد آخر غيرك أن يفعله، أنت الأحد الذي منك تصدر كلّ المقاييس، أنت الصورة المثلى التي تصوّر كل شيء وتنظّم كل شيء طبقا لقانونك.

إذن فهذا العمر، يا مولاي، لا أتذكر أني عشته، ولا أثق فيه إلّا حسب شهادة الآخرين. حدَسْتُ كيف قضيته اعتمادا على ملاحظة غيري من الأطفال الصغار، ويشقّ عليّ أن أعدّه من حياتي هذه التي أحياها في هذا العهد. فهو في ظلمات نسياني شبيه بذلك العمر الذي عشته في أرحام أمي. فإن «حبلَتْ بي أمّي في الآثام» وإن «غَذَّتْنِي فِي أرْحَامِهَا فِي الأوْزَارِ»، فأين كنت؟ أتوسّل إليك، يا إلـهي، أخبرني أين كنت؟ يا مولاي، أنا خادمك، أين كنتُ غير آثم ومتى؟ ولكن ها أنا أهمل تلك الحقبة: فما الذي يَصِلُني بها بما أني لا أجد منها في نفسي أدنى أثر؟

VIII.13. ألم ينقلني هذا الجزء من العمر من الطفولة الأولى إلى الثانية؟ أو بالأحرى، هل حلّت فيّ الثانية وأخذت محلّ الأولى؟ فالأولى لم تذهب: ولو أنها

ذهبت فأين صارت الآن؟ ومع ذلك لم تعد موجودة. إذ لم أعُد ذلك الرضيع الذي لا يقدر على الكلام، بل صرت بعْدُ طفلًا قادرًا على ذلك. أذكر هذا وأذكر كيف تعلّمت الكلام، أدركت ذلك في زمن لاحق. لم يعلّمني ذلك أناس كبار مزوّدين إيّاي بالكلمات طبق نظام منهجيّ ثابت، كما علّموني الحروف بعد ذلك بقليل، بل تعلّمت أنا بنفسي اعتمادا على الذكاء الذي أعطيتنيه، أنت يا إلـٰهي، لما كنت أريد أن أُبرزَ إحساسات قلبي بنُواحي وبصيحاتي وبحركات أطرافي المختلفة، حتى يقع الامتثال لإرادتي، لم أكن قادرا على أن أبرِزَ كل ما كنت أريده لكل من كنت أريد. كنت أتناول الكلمات بالذاكرة[1]، لما كان القوم يسمّون شيئا ما وكانوا طبقا لذلك الصوت يحرّكون الجسم في اتجاه ذلك الشيء كنت أرى وأحفظ أن ذلك الشيء يسمّونه بذلك الصوت الذي يتلفّظون به عندما يريدون الإشارة إليه. ومن ناحية أخرى كنت أتبيّن أنّهم يريدون ذلك بناء على الإشارات بالجسم، وهي بمثابة الكلمات الطبيعية، لدى جميع الشعوب التي تصدر عن الوجه وعن رفّة الجفون وعن حركة بقية الأعضاء وعن دويّ الصوت وتُظهرُ انفعالات النفس في طلب الأشياء وإرادة امتلاكها أو رفضها والهروب منها. لذا فالكلمات الموضوعة في أماكنها الخاصة في مختلف الجمل والمسموعة بالتكرار كنت أستخلص منها تدريجيا الأشياء التي كانت تشير إليها وكنت أعلن بها عن إرادتي بفمٍ أصبح خبيرًا بنطق تلك العلامات.

وهكذا أفدت منْ كُنتُ بينهم بالعلامات الدّالّة على إرادتي وسرت إلى عمق الحياة الإنسانية المليئة بالزوابع تحت سلطة أبويّ وإمرة أناس أكبر منّي.

14.IX. يا إلـٰهي، يا إلـٰهي، كم عرفت هنا من الويلات ومن خيبات الأمل، بسبب ما كان يقدم للطفل الذي كنته، في تلك السنّ، على أنه الحياة المستقيمة « أن أمتثل للمربّين كي أتألّق في هذه الدنيا وأمتاز في فنون الثرثرة الخادمة للحظوة بين الناس وللثّروات الزائفة! ثم وُجّهتُ إلى المدرسة لأتعلم الحروف. كنت، أنا البائس، أجهل فائدتها، ومع ذلك، كنت أضرَبُ إذا تكاسلت في حفظها. وكان الكهول يحبذون ذلك، والكثيرون قبلنا عاشوا هذه الحياة البائسة وأعدّوا لنا السبل الشاقة التي كنّا، نحن بني آدم[2]، مُجبرينَ على العبور منها بعناء وبشقاء مضاعفين.

---

(1) «كلّ هذا التحليل لمظاهر الذكاء الأولى لدى الطفل جمّ الفائدة». نقلا عن الملاحظة عدد 1بهامش الصفحة 12 من نفس المرجع.

(2) «يلاحظ أوغستينوس (في كتاب «مدينة الإلـٰه» Cité de Dieu, XXI, XIV) أنّ العمل الذي يحمل الأطفال على القيام به عقابا لهم، أمر على قدر كبير من العناء يجعلهم أحيانا يفضّلون عناء العقاب المسلط عليهم على عناء الدراسة. فمن منّا لا يهاب أن يحيا حياة الطفولة مرّة أخرى =

ثم وجدنا، مولاي، أناسا يتضرّعون إليك، وعلمنا منهم - ونحن نفهمك على قدر طاقتنا - أن هناك أحدا عظيما كبيرا يستطيع، دون الظهور إلى حواسّنا، أن يسمعنا وأن يغيثنا. بدأت أتضرّع إليك طفلا، «يا ملاذي وملجئي»، وفي التوسّل إليك كنت أقطع قيود لساني وأتضرّع إليك أنا الطفل الصغير بورع كبير، حتّى لا أضربَ في المدرسة. وعندما كنتَ لا تستجيب لدعائي، وكان في ذلك خير لي، كان الكبار (وحتى والدَاي نفساهما اللّذان لم يكونا يريدان لي أيّ أذى) يضحكون من كدمات السوط، وهي آنذاك في نفسي أذًى وألم كبير.

15. مولاي، هل من قلب كبير يضمّك بهواه الشديد، هل من قلب - وقد يقود الحمق إلى مثل هذا أيضا - قلت « هل من قلب يكون قادرا على أن يضمّك إليه ويكتسب منك قوّة تجعله يحتقر منصبات التعذيب وأظفار الحديد وما أشبهها من وسائل التعذيب التي يُبتَهَلُ إليك في هلع كبير في كل أرجاء الدنيا للإفلات منها، ويحبّ أولئك الذين يخشونها أفظع خشية أن يضحكوا، كما كان والداي يضحكان من التعذيب الذي كان يُسلّطه المعلمون علينا ونحن صغار؟ إذ إمّا أنّنا لم نكن نخافها أقل منهم، أو لم نكن نتوسّل إليك أقل منهم للخلاص منها، ولكن كنّا آثمين ونحن نكتب أو نقرأ أو نفكّر في الدراسة أقلّ ممّا كان مطلوبا منّا.

لم تكن تنقصني، مولاي، الذاكرة ولا النباهة، فقد أردتَ برحمتك أن نملك منهما بسخاء في ذلك العمر، ولكني كنت أحب اللعب، وكان العقاب يأتي ممّن كانوا يفعلون مثلنا بالضبط. غير أن لعب الكهول يسمّى عملا، وعلى الرّغم من أنّ للأطفال مثله، فإنّ الكهول يعاقبونهم، ولا أحد يرأف بالأطفال ولا بالكهول ولا بكلا الفريقين. فهل يعقل أن يقبل حاكم نزيه أن أعاقب بالضرب لانصرافي، وأنا طفل، بسبب لعب كرة الراحيّة، عن الإقبال على أن أحفظ بسرعة دروسا سألعب بها كهلا لُعبة أبشع. أو أكان ذلك الرّجل بعينه، الذي كان يضربني، لو غلبه في مسألة تافهة زميل له في التدريس يفعل شيئا آخر أكثر من أن يتميّز من الغيظ والحقد أكثر منّي أنا لو تغلب عليّ في لعبة الرّاحيّة رفيقي في اللعب؟[1]

= ولا يفضّل الموت، لو أتيح له الاختيار». نقلا عن الملاحظة عدد 1 بهامش الصفحة 13 من نفس المرجع.

(1) «لم يعمد أوغستينوس، في الاعترافات، إلى مثل هذا الأسلوب الساخر إلّا في القليل النادر. لكنّه على حدّ تعبير «مونسو» MONCEAUX كان صاحبَ نكتة بارعًا. (انظر تاريخ الأدب في إفريقيا المسيحيّة، **Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne, VII, 269**). نقلا عن الملاحظة عدد 1 بهامش الصفحة 14 من نفس المرجع.

16.X. إلّا أنّي آثم، يا مولاي وإلـهي، يا منظّمَ كلّ الأشياء الطبيعية وخالقَها، أمّا الآثام فأنت منظمها فقط، مولاي وإلـهي، كنتُ آثما عندما كنت أعصي توصيّات أبويّ ومعلّمي، إذ كان بوسعي، في وقت لاحق، أن أُحسن استغلال المعارف التي كانوا يريدون أن أحفظها، مهما كانت وجهة نظرهم فيّ. لم أكن أخالف مشيئتهم طلبا لما هو أحسن، بل بسبب حبّ اللعب. كنت أحبّ في ألعاب المصارعة روعة الانتصار، وفي الأساطير والخرافات كانت الأخبار الكاذبة تدغدغ أذنيّ وتبعث فيهما شغفا أكبر، ويقوى الفضول اللاّمع في عينيّ كل يوم أكثر ويجرني إلى العُروض المسرحية المسلّية للكهول، وكان الذين ينظمون هذه العروض ينالون قدرا كبيرا من الحظوة يكاد يجعلهم جميعا يتمنّون لو أن أطفالهم يفعلون مثل ذلك، على أن ذلك لا يمنعهم أن يعاقبوا عن طيب خاطر أبناءهم لو عاقتهم مثل تلك العروض عن الدراسة التي قد تمكنهم في يوم من الأيام أن ينظموا عروضا مثلها (وآباؤهم يطمعون في ذلك).

انظر، يا مولاي، برأفة إلى هذه النقائص وحرّرنا منها،نحن المبتهلين إليك، وحرّر أيضا أولئك الذين لم يبتهلوا بعدُ إليك، حتى يبتهلوا إليك وتحرّرهم.

17.XI. عندما كنت صبيّا صغيرا، سمعتُ حديثا عن الحياة الأزليّة التي وعدَنا بها تواضع مولانا وإلـهنا الذي نزل إلى حدّ كبريائنا. وكانت قد رسمتْ فيّ إشارة صليبه، وفُوِّهْتُ بملحه وأنا خارج من رحم أمّي، أمي التي كان أملها فيك كبيرا.

أرأيتَ، يا مولاي، كيف أنّي، ذات يوم، أصبت بالحمى بسبب ضيق مفاجئ في المعدة، وكدت أموت وأنا ما زلت صبيّا، رأيتَ، يا إلـهي، ألم تكن حارسي بعدُ، بأيّ قلب متحمس وبأي إيمان التمستُ تعميد مسيحك، يا إلـهي ومولاي، التمسته من تُقى أمّي ومن الكنيسة الأمّ، أمّنا جميعا.

وكانت أمّي، أعني أمّي لحما ودما، مضطربة، لأنها ولدت أيضا بحبّ أكبر نجاتي الأبدية وقلبها طاهر في عقيدتك، لذا كانت تهتمّ بعدُ بأن ألقَن في أقرب وقت السر الشافيَ وأن أتطهّر وأنا معترف بك، مولاي اليسوع، للتكفير عن الذنوب، فإذا بكربي ينفرج بغتة. ولهذا أُرجأوا تطْهيري، كأنه كان ضروريا أن أنجّسَ من جديد وأنا أعود إلى الحياة، لأني، بلا شكّ، بعد حزن ذلك العماد لو وقعتُ في أوحال الذنوب، لكانت مسؤوليّتي أكبر وأخطر.

هكذا كنت مؤمنا بعدُ، وكانت أمّي وكلّ أهل الدّار مؤمنين، ما عدا أبي. ومع ذلك لم ينتصر أبي على حقّ تقى الأم فيّ، بحيث لا أومن بالمسيح، كما لم يكن هو يؤمن به

بعد. فهي كانت شديدة الرغبة في أن تكون أنت لي أبا، يا إلـهي، عوضا عنه، وفي هذا كنت تعينها على أن تتغلّب على بعلها الذي كانت تخضع له، وإن كانت أحسن منه، لأنها في ذلك أيضا كانت تخضع بالخصوص لمشيئتك أنت، لأنك تأمر في الحقيقة بمثل ذلك الخضوع.

18. قل لي، يا إلـهي، كم أودّ أن أعلم - إن كانت هذه مشيئتك أيضا - ما سبب إرجاء تعميدي آنذاك؟ ألخيري أطلقتُ لي، إن صحّ التعبير، أعنّة الآثام، أم هل أنها لم تطلق؟ ومن أين إذن يرنّ في أذني إلى حد الآن ومن كل صوب قول هذا أو ذاك : «دعه يفعل، فهو مازالَ غيْرَ مُعمّد». ومع ذلك لا يقال في نجاة الجسم : «اتْركهُ يجْرحُ نفسهُ أكثَرَ، فهو مازال غير مُعافى». لذا كم كان أحسن لي أن أعَافَى بسرعة وأن يُسخّر ذويّ حماسهم مع حماسي، كي تتحقق بإمرتك نجاة روحي بعد أن تكونَ قد وهبتني إياها.

نعم كان ذلك أحسن. ولكن ما أكثر أمواج النزغات التي كانت ترصدني بعد الطفولة، وكانت أمّي تعلم ذلك مسبّقا وتفضّل أن تقابلها بالتراب الذي كنت سأصوّر منه من بعدُ، عوضا عن الصورة المقدّسة التي كانت في حدّ ذاتها موجودة بعد[1].

XII.19. غير أني في تلك الطفولة التي كانوا يخافون عليّ منها أقل من المراهقة، لم أكن أحبّ الدراسة وكنت أمقت أن أرغَمَ عليها؛ ومع ذلك كانوا يرغمونني وحسنا فعلوا، لكني لم أفعل حسنا : فقد كنت لا أتعلم شيئا، إلّا إذا أُكرَهت عليه. فلا أحد يأتي خيرا إذا فعل ما فعل مجبرا، وإن كان ما فعله خيرا. والذين كانوا يُرغمونني لم يكونوا يفعلون خيرا، بل كان الخير صادرا لي عنك أنت، يا إلـهي. لقد كان القوم لا يرومون إلّا أن أربط ما كانوا يكرهونني على حفظه بإشباع الشهوات غير المُشبَعة لفاقة ثريّة وعزّ مُخز. أمّا أنت «الذِي (تَعْرِفُ) عَدَدَ شَعْرِنَا»، فقد كنتَ تستغلّ لفائدتي خطأ كل من كانوا يحثّونني على الدرس، وكنتَ من جهة أخرى تستغلّ خطيئتي، بإعراضي عن الدرس، لأنال ما أستحق من العقاب، أنا ذلك الصبيّ الصغير ومع ذلك الآثم الكبير. إذن فمِن الذين لا يفعلون حسنا كنت أنت تفعل بي حسنا، ومن ذاتي الآثمة نفسها كنتَ تجازيني بالقسطاس. فقد أمرتَ وهو الحقّ، أن تكون كل روح ضالّة عقابا وشرّا لنفسها.

---

(1) «المفتاح لفهم هذا الجزء يوجد في الكتاب الثالث عشر من الاعترافات (الفقرة، XII،13). فعندما أوّلَ أوغستينوس قصة الخلق في سفر التكوين حاملا إياها على التورية أقام تماهيا بين «الأرض» والإنسان الجسديّ؛ وقد تلقت تلك «الأرض» شكلها من التعاليم المقدسة التي تمنح الإنسان النور والروحانيّة». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 16 من المرجع السابق.

20.XIII. لأيّ سبب يا تُرى كنتُ أكره اللغة اليونانيّة التي لُقّنتها[1] طفلا صغيرا، ذلك لعمري إلى حد الآن لا يزال لديّ لغزا مغلقا. فقد كنتُ أحببتُ اللاّتينية، لا تلك التي يدرّسها المعلمون للصبيان، بل التي يدرّسها من يسمّوْن «النحويّين». ففي ما يخص تلك البدايات التي كنّا نتعلّم فيها القراءة والكتابة والحساب، لم أكن أجدها أقلّ عبءا ومشقة من كامل اللغة اليونانية. ولكن من أين كان هذا القرف إن لم يكن من الإثم ومن تفاهة الحياة التي «كنتُ بها جسما ونفَسا غاديا غير رائح»؟ مع ذلك، كان فضل تلك الدروس الأولى عليّ أكبر لأنها كانت أكثر نجاعة، فبها صرت قادرا على أن أقرأ أيّ مكتوبٍ يقع بين يديّ، وأن أكتب كل ما أريد، كان فضلها أكثر من فضل الأخرى التي كنت أُجبرُ فيها على أن أحفظ عن ظهر قلب تشرّدات أيْنياسَ (Aeneae) المجهول لديّ[2]، ناسيا أخطائي، وعلى أن أبكي موت ديدو (Didonem) التي قتلت نفسها من جرّاء الحبّ، في حين أنّني، أنا أشقى الناس، كنت قرير العين بأن أموت غرقا في هذه الحكايات بعيدا عنك، يا إلـٰهي، يا حياتي!

21. فمَن أشقى من شقيّ لا يرأف بنفسه ويبكي موت ديدو الذي كان بسبب حبّها لأينيَاسَ، عوض أن يبكي موته هو، الذي كان بسبب عدم حبّه لك، يا إلـٰهي، يا نورَ قلبي ورغيفَ فم روحي الداخليّ والقوّة المُخصبَة لعقلي ورحم فكري؟ لم أكن أحبّك و«كنتُ زانيا بعيدا عنكَ» وفي زنـايَ كان يرنّ من كل صوب: «مرحى! مرحَى!». لأن محبة هذا العالم هي زنـًى وانصراف عنكَ وخيانة لك؛ و«مرْحَى! مرْحَى» تُقال لتدفع إلى احترام الإنسان الذي يأبى أن يقع في مثل ذلك. ولم أكن أبكي هذا الفسْقَ بل كنت أبكي ديدو وهي «تلقى حتْفَهَا بحُسام قاطع»، وأتتبع أنا أسوأ ما في مخلوقاتك معرضا عنك، كالتراب يعود إلى التراب. ولو حرمت من قراءة ذلك لتألّمت من ألاّ أقرأ ما يؤلمني. والعجيب أن تُعتبرُ هذه الحماقات دراسة أشرف وأنفع من التي تعلّمت بها القراءة والكتابة!

---

(1) كانت له في الحقيقة عن اللغة اليونانية معرفة كافية تمكّنه من قراءتها وفهم ما يقرؤه مما كتب بها، والعديد من الإشارات تدلّ على ذلك. نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 17 من المرجع السابق.

(2) عبارة تدلّ على ضرب معيّن من الاحتقار سيُعيد أوغستينوس ذكره بشأن الكاتب "شيشرون» Ciséron (في الكتاب الثالث، الفقرة VI،7...) ونستطيع بالفعل أن نعتبر أنّه لم يوجد في القرون الأولى من عهد الإمبراطورية كتّاب مسيحيون كثيرون متفاوتو الصدق والحذق، لم يظهرْ عندهم أو لم يستقرّ عندهم عداء تجاه مختلف أشكال الثقافة الدنيويّة وتجاه كبار الرجال الذين كانوا عنوان فخارها». نقلاَ عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 18 من المرجع السابق.

22. لكن، ليناد إلـهي الآن في روحي، وليقل لي حقُّك: «ليسَ كذلك! ليس كذلك!» ذلك التعليم الأول أحسن بكثير. إذ ها أنذا أقرب إلى نسيان ترحال أَيْنيَاسَ على غير هدى وكل ما شابهه، منّي إلى نسيان القدرة على القراءة والكتابة. ومع ذلك فالستائر المسدلة على عتبات مدارس النحاة تدلّ على حَجب الحقيقة أكثر مما تدلّ على كشف الخطيئة. وليكفّ عن الصياح ضدّي من لم أعد أهابهم، بما أنّي أعترف لك بما تريده روحي، يا إلـهي، وأرتاح في ذمّ سيَري الخبيثة، لأحبّ مسالكك الطيّبة! ليكفّ عن الصياح ضدّي بائعو النحو أو مشتروه، لأني لو طرحت عليهم هذا السؤال: «أصحيح ما يقوله الشاعر من كون أَيْنيَاسَ جاء قديما إلى قرطاجة؟» لأجاب أقلهم علما أنهم يجهلون ذلك، أمّا أوسعهم علما فسيُنكرون أيضا أن يكون ذلك صحيحا، غير أنّي لو سألت كيف نكتب الاسم «أينياسَ» لأجابني كل الذين تعلّموه بالجواب الصحيح، طبقا للعهد والتواضع اللّذين رسّخ الناس بهما بينهم الأحرف التي نكتب بها ذلك الاسم. وكذلك لو سألت أيّ الأمرين أقرب إلى النسيان في هذه الحياة، القراءة والكتابة أم تلك الأوهام الشعرية، فمن لن يتكهّن بما سيجيب من لم يفقد تمام الصواب؟

كنت إذن آثما في صغري، لأني كنت أفضّل تلك التفاهات على الأشياء المفيدة، أو بالأحرى لأني كنت أكره هذه وأحب تلك. ثم أصبح ترديد «واحد وواحد اثنان، اثنان واثنان أربعة» بغيضا إلى نفسي، في حين أني كنتُ أستسيغ جدّا العُروض الوهميّة كالجواد الخشبيّ المملوء عساكر مسلّحين، وحريق طروادة وحتى فيْء كريُوزَة (Creusae) نفسها.

XIV.23. لِمَ كنت إذن أكره أيضا الأدب اليونانيّ[1] الذي يقصّ مثل هذه القصص؟ وقد كان هُوميروس[2] خبيرا في نسج مثل هذه الأساطير عذبا جدا في خفته وعبثه، إلّا أنّي في طفولتي كنت أجده ثقيلا مُرّا، وأظن أن الأطفال اليونانيّين أيضا يجدون ورْجيليُوسَ[3] (Vergilius) مرّا ثقيلا، عندما كانوا يرغمون على حفظه كما أرغمت

(1) «ما يسمّى ars grammatica أو litteratura أي الأدب كان يتمثل حسب "وارون" Warron في قراءة الشعراء والمؤرّخين والخطباء وشرح أعمالهم والتنبيه على أخطاء نصوصهم والتنويه بعبقريّة الأدباء...»، نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 19 من المرجع السابق.

(2) الشاعر اليوناني الكبير، الذي كتب الإيلياذة (L'Iliade) والأوديسيا (L'Odyssée)، وهما [ملحمتان] تتعلقان بحرب طروادة.

(3) الشاعر الملحميّ الرّومانيّ المشهور، الذي كتب الإينياذة (L'Enéide)، وهي ملحمة روما الكبرى، وقد عاش من س 71/ 70 إلى س 19 قبل الميلاد.

أنا على حفظ هُوميروس. وطبعا الصعوبة، نعم الصعوبة كانت أن أتعلّم تعلما جيدا لغة أجنبيّة كانت - إن صحّ التعبير - تضخّ بالمِرّة قصص جميع الأساطير اليونانية العذبة. وكنتُ لا أعرف منها كلمة واحدة، وكانوا - لأتعلمها - يهددونني بحدّة، بعقوبات فظيعة مهولة.

وكنت أيضا في القديم وأنا طفل، لا أعرف من اللاتينيةكلمة واحدة، ومع ذلك فقد تعلمتها بانتباه، دون خوف ولا ألم، بين ملامسات المرضعات ودعابات الضاحكين الملاعبين ومرحهم. قلت تعلّمتها دون ضغط الحاثّين لي عليها بالعقوبات، إذ كان قلبي وحده الحاثّ لي على إبراز أفكاري، وما كان ذاك ليكونَ لو لم أتعلّم بعض الكلمات لا من المعلّمين بل من الناطقين بها الذين كنتُ أنا كذلك أعرض على مسامعهم كل ما أحس به.

من هنا يتّضح بجلاء أن حبّ الاطلاع الحرّ في التعلّم أكثر نجاعة من هذا القسر المتسلح بالرعب[1]. ولكنّ هذا القسر يقيّد تدفّق حب الاطلاع، يا إلـٰهي، بدءا بسياط المعلمين ووصولا الى محن الشهداء، يقيدها بقوانينك القادرة على مزج المرارة بالنجاة والتي تعيدنا إليك، بعيدا عن الفتنة القاتلة التي بها انثنينا عنك.

24.XV. «أصْغ، يا مولاي، إلى دُعائي»، حتى لا تضعفَ روحي تحت توجيهك ولا أضعفَ وأنا أعترف برأفتك بي التي انتزعتني بها من كل سِيَري المغرقة في الخبث، حتى تكون أحْلى لي من كل الإغراءات التي كنتُ أتّبعها، وحتى أحبّك حبا جمّا وحتّى أقبّل يدك من جميع أعماقي، وحتى تنتزعني من كل نزغة حتى آخر أيامي. ها أنت، يا مولاي، «ومَلكي وإلـٰهي»، فلْيخدمْك كلّ شيء نافع حفظتُه صبيّا، ولْيخْدمْكَ ما أقول وأكتب وأقرأ وأعدّد، بما أني لمّا كنت أتعلّم أشياء تافهة، كنتَ أنتَ توجّهني، وفي هذه الأشياء التافهة غفرتَ لي خطايا لذّاتي، ففيها تعلّمت كثيرا من الكلمات النافعة؛ لكنه يمكن تعلّمها أيضا في الأشياء غير التافهة، وذلك هو الطريق الآمن الذي ينبغي أن يسلكه الصبيان.

25.XVI. ولكن تبّا لك، يا نهرَ الطبع الإنساني[2]! من سيصمد لك؟ حتى متى لن

---

(1) «مثل هذه الآراء التربوية ليست عديمة الفائدة». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 19 من المرجع السابق.

(2) «مأتى المعنى المجازي قد يكون قول **Juvénal**: «لم نر قطّ كريسبوس Crispus يتصلّب في وجه السيل = Jamais on ne vit Crispus se raidir contre le torrent» :Sat. IV, 89 نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 21 من المرجع السابق.

تجفّ؟ إلام ستدفع أبناء حوّاء إلى البحر الكبير المريع الذي يعبره بكدّ من قد يركبونه تحت الصليب؟ ألم أقرأ وأنا فيك عن جوبّيتر[1](Jupiter) المُزْعِد الزّاني؟ وعلى كل ما كان ليقدرَ على هذين الفعلَيْن معا، بل فعلَ ذلك بحيث يملك السلطان لمحاكاة زنىً حقيقيّ مستعينا بالرّعد الكاذب.

ومن تُرى من المعلّمين ذوي «البرانس» يسمع بأذن هادئة إنسانا من طينتهم يصيح ويقول: «ذاكَ ما كان هوميرُوس يتخيّلهُ وهو ينقُلُ العيوبَ الإنسانيّة إلى الآلهة، كم كنتُ أود أن ينقُلَ الخصال الإلـٰهيّة إلينا!». ولكن الأصحّ هو أن يُقالَ إنه لعمري كان يتخيّل ذلك، غير أنه كان ينسب خصال الآلهة إلى أناس فجّار، حتى لا يُعتبر فجورهم فجورا، وحتى يبدو أنّ من قد يقع فيه لم يُقلّد أناسا مُجّانا، بل آلهة السماء.

26 ومع ذلك،يا نهر جهنّم، يُلقى فيك أبناء الناس مع الرواتب، كي يتعلّموا ذلك، ويجري الحفل الكبير عندما يجري علنًا في الميدان، بمرأى من القوانين المانحة للمعلّمين أجرة، علاوة على الرّاتب، فتضربَ صخوركَ وتصيح قائلا: «هُنا تُتعلّمُ الكلمات، هنا تُتحصّل البلاغة اللازمة كل اللزوم للإقناع بالحُجَج ولبسْط الأفكار». أما كنّا إذن نعرف هذه الكلمات، «المطرَ الذّهبيّ والثّديَ والقناعَ ومعابدَ السماء» وكلمات أخرى مكتوبة في تلك المسرحيّة،

لو لم يصوّر تيرَنسيُوسُ[2] (Terentius) (الافريقيّ أو القرطاجيّ) شابًا عاهرا مقدّما لنفسه جوبّيتر تمثالا في الدّعارة، وهو يشاهد لوحة ما مرسومة على الحائط الذي «كانت تُوجد عليه الصورة المذكورة، طبقا لما يقُولونَ من كون جوبّيتر أمطر قديما صدْرَ دانئي (Danaae) بمطر من الذهب جُعل خدعة لزوجته»؟ وانظر كيف يحضّ نفسه على الفسق، وكأن الإلـٰه معلّمه:

«بل وأيّ إلـٰه! يقول، هو الذي يهزّ معابدَ السماء
بقَصْف أشدّ

وأنا الإنسان الصغيرُ الضعيفُ لن أقدرَ على أن أفعلَ ذلك؟ لا بل أنا فعلتُهُ وبكل سرور!»[3].

---

(1) يعني «يُبّتار» Jupiter إلـٰه الرعد.

(2) كاتب لاتينيّ، أصله من إفريقيا أي قرطاجة، كتب الكثير من المسرحيّات البورجوازيّة الهزليّة والجادّة، عاش من سنة 190/ 185؟ إلى سنة 159 قبل الميلاد.

(3) «يتعلق الأمر بمشهد من مشاهد «الخَصِيّ» حيث يقصّ كيريا Chaerea كيف دخل بيت البغيّ =

بهذه الدّناءة لا تُحفظُ البتّة، أجل البتّة، هذه الكلمات الحقيرة بأكثر سهولة، ولكن بتلك الكلمات تُرتكبُ بأكثر وقاحة هذه الدّناءة الحقيرة. لا أتهم الكلمات وهي بمثابة أوعية مختارة وثمينة، بل خمرة الضلال التي كان يسقينا منها أساتذة سُكارى، وإن لم نَشْربها، كنّا نُضربُ، ولم يكن يسمح لنا تحكيمُ قاض صاحٍ.

ومع ذلك، يا إلـٰهي، فأنت الذي بمَرآك أصبح تذكّري آمنًا، أنا تعلّمت هذا عن طيب خاطر واستمتعت به في شقائي، ولهذا كنتُ ألقّبُ بالطفل ذي الأمل الطيب.

27.XVII. دعني، يا إلـٰهي، أقول لك كلمة عن موهبتي أيضا، وهي من فضلك، وعن الحماقات التي كنت أستنفدها فيها! كان يُعرضُ عليّ عمل يحيّر روحي بما فيه الكفاية، إمّا بسبب الجائزة المعتبرة أو بسبب العار أو العقاب، فيُطلبُ منّي أن أسْردَ كلمات يونُو (Iunonis = Junon) الغاضبة المتأوّهة، لأنها «لا تستطيع أن تردّ عن إيطاليا ملك الطرْوَاديين»، وهي كلمات كنت علمتُ بالسماع أنّ يونُو لم تقلها. لكنّنا كنّا مجبرين على أن نهيمَ في متاهات هذه القصص الخياليّة الشعرية وأن نسرد نثرا شيئا مثلها كان الشاعر قد قاله شعرا[1]: وكان الأحقُّ بالثناء من يقدر أن يجعل الشخص الذي يصفه في منتهى الغضب والألم دون أن يُفقده هيبته، وأن يكسوَ تلك الأحاسيس بأنسب العبارات.

فيم كان ذلك ينفعني، يا حياتي الحقّ، يا إلـٰهي؟ وما فائدة ما كان يُصفّق له المصفقون عند إنشادي أمام الكثير من أترابي وزملائي في الدراسة؟ ألم يكن ذلك كله دخانا وريحا يا تُرى؟ وهلاّ كان عمل آخر يمكن لموهبتي ولساني أن يمارَسا فيه؟ مدائحك، يا مولاي، مدائحك في كتبك المقدّسة كانت تساند سرْع قلبي، فلا يُخطفَ بترّهات تافهة كفريسة منجّسة للطيور. إذ لا يُتقرّبُ بصورة واحدة إلى الملائكة المنتهكين للقدسيّة.

= «تايس» Thais متنكرا في زيّ خصيّ ليبوح بحبّه لإحدى الجواري التي فتنه جمال وجهها. فأوكلوا إليه أمر خدمة الجارية، ودفعت رؤية اللوحة أوغستينوس إلى اغتنام الفرصة». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 22 من المرجع السابق.

(1) «التمرين المدرسي الذي يشير إليه أغوستينوس أوصى به بإلحاح «كانتيليان» قبل ذلك الوقت بقرنين ونصف في كتابه **Institution Oratoire** المؤسسة الخطبية (X, V, 2). ولم يكن يريد أن تكون تلك الشروح مجرّد نسْخ بل كان يريد أن يكون فيها صراع ومنافسة حول نفس الآراء. وكان يقبل أن تتعلق بالنثر مثل تعلقها بالشعر. نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 23 من المرجع السابق.

XVIII.28. وما العجب إن كنت أنقاد هكذا للتفاهات وإن كنتُ، يا إلـٰهي، أذهب وأخرج بعيدا عنك. كان يُعرض عليّ تقليد أناس كانوا يرتبِكون إن لامهم لائم، عند حديثهم عن بعض أعمالهم الحسنة، على تعبير فيه عُجمة أو لحن؛ فإذا روَوْا فجورهم بألفاظ غزيرة لا تشوبها شائبة محكمة التركيب، عجيبة الترتيب، غرّهم الثناء.

تَرى هذا، يا مولاي، وتسكت «صبورا، رحيما، حقّا». هل ستسكت على الدوام؟ ها أنت الآن تنتزع من هذه الهاوية المذهلة روحي الباحثة عنك والمتعطّشة للذّاتك، روحي التي تقول لك: «بحثتُ عن وجهك؛ ولأبحثُ عنه مجددا، يا مولاي». إنّ الضياع في عالم الظلمات هو البعد عن وجهك، لكن الانصراف عنك أو الإقبال إليك لا يُقدَّر بالسير وقطع المسافات. اللاهمّ أن يكون ابنك الأصغر المشار إليه قد بحث «عن جِياد أو عربات أو سفن أو طار على جناحين مرئيين أو سار محرّكا ركبتيه»، حتى يعيش في بلد بعيد، مُسرفا مبذّرا المال الذي كنت أعطيته إياه عند الرحيل، أيها الأب اللطيف، والذي أعطيته إياه أيضا عند رجوعه معوزا، وأنت ألطفُ؟ إذن فالعيش في عالم الشهوة، هو العيش في عالم الظلمات وعالم الظلمات هو الابتعاد عن وجهك.

29. انظر، يامولاي وإلـٰهي، انظر كعادتك وبصبر، كيف يراعي بنو الإنسان بكلّ عناية ما اصطُلح عليه من الحروف والمقاطع الموروثة عن الناطقين الأوائل، وكيف يهملون المواثيق الأزلية للنجاة الأبدية المأخوذة من لدُنك؛ حتى أن من يَعرفُ تلك المبادئ القديمة في النطق بالأصوات أو يعلّمها يغضب الناس، إن هو نطق خلافا للقواعد النحويّة بكلمة **hominem** («إنسان» = **homme**)، بدون هَتّة في المقطع الأول، أكثر مما لو أنه خالف تعاليمك وكره أخاه الإنسان، مع كونه هو نفسه إنسانا. كما لو أنّ المرء عندما يعتبر أي إنسان عدوّا له يكون أكثر إيذاء من الكراهيّة عينها التي تضرمُ فيه ضدّه، أو كما لو أنك تُهلكُ بصورة أفظع من تلاحقه، أكثر مما تُهلكُ قلبكَ عينه وأنت تعاديه. وبالتأكيد ليس علمُ الآداب متجذرا في أعماقنا أكثر من تجذّر الضمير الذي نقش فيه ألّا نفعل بغيرنا ما لا نحبّ أن يُفعل بنا.

يا صاحب الأسرار، يا ساكن العلياء في الصمت، أيها الإلـٰهُ الأوحدُ الكبيرُ، الباذر بقانونك الذي لا يكلّ بذور العمى انتقاما من الشهوات المحرّمة، عندما يطمح إنسان إلى مجد البلاغة أمام إنسان قاض يحيط به حشد من الناس، فينقضّ على عدوّه بشراسة فظيعة جدّا، ويتحاشى بانتباه شديد أن يزلّ لسانه فيتفوّه بكلمتيْ «بينَ البشائر» (**inter omines**)، لكنه في جنون فكره لا يتحاشى أن يمحو إنسانا من بين الناس الأحياء.

30.XIX. كنت ملقى على عتبة هذه الطباع صبيّا شقيّا، وكان الصراع في هذه الحلبة يجعلني أخاف أكثر أن أقع في العُجْمة ممّا كنتُ أخاف - لو وقعت فيها - أن أحْسدَ من لا يقعون فيها.

أقول هذا، يا إلـهي، وأعترف لعزتك، بالنقائص التي كانت تجلب لي ثناء الذين كان إعجابهم بي في ذلك الوقت شرف حياتي. كنت لا أرى الهاوية الدنيئة التي «كنتُ رُميتُ فيها بعيدا عن عينيك».

فما كان أبغض عندك منّي لمّا كنتُ أغضب أمثال أولئك الرجال، خادعا المربّين والمعلّمين والوالديْن بأكاذيبي التي لا تُحصى وحبّي للّعب، وشغفي بمشاهدة هزليات جوفاء وتقليدها في هياج مسلّ؟ وكنت كذلك أختلس ما أختلس من بيت المؤن ومِن عَلى مائدة والديّ، إما لأن النهم كان يأمرني بهذا، أو لكي يكون لي ما أعطيه للأطفال مقابل ملاعبتهم لي، وكانوا على كلّ حال يستمتعون بها مثلي، لكنهم كانوا لا يمكنونني منها إلّا بمقابل.

وكثيرا ما كانت تغلبني رغبة تافهة في التفوّق فأعمد إذا غُلبت في اللّعب إلى الغشّ والتزييف. ومع ذلك إذا صادف شيء لا أريد تحمّله وكنت أشتكي منه لديهم أيّما شكوى، في حالة الوقوف على تلبس بالجريمة، كان ذلك بالذات ما كنت أفعله أنا للآخرين فإذا كنت أنا المتلبّس بها واشْتكى منيّ مشتك، كان يلذّ لي أكثر أن أقسوَ عليهم من أن أسلّم لهم بها.

أهذه هي براءة الأطفال المزعومة؟ كلاّ، يا مولاي، كلاّ، أتوسّل إليك، يا إلـهي، دعني أقول هذا. فأن يتعلق الأمر لدى المربّين والمعلّمين، بالجوز والكُرات والعصافير، أو أن يتعلّق لدى الولاة والملوك من بعد، بالذهب والإقطاعات والعبيد، فليس ثمّة بين الأمرين كبير فرق. فهذه هي تلك تماما. وتتعاقب حقبات العمر الحقبة تلو الحقبة، كما يعقُبُ عقابَ السياط الخفيفة عقابات أكبر أذى.

إذن فأنت، يا ملكَنا، مدَحْتَ رمز التّواضع في قامة الطفولة عندما قلتَ: «لمثل هؤلاء تكونُ مملكة السماوات».

31.XX. ولكن مع هذا، يا مولاي، الشكر لك أنت، يا رفيع المنزلة، يا أحسن خالق، يا ملك الكون، يا إلـهنا، ولو أردتَ لما تجاوزتُ الطفولة، إذ إنّي منذ ذاك الوقت كنتُ أوجد وكنتُ أعيش وأهتمّ بسلامتي، وهي أثر الوحدة الخفيّة التي أتيتُ منها. كنتُ أراقب بحسّي الداخليّ استقامة عمل حواسّي، وكنت في أفكاري الصغيرة ذاتها

الخاصة بأشياء صغيرة أتمتّع بالحقّ. لم أكن أريد الضلال، كانت ذاكرتي قويّة، كان التعبير فيّ جاهزا، كنت مفتونا بالصداقة، كنتُ أفرّ من الألم ومن السفالة ومن الجهل. ألم يكن هذا في حيّ مثلي مُدهشا ومحمودا؟ لكنّ جميع هذه الأشياء ليست من عندي بل هبات من إلـٰهي : هي هبات وهي كلها ذاتي. هو إذن طيّب من خلقني، وهو خيري بالذات وإليه أهلّلُ على كل الهبات التي كنت كائنا بها، ولو في الطفولة.

في هذا كنتُ آثما، كنت آثما لأنّي كنت أبحث لا عنده، بل عند مخلوقاته، في نفسي وعند الآخرين، عن اللذّات والرفعة، والحقائق، وكنت أندفع هكذا إلى الآلام، إلى الاضطرابات، إلى الأخطاء. شكرا لك، يا عذوبتي وشرفي وثقتي، يا إلـٰهي، شكرا لك على هباتك؛ ولكن صُنْها أنت لي. فهكذا ستصونني، وسيزداد ما أعطيتنيه ويكتملُ، وسأكون معك، بما أنّك أنت أعطيتني أيضا أن أكون.

الكتاب الثاني

1.I. أريد تذكّر دناءاتي السابقة وفساد روحي الجنسيّ، لا لكوني أحب ذلك، بل لكي أحبّك أنت، يا إلـهي. أفعل هذا حُبّا لحبّك، سالكا من جديد مسالك دعارتي القُصوى في مرارة تذكّري، لأتمتع بعذوبتك، يا عذوبتي غير الكاذبة، يا عذوبتي السعيدة الآمنة التي تلملم أشتات ذاتي بعد أن تناثرت فيه نفسي سدى، لمّا حِدتُ عنك وتلاشيت كلّ التلاشي. فقد اتقدتُ ذات يوم في مراهقتي شغفا بالملاذّ الجهنّمية وتجرّأت على أن أغرق في غرامات متنوّعة قاتمة، و«ذَبُلتْ نضارتي»، وأصابتني العفونة أمام عينيك، وأنا أروقُ لنفسي وأرغب أن أروق لأعين الناس.

2.II. ولم يكن يُبهجني إلّا أن أعْشَقَ وَأُعْشَقَ؟ لكني لم أكن أتبع القاعدة التي تصل القلوب بالقلوب، على قدر الحدّ النيّر للصداقة، بل كانت تتأرّجُ منّي أبخرة من شبقي الجنسي الوحِل ومن غليان البلوغ، وكانت تحجب قلبي بغمامة وتُظلمُه، حتى صار لا يميّز صفاء الحب من ظلمات الغُلْمة. كانا يضطرمان فيَّ مختلطيْن ويجرّان شبابي الضعيف عبْرَ هوى الشهوات، فكان يغوص بها في هاوية الرذائل.

انصبّ غضبك قويّا عليّ، وكنت أجهل ذلك. لقد أصبحت أصمّ لقرقعة سلاسل فنائي، عقابا لكبرياء روحي، فكنت أبتعد عنك أكثر، وكنتَ تدَعُني وشأني، وكنتُ أمور مُولعا بزنايَ، وكنتُ أصبّ فيه ما كان يفُورُ في جسدي، وكنتَ أنت صامتا.

يا لهُ من سرور جاء على أخرة! كنتَ آنذاك صامتا، وكنتُ أواصلُ الابتعاد عنك أكثر فأكثر بتلك البذور العقيمة التي لا تورث إلّا الآلام، متكبّرا في ذلّي وهواني، حيرانَ في كلالتي.

3. من الذي يُعدّلَ شقائي؟ ومن يُحوّل إلى منفعة تلك المفاتنَ العابرةَ التي يبعثها في نفسي كل شيء يجدّ؟ ومن يجد هدفا في العذوبة التي أجنيها منها، حتى تتدفّق

أمواجُ شبابي وهي تغلي وتفور - إن كان هدوؤها غير ممكن إلّا على هذا النحو - إلى شاطئ الزوجيّة وتبلغ غايتها في إنجاب الأولاد، كما يُحدّده قانونك. يا مولاي، أنت الذي خلقت ذريّتنا للموت، قادر أيضا بيد رحيمة على كسر أشواك لا تعرفها جنّتك[1] لأنّ قدرتك العظيمة ليست بعيدة عنّا، ولو كنّا بعيدين عنك. أو على كل كان عليّ أن أنتبه بأكثر يقظة للصوتِ النازل من سحبك: «ولكنْ سوفَ يَنَالُونَ مِحَنًا فِي أَجْسَامِهِمْ مِنْ هَذَا القَبِيلِ. أمَّا أنَا فأُجَنِّبُكمْ إيَّاهَا»، و«الخيرُ للإنسان ألّا يلمسَ امرأة»، و«أما من كان بلا زوجة فيفكّرُ في ما هو للإله وكيف يروقُ للإله؛ أمّا من كان مُرتبطا بالزّواج، فيُفكّرُ في ما هو للدنيا، وكيفَ يروقُ للزوجة». آه! لو أصغيتُ إلى هذه العبارات بأكثر يقظة! لو «تعمدت خصيَ نفسي في سبيل مملكة السماوات» وترقبت معانقتك وأنا في أشد السعادة!

4. ولكن كان غلياني على أشدّه، وجرفني عنف التيّار بعيدا عنك، وخرجت عن طاعة جميع ما سطّرت في قوانينك ولم أفلت من مَجالِدك: فمَن مِن فُناة البشر يقدر على الإفلات منها؟ إذ كنتَ دوما تُباشرني بقسوتك الرحيمة، صابّا مُرّ القرف على جميع مسرّاتي المحرّمة لتصرفني عنها إلى طلب مسرّات لا قرف فيها، ولو استطعت ذلك، لما وجدتُ ملجأ غيرك، يا مولاي، غيرك أنت الذي «تجعل في الألم معلّما ومربّيا» و«تَضْرِبُ لِتُدَاوِيَ» وتقتلنا حتى لا نموت بعيدا عنك.

تُرى، أين كنتُ، وكم كنتُ منفيّا مبعَدا عن نعيم دارك في تلك السنة السادسة عشرة من عمر جسمي، لما أخذ الصولجان فيّ وكنت أرزح تحت وزر جنون الغلمة التي كان الخزي البشريّ يبيحها، لكنّ قوانينك كانت تحرمها؟

لم يكن همّ أهلي أن يقاوموا جُموحي بالزواج، بل كان همّهم الوحيد أن أتعلّم كيف ألقي أحسن الخطب وأُقنع بإلقائي.

III.5. وفي تلك السنة مع ذلك قُطعت دراستي، أعادوني من مِدَوَّرُوشَ (Madauris)[2]، تلك المدينة القريبة التي كنت بدأت أقيم فيها بعدُ بغية تلقّن الأدب

---

(1) «يشير أوغستينوس بهذا إما إلى الحكم الذي أنزله «يحيى» Yahweh على آدم بعد ارتكابه الخطيئة، عندما قال له في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: «ستنبت الأرض الشوك وستأكل أعشاب الأرض...» وإما إلى وعْد عيسى: "يومَ القيامة ليس للرجال صواحب وليس للنساء بعولة..." نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 31 من المرجع السابق.

(2) مسقط رأس أبوليوس (Apuleius)، القصّاص المشهور، وصاحب «الحمار الذّهبي» (L'Ane d'or d'Apulée de Madaure)، عاش من س 125 إلى س 170 بعد الميلاد. وتوجد هذه =

والخطابة، إذ كان أبي يُعدّ لي النفقات لإقامة أطول بقرطاجة باسم طموحه، وكان طموحه أكبر من ثروته، لأنّه كان مواطنا متواضعا جدا من أهل مدينة تَاجَاسْتَه[1].

لمن أروي هذ الكلام؟ ليس لك، يا إلـهي، بل أرويه لبني جنسي، لطائفة من الجنس البشري، مهما كانت ضئيلة نسبة الذين قد يطّلعون على مكاتيبي هذه. ولم هذا؟ طبعا كي نفكّر، أنا ومن يقرأه، في عمق الهوّة التي يجبُ علينا أن نناديك منها. وما هو أقرب من أذنيْك، سوى توبة القلب وحياة الإيمان؟

فمن كان آنذاك لا يمدح أبي ويمجّده، لكونه يُنفق على ابنه فوق طاقته المالية، ويسدّد له كل ما يحتاجه في إقامته الدراسية البعيدة؟ إذ لم يكن كثير من المواطنين الأكثر ثراء منه ليضحّوا في سبيل أبنائهم بمثل ما كان يضحّي. ومع ذلك فإنّ هذا الأب نفسه لم يكن حريصا على أن يعرف مآلي بين يديك أو كم كان نصيبي من العفة، شريطة أن أكون فصيحا[2](disertus = disert) أو بالأحرى قفرا[3](désert) مُجرّدا من ثقافتك، يا إلـهي، أنت المولى الواحد الحق، والسيد الطيّب لخير حقلك، أي لخير قلبي.

6. ولكن في السنة السادسة عشرة المشار إليها وأثناء انقطاعي عن الدراسة الذي سبّبه ضيق ذات اليد الذي أصاب عائلتي وعندما أصبحت في حلّ من المدرسة، ولازمت بيت والديّ، في تلك السنة عَلَتْ رأسي أشواك الشهوات، ولم تقدر يد على اقتلاعها. أضف إلى ذلك أنّ أبي، لما رأى في الحمام علامات بلوغي الأولى ولبوس فتوّتي الحيرى فرح فرحا شديدا، كما لو أنه في القريب سيصبح جَدّا، وأخبر أمّي بذلك جذلان بهذه النشوة التي نسيك من أجلها هذا العالم البائس الذي خلقته أنت، وصرفه

= المدينة بمنطقة قسنطينا بالجزائر (نقلا عن معجم الأعلام le petit Robert). ونضيف نقلا عن "دي لابريول" ما ورد بالملاحظة عدد 1 من هامش الصفحة 24 : "تقع Madaura أو -Madau ri في بلاد نوميديا، على بعد 24 كلم من مدينة "تاغاست".وتعرف اليوم باسم "مداوروش"، و"تاغست" المدينة التابعة للولاية الرومانية هي اليوم مدينة "سوق أهراس".

(1) **Municipis Thagastensis** = **سوق أهراس بالجزائر**

(2) ضرب من التورية فيه حذلقة، يقوم على الجناس، ويبدو أنّ أوغستينوس مولع به.

(3) «تبرز اللغة الفرنسية هنا التورية... التي يمثل التناسب الصوتي في نظر اللاتينيين رونقها وجمالها. انظر بداية الكتاب الثالث (Cartago – sartago) وصفحة 185 في الهامش. نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 33 من المرجع السابق. وفي الصفحة 45 ترجمت العبارة اللاتينية: «**sartago flagitiosorum amorum**» إلى الفرنسية على النحو التالي: «la chaudière des hon-teuses amours qu'était la Carthage d'Augustin»... أي "وصلتُ إلى قرطاجة. كانت تدوّي حولي من كل جهة مراجل الغرام الشائن".

عن حبّك حبُّ مخلوقاتك،سكرانَ بإرادة لا ترى، منحرفة مائلة إلى ما هو دنيء.

ولكن في صدر أمّي كنت بدأت بعد تشيّد معبدك وتقيم أسس بيتك المقدّس : إذ إن أبي كان يطلب التّنصير، وكان ذلك منذ عهد قريب جدا، لهذا أخذ أمي الضِيقُ وخشية الورع، وخشيت عليّ، وإن لم أكن قد عرفتُ بعد طريق الإيمان، الطرقاتِ الملتوية التي يسير فيها أولئك الذين «يُوجِّهُونَ لَكَ الظَّهْرَ لاَ الْوَجْهَ».

7. واحسرتاه! كيف أجرؤ أن أقول إنك سكتَّ، يا إلـهي، بينما كنت أبتعد عنك أكثر؟ أكنتَ آنذاك بحق صامتا حيالي؟ لِمَنْ تلك الكلمات التي أنشدْتَها في أذنيّ عن طريق أمّي، خادمتك الوفيّة إن لم تكن لك؟ لم تعرف واحدة منها سبيلها إلى قلبي، حتى أعمل بما جاء فيها. كانت تلك أمّي، وأذكر كيف نصحتْني سرّا وبانشغال كبير ألّا أزنى وألّا أفعل ذلك بالخصوص مع زوجة أيّ كان.

كنت أقول : إنْ هي إلّا نصائح النساء. وكنتُ أخجل من العمل بها، والحال أنها كانت من لدنك. كنتُ أجهل ذلك. كنتُ أظنّ أنّك صامت وأنها هي التي تتكلّم، هي التي كنتَ تكلمني على لسانها، وفي شخصها أحتقرك أنا، أنا ابنها، «ابن خادمتكَ وخادمِكَ». ولكن كنتُ أجهل ذلك وأسيرُ إلى الهاوية في ضَلالة هي من الكبر، بحيث أنّي كنتُ بين أترابي أخجل، لكن خجلا أقل من خجلهم، لأنّي كنتُ أسمعهم يتباهون بأغوارهم ويزيد فخرهم بها كلّما زادت سَفالَة، وكان يلذّ لي فعلهم لا فقط بسبب لذّة الفعل بل وبسبب الزّهوِ أيضا. ما الذي يستحقّ الذمّ عدا الرّذيلة؟ ولدفع الذمّ أغرقت أكثر في الرذيلة، وحيث لم يكن يوجد جُرْم أضاهي به الفاسدين، كنتُ أدعي أنّي فعلتُ ما لم أفعلْ،حتّى لا أبدوَ أكثر حقارة بقدر ما كنت أكثر براءة، وحتّى لا أعدَّ أكثر لؤما بقدر ما كنت أكثر عفّة.

8. وها هُمُ الأصحابُ الذين كنتُ أجوب معهم ساحات «بابِلَ» وأتمرّغُ في وَحَلِهَا كما لو كنت أتمرّغ في الكافُور والعطور النفيسَة، وحتّى ألتصق به أكثر، كان العدوّ الخفيّ يَدوسني ويُغويني، لأنّني كنت غويّا. فهي التي كانت قد هربت «مِنْ وَسَطِ بَابِلَ» غير أنّها كانت تسير في ضواحيها بشيء من البطء وهي أمّ جسدي. ورغم أنّها نصحتني بالطهارة، لم تهتمّ نفس الاهتمام، بما سمعته من زوجها بشأني : مع كونها كانت تشعر بعد بضرورة حصر ذلك الطاعون الخطير عليّ مستقبلا في حدود العاطفة الزوجيّة، إن لم تكن تقدر أن تقطع دابره قطعا؛ لم يكن لها مثل هذا الشاغل، لأنها كانت تخشى أن يتعطل تحقيق أملي بسبب القيود الزوجيّة، لا ذلك الأمل في الحياة الأخروية الذي

كانت تضعه أمّي فيك، بل الأمل الذي كان أبواي يريدان بكلّ جوارحهما وبمقتضاه أن أتعلّم الآداب، أمّا أبي فلأنّه كان لا يكاد يفكّر فيك قطّ، وليس له بشأني سوى أفكار تافهة، وأمّا أمّي، فلأنها كانت تعتبر أن تلك الدراسات الثقافيّة المألوفة قد تكون لا فقط دون مضرّة، بل قد يكون فيها أيضا نوع من المعونة لي في الوصول إليك.

هكذا كنت أتصوّر في تذكّري، وبقدر ما تسعفني الذكرى، طبع والديَّ. كان العنانُ يُطلقُ لي للّعب في مجال أبعد ما يكون عن الصرامة المعتدلة، فكنت أنهارُ في شهوات شتّى فيها ضباب يحجب عنّي، يا إلـهي، صفاء الحقّ لديك، «لكأنّ جوْري يرشح من شحْمي».

IV.9. السرقة بالتّأكيد يعاقب عليها قانونك، يا مولاي، والقانون منقوش في قلوب البشر، لا يكاد الجوْرُ نفسه يمحوه: فمن السارق الذي يتحمّل أن يُسرقَ عن طيب خاطر؟ ولا ثريّ يتحمّل أن يسرقهُ من أرغمه العوْزُ. وأنا أردتُ أن أرتكب سرقة، ارتكبتها غير مدفوع بأيّة حاجة، بل بالنفور من العدل وبوفرة الجوْر، لأني سرقت ما كان يوجد عندي منه أكثر وأجود بكثير. لم أكن أريد أن أنعم بذلك الشيء الذي كنت أرغب في سرقته، بل بالسرقة ذاتها وبالإثم.

كانت توجد بالقرب من حقل كرومنا شجرةُ إجّاص مُثقلة بثمار ليس شكلها بالجذاب، ولا مذاقُها. قصدناها صبيانا أوغادا في الليل الدّامس لنرُجَّهَا ونُجرّدَها من ثمارها، قصدناها في ساعة متأخّرة من الليل بعد أن واصلنا لعبنا في الساحات حسب عادتنا الطاعونية، وجلبنا منها أثقالا كبيرة لا لولائمنا، بل لنلقي بها أمام الخنازير. وعلى كل، إن أكلنا شيئا منها، فقد كان ذلك لكون لذّتنا في تحريمه.

ها هو قلبي، يا إلـهي، ها هو قلبي الذي رَأفْتَ به في قعر الهاوية. ها هو قلبي، ليقل لك الآن ما كنت أطلب آنذاك: أن أكون ماكرا دون نفع، وأن لا يكون لمكري من سبب سوى طلب المكر. كان ذلك بشعا لكنّي أحببته؛ أحببتُ هلاكي وأحببتُ انحطاطي، لم أحبّ الشيء الذي كان سبب الانحطاط، بل أحببتُ انحطاطي عينَه، أنا الروحُ الدنسةُ التي اشترت هلاكها بالتفريط في سندك القويّ والتي لا تطلب بالخزي شيئا، بل تطلب الخزيَ ذاته.

V.10. ولا غرْو أنّ هناك سحرا في جميع الأشياء الجميلة، في الذهب والفضّة وغيرهما، ويرافق ملامسةَ البشرة انجذاب قويّ يطغى عليها، ولكل حاسة من الحواس هيئة خاصة تلائمها؛ للشرف الدنيويّ أيضا وللقدرة على القيادة وعلى الهيمنة

شأواهما :إذ عنهما تصدر كذلك الرغبة في الانتقام. ومع ذلك يمكن أن نظفر بجميع هذه الأطاييب دون الابتعادِ عنك، يا مولاي، ولا الحيادِ عن قانونك بالضرورة. وللحياة كما نحياها في الدنيا جاذبيّتُها بسبب مقدار ما فيها من الرونق والتناسب مع جميع تلك الأشياء الدنيوية الجميلة. والصداقة بين الناس أيضا عذبة لأنها تجعل، بالعقدة الغالية، من الأرواح العديدة روحا واحدة.

بسبب هذه الأطاييب ومثيلاتها قاطبة نطرق باب الإثم، عندما نتخلّى، بميل مُشطّ إلى هذه الأشياء الدنيا، عمّا هو أحسنُ منها وأسمى، نتخلّى عنك أنت، يا مولانا وإلـٰهنا، وعن حقّك وعن قانونُك. لتلك الأطاييب الدنيوية، هي أيضا، لذّاتُها، لكنها لا تضاهي لذات إلـٰهي الذي خلق الكون، لأن «الْعَادِلَ يُسَرّ فِي ذاته، وَهُوَ نعِيمُ ذَوِي الْقُلوبِ النَـزِيهَةِ».

11. لذلك، عندما نبحث عن السبب الذي من أجله اقتُرفت جريمة، فإنّنا لا نقتنع عادة، إلّا إذا تبينا أنّ السبب هو إمّا الرغبة في نيل إحدى تلك الأطاييب التي سميناها الدنيوية، وإما الخوف من فقدانها. فهي جميلة عجيبة، رغم أنها، بالمقارنة مع المزايا العليا المنعّمة، حقيرة خسيسة. يقتل قاتل إنسانا. ترى، لِم فعل ذلك؟ لأنّه هام بزوجته أو طمع في أملاكه أو أراد أن يسلبه مصدر رزقه الذي كان يعيش منه، أو خشي أن يفقد بسببه شيئا من هذا القبيل أو اضطرمت فيه نار الانتقام من إساءة. هل يمكن أن يكون قتل الإنسان دون سبب، ولمجرد الاستمتاع بالقتل؟ من يمكن أن يصدق ذلك؟ لقد نقلوا أنّة كان هناك إنسان معتوه وفي منتهى القسوة، وكان «حتّى بِلاَ سَبَبٍ يحبّ أن يكون أيضا شريرا فظّا»؛ إلّا أن المؤرّخ سلّوستيوس[1] وجد لذلك سببا، قال : «حتّى لا تَتَخَدَّر يَدُهُ أوْ نَفْسُهُ بتعطلهما». لمَ هذا أيضا؟ لمَ؟ لا بدّ أنّ ذلك كان ليتحصل بتلك الممارسة للجرائم، على السيطرة على روما، وعلى المجد والسلطة والثروة، وليتخلّص من خوف القوانين ومن صعوبات الأوضاع بسبب ضيق الذمّة المالية والشعور بعبء الجرائم. إذن فإنّ كاتلينا[2] ما أحَبّ جرائمه بالذّات، بل أحبّ بالخصوص شيئا آخر من أجله كان يرتكبها[3].

(1) المؤرّخ اللاتيني الذي كتب بالخصوص كتابا عن حرب يوغرطة (**Bellum Iugurthinum**). وقد عاش سالوستيوس **Sallustius** من سنة 7/ 86 إلى سنة 35 ق/ م.

(2) (**Catilina**)، من المتمرّدين على الجمهورية كان "شيشرون" قاومه هو وجماعته، في القرن الأوّل قبل الميلاد، وقد عاش الخطيب الكبير من 106 إلى 43 ق/ م، وهاجم كاتلينا في خطبة له في أربعة أجزاء، أمام مجلس الشيوخ والشعب الروماني، سنة 63 ق/ م، وضمّنها كتابيا بعد ثلاث سنوات (أي عام 60).

(3) «كان "سالوستيوس" **Sallustius** بين القرنين الثاني والخامس ميلاديا... من أهم الأدباء =

VI.12. ماذا أحببتُ فيكِ، أنا البائسُ، يا سرقتي، يا جرمي اللّيليّ في تلك السنة السادسة عشرة من عمري؟ أنتِ لم تكوني جميلة، بما أنّك كنتِ سرقة. هل أنتِ شيء حقيقي حتّى أتوجّه إليك هكذا بالخطاب؟ جميلة كانت تلك الغلال التي سرقناها، بما أنها مخلوقتك، يا أجمل كلّ الخلائق، يا خالق كلّ الكائنات، أنت الإلـه الطيّب، الإلـهُ الخبيرُ الأعظمُ وخيري الحقّ؛ جميلة كانت تلك الغلال، لكنّ روحي البائسة لم ترغب فيها بالذات، إذ كان لي منها ما هو أطيب وأكثر، أما تلك فقد جنيتها لأسرقها فحسب. فما كدت أجنيها حتى تخلّصت منها، ولم أغنم منها إلّا الإثم الذي كنت فرحا بالتمتّع به. فإن دخلت إلى فمي ثمرة من تلك الثمار، فلم يكن لها سوى طعم الإثم.

والآن، مولاي وإلـهي، أبحث عمّ أعجبني في السرقة. الجواب لا جمال لها بتاتا : لا أتحدث عن جمال العدالة والحكمة، ولا عن جمال ذكاء الإنسان وذاكرته وحواسّه وحياته الحيوانية، ولا عن جمال الكواكب ورونقِها في أماكنها وجمال الأرض والبحر المليئين بولْدان يخلف المولودون منهم الميّتين، ولا حتى هذا النوع من الجمال الناقص اللعوب الذي تخدعنا به العيوب.

13. وها إنّ الكبرياء يُقلّد السموَّ، رغم أنك أنت وحدك، يا إلـهي، أسمى من كلّ شيء[1]. وهل يبحث الطموح عن غير الأمجاد والفخر، رغم أنه يجب أن تُمجّدَ أنت وحدكَ أكثر من كلّ شيء وأنّ الفخرَ لك على الدوام؟ والمتجبّرون في طغيانهم يريدُون أن يُخشوْا : ولكن من يجب أن يُخشى غير الإلـه الواحد؟ ومن لا يمكن أن يُنتزع أو يُستلب جبروته؟ متى يمكن أن يحصل ذلك؟ وأين؟ وإلى أين؟ وممّن؟ الخُلعاءُ يطلبون الحب بالملامسات؛ ولكن لا شيء أحبُّ من محبّتك ولا حُبَّ مُنَجٍّ أكثر من حقّك الجميل النيّر أكثر من كلّ شيء. والفضول يبدُو متظاهرا بالحميّة العلميّة، لكنك أنت تعلم كلّ شيء علما تامّا. والجهل ذاته والبلاهة يتستّران وراء اسميْ البساطة والبراءة، لكن، لا يوجد شيء أبسط منك ولا أكثر براءة، لأنّ عدوّ الفاسدين إنما هي أفعالهم؟ وكأني بالكسل لا يتوق إلّا إلى الراحة : ولكن هل من راحة حقيقية بمعزل عن المولى

= الكلاسيكيين في المدارس الإفريقية. وقد ذكره أوغستينوس أكثر من مرّة بكثير من التقدير في كتابه "مدينة الإلـه" **la Cité de Dieu** نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 37 من المرجع السابق.

(1) «هذا التحليل اللطيف الذي يدق ويلطف للكشف عن هوّة من الانحرافات في زلل الطفولة يفضي به هنا إلى أن يبين أنه يوجد في كل ذنب يُقترف بَحْث أخرق عن الخيرات لا يمنحها إلّا الله ولا يمكن أن نظفر بها إلّا فيه»، نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 38 من المرجع السابق.

وبمنأى عنه؟ ويبغي الترف أن يُلقّبَ بالكفاية والوفرة، لكنك أنت الكمال والكثرة التي لا تنضب للعذوبة التي لا تفسد. والإسراف يتذرع بالسخاء : لكنّك أنت موزّع جميع الخيرات في بذخ وسخاء. ويريد البخل أن يملك كثيرا : لكنّك أنت تملك كلّ شيء. والحسد يتنافس من أجل الامتياز، وهل من شيء أكثر امتيازا منك؟ والغضب يبحث عن الانتقام؛ ومن ينتقم انتقاما أعدل من انتقامك؟ والخوف يخشى كثيرا الأشياء المفاجئة غير المعتادة التي تهدّد ما يحبّ، وهو يسهر على أمنه، فما اللامعتاد بالنسبة إليك وما المفاجئ؟ وما الذي يفصلك عمّا تحبّه؟ وأين الأمن الراسخ إن لم يكن بجوارك؟ والحزن يُمحق لفقدان ما كان جشعه يتمتع به، كان يريد أن يكون مثلك : ألّا يمكن أن يُنتزَعَ منه شيء.

14. هكذا تزنى الروح، عندما تحيد عنك وتبحث خارجك عمّا لا تجده صافيا نقيّا إلّا إذا عادت إليك. يقلّدك بالمعكوس كل الذين يبتعدون عنك ويقفون ضدّك. ولكن، على الرغم أيضا من تقليدهم هكذا لك، يُبرزُونَ أنك خالق الكون كلّه، ولهذا لا يمكن أن يبتعد عنك امرؤ بعدا حقيقيّا.

إذن ماذا أحببت أنا في تلك السرقة وفيم قلدتُ مولايَ وإن تقليدا خاطئا وبالمعكوس؟ هل راق لي أن أخالف قانونك بالمكر، لعجزي عن ذلك بالقوّة، هل قلدت، أنا العبد، حريّة مبتورة، فاعلا دونمَا عقاب شيئا محظورا، محاكيا كلية قدرتك محاكاة ضبابية؟ ها هو «ذَلِكَ العَبْدُ الهَارِبُ مِنْ مَوْلَاهُ والباحث عن الظِلِّ». يا للفساد، ويا للحياة المسيخَة ويا لهوّة الموت! هل أمكن أن يرُوقَ لي ما لم يكن مباحا، لا لسبب آخر غير أنه لم يكن مباحا؟

15.VII. «كَيْفَ أكَافِئُ الْمَوْلَى» على قدرة ذاكرتي على استعادة هذه الأشياء، دون أن تخشى منها روحي شيئا؟ فلأحبّكَ، يا مولاي، ولأحْمدكَ ولأعترفْ باسمك؛ بما أنك غفرتَ لي الكثير والكثير من أفعالي الإجراميّة السيّئة. أعْزُو إلى نعمتك وإلى رأفتك كونك أذبْتَ آثامي كالجليد. أعزو إلى نعمتك كل الشرور التي لم أقع فيها : فأيّ شرّ لا أقدر على ارتكابه، أنا الذي أحببتُ الجُرمَ حتّى دون سبب؟

وأعترف بكل ما غفرت لي من الأفعال السيّئة التي فعلتُها تلقائيا، والأفعال التي بفضل قيادتك لم أفعلها. من هو الإنسان الذي يجرؤ، وهو يفكّر في عاهته، على أن ينسب عفّته وبراءته لقواه الخاصة، فيحبّك أقل، كما لو كانت رحمتك أقل ضرورة له، رحمتك التي تعفو بها آثام من يتوجّه إليك؟

فالذي ناديتَه واستجاب لندائك واتّقى هذه العيوب التي يقرأها في ذكرياتي واعترافاتي عن نفسي ذاتها، أرجوه ألّا يسْخرَ من كوني شُفيتُ من مرضي بفضل ذلك الطبيب، الذي ضمِن له الوقاية من المرض، أو بالأحرى الذي ضمن له أن يمرض مرضا أقل من مرضي! ولذا فليحبّك على قدر ذلك، بل قل أكثر بكثير، لأنه بالذي يراني قد خُلّصت من السقام الشديد للآثام، به يجب أن يرى نفسه ذاتها قد خُلّصت منه.

16.VIII. يا لي من بائس! أيّة ثمرة جنيتها ذات يوم، من هذه الأفعال التي أستحي منها الآن وأنا أستعيدها، وبالخصوص تلك السرقة التي أحببت فيها السرقة عينها، لا غير؟ وإن لم تكن هي في حد ذاتها شيئا ذا بال، فإنّي كنت بهذا الشيء التافه بالذات أكثر بؤسا؟ ومع ذلك فما كنتُ وحدي قادرا على اقترافها - هكذا أتذكّر نفسي آنذاك - ما كنتُ وحدي لأقترفَها البتّة. فيها أحببْتُ إذن أيضا رفقة الذين اقترفتها معهم، إذن لا ريبَ أني لم أحبَّ شيئا غيرَ السرقة؛ أو بالأحرى لا شيء آخر غيرها، لأن ذلك أيضا هو لا شيء.

ما الذي حدث في الواقع؟ من يقدر أن يخبرني عدا الذي يُنيرُ قلبي ويُبدّدُ ظلماته؟ وما الذي دفعني إلى مثل هذا البحث والمناقشات والتأملات، بما أني لو كنت آنذاك أحبّ تلك الغلال التي سرقتها، ولو كنت أرغب في التمتّع بها، لاستطعت حتى بمفردي - لو كان ذلك كافيا - أن أرتكبَ ذلك العمل الجائر، حتى أبلغ به نشوتي المنشودة، دون أن أسعّرَ تأكّل رغبتي بالاحتكاك بنفوس شريكة؟ ولكن بما أن النشوة لم تكن لي في تلك الغلال فقد كانت في الجرم ذاته وفي رفقة صحبي في الإثم.

17.IX. كيف كانت دخيلتي آنذاك؟ لا شك أنها كانت مخزية جدا : والويل لي، عندما يكون أمري بيدها! ولكن كيف كانت؟ «من يفهَمُ الذّنُوبَ؟» كان الضحك للقلب بمثابة الدغدغة، حيث كنّا نخدع أولئك الذين لم يكونوا يقدّرون أنّنا كائدون لهم تلك المكائد، والذين كانوا يرفضونها بحدّة. لِمَ كان إذن يروق لي أنّي لم أكن أفعل ذلك بمفردي؟ ألأنّه لا أحدَ أيضا يضحك وحده بسهولة؟ صحيح أننا في هذه الحالة لا نضحك بسهولة. ومع ذلك، يحدث أيضا أن يغلب الضحك أناسا وحيدين، دون حضور أي شخص، لوْ عرض شيء مضحك جدّا للحواسّ أو للعقل. أما أنا فما كنت لأقترفها وحدي، ما كنت البتّة لأقترفها وحدي!

فهاك، يا إلـهي، حافظةَ روحي الحيّة مفتوحة بين يديك. ما كنت وحدي لأقترفَ تلك السرقة التي كان لا يروق لي فيها ما كنت أسرقه، بل كوني أسرقه : لو كنتُ بمفردي

لما راق لي ذلك قطّ ولما اقترفته. يا لها من صداقة العداوة القصوى! ويا لها من فتنة لامسبورة للفكر! ويا لها من رغبة في إلحاق الضرّ الصادرة عن حبّ اللعب والمزح وعن النهم في إيذاء الغير، دون أية متعة لي بربح، ولا بانتقام. لكن عندما يقول أحد: «لِنَذْهَبْ! ولْنفعَلْ!» أخجل من أن أكون خجولا!

18.X. من يقدر على حل هذه المشكلة المتشعّبة والمعقّدة للغاية؟ فهي نَجِسة؛ لا أريد أن أواجهها، لا أريد أن أراها. أريدك أنت، يا عَدْلُ، يا براءة، في جمالك ورونقك ونضارتك الرائعة التي تكسب المرء متعة لا يشبع منها. في القرب منك السلم العميق والحياة بلا اضطراب. من يدخلك «يَدْخُلُ فِي سُرُورِ مَوْلاَهُ»، ولن يخاف وسيسكن كأحسن ما يكون في أحسن ما يكون. لقد هجرتُك وابتعدت عنك. وتهتُ، يا إلهي، بعيدا جدّا عن استقرارك في فتوّتي، وأصبحت لنفسي «إِقْلِيمَ جَدْبٍ».

الكتاب الثالث

1.I. وصلتُ إلى قرطاجة. كانت تدوِّي حولي من كل جهة مراجل الغرام الشائن. لم أقع بعدُ في الحب، وكنت أحبّ أن أقع فيه. كنت في أشدّ الحاجة إلى ذلك، وكنتُ أكره أن أكون غير محتاج. كنت أبحث عمّا أُحِبُّ، مُحبًا أن أُحَبَّ. وكنت أكره الخُلوَّ من الهموم وأكره الطريق الممهدة بلا كمائن، لأن جوعي كان في أحشائي الخالية من قوتها الداخليّ، منك أنت بالذات، يا إلـهي. ولم أكن جوعانَ مثلَ هذا الجوع، بل كنت لا أتشهّى الأغذية غير الفاسدة، لا لأني كنتُ بها ملآنَ، بل بقدر ما كنتُ أزداد حرمانا منها، كنت أزداد تَقَزُّزا. ولذا لم تكن روحي صحيحة معافاة، بل كانت مُتقرّحَة، تنْقذفُ إلى الخارج، راغبة ببؤس في الاحتكاك بعدوى المحسوسات. لكن لو لم تكن لهذه المحسوسات روح، ما كنا لنحبها.

كان يحلو لي أكثر أن أُحِبَّ وأن أُحَبَّ، كلما تمتّعت بجسم المحبوب. إذن كنت ألوّث وريد الصداقة بأدناس الشبق وكنت أدنّس طهارتها بغيوم الغُلمة الجهنّمية، ومع ذلك، كنت حقيرا سافلا، كنت أتباهى بغرور فيّاض بكوني أنيقا كيّسا. وكنت فضلا عن ذلك أقع في الحبّ الذي كنت أودّ أن أقع في شركه. يا إلـهي، يا رحمتي، بأي مقدار من المِرّة نَضحْتَ تلك العذوبة، وكم كنت طيّبا؟ فقد نلتُ الحبَّ ووصلت خفيَة الى قيد اللذّة الجنسية، وكنتُ فرحا بارتباطي بعُقَد البؤس، إلى أن ضربتُ بالمقارع الحديدية المحرقة، مقارع الغيْرة والشكوك والخوف والغضب والمضاربات.

2.II. كانت تستهويني المشاهد المسرحية المليئة بصور تعاساتي وبدُقاق حطب ناري. تُرى، لمَ يريد هكذا الإنسان أن يتألّم هنا عندما يشاهدُ الأحزان والمآسيَ التي يرفض أن يتحملها هو نفسه؟ ومع ذلك يرغب في تحمّل الألم الذي يشعر به مُشاهِدا، وذاك الألم عينه هو نشوته. ما ذاك سوى غباء يثير الشفقة؟ إن كل شخص، بقدر ما يتأثّر أكثر بتلك المشاهد، يكون قد شُفيَ أقلّ من مثل تلك العواطف، ولو أن ما يتحمّله هو

بالذات يسمّى عادة بؤسا، أما ما يتعاطف فيه مع الآخرين، فيسمّى رأفة. ولكن في نهاية الأمر ما الرّأفةُ في الأشياء الخياليّة على الركح؟ فالمشاهد لا يُدعى ليُغِيثَ، بل يدعى فقط ليتألّم ويؤيّد مؤلف تلك العروض أكثر بقدر ما يتألم منها أكثر. وإن مُثّلت تلك المصائب الإنسانية، التاريخية القديمة أو الخيالية، دون أن يتألّم لها المشاهد، خرج هذا الأخير منها مزدريا وناقدا؛ أمّا إن تألّم، فيبقى منتبها ومسرورا.

3. إذن نُحبُّ الدموع والآلام، ولو أن كل إنسان يريد السرور. ولكن بما أنه لا يروق لأيّ كان أن يكون بائسا، بل يروق له أن يكون رؤوفا، لكنّ الرأفة لا تكون دون ألم، فهلاّ نُحبّ الآلامَ لهذا السبب الوحيد؟

وفي هذا وَريدُ الصداقة : ولكن أين يسير؟ وأين يصبّ؟ لمَ يصبّ في سيل القطران الفائر، وفي اضطرامات الشبق الكريه المظلم التي يتحوّل إليها وينصهر فيها بإرادته الخاصّة، بعد أن ينعطفَ وينحطّ عن الصحو السماوي؟ إذن هل سنُقصي الشفقة؟ كلاّ، فقد نحبّ الآلام أحيانا. ولكن احذري، يا روحي، الدّنسَ تحت سلطان إلـهي، إلـهِ آبائنا المحمود الممَجَّدِ كلّ التمجيد في كل القرون، احذري الدّنس.

وإلى حدّ الآن لستُ عديم الشفقة؛ لكني كنت في مشاهد السرور على خشبة المسرح، أشاطر العشّاق سرورهم، عندما يتعظ بعضهم من بعض بخُزْي، ولو أنهم كانوا يمثّلون تلك الأفعال الخياليّة على الركح. أمّا في مشاهد الفراق فكنت أشاطرهم الحزن مشفقا عليهم؛ غير أن كِلا الشعورين كانا يروقان لي أيضا. أمّا الآن فأنا أشفق على من هو مسرور في الخزي، أكثر من إشفاقي على من يتصوّر أنّه يعاني من آلام مبرّحة بسبب انتزاع اللذة الضارّة وفقدان السعادة البائسة. تلك لعمري هي الشفقة الحقّ، ولكن لا يُعجبني فيها الألم. إذ الذي يشفق على البائس، إنما يفعل ذلك من باب الإحسان، ومع ذلك فمِن الأفضل، إن كانت الشفقة صادقة، ألّا يوجد ما يسببها أصلا. فإن كان هناك عطف عدواني، وهو شيء لا معنى له ولا يمكن أن يكون، فقد يستطيع كذلك من يشفق شفقة صادقة حقّا، أن يرغب في وجود البؤساء، حتى يُشفق عليهم. ولهذا من الآلام ما قد يُقْبَلُ بل منها ما قد يُحَبّ. فهذا أنت، يا مولاي الإلـه، الذي يُحبُّ النفوس، تُشفق عليها بصورة أبعدَ وأرفع منها لدينا، وأكثر صلاحا وطُهرا، لأنك لا تُجرحُ بأي ألم. «ومَن مِن الناس يقدر على مثل هذه الأشيَاء؟»[1].

(1) «تشهد هذه الصفحات في الآن نفسه على شغف أوغستينوس بسبر أغوار النفس وعلى ازدهار النشاط المسرحي في قرطاجة في القرن الرابع. فقد كانت التراجيديا والكوميديا والمسرحيات =

4. أمّا أنا، البائس، فكنت آنذاك أحبّ الألم وأبحثُ عمّا يكون سببا ومدعاة له، عندما كان يعجبني أكثر، في نكبة غيري الخيالية البهلوانية، دور المُشعوذ الذي يستميلني بأكثر قوّة، بقدر ما كان يَستذرفُ دموعي. وما العجب في هذا؟ لو أنّي كنتُ النعجةَ التعسة الضالّة بعيدا عن قطيعك المشتاقة لحراستك والعفنةَ بداء الجرب المعيب؟ ومن هنا كان حبّي للآلام، لا تلك التي كانت تلجني أكثر إلى الأعماق - إذ لم أكن أحب التألم مما أجد متعة في مشاهدته - بل التي كنت أسمعها في الأساطير، وكأنّها تلامسُ بشرتي، والتي كان يتبعها مع ذلك، كما يقع في الحكّة بالأظافر، دُمّل متعفّن وصديد وقيح مُقزّز.

هكذا كانت حياتي : أكانت حقّا حياة، يا إلـٰهي؟

5.III. وكانت تحلّق حولي من فوق وعن بعد شفقتك الوفيّة. في أية أنواع الجور فسدتُ واتّبعتُ الفضول المُرجَّس، حتى قادني إلى هجرك وإلى الكفر البليغ بك والإذعان الخؤون للشياطين الذين «كُنْتُ أَقَدِّمُ لَهُمْ قَرَابِينَ» أفعالي السيّئة التي كنتَ بسببها تجلدني! بل تجرّأت، في قُدّاسك المهيب بين جدران كنيستك، أن أتشهّي غلال الموت وأتدبّر وسيلة للحصول عليها : لذلك ضربتَني بسياط العقاب الثقيلة، لكن لا بحسب زلّتي، أنت يا شفقتي الكبيرة جدا، يا إلـٰهي، وملجئي من المضارّ المهولة التي تهتُ فيها في زهو وكبرياء جعلاني أبتعد عنك، محبّا سبلي لا سبلَك، ومحبّا حريّتي، حرّية العبد الشارد.

6. كانت تلك الدراسات التي تسمى بالنبيلة تفتح الباب على خوض النزاعات في الساحة العمومية. لذا كان عليّ أن أتميّز في ذلك المجال الذي تقاس فيه براعة المرء بقدرته على الخداع والكذب. فعمَى البشر هو من العظمة، بحيث أنهم يتباهوْن أيضا بعماهم! كنت بعد في المرتبة الأولى في مدرسة الفصاحة، وكنت مسرورا بشموخ، منتفخا بكبرياء، رغم أنّ طبعي كما تعلم يا مولاي، أهدأ بكثير، وتام الانزواء عن الشغب الذي كان يثيره المُشَاغِبُونَ (chambardeurs» = euersores)«[1] - إذ إنّ

= القصيرة atellanes الهزلية والتمثيليات الإيمائية تشغل جميع العروض. انظر «أ. أودولان» .A Audollant, Carthage romaine, Paris, 1961, p. 682 – 687». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 47 48 من المرجع السابق..

(1) تأكيد ذو طابع أسلوبي فلسفي بشأن الجمع بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول في هذه الفقرة ذات الطابع الأخلاقي. ونلاحظ فيها ضربا من الجناس كما لاحظنا ذلك أعلاه. انظر الصفحة الموالية وبالخصوص الملاحظة عدد 2 بالهامش.

هذا الإسم النحس والشيطانيّ بمثابة سمة المهذّب - المُشَاغِبُونَ الذين كنتُ أعيش بينهم في حياء لا حياء فيه، بما أنّي لم أكن مثلهم : وكنتُ معهم وكنت أحيانا أستمتع بصحبة أولئك الذين كنتُ أشمئزّ دوما من أفعالهم، أعني من أنواع «شَغَبِهِمْ» التي كانوا ينصّبون بها بوقاحة على حشمة الأغرار، حتى يدحروهم في لعبهم دون سبب ويغذّوا منه فرحهم الميّال إلى إيذائهم. فلا شيء أشبه من ذلك العمل بأعمال الشياطين. إذن هل كانوا ليُسمّوا باسم أصحَّ من المُشَاغِبِينَ (euersores)[1]، بل قل بوضوح المُشَاغِبِينَ (chambardés» = euersi»[2]) هم الأوّلين والمُنْحَرِفينَ (pervertis = peruersi) الذين يسخر منهم ويُضلّهم سرّا الجَانُّ الخادعون لهم فِيَ ذات ما يحبّون هم أن يسخروا فيه من الآخرين وأن يخدعوهم؟

IV.7. بين أولئك كنت آنذاك، وأنا حدث، أتعلم كتب البلاغة، وكنت أرغب في الامتياز لغاية مذمومة جوفاء عبر مسار الزهو البشري، وكنت، حسب العادة المألوفة في نظام الدراسة، قد وصلت إلى كتاب خطيب يدعى شيشْرُونُ[3] (cuiusdam Ciceronis = un certain Cicéron)، كان جميع الناس تقريبا معجبين بلسانه، أما قلبه فتلك مسألة أخرى. وكان ذلك الكتاب يحث على الفلسفة، ويسمّى هُرْطُنْسيوسَ (Hortensius).

لقد غير ذلك الكتاب مشاعري وحوّل نحوك أنت بالذّات، مولاي، دعائي وأمنياتي

---

(1) «شهادة أوغستينوس على نفسه في هذا الفصل يؤكدها أحد أعدائه من الدوناتيين donatistes، هو فانساتيوس Vincentius أسقفُ مدينة كرتينا Cartenna، وكان قد عرفه طالبا. (انظر Epître X CIII 51)». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 48 من المرجع السابق.

(2) هو كاتب لاتيني كبير عُرف بآثار غزيرة خاصّة في فنون المحاماة السياسية والبلاغة والفلسفة، ورجل سياسة لمع نجمه في القرن الأوّل قبل الميلاد. أما هرطنسيوس Hortensius فهو خطيب عاش في ما بين سنتيْ 114 و50 ق/ م، وتميّز بغزارته ورونقه الآسياويّين (asiatisme)، كان محافظا ومناقضا بأسلوبه لشيشرون، ومهاجما له بدءا من عام 70 ق/ م. ولكنه أصبح صديقا له عام 63. وكتب شيشرون عام 45 ق/ م، (Hortensius) مؤلّفا يحثّ فيه الرّومان على الإقبال على دراسة الفلسفة اليونانيّة، واختار اسم زميله الحميم السالف الذكر لذلك الكتاب. انظر الصفحة 44 بالخصوص.

(3) إسم آخر يُعرَف به شيشرون الخطيب الشهير الآنف الذّكر، (M. Tullius Cicero)، وCicero يعني الحِمّص، وهي كـنية تغلّبت عـلى الإســم الأصليّ فلم يعد يذكر إلّا بها. ويقرأ الإسم الـلاتيني هكذا: Marcus Tullius Cicero أي (Tria Nomina) (بالأسماء الثلاثة)، وهي عند الرومان: (أ) الاسم Marcus، (ب) اللقب Tullius، (ج) الكنية Cicero.

وجعلَ رغباتي غير التي كانت. كل أمل تافه أصبح فجأة عديم القيمة، وكنت أرغب في الحكمة الأبديّة بحرارة في القلب لا تصدّق، وكنت أبدأ في الوقوف لأعود إليك. نعم، هذا الكتاب الذي أشتريه من مال أمي، وأنا في التاسعة عشرة من عمري، بعد سنتين من وفاة أبي، لم أقبل على قراءته إذن لصقل لغتي ولا لفصاحتي، بل ما كان يشدني إليه هو الأشياء التي قالتها الحكماء، لا كيف قيلت[1].

8. كم كنت أضطرم، يا إلـهي، كم كنت أضطرم لأحلّق من جديد نحوك بعيدا عن الأرض، ولم أكن أعرف ما أنت فاعل بي! «إذ الحكمة هي لديْكَ». أمّا حبّ الحكمة فله في اليونانية اسم الفلسفة، وبه كان يوقدني ذلك الأثر الأدبي. من الناس من يفسدون غيرهم بواسطة الفلسفة، يزينون أخطاءهم ويقنّعونها بالإسم الكبير الجذّاب الشريف. وتقريبا كل الذين كانوا في ذلك الزمان وفي الزمان الذي قبله والذين كانوا من هذا القبيل، أنبهم صاحب ذلك الكتاب وشهّر بهم، وفيه يتجلى ذلك التنبيه الشافي الصادر عن روحك بواسطة خادمك الطيب المقدس: «احْذَرُوا أنْ يَغُرَّكُمْ أحَدٌ بِالْفَلْسَفَةِ وَبِإِغْرَاءٍ تَافِهٍ طِبْقًا لِسُـنَّةِ الْبَشَرِ، طِبْقًا لأسْطُقُسَاتِ هَذَا العَالِمَ وَلاَ طِبْقًا لِلْمَسِيحِ، لأنَّ فِيهِ بِالذَّاتِ يَسْكُنُ جَسَدِيًا كُلُّ كَمَالِ الألُوهِيَّةِ».

وأنا في ذلك الوقت، كما تعلم، أنت يا نور قلبي، وإن لم تزل هذه الكلمات الحواريّة غير معروفة لديّ، كان ما يحرضني في ذلك الخطاب أنّه كان يثيرني ويؤجج نفسي ويحثني على أن أحبَّ، لا هذا المذهب أو ذلك، بل الحكمة عينها، أيّا كانت، وأن أبحثَ عنها وأن أحصّلها وأملكها وأضمّها إليّ بشدة،

ولكنّ شيئا واحدا كان يخفّف قليلا من هذا التأجُّجُ الشديد: وهو أنّ اسم المسيح لم يكن موجودا هنالك، ذلك الإسم «حَسَبَ رَحْمَتِكَ، يا مَوْلاَيَ»، وهو اسم مخلّصي واسم ابنك الذي كان قد شربه آنذاك قلبي برقّة وتُقى مع لبن أمّي ذاته، والذي كان يحفظه في الأعماق؛ وبدون هذا الإسم لا يقدر أي أثر أدبي، مهما بلغ ارتقى في درجات الأدب والفصاحة والصواب، أن يخلبني كليّا.

9.V. لذلك قرّرتُ أن أوجّه فكري إلى الكتب المقدّسة، وأن أرى كيف تكون. وها

---

(1) في وصفه الأكثر منهجيّة للمذهب المانوي أشار أوغستينوس إلى أنّ المانويين يعتبرون مؤسس مذهبهم "البراكليت" Paraclet أي الروح القدس المنتظر الذي وعد به المسيح في إنجيل القدّيس يوحنا (XIV, 16 et 26)». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 51 من المرجع السابق.

أنذا أرى شيئا لا يفهمه المتكبّرون ولا ينكشف للصبيان، شيئا منخفضا في المدخل ثمّ يرتفع شيئا فشيئا كلما تقدمنا؛ وفي كل الجهات حجب من الأسرار الخفيّة. لم أكن قادرا على أن ألجها أو أن أنحني لاتقدّم فيها. ولم يكن شعوري كما كان كلامي منذ قليل عن اهتمامي بذلك الأثر، ولكن بدا لي أنه غير جدير بأن أقارنه بمكانة تُلّيوسَ[1]. فكبريائي كان يحيد عن شكله وفطنتي لم تكن تخترقه في العمق. ولكن كان مع ذلك خليقا بأن ينمو مع الصغار، لكني كنت آنف من أن أكون صغيرا وأتظاهر منتفخا بزهوي بكوني كبيرا.

VI.10. إذن أصبحت فريسة لأناس وقعوا في قبضة هذيان الكِبْر، غاية في الجسديّة والثرثرة، أفواهُهم شرَكٌ شيطاني أو دبق هو خليط من مقاطع لفظية من اسمك واسمِ مولانا اليسوع المسيح (Paracleti = du Paraclet consolateur)[1] والمعزّي لنا «الرّوح القُدُس» (consolatori nostri spiritus sancti = L'Esprit Saint). هذه الأسماء كانت لا تغادر أفواههم، لكنها كانت مجرد أصوات ودويّ لألسنتهم؛ أمّا قلوبهم فكانت خالية من الحقّ. كانوا يردّدون : «الحقّ! الحقّ!»،كانوا يحدّثونني عنه كثيرا، وما كان يوجد منه في أي منهم، بل كانوا يقولون باطلا لا فيك فقط، أنت الذي هو الحقّ الحقيقيّ، بل وكذلك في أسطقسات عالمنا هذا، وهو من خلقك، وفي هذا أيضا اضطررت أن أتجاوز الفلاسفة، وإن قالوا صوابا، بسبب حبّك، أنت أيها الأب الخير الأعلى، وجمال كلّ الأشياء الجميلة.

أيها الحقّ، أيّها الحقّ، كم كان آنذاك نخاعُ روحي أيضا يتنهّد من الباطن نحوك، وهم يردّدون لي اسمك مرارا وتكرارا، اسمك الذي لم يكن سوى صوت مدوّ على شفاههم وفي كتبهم الضخمة الكثيرة! والمآكل التي كانوا يقدمونها لروحي الجوعى لك، كانت، عوضا عنك، الشمسَ والقمرَ، مخلوقيْك الجميليْن، لم تكن أنتَ بل أعمالك، ولم تكن حتّى أعمالك الأولى؛ لأنّ أعمالك الروحية مقدّمة على تلك المادّية، وإن كانت نيّرة سماويّة. أما أنا فلم أكن جائعا ولا عطشان لتلك المخلوقات المتقدمة، بل لك أنت بالذات، يا حقّ، أنت الذي لا يعتريك تقلّب ولا ظلّ أيّ تغيّر. وكانت تُقَدَّمُ لي آنذاك في

(1) في وصفه الأكثر منهجيّة للمذهب المانوي أشار أوغستينوس إلى أنّ المانويين يعتبرون مؤسس مذهبهم "البراكليت" Paraclet أي الروح القدس المنتظر الذي وعد به المسيح في إنجيل القدّيس يوحنا (XIV, 16 et 26)». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 51 من المرجع السابق.

تلك المآدب أوهام فخمة، والحال أنه قد كان من الأفضل أن أحب هذه الشمس الحقّ على الأقل لأعيننا، لا تلك الأباطيل الخادعة للفكر عن طريق الأعين. ومع ذلك كنت آكلها لأنّي كنت أخالها أنت، آكلها دون شراهة لعمري، لأني لم أكن أجد لك في فمي الطعم الموافق لك - فأنت لم تكن إحدى تلك الخرافات الباطلة - ولم أكن أتغذّى بها، بل كنت أُنهَكُ بها أكثر.

الطعام في الأحلام شبيه جدّا بطعام اليقظة، إلّا أن النائمين لا يقتاتون منه، فهم نائمون. وتلك المآدب لم يكن لها بك أي شبه، حسب ما قلت لي الآن، لأنها كانت أوهاما جسدية، أجساما باطلة، واليقين فيها أقل منه في هذه الأجسام الحقّ التي نراها رؤية العين، سواء كانت سماوية أو أرضية : نراها كالسوائم والطيور، لكنها حقيقيّة على نحو يختلف عن الصورة التي نتصورها عليها. وبالعكس فإننا عندما نقتصر على تصورها فقط نقترب من الحقيقة أكثر ممّا لو تكهّنا، بالقياس عليها، بأجسام أخرى أكبر ولانهائية، لا وجود لها البتّة. من مثل هذه التّرهات كنت آنذاك أغتذي فلا أتغذّى.

أما أنت، يا محبّتي التي أستند إليها في ضعفي، لأستمدّ منها قوّتي، فلستَ هذه الأجسام التي نراها ولو في السماء، ولا تلك التي لا نراها هنا، بما أنك أنت الذي خلقتها ولا تعتبرها ضمن أرفع مخلوقاتك. إذن كم أنت بعيد عن أوهامي تلك، أوهامي الخاصة بالأجسام، والتي لا تُوجد البتّة! أكثر يقينا منها هي تخيّلاتُ تلك الأجسام التي توجدُ، وأكثر يقينا من هذه الأخيرة هي الأجسام التي ليست مع ذلك أنت. ولكن لستَ أيضا الروحَ التي هي حياة الأجسام - بسبب كون حياة الأجسام أحسنَ وأكثرَ تأكّدا من الأجسام - بل أنت حياة الأرواح، وحياة كلّ حياة، تحيا بذاتك ولا تتغيّر، يا حياة روحي.

11. أين إذن كنتَ آنذاك بالنسبة إليّ وكم كنتَ بعيدا عنّي؟ بعيدا عنك كنتُ تائها محروما منك ومن بلّوط الخنازير التي كنت أغذّيها به. كم كانت أساطير النحويّين والشعراء أحسنَ من تلك المكائد! إذ الأبياتُ الشعرية وميدِيَا المحلّقةُ (**la Médée volante**) أصلحُ شأنا من الأسطقسات الخمسة التي انقلبت صورا مختلفة لمحاربة مغارات الظلام الخمس، تلك الأساطير التي لا وجود لها البتّة والتي تقتل المصدق بها. إذ إني كنت قادرا على أن أربح بأبيات الشعر أنواعا حقيقية من الطعام القدير[1]

(1) طرح دي لابريول **DE LABRIOLLE** السؤال التالي: «الطعام القدير؟ لا بدّ أنه يعني طعاما روحيا وغذاء للعقل». نقلا عن الملاحظة عدد 2 في هامش الصفحة 53 من المرجع السابق.

(pulmenta = aliment solide)؛ تغنّيتُ بـ«ميديّا» المحلّقة، لكني كنت لا أصدّق بذلك، أكثر مما أصدق بها عندما كنتُ أسمعهم يتغنّوْن بها. ولكنّي آمنت بتلك الترّهات الاخرى، تبّا لي، وتبْ! بتلك الدرجات نزلت إلى أعماق الجحيم، وكنت، في فورة نشاطي ولهاثي من فقدان الحقّ، أبحث عنك، يا إلـهي (إذ إني أقرُّ لك بذنوبي، أنت الذي أشفقتَ عليّ، وإن لم أعترف بها بعدُ) قلت أبحث عنك لا بقوّة الفكر العاقلة التي نتفوّق بها، حسب مشيئتك، على الحيوانات، بل حسبَ حاسّة الجسد. أما أنت فكنتَ أكثر باطنية من باطني وأرفع من أكثر ما فيَّ سموّا.

لاقيْتُ تلك المرأة الجريئة المجرّدة من الحكمة في لغز سليمان الجالسة على كرسيّ أمام باب بيتها وهي تقول: «كُلُوا مِنَ الخُبْزِ السِّرّيِّ بِلاَ تَرَدُّدٍ وَاشْرَبُوا المَاءَ العَذْبَ الْمُخْتَلَسَ». فأغرتني، لأنها وجدتني ساكنا خارجا عنك، وتحت نظر جسدي مجترّا في داخلي أمثال ما كنت التهمت من الأشياء بإيعازه.

12.VII. فقد كنت أجهل شيئا آخر، هو الموجود بحقّ، وكنت كأنّي أُدفَعُ بمِنْخَس للوقوف بجانب الكاذبين المجنونين، وهم يسألونني من أين يأتي الشرّ، وهل الإلـه تحدّه صورة جسدية، وهل له شعر وأظافر، وهل كان يجب أن نعتبر من أهل العدل من كانوا يجمعون بين عدّة زوجات، ومن كانوا يقتلون الناس، ومن كانوا يتقرّبون بالأضاحي. كنت مضطربا جدّا لجهلي الردّ على الأسئلة، وفيما أنا معرض عن الحقيقة كان يُخيّل إليّ أنّي أمشي نحوها، لأنّي لم أكن أعلم أن الشرّ ليس إلّا فقدانَ الخير إلى حدّ كونه ينعدمُ تماما[1]. ومن أين لي أن أراه، أنا الذي كانت رؤية العيْن عندي تقفُ عند الأجسام، ورؤية الفكر عند الأوهام؟

لم أكن أعرف أن الإلـه روح ليس لها أعضاء تُقاسُ طولا وعرضا، وليس لها كتلة، لأن الكتلة هي أصغر في الجزء منها في الكلّ، ولو كانت لانهائية، فهي أصغر في جزء محدّد بفضاء مضبوط منها في اللاّنهائيّ، وليست كلها في كل مكان كالرّوح وكالإلـه. وما هو فينا، والذي حسبه وُجدْنَا، ولِمَ قيلَ في الكتاب المقدّس إننا «عَلَى صُورَةِ الإِلآه» (ad imaginem dei = «à l'image de Dieu») جميع هذا كنت أجهله جهلا مطلقاً.

---

(1) «يعود أوغستينوس إلى مثل هذا التصوّر للشرّ عديد المرات في الاعترافات، وبالخصوص في الكتاب السابع الفقرة 18 ،XII وفي كتابه الاختيار الحر السابق للاعترافات ببضعة أعوام...«فقد كان يسعى، مع التلميذ الذي يتوجّه إليه، إلى أن يقطع نفس الطريق التي قطعها للتخلص من آرائه الخاطئة»، نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 54 من المرجع السابق.

13. ولم أكن أعرف العدل الداخلي الحق الذي لا يحكم طبقا للعادة بل طبقا للقانون العادل جدّا للإلـه الكلّيّ القدرة الذي كان منظّم أخلاق الأقاليم والأيام، حسب الأقاليم والأيّام، وإن كان هو هو في كل مكان وعلى الدوام، لا غيره في مكان آخر ولا غيره في زمان آخر، والذي عُدّ حسبَهُ من العادلين ابراهيمُ وإسحاق ويعقوب وموسى وداود وجميع أولئك الذين مدحهم الإلـه. ولكنّ الجهلة يعدّونهم ظالمين، الجهلة الذين يحكمون «طِبْقًا لِلْحُكْمِ الْبَشَرِيِّ» (ex humano die = à la mode d'un tribunal humain) ويقيسون عموم أخلاق الجنس البشري من زاوية أخلاقهم الخاصة، كما لو أن أحدا بلا خبرة بالشكّة وبكيفية ملاءمة لباس الحرب لأجزاء البدن، يريد أن يغطّي رأسه بالدرع وأن ينتعل الخوذةَ، ويتذمّر ألّا يتناسبَ هذا مع ذاك بالضبط؛ أو كما لو أن بعضهم، في وقت تغلق فيه المحاكم في ساعات ما بعد الظهر، يثور لكونه لا يرخّص له أن يعرض سلعه للبيع، بما أنه رُخّصَ له ذلك في الصباح؛ أو كما لو أنّ رجلا يرى في منزل بعضهم عبدا يقوم بعمل يدويّ لا يُسمحُ بالقيام به للذي يدير الكؤوس، أو شيئا ما يقع وراء الإسطبل، ويُمنعُ أمام الموائد، فيغتاظ لكون المسكن واحدا والعائلة واحدة، ومع ذلك لا تُسندُ نفس المهام إلى جميع الساكنين في نفس البيت.

هكذا هم أولئك الذين يغتاظون، عندما يعلمون أن شيئا ما كان في القرون الغابرة جائزا للعادلين، لكنه ليس جائزا لهم في هذا القرن، لكون الإلـه يوصي الأوّلين بهذه الوصيّة، والآخرين بتلك لأسباب ظرفية، بما أن كلا الفريقين يخدم نفس العدل. لكن هلاّ يرون أن في الإنسان الواحد وفي اليوم الواحد وفي نفس المسكن ما يليق بهذا العضو ولا يليق بالآخر، وأن ما كان جائزا في الزمان الغابر يُحظر بين عشيّة وضحاها، وأن شيئا ما يسمح به أو يُأمَرُ به في تلك الجهة، قد يُمنع ويُعاقَبُ عليه في هذا المكان القريب جداّ؟ هل العدل متقلّب متغيّر؟ لا بل الأزمنة التي يرعاها لا تمشي سويّا : إذ هي أزمنة. فالناس من جهة أخرى الذين تكون حياتهم على الأرض قصيرة، لأنهم لا يقدرون بالفكر على ربط أسباب الأشياء في القرون السابقة وعند الشعوب الأخرى التي لا خبرة لهم بها، بالتي خبروها، يستطيعون مع ذلك أن يروا بسهولة ما في نفس الجسم واليوم والمنزل يناسب ذلك العضو، في أي حين، وفي أية جهة، أو عند أي شخص. على هذا النحو تراهم يتصادمون في خصوص ما تباعد عنهم ويتقاربون بشأن ما قرب منهم.

14. أنا كنت أجهل آنذاك هذه الحقائق ولا ألحظها، وكانت تجلب من كل جهة عينيّ، وكنت لا أراها. وكنت أنشد الأشعـار ولم يكن يجوز لي وضعُ أيّ جزء اتفق في أي مكان اتفق، والبحور المختلفة تتطلب أجزاء مختلفة، ولا يجوز في موضع من

البيت ما يجوز في جميع المواضع منه؛ وفنّ العروض، الذي كنت أتغنّى وفقه، لم يكن له هنا قاعدة وهناك أخرى، بل هو كلٌّ شامل.

ولم أكن أرى مليّا كيف أنّ العدل الذي يخضع له الناس الأخيار والأتقياء، يجعل، بطريقه أرفع امتيازا وسُموّا، في صورة كلّ شامل جميع التعاليم التي يوصي بها، وذلك دون أن يتغيّر منها شيئا، ومع ذلك فهو لم يكن يوزّعه ويوصي به كلاّ شاملا في مختلف الحقبات، بل لكل واحدة شأن يخصّها. وفي عماي كنت ألوم آباءنا الورعين، لا فقط لأنهم كانوا يستعملون الحاضر كما كان الإله يأمرهم ويلهمهم به، بل أيضا لأنهم كانوا، كما كان الإله يوحي به، يُخبرونَ بالمستقبل مسبقا.

VIII.15. فهل هناك زمان أو مكان لا يكون العدل فيهما «حُبَّ الإله من كل القلب ومن كل الرّوح ومن كلّ الفكْر، وحُبَّ كلّ إنسان كما تُحبّ نفسَكَ»؟ لهذا لا بد للدناءات التي هي ضدّ الطبيعة، من أن تكره وتعاقب في كل مكان وعلى الدوام، كما كانت لدى اللّوطيّين. فلو فعلت ذلك كل الشعوب، لوقعت، بسبب التّهمة بنفس الجريمة، تحت طائلة القانون الإلـهي الذي لم يخلق الناس هكذا ليفعلوا بأنفسهم هذا الفعل. إذ تُخرَق لعمري الشراكة ذاتها التي يجب أن تكون بين الإلـه وبيننا، عندما تُنَجَّسُ الطبيعة عينها التي خلقها هو، بالانحراف الشهواني.

أما الدّناءات المنافية للأخلاق الإنسانية، فيجب أن تُجتنب طبقا لاختلاف العادات، حتى لا يُنتهك الميثاق المصادق عليه بين الناس طبقا لعادة أو قانون مدينة أو شعب ما، بحكم نزوة مواطن من أهلها أو أجنبي عنها. إذ لا يتلاءم كل جزء دنيء مع كله الشامل. ولكن عندما يأمر الإلـه بأمرٍ مضادّ للمألوف أو لأي ميثاق، فحتى إن أهمُل ولم يعمل به هناك قطّ فإنه يجب إعادتّه وإقامته من جديد، إن لم يكن قد أقيم بعدُ. إذ يجوز للملك، في المدينة التي يحكمها، أن يأمر أمرا لم يأمر به أحد قبله قطّ، ولا أمر به هو بالذّات؛ وطاعته ليس عملا موجها ضد مجتمع تلك المدينة، بل إنّ شقّ عصا الطاعة هو العمل ضد المجتمع، لأنّ الامتثال للملوك ميثاق عام للمجتمع الإنساني، ومن باب أولى وأحرى يجب الامتثال للإلـه، المالك لكل مخلوقاته، بدون تردّد في كل ما يأمر به! وفي خصوص سلطات المجتمع الإنساني، فكما أنّ السلطة الكبرى مولاّة على الصغرى كي تطيعها، كذلك الإلـه مولّى على الكل.

16. وكذا الحال في الجرائم التي تكون الشهوانية فيها إضرارا بالإيذاء أو بالعنف أو بكليهما، إما من أجل الانتقام، كانتقام العدو من العدوّ، أو من أجل الحصول على مال الغير، كقطع الطريق على المسافرين، أومن أجل تجنّب الشرّ، كالشخص المهاب،

أو من أجل الحسد، كالفقير تجاه الأكثر حظا، أو كالمحظوظ تجاه شخص يخشى أن يساويه أو يتألّم لكونه يساويه، أو من أجل مجرّد اللذّة بعذاب الآخرين، كالمتفرّجين على المصارعين (gladiatorum = combats de l'arène) أو المستهزئين أو المتلاعبين بالناس.

هذه رؤوس الجور التي تفرّخ بسرعة بسبب شهوانيات الهيمنة والاطلاع والإحساس، إما أحدها أو ثلاثتها، والعيش في الإثم مضاد للوصايا الثلاث والوصايا السبع، ومضادّ للسُنْطُورِ[1](psalterium) ذي الأوتار العشرة التي هي وصاياك العشر (decalogum tuum)[2]، يا إلـهي الأعلى الأعذب. ولكن أي الدناءات لها القوّة على أن تطالك، أنت الذي لا ينالك الفساد؟ أيّ الجرائم تقدر أن تلحق بك الأذى، أنت الذي لا يمكن أن تؤذى؟ ولكنك تعاقب ما يقترفه الناس ضدّ أنفسهم، لأنهم عندما يأثمون ضِدّ أنفسهم، إنما يفعلونَ ذلك دون تُقى ضدّ أرواحهم، و«يَكْذِبُ ضدَّ نَفْسِهِ» جورهم، إما بإفساد طبيعتهم التي خلقتَها ونظّمتها وتعكيرها، أو باستعمال الأشياء الجائزة استعمالا فاشا، أو بالتأجّج لما هو غير جائز، «لاِسْتِعْمَالٍ يَكُونُ ضِدَّ الطَبِيعَةِ»؛ أو يقعون تحت طائلة الاتهام، ساخطين بالفكر والقول ضدّك و«مُتمرّدين ضدّ مِنْخَسكَ»، أو بعد تحطيم حدود المجتمع الإنساني، يفرحون لالتئام عُصبِهِمْ المنفصلة، حسبما يعجب أو يزعج كلاّ منهم. وتجري هذه الأشياء، عندما يُتخلى عنك، أنت يُنبوعُ الحياة، أنت خالق الكون والمعدّل الوحيد الحق له، وعندما نُحبّ في كبرياء أناني، جزءا من الشيء محلّ الكلّ الكاذب.

لذلك نعود إليك بتقوى متواضعة، فتطهّرنا من الشرّ المألوف، وتكون حليما بالمعترفين بآثامهم، وتصغي لحسرات عبادك، وتفكّ عنّا القيود التي جعلناها لأنفسنا، شريطة ألّا نرفع ضدّك «قُرُونَ حُرِيَّةٍ كَاذِبَةٍ»، طامعين في أن نملك أكثر، ولو تهدّدنا فقدان الكلّ، أشدّ حبا لذاتنا منها لك، أنت الخير الكلّي.

17.IX. لكن بين الدّناءات والجرائم وكم من أنواع أخرى من الجور، هناك آثام أصحاب الرقيّ الذين يلومهم الحُصفاء وفق قانون الكمال ويشكرونهم وفق الإنتاج المؤمّل، كما يُؤمّلُ الحصاد من الخضرة. وهناك أنواع شبيهة بالدناءات أو بالجرائم، وليست بالآثام، لأنها لا تسيء إليك، مولانا وإلـهنا، ولا إلى الرابطة الاجتماعية، عندما

---

(1) آلة موسيقيّة وتريّة ذات عشرة أوتار

(2) الاسم الذي يطلق على الوصايا العشر الواردة في الإنجيل.

يتزوّد أحد بأشياء صالحة لضروريات الحياة والزّمان، ولا يُعرف هل كان ذلك رغبة في الامتلاك، أو عندما تعاقب سلطة منظّمة أناسا قصد تأديبهم، ولا يُعرفُ هل كان ذلك رغبة في إيذائهم.

لذلك فالكثير من الأفعال التي قد تبدو للنّاس واجبة الشجب، استُحسنتْ بشهادتك، والكثير من التي يمتدحها الناس استُنْكرتْ بشهادتك. ذلك أنّ ظاهر الفعل كثيرا ما يختلف عن طوية الفاعل وعن الظروف والأحوال الخفية الحافّة بها. لكنك عندما تأمر فجأة بأمر طارئ خارق للعادة، وإن كنت حرّمته سابقا، ومهما أخفيت أسباب أمرك به اعتبارا للظرف، ومهما كان هذا الأمر خارجا عن الميثاق الاجتماعي لبعض الناس، من يشكّ في ضرورة العمل به؟ فالمجتمع البشريّ العادل هو ذلك الذي يخدمك دون سواه. لكن ما أسعد الذين يعلمون أنك أمرتهم. فكل الأعمال الصادرة عن خدّامك تكون، إما للقيام بما هو ضروري للحاضر، أو للإنباء مسبّقا بما سيكون.

X.18. كنت في جهلي بهذه الأشياء أسخر من خدّامك المقدّسين ومن رسلك. وما كنت أفعل، عندما كنت أسخر منهم، سوى كوني جعلتك تسخر منّي، وأنا أنقاد شيئا فشيئا إلى هذه السخافات التي جعلتني أعتقد أن التينة، عندما تجنى، وأن الشجرة أمّها تبكيان بدموع من حليب؟ بيد أن تلك التينة لو أكلها قدّيس مانوي (manichaeus)[1]،وكان جنيها مع ذلك جرم غيره لا جرمه هو، لخلط منها في أحشائه ولَتَهَوَّع الملائكةَ، بل وذرّاتٍ من الإلـه في أنينه أثناء الدعاء وفي تجشّئه: تلك الذرات من الإلـه الأسمى الحقّ والتي كانت تُحبس في تلك الثمرة، لو لم تُفصَلْ عنها بأضراس القدّيس المختار (electi = Elu)[2]ومعدته. وكنت أعتقد، أنا البائس، أنّ الشفقة على منتوجات الأرض أفضل من الشفقة على الناس، الذين من أجلهم كانت تُخلق. فلو طلب منّي إمرؤ جائع ليس مانَويّا، لقمة يدفع بها الجوع، لبدى لي تمكينه منها يستوجب العقاب بالإعدام..

XI.19. وبسطتَ يدك من عليائك، ومن هذه الظلمات العميقة نزعت روحي، إذ كانت أمي، خادمتك المخلصة، تبكيني بين يديك، أكثر مما تبكي الأمهات دفن جثمان

---

(1) من أتباع ماني الفارسي ورأس المذهب المانوي. وواضح أنّ أوغستينوس يتهكّم هنا منهم في استعارة ترشيحية مطوّلة: انظر التّينة، خلط في أحشائه، تهوّع الملائكة، ذرّات من الإلـه، تجشئه بضرس ومعدة،

(2) «كانت الكنيسة المانوية تتكوّن من مريدين ومختارين. ومن بين المختارين كان هناك رئيس واثنا عشر سيدا واثنان وسبعون أسقفا يسوس أمرهم سيد وقساوسة يسير أمرَهم أسقف، ويوجد اخيرا الشماسون». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 60 من المرجع السابق.

أبنائهن. فقد كانت ترى موتي وفقا لروح عقيدتها التي أخذتْها عنك، واستجبتَ لها، يا مولاي، استجبتَ لها ولم تحتقر دموعها، وهي تتساقط من عينيها وتروي الأرض في كل أمكنة دعائها : استجبت لها. فمن أين أتتها تلك الرؤيا التي سلّيتها بها، حتى قبلتْ في النهاية العيش معي والجلوس إليّ على نفس المائدة في المنزل؟ وهو ما كانت ترفضه من قبل، لاعنة مستفظعة تجاديف ضلالي[1]، فقد رأت نفسها منتصبة على مسطرة خشبية (regula = règle)[2]، ورأت شابّا مقبلا نحوها، مشرقا جذلان ضاحكا لها، وإن كانت هي حزينة، بل مرهقة بالحزن. وبعد أن سألها عن أسباب أساها ودموعها اليومية، من أجل تعليمها – كما هو مألوف – لا التعلّم عنها، وبعد أن أجابته هي أنها تنتَحبُ لهلاكي، أمرها أن تطمئنَّ، وأوصاها أن تنتبهَ لترى أنّها حيثما كانت، أكون أنا أيضا هناك. وعندما انتبهت هي لذلك، رأتني منتصبا قريبا جدا منها على نفس المسطرة.

من أين ذلك، إن لم يكن من كونك موجّها سمعك إلى قلبها، يا أيها الطيّبُ القدير الساهرُ على كل واحد منّا، كما لو كنت تسْهَر عليه وحده، وكما لو كان السهر على الجميع، كالسهر على الفرد؟

20. من أين جاء ذلك؟ عندما قصّت عليّ قصة حلمها، حاولتُ أن أؤوّله تأويلا لا يجعلها تيأس من أن أكون في يوم من الأيام ما كنتُه آنذاك؛ لكنها قالت لي عنه فورا ودون أي تردد : «لاَ، لَمْ يَقُلْ لي : حَيْثُ يَكُونُ هوَ، تَكُونِينَ أَنْتِ أَيْضًا، بَلْ قال : حَيْثُ تَكُونِينَ أَنْتِ، يَكُونُ هُوَ أَيْضًا».

أعترف لك، يا مولاي، إن لم تخنّي الذاكرة، وقد قلت هذا مرارا عديدة، أنّي كنت أشدَّ تأثّرا آنذاك أيضا بردّك هذا على لسان أمّي اليقِظة، وبهدوئها وعدم اضطرابها عند تأويلي لرؤياها تأويلا قريبا جدا من الزّيف، وبالسرعة الفائقة التي رأت بها ما يجب أن تراه ولم أهتد أنا إلى أن أراه قبل أن تتكلّم، من تأثّري بالرّؤيا عينها التي أخبرتْ بها

---

(1) «حسب كتاب "الردّ على الأكاديميين" Contre les Académiciens II, II, 3 يبدو من المؤكد أنّ أوغستينوس عاش فترة في بلدة تاغست، Thagaste في بيت صديقه رومانيانوس Romanianus، إلى أن سمحت له مونيكا أمّه أن يستأنف الحياة عندها». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 61 من المرجع السابق.

(2) وَلّدت هذه الاستعارة عددا كبيرا من العبارات الكنسيّة من قبيل regula fidei أي مسطرة الإيمان وregula pietatis أي مسطرة التقوى وregula ueritatis مسطرة الحقّ وregula disciplinae أي مسطرة الآداب إلخ». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 61 من المرجع السابق.

مسبّقا قبل وقت طويل هذه المرأة التقيّة بالسرور الآتي إليها بعد وقت طويل جدّا، من أجل تسليتها من هموم حاضرها.

ذلك أنّه قد مضى ما يقارب تسع سنين، تمرّغت أنا خلالها في «ذَلِكَ الْوَحَلِ الْعَمِيقِ» وفي ظلمات الضلال، وكانت المحاولات المتتالية للخلاص تزيد من غرقي فيها، ومع ذلك كانت تلك الأرملة الطاهرة، التقيّة الزاهدة، كما تحبّ أنت أن تكون الأرامل - أي أكثر إقبالا على الأمل، لكن لا أشدّ تباطؤا عن البكاء والنحيب - لا تكفّ في كلّ ساعات دعائها عن الانتحاب بين يديك بسببي، وكانت دعواتها «يَصْعدْنَ إِلَى مَرْأَى مِنْكَ»، وكنتَ مع ذلك تتركني أتمرّغ وأتخبّط بعد في تلك الظلمة الحالكة.

21.XII. وأعطيتني مع ذلك جوابا آخر لا أزال أتذكّره الآن، لإنّي سكتّ عن أشياء كثيرة أيضا، بسبب كوني أعجّل للوصول إلى تلك التي تحثّني على الإقرار إليك، كما أنّني لا أتذكّر أشياء كثيرة أخرى.

إذن أعطيتني جوابا آخر عن طريق أسقف من أساقفتك، هو قسّيس، حضنته الكنيسةُ، وتدرّب على كتبك المقدّسة. ولما طلبت منه تلك المرأة الفاضلة أن يتفضّل بالحديث إليّ ويدحض أخطائي وتعليمي الإعراض عن الشرّ والتمسّك بالخير - إذ كان يقبل أن يفعل ذلك، مع الذين يرجى صلاحهم - رفض الرّجل، بحصافة تامّة، كما فهمته من بعد. أجابها أنّي كنت لا أزال عنيدا، وأني كنتُ منتفخا بتلك البدعة الحديثة، وأنّي كنت قد أزعجت بعدُ بكثير من المسائل الشائكة (**quaestiunculis = questions captieuses**) كثيرا من الجهلة، وهو ما كانت قد أخبرته به في شأني. قال: «وَلَكِنْ دَعِيهِ هُنَاكَ. ادْعِي لَهُ فَقَطْ الْمَوْلَى: سَوْفَ يَكْتَشِفُ بِقِرَاءَاتِهِ عَيْنِهَا، كَمْ فِيهَا مِنْ الخَطَإِ، وَكَمْ فِيهَا مِنْ الكُفْرِ». في نفس الوقت روى لها أيضا كيف عهد به هو كذلك صغيرا إلى المانويّينَ، فعلتْ ذلك أمّه المفتونة بهم، وأنه قرأ لا فقط جميع كتبهم تقريبا، بل إنّه كثيرا ما نسخها أيضا، وأنه ظهر له، دون أيّة مجادلة وبراهين، كم كان يجب الفرار من تلك الملّة، وأنه فرّ منها لذلك السبب. رغم أنه قال لها هذه الأشياء، لم ترد هي الاقتناع بها، بل أخذت تلحّ عليه أكثر، راجية منه ببكائها الغزير، أن يلاقيني ويتناقش معي، إلّا أنه قال لها بحدّة مشوبة بعدُ بالضجر: «اغْرُبِي عَنِّي،وَلْتَحْيَيْ، لأنَّهُ يُسْتَحِيلُ أنْ يَهْلَكَ ابنُ هَذِهِ الدُّمُوعِ!».

أما هي، فكثيرا ما كانت تردّد في محادثاتها معي، أنها تقبّلت هذه الكلمات، تماما كما لو كانت كلمات تدوّي من السماء.

الكتاب الرّابع

1.I. خلال فترة التّسع سنين تلك، من السنة التاسعة عشرة من عمري إلى غاية الثامنة والعشرين، كنّا نُغْرِي ونُغرَى، مضلَّلينَ ومُضلِّلينَ في الشهوات المختلفة، وعلانيّة عن طريق العلوم التي يسمّونها العلوم النبيلة، ولكنْ خفية بحجة الدين الكاذبة، كنّا هناك متكبّرين، وهنا خُرافيّين، وتافهين أيّا كنّا، كنّا من جهة نقتنص تفاهة الفخر الشعبي إلى حد نيل الاستحسان في المسرح والمباريات الشعريّة والمسابقات من أجل أكاليل من الجفيف وترّهات المشاهد المعروضة والمغالاة في الشهوانيّة، ولكن من جهة أخرى، كنّا نسعى إلى التّطهّر من هذه الأدران، حاملين لمن كانوا يلقّبون «بالمنتخَبين» و«المقدّسين»، الأغذية التي كانوا قد يصنعون بها لنا في مخبر معدتهم الملائكة والآلهة الذين سنُحرّرُ بواسطتهم. وذاك ما كنت أقتنص وأفعل مع أصحابي المغرورين بواسطتي وبمعيّتي.

وليسخرْ منّي المتعاظمون والذين لم تذلّهم بعد ولم تسحقهم لنجاتهم، يا إلـٰهي، غير أني أحبّ أنا أن أقرّ إليك بشناعاتي ليحمدك الناس. دعني أتضرّع إليك، واجعلني أجول بذاكرة ثابتة حول دوائر أخطائي الماضية، وأعقر لك «قُرْبَانَ التهليل». فما أنا لنفسي بدونك سوى دليل يسير نحو هوّة؛ وما أنا، عندما أكون طيّبا لنفسي، سوى راضع للَبَنِكَ، أو متمتّع بك، أنت الغذاء الذي لا يفسد. ما الإنسان، مهما يكنْ، بما أنه إنسان؟ ولكن ليسخر منّا الأقوياء والجبابرة، أما نحن، الضعفاءَ والمعوزين، فلتسمع اعترافاتنا!

2.II. كنت في تلك السنين أدرّسُ الخطابة، وكنت أبيع، وقد غلبتني الشهوانيّة على أمري، الثرثرةَ المنتصرة. غير أني كنت أفضّل، مولاي، كما تعلم، أن يكون لي تلاميذ طيّبون، أي الذين يسمّوْن «تلاميذ طيّبين»، ودون غش كنت أعلّمهم أنواع الغش، لا التي قد يستعملونها لهلاك بريء، بل التي يستعملونها أحيانا لإنقاذ حياة جان. ورأيتني، يا

إلـهي، من بعيد مترنّحا في مكانٍ زلق، ومعي صدقي المتلألئ في دخان كثيف، والذي كنت أبرزه في ذلك التدريس للمولعين بالتفاهة والطالبين للكذب وأنا رفيقهم فيه.

في تلك السنين كانت لي امرأة لم أتعرّف عليها فيما يسمّى الزواج الشرعيّ، ولكن جعلني أعثر عليها شوق متشرّد، خال من الحصافة، غير أنها مع ذلك الوحيدة التي حفظتُ لها أيضا وفائي في المضجع. كنت معها أختبر بحقّ، معتمدا على تجربتي، كم كان البون شاسعا بين صورة الزواج المقبول الذي ما كان ليُبرَمَ إلّا للإنجاب، وعقد الحب الشهواني الذي تنشأ منه أيضا سُلالة ضد الإرادة، ولو أنها بعد الولادة تجبرك على محبّتها.

3. أتذكّر أيضا، لما قرّرت المشاركة في منافسة الشعر المسرحي، أن أحد العرّافين كلّف شخصا بأن يسألني عن الأجر الذي كنت أريد أن أدفعه له، حتى أنتصر فيها، وأني أجبته بأني قد كرهتُ تلك الممارسات الشنيعة واستفظعتُها، وأنّي ما كنت لأقبل – ولو كان ذلك مقابل تاج ذهبيّ غير فان – أن تقتل ذبابة ثمنا لانتصاري. إذ كان يظهر أن ذلك العرّاف كان سيعقر أضاحيَ من الحيوانات، وأنه بتلك القرابين سيكسب لي أصوات الشياطين. ولكني لم أرفض هذا الشرّ أيضا اقتداء بطهرك، يا إلـه قلبي! إذ لم أكن أعرف كيف أحبك، أنا الذي لم أكن أعرف إلّا فكرة جمال الأجسام. فالرّوح التائقة لمثل هذه الأوهام أليست «زَانِيَةً بَعِيدًا عَنكَ»، و«وَاثِقَةً مِنَ الْبُهْتَانِ» و«مُتَغَذِّيَةً بالرِّيَاحِ»؟ لكن من البديهيّ أنّي ما كنت أريد أن تعقر الحيوانات للشياطين من أجلي، بما أني كنت بنفسي أعقر لهم روحي المولعة بالخرافات. فما «التَّغَذِّي بِالرِيَاحِ» سوى التغذّي بهم، أعني أن تكون في أخطائنا لذّتهم وسخريتهم؟

III.4. ولذلك لم أعدل عن سذاجة استشارتي لأولئك الدجّالين، الذين يسمّونهم المنجّمين، وكأني بهم ألّا أضحية لديهم ولا أيّة دعوات توجّه لمعبود ما من أجل الكهانة. إلّا أن ذاك ما ترفضه التقوى المسيحية الحقّ وتُدينه إدانة صحيحة.

إذ يحسن بي أن أقرّ إليك، يا مولاي، وأن أقول : «أشفقْ عليّ : اشفِ روحي، حيث كنتُ مذنبا تجاهكَ»، ولا نُبِحِ الإثمَ مستغلّين حلمك بإفراط، بل لنذكّرْ قول المولى : «هَا أنت أصبحتَ معافًى؛ فلاَ تُذنبْ من الآن، حتى لا يصيبكَ ما هو أسوأُ».

هذه الحصافة كلها هم يحاولون قتلها، عندما يقولون : «مِن السماء يأتي سببُ الإثم المحتوم» و«الربّة وِينُوسُ فعلتْ هذا أو فعلَه الإلـهُ سَاتُورنُوسُ، أو الإلـه مَارِسُ، بالطبع كي ينزّهوا الإنسان عن الذنوب، وهو لحم ودم وعفن ذو صلف، وكي يجعلوا

من جهة أخرى خالق السماء والكواكب ومسيّرَها هو المذنب. ومن عساه يكون إن لم تكنْ آنت إلـهنا، عذوبةَ العدل ومُنشئه، الذي تعيد «لِكُلّ واحِدٍ حَسَبَ آثَارِهِ»، ولا تزدري «القلبَ المنسحقَ الذليل»؟

5. كان في ذلك الزمن امرؤ أريب (uir sagax = homme de grand jugement)[1]، خبير جدّا بفنّ الطبّ ومشهور للغاية فيه، وكان قد وضع بيده ذلك التاج الخاص بالمنافسة على رأسي المريض، فعل ذلك بوصفه واليا[2] (proconsul) لا بوصفه طبيبا. إذ أنت مداوي ذلك المرض، لأنك «تتصدّى للمُتكبّرينَ، وتهب من جهة أخرى نعمتكَ للمتواضعينَ». ولكن هل تخلّيت أيضا عنّي في أي شيء ما لذلك الشيخ، أم هل امتنعت عن مداواة روحي؟

كنت مواظبا عليه، متعلّقا به تعلقا شديدا، لأنّي أصبحتُ أكثر معاشرة له ولخطبه - إذ كانت خطبا عذبة دون تكلف في اللفظ، وكان فكره الثاقب يجعلها رائقة، جمة الفوائد - وعندما عرف من محادثتي أني كنت مولعا بكتب الطوالع، عرض عليّ بلطف أبويّ، أن أُعرض عنها وألّا أنفق سدى على تلك التفاهات العناء والعمل الضروريين للأشياء المفيدة، قائلا إنه قد تعلّم أيضا تلك المواد، إذْ كان يريد في أولى سني عمره أن يتخذها مهنة يعيش منها، وبما أنه كان قد فهم هِيبُّوقرَاطِسَ[3] (= Hippocraten Hippocrate)، فهو يستطيع أيضا أن يفهم تلك المؤلفات : ومع ذلك فهو لم يعتنق الطبّ من بعد ما تخلى عن تلك الكتب إلّا لأنه اكتشف أنها افتراء محض، وأن المرء الوقُور لا يقبل الارتزاق بمخادعة الناس. وأضاف قائلا : «أمّا أنت فبما أنّك تملك الفصاحة التي تكسب بها رزقك بين الناس، فإنك تقبل على هذا البهتان بدافع الفضول، لا بدافع الحاجة المادّية. لذا عليك بالأحرى أن تصدّقني في ذلك الفن أنا الذي

---

(1) «لن يذكر أوغستينوس اسم هذا الرجل الأريب إلّا في موضع لاحق (VI, VI, 8). وهذا الأريب وو "فنديسيانوس" Vindicianus، كان طبيبا واسع الشهرة في عهد الإمبراطور "فالانتينيان" Va-lentinien الأول». نقلا عن الملاحظة عدد 1 في هامش الصفحة 69 من المرجع السابق.

(2) هو اللقب الرسميّ الذي كان يحمله "سالوست" Salluste في بلد إفريقيا Africa Noua سنة 46 ق م، وفي بلاد يوغرتا حيث استطاع أن يجمّع قدرا هاما من الوثائق الجمة الفائدة على حدّ قول Jean BAYET في كتابه "الأدب اللاتيني" ص 170 (Littérature Latine, , Collection U, chez A. COLIN, 1965, Paris). وتترجم Proconsul هنا بالوالي.

(3) «الطبيب اليوناني الشهير، من أطباء القرن الخامس ق.م». نقلا عن الملاحظة عدد 2 في هامش الصفحة 69 من المرجع السابق.

اجتهدتُ في تعلّمه على الوجه الأكمل، حتى أردت العيش منه فقط». وعندما سألته عن السبب الذي يجعل الكثير من التنبؤات فيه تصحّ وتصدق، أجاب هو، كما استطاع، بأن قوّة الصدفة الموزعة في كل أرجاء الطبيعة تفعل ذلك. فلو تأمّل متأمّل صدفة في صفحة من صفحات أي شاعر يتغنّى بموضوع مختلف اختلافا تاما ذي مشاغل بعيدة، لبرز بيت يناسب القضية مناسبة عجيبة. لذا ليس من العجيب، وفقا لغريزة عُليا، أن تعمد الروح البشرية، وهي تجهل ما يقع في صلبها بالاتفاق لا بالمنهج، إلى أن تُفصح بشيء ما يكون متآلفا مع أسباب السائل وأفعاله.

6. وذاك لعمري ما اهتممتَ لي به لدى ذلك الرجل أو بتوسّطه، وما كنتُ أطلبه بنفسي من بعدُ لمسيرتي الشخصية، خطّطته في ذاكرتي. أما آنذاك فلا هو ولا نِبْرِيدِيُوسُ الحميم جدّا عندي، الشاب الأحسن والأتقى، الساخر كليا بذلك الفن، فنّ التنجيم، استطاعا أن يُقنعاني بالتخلي عنه، حيث أن سلطة المؤلفيْن بالذات كانت تؤثّر فيّ أكثر منهما، ولم أكن قد وجدتُ بعد أيّةَ وثيقة ثابتة مهما كانت، كما كنت أبحث عنها، قد يتّضح لي بها دون لبس، أنّ ما يقوله المنجّمون المستشارون ويصدق، يقولونه من باب الصدفة أو الاتفاق، لا طبقا لفن رصد الكواكب.

7.IV. في تلك السنين وفي تلك الفترة الأولى التي كنت ابتدأت فيها التدريس في المدينة التي ولدتُ فيها كانت قد جمعتني زمالة الدراسة بصديق عزيز للغاية، له عمري ورائع مثلي في ريعان الفتوّة. كان قد نما معي طفلا، وكنّا قد ذهبنا سويا إلى المدرسة، ولعبنا سويّا، لكنه لم يكن بعدُ ذلك الصديق الذي أصبح لي في زمن لاحق. ولعمري حتى في الزمن اللاحق لم تكن صداقتنا الصداقة الحقّ، لأنه لا صداقة حقّ إلّا التي تعقدها أنت بين المرتبطين إليك بالمحبّة الموزّعة «في قلوبنا بتوسّط الروح القدس، الذي وُهِب لنا». غير أنها مع ذلك كانت عذبة جدّا، حامية بحرارة ذوقينا المتماثلين. وكنت قد حوّلته عن العقيدة الحقّ التي لم تكن مراهقته تشده إليها شدّا، إلى الأساطير والخرافات المفسدة التي كانت أمّي بسببها تنتحب عليّ. لقد كان فكر ذلك الرجل يسير رفقة روحي في الضلال، لم تكن وروحي تتحمّل التخلّي عنه. وها أنت المهدّدُ لظهور الفارّين منك، يا إلـه كلّ ثأرٍ ومنبع الشفقات معا، أنت الذي تديرنا نحوك بصور عجيبة، ها أنت حذفتَ الإنسان من هذه الحياة، وإن قضى أقلّ من الحول في صداقتي العذبة إليّ أكثر من كل عذوبات تلك الفترة من حياتي.

8. من الذي يحصي وحده في ذاته وحدها مدائحك التي جرّبها؟ ما فعلتَ آنذاك،

يا إلـهي، وكم هي لجج أحكامك غير المسبورة؟ بينما كان ذلك الصديق متعبا طريح الحمّى، اضطجع طويلا بلا شعور في عرق الموت، وبما أنه كان ميؤوسا منه، تعمَّدَ في الغيبوبة (nesciens = à son insu)[1]، ولم أكن منشغلا بذلك، بل كنتُ أحسب أنّ روحه تحتفظ بالأحرى بما كانت قد تقبّلته منّي، لا بما كان قد وقع فوق جسد غير واع. لكنّ الأمر كان مختلفا جدّا. فقد استعاد قواه وتعافى، وحالما استطعتُ أن أتحادث معه، وقد استطعت ذلك بسرعة حالما استطاعه هو، إذ لم أكن أبتعد عنه قيد أنملة، وكنّا متعلّقيْن الواحد بالآخر تعلّقا شديدا، حاولتُ أن أداعبه، كما لو أنه كان يداعبني في التعميد (baptismum = baptême) الذي كان قد تقبّله في غيبوبة كاملة عقلا وحسّا. لكنّه كان مع ذلك يعلم بعدُ أنه تقبّله. لكن، ها هو يفزع مني كما لو كنتُ عدوّا وينبّهني في صراحة غريبة وفجئيّة، أن أكفّ عن مثل هذه الأقوال إن كنت أريد أن أكون صديقه. أما أنا فقد انتابني الذهول والاضطراب، وتمالكت مشاعري إلى أن يتعافى أولا ويكونَ بالصحة والعافية مؤهّلا لأن أفعل به ما أشاء. لكنّه انتُزِعَ من جنوني، حتى يُحفظَ لديك لسُلواني: بعد أيام قليلة وفي مدة غيابي، عاودته الحمّى وفارق الحياة.

9. ادلهمَّ قلبي بتلك الفاجعة، فكان الموت ماثلا في كل ما كنت ألمحه. وكان في الوطن عذاب وفي منزل الوالدين شقاء مدهش، وكل ما كنّا تشاركنا فيه، كان قد تحوّل بعده إلى معاناة مهولة. كانت عيناي تطلبانه فلا تظفران به؛ وكنت أكره كل الأشياء، لأنها لا تضمّه ولا تقدر أن تقول لي: «هَا هُو آت»، تماما كما كانت تفعل في حياته عندما كان يتغيّب. أصبحتُ أمثّل لنفسي ذاتها إشكالية كبيرة، وكنتُ أسألُ روحي لمَ كانت حزينة ولمَ كنتُ مضطربا للغاية من جرّائها، ولم تكن هي تعرف كيف تجيبني. ولمّا كنتُ أقول: «ليَكنْ أمَلُكِ في الإلـه»، كانت لا تطيع، وكانت محقة، لأنّ ذلك الصديق العزيز جدا الذي فقدته كان رجلا أصدقَ وأحسنَ من الطيف الذي كنتُ آمرها بأن تأمُلَ فيه. كان الدّمع وحده عذبا إليّ، وكان قد خلَف صديقي في ملاذّ فكري وحلّ محلّه.

10.V. والآن، مولايَ، كل هذا راح وانقضى، ومع مرّ الزمان جرحي خفّ والتأم. فهل لي أن أتعلّم من لدنكَ، أنت الحقّ، وأن أقرّب من وجهك آذانَ قلبي كي تقول لي: لمَ يكون الدمع حلوا للبؤساء؟ أم أأنتَ، وإن كنتَ حاضرا في كل مكان، قد أعرضت

(1) «يبرر أوغستينوس هذه العادة (في موضع آخر) بقوله: «وكان الأطفال يُعمّدون قبل أن يُبْدُوا أية إشارة إلى ما يريدون». المرجع السابق ص 71 الملاحظة عدد 1.

عـن بؤسنا، وأنت باق في ذاتك، في حين أننا نتأرجح في مهب تجاربنا؟ ومع ذلك، لو لم نكن نستطيع أن نرفع بكاءنا لأذنيك، لما بقي شيء من أملنا. كيف إذن تُقطَفُ الثمرة اللذيذة من مرارة الحياة؟ كيف تقطف من الحسرة والنحيب والتأوّه والنواح؟ أم هل ما يحلو فيها هو أننا نأمل أن تصغي إلينا؟ هذا ثابت في دعَواتنا، لأنها تتضمّن الرغبة في الوصول إليك. ولكن هل هو أيضا في الخسارة والرزيّة اللّتين كنت آنذاك مرهقا بهما؟ إذ لم أكن آمل أن ينبعث هو، أو لم أكن أطلب ذلك بدموعي، بل كنت أتألّم وأبكي فقط. فقد كنت بائسا، وكنت قد فقدت فرحتي. أم هل البكاء شيء مرّ، وبالنظر إلى الاشمئزاز من الأشياء التي كنّا قد تمتّعنا بها سابقا، وإلى النفور منها في هذا الوقت، فهو يلذّ لنا مع ذلك؟

11.VI. ولكن لمَ أقول هذه الأقوال؟ فلاتَ الآن حين تساؤل، بل حين إقرار واعتراف. كنت بائسا، وبائس هو كل فكر مغلّل بحبّ الأشياء الفانية، يتمزّق، عندما يفقدها، وعند ذلك يشعر ببؤسه الذي كان به بائسا كذلك قبل أن يفقدها. هكذا كنتُ أنا في تلك الفترة، باكيا بكل مرارة وساكنا في «المرارة». هكذا كنت بائسا، وكنت أحسب حياتي البائسة ذاتها أغلى عليّ من ذلك الصديق.

كنتُ أريد تغييرها، ومع ذلك لم أكن أريد أن أفقد أكثر منه، ولا أدري هل كنتُ أقبل، ولو لفائدته، أن أكون كما يذكر عن «أورستاس» و«بيلادس»، إن لم يكن ذلك من الأساطير، من أنهما كانا يريدان أن يموتا معا الواحد للآخر، لأن الفراق كان بالنسبة إليهما أسوأ من الموت. إلّا أني لا أدري أيّ شعور مختلف جدّا عن ذلك الشعور كان قد هاج فيّ، فقد اجتمع عليّ تقزّز من العيش ثقيل جدّا وخوف من الموت. أعتقد أنّي، بقدر ما كنت أحبّه أكثر، كنت أكره أكثر وأخاف الموت الذي انتزعه منّي، كأبشع عدوّ، على أهبة إفناء جميع الناس فجأة، بما أنه استطاع ذلك معه. هكذا كنت تماما، حسب ما أتذكّره.

هاك قلبي، يا إلـهي، هاك طويّته؛ انظر في ما أتذكّره، يا أملي، أنت الذي تطهّرني من دنس مثل هذه العواطف، محوّلا عينيّ تجاهك، ومخلّصا قدميّ من ربقتهما. إذ كنتُ أتعجّب من حياة كل بني الفناء الآخرين، بما أن ذلك الذي كنت قد أحببته كما لو كان لن يموت، كان قد مات، وكنت أتعجّب أكثر من حياتي، أنا الذي كنت أناه الآخر (**ille alter = un autre lui – même**)، وهو ميّت. لقد صدق الشاعر الذي قال عن صديقه: هو «نصفُ روحي». نعم، لقد أحسستُ أنّ روحي وروحه كانتا روحا واحدة

في جسمَيْن، ولهذا كانت الحياة عندي فظيعة لأنّي كنت أرفض أن أحيا مشطورا، ولهذا لعلّي كنت أخاف أن يكون موتي الموت الكلّيّ لمن كنت قد أحببته كثيرا.

12.VII. يا للجنون الذي لا يعرف كيف يحبّ الناسُ الناسَ حبّا إنسانيا! يا للإنسان المعتوه المفرط في الصبر على إنسانيته! ذاك ما كنت أنا آنذاك. لذلك كنتُ أتحمّسُ، كنتُ أتنهّد، كنتُ أبكي، كنت مضطربا، ولم تكن لي راحة البال ولا هدف. إذ كنتُ أحمل روحي الممزّقة الدامية التي كانت لا تريد أن أحملها، ولم أكن أجد أين أضعها. لم تكن ترتاح في الغابات الفتّانة ولا في الألعاب والأغاني ولا في الأماكن ذات الروائح الشذية ولا في المآدب الفاخرة، ولا في ملاذّ المخدع والفراش ولا حتّى في الكتب والأشعار. كانت جميعها تُنفّرني، حتى النور ذاته، وكل ما لم يكن ما كانه هو، كان كريها منفّرا ما عدا الأنينَ والنحيبَ؛ فقد كنت أجد فيهما فقط شيئا من الرّاحة. وبمجرد أن أنتزع منهما روحي، أشعر بحمل ثقيل من البؤس يُثقلها.

مولاي، كان عليّ أن أرفع روحي إليك كي أشفيها، كنت أعلم ذلك، لكن لم أكن أريده ولا أقدر عليه. كلّما فكّرت فيك لم تكن بالنسبة إليّ شيئا متينا ولا صلبا. لم تكن أنت بالذات، بل كان شبحا باطلا، وخطئي هو الذي كان إلـٰهي. لمّا كنتُ أحاول أن أودع فيه روحي، حتى ترتاح، كانت تنزلق في الفراغ وتسقط فوقي من جديد، وكنتُ قد بقيتُ أنا بمثابة مكان تعاسة، حيث ما كان ليكونَ فيه مقرّي أو عنه ابتعادي. فأين كان قلبي ليهربَ من قلبي؟ أين كنتُ لأهربَ من نفسي ذاتها؟ وأين المفرّ من نفسي التي تلاحقني؟

ومع ذلك هربت من الوطن، فعيناي تطلبانه أقلّ في المكان الذي لم تتعودا رؤيته فيه، ومن بلدة «تاجاسته» جئت إلى قرطاجة[1].

13.VIII. الساعات ليست ساعات فراغ، وهي لا تمرّ على إحساساتنا دون أثر، بل تفعل في القلب أفعالا عجيبة. فها هي تأتي وتنقضي من يوم إلى آخر، وفي مجيئها وانقضائها كانت تغرس في نفسي آمالا أخرى وذكريات أخرى، وتدريجيا كانت ترمّمها بأنواع الملاذّ القديمة التي كان يزول أمامها ألمي المذكور؛ إلّا أنه والحق يقال،

---

(1) «في سنة 376م مكّن الفصل الثاني من الكتاب الثاني "الردّ على الأكاديميين" **Contra Academicos** من إكمال هذه المعلومة الوجيزة. نجد في هذا الكتاب أنّ أوغستينوس لم يعلن عن نيته الرحيل إلّا لصديقه رامانيانوس، وتلقى من صديقه السخيّ ما سيحتاجه في السفر». المرجع السابق، الملاحظة عدد 1 بهامش الصفحة 75.

إن لم تكن تتبعه آلام أخرى، فإنه كان يتبعه أسباب آلام أخرى. فمن أين ولجني ذلك الألم بسهولة فائقة وفي الأعماق، لو لم يكن لأني قد كنت نثرت على التراب روحي، متعلّقا بإنسان فَان، كما لو كان غير فان؟

كان لعمري يعزّيني بالخصوص وينعشني سلوان الأصدقاء الآخرين الذين كنت أشاركهم حبّ ما كنت أحبّه بدلا منك : أعني تلك الأسطورة الكبيرة وذلك الكذب الطويل اللذيْن كانا، بالاحتكاك المفسد لك، ينخران عقلَنا المتآكل بالفضول. لكنّ تلك الأسطورة بالنسبة إليّ لم تكن لتموت، ولو مات لها أحد أصدقائي. كان بيننا أشياء أخرى تجذبني أكثر : كان بيننا الحديث والمؤانسة والتمازح والتعاطف والتلاطف والتشارك في قراءة كتبٍ عذبة والمداعبة المتبادلة والتبجيل المتبادل، وكان بيننا الخلاف أحيانا دون بغض، كما يفعل الإنسان مع نفسه، وعند الاختلافات النادرة جدّا يكون النقاش أبازير للاتّفاق في أغلب الآراء، وكان بيننا تحصيل المعرفة بأن يكون تارة هو المعلّم وأنا المتعلم، وأخرى يكون العكس، وكان عناء الشوق للغائبين، واستقبال القادمين بالفرح والتهليل، وبهذه الإشارات ومثيلاتها النابعة من قلب المتحابين، والتي يشي عنها الوجه واللسان والعينان وألف إشارة رائقة للغاية، وهي بمثابة الأطعمة تغذّي النفوس وتجعل من الجماعة فردا واحدا.

14.IX. هذا هو ما نحبّهُ في الأصدقاء، ونحبّه حبّا يجعل ضميرنا يشعر بالذنْب عندما لا نحبّ الذي يحبّك وعندما لا نبادل الحبّ بالحبّ فلا نطالب الشخص الذي نحبّه إلّا بأعراض التعاطف عربونا على الحب. هذا منبع الأسى، عند موت صديق ما، ومصدر تلك الظلمات، ظلمات الألم، ويتحوّل العذوبة مرارة يصبح القلب غارقا في الدموع، وبسبب فقدان حياة الذين يموتون يصبح الأحياء أمواتا.

ما أسعد من يحبّك، ومن يحبّ فيك صديقه كما يحبّ عدوَّه من أجل حبك! فذلك فقط لا يفقد أيَّ عزيز عليه، من يكون الجميع أعزّاء عليه، في ذلك الذي لا يُفقدُ. ومن يكون هذا سوى إلـهنا، الإلـه الذي «خَلَقَ السمَاءَ والأرْضَ» وملأهما، لأنه خلقهما مالئا إيّاهما؟ لا أحدَ يفقدك إلّا الذي يتركك، وعندما يتركك، إلى أين يذهب وإلى أين يفرّ، إن لم يكن من طيبك إلى غضبك؟ فأين لا يجد قانونك في عقابه؟ و«قانونك هو الحق» و«الحق هو أنتَ».

15.X. يا إلـهَ الفضائل، «التفتْ إلينا وأظهرْ محيّاكَ، وسنكونُ ناجينَ» إذ مهما كانت

الجهة التي تلتفت إليها روحُ الإنسان، فهي للآلام تنتصب في موضع آخر غيرك، ولن تنتصب في الجمال خارجا عنك وعن ذاتها. إلّا أنّ هذا الجمال ما كان ليكون، لو لم يصدر عنك. فهو ينشأ ويأفلُ، وفي النشأة كأني به يبدأ الوجود وينمو حتى يبلغ الكمال، فإذا بلغ الكمال شاخ ومات. وهي لا تشيخ كلّها، لكنّ الموت يدركها كلّها. لذلك عندما تولد وتأخذ طريقها إلى الوجود، كلما زادت سرعةُ سعيِها إلى الوجود، زاد تهافتها نحو الفناء. هكذا كان دأبها. ذاك كل ما وهبتها إياه لأنها أجزاءُ أشياء لا توجد كلّها معا في آن واحد، لكنها بالاضمحلال والتّتالي تصنع كلّها المجموع الذي هي أجزاؤه، تماما كما يتواصل خطابنا بواسطة نطق الألفاظ أيضا. فلن يكون منّا خطاب تامّ لو لم تضمحلّ كلّ كلمة، بعد أن تلعب دورها، كي تترك المكان لكلمة أخرى.

ولتحمدك روحي على هذا الجمال، يا إلـٰهي، يا «خالقَ الكلّ»، لكن أودّ ألّا تلتصقَ به بفعل دبوقاء الحبّ عبر حواسّ الجسد. فهو يذهب حيث كان يذهبُ، حتى يفنى، ويمزّق الروح بشهوات طاعونية، لأنها هي ذاتها تريد أن تكون في الأشياء التي تحبّها وتحب أن تسكن فيها، لكنّها لا تجد أين تسكن فيها، لأنه لا مستقر لها، بل هي في تدفق ومدّ دائم. من يقدر أن يتّبعها بالحس الجسديّ؟ أو من يمسكها، وإن كانت تحت تصرّفه؟ فالحس الجسدي بطيء، لأنه حسّ جسديّ: إذ إنّه محدود بطبعه الخاص. هو يكفي لما سواه، ولِما جُعل له، أما لهذا فلا يكفي، أي إنّه لا يكفي لصدّ العبور السريع من بداية معيّنة إلى نهاية معينة. ففي كلمتك تسمع مخلوقاتك ما يأتي: «من هنا إلى هناك».

16.XI. لا تكوني تافهة، يا روحي، ولا تجعلي مسامع القلب صمّاء بسبب صخب تفاهتك. اسمعي، أنتِ أيضا، الكلمة الإلـٰهية تناديك بأن تعودي، فهنا مكان السكون غير المضطرب، حيث لا يُهجر الحب، إن لم يَهجر هو بالذات. أُنظري إلى هذه الأشياء تمضي لتحل محلها أخرى، تتبعها ليتكوَّنَ من جميع أجزائها أقلّ مجموع ممكن. «وهل أنا ماض إلى مكان آخر؟» ذاك ما قالت كلمة الإلـه. فيه اجعلي مقرّا لدارك، اعهدي له فيه بكلّ ما يصلكِ به، يا روحي المتعبة بالأكاذيب على أقل تقدير. اعهدي للحق كل ما يأتيك من الحق، ولن تخسري شيئا، وستزهر من جديد أمكنة التعفّن فيك، وسوف تُشفَيْنَ من كل أسقامك، وكل ما فيك منحلّ سوف يُصلحُ ويُجدَّدُ ويوثَقُ إليك، بحيث لن ينقلك إلى حيث ينزل، بل سيبقى معكِ على الدوام، قرب الإلـه الدائم البقاء الدّيّوم.

17. لمَ، وأنتِ منحرفة، تتبعين جسدك؟ ليتبعك هو، وأنت مهتدية! كل ما تحسّينه

بواسطته ليس إلّا عنصرا جزئيا، وتجهلين الكلّ الذي منه تتكوّن تلك الأجزاء، وهي لا تنقطع مع ذلك عن إمتاعك. ولكن لو كان حسّك الجسديّ مؤهّلا لتضمّن الكلّ، ولم يتقبّل، كجزء من المجموع ومن أجل عقابك، الشكل المضبوط، لكنت تريدين أن يمرّ كلّ ما يوجد في الحاضر، حتى يروق لك الكل أكثر. إذ وما نقوله أيضا، تسمعينه بنفس الحس الجسدي، ولا تريدين بالخصوص أن تتوقف المقاطع اللفظية (syllabas = les syllables)، بل أن تطير حتى تفسح المجال للأخريات، وحتى تسمعي الكل. هكذا دوما في كلّ الأجزاء التي تتألّفُ منها أية وحدة والتي ليست دوما معا في ما يتألّف منها : الكلّ يروق أكثر من الأجزاء المفردة، لو أمكن أن يُدرك كليا. لكنه أحسن بكثير منه، ذلك الذي خلق الكلّ وهو إلـهنا، وهو لا يمضي، لأن لا شيء يتبعه.

XII.18. إن أعجبتكِ الأجسام، فاحمدي الإلـه عليها، وأعيدي حبك إلى صانعها، حتى لا يشمئزّ منك بسبب تلك التي أعجبتك. وإن أعجبتك الأرواح، فأحبّيها في الإلـه، لأنها هي أيضا متغيرة ولا تعرف الاستقرار إلّا فيه : وإلّا فهي زائلة فانية. أحبّيها إذن فيه، وشدّي إليه معكِ التي تقدرين عليها، وقولي لها : «لِنُحبّهُ، ولنعشقه هو الذي خلق تلك الأشياء وليس بالبعيد، لأنه لم يمض بعد الفراغ منها، بل هي الصادرة عنه توجد فيه. فها هو يوجد حيث يوجدُ طعمُ الحقّ! هو في أعماق القلب، لكنّ القلب تاه عنه. عودوا، أيها المذنبونَ، إلى قلوبكم، والتحموا بالذي خلقكمْ. ابقَوْا معه وسوفَ تستقرّونَ، استريحوا فيه وستستريحون. لمَ تقصدون الأوعار؟ أين أنتم ذاهبون؟ الخيرُ الذي تحبّونَه صادر عنه: ولكن، بقدر ما يعود إليه، فهو طيّب عذب، بل سوف يكونُ حقّا مُرّا، وهو يتركُ الإلـه ويُحبّ باطلا كلّ ما يصدرُ عنهُ. لمَ تسلكون دوما ودون توقّف المسالك الصعبة الوعرة؟ لا راحةَ حيث تبحثونَ عنها. ابحثوا عمّا تبحثون عنهُ، لكنّه لا يوجد حيث تبحثونَ عنه. إنّكم تبحثون عن الحياة السعيدة في إقليم الموت: «ليستْ هنالك! فكيف تكونُ الحياة سعيدة، حيث لا حياة؟».

19. ونزل إلينا، هو حياتنا بالذات، وتحمّل موتنا وقتله بوفرة حياته، وقصف مناديا، حتى نعود من هنا إليه في ذلك المختبإ الذي أتانا منه أوّلا بنفسه في بطن العذراء، حيث وقع له العرس مع الخليقة الإنسانية، وهي لحم فان، حتى لا يكون دوما فانيا، ومن هناك «كالعريس الخارج من غرفته، وثبَ عملاقا مستعدّا للرّكض في الطريق»[1]. لم

---

(1) uelut sponsus procedens de thalamo suo exultauit ut gigans ad currendam uiam = «كالعريس الخارج من غرفته وثبَ عملاقا مستعدا للركض في الطريق». المرجع السابق =

يكن يعرف الإرجاء، بل ركض مناديا بالأقوال، بالأفعال، بالموت، بالحياة، بالنزول، بالصعود، مناديا كي نعود اليه. وغاب عن أعيننا، حتى نعود إلى القلب ونجده. فقد ابتعد، وها هو هنا. رفض أن يكون معنا طويلا، ولم يتركنا أيضا. لقد ابتعد إلى هناك، من حيث لم يرحل قط، لأن «العالم خُلقَ من خَلْقه» و«كان في هذا العالم، وأتى إلى هذا العالم ليُنجّي الآثمين». إليه تعترف روحي، ويشفيها، «لأنها آثمة تجاهه». «أبناءَ البشر، حتى متى تكون قلوبكُم ثقيلة؟» هلاً تريدون، بعد نزول الحياة بينكم، الصعودَ والحياة أيضا؟ ولكن إلى أين تصعدون، وأنتم في العلوّ، قد وضعتم «في السماء أفواهكم»؟ «انزلوا كي تصعدوا، كي تصعدوا إلى الإلـه. فقد سقطْتم أثناء صعودكم ضد الإلـه».

قل لهم هذا، كي يبكوا في «وادي البكاء المنخفض»، وهكذا جُرّهم معك إلى الإلـه، لأنك تقوله لهم وفق روحه، إذا قلتَه بنار المحبّة الحارة.

XIII.20. لم أكن آنذاك أعرف شيئا من هذا، وكنت أحب أشياء الحياة الدنيا الجميلة، وكنت أمشي إلى الهاوية، وكنت أقول لأصدقائي: «أنحبّ ما هو غير جميل؟ إذن فما هو الشيء الجميل؟ وما هو الجمال؟ ما الذي يجلبنا ويستميلنا في الأشياء التي نحبها؟ إذ لو لم تكن بها فتنة وروعة، لما حرّكتنا نحوها بأية صفة». وكنت ألاحظ وأرى أن في الأجسام ذاتِها ما هو كأنه الكلّ، ولذلك فهو جميل، وما هو من جهة ثانية ذو خاصّية تجعله من صنف الملائم، لأنه يتساوى تماما مع شيء ما، كما يتلاءم جزء من الجسم مع مجموعه، أو الحذاء مع الرجل وهلم جرّا. وهذه الملاحظة نبعت في فكري من أعماق قلبي، إذ كتبت كتابا عن «الجميل والملائم» (**De pulchro et apto = le Beau et le Convenable**) في مقالين، أظن، أو ثلاثة؛ أنت أعلم بذلك، يا إلـهي، فالأمر خرج من ذاكرتي. ونحن لا نملكه، بل فقدناه ولا ندري كيف[1].

XIV.21. فما الذي دفعني، مولاي وإلـهي، إلى أن أهديَ ذلك الكتاب الى «هيروسَ» الخطيب بمدينة روما؟ لم أكن أعرفه ولا رأيته رؤية العين، لكني كنت قد

= الكتاب الرابع، الملاحظة 1 هامش الصفحة 80. وهذا المقطع من الإصحاح 18 أعاد نظمه القديس "أمبرواز" في أبيات لا بدّ أنّ أوغستنوس كان يحفظها عن ظهر قلب.

(1) أورد «ب. دي لابريول» P. DE LABRIOLLE أن هذا الكتاب مُهْدًى إلى «هيِروس» Hié-rius، وقد ولع به أوغستينوس لأسباب تافهة. انظر صفحة 81 من الكتاب الرابع من الجزء الأول المذكور سابقا. وأضاف في موضع لاحق: في الهامش بالصفحة 85 من نفس الكتاب أن هذا الكتيب المفقود قد ألف حوالي سنة 380م.

أحببت الرجل بسبب شهرة العالم اللامع التي كان يحظى بها، وقد كنت سمعتُ بعض أقواله، وكانت قد أعجبتني، لكنه رجل، راقَ لي، بالأحرى، لأنه كان يعجب الآخرين، وكانوا يمدحونه ويغرقون في مدحه، منذهلين بكون الرجل السوريّ الأصل (Syro = un Syrien) والعالم بالخطابة اليونانية، قد بلغ في الخطابة اللاتينيّة مستوى باهرا أيضا، وبكونه علاّمة في المواضيع المتعلقة بدراسة الحكمة[1]. يُمدحُ الرّجل، ويحبّه الناس، ولو في غيابه. فهل يدخل ذلك الحب من فم المادح إلى قلب السامع؟ كلاّ؛ بل يتّقد حب هذا بحب ذاك. فمِن هنا يُحَبّ منْ يُمدحُ، عندما نعتقد أن إطراءَ المادح غيرُ صادر عنْ قلب كاذب، أي عندما يكون المحبّ هو الذي يمدَحُ.

22. فهكذا كنت آنذاك أحبّ الناس اعتبارا لحكم الناس لا اعتبارا لحكمِك، يا إلـهي، أنت الذي لا يضلّ فيك إنسان.

ولكن لمَ لا يُمدحُ «هيروسُ» كما يمدح سائق عربة شهير، أو كقنّاص ذاع صيته بين الجماهير، بل يمدح على نهج آخر وبالوقار، وكما كنتُ أريدُ، لو مدحَني الناس، أن أُمدح؟

أمّا أنا فما كنت أرضَى أن يمدحني الناس وأن يحبوني كما يُمدحِ الممثلون أو يُحَبّوا، غير أني لو كنت مدحتهم بنفسي وأحببتهم، لاخترتُ الخمولَ عوضا عن الشهرة، وفضلت أن أعامَلَ بالبغضاء على أن أحبَّ مثل هذا الحبّ. أين تتوزّع في الروح الواحدة أثقال هذه العواطف المتنوعة المتباينة؟ وكيف يكون أن أحب عند غيري، ما كنت بالعكس لا أكرهه ولا أرفضه، لو لم أكن أبغضه، والحال أن كلينا إنسان؟ ذلك أنّ الذي يحبّ الجواد المطهم يرفض أن يكون ذلك الحيوان، وإن كان ذلك ممكنا. لكنّ هذا لا يصدق على الممثل الذي هو شريك في طبيعتنا. إذن هل أحبّ عند غيري ما أكره أن أكونه، وإن كنت إنسانا؟ هاوية سحيقة هو الإنسان الذي أحصيتَ عدد شَعره أيضا، يا مولاي، ولا يفوتك أن تنقص منه شعرة واحدة : ومع ذلك فتعديد شَعره أسهل من تعديد انفعالاته ومشاعره.

23. أما ذلك الخطيب فكان من الصنف الذي كنت أحبه حبّا يجعلني أريد أن أكون مثله، وكنت أتيهُ بسبب غروري، وأموج في مهبّ «كلّ الرياح»، وبصورة خفية جدّا «كنتَ تقودُني». أنّى لي أن أعلم، وأنّى لي أن أقرَّ لك بوثوق، أني كنت قد أحببته

(1) «ونفس الشهرة آلت في نفس الفترة إلى الأثينيّ "بلاّديوس" Palladius في مدينة روما نفسها»، نقلا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 82، بالمرجع السابق.

لحب المادحين له، أكثر من حبّي للأشياء ذاتها التي كان يُمدحُ بها؟ فلو أن أولئك القوم أنفسهم انتقدوه بدل أن يمدحوه، وكانوا في انتقادهم وازدرائهم يذكرون نفس الجوانب، ما كنت لأتّقد ضدّه وأتحمّس، وما كانت الأشياء تكون حقا مختلفة وما كان الإنسان ذاته ليكون مختلفا، بل لكانت عواطف الساردين هي فقط المختلفة. فانظر كيف تتمدّد الرّوح الضعيفة التي لم ترتبط بعد بالحقيقة الوُثقى! كما أن نسمات الألسن تنطلق من صدور من يظنّون أنهم يعلمون، فهي تنتقل وتدور، وتنعطف وترجع إلى الوراء، ويُحجبُ النور أمامها ولا يُدركُ الحقّ. انظر، فإنّ الحقّ مع ذلك أمامنا بيّن ظاهر.

وكان الأمر بالنسبة إليّ أمرا عظيما، أن أطلع ذلك الرجل على خطابي وأعمالي: فإن استحسنها، ازددت حماسا؛ وإن هو استهجنها، فإنّه سيجرح قلبي التافه المسلوب من صلابتك. ومع ذلك فكتابي المذكور «الجميل والملائم» الذي كنت قد أهديته إيّاه، كان يشغل تلقائيا فكري وبالي، وكان إعجابي به كإعجاب من لم يجد فوقه من عجيب.

24.XV. لكن لم أكن أرى بعد في صُنعك صميمَ هذا المنطق الأسمَى، يا صاحب القدرة الكليّة، أنت «الذي تفعلُ المعجزات وحدكَ»، وكان فكري يسير عبر الصور الجسدية(formas corporeas = les formes corporelles)»[1]، وكنت أحدّد الجميل، بما يروق في حدّ ذاته، أمّا الملائم، فبما يتآلف فيه مع شيء ما، وكنت أثبتُ ذلك وأستشهد بأمثلة جسمانيّة. ومررت الى طبيعة الروح، ولم يسمح لي رأي باطل كنت أراه في الروحانيات، أن أدرك حقيقتها. وكانت تغزو عينيّ قوّة الحق بالذات، وكنت أحيد بفكري الخافق عن اللاّجسمانيّ متجها إلى الخطوط والألوان والكميات الضخمة. وبما أني لم أكن أقدر أن أراها في فكري[2]، كنت أظن أني لا أقدر أن أرى فكري. ولما كنت أحب في الفضيلة السلم، وكنت من ناحية ثانية أكره في الرذيلة الخلاف، كنت ألاحظ في الأولى الوحدة، وفي الأخرى نوعا من الانقسام. وكان في تلك الوحدة يبدو لي العقل المنطقي موجودا، مع طبيعتيْ الحق والخير المطلق، بينما كنت في بؤسي أرى في ذلك الانقسام للحياة اللامنطقية ما لا أعلم من طبيعة الشر

(1) «التحليل الذي سيقدمه أوغستينوس عن هذا الكتاب الأول ينمّ عن التأثير الذي كان للمباحث الماورائية المانوية على تفكيره». نقلا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 83، بالمرجع السابق.

(2) «لم يكن"ماني"... يقول بوجود حقائق عليا». نقلا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 84، بالمرجع السابق.

المطلق وجوهره الذي لم يكن فقط جوهرا، بل حياةً بالتمام، وإن لم يكن صادرا عنك، يا إلـهي، أنت «الذِي يَصْدُرُ الكُلّ عَنْكَ»[1].

وكنت أسمّي الأول الجوهر الفردي («monade = monadem»)، إذ إنه تصوّر لاجنسانيّ، أما الثاني فهو الإثْنينيّة («dyade = dyadem»)، كالغضب في الجرائم والليبيدو (libidinem = la sensualité) في الدعارات، دون أن أفقه ما كنت أقوله. إذ لم أكن أعلم، ولم أكن قد تعلّمت أن الشر ليس الجوهر، وأن فكرنا ذاته ليس الخير المطلق الثابت.

25. فكما أننا نرتكب الجرائم، عندما تكون تلك الحركة النفسانية مصدرَ الاندفاع فاسدة، ويحمَى فيها الإفراط والاضطراب، فإننا ننقاد إلى الدعارات، عندما لا تفرض النفس قيودا تكبح الميول التي ترتوي منها الملاذّ الجسمانية، تماما مثل الضلالات والآراء الخاطئة التي تدنّس الحياة، عندما تكون النفس العاقلة ذاتها فاسدة. هكذا كان آنذاك في نفسي التي كانت تجهل أن نورا آخر كان لابد أن يضيئها، حتى تكون مسهمة في الحق، إذ ليست في ذاتها من طبيعة الحق، «بما أنّك أنت سوف تنير مصباحي، يا مولاي وإلـهي، سوف تُنيرُ ظلماتي، ومن كمالك نحن كلّنا قبِلنا شيئا. فأنتَ النورُ الحقّ، الذي يُنيرُ كلَّ إنسان يأتي إلى هذا العالم، لأنك لا تعرف التغيّر ولا الأفول الوقتي».

26. أما أنا فكنت أحاول الارتقاء إليك، وكنتَ تنحّيني عنك، كي أذوق الموت، بما أنّك «تتصدّى للمتكبّرينَ». ولكن هل من كبرياء أكبر من أن أجزم، في جنون غريب، أنّي بالطبع ما هو أنت؟ فرغم أني كنت متغيّرا، وأنه كان من الجليّ لي أنّي أريد أن أكون حكيما، بالخصوص، حتى أتحوّل من الأقل سوءا إلى ما هو أحسن، كنت أفضّل أيضا مع هذا أن أتصوّرك متغيّرا، على ألّا أكونَ أنا ما هو أنت[2]. لذلك كنتَ تُبعدني، وتتصدّى لعنادي وتشدقي، وكنت أتصوّر صورا جسدية، واتّهم اللحم، وأنا لحم، ولم أكن بعد عائدا إليك، أنا «الطيف التائه»، وفي التيهان كنت أتيه نحو الأشياء التي ليست فيك ولا فيّ ولا في الجسد، والتي لم يخلقها حقّك، بل كان غروري قد تصورها اعتمادا على

---

(1) «كان "ماني" يقول بوجود طبيعتين...». نقلا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 84، بالمرجع السابق.

(2)... «me non hoc esse, quod tu es»، = «قارن هذا الكلام بالملاحظة التي ذكرها أوغستينوس وأوردناها أعلاه بشأن المذهب المانويّ». نقلا عن الملاحظة 1 من هامش الصفحة 85، بالمرجع السابق.

الجسد، وكنت أقول للصغار، أوفيائك ومواطنيّ، الذين كنت أجهل أني منفي بعيدا عنهم، كنت أقول لهم في ثرثرتي الخرقاء «إذن لِمَ تخطئ الروح التي خلقها الإله؟»، وكنت أرفض أن يقال لي: «لِمَ يخطئ إذن الإله؟». وكان التأكيد على كون جوهرك المتغير مجبرا على الضلال، أفضل عندي من أن أقر بأن جوهري المتغير قد انحرف تلقائيا، وأن عقابه في ضلاله.

27. وربما كنت في السنة السادسة أو السابعة والعشرين من عمري، عندما كتبتُ ذلك المجلد[1] مقلّبا في فكري أوهاما جسديّة ترن في مسامع قلبي التي كنت أوجّهها، أيها الحق العذب، نحو نغمي الداخلي، مفكرا في الجميل الملائم، وراغبا في الوقوف قربك و«الاستماع إليك، والشعور بالسرور لسماع صوتك، صوت العريس»، ولم أكن أستطيع، لأني كنت مجرورا تجرّني إلى الخارج أصوات الخطإ، وساقطا بثقل كبريائي إلى الحضيض، فأنت لم تكن تعطي «مسمعي سرورا ولا فرحا» و«ما كانت عظامي تُهلّل» لأنها «لم تعرف بعد الهوان».

28.XVI. وما كان يفيدني، أن كنت قادرا، وأنا في العشرين من عمري تقريبا، على قراءة ذلك الكتاب الأرسطيّ التي يسمونه «المقولات العشر»= **decem categorias** **les dix catégories**[2] عندما وقع بين يديّ وفهمته بمفردي لمجرد قراءته، كان شدقا الخطيب القرطاجيّ أستاذي، وأشداق الآخرين الذين كانوا يُعَدّون علماء، ترنّ تفصّحا عند التلفظ بكلمة «المقولات»، بحيث كنت أبقى مشدوها فاغر الفم أمام شيء ربّاني كبير خارق للعادة؟ لقد تباحثت في شأنها، مع بعض من كانوا يقولون إنهم فهموها فهما سطحيا، رغم استعانتهم بأساتذة متبحرين جدّا لا بصورة شفوية فحسب، بل برسوم كثيرة فوق التراب، لكنّهم لم يقدروا أن يقولوا لي عنها غير ما كنت أنا وحدي قد تعلمته في تأملاتي الخاصة.

ويبدو لي أنّ هذا الكتاب كان يتحدث بوضوح كاف عن الجواهر، كالإنسان مثلا، وعمّا يوجد فيها من الأعراض، كالشكل الخارجيّ لدى الإنسان، وقامته (كذا قدما)

(1) «هذا الكتيب الذي ضاع أُلّف إذن سنة 380» نقلا عن الملاحظة 2 من هامش الصفحة 85، بالمرجع السابق.

(2) حسب طبعتنا المعتمدة «أصبح كتاب المقولات لأرسطو والذي ترجمه إلى اللاتينية «فيكتورينوس» Victorinus أساس تعليم المنطق في بلاد الغرب»، انظر الملاحظة 1 بهامش الصفحة 86 حيث يذكر «بيار دي لابريول» P. DE LABRIOLLE كتاب «مفكرو بلاد اليونان»، المجلد الثالث ص 42 ترجمة «رايموند» REYMOND.

وأقربائه، (أخو منْ هو؟) وأين استقرّ ومتى وُلد، أواقف هو أم جالس، منتعل أم مسلّح، وهل هو فاعل أم منفعل، إلى غير ذلك من جميع هذه الخصائص الموجودة في هذه الأجناس التسعة التي ذكرت عنها بعض الأمثلة، أو الموجودة في جنس الجوهر بالذات الذي يوجد فيه ما لا يحصى منها.

29. فِيمَ كان هذا يفيدني؟ لم أكن أجني منه إلّا الضرّ؛ لأنني كنت أعتقد أن كل ما يوجد يدرك بالتّمام بتلك المحمولات العشرة، فأحاول فهمك، أنت أيضا، يا إلـٰهي، الدائم العجيب البساطة،كما لو كنت أنت كذلك خاضعا لعظمتك أو لجمالك، كنت أراهما فيك كما أراهما في جسم من الأجسام والحال أن عظمتك وجمالك هما أنت بالذات. أما الجسم فما كان ليكون عظيما ولا جميلا، لمجرد كونه جسما، لأنه، وإن كان أقل عظمة وأقل جمالا، فهو لا يكون مع ذلك إلّا جسما؟ فما كنت أراه فيك كان باطلا لا حقًا. كان أوهام بؤسي لا براهين سعادتك. كنتَ قد أمرتَ، وذاك ما كان واقعا فيّ، أن تنتج الأرض ليَ «الشوك والعُلّيْقَ»، وأن أتحصل بالشقاء على خبزي.

30. وما كان يفيدني أن قرأت بنفسي وبمفردي كل ما أمكنني أن أقرأه من كتب الفنون التي يسمّونها الشريفة، وأن أفهمها وأنا آنذاك عبد خسيس جدّا للشهوات السيئة؟ كنت أسرّ بها، ولا أعلم مِن أين كان يأتي كلّ ما فيها من الحقّ الثابت، فكان ظهري موجّها إلى النور، ووجهي إلى الأشياء التي كانت مُنارة به : بحيث أنّ وجهي نفسه، الذي كنت أرى به الأشياء المنارة، لم يكن منارا. كل ما فهمته، دون عناء كبير ولا ثقل عن أيّ إنسان، في فنّيْ الفصاحة والمقالة، وفي قياسات الأشكال والموسيقى والأعداد، أنت تعلمه، يا مولاي وإلـٰهي، لأنّ سرعة الفهم والسير الثاقب هما هديّتان من لدنك. لكني لم أكن أجني منهما شيئا أقدمه لك قربانا. لذلك لم تكونا قادرتين على صلاحي، بل بالأحرى على هلاكي، وكافحت ليكون الجزء الأوفر من قواي في حوزتي، و«لم أكن أحافظ على قوتي بالقرب منك»، بل «سرت بعيدا عنك إلى إقليم أجنبي» حتى أبدِّدَها لدى العاهرات، شهواتي. فما الفائدة من الخير، وأنا لا أحسن التصرف فيه؟ وفي الحقيقة لم أقدِّرْ أنّ فهم تلك الفنون كان على غاية من العسر حتى على المجتهدين والألبّاء، إلّا لما كنت أحاول أن أشرحها لهم، وكان المتميّز منهم هو الذي كان يتابع عرضي بأقلّ بطء.

31. ولكن ما كان هذا يفيدني، أنا الظان أنك أنت، يا مولاي وإلـٰه الحق، كنت جسما نورانيا شاسعا، وأنني قطعة من ذلك الجسم؟ يا له من فسق مفرط! لكني كنت هكذا، ولا أخجل، إلـٰهي، من أن أعترف إليك بشفقاتك عليّ، وأن أبتهل إليك، أنا

الذي لم أخجل من أن أقرّ آنذاك إلى الناس بتجاديفي، وأن أنبح ضدّك.. «et latrare aduersum te»[1]. إذن فيم كان آنذاك يفيدني ذلك «et d'aboyer contre vous...» = الفكر النشيط وسط تلك العلوم، وماذا كان ينفعني أن أكون قد حللت، دون أدنى عون من أستاذ بشريّ، عقد تلك الكتب المعقدة الكثيرة، حيث أني كنت، في خصوص عقيدة النجاة، ضالاً بشعا وخسيسا مرجسا؟ أمْ أنّى لِفكرٍ أكثرَ بطءا أن يلحق بصغارك ضرّا كبيرا، والحال أنّهم لم يكونوا بعيدين كثيرا عنك، بل كانوا ينتظرون أن ينبت ريشهم في أمان كنيستك، وأن يغذوا أجنحة المحبة بغذاء الإيمان الصحيح؟

يا مولانا وإلـٰهنا، فلنأمل «في وقي جناحيك»، و«لتحمنا» و«لتَحمِلنا»! أنت ستحملنا، ستحملنا صغارا، كما ستحملنا أنت حتى يصير شعرنا أبيض، حيث أن قوّتنا تكون وأنت معنا، عندئذ هي القوة، أما عندما توجد دونك، فهي الضعف. خيرنا يحيا دوما لديك، وعندما نفرنا منك، ضللنا الطريق. فلنعد إليك، يا مولاي، مستقبلا، حتى لا نصرع، لأن خيرنا يحيا لديك دون أفول، إذ أنت هو الخير ذاته ولا نخشى ألّا يكون لنا المكان الذي تعود إليه بعد أن نزلنا منه إلى الحضيض! أما في غيابنا فلا تسقط دارنا، دارنا التي هي ديمومتك!

---

(1) لا بد أن أوغستينوس قد عاش فترة قصيرة مبشّرا، بما أننا نرى أنه قد أدخل إلى المانوية أصحابه «هونوراتوس»Honoratus و«رومانيانوس» Romanianus و«أليبيوس» Alypius وغيرهم. فقد كانت روحه المتوقدة غير قادرة على أن تخصّ نفسها دون سواها ديانة ما حتّى وإن كانت هشّة حَيْرَى. انظر أعلاه الكتاب الثالث (XI, 19, IV, IV, 7...) نقلا عن الملاحظة 2 من هامش الصفحة 88، بالمرجع السابق..

الكتاب الخامس

1.I. تقبّل قربان اعترافاتي كما جرت على لساني، لساني الذي صوّرته وحثثته على أن يعترف «لاسمِكَ»، واشف كلّ عظامي، ولتقل لك: «مَوْلاَيَ، مَنْ هُوَ شَبِيه بِكَ؟» فمن يعترف لك لا يُعلمك بما يجول في خاطره، لأنّ القلب المغلق لا يصدّ بصرك، ولا تردّ يدَك قسوةُ البشر، بل أنت تُلينها - كلّما أردت - إمّا مشفقا وإمّا منتقما، و«لا أحَدَ قَادِرٌ علَى أنْ يَحْتَجِبَ بَعِيدًا عَنْ حَرَارَتِكَ».

لكن لتمدَحك روحي كي تحبّكَ، ولتقرّ لك بشفقاتك كي تمدحك. خلائقك جمعاء لا تُعطّل مدحك ولا تكتمه، بل كلّ نفس «تَمْدَحُكَ» بالأفواه المتّجهة إليك، والحيوانات والجمادات بأفواه المتأمّلين فيها حتّى تثوب إليك روحنا من فتورها مرتكزةً على الأشياء التي خلقتها، ومنتهيةً إليك، أنت الذي خلقتها رائعةً: وفي ذلك العزاء والقوّة الحقّ.

2.II. ولينصرف الحيارى والبغاة، وليهربوا بعيدا عنك! فأنت تراهم وتكشف ظلماتهم، فإذا كلّ شيء جميل، هم أيضا، وإن كانوا هم أنفسهم قباحا[1]. فيم أساؤوا إليك؟ أو فيم شانوا إمبراطوريّتك وهي، من السماوات إلى أقصى حدودها، عادلة كاملة؟

إلى أين هربوا عندما كانوا هاربين من محيّاك؟ وأين كانوا حتّى لا تجدهم؟ إنهم

---

(1) الملاحظة 1 من هامش صفحة 93 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق: «هذا الرأي يوجد أيضا في كتاب «مدينة الإله» la Cité de Dieu XI, 23 : «العالَم بالمذنبين يشبه اللوحة بظلالها، والنظر إليها من الزاوية المناسبة يبرز جمالها، والحال أننا لو نظرنا إلى المذنبين في حدّ ذاتهم لما وجدنا فيهم إلّا القبح والمسخ. وهكذا تحل الجملة اللاحقة في سياقها المناسب «et ecce pulchra sunt cum eis omnia et ipsi turpes sunt» = «الكلّ جميل وإن كانوا في حدّ ذاتهم قبيحين»

هربوا حتّى لا يروا أنّك تراهم، وحتّى يصطدموا في عماهم بك - إذ لا تتخلّى عن أيّ مخلوق من المخلوقات التي خلقتها - حتّى يصطدموا في ظلمهم بك وينالوا عذابا عادلا مفلتين في الحقيقة من لينك، ومصطدمين بعدالتك، وواقعين تحت طائلة قسوتك. لا يعلمون بالطبع أنّك في كلّ مكان، وأن لا مكان يحدّك، وأنّك وحدك حاضرٌ أيضا لمن هم بعيدون عنك. إذن فليغيّروا وجهتهم نحوك وليبحثوا عنك، بما أنّهم أنفسهم - إن تخلّوا عن خالقهم - فأنت بالعكس لم تتخلّ عن مخلوقتك. وليغيّروا وجهتهم بأنفسهم وليبحثوا عنك، وها أنّك موجود في قلوبهم، في قلوب المعترفين لك والساجدين لك والباكين على صدرك بعد خروجهم من ثناياهم الوعرة الشاقّة: وأنت تمسح بلطف دموعهم، ويبكون أكثر ويسرّون بالنحيب، لأنّك أنت، مولاي، وليس إنسانا ما، من لحم ودم، بل أنت، مولاي، الذي خلقتهم، وتعيد خلقهم وتواسيهم. وأنا أيْنَ كنتُ عندما كنت أبحث عنك، كنتَ ماثلا أمامي، لكنني كنت قد ابتعدت عن ذاتي وما كنت أجد نفسي، وكنت عن الظفر بك أبعد!

III.3. سأصدح، بمرأى ومسمع من إلـهي، ذاكرا تلك السنة التاسعة والعشرين من عمري.

كان قد وصل إلى قرطاجة أحد الأساقفة المانويّين يدعى فَاوسْتُوسَ (Faustus)[1]، وكان «رِبْق الشَيْطَانِ» الكبير، وكُثُرٌ هم الذين كانوا يقعون في سحر فَصاحته العذبة. ومع أنّي كنت أمدحها بعد، فإنّي كنت أميّز بينها وبين حقيقة الأشياء التي كنت مشغوفا بتعلّمها. لم أكن أولي كبير عناية لنوع الوعاء الذي كان فَاوسْتُوسُ، ذلك الرّجل المشهور لديهم، يقدم لي فيه طبق الفصاحة، أعني الأسلوب، بل كنت أهتمّ بتركيبة الطبق: بما سيُقدِّم لي فيه من العلم. إذ إنّ شهرته كانت قد أخبرتني مسبّقا، أنّه كان خبيرا جدّا بكلّ المعارف الشريفة ومتضلّعا بالخصوص بالعلوم الكريمة.

وبما أنّي كنت قد قرأت لكثير من الفلاسفة، وحفظت في ذاكرتي ما وثّقوه، كنت أقارن بعضه بتلك الأساطير المانويّة الطويلة، وكانت هذه الأخيرة تبدو لي أكثر احتمالا، وقد قال بها أولئك «الذينَ قَدِرُوا فَقَطْ أَنْ يَبْلغُوا إلى إمْكان تَقْييمِ الْعَالَم، دُون أنْ يَجِدُوا لَهُ بأَيَّةِ

(1) بعد تأليف الاعترافات بفترة قصيرة كتب أغوستينوس في شكل حوار تفنيدا مطوّلا في ثلاثة وثلاثين كتابا لمؤلف من مؤلفات «فاوستوس» Faustus... في البداية عبّر أغوستينوس عن إعجابه بسحر الكلام وبفكره الثاقب. وذكّر أيضا أن «فاوستوس» وِلد بمدينة ميلاف في بلاد نوميديا. وكان نقد فاوستوس" لا يخلو من وجاهة وعمق...». الملاحظة 1 من هامش صفحة 95 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

حَال مَوْلًى. إِذْ أَنْتَ عَظِيمٌ، يَا مولاَيَ، وَتَهْتَمُّ بِمَا هُوَ حَقِيرٌ، وتتَعَرَّفُ بِالْعَكْسِ مِنْ بَعيدٍ عَلَى مَا هُوَ رَفِيعٌ»، وأنت لاَ تقترب إلّا من «أصحاب الْقُلُوبِ المنسحقة»(= obtritis corde coeurs contrits). ولا يقدر على إدراكك ذوو الكبرياء، وإن استطاعوا بخبرتهم العجيبة أن يحصوا النجوم وحبات الرّمال ويقيسوا المناطق الفلكيّة ويقتفوا آثار الكواكب.

4. فهم يبحثون عن هذه الأشياء بفكرهم وبفطنتهم التي وهبتهم إيّاها، ووجدوا الكثير منها وتنبّؤوا قبل السنين العديدة بمواعيد كسوف الشمس وخسوف القمر، في أيّ يوم، في أيّة ساعة، في أيّة جهة سوف يقعان. ولم يخطئوا في إحصائه وتقديره، بل حصل ما أعلنوا عنه. ودوّنوا القوانين المكتشَفة، وهي تُقرأ اليوم وتُعتمد في التنبؤ بالسنة والشهر من السنة واليوم من الشهر والساعة من اليوم، وفي معرفة أيّة جهة من القمر أو الشمس سيصيبها الكسوف: ويصدُق ما يُعلنون.

ويتعجّب الناس ويفزعون من هذه الأشياء التي لا يعرفُونها، ويبتهج بها من يعرفها ويهلّل لها، وبسبب كفر كبريائهم يبتعدون عن ضوئك الساطع ويتخلّون عنه؛ يَتَنَبَّؤُونَ مسبّقا بموعد كسوف الشمس، لكنهم في الأثناء لا يرون كسوفهم الخاصّ، ذلك أنهم لا يبحثون، بدافع التقَى، من أين يملكون الفطنة التي يبحثون بها في هذه الأشياء. وحتّى إن تبينوا أنّك أنت الذي خلقتهم، فهم لا يهبون أنفسهم إليك حتّى تحفظ ما خلقته، ولا يضحّون في سبيلك بأنفسهم كما لو أنهم قد خلقوا أنفسهم بأنفسهم؛ فهم لا يقتلون من أجلك سمات كبريائهم كما تفعل «العَصَافيرُ» في طيرانها، ولايقتلون في أنفسهم حُبَّ الاطّلاع كما تفعل «حيتّان البحْرِ» في تطلعها وهي «تجوب ثَنَايَا الأَعْمَاقِ الْخَافِيَةَ»، ولا يقتُلون شبَقهم كما تفعل «قطْعَانُ السُهولِ» كي تحرق أنت، يا إلـٰهي، بنارك الملتهمة شهواتهم الميّتة وتعيد خلقهم من جديد لخلود الأبديّة.

5. يا للحسرة! إنهم لا يعرِفُونَ سبيل كلمتك الإلـٰهيّة التي خلقت بها الأشياء التي يَعُدّونها والحسّ الذي يميّزون به ما يَعُدّونه، والعقل الذي يعدّون به، «حكمتُك لا تعدّ ولا تُحصى». أمّا ابنك الوحيد «فقَدْ بَاتَ حِكْمَتَنَا وعَدَالَتَنَا وَقَداسَتَنَا»؛ وأصبح يحسب منّا، وسدّد ضريبته إلى القيصر. لا يعرفون هذا السبيل الذي ينزلون هم منه إليه والذي يصعدون بواسطته إليه. لا يعرفون هذا السبيل، بل يعتقدون أنّهم في علوّ النجوم ولمعانها، وها أنّهم قد سقطوا على الأرض، «وقَدْ أَظْلَمَ قَلْبُهُمْ الأخْرَقُ». يقولون صوابا كثيرا عن الخليقة، ولكن لا يبحثون بتقى عن الحقّ الصانع للخليقة، ولذلك لا يجدونه، أو إن هم وجدوه، فإنّهم رغم علمهم بالإلـٰه «لاَيَعْبُدُونَهُ، كما يُعبد

الإلـهُ» ولا يحمدونه، ويتيهون «فِي هذَيَانِهِمْ»، ويقولون «إِنَّهُمْ ذَوُو حِكْمَةٍ» ناسبين إلى أنفسهم ما هو ملكك، وبذلك يسعون في فحشاء عماهم المفرط لينسبوا إليك أيضا ما هو لهم، أي ليحمّلوك أنت الذي هو الحقّ، أكاذيبهم، وليحوّلوا «عِزَّةَ الإِلآهِ الذي لا يَفْسُدُ بِالمقارَنَةِ بِصورَةِ الإِنْسَانِ الْقَابِلِ لِلْفَسَادِ، والطُيُورِ وَالسوائِمِ والْحَيَّاتِ»، ويغيّرون «حقَّكَ إِلَى كَذِبٍ»، ويعبدون الخليقة ويخدمونها «عِوَضًا عنِ الْخَالِقِ».

6. غير أنّي كنت أتذكّر الكثير من أقوالهم الصائبة المبنيّة على ملاحظة الخليقة ذاتها، وكـانت تتراءى لي عقلانيّتها من حساب الأزمنة ونظامها ومن أدلّة النجوم الواضحة. وكنت أقارنها بأقوال المَانويّ التي سجّل فيها عن هذه الأشياء الكثير من التّرهات الضافية جدّا[1]، ولم أكن أتبين، في انقلاب الشمس الصيفيّ أو الشتائي (**solistitiorum = solstices**) وفي اعتدال الرّبيع أو الخريف (**aequinoctiorum = équinoxes**)ولا في الكسوف أو الخسوف ما يتراءى من العقلانيّة، ولم أكن أفهم أيّ شيء من هذا القبيل في كتب الحكمة الدّنيويّة. أمّا في كلامك فكنت بالمقابل أُؤمَرُ أن أومن بها، بل لم تكن لتوافقَ تلك الحقائقَ العقليّة التي كنت أكتشفها بالحساب والمشاهدة، وكان الفرق بينهما شاسعا جدّا.

IV.7. يا مولاي، يا «إِلآهَ الْحَقِّ»، هل يكفي أن يعلم المرءُ هذه السخافات لينال إعجابك؟ كلاّ، بل شقيٌّ هو الإنسان الذي يعلم هذا كلّه لكنه يجهلك، في حين أنّ من يعرفك ينعم بالسعادة ولو جهل كلّ ذاك. أمّا الذي يعرفك ويعرفها، فليس بمعرفتها أسعد، بل هو سعيد بسببك فقط، إن كان « مَعَ مَعْرِفَتِهِ لَكَ يُمَجِّدُكَ كَمَا أَنْتَ وَيَحْمَدُكَ، ولا يتِيهُ فِي هَذَيانِهِ».

فكما أنّ ذلك الذي يعرف كيف يملك شجرة، ويحمدك على معرفة الوجه في استعمالها، ولو جهل كم ذراعا يبلغ ارتفاعها أو كم ذراعا ينتشر عرضها، أسعد حظّا مِنْ ذلك الذي يعرف قيسها وعدد جميع أغصانها، لكنه لا يملكها، ولا يعرف خالقها ولا يحبّه، كذلك الإنسان المؤمن الذي يملك الدّنيا كلّها بثرواتها والذي «دُون أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيُّ شَيْءٍ، يَمْلِكُ الْكُلَّ» بالتعلّق بك، أنت الذي يخدمك الجميع؛ فحتى لوْ وصل به

(1)...في مدوّنة المناظرة الأولى بين أوغستينوس والمانويّ «فيليكس» Félix صرّح «فيليكس» بما يلي: علّمنا ماني نشأة العالَم، ولِمَ نشأ وكيف نشأ ومن أنشأه؛ وفسّر لنا لم يوجد النهار ولِمَ يوجد الليل؛ وعلّمنا مسار الشمس والقمر. ولم يفسّر لنا شيء من جميع هذا في أي كتاب من كتب الرسل. هذا سبب إيماننا أن «ماني» هو روح القدس الموعود»... الملاحظة 1 من هامش صفحة 96 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

الأمر إلى جهل مدارات الدّبّ الأكبر (Septentrionum gyros = les circuits de la Grande Ourse)) فإنه، على أيّ حال، يكون من الخطل الشكّ في كونه أحسن حالا من الذي يقيس السماء ويحصي النجوم ويزن الأسطقسات، لكنه معرض عنك، أنت الذي «رَتَّبْتَ الْكُلَّ حسَبَ الْمقيَاسِ والْعَدَدِ وَالْوَزْنِ».

V 8. لكن مع ذلك، من كان يطالب مَانويّا أن يكتب أيضا في مواضيع يمكن للمرئ أن يجهلها جهلا تاما دون أن ينال الجهل بها من تقواه؟ فأنت قلتَ للإنسان: «التقْوَى هِيَ الْحِكْمَةُ»، وكان بإمكانه أن يجهل هذه التقوى ويعلم تلك المسائل العلمية علم اليقين: إلّا أنّه لم يكن يعلمها بتاتا، وإن تجرّأ بكلّ وقاحة على تعليمنا إياها، فلم يكن إذن يفقه شيئا من التقوى المشار إليها. وحتى إذا كان المرء من المتبحرين في المعارف الدّنيويّة فإنه من الغرور التَبَجُّحُ بتعليمها. لكنّه من التقوى الإقرار بها إليك. لذلك فإنْ حاد المانويّ الحقّ، ولم تغن عنه المغالاة في القول، فقد أفحمَه في جهله أولئك الذين كانوا قد تعلّموا حقّا تلك المسائل، مبيّنين بجلاء ما كانت تقوله نظريّاتُه في المسائل الأكثر تعقيدا.

لم يكن يريد أن يُحْتَقَرَ شأنه، بل إنه حاول أن يُقْنِعَنَا بأنّ الرّوح القدس الذي يسلّي النفوس ويغني المخلصين لك، يوجد فيه شخصيّا بكامل سلطته[1]. فلذلك كلّما ضُبط متلبّسا بقول أخطاء عن السماء والنجوم وعن الشمس والقمر في حركاتهما، وإن لم يتّصل ذلك بالعقيدة الدينيّة، فهو مع ذلك كان يتميّز بجرأة لا تخلو من الترجيس لها، حيث أنه لم يكن فقط يقول ما كان يجهله، بل يقول أيضا الأكاذيب في كبرياء وغرور جنونيّين، حتّى أنّه كان يزعم أنّه ينسبها إلى نفسه كما لو أنّه كان إلـٰها.

9. عندما أسمع أخا مسيحيّا مهما كان، لا يعرف تلك المسائل، ويخلط فيها بين هذا وذاك، أصبر على خطئه ولا أغضب. إن هو إلّا إنسان يرى رأيا لا أرى فيه ضررا به، بما أنّه، يا مولاي وَ«خَالِقَ الكُلِّ»، لا يرى فيك ما لا يليق بك، وإن كان يجهل مواقع المخلوقات المادية وهيئتها. أمّا أوّل الضرّ فهو عندما يحسب أنّ تلك المسائل تتّصل بعقيدة التقوى ذاتها، ويتجرّأ على أن يؤكّد بأكثر إصرارا ما يجهله. ولكنّ مثل هذا

---

(1) «قبل «ماني» Manès بقرن (وقد سُلِخ حيّا سنة 275م بأمر من ملك الفرس «بهرام الأول»)، سلّم «مونتان» أمره بين يديْ هذا «الْمُوَاسِي» وهذا «الوسيط» وهذا الروح القدس المنتظر... الذي وعد به المسيح، والذي سيُدخل المريدين في الحقيقة السرمديّة وسيعلّمهم ما لم يكونوا بعدُ قادرين على سماعه من فم المسيح. ويظهر نفس الغرور في التاريخ الديني حتّى الحديث، لدى المتنبئين والمتحمّسين». الملاحظة 1 من هامش صفحة 98 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

الضعف أيضا يجد في مهد الإيمان سندَ الرّحمةِ الأمِّ، إلى أن يُرفع الإنسان الجديد «إلى مُسْتَوَى الإنْسَانِ الكَامِلِ»، وحتّى لا يستطيع أن يحوِّمَ «فِي كُلِّ مَهَبِّ عَقَائِدِيٍّ».

أمّا بشأن هذا الفقيه المانويّ، هذا العالم الحجّة، هذا القائد الأمير الذي كان له من الجرأة ما كان يُقنع به أتباعه بتلك الترّهات، أي بكونه ليس بشرا بل روحَك القدسَ الذي يجب عليهم أن يطيعوه ويؤمنوا به، فمن لا يعتبر أنّ مثل ذلك الجنون، حالما يُضْبَطُ صاحبه متلبّسا بقول الأكاذيب، لا يستحق إلّا الكراهية والاحتقار؟

لكن، مع ذلك، لم أكن قد اكتشفت بعدُ بوضوح، كيف يمكن أيضا أن نفسر حسب نظريته اختلاف طول الأيّام واللّيالي وتعاقب اللّيل والنهار بالذات وأُفُول الكواكب وكلّ ما كنت قد قرأته من هذا القبيل في الكتب الأخرى. ولو كان ذلك ممكنا لبقيت لعمري في حيرة من حقيقة هذه القضيّة، بل لكنْت قد خيّرت اعتماد سلطته ركيزة لعقيدتي بسبب الإيمان بالقداسة المحسوبة فيه.

10.VI. وطيلة ما يقارب تلك السنين التسع بالذات التي أصغيت فيها إلى المانوّيين بعقلي الشارد، كنت أترقّب بفارغ الصبر مجيء فاوِسْتُوسَ الشهير إذ كان الآخرون من أولئك الذين كنت ألاقيهم بالصدفة، عاجزين عن الردّ على اعتراضاتي بشأن مثل هذه المسائل الشائكة، بل كانوا يشيدون لي بذلك الرّجل القادر، إثر وصوله مباشرة وبمجرّد الدّخول في النقاش، على إجابتي عنها بكلّ سهولة، بل وعلى أن يجيب بكلّ وضوح عمّا هو أعوص منها، لو طلبت منه ذلك.

لذلك فعندما قدم، وجدتُ فيه رجلا ظريفا ذا لغة عذبة، يقول ما اعتاد المانويون قوله بالذات، لكن بكلام أكثر عذوبة من كلامهم. هل كان يشفي غليلي بالأقداح النفسية من يد أطيب الندماء؟ بمثل تلك العروض كانت أذناي قد صُمّتا، ولم تكن تبدو لي أحسنَ لكونها كانت تُقال بكلام أجمل، ولا صائبة لكونها بارعة، كما أنّ عقله لم يكن حكيما بسبب بلاغة محيّاه وإشعاع فصاحته. أمّا أولئك الذين كانوا يشيدون لي به، فلم يكونوا صادقين في حكمهم، لذلك كان يبدو لهم ماهرا حكيما، لأنّه كان إذا تكلّم راق لهم ببلاغته.

ولكنّي علمت أنّ صنفا آخر من الناس أيضا يعتبرون الحقّ مشتبَها فيه، ويرفضون الانصياع إليه، لو عُرِضَ عليهم في خطاب ذي رونق وغزارة[1]، أمّا أنا فقد كنتَ علّمتني

(1) «الملاحظات الموالية مهمّة، إذا ذكرنا أنّ عددا كبيرا من المؤلفين المسيحيين الأوائل يحبّون احتقار «جمال» الأسلوب، بشأن القولة الأوغستينية الموالية: «compto atque uberi =

بعد، يا إلـهي، بطرق عجيبة خفيّة، وإن آمنت أنّك أنت الذي علّمتني، فلأنّ ذلك هو الحقّ، ولأنّه لا معلّم آخر للحقّ سواك، في أيّ مكان ومن أيّ مكان يتجلّى. لذلك كنتُ تعلّمت عنك بعد ألّا شيء يجب أن يعدّ قولا حقّا، لكونه قيل في كلام فصيح، ولا قولا باطلا، لأنّ في النطق به قبحا ونشازا، وعلى العكس أنّه ليس بالقول الحقّ إذن، لأنّ تعبيره خال من الرّشاقة، ولا بالباطل، لأنّ الخطاب فيه رائع، بل تكون الحكمة والغباوة كما تكون كذلك الأطعمة نافعة أو ضارة، أمّا الألفاظ المنمّقة وغير المنمّقة فيمكن أن يقدم فيها المدر والوبر، كما يقدّم في الأطباق هذا اللون أو ذاك من الطعام.

11. كانت إذن لهفتي التي ترقبت بها منذ وقت طويل جدّا ذلك الرّجل، لهفة سائغةً بسبب الحيوية التي كان يضفيها على النقاش وحسن اختياره للألفاظ الملائمة المناسبة التي كانت تطاوعه في كلّ يسر للتعبير عن أفكاره. كنت حقّا أستسيغها، وكنت شأني شأن الكثيرين أو ربّما أكثر منهم، أمدحه وأعظّمه، لكنّي كنت مكدّرا، لأنّه لم يكن يرخّص لي، بسبب اكتظاظ المستمعين حوله، أن أصل إليه وأبلّغه انشغالي بمسائلي الحرجة، متحادثا معه بتلقائيّة، ومنصتا إلى خطابه ورادّا عليه. وبمجرّد أن تمكّنت من ذلك، شرعت في الاستحواذ على سمعه صحبة رفاقي الخلّص، في تلك الأوقات التي لم يكن فيها من غير اللائق أن نتبادل الحديث بكامل الحريّة، والتي قدّمت له فيها بعض القضايا التي كانت تحيّرني. اختبرتُ أوّلا رجلاً لا خبرةَ له بالمناهج الشريفة، ما عدا النحو، علاوة على أنه لم يكن له منه إلّا الشائع المبتذل. وبما أنه قد قرأ بعض خُطَبِ شِيشرُونَ وعددا قليلا جدّا من كتب سِينِيكَا (Senecae = Sénèque) [1] وبعض الأشعار وما كانت قد كتبته طائفتُه من الأسفار اللاتينيّة المُنَمَّقَة، وبما أنّ ممارسة الخطابة كانت لديه ممارسة يوميّة، فإنّ الفصاحة كانت آلته الطيّعة، فكانت أقواله أكثر تأثيرًا وفتنة بتوجيه من الذكاء وشيء من الأناقة الطبيعيّة.

أليس هذا ما يجول بخلدي، يا مولاي وإلـهي، ويا حكم ضميري؟ هاك قلبي أمامك وذاكرتي، أنت الذي كنتَ آنذاك تقودني حسب سرّ عنايتك الخفيّ، وكنتَ منذ ذلك الوقت تضع أمام وجهي أخطائي الفاحشة كي أراها وأكرهها.

= sermone» أي «في خطاب ذي رونق وغزارة». الملاحظة 1 من هامش صفحة 99 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

(1) الفيلسوف اللاّتيني الشهير، كان أستاذا للإمبراطور «نيرون» Néron. أقدم على الانتحار بعد أمر من هذا الأخير، واضعا مذهبه محلّ الواقعيّة والالتزام الحق. عاش في السنوات الخمس والستين الأولى من القرن الأوّل للميلاد، وعرف بالخصوص بمؤلفاته الفلسفية، ومنها «رسائل أخلاقية إلى «لوسيليوس» (Lettres morales à Lucilius). وكان «سينيكا» في مدينة روما فيلسوف الرواقيّة بلا منازع (Stoïcisme).

12.VII. إذن، بعد أن اتّضح لي جليّا أنّ هذا الرجل لا خبرة له بتلك القضايا التي كنت قد تصوّرت أنّه متبحّر فيها، بدأت أيأس من قدرته على أن يوضّح لي المسائل التي كانت تحيرني وأن يحلّها. كان بإمكانه أن يلمّ بالتقوى الحقيقية مع جهله بتلك النظريات المانوية، لأنّ كتبهم كانت تعجّ بالترهات عن السماء والنجوم والشمس والقمر: إلّا أني كنت أرغب بالخصوص في أن يشرح لي «فوستوس»، بالمقارنة مع الدلائل العددية التي كنت قد قرأتها في موضع آخر، هل إن التي كانت تحتويها الكتب المانوية أفضل منها، أم هل يمكن على الأقل أن يصدر عنها تفسير مقنع أيضا لتلك الأمور. لكني أصبحت لا أصدق أنه قادر على الجواب بدقة.

ومع ذلك فإنّي عرضتها عليه للتقصّي والنقاش، إلّا أنه لم يتجرّأ بتواضع وتبصّر على تحمّل ذلك العبء، فقد كان يعلم أنّه يجهلها، ولم يخجل من الاعتراف بذلك. لم يكن من أولئك الثرثارين الكثيرين الذين كنت قد تحملت ثرثرتهم وهم يحاولون استدراجي إلى مذهبهم دون أن يقولوا أيّ شيء يذكر. أمّا هو فكان بالعكس ذا فكر إن لم يكن منصرفا إليك، فإنّه دائم الحذر من نفسه. لم يكن جاهلا جهلا تاما بجهله، فلم يرد المجازفة في نقاش يؤدّي به إلى مسلك مسدود، حيث لا يمكن الخروج منه ولا العودة إليه بيسر: ومن هنا أيضا كان إعجابي به أكبر[1] إذ الجمال يكون أشدّ في اعتدال فكر المعترف، منه في القَضَايَا التي كنت أرغب في معرفتها. وكنت أجده هكذا في جميع المسائل الأعوص والأدقّ منها.

13. إذن خبا حماسي الذي كنت أكنّه للأدب المانويّ، ورغم شدّة يأسي من بقيّة علمائه، بسبب ما بدا لي فيهم من النقص في مختلف المسائل التي كانت تشغلني حتّى لدى أشهرهم، واصلت التردّد عليه بسبب الحماس الذي كان هو يتّقد به تجاه ذلك الأدب الذي كنت أنا آنذاك أدرّسه للناشئة في قرطاجة وأنا أستاذ في البيان. كنت أقرأ معه إمّا ما كان يرغب فيه لأنه سمع عنه، أو ما كنت أعتقد أنّه يوافق مثل تلك العبقريّة لامحالة. وفي الواقع كلّ جهودي التي كنت قد قرّرت أن أتقدّم بها في تلك الطائفة، خارت كليّا، بعد أن تعرّفت على ذلك الرّجل. لم يصل بي الأمر إلى الانفصال تماما عن أعضائها[2]، بل قررت أن أكتفي مؤقتا بملازمة الوضع الذي ألقيت فيه نفسي دون

---

(1) «هذا الفصل يقدم فكرة واضحة عن الحسّ النقدي وحبّ العدل لدى أوغستينوس». الملاحظة 1 من هامش صفحة 101 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق، يدلك على ذلك قوله: **etiam hinc mihi amplius placuit** أي «مثل هذه الصراحة جعلته أقرب إلى قلبي».

(2) سنراه أيضا في روما نفسها على اتصال بالمانويين، وحالاً ضيفا على بعض المستمعين إلى =

روية، لأنّني لم أكن أجد فيها شيئا أحسن، اللهمّ أن يسطع صدفةً نور شيء آخر يكون اختيارا أفضل.

لذا فإنّ ذلك الرجل الذي يُدعى «فَاوِسْتُوسُ» والذي كان يمثل في نظر الكثيرين «خناق الْمَوْتِ» قد أخذ بعد يخلّصني من ذلك الذي وقعت فيه، دون إرادة منه لذلك ولا علم له به. ذلك أنّ يديك، يا إلـهي، في خفايا عنايتك لم تتخلّيا عن روحي، وأنّ أمّي كانت من دم قلبها، ليلا ونهارا، تضحّي إليك عنّي بدموعها، لقد عَامَلْتَنِي بصور عجيبة، أنت الذي فعلتَ ذلك يا إلـهي. إذ «أنَّ خُطَى الإنسانِ مُوَجَّهَةٌ مِنَ المَوْلَى، وَسَوْفَ يَرْسُمُ مَسِيرَتَه». من أين تكون النجاة، إن لم تكن من يدك وهي تعيد من جديد خلق ما قد خلقته؟

14.VIII. كان ذلك إذن بأثر من فعلك، أن رأيتُني أقتنع بالذهاب إلى روما، وأن أفضّلَ أن أدرِّسَ فيها ما كنتُ أدرِّسه في قرطاجة.

ما هي الدوافع التي حدت بي إلى الاقتناع بذلك؟ لن أنسى الاعتراف لك بها، لأنّه عليّ هنا أن أفكر مليّا في مقاصدك الخفيّة جدّا وأن أشيد بها، وأشيد كذلك بشفقتك الناجعة لنا جدّا.

إذن لم أرد الذهاب إلى روما من أجل الجرايات العليا ولا الرّتب الرفيعة التي كان الأصدقاء الذين زيّنوا لي السفر يعدونني بها، ولو أنّها كانت آنذاك تُحرّك نفسي وتحرضها، بل كان السبب الأكبر وربّما الوحيد أنّي كنت أسمع أنّ النشء يدرسون هنالك في هدوء أكبر، وأنّهم مُلْزَمُونَ بالهدوء بواسطة نظام أكثر صرامة، بحيث أنّهم لا يهجمون في هياط ووقاحة على قسم مدرّس ليسوا من تلامذته، ولا يُقْبَلُونَ البتّة فيه، إلّا إذا سَمح لهم به ذلك المدرّس. على العكس كان تسيّب الطلبة في قرطاجة شنيعا جامحا: يندفعون إلى الأقسام بلا حشمة وَربّما كالمجانين، ويُخلّون فيها بالنظام الذي يضعه كل مدرس لخير التلاميذ أنفسهم، ومقترفين ذنوبا كثيرة في بلاهة لا تُعقَلُ يعاقب عليها القانون، لو لم يحمهم التسامح المأثور. لكنّ هذا التسامح يضاعف من شقائهم، وهم يرتكبون ما لن يسمح به قطّ قانونك الأبديّ، كما لو أنه كان مسموحا به، ويتوهّمون أنفسهم يرتكبونه دون عقاب، والحال أنّ عماهم بالذات عقاب لهم على جرمهم، وأنّهم يعانون آلاما عظيمة لا تكاد تذكر أمامها تلك التي يوقعونها بغيرهم.

لذا فالسلوك الذي لم أرض به لنفسي وأنا طالب، كنت مُجْبَرًا على أن أتحمّله من

= دروسه. (الكتاب الخامس من الاعترافات X, 18). الملاحظة 1 من هامش صفحة 102 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

الآخرين بصبر، وأنا مدرّس. لذلك رغبت في أن أذهب إلى هذا البلد الذي على حدّ قول الذين يعرفونه لا يوجد فيه مثل هذا السلوك. غير أنّك «يَا أمَلِي ونصيبي عَلَى أَرْضِ الأحْيَاء»، أنت الذي جعلتني أحس في قرطاجة بالمِنْخَسِ الذي كان يصرفني عنها، حتى أغير مكاني من الأرض لنجاة روحي؛ وكنتَ تُقدم لي لتجلبني إلى روما عروضا مغرية: تفعل ذلك بوساطة أناس مولعين بحياة الأموات، يرتكبون هنا الحماقات، ويعِدونني هناك بالأحلام؛ ولكي تقوّم خطاي، كنتَ تعتمد في الخفاء انحرافهم وانحرافي. إذ إنّ من كانوا يشوّشون سكينتي كان عَمَاهُمْ منجرّا عن تكالُبِهم الفظيع، ومن كانوا يُغْوُونَنِي بشيء آخر، كانوا ذوي حِكْمَةٍ أرضيّة دنيويّة محض، أمّا أنا الذي كنت هنا في قرطاجة أكره شقائي الحقّ، فإنّي كنت هنالك في روما أنشد سعادة زائفة.

15. لكن لماذا رحلتُ من قرطاجة وذهبتُ إلى روما، كنتَ يا إلـٰهي تعلم ذلك، ولم تكن قد أعلمتنا به أنا وأمّي. لقد بكت رحيلي بحرقة ولوعة، وتبعتني حتى البحر، غير أنّي خدعتها، وهي ممسكة بي بقوّة، كَيْ تثنيني عن الرحيل أو تصحبني فيه.زعمتُ أنّي كنت لا أريد أن أغادر صديقا كان ينتظر الرّيح المناسبة كي يُبْحِرَ. كذبت على أمّي، وأيّة أمّ! وأَفْلَتُّ منها. ولأنّك عفوت عن زلّتي، فإنّ شفقتك حفظتني من لجج البحر، وأنا ملآن بأدناسي اللّعينة، وأوصلتني إلى ماء نعمتك لأغتسل فيه، لتكفّ أنهار دموع أمّي التي كانت تسقي بها الأرض من أجلي كلّ يوم بمرأى منك.

لكن لمّا كانت ترفض العودة بدوني، أقنعتها بصعوبة أن تقيم تلك اللّيلة بمكان قريب جدّا من سفينتنا، في كنيسة قبريانوس المنعّم (= **memoria[1] beati Cypriani** **chapelle dédiée au bienheureux Cyprien**). وفي تلك اللّيلة ذاتها رحلت خفية عنها، أمّا هي فمكثت تصلّي وتبكي.

ماذا كانت تطلب منك، يا إلـٰهي، بكلّ تلك الدّموع، سوى ألّا تسمح لي بالإبحار؟ إلّا أنّك في عميق نيّتك، وإن كنت مصغيا لرغبتها الجوهريّة، لم تبال بما كانت تطلبه آنذاك، أي أن تجعل منّي الإنسان الذي كانت تتمناه دوما.

هبّت الرّياح ونفخت في أشرعتنا، وغاب الساحل عن أنظارنا، حيث كانت أمّي،

(1) هذا المَعْلَم التذكاري للقديس «سبريانوس» Cyprien الموجود داخل أسوار المدينة قرب البحر كان أقدم كنيسة أقيمت في قرطاجة على شرف القديس المذكور (انظر «مونسو» MONCEAUX في كتابه «تاريخ الأدب بإفريقيا المسيحية **Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne II,**» 384). الملاحظة 1 من هامش صفحة 104 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

من الغد، تتألّم كالمجنونة وتَملأ بالنحيب والصراخ أذنيك اللاّمباليتين بها، لأنّك كنت تجذبني بشهواتي كي تضع حدًّا لشهواتي ذاتها. أما هي فإنّها كانت، بسبب رغبتها الجسمانيّة، تسلّطُ عليها سياطُ الآلام العادلة. كانت تحبّ حضوري بقربها شأن جميع الأمّهات، بل أكثر من الكثيرات بكثير، ولم تكن تعلم ما كنتَ ستهيّئه لها من أفراح بغيابي. لم تكن تعلمه، لذا كانت تبكي وتنتحب، وبتلك الآلام كانت تكشف عمّا ورثته من حوّاء، إذ إنّها تطلب بالنحيب ما كانت قد ولدته بالنحيب. ولكن بعد أن اتّهمتني بالمكر والقسوة عادت ثانية إلى الدّعاء لي، وانصرفت هي إلى حياتها العاديّة، وانصرفت أنا إلى روما.

16.IX. وها أنذا أُستَقْبَلُ فيها بسياط مرض الجسد. وكنتُ بَعْدُ ذاهبا إلى جهنّم، حاملا كلّ الخطايا التي كنتُ قد ارتكبتها ضدّك وضدّ نفسي وضدّ الآخرين، وهي كثيرة وثقيلة فوق قيد الخطيئة الأصليّة التي بها نموت كلّنا «في آدَمَ». إذ إنّك لم تكن قد غَفَرْتَ لي أيّة واحدة «فِي المَسِيحِ»، وهو لم يكن قد فكّ بصليبه العداوات التي كنتُ قد ارتكبتها معك بسبب ذنوبي. فكيفَ كان ليفكّها بالصليب الذي كنت قد ظننت أنّه لم يُصلبْ عليه إلّا شبحٌ؟ إذن كاذبا كان يبدو لي مماتُ جسده، بقدر ما كان حقيقيّا مماتُ روحي، وبقدر ما كان حقيقيّا مماتُ جسده، كانت كاذبة حياةُ روحي التي كانت لا تؤمن به.

ومع ارتفاع الحمّى كنت أسير بَعْدُ إلى الهلاك. فأين كنت سأذهب، لو غادرت آنذاك هذه الدّنيا، إن لم يكن إلى النار وإلى العذاب المناسب لجرائمي، طبقا لحقيقة أمرك؟ وذاك ما كانت هي لا تعرفه، ومع ذلك فهي كانت تدعو لي غائبة. أمّا أنت الحاضر في كل مكان هي فيه، فكنتَ تستجيب لها، وحيثما كنت، كنتَ تشفق عليّ، حتّى أستعيد صحّة جسدي وإن لم يزل قلبي المُرَجّس في هذيانه.

لم أكنْ أرغب في تَعْمِيدِكَ وأنا محفوف بذلك الخطر المحدق. لقد كنت وأنا طفل أحسنَ شأنا من ذلك، فقد رغبتُ فيه وألححت على تقوى أمّي، كما ذكّرتُ بذلك بَعْدُ واعترفت به[1]، غير أنّي كنتُ كبرتُ في خزيِي، وفي جنوني كنت أهزأ بنصائح طبّك، أنت الذي لم تسمح بأن أموت أنا هكذا مرّتين[2]. فلو كان قلب أمّي ضُرِبَ بمثل هذا الجرح، لما شفِيَ قطّ، لأنّ لساني عاجز عن التعبير عمّا كان يتأجّج في صدرها من

(1) انظر أعلاه «I, XI, 17». الملاحظة 1 هامش صفحة 106 من الكتاب الخامس للاعترافات.
(2) هذا الموت المزدوج هو موت الجسم وموت الروح. الملاحظة 1 من هامش صفحة 106 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق. بشأن قوله: à propos de...me... bis mori

العواطف نحوي، وكم كانت همومها وهي تلدني روحا أكبر من الهموم التي عانتها وهي تلدني جسدا.

17. لذا فإنّي لا أرى كيف كانت ستشفَى، لو أنّ موتي بعج هكذا أحشاء حبّها. وإلى أين كانت ستؤول أدعيتها تلك التي كانت ترفعها دون انقطاع؟ مآلها إلى جوارك وبالقرب منك، وليس إلى أيّ مكان آخر. أم هل أنت، يا إلـهَ الشفقات، كُنتَ ستَحْتَقِرُ «قَلْبًا مُنْسَحِقًا مُهَانًا» قلب أرملةٍ عفيفةٍ زاهدةٍ، مستعدة دوما لأداء الصدقات، تطيع قدِّيسِيكَ وتخدمهم، ولا تترك يوما واحدا يمرّ دون تقديم القرابين لمذبحك[1]، تقصد كنيستك مرّتين في اليوم صباحَ مساء دون أيّ انقطاع، لا من أجل الخرافات الزائفة وهذيان النسوان العجائز، بل كي تسمع كلامك، وتُسْمِعك أنت أدعيتَها؟ أكنت تحتقر أنت الدّموع التي لم تطلب بها منك الذهب والفضّة ولا أيَّ شيءٍ واهٍ فان، بل نجاةَ روح ابنها؟ أأنت الذي جعلت بفضلك من تلك المرأة ما جعلت،كنت تحتقرها وتمنع عنها عونك؟ كلاّ، مولاي، بل كنت بالعكس حاضرا لها ومستجيبا لدعائها وفاعلا بها وفق الأمر الذي كنت قد سبقت فقدّرت وجوب العمل به.

لتَغرب عنّي فكرة أنّك قد تكون خدعتها في تلك الرؤى والردود التي ذكّرت بها بعدُ (وإنْ لم أذّكر بها جميعا) والتي كانت تحفظها في صدرها المخلص، وتصورها لك دوما في دعائها كما لو كانت ممضاة بخط يدك (**tamquam chirografa tua** = **comme signées de votre main**)! فأنت، «بسبب رحمتك الأبديّة»، تتكرّم بأن تجعل من كل الديون التي تبرِّئ منها عبادك وعودا تصبح مدينا لهم بها.

18.X. إذن شفيْتني من ذلك المرض، وعافيْت ابن «خادمتك» آنذاك، عافيت جسده أوّلا، حتى يكون أهلا لأن تعطيه شفاء أحسن وأوثق.

وكنت مرتبطا آنذاك أيضا في روما مع أولئك القدّيسين المزّيفين الكاذبين: لا فقط مع المستمعين إليهم الذين كان أيضا من ضمنهم الرجل الذي كنت قد مرضت وتعافيتُ في منزله، بل وأيضا مع الذين يسمّونهم «المُختارين»(**electos** = **élus**)[2].

---

(1) أخذت اللغة اللاتينية المسيحية الكلمتين «**altare, ara**» اللتين كانتا تعنيان المذبح لدى الوثنيين. (والصيغة **altaria** هي الأقرب إلى الصيغ العادية بل والأقدم) انظر العبارة **ad altare tuum** : أي على مذبحك. الملاحظة 1 من هامش صفحة 106 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق.

(2) سرعان ما اضطر أوغستينوس إلى أن يلاحظ أنّه لئن كان مذهب «ماني» يأمر المختارين بحياة التزهّد الصارم، فإنّ بعضهم كان في الواقع يتهرّب من الواجبات التي كان يتظاهر بالقيام بها =

فحتى ذلك الوقت كنت أظنّ أننا لسنا نحن الذين نُذنب، بل أنّ طبيعة أخرى لا أدري ما هي، هي التي تذنب فينا، وكان يحلو لكبريائي أن أكون بعيدا عن الخطيئة، وألّا أعترف بخطئي، عندما كنت أخطئ، كي تداوي روحي «التي كانت مذنبة أمامك»، ولكن كنت أحبّ أن أجد الأعذار في التعلل بإدانة شيء آخر لا أدري ما هو، كان في داخلي وليس أنا. وفي الحقيقة كنت بأكملي أنا، وكفري هو الذي كان قد جعل جزءا من نفسي ضد نفسي، وهذا الذنب كان يشتدّ إعضالا، بقدر ما كنت لا أراني مذنبا، وكان جوري المقيت يفضّل «يا إلـه القدرة الكليّة» أن تُغلب فيّ لهلاكي، على أن تنتصر أنت عليّ من أجل نجاتي.

إذن لم تكن قد وضعت بعد «حارسا على فمي، وباب التحفظّ حول شفتي،» كي لا ينقاد قلبي «للكلمات الخبيثة من أجل تبريرات ذنوبي بعون من الناس القائمين بالجور». ولهذا إلى حد ذلك كنت لا أزال على اتصال بـ«مختاريهم»، ولكني كنت يائسا من أن أستطيع أن أغنم بعدُ شيئا من هذا المذهب الزائف، وكنت قد قرّرت، إن لم أجد شيئا أحسن، أن أكتفي به بالذات، لكن تمسّكي به أضحى بعد أكثر فتورا وتهاونا.

19. وتبعا لذلك نشأت لي أيضا فكرة كون أولئك الفلاسفة الذين يسمونهم بالأكاديميين (Academicos = Académiciens)[1] كانوا أشد حكمة من جميع الفلاسفة الآخرين، لأنهم كانوا يرون ضرورة الشك في كلّ شيء، وأن الإنسان لا يقدر أن يدرك أية حقيقة. إذن كنت أظنّ حقّا أنّهم كانوا يرون ما كانت تنسبه إليهم العامّة، غيرَ فاهم بعد مقاصدهم ذاتها حقّ الفهم.

لم أتهاون في أن أردّ مضيّفي عينه عن الثّقة المفرطة التي شعرت أنّه يملكها في القضايا الأسطوريّة التي تملأ الكتب المانويّة. غير أنّي كنت أكثرَ ألفة في معاملتي الوديّة لهم، منّي في معاملتي لجميع الناس الآخرين الذين لم يكونوا من تلك البدعة.

= الملاحظة 1 من هامش صفحة 106 من الكتاب الخامس للاعترافات، المرجع السابق. وهنا يستهزئ القديس بالمختارين المزعومين منهم.

(1) ننقل هنا ملاحظة «ب. دي لابريول» P. DE LABRIOLLE الواردة بالصفحة 108 من الاعترافات: المدرسة الأكاديمية الجديدة، مدرسة أرسيزيلاس» Arcésilas (من 375 إلى 240 ق م)، ومدرسة «كرنياد» Carnéade (من 219 إلى 129 ق م)، ومدرسة "كليتوماك" Clitomaque (من 175 إلى حوالي 110 ق م)، ومدرسة «فيلون دي لاريس» Philon de Larisse (من 148 إلى حوالي 80 ق م)، ومن المحتمل أن يكون أوغستينوس لم يطّلع على المذهب الأكاديمي إلّا من خلال كتاب «الأكاديميا» Academica الذي ألّفه «شيشرون» Cicéron سنة 45.

ولم أكن أدافع عنها بالحميّة المألوفة القديمة، بل كانت الألفة بهم مع ذلك - إذ كانت روما ملجأ لأغلبيّتهم - تجعلني أكثر توانيا في البحث عن شيء آخر، خاصّة وأنّي كنت في كنيستك، «يا مولى السماءِ والأرْضِ» وخالقَ كلّ المرئيّات واللاّمرئيات، يائسا من أن أستطيع أن أجد الحقّ الذي كانوا قد حوّلوني عنه. وكنت أجد كلّ الخزي عند تصوّرك في شكل الجثمان البشري من اللحم، محدودا بملامح شبيهة بملامح أعضاء أجسادنا! وعندما كنتُ أروم التفكير في إلـٰهي، لم أكن أعرف إلّا أن أتصوّره في كتلة جسديّة - إذ لم أكن أتصوّر أن يوجد شيء إن لم يكن على هذا النحو - ذاك كان هو السبب الأكبر وربّما الوحيد لِخطئي المحتوم.

20. ومن هنا أيضا كنت أعتقد في مثل هذا الوجود الماديّ للشرّ، وكونه ذا كتلة بشعة وبلا شكل محدود، إمّا سميكة، وهي التي يسمّونها أرضا، وإمّا دقيقة رقيقة، مثل جوهر الهواء، وهذا الطيف المؤذي **(malignam mentem = esprit malin)** يتوهّمونه زاحفًا على هذه الأرض[1]. ولما كانت تقواي، مهما كان نقصها، تجبرني على أن أعتقد أنّ الإلـٰه الطيّب لم يخلق أيّة طبيعة خبيثة، كنت أرسم هاتين الكتلتين كالمتضادّتين، وغير متناهيتين كلتيهما، لكنّي جعلت الخبيثة على سلّم أضيق، والطيّبة على سلّم أكبر، وكان هذا المصدر المسموم منبع جميع أنواع الرّجس الأخرى.

وعندما كانت روحي تحاول الرّجوع إلى العقيدة الكاثوليكيّة، كانت تُدْحَرُ، لأنّ العقيدة الكاثوليكيّة ليست كما كنت أحسب وأقدّر. كنت أتصوّر أنه من الأقرب إلى التقَى، أن أعتبر أنك، يا إلـٰهي - الذي تشهد عليك «شَفَقَاتُكَ» عليَّ - غيرُ متناه أيضا من جميع الأجزاء، سوى واحد، هو الذي كانت كتلة الشرّ معارضة فيه لك، (وأنا مجبر على الإقرار بكونك في ذلك محدودا)، بدل أن أفترض أنّك محدود في جميع الأجزاء، تحدّك فيها صورة الجسم البشريّ. وكنت أفضّل أن أعتقد أنّك لم تخلق أيّ شرّ - لأنّ الشرّ لم يكن يتبدّى لي، في جهلي، مادّة ما فحسب، بل أيضا مادّة جسمانيّة، لأنّي ما كنت لأتصوّر العقل إلّا كالجسم الدقيق المنتشر مع ذلك في الفضاء - كنت أفضّل ذلك على أن أعتقد أنّ طبيعة الشرّ، كما كنت أخالها، صادرة عنك. لذلك كنت أخال مخلّصَنا، ابنَك الوحيدَ، منبعثا من كتلة جسمك النيّر الساطع من أجل نجاتنا، بحيث

---

(1) «مسألة أصل الشرّ من المسائل التي شغلت العقول القادرة على المباحث الماورائية... طيلة القرون الأولى... من بين أهل البدع والفلاسفة... ما مصدر الشرّ، وما علّته؟ ومن أين جاء الإنسان؟ إلخ». الملاحظة 1 هامش ص 109 من المرجع السابق.

أنّني ما كنتُ أرى فيه شيئا آخر غير ما كان يصوّره لي غروري. ولذا كنت أحسب أنّ مثل هذه الطبيعة ما كانت لتولد من مريم العذراء، دون أن تمتزج بالجسم. أمّا ما كنتُ رسمتُه هكذا، فلم أكن أرى كيف يمتزج دون أن يُنَجَّسَ. لذلك كنت أخشى أن أحسبه مُتَجَسِّدًا، حتّى لا أُجبر على أن أحسبه مُدَنَّسًا من جرّاء الجسم.

اليوم روحانيّوك سيضحكون منّي بلطف ومحبّة، عندما سيقرؤون «اعترافاتي» هذه. لكنّي، مع ذلك، هكذا كنتُ.

21.XI. ثمّ إنّ ما كان المانويّون قد انتقدوه في كتبك المقدّسة، كنتُ أعتقد أنّه لا يمكن الدفاع عنه (illi = eux = les Manichéens)، لكنّي أحيانا كنت أودّ حقّا أن أتباحثَ في بعض انتقاداتهم مع أحد أكبر العالِمين بكتبهم، وأختبرَ ما يمكن أن يكون رأيه فيها.

كان هناك رجل يدعى إلبيديّوسُ[1] (cuiusdam Elpidii = un certain Elpidius) يلقي محاضرات ومناقشات علنيّة، ضدّ أولئك المانويّين أنفسهم. وكانت، منذ وجودي في قرطاجة، قد أخذت تثيرني أيضا بعض الشيء، إذ كان يُعلن فيها مثل تلك الملاحظات عن الكتب المقدّسة التي لم يكن الردّ عليها يجابه بسهولة. كان ردّهم يبدو لي ضعيفا، فلم يكونوا لعمري يفصحون فيها عنها علنا وبسهولة، بل كانوا يفعلون ذلك إلينا في الخفاء، قائلين إنّ الكتب المقدّسة من العهد الجديد (scripturas noui testamenti = les Ecritures saintes du nouveau testament) قد حُرِّفَتْ على يد أناس لا ندري من هم، أناس أرادوا أن يُدمِجُوا دين اليهود في العقيدة المسيحيّة، ولم يكونوا هم أنفسُهم يقدّمون أيّة نسخة غير مزوّرة. لكنّي أنا المفكّر في الأشياء الجسمانيّة كانت ترهقني، ربّما كالمسجون أوالمخنوق، تلك الكتل التي كنت أَلْهَثُ تحت وطأتها، غير قادر على تنفّس هواء حقّك الصافي النقيّ.

22.XII. بدأت بحماس أفعلُ ما كنت قد أتيت من أجله، أعني تعليم فنّ الفصاحة في روما، كنت في البداية أجمع بمنزلي بعض التلامذة الذين كنت قد بدأت من أجلهم - وبفضلهم - أُصْبِحُ مشهوراً.

(1) ذكر «ب. دي لابريول» P. DE LABRIOLLE صفحة 108 من الاعترافات ما يلي: «لا نعرف شيئا عن هذا المجادل». أضف إلى هذا أنّ العبارة cuiusdam الدالة على الابتعاد تصدق على «البيديّوس» Elpidius أكثر من صدقها على «شيشرون» Cicéron في الكتاب الثالث (IV, 7) باعتباره قمة من رجال الثقافة.

واعلمْ أنّي أعلم أنّ أوضاعا أخرى توجد بروما ولم أكن أُعاني منها في إفريقيا. إذ إنهم في الواقع كانوا قد أخبروني أنّ تلك المُشَاغَبَاتِ (euersiones = chambardements) المعروفة لدى المراهقين الفاسدين لا توجد هنا. وقيل لي أيضا «إنّه قد يتفق أن تعمد عصبة من المراهقين على التآمر، للهروب من أن يدفعوا للأستاذ أجرته، فينتقلون إلى أستاذ آخر، ناقضين عهد الصدق والعدل بسبب حبّ المال».

وهؤلاء أيضا كان قلبي يكرههم، ولكن «بكَرَاهِيَّةٍ غَيْرِ مُكتَمِلَةٍ». إذ ما كنت سأعانيه منهم كان ربّما جعلني أكرههم أكثر ممّا كانوا يرتكبون من محظور في حقّ الغير.

ومع ذلك فأصحاب مثل تلك النفوس أدنياء، «يَزْنُونَ بَعِيدًا عَنْكَ» ويتعلقون بأشياء سريعة الزّوال، يتلاعب بها الزّمن، كالربح القذر من الوحل، ما إن تمسّه حتّى يدنّس يَدَكَ، ويعانقون علما زائلا، ويحتقرونك، أنت القارّ، المعيد، الغافر للرّوح البشريّة العائدة إليك بعد عهر. والآن أكره أمثالهم المتفسّخين المنحرفين، وإن أحببت أن أقوّمهم، حتّى يخيّروا على المال المعرفةَ عينها التي يتعلّمونها، وعليها من جهة أخرى يخيروك أنت، يا إلـهي الذي هو الحقّ وخصوبة الخير الحقيقيّ والسلام والغاية في العفّة. إلّا أنّي لم أكن أريد آنذاك تحمّل شرّهم من أجلي، أنا، أكثر ممّا كنت أريد أن يصبحوا من أجلِك، أنت، أخيارا.

23.XIII. ولذلك بعد أن طلبت مدينة ميلانُو (a Mediolanio = de Milan) من والي روما أن يعيّن لتلك المدينة أستاذا للفصاحة، مع حقّ استعمال عربة الإمبراطور للسّفر، ترشّحتُ أنا بنفسي لذلك المنصب بواسطة أولئك الإخوان الهائمين السكارى بالترّهات المانويّة: وكنت ذاهبا إلى هناك لكي أفارقهم، ولكننا كنا جميعا نجهل ذلك. وهكذا بعد أن قدّمت، على غرار التجربة، خطبة بين يدي سِيمَّخُوسَ وهو الوالي آنذاك[1] (praefectus Symmachus = Symmaque)، أعجبته خطبتي ووافق على إرسالي إلى ميلانو[2].

وبعد وصولي إلى ميلانو ذهبت لزيارة الأسقف أَمْبرُوزيوس (ad Ambrosium episcopum = l'évêque Ambroise) الذي هو على وجه البسيطة من الأخيار وخادمَك. كانت خطبه البليغة تُوزِّعُ آنذاك على شعبك بهمّةٍ وسخاء «جَوْهَرَ بُرِّكَ»

---

(1) كان آنذاك والي المدينة، وكانت خطة الوالي ذات قيمة متميّزة في الإمبراطورية الرومانية، منذ العصور القديمة..

(2) «لم يمض أوغستينوس، في خريف سنة 384م إلّا شهورا قليلة بمدينة روما. وكان قد بلغ الثلاثين في الثالث عشر من شهر نوفمبر من نفس السنة (انظر الكتاب الرابع من الاعترافات ((XI, 18) المرجع السابق، الملاحظة 1 ص 112.

و«رائقَ زَيْتِك» و«نشْوَةَ خَمْرَتِكَ المُعْتَدِلَةَ»[1]. أمّا أنا فكانت يدُك تقودني إليه دون أن أعلمَ، كي يقودني هو إليك، عن وعي مني ودراية.

استقبلني ذلك «الرّجُلُ الخادِمُ للإلٰهِ» استقبالا أبويّا، وأكرم وفادتي وعطف عليّ عطف الأساقفة الحقّ.

وأخذت أحبّه، في البداية، لعمري، لا لكونه عالما حقّا، فقد كنت يائسا منه في كنيستك يأسا تاما، بل لرعايته لي وحنوّه. وكنت مواظبا على الاستماع إليه وهو يجادل على رؤوس الملإ، دون الاهتمام الذي كان عليّ أن أظهره، بل كنت كأنّي أريد التحقّق من بلاغته والتأكد من مدى مناسبتها لسمعتِه، وهل كانت في مستوى أعلى أو أسفل ممّا كان شائعا، وكنت متعلّقا بألفاظه، مهتمّا بها، أمّا المعاني فكنتُ لها على الدوام مهملا محتقرا، وكنت مبتهجا بعذوبة خطابه، وإن كان أكثر تبحّرا، لكنّه أقلّ ظرفا وفتنة من خطاب فَاوِسْتُوسَ، من حيث شكل المقال. أمّا من حيث المعاني فلا مجال للمقارنة بينهما: كان الأوّل (illle = celui – là = Faustus) يتيه في الأباطيل المانويّة، أمّا الثّاني (iste = celui – ci = Ambrosius) فكان يدرّس نهج النجاة المستقيم. لكنّ «النّجاةَ بَعِيدَةٌ عَنِ الآثِمِينَ»، كما كنتُ أنا آنذاك بعيدا عنها،ومع ذلك كنت أقترب منها شيئا فشيئا ودون علم منّي.

24.XIV. لم أكن أجهد نفسي لأتعلّم ما كان يقوله، بل لأسمع فقط كيف كان يقوله. ومع يأسي بعدُ من أنْ يكون الطريق نحوك مفتوحا، ظللت مع ذلك أحتفظ بذلك الهمّ التافه. كانت في نفس الوقت تأتي إلى عقلي، مع الألفاظ التي كنت أحبّها، المعاني أيضا التي كنت أهملها، إذ لم أكن أقدر على الفصل بينهما. وبينما كنت أفتح قلبي لتلقّي ما كان يقول بالفصاحة، كانت تدخل إليه كذلك الحقائق التي كان يقولها، ولكن بالتدريج.

ففي البداية بدأت أتبين أنّ هذه الآراء التي يقدمها يمكن أن تكون صحيحة، وأنّه يمكن أن ندافع، في غير تهور، عن صحة العقيدة الكاثوليكيّة. وحسبت في السابق ألّا شيء يمكن أن يقال في صالحها لصدّ هجومات المانويّين، خاصّة وإنّي سمعته يفسّر أكثر من مرّة هذا الغموض أو ذاك في الكتب المقدّسة العتيقة (**de scriptis ueteribus**

(1) يذكر «ب. دي لابريول» P. DE LABRIOLLE بشأن هذه العبارة الأوغستينية **et sobriam uini ebrietatem** (أي «نشوة خمرتنا المعتدلة») أنها عبارة مأخوذة عن بعض أناشيد «أمبروزيوس».(الملاحظة 2 ص 112).

de l'Ancien Testament =)، بما يكاد يقتلني[1]»، لمّا كنت أتأمّل في تأويلهما الحرفيّ. لذلك فبعد أن كان عرض معظم نصوص تلك الكتب عرضا روحانيّا، كنت أستنكر فيّ يأسي، من حيث فقط أنّي كنت اعتقدت أنّه لا يمكن أن يجابه بتاتا اللاّعنون للدّين وللرّسل والساخرون منهم.

بيد أنّي لم أكن أرى أنّه يجب عليّ انتهاج الطريق الكاثوليكيّ، لأنّه ربّما كان له أيضا علماؤه المدافعون عنه والقادرون على دحض الاعتراضات بغزارة وبصورة منطقية. ولم أكن أرى أيضا أنّه يجب عليّ التنكّر لذلك المذهب الذي اعتنقته لأنّ الدّفاع كان فيه ذا حظوظ متساوية. فلهذا كانت الكنيسة الكاثولوكيّة لا تبدو لي مهزومة، لكنها لا تبدو لي بعد منتصرة أيضا.

25. كنت آنذاك أستغل جميع طاقات ذهني، علّني بالاهتداء إلى بعض الحجج الحاسمة أستطيع أن أفحم المانويّين ببطلان رؤاهم. لو كان عقلي يستطيع أن يتصوّر وجود جوهر روحاني، لانحلّت لتوّها كلّ تلك الافتراءات، ولامّحت من فكري: لكنّه لم يكن يقدر على ذلك. إلّا أنّه بخصوص هذا العالم الخارجي نفسه وهذه الطبيعة كلّها التي تقدر حواسّي على إدراكها، كنت بالنظر والمقارنة أرى أنّ معظم الفلاسفة توصلوا بشأنهما إلى أفكار أرجح بكثير.

فلذلك قرّرتُ، أُسْوَةً بآراء الأكاديميّين (Academicorum more = suivant les maximes de l'Académie)، كما تؤوّل في العادة، ومدفوعا بالشكّ في كلّ شيء متردّدا بين كلّ الرِّيَب، قلتُ، قرّرت أن أهجر المانويّين، معتقدا، في ذلك الوقت بالذات من حيرتي، أنّه يجب عليّ ألّا أبقى في تلك الملّة التي كنت أخيّر بعد عليها بعض الفلاسفة: إلّا أنّي كنت أرفض تماما أن أعهد بعلاج فتور روحي لهؤلاء الفلاسفة الذين كانوا لا يعرفون اسم المسيح المنجّي.

لذلك عزمت على أن أبقى مُرِيدًا للتنَصُّر (catechumenus = catéchumène) في الكنيسة الكاثوليكيّة الموكولة لي من لدن أبويّ، ريثما يَسْطَعُ نور من الحقّ به يقدر أن يوجّه سباقي.

---

(1)... de scriptis ueteribus... occidebar = «...كان العهد العتيق يقتلني» الكتاب الخامس الملاحظة 1 هامش ص 113، المرجع السابق. ونقرأ في هذا الشأن ما يلي: «كان «إيرازم» يبدي تحفّظا على المنهج الأمبروازيّ، في حين كان أوغستينوس معجبا به أيّما إعجاب». لكنّ «دي لابريول» يجيب قائلا: «كانت فصاحة أمرواز» Ambroise قد خلبت لبّ أوغستينوس»، ويحيل القارئ على كتاب Soliloques، المجلد الثاني، XXVI، من (Patrolia Latina, XXXII, 897».

الكِتَابُ السَادِسُ

1.I. يَا أَمَل شَبَابِي، أين كنت إليَّ، وأين انسحبتَ؟ أَوَلم تكُن أنت الذي خلقتني، وأنت الذي صوّرتني مباينا للسّوائم، وأنت الذي خلقتني أحكمَ من طيور السماء؟ كنتُ أسير عبر الظّلمات وعلى شَفَا مُنْزَلَق، كنت أبحث عنك خارج نفسي، ولم أظفر بـ«إلاَهِ قَلْبِي»، وكنتُ أغوص في «غياهب اليمّ». وكنت أفقد الثقة والأمل في الظفر بالحقيقة.

كانت أمّي قد أتت بعدُ إليَّ، قويّةً بِالتقوى، تبعتْني إلى ما وراء الأقطار والبحار، مستمدّة منك شعورها بالاطمئنان وسط جميع الأخطار. وكانت في الأوقات الحرجة من الرّحلة البحريّة تُطَمْئن النوتيين أنفسهم، والعادة أنّهم هم الذين يطمئنون المسافرين الجاهلين بأطوار اليمّ عندما يفزعون، واعدة إياهم بالوصول بسلام، لأنّها كانت قد تلقت منك في بعض رؤاها هذا القدر من الثقة.

ووجدتني في خطر شديد بسبب يأسي من أن أعثر على الحقّ، لكن عندما أعلمتها بأنّي لم أعد مانويّا، ولا كاثوليكيّا مسيحيّا، لم تقفز فرحا، قفز من سمع خبرا غير متوقّع، بل وجدت بعض الأمن فقط بشأن جانب من شقائي كان يجعلها تبكيني أمامك، كما لو كانت تبكي ميّتا، لكنه ميّت يجب عليك إحياؤه، وكانت تقدّمني إليك على مِحفّة الفكر، كي تقول لابن الأرملة: «أيُّها الشّابُّ، آمُرُكَ بالوقوف، هيا انهَض!» كي يُبعث من جديد ويأخذَ في الكلام، وكي ترجعَه إلى أمّه. إذن لم يرتعد قلبها بفرحة عارمة، عندما علِمتْ أنّه كان قد وقع بعد، في جزء كبير جدّا منه، ما كانت يوميّا تبكي لكي يقع. لم أفز بعد بالحقيقة، لكنّي انْتُزعْتُ بعد من الضلال: بل الأفضل من هذا، أنّها كانت لفرط إيمانها أنّ عطيتك لا تكون إلّا كاملة، لأنك كنت قد وعدتها بالكلّ، أجابتني، بمنتهى الهدوء وبصدر مفعم بالثّقة، أنّها تؤمن في المسيح بكونها، قبل أن ترحل من هذه الحياة، ستراني كاثوليكيّا صادقا. ذاك لعمري ما قالته لي. أمّا إليك، يا منبعَ الشفقات، فكانت دعواتها ودموعها أغزر، حتّى تعجّل وتضيء بعونك «ظُلُماتِي»، وبكلّ اندفاع كانت

تجري إلى الكنيسة وتتعلّق بشفتَيْ أَمْبِرُوزِيُوسَ، ذلك المنبع، «منبع الماء الْمُتَدَفِّقِ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ الْخَالِدَةِ»! فهي كانت تحِبّ ذلك المرء حبّ«مَلَاكِ الإِلَاهِ» لأنّها كانت قد عَرَفَت أنّه هو القائد الذي أوصلني بعدُ إلى ذلذك التردّي وذلك التموّج اللذيْن كانت تظنّ حقًّا أنّي سأنتقل بهما من المرض إلى الصحّة، عبر خطر وضيق أكبر، كما في الأزمة التي يسمّيها الأطبّاء الأزمةَ الحاسمة.

2.II. لذلك، لمّا قدّمتْ لقبور القدّيسين، كما كانت العادة بالمقاطعة الإفريقية، العصائد والخبز والخمر الصافي، رفض البوّاب هديتها، وعندما علمت أنّ الأسقف حجّر ذلك، تقبّلت الأمر بتقًى وطاعة مُتَنَاهِيَيْنِ؛ لقد أعجبت بها، فقد أصْبحت بسهولة تفضّل اتّهامَ عادتها، عوض الحكم على ذلك التحجير، إذ لم يكن الإدمان يحاصر عقلها، ولا حبّ الخمر يحثّها على كراهيّة الحقّ، كمعظم الرجال والنساء، حين يشعرون بالغثيان أمام ترتيلِ آية (canticum = un cantique) عن القناعة (sobrietatis = de sobriété)، كما يشعر المدمنون على الخمر بالتقزز عند شرب الماء: لكنها عندما قدِمت بسلّة من المآكل العاديّة المجعولة لتُذَاقَ أوّلا ثمّ تُوَزَّعُ بسخاء، كانت أيضا لا تصبّ لنفسها القنوعة جدّا أكثر من قدح صغيرة من خمرة مُشَعْشَعَةٍ، حتّى تنال اعتبار الآخرين، فإذا كانت القبور التي تستحق مثل هذا التكريم كثيرة العدد أدارت الخمرة في نفس تلك القدح الوحيدة، تصبّها فيها في كلّ مكان، لم تكن خمرة مشَعْشَعة جدّا فقط، بل كانت فاترة جدّا أيضا، كانت تقاسمها الحاضرين في جُرعاتٍ صغيرة، لأنّها كانت تبحث هنالك عن التقوى، لا عن اللّذّة.

لذا فما أن علمت بأنّ الواعظ الشهير، سيّد التقوى، قد أوصى بحظر هذه العادات حتّى على أولئك الذين كانوا يقومون بها باعتدال، لكي لا تعطي للسَّكارى أيّة فرصة للإفراط في شرب الخمر، ولأنّ تلك الحفلات شبيهة جدّا بتلك التي كان الوثنيّون يقيمونها لتهدئة أرواح آبائهم[1] حتّى امتنعت عنها عن طيب خاطر، وعوضا عن السلّة المليئة بغلال الأرض، فقد عرفت كيف تأتي إلى كنائس الشهداء بصدر ملآن بنُذُورٍ أكثر طهارة، بحيث كانت أيضا تعطي المعوزين ما يمكن إعطاؤه وتحتفي هكذا هناك

(1) نورد هنا ما ذكره «ب. دي لابريول» عن هذا العيد نقلا عن كتاب les Fastes II, 533: «هذا الحفل الجنائزي يبدأ في الثالث عشر من شهر فيفري حوالي الساعة السادسة ويتواصل حتى الساعة التاسعة ليلا. وكان الهدف منه تهدئة أرواح الوالدين«animas placare paternas» انظر المجلد الأول من كتاب الاعترافات، الكتاب السادس ص 119 بالهامش، الملاحظة 1.

بالاتّصال مع جسم المولى الذي ضحّى الشهداء من أجله بأنفسهم أسوةً بآلامه وتُوِّجُوا.

ومع ذلك يبدو لي، يا مولاَي وإلـهي - وعلى هذا النحو يتصوّر قلبي وهو «بِمَرْأى مِنْكَ» هذا الأمر - أنّ أمّي ما كانت ربّما لِتُقْدِمَ على الإقلاع عن تلك العادة، لو حجّرها غيرُ أَمْبُرُزْيُوسَ الذي كانت تحبّه كثيرا. إذ كانت تحبّه إلى أقصى حدّ بسبب نجاتي. أمّا هو فكان يحبّها بسبب حياتها التقيّة للغاية التي كانت تتردّد فيها على الكنيسة «بِقَلْبٍ كُلُّهُ وَرَعٌ» وفي أعمال البرّ، بحيث أنّه كثيرا ما كان، عندما يراني، ينطلق في تقريظها، مهنّئا إيّاي، بأن تكون هي أمّي. لم يكن يعلم أيّ ابن كنت لها، أنا الذي كنت أشكّ في كلّ شيء، ولا أعتقد بتاتا أنّه يمكن أن يوجد «طريق الحياة».

III.3. ولم أكن أئنّ بعد في دعائي، كي تغيثني. لكنّ فكري كان مشدودًا إلى البحث ومتحفزا للمناقشة. وكنت أعتبر أمبروزيوس ذاته رجلا سعيدا في نظر الناس، يوقّره أعظم الأساطين كلّ التوقير: تبتّله فقط كان يبدو لي مضنيا، أما الآمال التي كان يحملها، والمعاناة التي يشعر بها عند مقاومة نزعات منزلته الرفيعة الشأن، أو ما كانت له من سلوى في المحن، وما كان يجده في أعماقه عبر فمه الخفيّ، من طعم الغبطة، وهو يجترّ من جديد رغيفك، كلّ هذا لم أكن أعرف كيف أتصوّره، ولم أكن قد خبرته.

وكان هو بالمثل لا يعلم تهيُّجاتي ولا الهاوية التي فيها خطري، فلم أعد قادرا على أن أطلب منه ما كنت أريده كما كنت أريده، لأنّ حشودا من أناس منشغلين، كان يخدم هو معضلاتهم، كانوا يبعدونني عن سماعه ورؤيته: لكنه كلّما كان وحده ولم يكن معهم كان ذلك الوقت الضيّق جدّا يُسْتَعْمَلُ إمّا لِيُنعِشَ جسمه بالأغذية الضرورية، أو فكره بالمطالعة.

لكنه لمّا كان يطالع، كانت عيناه تجريان فوق الصفحات، وكان قلبه يكتشف معناها، أمّا الصوت واللّسان فكانا ساكنين.وكثيرا ما رأيته، عندما كنت قريبا منه - إذ لا أحد يُمْنَع من الدّخول عليه، ولا أحد ينبئه بقدوم القادم - يطالع بصوت خافت، ولا يطالع بصورة أخرى قطّ. كنت أمكث جالسا في صمت طويل جدّا (إذ من كان يجرؤ على مضايقته وهو منشغل هكذا؟)، وكنت أغادره، وأنا أعتقد أنّه في ذلك الوقت القصير الذي كان يجده كي يستعيد فكره وقواه، وقد فرغ من ضجيج شؤون الآخرين، لا يريد أن يدعى إلى أمر آخر. لعلّه كان يتجنب القراءة بصوت مرتفع مخافة أن يضطرّ أن يفسّر لمستمع منتبه ومهتمّ ما كان قد قرأه هو من كلام شديد الغموض، أو لأن يناقشه في

بعض المسائل الأكثر صعوبة. لذلك كان يخصّص للآثار التي كان يريد شرحها وقتا أقلّ من اللاّزم، ثمّ إنّ الحفاظ على صوته الذي كان ينكسر بسرعة، ربّما يكون هو أيضا دافعا حقيقيا لقراءته سرّا، ومع ذلك، ومهما كانت نيّة القيام بها، فإنّ ذلك الرجل الهُمَام كان يقوم بها بنيّة حسنة.

4. وفي الواقع، لم يكن يتاح لي أن أسأل بلا حساب وسيط وَحْيكَ المقدّس الماثلَ في صدره إلّا لمّا كان مجبرا على أن يسمع منّي بإيجاز سؤالا ما. أما تلك التهيجّات التي كانت في نفسي، فكانت تطلبه كثيرا في فراغه، كي تنسكب فيه، ولم تكن قطّ تجده[1]. ولذلك كنت أستمع إليه «مُفسِّرًا بالصوَابِ قَوْلَةَ الْحَقِّ» أمام الشعب، كلّ يوم أحد. وكان يتأكّد لي أكثر فأكثر أنّه يمكن حلّ عقد جميع الافتراءات الدقيقة التي كان أولئك المضلّلون لنا يحوكونها ضدّ الكتب المقدّسة.

أما عندما تبيّنتُ أنّ القولة «الإِنْسَانُ قَدْ خُلِقَ طِبْقًا لِصُورتِكَ» لم يفهمها أبناؤك الرّوحيّون – الذين قد أحييتهم من الكنيسة الكاثوليكيّة بالنعمة – بمعنى أنّه كان عليهم أن يؤمنوا بك ويَرَوْك محدودا في صورة الجسم الإنسانيّ، ورغم أنّي لم أكن أشتمّ ما هي الرّائحة الرّوحانيّة، مهما كانت رقيقة وغامضة، فمع ذلك احمّر وجهي فرحا لكوني قد نبحت طيلة كلّ تلك السنين لا ضدّ العقيدة الكاثوليكية، بل ضدّ الأوهام والتصوّرات الجسديّة، ولعمري قد كنت بعدُ مجازفا وزنديقا في هذا، أي في كون ما كان عليّ أن أتعلّمه باحثا فيه، كنت قد قلت بعد فيه متّهما إيّاه، أمّا أنت، «الأعْلَى وَالأَقْرَبُ، الأَخْفَى وَالأَكْثرُ حُضُورًا» الذي ليس لك أعضاء، منها الأكبر ومنها الأصغر، بل أنت كلّ في كلّ مكان، ولا كلّ في أيّ مكان كان، ليست لك على كلّ صورتنا الجسدّية، فمع ذلك خلقت «الإِنْسَانَ طِبْقًا لِصُورَتِكَ»، وها هو بالذات، من الرّأس إلى القدمين، في الفضاء (in loco = dans l'espace).

IV.5. إذن لمّا لم أكن أعرف كيف ترتسم فينا صورتك، كان عليّ أن أطرق بابك قصد فهم ما كان عليّ أن أؤمن به، عوض أن أعارضك بوقاحة، كما لو كانت تلك العقيدة كما أتصوّرها. لذا فبقدر ما كان الهمّ ينخز بحدة أعمق أعماق فؤادي في ما كان لي أن أحفظه كحقيقة، كنت أخجل أكثر من كوني قد استُهزئ بي طويلا، وضُلّلْتُ

---

(1) «nec unquam inueniebant = ولم أكن قطّ أجده» المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 121. يحدّثنا المفسّر النحرير أوغستينوس هنا عن «ذلك الاستقبال الأبوي» الذي خصّه به «أميرواز» Ambroise وقد كان يشعر أنّ نفسه بعيدة بعض البعد عن مؤلف الاعترافات.

بالوعود بالحقائق، مخطئا كالصبيان، وكوني ثغثغت بحماس الكثير من الظنون على أنها حقائق. وكون هذه الظنون غالطة، ذلك ما تأكّد لي في وقت لاحق. إلّا أنّني كنت متأكدا أنّها ليست حقيقة، وأنّني كنت قد اعتبرتها يوما ما كالحقيقة، لمّا كنت أتّهم كنيستك الكاثوليكيّة في اعتراضاتي العمياء، وإن لم تُكتشَفْ منّي كمعلّمة للحق، بل لامعلّمة لما كنت اتّهمها به بخطورةٍ. لذلك كنت مرتبكا ومتحوّلا وفرحا، يا إلـهي، أن تكون كنيستك الوحيدة جسم ابنك الوحيد التي رُسّخ لي فيها اسم المسيح، لا تتذوّق الترّهات الصبيانيّة، ولا تقول في عقيدتها الصحيحة بأنّك أنت، خالق الكلّ، تحصرك في الفضاء الأعلى والواسع بلا شكّ، ولكن المحدود من كلّ جهة بخطوط الأعضاء البشريّة.

6. كنت فرحا أيضا بأنّه لم يعرض علي بعد قراءة الكتب القديمة في القانون والرّسل نفس القراءة، التي كانت تبدو بها تلك الأمور في الماضي عبثيّةً، عندما كنت أعيب على قدّيسك أنّ تلك كانت آراؤهم، أمّا في الواقع فلم يكونوا يرون ذلك. وحيث كان أمبُروزيُوس يعظ القوم موعظته العاجلة للغاية، كنت أسمعه فرحا في خطبه يقول: «الحَرْفيّةُ تَقْتُل، أمّا الرُّوحُ فَتُحْيِي»، عندما كان يكشف النصوص التي كانت الحرفيّة فيها تبدو معلّمة للباطل، مزيلا روحانيّا الستار المجازي، ساكتا عمّا قد يصدمني، وإن كان يقول ما كنت لا أزال أجهل، هل كان ما يقوله الحقّ. كنت أمنع قلبي من كلّ تصديق خوفا من الهاوية، وكان بقائي معلّقا يقتلني. إذ كنت أريد أن أكون متأكّدا هكذا من الأشياء التي لم أكن أراها، تأكّدي من كون سبعة وثلاثة تساوي عشرة. إذ ما كنت من العتاهة، لأظنّ أن هذه الحقيقة أيضا لا يمكن أن تُفهم[1]، ولكن على منوالها، كنت أرغب في أن أفهم جميع الأشياء الأخرى، سواء كانت جسديّة لو لم تبرز للعيان إلى حواسّي، أو روحانيّة لم أكن أفكّر فيها إلّا جسديّا.

وكان عليّ أن أؤمن لأُشفى، لكي أوجّه عينيْ فكري، في طهارة أكبر، بكيفيّة ما نحو حقّك القارّ دوما والسرمديّ، لكن، وكما يحدث عادة، فكما أنّ من خبر طبيبا سيّئا، يخشى أن يعرض نفسه على طبيب آخر ولو كان نطاسيّا، كذلك روحي المريضة

(1)... Neque... tam insanus, ut ne hoc... comprehendi = لم أكن على قدر كاف من العتاهة لأظنّ أنّنا لا يمكن أن نهتدي إلى مثل هذه القولة (أي القولة الرياضية 7 = 3 = 10). ونجد في هذا الشأن في الملاحظة 2 من هامش صفحة 123 من نفس المرجع «أنّه في مختلف الكتب التي ألفت إثر اعتِناقِهِ (الكاثوليكية) قُدِّم علمُ الهندسة وعلم الأعداد باعتبارهما يوفّران الدليل القاطع على وجود حقيقة ثابتة، ويفتحان الباب لولوج العالم الروحيّ.

التي ما كانت لتشفى إلّا بالإيمان، كانت ترفض أن تشفى، خوفا من الإيمان بالضلال، مقاومة ما أحضرتْه يداك أنت من أدوية الإيمان، وداويت بها أمراض الكون ومنحتها النجاعة التامة.

V.7.7. مع ذلك، فبدءا من ذاك الوقت أيضا، كنت أفضّل بعد العقيدة الكاثوليكيّة، وأنا شاعر بكوني أومر فيها، بأكثر اعتدالا ودون أيّ تضليل، بأن أومِنَ بما لم يكن مُثبتًا (سواءً كان الاستدلال عليه ممكنا، لكنه لا ينكشف للجميع، أو كان الاستدلال ممتنعا) على عكس المانويّين الذين يسخرون بالإيمان ويعدون بالعلم جزافا، وبعد ذلك يحملوننا على الإيمان بالكثير الكثير من الأساطير اللاّمعقولة بالمرّة،بتعلّة كون إثباتها غير ممكن[1].

ثمّ إنّك شيئا فشيئا، يا مولاي، وبيد لطيفة حنون، تتدبّر قلبي وتهذّبه، وأنا أرى أشياء كثيرة لا تحصى أؤمن بها دون أن أكون قد رأيتها، وأشياء كثيرة أخرى لم أكن حاضرا عند وقوعها، كالأحداث العديدة في تاريخ الشعوب، والوقائع التي لا تحصى في الأصقاع والمدن التي لم أرها قطّ، والمعلومات الكثيرة جدّا الصادرة عن الأصحاب، والأطباء والألوف المؤلفة من الناس، وعن غيرهم، فلو لم نكن نصدّق بكلّ هذا، لما استطعنا أن نقوم بأيّ شيء في هذه الحياة! ألست أومن إيمانا لا تشوبه شائبة من أيّ أبوين نشأت؟ الشيء الذي ما كنت لأعرفه لو لم أصدّق ما قيل لي عنه؟ لقد أقنعتني بأنّ من يجب زجرهم ليسوا من يؤمنون بكتبك التي ركّزتها تقريبا عند جميع الشعوب بالسلطان الأكبر، بل أولئك الذين لا يؤمنون بها، وبأنه يجب عليّ ألّا أصغي لمن قد يقولون لي: «من أين تعرف أنّ تلك الكتب قدّمت للجنس البشريّ من طرف روح الإله الواحد الحقّ الصادق؟». فذاك بالذات ما كان عليّ بالخصوص التصديق به، بما أن لا شيء في الإشكاليّات الإفترائيّة الحامية الخاصّة بالكثير ممّا كنت قد قرأته عن نزاعات الفلاسفة العديدة، كان ليسلبني في يوم ما التصديق بوجودك، وإن كنت لا أعرف أنا ما تكون أنت، وبكون تسيير الشؤون الإنسانية يتعلّق برحمتك[2].

---

(1)... quia demonstrari non poterant = بتعلّة أنه لا يمكن الاستدلال عليها (أي على الأساطير اللامعقولة)، وعلّق «بيار دي لابريول» Pierre DE LABRIOLLE على هذا بقوله: «من هنا بدأ تطوّر أوغستينوس نحو الديانة الكاثوليكية يقوى ويشتدّ». المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 124.

(2)... administrationem rerum humanarum ad te pertinere = تسيير الشؤون البشرية يتعلق برحمتك. (المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 125). «وقد طوّر أوغستينوس هذه الآراء عن شرعية الإيمان في كتيّب ظهر بعد الاعترافات بوقت قصير».

8. لكن كنت أؤمن بهذا بصورة أحيانا أقوى، وأحيانا أضعف، إلّا أنّي آمنت دوما بوجودك وبكونك تهتمّ بالجنس البشريّ، ولو أنّي كنت أجهل إمّا ما كان ينبغي عليّ أن أظنّه في جوهرك، أو ما هي الطريق التي تؤدّي أو ترجع إليك.

ولذلك، بما أنّنا كنّا ضعفاء للعثور على الحقّ بالعقل الصرف، وكنّا هكذا في حاجة لحجّة الكتب المقدّسة، كنت قد بدأت بعدُ أومن بأنّك ما كنتَ بأيّة صورة تمنح تلك الكتب على مدى الكون مثل هذه الحجّة السامية، لولم تكن تريدُ أن يؤمن بك بواسطتها الناسُ، وأن يبحثوا بواسطتها عنك.

أمّا اللاّمعقوليّة التي كانت تصدمني عادةً في تلك الكتب، لمّا سمعت الكثير منها يُعْرَضُ على وجه الاحتمال (probab – iliter = vraisemblablement)، فكنت أعيدها إلى عمق الحقائق الخفيّة، وتلك الحجّة كانت تبدو لي أكثر وقارًا وأجدر بإيمان قُدُّوس، بقدر ما كانت على ذمّة كلّ من يريد أن يقرأها، وكانت تحافظ على شرف سرّها لتحليل أعمق، عارضةً نفسها على جميع الناس بألفاظ واضحة جدّا وفي أسلوب بلاغيّ متواضع جدّا، ومختبرة هِمّة الذين ليسوا «ذوِي قلبِ خفيفٍ»، بحيث كانت تقبل الجميع في حِجْرِهَا الطيّب، وتتركُ القليل يمرّون إليك عبر فتحاتها الضيّقة، لكن أكثر بكثير ممّا لو لم ترتفع إلى هذه القمّة العالية جدّا من الاعتبار، ولو لم تجذب الجماعات لحُضن تواضعها المقدّس.

كنتُ أفكرّ هكذا، وكنتَ بجانبي، كنتُ أتنهّد وكنتَ تسمعني، كنتُ أتموّج وكنتَ تقودني، كنتُ أسير عبر طريق الدّنيا الواسع ولم تكن تتخلّى عنّي.

VI.9. كنتُ أصبو إلى شارات الشرف والمكاسِب والزّواج، وكنتَ أنت تضحك منّي. كنت أتحمّل في هذه الشهوات أمرّ الصعوبات، وكان عطفك عليّ نافعا وفي محلّه لأنك كنتَ تجعل فيما لم يكن أنت قذرا قليلا من الأطاييب كي لا أستسيغه.

انظر إلى قلبي، يا مولاي، أنت الذي أردتني أن أتذكّر هذا بين يديك وأن أعترف لك به، فلتلتحم بك الآن روحي التي خلّصتها من صمغِ هذا الموت اللزج!

كم كانت شقيّةً! وكنت أنت تخَزُ جُرحها كي تترك كلّ شيء وتتّجه نحوك، أنت الذي «هُو فَوْقَ الكُلِّ» والذي بدونك لا شيء من الكلّ يكون، كيْ تتّجه نحوك وتُشفى. إذن كم كنتُ شقيّا، وماذا فعلتُ حتّى أحسّ بشقائي، في ذلك اليوم الذي كنت أتهيّأ فيه لأتلوَ تقريظا للإمبراطور أنطق فيه بأكثر من أكذوبة وأنال بكذبي استحسان العارفين به. كان قلبي يختلج لتلك الهموم، ويضطرم بحُمّى الأفكار المحرقة، عندما مررت بحيّ

من أحياء ميلانو ورأيت متسوّلا فقيرا نشوان بما شرب؛ لا بدّ أنّه نال نصيبه! تأوّهتُ وحدّثت الأصدقاء الذين كانوا معي، عن كثرة الآلام التي يرمينا فيها جنوننا. كنت آنذاك بواسطة جميع الجهود التي أبذلها، أجرّ ورائي تحت مناخس الشهوات عبْء تعاستي، وأزيده وأنا أجره ثقلا على ثقل. ولم نكن نريد شيئا آخر عدا الوصول إلى الغبطة الآمنة، لقد سبقنا إليها ذلك المتسوّل، ولربّما لن نبلغها من بعده قطّ. فما كان ذلك الرّجل قد تحصّل عليه بقطع النقود الزهيدة القليلة جدّا التي جمعها بالتسوّل، أي غبطة السعادة الدنيويّة، كنت أنا أسعى إليه عبر منعطفات مضنية جدّا وطرقات ملتوية. لم يكن يشعر بالفرح الحقيقيّ: لكن أنا أيضا كنت في تلك المساعي أبحث عمّا هو أكثر قربا من الباطل. وكان هو دون شكّ مغتبطا، أمّا أنا فكنت حيران، وكان هو آمنا، أمّا أنا فمُرْتَجِفٌ، ولو سألني أحدهم، أكنت أفضّل الابتهاج أم الخوف لأجبته: «الابتهاج»، وبالعكس لو سألني، أكنت أفضّل أن أكون كما كان هو، أم كما كنت أنا آنذاك، لاخترت أن أكون أنا بذاتي رغم إرهاق الهموم وأنواع المخاوف. لكن بسبب ضلالي، أين كنت من الحق؟ فإنّه ما كان عليّ أن أعدّ نفسي أفضل منه، بالخصوص لكوني كنت أعلمَ منه، حيث لم أكن أستمدّ من هنا فرحي، بل كنت أبحث من هنا كيف أعجب الناس، لا كي أعلّمهم، بل فقط كي أعجبهم. لذلك «كُنْتَ تُكَسِّرُ عِظامِي» بعصا تأديبك لي.

10. ليبتعد إذن عن نفسي أولئك الذين يقولون لها: «ينبغي النظر في سبب الفرحة. ذلك المتسوّل كان فرحا بسبب السكر، وأنت كنت ترغب في الفرحة بسبب المجد». أيُّ مجد، يا مولاي؟ المجد الذي ليس فيك! إذ كما أنّ الفرحة الحقّ لم تكن عنده، كذلك لم يكن عندي ذلك المجد الحقّ، وكان فوق ذلك يكدّر صفو فكري. كان في تلك اللّيلة ينام بعد ثَمَلِه، وأنا كنتُ قد نمت واستيقظت مع ثَمَلِي، وسأنام وأستيقظ معه، ترى كم يومًا! نعم، ينبغي النظر في سبب الفرحة، أعلم ذلك، وفرحة الآمال المقدّسة تختلف كل الاختلاف عن تلك الأباطيل. لكن كان بيننا كذلك فرقٌ آنذاك: لا غرابة أن يكون هو لعمري أسعد منّي، لا فقط لأنّه كان يغمره المرح، في حين كانت تنخرني الهموم، بل أيضا لأنّه كان قد تحصّل على الخمرة بواسطة الدعاء لبعضهم بالسعادة، في حين كنت بالكذب أبحث عن فخر زائف (**tyfum = une vaine gloire**).

قلت آنذاك الكثير في هذا المغزى لأصدقائي العزيزين على نفسي، وكثيرا ما كنت، في تلك الظّروف، أهتمّ بمعرفة كيف كانت حالي، وكنت أجد أنّها كانت سيّئة. كنت

أتألّم ويتضاعف ألمي نفسه، ولو ضحكت لي السعادة، لاشمأززت من القبض عليها وأعرضت عنها، لأنّها كانت تفرّ وتطير قبل أن تُؤخَذَ.

11.VII. كنّا نتأوّه معا هكذا، نحن الذين كنّا نعيش معا أصدقاء، وكنت بالخصوص أتحادث في هذه المواضيع مع أَلِيبِيُوسَ ونِبْرِيديوسَ (cum Alypio et Nebridio = avec Alypius et Nebridius) الحَمِيمَيْنِ للغاية. أمّا أَلِيبيوسُ فقد وُلد في نفس المدينة(municipio = du même... municipe) التي ولدتُ فيها، من أبويْن من أعلى طبقات الأعيان فيها (primatibus = d'une famille très bien posée)[1]، وكان يصغرني سنّا. وكان تلميذا من تلامذتي، لمّا شرعت في التدريس في بـلـدتنا (in nostro oppido)، ثمّ في قرطاجة، وكان يحبّني كثيرا، حيث كنت أبدو له طيّبا وعالما، وكنت أنا أحبّه بسبب استعداده الكبير للفضيلة التي كانت جليّة جدّا لديه، رغم حداثة سنّه. إلّا أنّ لجّة السلوكات القرطاجيّة التي بها تحمى العروض المسرحيّة التافهة،كانت قد أغرقته في جنون ألعاب سباق الخيل (circensium = des jeux du cirque). لكنّ بينما كان الشقيّ يتمرّغ فيه، كنت أنا بالعكس أعكف هنالك على تدريس البلاغة في مدرسة عموميّة، لكنّه لم يكن يتردّد على دروسي بسبب خصومة كانت قد نشبت بيني وبين أبيه. وكنت قد علمت أنّه كان يحبّ ألعاب سباق الخيل(circum = le cirque) المنحوسة، وكنت شديد الحسرة عليه، لأنّه كان يبدو لي أنّه سيُضيّع أحسنَ الآمال، أو أنّه قد ضيّعها بعدُ. لكن لم تكن لي حيلة لإنذاره ولإعادته إلى سواء السبيل قهرا، إمّا باسم عطف الصداقة، أو باسم سلطة المدرّس، إذ كنت أعتقد أنّه كان يشاطر رأي أبيه فيّ، إلّا أنّه لم يكن كذلك. لذلك، ودون أيّ اعتبار في هذا الأمر لإرادة والده، كان يبادرني بالتحيّة، ويقبل على محاضراتي، ويسمع شيئا منها، ثمّ ينصرف.

12. لكنه خرج من حسابي أن أجعله لا يهدِم عبقريّة حسنةً جدّا بالولع الأعمى غير المتبصّر بالألعاب التافهة. أمّا أنت، يا مولاي، المتحكّم في كلّ شيء خلقتَه، فلم تكن قد نسيتَ أنّ أَلِيبِيُوسَ سيصبح واحدا من أبنائك، وقسَّ سرّكَ الخفيّ، ولِكيْ يُعْزَى تقويمُه إليك جهرا، جعلته على يديّ، لكن دون أن يكون لي علم بذلك.

ففي يوم من الأيام، بينما كنت جالسا في مكاني العاديّ، وكان التلاميذ جالسين أمامي، جاء هو وسلّم عليّ وجلس واهتمّ بالاستماع إلى ما كان يدور في الدّرس.

---

(1) سيصبح «أليبيوس» Alypius أسقفا بمدينة «تاغست» مسقطِ رأسه سنة 394، أو 395، قبل بضعة أشهر من قبول أوغستينوس رتبة الأسقف. المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 128.

وكان بين يديّ صدفة نصّ. وعندما شرحته، بدت لي المقارنة بألعاب المدارج مناسبة كل المناسبة ليكون ما كنت أعنيه أجمل وأوضح، مع السخريّة اللاّذعة من أولئك الذين أسرَهم ذلك الجنون. «أنت تعْلَمُ، يا إلـهي»، أنّي ما كنت أفكّر آنذاك في مداواة أَلِيبِيُوسَ من ذلك الوباء. أمّا هو فقد تلقّى تلك الملاحظة كما لو كانت موجّهة ضدّه واعتقد أنّي لم أقلها إلّا من أجله، ولو كان أحد آخر مكانه لصبّ عليّ جامّ غضبه، لكن هذا الشاب اللطيف صبّ غضبه على نفسه ولم يفعل إلّا أن صار حبّه لي أكثر حرارة[1].

أَوَ لم تقل قديما في كتبك: «وبِّخ العاقِلَ يُحِبَّك!» أمّا أنا فلم أوبّخه، لكنّك أنت هو المستعمل لجميع العارفين وغير العارفين، طبقا للنّظام الذي تعلمه – وذلك النظام هو الحقّ – والذي جعلت من قلبي ولساني جمراتٍ حامية، كيْ تكويَ بها ما تهرّأ من فكر ينبئ بالخير، وكي تداويه. وليسكت عن مديحك، من أغمض عينيه عن رحمتك التي تعترف إليك من أعماق النفس (**de medullis meis = du plus profond de moi – même**).

وفي الحقيقة فإنّ أَلِيبِيُوسَ خرج، بعد أن سمع كلامي، من الخندق العميق الذي كان يحلو له أن يغرق فيه ويحسّ بلذّة عجيبة وهو أعمى عن الحقّ. طهّر نفسه بتنسّك تامّ، ملقيا عنه كلّ أدران ألعاب سباق الخيل، ولم يذهب إليها بعد ذلك اليوم. ثمّ انتصر على ممانعة أبيه ليسمح له بالاختلاف على دروسي: فسمح له بذلك بعد أن غلبه على أمره. وأخذ من جديد يتردّد على دروسي، وسقط معي في أحبولة خرافت المانويّين، محبّا عندهم التباهي بالزّهد الذي كان يظنّه فيهم حقيقيّا. ولم يكن وراء ذلك سوى الجنون والخداع لاستهواء النفوس الطيبة الجاهلة بسبر أغوار الفضيلة، والفريسة السهلة المعرضة للإغترار بالظّواهر، والحال أنّها رياء وفضيلة مختلقة.

13.VIII. وبدون أن يعرض، البتّة، عن الدّرب الدّنيويّ الذي فتحه أمامه أبواه، كان قد سبقني إلى روما كي يتعلّم الحقوق، وفيها جُرِفَ بشراهة غريبة جدّا إلى مشاهدة المتصارعين (**gladiatorii spectaculi = des spectacles de gladiateurs**).

كان يبغض تلك المشاهد ويكرهها. لكن حدث صدفة أن لاقاه بعض أصحابه

---

(1) المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 128: لا نرى ما يجعلنا نشكّ في صحة هذه النادرة. إلّا أن قصّة هذا الشاب الفاجر، وهذه القصةَ الغريبة، قصّة هذا الشاب الذي يدخل مدرسة أستاذ شهير ويشعر فجأة أنّه مشدود إليه وقد غيّر الكلامُ الذي سمعه أفكاره، قصّة نجدها عند عدد لا بأس به من الكتاب الأخلاقيين القدامى. فالواقعة الحقيقية يمكن أن تذكرنا بموضوع قديم...! بشأن قوله... **ad me ardentius diligendum** = صار حبه لي أكثر حرارة».

ورفاقه في الدّراسة في الطريق، وهم عائدون من وليمة. قادوه رغم معارضته القويّة، بعنف أخويّ إلى المدارج (in amphitheatrum = à l'amphithéâtre)، وبها في ذلك اليوم تلك الألعاب الفظيعة المشؤومة، قادوه إلى هناك وهو يقول: «إن جررتم جسمي إلى ذلك المكان، ووضعتموه فيه، فهل تقدرون على أن تشدّوا روحي وعينيّ إلى تلك المشاهد. سأكون إذن حاضرا غائبا، وهكذا سأنتصر عليكم وعليها!» ورغم أنّهم سمعوا أقواله، فقد أخذوه معهم، راغبين ربّما في التحقّق من قدرته على ربط الفعل بالقول.

ولمّا وصلوا إلى هناك، وجلسوا في المقاعد كما اتفق لهم الجلوس، كانت كلّ المدارج حامية بأوحش الملاذ. أما هو فقد أوصد أبواب عينيه، مانعا روحه من المشاركة في مثل تلك الشرور. وليتّه أوصد أيضا أذنيْه! فقد أثار حادث أثناء الصراع هتافا كبيرا أحسّ وقعه بين المتفرجين، فغلبه الفضول، واعتقد أنّه، مهما كان ذلك المنظر، سيحتقره ويتغلّب عليه، وفتح عينيه، فأصاب روحَه جرح أشدّ من الجرح الذي أصاب جسم المصارع الذي رغب بقوّة في مشاهدته، وسقط في شقاء أكبر من شقاء الذي لسقوطه ارتفع الصراخ الذي دخل عن طريق الأذنين، ففتحت عينيْه، حتّى تدُكّ دكّا روحَه التي كانت إلى حدّ ذلك الوقت جريئة بدل أن تكون قويّة؛ ولذلك كانت أضعف، بقدر ما كانت قد وثقت أكثر بذاتها، في حين كان لزاما عليها أن تثق بك. إذ ما إن رأى ذلك الدم، حتّى شرب التوحّش، ولم يزورّ عنه، بل حدّق فيه، وكان يغترف منه الشراسة ولايعلم، وكان يلتذّ بالعراك الإجراميّ وينتشي باللذّة الدّامية. ولم يعد ذلك الرّجلَ الذي جاء منذ حين إلى الملعب، بل أصبح واحدا من الجمهور، الذي حلّ بينه وذب فيه، والرّفيق الحقيقيّ للذين اتوْا به إلى هناك. فهل من مزيد؟ شاهد، وصاح، وتحمّس، وحمل من هنالك معه العتاهة التي كانت تَنْخسَه لا فقط كي يعود مع أولئك الذين جرّوه سابقا إلى هناك، بل أيضا ليسبقهم وليجرّ معه غيرهم.

ومن ثمّ ومع ذلك، أخرجته أنت بيد قويّة جدّا، رحيمة جداً، وعلّمته كيف يضع ثقته لا في نفسه، بل فيك، لكن بعد ذلك بوقت طويل.

14.IX. وبقيت هذه الحادثة محفوظة في ذاكرته كالبلسم للمستقبل. وكذا الحال بالنسبة إلى حادثة أخرى: كان لا يزال طالبا، وكان يتابع بعدُ دروسي في قرطاجة، وكان في منتصف النهار يفكّر في الساحة العمومية (in foro = sur le Forum) في ما سيختاره من أنواع الخطب التي يتمرّن عليها الطلبة عادة، عندما سمحتَ بأن يلقي

عليه حرّاسُ الساحة العموميّة القبضَ في سرقة. لا أعتقد أنّك سمحت بذلك،يا إلـهنا، لسبب آخر غير ضرورة أن يبدأ هكذا ذلك الرّجل الذي سيكون عظيما جدّا يومَ أنْ يتعلّم، في القضايا المعروضة على المحاكم، كم ينبغي ألّا يَحكُمَ الإنسان على إنسان بتسرّع المجازفة والسذاجة.

إذن كان يتجوّل بمفرده أمام المحكمة، وبيده ألواحه وقلمه، وها إنّ أحد الشبّان من الطلاّب، وهو السارق الحقيقيّ، يقدم خفية بفأس، دون أن يتفطّن له أليبيُوسُ، ليهاجم الحاجز الرّصاصيّ، الذي يشرف على شارع الصيرفيّين، ويأخذ في قطع الرّصاص[1]. وما أن سُمِع دويّ الفأس حتى تهامس الصيرفيّون الذين كانوا من تحت، وأرسلوا أناسًا ليقبضوا على من يجدونه. إلّا أنّ ذلك الشاب، عندما سمع أصواتهم، ترك الفأس وهرب مذعورا مخافة أن يقبضوا عليه وهي بيده. أمّا أَلِيبِيُوسُ، الذي لم يكن رآه داخلا، فشعر به خارجا، ورآه يغادر المكان بسرعة، ودخل إليه، راغبا في معرفة السبب، فوجد الفأس، وكان يتفحّصها واقفا ومستغربا الأمر. فلمّا وجده أولئك الذين كان قد أرسلهم الصيرفيّون وحده والفأس التي كان دويّها قد أيقظهم من نومهم بيده ألقوْا عليه القبض وجرّوه وهم يتباهَوْن أمام جمهور الساحة العمومية[1] بأنّهم قبضوا عليه لصّا متلبّسا بجريمته، ومن هناك كان سيقاد ويقدّم للحكّام.

15. لكن كان لا بدّ من وضع حدّ للدّرس، إذ إنّك، مولاي، سرعان ما كنت تقف إلى جانب البراءة التي كنتَ أنت الشاهدَ الوحيد عليها. فبينما كان يُقاد إلى السجن أو التعذيب، اعترضهم في الطريق مهندس معماريّ إليه كانت تعود عهدة الرّقابة العليا على البناءات العموميّة. فرح القوم بالخصوص لملاقاته، فقد كانوا عادة محلّ ريبته في اختلاس الأشياء التي كانت تفقد في الميدان، بحيث أنّ المهندس أخيرا سيعرف حقّا من كان يختلسها. غير أنّ الرّجل المهندس كان قد رأى أكثر من مرّة أَلِيبيوس في منزل أحد الشيوخ (senatoris = d'un sénateur) الذي كثيرا ما كان يزوره. وحالما عرفه، أمسك بيده وأبعده عن الجمهور، وسأله عن سبب تلك المحنة الكبرى، ولمّا

(1)... **et praecidere plumbum coepit** = وأخذ يَقْطع الرصاص. المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 132. : «بالنسبة إلى الأماكن التي جرت فيها كامل هذه الحكاية انظر كتاب «أودولانت» **AUDOLLENT** قرطاج الرومانية (أطروحة دكتوراه باريس 1991) ص ص 228ـ230. كانت الساحة العمومية مرتفعة من إحدى جهاتها؛ وكان شارع رجال الأبناك (جمع بنك) موجودا في الأسفل ويرتبط بالساحة عبر درج، وفي ذلك النهج كان الصاغة والصيارفة ورجال الأبناك ينتصبون كلّ يوم».

علم حقيقة ما وقع، أمر جميع الصاخبين من الحاضرين والمدوّين بالوعيد أن يأتوا معه. وذهبوا إلى منزل ذلك الشاب الذي ارتكب الفعلة. كان أمام الباب عبد صغير، وكان من صغر الشأن بحيث لم يكن يخشى البتّة أن يضرّ بسيّده، ولذلك كان يستطيع أن يبوح بسهولة بكلّ شيء: كان قد رافق بالفعل سيده إلى الساحة العمومية باعتباره عبدَه المرافقَ (pedisecus = laquais)، وبعد أن تذكّره أليبيوس، نبّه إليه المهندس. لكنّ هذا الأخير أظهر للعبد الفأس، سائلا إيّاه لمن تكون. فقال في الحين «هي لنا»، ثم سُئل عن جميع الأشياء الأخرى فاعترف بها.

هكذا تحوّلت التهمة إلى تلك الدّار، في حين أُفحِمَ القوم الذين كانوا قد وجهوا التهمة إلى أليبيُوسَ، المحافظ المقبل لكلمتك المقدّسة، والحاكم في الكثير من قضايا كنيستك، والذي خرج من هنا بأكثر خبرة وتكوينا.

16.X. إذن كنت قد وجدته في روما، وتعلّق بي أيّما تعلق، ورحل معي إلى ميلانو، كي لا يتركني، ويجني بعض النفع من تعلّم الحقوق (de iure = du Droit)[1] التي كان قد درسها طبقا لما كان يتمنّى والداه أكثر ممّا كان يتمنّى هو. وقد كان، بعد أن شغل ثلاث مرّات خطّة مستشار، ذا زهد نال إعجاب الآخرين، وإن كان هو ليتعجّب أكثر من الذين كانوا يقدّمون الذهب على البراءة. وامتُحِنَ طبعه أيضا لا فقط بإغراء الطمع، بل أيضا بمنْخَسِ الخوف.

كان في روما يشغل منصب مستشار لِكُونْتِ المَاليّةِ الإيطاليّة (comiti largitionum Italicianarum = du comte (des) finances d'Italie)، وكان في ذلك الوقت شيخا من الشيوخ جبّارا للغاية، وكان قد استعبد الكثيرين إمّا بجميله، أو سيطر عليهم بالرّعب. أراد أن يسمح لنفسه - كما كان يفعل أمثاله من المتجبرين عادة - أن يفعل شيئا لا أدري ماهو، كانت تمنعه منه القوانين. وعارضه أَلِيبِيُوسُ فوعده بهديّة فراوغها بابتسامة، وجُرّبت التهديدات فداسها. أعجب الجميع بهذا الاندفاع غير المعتاد الذي لم يكن يتمنّى صداقة صديق، أو يهاب عداوة رجل عظيم جدّا ذي صيت كبير ذاع بسبب الأنواع التي لا تحصى من المحاسن والمساوئ. أمّا الحاكم عينه، الذي كان مستشارا له، فهو وإن لم يكن يريد أن يحصل ذلك فإنّه لم يرفضه مع ذلك علنا، بل نقل التهمة من شخصه إلى هذا الرّجل أليبيوس، زاعما أنّه لن يتركه يفعل، (ولم يكن مخطئا في ذلك) لو فعل الحاكم ذلك، وأنّ أليبيُوسُ سوف لن يتضامن معه[2].

---

(1) يتعلق الأمر بالسكان المجاورين المرجع السابق الملاحظة 2، هامش ص 132.

(2) حتّى حوالي سنة 430م كان اسم أليبيوس Alypius مقترنا تقريبا دائما بأوغستينوس، وقد خاض إلى جانبه الخصومات تلميذا وصديقا. أورد هذه الملاحظةَ دي لابريول ,de LABRIOLLE =

لكن الإغراء لم يكد ينتصر على أليبيُوسُ إلّا لحبّه وتحمّسه للأدب، حتّى أنّه كان، بمداخيله الوفيرة باعتباره حاكما، قادرا على السهر على إعداد كتبه الخاصّة. لكن، بعد استشارة العدالة، حوّل المداولة إلى ما هو أحسن، معتبرا القسطاسَ الذي كان يحجّر ذلك أنفع من السلطة التي تجيزه. وهذا شيء ضئيل، لكن «مَن هُوَ مخْلصٌ في الشيء الصغير، هو مُخْلصٌ أيضا في الكبير»، ولن يكون بأيّة صورة تافها، هذا الكلام الذي خرج من فم حقّك: «إنْ لمْ تكونُوا أمناء في ثَرْوَةِ الجَوْرِ، فمنْ سَيُعْطيكُمْ ثَرْوَةَ الحقِّ؟ وإنْ لم تكونُوا أمناء في مِلْكِ الغيْرِ، فمن سيعْطِيكُمْ مِلْكَكُمْ الْحَقَّ؟»

هكذا كان ذلك الرّجل آنذاك متعلّقا بي، كان يتساءل معي في حيرة عن نوع الحياة التي كان ينبغي علينا أن نتبعها.

17. نِبْرِيديوسُ أيضا، الذي غادر وطنه القريب من قرطاجة، وقرطاجة ذاتها التي كان كثيرا ما كان يطول مقامه فيها، والذي غادر حقل أبيه الغنيّ جدّا، وغادر منزله وأمّه التي لم تكن مستعدّة لتتبعه، والذي لم يكن قد أتى إلى ميلانو لسبب آخر، غير أن يعيش معي في حماس متّقد جدّا للحقّ والحكمة. كان يتوق مثلي وكان يتموّج مثلي، باحثا متحمّسا في الحياة السعيدة، ومتقصيا سابرا جدّا أغوار أعوص المسائل. وكنّا ثلاثة أفواه معوزة يزفر بعضها لبعض بفقره، وتترقّب أن تعطيها «أُكلَهَا في الوقت المُناسِبِ». وفي منتهى المرارة التي كانت تواكب أفعالنا الدّنيويّة بسبب شفقتك، لمّا كنّا نستجلي الغاية التي كنّا من أجلها نتألّم، كانت تقع الظلمات أمامنا، وكنّا نحيد عنها متحسّرين ونقول: «إلى متى هذه الآلام؟» وكنّا نقول هذا القول باستمرار، ورغم أنّنا كنّا نقوله، فلم نكن نتخلى عنها، لأنّه لم تكن تبرز لنا أيّة حقيقة قد نحصل عليها بتركنا إياها.

XI.18. كنت شديد التعجب مع الاضطراب، وأنا أتذكّر كم كان الوقت طويلا منذ السنة التاسعة عشرة من عمري التي كنت قد بدأت أتّقد فيها بحبّ الحكمة، مستعدّا - حالما أجدها - لترك كلّ الآمال الواهية والحماقات الكاذبة للشهوات التافهة. وها أنا بُلِّغت الثّلاثين من عمري، أتخبّط في نفس الوحل، بسبب الرّغبة في التمتّع بالملاذ الحاضرة المشتّتة لي، قائلا: «غدا سأجد البينة، ستظهر لي، وسأمسك بها. هاهو فاوسْتُوسُ آت، وسيشرح لي كلّ شيء. يا رجال الأكاديميا الكبار! ألا يمكن الوقوف على أيّة حقيقة لتسيير الحياة؟ لا بل بالعكس لنبحث بأكثر عناية، ولا نيأس. وها إنها

= tome VII (1923) نقلا عن P. MONCEAUX في كتابه «تاريخ الأدب في إفريقيا المسيحية» المجلد السابع ص ص54 - 58. انظر الجزء الأول من الاعترافات الكتاب السادس، ص 133.

ليست بعد لامعقولة، تلك الأشياء التي كانت تبدو في كتب الكنيسة لامعقولة، ويمكن فهمها بصورة أخرى وبأمانة. ولأُثبِّتْ قدمي في المرتبة التي كنت وضعتني فيها طفلا، حتّى أجد الحقيقة البيّنة. لكن أين نبحث عنها؟ متى نبحث عنها؟ أمبِرُوزيوسُ ليس له الوقت، وأنا ليس لي الوقت لأقرأ. أين نجد الكتب نفسها؟ من أين أو متى نجلبها؟ ممّن نستعيرها؟ فلنقسّم الأوقات، فلنوزّع الساعات لنجاة روحنا! لقد نشأ أمل كبير: لا تدرّس العقيدة المسيحيّة ما كنا نعتقد، وكنّا نتّهمها باطلا.

«العارفون بها يرون من الرّجس أن نعتقد أنّ الإلـه محدود في شكل الجسم البشريّ. ونتردّد في طرقها، حتّى تفتح أبوابها الأخرى[1]؟ ساعات ما قبل الظّهيرة أخصصها لتلاميذي، وفي الساعات الأخرى ماذا أفعل؟ لمَ لا أقوم فيها بذلك؟ لكن متى أزور الأصدقاء ذوي الشأن الذين أنا في حاجة إلى أصواتهم؟ متى أعدّ البضاعة التي يشتريها منّي الطلبة؟ متى أستعيد قواي بالذات، مريحا روحي من ضغط الهموم؟

19. «فلتفنَ جميع الأشياء، ولنطرد هذه التفاهات والترّهات! ولنهتمّ فقط بالبحث عن الحقيقة. الحياة شقاء، ويوم الموت غير معروف؛ فليأخذنا على غرّة: كيف سنخرُج من هنا؟ وأين علينا أن نتعلّم ما قد أهملناه هنا؟ أو ليس علينا بالأحرى أن ننال عقاب هذا الإهمال؟ وكيف الحال لو أنّ الموت عينه يبْتُرُ مع الحسّ كلّ همّ، وينهيه؟ إذن لا بدّ من البحث أيضا فيه.

«لكن أتمنّى ألّا يكون الحال هكذا! ليس من عديم الفائدة ولا من عديم الحكمة أن تعمّ الحظوة الشامخة للغاية لسلطان العقيدة المسيحيّة الكونَ بأسره. ما كان الإلـه ليفعل قطّ لنا مثل هذه الأفعال الفائقة، لو كانت حياة الرّوح تنْطَفِئ أيضا بموت الجسم. لِمَ نتردّد إذن، بعد التخلّي عن أمل الدّنيا، أن نهتمّ بكلّيتنا بالبحث عن الإلـه والحياة السعيدة؟

«لكن ترقّب: فالأشياء الدّنيويّة عذبة أيضا، لها لذّتها غير القليلة؛ لا يجوز قطع ميْلي إليها بتسرّع، لأنّه من العار العودة إليها من بعد. ها أنذا بعدُ قادر على أن أنال مركزا شرفيّا. وهل لي أن أتمنّى أكثر منه في هذه الظّروف؟ لي عدد لا بأس به من الأصدقاء ذوي الشأن: فإن لم أحرص كثيرا على طلب شيء آخر أكثر، يمكنني على الأقل أن أظفر برئاسة[2]. ويمكنني أن أتزوّج امرأة ذات ثراء، كي لا تثقل النفقات كاهلي. سأقصر

---

(1) ما يطلب منه، أي عدم تطبيق القوانين وتبرئة ساحة الشيخ الجبّار.
(2)... Praesidatus = رئاسة محكمة أو بالأحرى تسيير شؤون مقاطعة، على حدّ قول دي لابريول DE LABRIOLLE. المرجع السابق الملاحظة 1، هامش ص 137.

رغباتي على هذا. الكثير من الرّجال العظام الجديرين للغاية بأن يُقلّدوا المناصب تعاطوا دراسة الحكمة وهم متزوّجون».

20. بينما كنت أحدّث نفسي هذا الحديث وكان هبوب هذه الرّياح المتضاربة يدفع قلبي هنا وهناك، كان الوقت يمضي، وكنت أتأخر «عن التوجُّهِ نَحْوَ المؤلَى». وكنت أرجئُ من «يوم إلى يوْم أن أحيَا فيك»، ولكن لم أكن أرجئ يوميّا أن أموت في نفسي ذاتها: كنت أحبّ الحياة السعيدة، لكني كنت أخشاها بالذات في مقرّها، وكنت هاربا منها، لكني كنت أبحث عنها. إذ كنت أعتقد أنّي سأكون تعيسا جدّا، لو حُرمت من عناق امرأة. أمّا دواء شفقتك فلم أكن أفكّر فيه لعلاج ضعف كهذا، لأنّي لم أكن قد اختبرته. وكنت أعتقد أنّ العفّة مرتبطة بقواي الخاصّة التي لم أكن شاعرا بها، بما أنّي كنت من الحمق، بحيث لم أكن أعرف، كما جاء في الكتب، (sicut scriptum est = comme dit l'Ecriture)[1]، «ألّا أحد يسْتطِيعُ أنْ يكونَ عَفِيفًا، إلّا إذا أَعْطيْتَهُ ذلكَ». ولا شكّ أنّك كنت ستُعطينيه، لو طرق أنيني بابَ أذنيك، ولو رميت فيك همومي بعقيدة متينة.

21.XII. ولا شكّ أنّ أليبيوسُ كان يُبعدني عن الزواج، مردّدا بلا انقطاع أنّنا لن نستطيع أبدا أن نعيش معا، في راحة آمنة، على حبّ الحكمة، كما كنّا نرغب فيها بعد طويلا، إن أنا أقبلت على الزواج. كان هو آنذاك متعفّفا تعفّفا تاما، وكان الأمر غريبا، لأنّه كان قد عرف بالعكس تجربة اللذة الجنسية في بداية شبابه. لكنه لم يتعلّق بها، بل أحسّ تجاهها بالأسى والإزدراء، وعاش بعد ذلك الزّمن عيشة العفاف.

أمّا أنا فكنت أعارضه بذكر أمثلة الذين، وإن كانوا متزوّجين، كانوا قد كرسوا حياتهم للحكمة وكسبوا لإرضاء الإلـه مزايا، وعاملوا الأصدقاء بإخلاص ومحبّة. وكنت أنا بعيدا جدّا عن همّة نفوسهم، كنت مقيّدا بفوران جسمي، أجُرّ قيودي في لذّة قاتلة، كنت أتمنّى أنْ تكسر تلك السلاسل، لكنني كنت أدفع عنّي كلمات الناصح بالخير، كما يدفع صاحب الجرح، بعد أن لُطم جرحُه، يدا تقترب منه لتحلّ ضماده.

زد على ذلك أنّه بواسطتي كانت الحيّة تخاطب أليبيوس ذاته، وتُعانقه، وكانت تزرع في طريقه، بواسطة لساني، حبائلها الحلوة، كي تقع فيها رجلاه العفيفتان الحرّتان.

22. فقد كان يتعجّب منّي، أنا الذي كان يضعني في منزلة رفيعة، وأنا منغمس كلّ الانغماس في دبق اللّذّة. ألم يكن يصل بي الأمر، كلّما تباحثنا في هذا الشأن،إلى أن أؤكد

---

(1) يعني كما قيل حرفيّا في الكتب المقدّسة، وهذا استشهاد في سياق الاعترافات، كما وجدنا منه الكثير عند ترجمتنا لهذا الكتاب.

له أنّي لا أستطيع بأيّ حال أن أقضي حياتي أعزب[1]، وكنت أدافع عن رأيي، لمّا كنت أراه متعجّبا، قائلا إنّ الفرق كبير بين ما كان هو قد اختبره بسرعة وفي الخفاء - ولا يكاد لعمري البتّة يتذكّره من بعد، بل لذلك كان يحتقره بسهولة وبدون أيّ أسف - وبين لذّات علاقتي الجنسيّة. فلو أطلق عليها اسم الزّواج الشريف، ما كان عليه أن يتعجّب ألّا أقدر أنا أن أحتقر تلك الحياة. لذلك كان قد بدأ هو بالذات يرغب بعد في الزّواج، لا مغلوبا البتة بذلك الشبق الجنسيّ (libidinis = l'attrait sensuel) بل بحبّ الإطّلاع[2]. كان يقول إنّه يودّ أن يعرف، ما عسى أن يكون ذلك الشيء الذي كانت بدونه حياتي التي كانت تروق له كما هي، ما كانت لتبدو حياة، بل عذابا. وكانت روحه المتحرّرة من ذلك القيد تستغرب عبوديّتي، ومن الاستغراب كانت تنتقل إلى الرّغبة في التجربة، مقبلةً إثرها على التجربة عينها، ومن ثمّ ربّما ساقطة في تلك العبوديّة التي كانت تستغربها، بما أنّها كانت تريد «إبرام عقد مع الموتِ»، و«منْ أحبّ الخطرَ، سقط فيهِ».

إذا كان شرف الزّواج في تسيير العائلة وتنشئة الأطفال، فإنّه لم يكن له عند أيّ منّا إلّا قيمة ضئيلة. وفي المقابل فإنني كنت أسيرَ العادة في إشفاء غليل غُلْمَتي العطشى دوما، والتي كانت تعذّبني أسيرا، أمّا هو فكان تعجّبه منّي يجرّه إلى الأسر عينه.

هكذا كنّا، أيها العليّ، غير التارك وحَلنَا، في انتظار اليوم الذي تشفق فيه على تعاستنا، وتنجدُنا بصور عجيبة خفيّة.

23.XIII. كان القوم يحثّونني باستمرار على الزواج.وبمجرّد أن تمّت الخطبة، كان الوعد بالقبول بفضل جهد أمّي الجهيد، الرّاغبة في أن يغسلني التعميد المنجّي(baptismus salutaris = l'eau salutaire du baptême[3] وأنا متزوّج.

---

(1)... caelibem uitam... =.... الحياة بلا امرأة؟ انظر الملاحظة 2 من هامش ص 138. «لمْسة غريبة من الحداثة» ونضيف أنها ذات منزلة محوريّة في كتاب الاعترافات، حيث يتطلب التغلب على الشهوة الجنسيّة جهدا طويل النفس. انظر في موضع لاحق (libidinis = الشبق والشهوة الجنسية، وهي العبارة التي يغلب استعمالها).

(2)... sed curiositatis = جاذبية حبّ الاطلاع، انظر الملاحظة 2 من هامش ص 138: «مهما كان الحرج في تأكيد هذا الجانب من نفس أوغستينوس فإنه يتعيّن أن نشير إلى بعض النصوص التي نجد فيها نفس الحدة في الطبع. انظر بالخصوص ما يوجد لاحقا في الكتاب العاشر من الاعترافات X, XXX, 42.

(3) «كانت تلك الخلفيّة... التي تفكر فيها مونيكا في المرحلة العصيبة الموالية أكثر من كونها خلفيّة اجتماعية عادية». الملاحظة 2 من هامش ص 139.

كانت مسرورة أن تراني أزداد جدارة به يوما بعد يوم، وكانت تلاحظ في عقيدتي أنّ أمانيها ووعودك متحقّقة.

ورغم أنّها كانت حقّا، بطلب منّي وبرغبتها الخاصّة، تتوسّل إليك يوميّا في نداء قويّ، كي تريها في المنام شيئا عن زواجي المقبل، فلم تُرِدْ قطّ ذلك. وكانت ترى بعض الصور غير الحقيقيّة واللّاواقعية، كما كانت تصوّرها القوّة الحيّة للفكر البشريّ المضطرب في هذا الشأن، وكانت ترويها لي، لا بثقتها المعتادة عندما كنت أنت تريها إياها، بل بالاحتقار، إذ كانت تقول إنّها تميّز بطعم لا أعلم ما هو – ولم تكن قادرة على شرحه بالألفاظ – الفرق بين رؤياك أنت وحلمها الخاص.

إلّا أنّ القوم كانوا يحثّونني على الزّواج، وكانت البنت مخْطوبةً لي، وإن كانت دون سنّ البلوغ (**non encore nubile = minus quam nubilis**) بعامين تقريبا، ولأنّها كانت تروق لي، سأنتظرها.

24.XIV. وكنت أنا ورفاق عديدون قد فكّرنا وتحادثنا وآثرنا، وكدنا نقرّر بعدُ بسبب كراهيّتنا لاضطرابات الحياة الإنسانية، أن نعيش في سلام بعيدا عن الجماهير.

وتدبرنا هذه العزلة على النحو التالي: جعلنا الأموال التي نملكها ملكا مشاعا بيننا، وجمّعنا الأملاك ثروةً واحدة، بحيث لا يكون، بسبب صحبتنا الصادقة، هذا لهذا وذاك لذاك، بل يكون ما هو للجماعة واحدا، ويكون المجموع لكلّ واحد، والكلّ للكلّ. إذ كان يبدو لنا أنّه يمكن أن نكون تقريبا عشرة رجال في هذه الجمعيّة، وأن يكون من بيننا أثرياء كبار، خاصّة رومانيانوس (Romanianus)، أحد بني وطني (**= communiceps mon compatriote**) الذي كانت قد جرّته آنذاك إلى البلاط صعوبات أعماله الحادّة، وكان صديقا حميما جدّا لي منذ بداية حياتي.

وكان بالخصوص حريصا كلّ الحرص على هذا المشروع. كان له في الإقناع تأثير كبير، لأنّ ثروته كانت تفوق بكثير ثروات كلّ الآخرين.

وكنّا قد قرّرنا أن يهتمّ اثنان منّا، كأنّهما قاضيان، كلّ سنة بكلّ ما يلزم، في حين يكون الآخرون في عطلة. لكن، بعد أن بدأنا نفكّر، هل ستسمح لنا بذلك زوجاتنا – إذ كان للبعض منّا زوجات بعدُ، وكنّا نحن أيضا ننوي الزواج – بكلّ تلك القرارات التي كنّا ضبطناها بإحكام، لكنّ المشروع أفلت من أيدينا، وتكسّر وتُرك جانبا.

من هنا عدنا إلى الحسرات والتأوّهات، متّبعين في خطانا «الطُرقات العريضة الممهّدة في الحياة الدّنيا» (**uias saeculi = les voies... du siècle**)، لأنّ «أفْكَارًا

كثيرَةً كَانَتْ في قلوبنا، أمَّا قَرَارُكَ فيبقَى إلى الأبدِ». ومن علياء هذا القرار، كنتَ تضحك من أفكارنا، وكنت تهيّئ لنا سبُلك، حتّى تعطينا الطعام «في الإبّان» وتفتح يدك وتملأ أرواحنا «بنعمتك».

XV.25. كانت ذنوبي في الأثناء تتكاثر؛ وبعد أن انتزعتْ من جانبي المرأة التي اعتدت أن أضاجعها، لانها كانت عائقا لزواجي، كان قلبي، الذي كانت متعلّقة به، قد تمزّق وطال نزيف جرحه الدامي.

رجعتْ إلى إفريقيا، ناذرة إليك ألّا تعرف رجلا آخر، تاركة لي ابن الفراش الذي وضعته.(naturali... filio = le fils naturel)

أمّا أنا الشقيّ، فلم أقدر على تقليد المرأة في ما نذرت، ولم أتحمّل أن أنتظر عامين لأظفر بالزّوجة التي خطبتها، ولم أكن محبّا للزّواج، بل عبدا للشّبق، فاتّخذت لي خليلة أخرى، لا لتكون زوجة، بل قل ليتغذّى مرض روحي ويمتدّ، إمّا على حاله أو بازدياد، تحت رعاية عادة تدوم إلى قدوم الزّوجة. ولم يكن جرحي، الذي كان قد أصابني بسبب انتزاع رفيقتي الأولى قد شفي، بل صَدَّدَ وتقيّح، بعد الحمّى والألم الكاويين، لكنني كنت والألم يخمد أشدّ يأسا من شفائه[1].

XVI.26. لك الثّناء، ولك العزّة، يا منبع الشفقات! كنت أنا أزداد شقاء، وكنت أنت تزداد مني قربا. كانت يمناك، قريبة منّي، مستعدّة لانتشالي من الوحل وغسلي منه، وكنت أجهل ذلك. لم يكن يثنيني عن الغرق في لجج اللذّات الجنسيّة إلّا الخوف من الموت ومن يوم حسابك الآتي. لقد مررت لعمري بخلدي آراء مختلفة، لكن هذا الإحساس لم يفارق أبدا صدري.

وكنت أتناقش مع صديقيّ أليبيوسَ ونبريديوس حول الخير الأقصى والشرّ الأقصى، قائلا: إنّ النصر سيكون لأبيقوروس[2] (Epicurum = Epicure)، لو لم أكن أنا آمنت ببقاء الرّوح حيّة بعد الموت وبحسابنا على أفعالنا؛ وهو الشيء الذي لم يرد أبيقوروس أن يؤمن به.

---

(1)... sed desperatius dolebat = لم تكن إلّا أكثر يأسا. الملاحظة 2 من هامش ص 141: «على خلاف عادته في شحّه بالاعترافات العاطفية، لم يقدر أوغستينوس أن يكبح نفسه عن الاعتراف بقوة لوعته وتمزق قلبه بسبب هذا الفراق القاسي».

(2) الفيلسوف اليوناني المنشىء للأبيقورية (L'Epicurisme)، وهو المذهب الفلسفي القائل بنظرية الإنغماس في لذّات الحياة البشرية كهدف وحيد للإنسان فيها، وبعدم وجود حياة أخرى تخلّد الرّوح فيها، وهذا ما يرفضه في هذا السياق القدّيس أوريليوس أوغستينيوس.

وكنت ألقي السؤال التالي: لو كنّا مخلّدين، ولو كنّا نحيا في لذّة جسديّة أبديّة، دون أيّ خوف من فقدانها، كيف لا نكون سعداء، أو عن أيّ شيء آخر نبحث؟ كنت لا أعرف أنّ ما يشير بالذات إلى شقائي الكبير، هو أنّي لا أقدر - وأنا هكذا مسحوق أعمى - أن أتصوّر نور الفضيلة والجمال المؤهّل ليعانق مجانيّا ما لا تراه العين الجسديّة، بل يُرى من الأعماق. ولم أكن أبحث، أنا الشقيّ، عن معرفة المنبع التي يتدفّق لي منه الحديث بعذوبة مع صديقيّ عن هذه الأشياء القذرة نفسها، ودون صديقيَّ، ما كنت سعيدا أيضا من جهة الشبقيّة التي كانت آنذاك على ذمّتي مهما كانت وفرةُ الملاذّ الجنسيّة (carnalium uoluptatum = les voluptés charnelles). وكنت أحبّ لا شكّ مجانيّا هذين الصديقين، وبالمقابل كنت أشعر أنّهما يبادلانني نفس الحبّ مجانيّا.

يا لها من طرقات ملتوية! وويْحٌ للرُّوحِ المجازفة التي أملت أنّها لو كانت قد ابتعدت عنك، لنالت شيئا أحسن! لقد تقلّبتْ مرارا وتكرارا، على الظّهر وعلى الجنبيْن، وعلى البطن. كل شيء وجدته صلبا، وفيك أنت وحدك وجدت الرّاحة. وها أنت تحضر، وتحرّرنا من أخطائنا الشقيّة، وتركّز خطانا على طريقك، وتواسينا وتقول: «اجْرُوا، أَنَا سَوْفَ أَدْعَمُكُمْ، وَسَوْفَ أَقُودُكُمْ إِلَى آخِرِ الْمَطَافِ، وَسَوْفَ أَحْمِلُكُمْ إِلَيْهِ!».

الكِتَابُ السَابِعُ

I.1. كانت مراهقتي الإجرامية السيئة قد ماتت بعد، وكنت أسير نحو الشباب، وبقدر ما كنت أتقدّم في السنّ كنت أكثرَ خجلا من تفاهتي. لم أكن أستطيع أن أتصوّر مادّة أخرى غير التي أراها عادة بعينيّ هاتين. لم أعد أتصوّرك، يا إلـهي، في صورة الجسم البشري منذ أن بدأت أستمع إلى شيء من الحكمة - لقد تجنبت دوما هذا الخطأ، وكنت مسرورا بأن أجد الحقيقة في عقيدة أمّنا الرّوحانية، كنيستك الكاثوليكيّة - لكن على أية صورة أخرى يمكن أن أتصوّرك؟ لم أكن أعرف. وكنت أحاول أنا الإنسان وأيّ إنسان! - أن أتصوّر أنّك الإلـه الأكبر الوحيد الحقّ. وكنت أؤمن من أعماق قلبي أنّك غير فاسد، وغير منتهَك، وغير متغيّر. ودون أن أعرف مأتى هذا الاعتقاد، كنت أعلم علماً يقيناً أنّ ما يمكن أن يدخله الفساد أدنى منزلة ممّا لا يمكن أن يدخله. وكنت أضع دون تردّد ما لا يقبل الانتهاك فوق ما يقبل الانتهاك، وأعتقد أنّ ما لا يَطَالُه التغيّرُ أحسن ممّا يطاله.

كان قلبي يصرخ بعنف ضدّ جميع أوهامي، وكنت أحاول بضربة واحدة أن أزيح عن فكري أبابيل الأفكار الطائرة حولي : ولكن ما إن تُبْعَدَ حتّى تتجمّع من جديد، في لمح البصر، وتنقضّ على عينيّ، وتعميهما. ورغم أنّي لم أكن مجبرا على أن أراك في صورة جسم بشري، كنت مجبرا على أن أراك في صورة شيء جسماني ما، موزع في الفضاء، إمّا متأصّل في الكون، أو ربّما منتشر خارج الكون، وعبر اللانهائيّ. وكنتُ أضعك، بذاتك غير الفاسدة وغير المنتهكة واللاّمتغيّرة، في المقدّمة قبل الفاسد والمنتهك والمتغيّر. وكان ما كنت عاجزا عن تصوّره على هذه الشاكلة في الفضاء، كان يبدو لي عدما، بل مطلق العدم، لا مجرّد فراغ فقط، فلو رُفِعَ جسم من مكان، وبقي المكان فارغا من كلّ جسم بريّ أو مائيّ أو هوائيّ أو سماويّ، لكان المكان مع ذلك فارغا كالعدم الماثل في الفضاء **tamquam spatiosum nihil = tel un néant...(de la spaciosité)**.

2. إذن كنت مثقل القلب، وعاجزا عن القراءة في باطن نفسي ذاتها أيضا. كنت

أعتقد أنّ كلّ ما لا يمتدّ عبر فضاء ما، أو لا ينتشر، أو لا يتجمّع، أو لا ينتفخ، أو يتّخذ مثل هذه الهيئات فيه أو لا يمكنه أن يتّخذها، هو العدم المطلق. فالأشكال التي كانت تمرّ أمام عينيّ عادة، توافقها تلك الصور التي كانت تمرّ في قلبي، ولم أكن أرى أنّ ذلك الجهد الذي به كنت أصوّر تلك الصور ذاتها، يختلف عنها اختلافا تاما، إلّا أنّه ما كان ليصوّرها لو لم تكن هي نفسها شيئا عظيما.

هكذا فأنت أيضا، يا حياة حياتي، كنتُ أتصوّرك كائنا عظيما، يخترق - من كلّ الجهات، الفضاء اللاّنهائي لكتلة الكون بأسرها، وما فاض عنها في كلّ مداها الشاسع دون حدّ، حتّى أنّ الأرض تحويك، والسماء تحويك، والكلّ يحويك وهو محدود فيك، أمّا أنت فلا يحدّك شيء. لكن، كما أنّ نور الشمس لا يجدِ حاجزا في كتلة الهواء الذي فوق الأرض، ولا يُمْنَعُ من اختراقه، ويلجه، دون أن يقطعه أو يمزّقه، بل يملؤه كليّا، كذلك كنت أظنّ أنّ كتلات السماء والهواء والبحر، بل وأيضا الأرض، مفتوحة أمامك، وقابلة لأن تخترقها في جميع أجزائها الكبرى والصغرى، كي تتقبّل وجودك، بحيث أنّك، بإلهام خفيّ، تهدي، داخليّا وخارجيّا، الكلّ الذي خلقته وتسيّره. تلك كانت تخميناتي، لأنّي لم أكن أتصوّر غيرها، إلّا أنّها كانت خاطئة. فعلى هذه النحو، سيحتوي جزء أكبر من الأرض جزءا أكبر منك، وجزء أصغر منها جزءا أصغر منك، وستكون هكذا جميع الأشياء ملأى بك، بحيث يسع جسم الفيل منك أكثر مما يسعه جسم طائر الجثوم (passeris = un passereau)، باعتبار أنّ الأول أعظم جثة من الثاني، ويحتلّ مكانا أكبر،فتكون بذلك قد جعلت أجزاءك إربا إربا، بين أجزاء الكون : الكبيرة في الكبيرة، والصغيرة في الصغيرة. لكن الحال ليست على هذه الشاكلة. أمّا أنت «فَلَمْ تَكُنْ قد أَنرْتَ بَعْدُ ظُلُماتي».

II.3. كان يكفيني، مولاي، ضدّ أولئك الخادعين المخدوعين، والثّرثارين البُكْم لأنّ كلمتك المقدّسة لم تكن تخرج من أفواههم، كان يكفيني إذن الاعتراض الذيَ كان نِبْرِيدِيُوسُ - منذ عهد بعيد في قرطاجة - يعارضهم به، والذي تزعزعت لسماعه نفوسنا : فماذا كان يفعل بك جنس الظّلمات التي كان القوم المانويّون قد تعوّدوا عرضها ضدّك، لو أنك رفضت أن تصارعها؟ إذ أجاب مجيب، أنّها كانت ستضرّ بك في شيء ما، لكنت قابلا للانتهاك وللفساد[1]. أمّا لو أجاب أنّها لا تقدر أن تضرّ بك في شيء، فلن يكون هناك أيّ داع للصراع، وبالخصوص للصّراع في ظروف يكون فيها

(1)... uiolabilis tu et corruptiblis fores = ... إذن...لم تكن في مأمن من الانتهاك ولا بعيدا عن الارتشاء. المرجع. السابق الكتاب السابع، الهامش ١ ص ١٤٧ «كانت تلك الحجة الأساسية التي جعلت «فيليكس» المانوي، في لقاء جمعه بأوغستينوس، يقرّ له بالهزيمة...».

جزء منك أو عضو أو فَسيلة (proles = rejeton) من ذات جوهرك، ممتزجا بقوّات مضادّة وبطبائع لم تخلقها، ليفسد بسببها وينقلب أسوأ منقلَب إلى حدّ الانتقال من السعادة إلى الشقاء، ويحتاج إلى عون تكون به النجاة والطهارة. وذلك الجزء هو الرّوح التي قد يكون قولك الذي جاء حرّا سليما نقيّا من الأدران، لينجيَها من العبوديّة، دون أن يكون هو بالذّات قابلا للفساد، لكونه قد قُدّ من نفس الجوهر الوحيد! إذن لو كان المانويّون يقولون إنّك، في كلّ ما أنت، أي في جوهرك الذي أنت به كائن، غير قابل للفساد، فكلّ ما سلف خاطئ ملعون، أمّا إن قالوا إنّك قابل للفساد، فهذا عينه بعد خاطئ، ومن أوّل وهلة شنيع.

كان هذا إذن كافيا للردّ على من كان ينبغي، بأيّة صورة، أن يُقْذَفُوا بسبب ضغطهم على الصدور، لأنّهم بأفكارهم وحديثهم عنك على هذا النحو لن يخرجوا إلّا برجس فظيع، بالقلب واللّسان.

4.III. لكني، لو كنت إلى ذلك الحدّ أقول وأعتقد جازما، أنّك لا تقبل بتاتا الدّنس ولا التحوّل، ولا التغيّر في أيّ جزء من أجزائك، مولانا، أيّها الإلـهَ الحقَّ الذي خلقت لا فقط أرواحنا، بل أيضا أجسامنا، ولا فقط أرواحنا وأجسامنا، بل كلّ المخلوقات والأشياء، فمع ذلك لم أكن أملك تفسيرا لسبب الشرّ. فمهما كان مصدره، كنت أرى وجوب البحث عنه، حتى لا أكبّل به فأرى الإلـه اللاّمتغيّر متغيّرا؛ وإلّا أصبحت أنا نفسي ما كنت أبحث عنه. لذلك كنت أبحث عنه آمنا واثقا من عدم صحّة ما كان يقول القوم المانويّون الذين كنت هاربا منهم بكلّ جوارحي، لأنّي كنت أراهم، في البحث عن منشإ الشرّ (malum = le mal)، مليئين بالمكر (malitia = malice)،حتّى أنهم كانوا يعتقدون أنّ جوهرك يتحمّل الشرّ، عوض أن يقولوا إنّ جوهرهم يرتكب الشرّ.

5. وكنت أجتهد كي أفهم ما كنت أسمعه، من كون حرّية اختيار إرادتنا هي السبب في كوننا نرتكب الأخطاء، ومن كون حكمك العادل هو السبب في كوننا نتعذّب[1]، ولم أكن قادرا أن أفهم السبب بوضوح. لذلك كنت، وإن حاولت أن أُخرِجَ نظر فكري من الهوّة، أغوص فيها من جديد، ورغم محاولاتي المتكرّرة كنت أغوص فيها أكثر فأكثر.

(1)... (cause) السبب في كوننا نتعذّب =.. causam... tu pateremur،...نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص149: «يمكن أن نقسّم الألم إلى قسمين: الألم الذي يسببه الإنسان والألم الذي يسلّط عَليْه. أمّا الذي يسبّبه فهو الإثم والخطيئة، وأما الذي يسلّط عليه فهو العقاب... وكان أوغستينوس قد قال ذلك في كتابه «في نقض آدمنت المانوي» «Contre Adamante le Manichéen» الذي وضعه سنة 395..

أما ما كان يرفعني إلى نورك، فهو أنّي كنت لم أعد أكثر وثوقا بحياتي منّي بإرادتي. لذلك، فكلّما كنت أريد أو أرفض شيئا ما، كنت واثقا جدّا من ألّا أحد غيري يريد أو يرفض، وكنت ألاحظ رويدا رويدا أنّ هناك مَكْمَنَ سبب إثمي. أمّا ما كنت أفعله رغم أنفي، فكنت أرى أنّي فيه منفعل عوض أن أكون فاعلا، وكنت أعتبره ليس ذنبا، بل عقابا، وكنت أعترف توّا، وأنا أفكّر في عدلك، أنّي لست أعاقب به ظلما.

لكنني كنت أقول ثانية : «من خلقني؟ أليس إلـٰهي، لا المتصف بالطيبة فقط، بل هو الطيبة ذاتها؟ إذن من أين لي أن أطلب الشرّ، وأعرض عن الخير؟ ألا يكون ذلك كي أنال المغفرة مقابل عقاب عادل؟ من وضع بذرة المرارة وغرسها فيّ، والحال أنني من خَلق إلـٰهي الأعذب؟ فإن كان الشيطان خالقِي، فمِن أين أتى الشيطان نفسُه؟ وإن أصبح هو بالذّات، بإرادة منحرفة، شيطانا بعد أن كان ملاكا طيّبا، فمن أين له في ذاته الإرادة السيّئة التي صار بها شيطانا، لمّا كان الملاك الكليّ قد خَلقه أحسن إلٰه؟ » كنت لهذه الأفكار أنحطّ ثانية، وكانت تخنقني، ولكن لم أكن أنزل حتى أصل إلى جحيم ذلك الخطإ الذي «لا أحد يعترف لك فيه»، بينما يعتقد الناس أنّك ضحية للشرّ، عوض أن يعتقدوا أن الإنسان يفعله.

6.IV. كنت إذن أسعى لأقف على ما تبقّى من الحقائق، كما أنّي وجدت بعدُ أنّ غير القابل للفساد أحسن من القابل له، ولذا كنت أقرّ بأنّك، مهما كنت، غير قابل للفساد، إذ لم تقدر أيّة روح بعدُ، ولا هي قادرة أن تتصوّر شيئا يمكن أن يكون أحسن منك، أنت الخير الأعلى الأحسن.

ولمّا كان من المؤكد أنّ غير القابل للفساد مفضل على القابل له، وهو أمر قد صدّقت به بعدُ، كنت قادرا بعدُ على الوصول بالفكر إلى شيء يكون أحسن من إلـٰهي، لكنك كنت غير قابل للفساد. إذن بما أنّي كنت أرى أنّ غير القابل للفساد ينبغي أن يؤثرّ في القابل له، كان يلزمني أن أبحث عنك، وأن أتحرّى من هنا أين يكون الشرّ، أعني من أين يصدر الفساد ذاته الذي لا يمكن لجوهرك، بأيّة حال من الأحوال، أن يتبدّل من جرّائه. فالفساد لا يبدّل البتّة إلـٰهنا، بأيّة صورة، وبأيّة إرادة، وبأيّة ضرورة، وبأيّة صدفة غير متوقعة، لأنّه الإلـٰه ذاته، وما يريده لنفسه حسن، وهو أيضا عين الحسن. أما ما يفسد فليس بالحسن. فلستَ مرغما، على إتيان أيّ شيء، لأنّ إرادتك ليست أعظم من قوّتك. ولتكون أعظم، يجب أن تكون أنت ذاتك أكبر من ذاتك نفسها، لأنّ إرادة الإلـٰه وقوّته هما الإلـٰه ذاته. ما الذي لا تنتظره ولا تتوقّعه، أنت الذي تعرف كلّ شيء

ولا خليقة تكون إلّا لأنّك تعرفها. ولكن لمَ نطيل القول في عدم قابليّة الجوهر للفساد، الجوهر الذي هو الإلـه، بما أنّه لو كان هو قابلا للفساد لما كان الإلـه؟

V.7. وكنت أبحث عن مأتى الشرّ، وكنت أبحث بحثا فاسدا، وفي بحثي نفسه، لم أكن أرى الشرّ.[1] وكنت أجعل «في مرأى من فكري» الخليقة جمعاء، وكلّ ما نستطيع أن نراه فيها، كالأرض والبحر مثلا والهواء والنجوم والأشجار والحيوانات الفانية وكلّ ما لا نراه فيها، كالسماء في أقاصي عليائها وجميع الملائكة وعالم الأرواح بأسره. إلّا أن هذه عينها، قد وزّعها خيالي، كما لو كانت أجساما، في أماكن خاصّة بها. وجعلتُ من خليقتك كتلة واحدة كبيرة، منقسمة بأجناس الأجسام، سواء أكانت في الحقيقة أجساما، أم كنت أنا قد تصوّرتها هكذا. وهذه الكتلة من الأرواح المذكورة، كنت أتصورها عظيمة، لا حسب حجمها، الذي لم أكن أعرف قدره، بل حسب هوايَ، ومحدودة من كلّ الجهات معا. أما أنت، مولاي، فتحيط بها في كلّ أجزائها وتلِجها، ولكنّك لانهائيّ في كلّ الاتجاهات، كما لو أنّ بحرا يكوّن في كلّ مكان ومن جميع النواحي، عبر الفضاء الشاسع اللانهائي، بحرا واحدا، وتكون وسطه إسفنجة، هي من الكبر بقدر ما نريد، لكنّها مع ذلك محدودة، وتكون تلك الإسفنجة ملأى، في جميع أجزائها، بالبحر الشاسع[2].

هكذا كنت أتصوّر أنّ خليقتك المحدودة ملآى بذاتك اللامحدودة، وأقول: «هاهو الإلـه، وهاهي خليقة الإلـه، والإلـه طيّب، وهو أفضل منها كأقوى ما يكون وأبعد، لكن مع ذلك فالطيّب ما خلقها إلّا طيّبة: وهو على ذلك النحو يَسعُها، ويملؤها. إذن أين هو الشرّ، ومن أين تسرّب إلى هنا وكيف؟ ما هي جذوره؟ وما هي بذرته؟ هلاّ يوجد إطلاقا؟ كيف إذن نخشى ما ليس بموجود ونتّقيه؟ لكن إن خشينا بلا سبب، تكون الخشية نفسها بلا شكّ هي الشرّ ذاته الذي يَنخس قلبنا عبثا ويعذّبه. ويكون الشرّ أشدّ، متى لم يكن هناك ما نخشاه، ومع ذلك نشعر بالخشية. فلذلك السبب إما أن يكون هناك

---

(1) «يعود أوغستينوس هنا إلى فكرة كان قد عبّر عنها أعلاه (الكتاب السابع الفقرة III, 4) تعبيرا فيه كثير من الغرابة والغموض. فالبحث في الشرّ إنْ لم يقم على أسس سليمة يصبح هو نفسه مصدرا للشرّ، باعتباره بحثا مضللا ومذنبا». نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص 150.. **in ipsa inquisitione mea non uidebam malum** =... وكنت لا أرى الشرّ الموجود في بحثي نفسه..

(2) «كلّ هذا العمل الجليل القائم على الجدل والخيال يلخّصه أوغستينوس في جملة ضخمة تمتدّ على ثلاثة وعشرين سطرا». نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص 151.

شرّ نخشاه، أو ذلك الشرّ هو أننا نخشى. إذن من أين يأتي الشر بما أنّ الإلـه الطيّب خلق كلّ الأشياء طيّبة؟ الخير الأعظم المطلق خلق، لعمري، أشياء أقلّ طيبة منه، لكن مع ذلك فالخالق والمخلوقات كلّهم طيّبون. ما مأتى الشرّ؟ هل المادة التي صنع منها المخلوقات مادة سيّئة، صوّرها وسوّاها إلّا أنه ترك فيها شيئا ما لم يحوّله إلى الحسن؟ لم هذا كذلك؟ ألم يكن في وسعه، رغم أنه قدير، أن يحوّلها ويغيّرها، حتى لا يبقى فيها شيء سيّئ؟ وأخيرا، لِم أراد أن يخلق من هذه المادة شيئا ما، ولم يفضّل استعمال نفس القدرة الكليّة، ليقضيَ عليها القضاء التام؟ أم هل كان من الممكن أن تكون ضدّ إرادته؟ وإن كانت المادّة أبديّة فلم تركها هذه المدّةَ الطويلةَ تمتدّ طوال الأزمنة الماضية الأزلية، وقرّر بعد كلّ هذا الوقت أن يجعل منها شيئا ما؟ أمْ إنه، عندما أراد فجأة أن يفعل شيئا، أما كان من الأفضل له، وهو القدير، أن يفعله بحيث لا تكون المادة، ويبقى هو الأحد المطلق كالخير الحقّ، الأعلى، اللانهائي؟ وأعتقد كذلك أنه، إن لم يكن من الصواب ألّا يصنع من كان حسنا شيئا حسنا، فإنّه كان عليه أن يزيل تلك المادة التي كانت سيّئة، وأن يردّها إلى العدم، وأن يكوّن مادة حسنة منها يخلق جميع الخلائق؟ إذ ما كان ليكون القديرَ على كلّ شيء لو لم يكن يقدر على تكوين ما هو حسن إلّا بواسطة تلك المادّة التي لم يخلقها هو نفسه».

كنت أدير مثل هذه الأفكار في قلبي الشقيّ، المثقل بهموم لاذعة جدّا، صادرة عن الخوف من الموت، وعن عدم وجود الحقّ، لكن الإيمان «بالمسيح ابنك ومولانا ومنجّينا» حسب تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة كان راسخا في قلبي رسوخا قويا، وهو لعمري إيمان لا يخلو من خشونة في الكثير من جوانبه، **يميل مع قانون الإيمان[1] حيث يميل**، إلّا أنّ روحي لم تكن لتعرض عنه، بل بالعكس كانت، يوما بعد يوم، تتشبّع به أكثر فأكثر.

VI.8. كنت قد رفضت بعدُ أيضا تكهّنات المنجّمين الكاذبة، وهذياناتهم الكافرة[2]..

---

(1) ...et praeter doctrinae normam fluitans,... = متموّجة من قانون الإيمان doctrinale. نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص 152: «وهذا ما يبينه بالفعل ما سيبوح به أوغستينوس في مكان لاحق. (page 169)».

(2) «لقد شرح أوغستينوس بعدُ (ص 70) الحالة النفسية التي كان فيها بسبب التحذيرات والتنبيهات التي وجهها إليه «فيفنديكوس» Vindicianus واستهزاء «نبريدوس» Nébridius بالتنجيم. فقد كان في حاجة لتجربة يقينية ليتخلّص منها تخلّصا تامّا». نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة2، هامش ص 152.

mathematicorum fallaces diuinationes et inpia deliramenta... = les) (prédictions mensongères et les.extravagances impies des astrologues فلأعترف كذلك إليك، في هذا الشأن، من عميق قلبي بشفقاتك تجاه روحي، يا إلـٰهي! فأنت، أجلْ أنت، ولا أحد غيرك، يخلّصنا بعد الموت من هلاك الخطإ، ويرجعنا إلى الحياة التي لا تعرف الموت، وإلى الحكمة التي تنير العقول الفقيرة إلى النور، دون أن تكون هي في حاجة لأيّ نور، وتدير الكون، وتدير حتّى حفيف الأوراق على الأشجار؟ أنت الذي شفيتني من إصراري الذي قاومت به وِنْدِيسِيَانُوسَ، الشيخَ ذا العقل الثاقب، ونبْرِيدِيُوسَ، الشابَّ ذا النفس العجيبة. كانا يؤكدان، الأول جازما بقوّة، والثاني بشيء من التردّد لا ينقص من حماسته، ألّا وجود لفنّ التنبّؤ بالمستقبل، (أما تخمينات البشر فكثيرا ما تصدق بعوْن قوّة الاتّفاق والصدفة)، وأنّه، لكثرة ما يقولون قد يتّفق أن يحدث ما يقولون، لكنهم يقولون دون علم، ويصلون إلى ذلك لأنّهم لا ينفكون يتكلمون. أنت إذن الذي مكّنتني من صديق مواظب على سؤال المنجّمين. لم يكن ملمّا،كما ينبغي، بكتبهم، لكنه كان، كما قلت، يتردّد عليهم مدفوعا بحب الإطّلاع، رغم أنّه كان يعرف أخبارا سمعها من أبيه تُقوّض التصديق بهذا الفنّ؛ لكنّه كان يجهل حقيقتها.

إذن كان ذلك الرجل يسمّى فِرْمِينُوسَ، ذا التربية الشريفة والمتبحر في البلاغة، أتى ليستشيرني كما يستشار أعزُّ الأصدقاء، في بعض مشاغله التي كان يعلق عليها الكثير من الآمال في الحياة الدّنيا، طالبا مني أن اطلعه على ما يبدو لي منها، طبقا لما يسمّونه بوكبة نجومه (constellationes = constellations)[1].

أما أنا فقد بدأت أميل بعد في هذا الشأن إلى رأي نبريديوس، ومع ذلك لم أكن أرفض التّخمين ولا البوْح له بما كان يعترضني في شكّي، بل كنت أضيف مع ذلك أني أكاد أكون مقتنعا بكون تلك الأعمال مجلبة للسخرية والتفاهة. عندئذ روى لي هو أنّ أباه كان مشغوفا جدّا بمثل هذه الكتب، وكان له صديق ينقّب عنها، مثله في نفس الوقت. كان قلباهما يلتهبان بنفس الحماس والشغف بتلك الترّهات، ناهيك أنّهما كانا يراقبان أوقات ولادة صغار الحيوانات، إن وضعت في داريهما، وكانا يسجّلان مواقع الكواكب في السماء آنذاك، حتى يجمعا منها التجارب في ذلك الفنّ المزعوم.

---

(1)نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص 153: «بسبب فقدانِ الإيمان بالآلهة القديمة وصل الأمر بهم في عهد الإمبراطوريّة إلى حلّ القضايا الهامّة أو الطفيفة للحياة اليومية بواسطة التنجيم».

لذلك كان يذكر أنّه سمع أباه يقول إنّه، لمّا كانت أمه هو (أي فرمينوس) حاملا به، كانت أيضا أمَة لذلك الصديق لأبيه، حملت في نفس الوقت. ولم يكن ذلك ليخفى على مولاها، الذي كان يجتهد باهتمام كبير جدّا، في مراقبة نتاج كلباتِه! وقد فعل الصديقان بحيث أخذا يَعُدّان، الأول لزوجته، والثاني لأمَته، الأيام والساعات وأدقّ أجزاء الساعات، في ترصّد يقظ جدّا حتى ولدتا الاثنتين معا، وبحيث أنّ الصديقين حُملا على أن يرسما نفس الطالع الفلكيّ، إلى مستوى تقسيمات الساعات عينها، لكلا المولودين، الأول لابنه (أي فرمينيوس) والثاني لمملوكِه ابن أمَته. فلما جاء المرأتين المخاضُ، سأل الرجلان كلّ منهما الآخر عما كان يقع في داره، وهيّآ من سيرسلانه، كي يعلما معا اللحظة الذي يكون المولود قد ولد فيها : وكانت عمليّة الإخبار الفوريّ يسيرة بحكم كون كلّ منهما سيّدَ بيته وبيده أمرُه. وكان (فيرمينوس) يقول إنّ الرسولين من الجهتين كانا قد التقيا على نفس المسافة الفاصلة بين المنزلين، بحيث أنه استحال على هذا وعلى ذاك أن يرسم موقعا مغايرا للنجوم، أو تقسيمات مختلفة لأجزاء الزمن. ومع ذلك فإنّ فيرمينوس كان بعد مولده يسير بسبب مكانة ذويه الرفيعة متقدّما في مسالك الدنيا الناصعة النيّرة، ويزداد ثراء ومجدا، أما ذلك العبد فكان يخدم أسياده، دون أن يفلت من نير العبودية قيد أنملة، كما كان يشهد على ذلك من كان يعرفه حق المعرفة.

9. لذلك بعد أن سمعت هذه الحكاية، وصدّقت بها لأن هذا الرجل العظيم هو الذي رواها لي، تراخت فيّ كلّ أشكال المعارضة القديمة وتلاشت. حاولت في البداية أن أجعل فرمينوس ذاته يعدل عن حب الإطلاع، وحاولت أنا أن أقول له إنّه كان عليّ أن أتفحّص في كوكبة نجومه لأبوح له بالحقائق، فأرى بها والديه ذوي المرتبة الأولى في عشيرتيهما، وعائلته المرموقة في مدينتها الخاصة، ولادته البريئة، وتربيته المحترمة، وثقافته الشريفة.أما لو استشارني ذلك العبد، المولود في كوكبة النجوم نفسها، لأنّها كوكبته هو أيضا، طالبا مني أن قرأ له فيها الحقائق، فإنّه عليّ بالعكس أن أرى فيها عائلة وضيعة للغاية، في حالة عبوديّة وأرى جميع المظاهر المختلفة تماما عن الأولى، والبعيدة عنها كل البعد. فكيف يعقل أن أقول لهما، لفرمينوس وللعبد، قولين مختلفين، لو كنت أقول حقّا؛ ولو قلت لهما قولا واحدا، لقلت باطلا. نستخلص من هذا، بكل وثوق أنّ ما يقال من الحقائق، بعد رصد كوكبات النجوم، لا يقال بناء

على العلم بل على الاتّفاق والصدفة، أما ما يقال من الأباطيل فلا يصدر عن نقيض العلم بل عن كذب من الاتّفاق.

10. ومن هنا أصبح المسار مفتوحا، فأخذت في اجترار مثل هذه الأفكار، مخافة أن يعارضني أحد هؤلاء الهاذين الذين كانوا يتابعون مثل هذه المسألة والذين كنت أرغب دون هوادة في أن أهجم عليهم وأستهزئ بهم وأدحرهم، إذ لعلّ ما كان فرمينوس رواه لي، أو رواه له أبوه، باطل من الأباطيل. لذا وجّهت نظري إلى الذين يولدون توائم فيسلّون عادة من الأرحام، الواحد تلو الآخر، بسرعة تجعل المدّة القصيرة الفاصلة بينهما وأيّا كانت القيمة التي يولونها لتلك المدة في التتالي الحقيقي للاشياء تستعصي عن التقدير بالرؤية الإنسانيّة، ولا يقدر الإنسان البتة أن يسجّلها بالإشارات التي سيتفحّصها المنجّم، للتنبؤ الصحيح بالوقائع. ولكن هذا التنبؤ أضغاثُ تخمين ليس إلاّ. ففحص نفس الوقائع من المفروض أن يجعل المنجّم يتكهن بنفس المصير عن إيزَاوْ (Esau = Esaü) ويعقوب (Iacob = Jacob)، لكنه كان لهما مصيران مختلفان تَمام الاختلاف، كان إذن قد قال الأباطيل، ولو رام أن يقول الصواب، لكان عليه أن يقول إنّها مختلفة، على أساس أنّ التفحص فيها بيّن له أنها متجانسة. والخلاصة أنّه ما كان يقول الحقّ بناء على العلم، بل على الإتّفاق.

فأنت يا مولاي، يا أعدل معدّل للمعمورة، تفعل بإلهام خفيّ بالنسبة إلى المستشِيرين وللمستشَارين دون علم منهم، بحيث أنّ من يستشير يسمع ما يجب أن يسمعه، وفقا لفضائله الخفيّة، من أعمق أعماق حكمك العادل. فلا يقلْ لك إنسان:»«ما هذا؟» و«لم هذا؟» ليخرس، ليخرس : إن هو إلّا إنسان!

11.VII. ها أنت ذا، يا معيني، قد فككت عنّي تلك الأغلال، لكنّي كنت أبحث عن مصدر الشرّ، ولم أجد المخرج. لكنك لم تكن تسمح بأن تحملني أمواج لتفكيري، بعيدا عن تلك العقيدة التي بها كنت أؤمن أنّك موجود، وأنّ جوهرك غير قابل للتغيير، وأنّك ساهر على البشر، وأنّك تشملهم بعدلك وأنّك «في المسيح، ابنك، ومولانا، وفي الكتب المقدّسة التي توصي بها سلطة كنيستك الكاثوليكيّة، وضعت الطريق للنّجاة الإنسانية في تلك الحياة التي ستكون بعد الموت».

إذن، بعد أن سلِمت هذه الاعترافات، وثبتت بمتانة في روحي، كنت أبحث باتّقاد، من أين يأتي الشرّ. يا لها من آلام قلبي المتهيّئ للمخاض، يا لها من حسرات فيه، يا إلـٰهي! وكانت أُذُناك بالمرصاد، دون علم منّي، وبينما كنت أبحث في الصمت بقوّة،

كانت نداءاتٌ عالية ترتفع إلى شفقتك، توباتِ روحي الصامتة. كنتَ أنت تعلم ما كنت أتألّم منه، ولم يكن يعلم ذلك أيّ إنسان. فما الذي كان يبلغ من كلامي مسامع أصدقائي الحميمين للغاية! لكن أكانوا يسمعون كلّ صخب روحي. لم أكن أجد من الوقت ما يكفي لتبليغهم إياه، ولا كان صوتي قادرا على إسماعه[1]، غير أنّه كان يصعد إلى سمعك كلّ الحسرات «التي كان مرجلها يغلي في قلبي، وأمامك كانت رغبتي، ولم يعد نور عيني معي» لأنه كان في دخيلتي، أمّا أنا فكنت خارجها، كانت هي خارج الفضاء، أمّا أنا فلم أكن مهتمّا إلّا بالأشياء التي يحتويها الفضاء، وما كنت أجد مكانا أرتاح فيه، وما كانت الأشياء تستقبلني فأقول: «هذا كاف، هذا طيّب»، ولا كانت تتركني أعود، حيث يجب أن أكون في ما يكفي من الراحة.

كنت أرفع منها، لكنني كنت دونك كنت أنت سروري الحقّ، ولئن كنت قد خضعت لك، فإنك قد أخضعت لي المخلوقات التي كنت خلقتها دوني. وكنت في ذلك الاعتدال الصائب، وفي إقليم نجاتي الأوسط، سأبقى طبق صورتك،وأسيطر على جسمي وأنا أخدمك. لكن، بما أنّي جابهتك في كبريائي، وحملت على مولاي «والعُنُقُ مِنّي سَمِيكٌ كَالتِّرْسِ»، أصبحت تلك الأشياء فوقي، بعد أن كانت تحتي، وأخذت أنوء بها، وما كان لي أن أجد فسحة، ولا راحة. فقد كانت تتراءى لعينيّ من كلّ صوب، حشودا وكتلات، أما صور الأجسام ذاتها فكانت تعترض فكري فتردّه من حيث أتى، وكأنّها تقول:««إلى أين أنت ذاهب يا دنيء، يا خسيس؟» وهذه الأشياء كانت قد نمت في جرحي، «لأنّك أهنت المتكبّر، كأنّه الجريح»، وكنت منفصلا عنك بسبب عجبي، وكانت سحنتي المنتفخة جدّا تغلق عينيّ.

12.VIII. أمّا أنت، يا مولاي، «فدائم باق إلى الأبد»، و«لا تغضب علينا إلى الأبد»، لأنّك أشفقت على طمْيِي وعلى رمادي، وطاب لك «على مرأى منك» أن تقوّم تشويهاتي. وكنت تلاحقني بمناخس داخليّة، حتّى لا أعرف الراحة ريثما يكون لي عنك يقيني، بواسطة تفحّص داخليّ. وكان عجبي يتراجع بواسطة يد دوائك الخفيّة،

---

(1)... nec tempora nec os meum sufficiebat... = لم أكن أجد من الوقت ما يكفي لتبليغهم إياه، ولا كان صوتي قادرا على إسماعه. نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص 157. «الاعترافات المتبادلة التي يقدّم عنها في الكتاب الرابع الفقرة X, 17 صورة على قدر كبير من الحيويّة لم تكن تبوح إذن بأسرار جميع القلوب، وبالخصوص قلب أوغستينوس لأنّ التأمل الباطنيّ أصبح أشدّ تأجّجا وأكثر شجى».

وعين روحي المغشّاة العمياء، كانت تشفى يوما بعد يوم بفضل قطرات الدواء الفعّالة للآلام المنجّية.

13.IX. ومع إرادتك، في البداية، أن تبرز لي «كم تتصدّى للمتكبّرين، وتعطي في المقابل نعمتك للمتواضعين» وبأيّة شفقة كبيرة أظهرت للناس طريق التواضع، بما أنّ «كلمتك المقدّسة صارت لحما وسكنت بين الناس» مددتني، بواسطة رجل منتفخ بكبرياء فاحش، ببعض كتب الأفلاطونيين المترجمة من اللغة اليونانيّة إلى اللاتينيّة.

وفي تلك الكتب قرأت، لعمري، لا حرفيّا بل في نفس ذلك المعنى تماما، ومع الكثير من الحجج المختلفة المقنعة أنّه «كانت في البداية الكلمة المقدّسة : كانت الكلمة لدى الإلـه، وكان الإلـه الكلمة المقدّسة. كان هذا في البداية لدى الإلـه، جميع الأشياء خلقت من لدنه، وبدونه هو لم يخلق أيّ شيء، ما خلق هو فيه حياة، والحياة كانت نور البشر، والنور يضيء في الظّلمات، والظلمات لم تفهمه». وقرأت أنّ روح الإنسان، «وإن قدّمت شهادة عن النور» ليست «مع ذلك في ذاتها النور»؛ بل إنّ الكلمة المقدّسة، أي الإلـه ذاته، هي «النور الحقّ الذي ينير كلّ إنسان آت إلى هذه الدنيا» وإنّه «كان في هذه الدنيا» وإنّ «الدنيا خلقها هو»، وإنّ «الدنيا لم تعرفه البتة». أما هذا أي «أنه أتى إلى بيته، فلم يستقبله أهله، لكنه وهب الذين استقبلوه القدرة على أن يصبحوا أبناء الإلـه، مصدّقين باسمه»، فلم أقرأه في تلك الكتب.

14. كذلك قرأت هناك، أنّ الكلمة المقدّسة أي الإلـه، «لم تولد، لا من اللحم، ولا من الدّم، ولا من إرادة الإنسان، ولا من إرادة اللحم، بل من الإلـه»، لكن أن تكون «الكلمة أصبحت لحما، وسكنت بيننا»، فلم أقرأه هنالك.

اكتشفت لعمري، في تلك الكتب، أنه قيل، بصور مختلفة متعدّدة، إنّ الابن، وهو «في هيئة الأب، لم يعتبر مساواته للإلـه من قبيل السلب والاغتصاب»، بما أنّ ذلك فيه طبيعة. أما أن يكون «أفنى نفسه بنفسه، وقبِل وضع العبد، وأصبح مثل البشر، وفي مظهر إنسان، وأن يكون أذلّ نفسه، وأصبح كالخاضع للموت عينه، بل للموت فوق الصليب، وأنّ الإلـه، لهذا السبب، رفعه وأخرجه منْ عداد الموتى وأعطاه اسما أرفع من جميع الأسماء، كي يركع لاسم اليسوع كلّ ما في السماء وما في الأرض وما في الجحيم، وكي يُقرّ كلّ لسان بأنّ المولى اليسوع في عزّ الإلـه أبيه»، فكلّ هذا لم تتضمّنه تلك الكتب.

أما أن يدوم قبل كل الأزمنة وبعد كلّ الأزمنة وبلا تغيّر ابنُك الوحيد وشريكك في

الأبديّة،وأن تأخذ الأرواح من «كماله» لتكون سعيدة، وأن تتجدّد عن طريق المشاركة في الحكمة الدائمة في ذاتها» فذلك موجود في تلك الكتب؛أما «أنه مات حسب الوقت الذي سجله الملحدون» وأنك لم تعف عن ابنك الوحيد، بل «سلّمته للعذاب من أجلنا جميعا»، فليس موجودا هنالك. فأنت «أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء، وكشفتها للصّغار» حتى يأتيه «المعذبون والذين يحملون أوزارهم، فيشد أزرهم، إذ إنّه لطيف ذو قلب متواضع، ويوجّه اللطِيفِين نحو العدل، ويهدي الحليمين إلى طريقهم، ناظرا إلى تواضعنا وعذابنا، وماحيا كلّ ذنوبنا». أمـا أولئك الذين تخالهم منتصبين على كَوْثَرْن مذهبٍ أسمَى(cothurno = le cothurne)[1]، فلا يسمعونه وهو يقول: «اعلموا أني لطيف، وذو قلب متواضع، وسوف تجدون الراحة لنفوسكم»، وإن عرفوا الإلـه، «فهم لا يمجّدونه في صورة إلـه، ولا يحمدونه، بل يتيهون في أفكارهم الخاصّة، وتُظلم قلوبهم الخرقاء، يقولون إنّهم حكماء والحال أنهم يصبحون أغبياء».

15. ولذا كنت أقرأ في تلك الكتب الأفلاطونية أيضا «المجد الذي لا يعرف إليه الفساد سبيلا» متنكرا في صورة العديد من الأصنام والتماثيل، «التي تمثّل صورة الإنسان القابل للفساد، وصور الطيور والسوائم والحيّات»[2]. وهذا بلا شكّ طبق الطعام المصري[3] الذي خسر به إيزَاوْ حقّه الخاصّ في البكوريّة، لأنّ شعبَك المولودَ الأول، عبَدَ، بدل أن يعبدك أنت، رأسَ سائمة تمشي على أربع (caput quadrupedis = la tête d'un quadrupède)، و«بعد أن توجه بقلبه نحو مصر» وانحنى بروحه، وهي صورتك، أمام صورة «عجل يأكل علفا»!

---

(1)... nec tempora nec os meum sufficiebat... = لم أكن أجد من الوقت ما يكفي لتبليغهم إياه، ولا كان صوتي قادرا على إسماعه. نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص 157. «الاعترافات المتبادلة التي يقدّم عنها في الكتاب الرابع الفقرة X, 17 صورة على قدر كبير من الحيويّة لم تكن تبوح إذن بأسرار جميع القلوب، وبالخصوص قلب أوغستينوس لأنّ التأمل الباطنيّ أصبح أشدّ تأجّجا وأكثر شجى».

(2)... in similitudinem imaginis corruptibilis hominis et uolucrum et quadrupedum et serpentium,... «التي تمثّل صورة الإنسان القابل للفساد، وصور الطيور والسوائم والحيّات: نفس المرجع، الملاحظة2، هامش ص 160 «فقد كان إذن متأثرا بطابع تعدد الآلهة الموجود في الكتابات الأفلاطونية.

(3) «لقد كان الشره أمام طبق طعام مصري السبب في فقدان «إيزاو» حقّ البكورية. وكذا الأمر بالنسبة إلى الشعب اليهودي...» كما قال أوغستينوس في موضع آخر: نفس المرجع، الملاحظة3، هامش ص 160.

هذا ما وجدته في تلك الكتب، لكن لم آكل منها. لأنك، يا مولاي، قررت أن تُبعد خزيَ التبعيّة عن يعقوب، كي يمتثل الأكبر للأصغر، وناديت الشعوب لميراثك. وأنا كنت قد أتيت إليك أيضا، من صلب الشعوب، وطمحت إلى الذهب الذي أردت أن يغتصبه شعبك من مصر، لأنّه لك أينما كان. وقلت للأثينيّين بواسطة حواريّك «إننا فيك نعيش، ونتحرّك ونوجد»، كما قال ذلك أيضا بعض الكتّاب منهم. وعلى كلّ فقد كانت تلك الكتب صادرة عنهم[1]»، ولم أهتمّ بأصنام المصريين التي كان يضحّي لها من ذهبِك، «من حوّلوا حقّ الإله إلى كذب، وعبدوا الخليقة عوضا عن الخالق وخدموها».

16.X. ومن ذاك تنبّهت إلى أن أرجع إلى نفسي ذاتها، وكنتَ دليلي، فدخلتُ إلى باطني بالذات، استطعت ذلك، لأنك «أصبحت سندي». دخلتُه،ورأيت بقلبي رغم الغشاوة التي عليه، فوق بصر روحي، وفوق عقلي، نورا مستقرا. ليس ذلك النور المألوف الذي يراه كلّ كائن من لحم، ولا نورا من نفس الجنس، بل نورا ربّما أقوى، ذا بريق ساطع، أكثر فأكثر حدّة، تغمر قوّة أشعته كلّ شيء على السواء. لا، لم يكن هذا ذلكَ النور، بل كان شيئا آخر، مختلفا عنه اختلافا تاما. ولم يكن أيضا فوق عقلي، كالزيت فوق الماء، ولا كالسماء فوق الأرض، بل كان أعلى منّي وأرفع لأنّه خلقني، وأنا دونه، لأنّي خلقتُ من صنعه. إنّ من يعرف الحقّ، يعرف الحقّ، ومن يعرفه، يعرف الأبديّة. وتعرفها المحبّةُ!

أيّها الحقّ الأبديّ، أيّتها المحبّة الحقّ، أيّتها الأبديّة الحبيبة! أنتم إلـهي، وإليكم أتوق «ليل نهار». وعندما عرفتكم أول مرة، رفعتموني إليكم، كي أرى أنّ هناك شيئا جديرا بأن أراه وأنني مازلت غير قادر على أن أراه. وبإشعاعكم العنيف نحوي بهرتم بصري الضعيف، وارتعشت حبّا ورعبا: ووجدتني بعيدا عنكم، في إقليم غريب، وكأني أسمع صوتكم آتيا من العلياء ينادي:«أنا طعام الأقوياء، آمنْ وستأكلني. وأنت لن تمتصّني امتصاص لحمك للغذاء، بل ستتحوّل أنت إليّ وتحلّ فيّ».

عرفت عندئذ أنّك «بسبب الجور أصلحت الإنسان» و«أنّك جعلت روحي تجفّ

---

(1)... et utique inde erant illi libri = وعلى كلّ... فعنهم كانت تلك الكتب صادرة... نفس المرجع،الكتاب السابع، الملاحظة3، هامش ص 161: يوحي بهذا الكلام أنه «باستعمال» الأفلاطونية الجديدة لا يعدو أنه يمارس حقّا شَرَّعت له مسبّقا قوانينُ الإيمان الإنجيليّة وكلامُ الحواريّ بولس Paul».

كشعَ العنكبوت» وقلتُ في نفسي : ألم يكن ذاك إلّا الحقّ، بما أنّه لا ينتشر في الفضاء المحدود، ولا اللامحدود؟» وناديتني من بعيد:«لا بل بالعكس، أنا الذي هو أنا!». سمعت ذلك كما يسمع السامع بالقلب، ولم يكن لي بتاتا مجال للشكّ، وكنت أقرب إلى الشكّ في حياتي، من أن أشكّ في عدم وجود الحقّ الذي يُرَى «بواسطة المخلوقات معقولا».

17.XI. وتمعّنت في جميع الأشياء التي هي تحتك، ورأيت أنها إما أن توجد إطلاقا، أو لا توجد إطلاقا : هي توجد، لأنّها صادرة عنك، وهي من جهة أخرى لا توجد، لأنّها ليست ما هو أنت. لأنّ ما يوجد بحقّ هو ما يبقى على الدوام. «أما الخير لي ففي التعلّق بالإلـه»، لأني لو لم أبق في ذاته، لما كنت أبقى في ذاتي. أما هو «فهو الباقي في ذاته، يجدّد الكلّ»؛ و«أنت مولاي لأنك لا تحتاج لخيراتي».

18.XII. وتبيّنت أنّ الأشياء لا تكون عرضة للفسادإلّا إذا كانت طيبة، ولو كانت أرقى الطيّبات، لما كان يأتيها الفساد، كما أنها لا تعرف الفساد لو لم تكن طيّبة بأية درجة، لأنها لو كانت أرقى الطيّبات، لكانت غير قابلة للفساد. إن الفساد مضرّ، ولو لم يكن يغيّر الطيّب، لما كان يضرّ. إذن فإمّا أنّ ما يُفسد لا يضرّ البتّة، وليس الأمر كذلك، وإما – وهو أمر ثابت موثوق به – أنّ جميع الأشياء التي يطالها الفساد محرومة من الطيّب.أمّا إذا تجرّد الشيء من كلّ ما هو طيّب فيه، فإنّ كيانه سيزول إطلاقا. إذ لو حافظت على كيانها دون أن تظلّ عرضة للفساد، لكانت أحسن حالا من ذي قبل، حيث أنّها سوف تدوم كغير القابلة للفساد. وما أغرب أن نقول إنّها، بفقدان الطيّب كلّه، قد أصبحت أحسن؟ فانعدام الطيّب مطلقا إذن يعني العدم : لذا فما دامت الأشياء موجودة فهي حسنة، وكلّ ما هو كائن، يكون حسنا. والشرّ الذي كنت أبحث عن مصدره ليس جوهرا، إذ لو كان جوهرا لكان حسنا. فإما أن يكون جوهرا غير قابل للفساد، وبالتالي يكون خيرا كبيرا، وإما أن يكون جوهرا قابلا للفساد، وبالتالي لا يعرف الفساد لو لم يكن حسنا.

والخلاصة انّي تبيّنت، وأصبح ذلك بالنسبة إليّ جليّا، أنّك خلقت كلّ الأشياء حسنة، وعلاوة على ذلك، لا يوجد جوهر لم تخلقه أنت. وحيث أنك لم تخلق كلّ الأشياء متساوية، لذا كانت كلّ الأشياء التي هي حسنة فرادى، حسنة جدّا في مجموعها، لأنّ إلـهنا خلق «كلّ الأشياء حسنة جدّا».

19.XIII. وفي نظرك، الشر لا يوجد إطلاقا، لا فقط بالنسبة إليك، بل وبالنسبة إلى خليقتك جمعاء، لأنّه لا شيء خارج هذه الخليقة يستطيع أن يغزو النظام الذي رسّخته فيها ويفسده.

أما الخليقة في أجزائها، فبعضها، لكونه لا يتّفق مع بعض، يعتبر شرّا، وتلك الأجزاء عينها تتوافق رغم ذلك مع أجزاء أخرى، فتكون حسنة، وهي في جوهرها حسنة أيضا. وهذه جمعاء التي لا يوافق بعضها بعضا، توافق هذا الجزء الأسفل من الكون الملائم لنفسه الذي نسمّيه الأرض، والذي له سماؤه بغيومها ورياحها. وحاشا أن أقول بعد: «ما كانت هذه الأشياء لتكون!» لأني، وإن لم أر سواها، كنت أرغب لعمري أن تكون أحسن، لكن عليّ أن أمدحك أيضا في شأنها وحدها، لأنّ كلّ شيء على الأرض يسبّح ضرورة بحمدك: «التّنينات، وكلّ الوهاد، والنار، والبرَد، والثلج، وهبوب العاصفة التي تردّد كلها كلامك المقدّس، والجبال وجميع التّلال، والأشجار المثمرة، والأرز، وجميع المواشي، والزواحف، والعصافير المجّنحة، وملوك الأرض وكل الشعوب، والأمراء وكلّ حكّام الأرض، والشبان والفتيات، والشيوخ مع الشباب يمدحون اسمك». أمّا وأنّك يمدحك أيضا «من السماوات»، أجل، يمدحك، يا إلـٰهنا، «على القمم، كلّ ملائكتك، وكلّ قواك، والشمس والقمر، فكلّ النجوم والنور، وسموات السماوات، والمياه التي فوق السماوات، يمدحون جميعا اسمك»، كذلك أصبحت لا أرغب في شيء أحسن، لأنّي أجلْت فكري في كلّ شيء فتبيّنت لعمري أنّ العليا منها أحسن شأنا من السفلى، لكنّ التفكير بأكثر حكمة جعلني أعتبر أن مجموع الخليقة هو لعمري أحسن من الأجزاء العليا مفردة[1].

XIV.20. «لا حكمة لهم» أولئك الذين لا يروقهم شيء في خليقتك، شأنهم شأني لمّا كانت لا تروق لي أشياء كثيرة أنت خلقتها. ولمّا كانت روحي لا تبلغ بها الجرأة ألّا يعجبها إلـٰهي، فإنها أبت أن ترى خليقتك في كلّ ما لا يعجبها، من هناك انتقلت إلى نظريّة اثنينية الجوهريْن، لكنها لم تجد فيها ما يريح، بل كانت تقول قولا مباينا لا يصدر من الأعماق. وعندما رجعت من ضَلالها، كانت قد صنعت لنفسها إلـٰها موجودا عبر الفضاء اللانهائي في كلّ الأماكن، وظنّت أنه أنت، وكانت قد نصّبته في قلبها، وأصبحت من جديد معبد صنمها المقيت لديك. لكن بعد أن أملتَ نحوك رأسي، دون علمي، وأغمضت «عينيّ، كي لا تريا التّفاهة»، فقدت شعوري قليلا، وغفا جنوني،

---

(1)...sed meliora omnia quam sola superiora... = أحسن من الأجزاء العليا على انفراد.
نفس المرجع، الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص 161: «بفضل الأفلاطونية الجديدة يفتخر أوغستينوس بأنّه قد انتهى به الأمر إلى أن يتبيّن الحقيقة بشأن مسألة الشرّ. فالشرّ ليس من ناحية مادة ملموسة، ولو كان كذلك لما كان شرّا. ومن ناحية أخرى فإنّ الجزئية ليست سوى نشاز جزئيّ ولا تتناغم ولا تتناسق إلّا مع الخليقة في كلّيتها».

وأفقت بين يديك، ورأيتك لا متناهيا، وعلى هيئة أخرى، وما كانت هذه الرؤية صادرة عن اللحم.

21.XV. وأدرت نظري إلى الأشياء الأخرى، ورأيت أنّها مدينة لك بكونها موجودة، وأن كلّ شيء حدوده فيك، لكن بصورة أخرى، لا كما في الفضاء، لأنّك أنت ماسك كلّ شيء بيد الحقّ، وجميع الأشياء هي حقيقيّة، بقدر ما هي موجودة، وليس الباطل إلّا عندما يعتقد وجود ما لا وجود له.

ولم أدرك فقط أنّ كلّ شيء في مكانه المناسب، بل وفي زمانه المناسب أيضا، وأنّك أنت، الوحيد الدائم، لم تبدإ العمل، بعد مدد من الأوقات لا تحصى، لأنّ مدد كلّ الأوقات التي سبقت والتي سوف تأتي، ما كانت لتنقضي، ولا لتأتي مستقبلا، لو لم تكن أنت فاعلا ثابتا قارّا.

22.XVI. وأدركت بالتجربة ألّا عجب أن يكون نفس الخبز، عذابا لحلق غير سليم، عَذْبًا للسّليم، وأن يكون النور مقيتا للأعين المريضة، محبوبا للسّليمة. إنّ عدلك نفسَه لا يروق للجائرين، وبالأحرى الأفعى والدّويدة، اللتيْن خلقتهما حسنتيْن، ومناسبتيْن للأجزاء السفلى من خليقتك التي يتطابق بها الجائرون أنفسهم أيضا، بقدر ما هم أقلّ شبها بك، في حين أنّهم يتطابقون بالأجزاء العليا، بقدر ما يصبحون أشبه بك. وبحثتُ عن ماهيّة الفساد، فوجدت أنه ليس جوهرا، بل انحراف للإرادة عن الجوهر الأسمى، أي عنك يا إلـهي، وتوجه نحو الأشياء الدنيا، لافظا «أحشاءه» ومتورّما خارجها.

23.XVII. وكنت أتعجّب أنّي أحبّك بعدُ، ولا أحبّ وهما عوضا عنك، ولم تكن متعتي بإلـهي تعرف الاستقرار، بل كنت أنجذب إليك بفعل جمالك، ثم سرعان ما كنت أبعتد عنك بفعل ثقل وزني، وكنت أسقط على هذا الأديم وأنا أئنّ، وثقل وزني هذا هو ديْدني الجسمانيّ. لكنّ ذكراك كانت تلازمني ولا تفارقني، ولم أكن أشكّ لحظة أنه يوجد كائن يجب عليّ أن أتعلّق به، لكنني لم أصبح بعد قادرا على التعلّق به، لأنّ «الجسم الآيل إلى الفساد يثقل الروح، والبيت المبنيّ من الغرين يوهن الحسّ، فيتيه في الأفكار». وكنت واثقا وثوقا تاما «أنّ آيات كمالك الخفيّة أصبحت بيّنة منذ نشأة الكون، بفضل تلك المخلوقات، وكذلك آيات قوّتك الدائمة وألوهيّتك». وأثناء بحثي عمّا يمكنني من الوقوف على جمال الأجسام، السماويّة أو الأرضيّة، والقدرة على أن أحكم بنزاهة على تلك المتغيّرات (**de mutabilibus = sur ces choses muables**)، قائلا : «هذا ينبغي أن يكون هكذا، ذلك ينبغي أن لا يكون هكذا»، باحثا

كما قلت عمّا أعتمد عليه لأحكم بما كنت أحكم به هكذا، كنت قد وجدت الأبديّة الحقّ الثابتة أعلى وأرفع من عقلي المتغيّر.

ولذا صعدت هكذا شيئا فشيئا من الأجسام إلى الروح التي تحسّ بواسطة الجسم، ومن هناك إلى قوّتها الداخليّة التي تبلّغها الحواسُّ الجسدية للأحاسيسَ الخارجيّة، (والتي تمثل حدود القدرات الحيوانية)، ومن هنا أيضا إلى القوّة العقلانيّة التي يعود إلى حكمها ما يدرك بحواسّ الجسم. وتلك القوّة التي اكتشفتُ فيَّ أيضا أنها متغيّرة في ذاتها، ارتفعتْ إلى عقلانيّتها الخاصّة، وأبعدتْ تفكيري عن طغيان العادة، مفلتة من حشود الأوهام المتناقضة، لتكتشف بأيّ نـور كانت تُغمَر، وهي تصرخ دون أيّ تردّد أن اللامتغيّر ينبغي أن يكون أفضل من المتغيّر[1]، ومن أين كانت تعرف اللامتغير ذاته - إذ لو لم تكن تعرفه بصورة ما، لما كانت بأيّة صورة تفضّله بحقّ على المتغيّر - ووصلتْ أخيرا في لمح البصر المرتجف إلى ما هو موجود، إلى الكائن الأسمى، إلى الإلـه. عندئذ رأيت أنّ «اللامرئيّات فيك أصبحت معقولات بواسطـة تلك المخلوقات»، لكنّي لم أقدر أن أحدّق فيه، فعدت مدحورا بضعفي إلى عادتي، لا أحمل معي سوى الذاكرة المُحبّة التّي كانت كأنّي بها راغبة في المآكل الفائحة التي لا أزال غير قادر على أكلها.

24.XVIII. وكنت أبحث عن طريقة أحصل بها على القوة التي قد تمكنني من التمتّع بك، وما كنت لأجدها، ما لم أعانق «الوسيط بين الإلـه والناس، الإنسان المسيح اليسوع الذي هو فوق الكلّ، الإلـه المبارك إلى الأبد»، وهو ينادينا قائلا:«أنا هو الطريق، والحقّ والحياة» وخالِط الطعام الذي كنتُ عاجزا عن تناوله بلحم الجسد بما أنّ «الكلمة المقدّسة أصبحت لحما» لتُرضع طفولتنا بحكمتك التي خلقت الكلّ بها.

لم يكن لي من التواضع ما به أملك إلـهي، اليسوع المتواضع، ولم أكن أعرف الدّروس التي كان ضعفه يلقّنيها، إذ إنّ كلمتك المقدّسة أي الحقّ الأبديّ الأعلى شأنا من أرفع أجزاء خليقتك، يرفع إلى مستواه بالذّات الخاضعين له، في حين أنّه في

---

(1)... inconmutabile praeferendum esse mutabili... = الثابت يجب أن يقدّم ويفضّل على المتحوّل. نفس المرجع،الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص 167: «1. الصور الحسّاسة بمهاجمتها الذكاء تنقص من سرعة ارتقائه نحو الحقيقة الشعشعانيّة التي كان أوغستينوس يعترف أنّه لم يرها إلّا لِماما في لمْح لذّة خاطفة. وكلّ هذا الكلام من كلام الأفلاطونيّة الجديدة».

أسفلها بنى لنفسه دارا متواضعة من وحلنا، كي يخلّص فيها من أنفسهم منْ كان يريد أن يخضعهم، ويجرّهم إليه، ويداوي غرورهم ويغذي حبهم. أراد أن يحميهم من الضلال بشدّة الوثوق في أنفسهم، فيضعفوا ويلينوا وهم يرون عند أرجلهم ضُعف الألوهيّة بارتدائها معنا «رِدَاءَ الجِلْد» وليخرّوا تعبا أمامها، في حين تستقيم هي وترتقي بهم.

XIX.25. أما أنا فكنت أظنّ غير ذلك، كنت لا أرى في مولاي المسيحِ سوى إنسان ذي حكمة سامية لا يستطيع أحد أن يعادلها. فولادته العجيبة من عذراءَ، - باعتبارها مثالا لضرورة احتقار الخيرات الفانية **(temporalium = les biens temporels)** - يبدو أنها جعلته يستحقّ سلطة المعلّم، مقابل الحصول على الخلود بفضل عناية الإلـه بنا. ترى أيّ سرّ يحتويه قوله «الكلمة المقدّسة أصبحت لحما»، لم يكن ذلك حتى ليخطر ببالي. كلّ ما عرفته مما نقل عنه في الكتب المقدّسة، هو أنّه أكل وشرب، ونام، وسار، وفرح، وحزن، وتحدّث، وأنّ هذا اللحم لم يلتحم بكلمتك إلا بروح وعقل إنسانيين[1]. يعرف هذا كلٌّ من يعرف لاقابليّة تغيّر كلمتك التي كنت أنا أعرفها بعدُ قدر المستطاع، ولم أكن أشكّ فيها البتّة أدنى شكّ، إذ إن تحريك أعضاء الجسم بالإرادة تارة، وعدم تحريكها تارة أخرى، والتأثّر بعاطفة ما تارة، ثمّ عدم التأثر بها، والتفوّه مرّة بآراء حكيمة، ثمّ ملازمة الصمت، تلك خصائصُ قابليّة الروح والعقل للتّغيّر. ولو كانت الكلمة المقدّسة منسوبة إليه باطلا في الكتب المقدّسة، لأصبح كلّ شيء أيضا محمولا على الكذب ولما بقي في تلك الكتب أيّ إيمان ينجّي الجنس البشريّ. وبما أنّها صادقة اعترفت أنّ المسيح إنسان كامل، لا بجسم إنسان فقط، أو بروح وجسم دون عقل، بل إنسان حقيقيّ كنت أعتبره في تقديري مفضّلا على كلّ الآخرين، لا كالحقّ عينه، بل بسبب سموّ كبير في طبيعته البشريّة، وإسهام في الحكمة أشدّ كمالا.

أمّا أليبيوس **Alypius**، فكان لاعتقاده أنّ الكاثوليكيّين يؤمنون بإلـه مكسوّ لحما، يعتبر أنّ المسيح لحم وإلـه ولا توجد فيه روح، ولم يكن يعتبر أنّهم يقولون بوجود عقل الإنسان فيه. وهو، لئن كان مقتنعا أنّ الأفعال المنسوبة إلى المسيح لم

---

(1) **cum anima et mente humana**... =... بروح وعقل إنسانيين. نفس المرجع،الكتاب السابع، الملاحظة1، هامش ص 168: «وعلى هذا النحو، حتى في ذلك العهد، كان أوغستينوس يجهل، أو يكاد، مقالا من المقالات الرئيسيّة عن الديانة الكثوليكية. فـ«فُوتان السِرميومي» Photin de Sirmium وقد ذُكر اسمه في مكان لاحق «قد صرّح بصورة لا غبار عليها أنّ المسيح لم يكن إلّا بشرا، وكان شبيها في كلّ شيء بسائر البشر إلّا في ولادته المعجزة وفي كمال الرحمة التي نزلت معه بسبب كمال خُلُقه». نقلا عن «غستاف باردي» Gustave BARDY...

تقع من خليقة مجرّدة من الحياة والعقل، فإنّ كان يقترب نحو العقيدة الكاثوليكيّة بالذات ببطء وكسل، لكنّه لم يعترف إلّا في وقت متأخر أنّ ذلك هو خطأ الهرطقيّين التابعين لأبولّيناريوس(haereticorum Apollinaristarum = des disciples de l'hérétique Apollinaire)، فابتهج واعتنق العقيدة الكاثوليكيّة.

أما أنا فأعترف أنّي تعلّمت، بعد وقت قصير، كيف أنّه، في تلك «الكلمة المقدّسة أصبحت لحما»، يبتعد الاعتقاد الكاثوليكي عن ضلالة فوتينوس (a Fotini falsitate = avec l'erreur mensongère de Photin). وشجْب الهرطقيّين يبرز موقف كنيستك وما تتضمّنه العقيدة الصحيحة. «إذ كان لزاما أيضا أن تكون الهرطقات، حتى تتميّز القلوب القوية بالإيمان من القلوب الضعيفة».

XX.26. غير أنّي آنذاك، بعد أن قرأت تلك الكتب الأفلاطونيّة، وبعد أن تنبّهت فيها إلى البحث عن الحقيقة خارج عالم الأجسام، أبصرت «مرئيّاتك الخفيّة التي أصبحت تدرك عبر المخلوقات»، ورغم أنّي طردت منها، فقد شعرت أنّه ما كان ليسمح لي بأن أراها عبر ظلمات روحي. كنت واثقا مع ذلك من كونك موجودا، ولا محدودا، دون أن تكون مقسّما عبر فضاءات محدودة أو لامحدودة، ومن كونك أنت بحقّ الذي تكون دوما أنت ذاتك، وغير متغيّر في أيّ جزء ولا أيّة حركة منك عمّا كنت، وأمّا جميع الأشياء الأخرى فهي صادرة عنك، بناء على هذه الحجّة الوحيدة والأكثر متانة وهي كونها موجودة، وكنت لعمري واثقا من هذا، لكنّي كنت لا أزال ضعيفا جدّا لأن أتمتّع بك. كنت أهذي تماما هذيان الرجل المحنّك، ولو لم أبحث عن طريقك «في المسيح المنجّي» لما كنت عالما بل مهدّدا بالموت. لأنني بدأت بعد أريد أن أظهر مظهر الحكيم، مملوءا بعقابي، ولم أكن أعرف البكاء بل كنت مغرورا بعلمي. فأين كان ذلك الحبّ (caritas = charité) المشيّد على التواضع،الذي هو المسيح اليسوع؟ وهل كانت تلك الكتب لِتعلّمَنيه؟ فلو كنت تريد أن أرتمي عليها، قبل أن أتمعّن في كتبك المقدّسة، فذلك كان، فيما أقدّر، لتحتفظ ذاكرتي بما قد أكون تأثّرت به من قراءتها، ولأدرك وأميّز - بعد أن أكون وجدت السكينة في كتبك، وتكون جروحي قد ضمّدت بأصابعك الشافية - الفرق بين افتراض الخطإ والإقرار به، بين الذين يرون إلى أين ينبغي أن يذهبوا، ومع ذلك لا يرون عبر أيّ طريق، والطريق المؤدّي إلى وطن السعادة العظمى (ad beatificam patriam = à la patrie bienheureuse)، لا فقط لتشاهده بل وأيضا لتسكن فيه.

ولو تعلمتُ في الأوّل من كتبك المقدّسة، وعوّدت نفسي على عذوبتها، ثمّ وقعت إثر ذلك على تلك المجلّدات الأفلاطونية، فلعلّها كانت تجتثّني من هيكل التّقوى. أو لو كنت قد بقيت على الهيئة السليمة التي كنت تشبّعت بها، فلربّما اعتبرتُ أنّه يمكن أن نجني فائدة مماثلة حتى بالاقتصار على دراسة تلك الكتب.

XXI.27. أقبلت إذن بشغف كبير على كتب روحك الموقّرة، وبالخصوص على كتب المقدّم على كلّ الآخرين الحواريّ باولوس (**apostolum Paulum = l'apôtre Paul**)، واضمحلّت تلك المسائل التي ظهر لي فيها أن هذا الأخير أحيانا يناقض نفسه، ولا يتطابق نصّ خطابه مع شواهد القانون والرسل. وبرز لي المحيّى الأوحد لأقوال العفّة، وتعلّمت «كيف أهلّل بارتجاف». وبعد أن بدأت في التمعّن، وجدت أنّ كلّ ما كنت قد قرأته من حقّ هناك في الكتب الأفلاطونية **illac = là bas**، يقال هنا عند باولوس[1] (**hac = ici**) برحمة من نعمتك، حتّى لا يتباهى الذي يرى، كما لو أنّه لم يتسلّمْ لا فقط ما يراه، بل كذلك قدرته على أن يرى: فهل يملك غير ما تسلّمه[2]؟ وهكذا فإنه مدعوّ لا فقط إلى أن يراك، أنت الذي لا تختلف عن ذاتك، بل وأيضا إلى أن يُشفى ليملكك. ومن لا يقدر أن يراك من بعيد، فليسِر مع ذلك في الطريق، الذي يقدر به أن يأتي إليك ويراك ويملكك، لأنّ الإنسان، «وإن سعد بقانون الإله من جهة الإنسان الداخليّ»، فماذا سيفعل «بالقانون الآخر المناهض، في أعضائه لقانون عقله والمؤدّي به كالسجين إلى قانون الذنب الذي يوجد في أعضائه؟ «لأنّك عادل» يا مولاي، أما نحن «فأذنبْنا وارتكبنا الجور»، وارتكبنا المعصية و«ثقلت يدك فوقنا»

---

(1) «إذن فقد قرأ رسائل القدّيس «بولس» Paul بعد أن قرأ كتب الأفلاطونيين الجدد. وكانت هذه الكتب، بالإضافة إلى ما وفّرته له من وضوح حاسم، لم تسهل عليه إصلاح شأن حياته. فعلاوة على مظاهر البؤس الأخرى زادته بؤس الكبرياء.. فقد غيّر الكتاب المقدّس من نفسه أكثر ممّا غيرت منه كتب الأفلاطونيين الجدد. فقد وجد فيها درسا في التواضع، وقد لطّفها مَسُوح عذب وحثّ متواصل على الثّقة بالله....» كما ذكر «ب. دي لابريول» في الجزء الأول من الاعترافات ص 171 نقلا عن «شارل بوايي» Ch. BOYER في كتابه «المسيحيّة والأفلاطونية الجديدة» في تكوين القدّيس أوغستينوس **Christianisme et Néo - Platonisme dans la formation de saint Augustin, Paris, 1920, page 126.**

(2) نفس المرجع، الملاحظة1، من هامش الصفحة السابقة: الجملة اللاتينية **quid enim habet quo non accepit?** وترجمتها بالفرنسية لـ«بيار ديلابريول»: **Que possède t - il, en effet, qu'il n'ait reçu?**». أي «فهو قد تقبّل كلّ شيء (من الإله)».
فهذا الاستفهام يوافقه إذن إثبات قويّ شامل. والسياق مؤثر والمقام مقام صوفي بالطبع.

وسلّمنا بِعدلك إلى المذنب العتيق، مندوب الموت الذي أقنع إرادتنا بالامتثال لإرادته التي لم يبق فيها «في حقّك». ماذا سيفعل إذن «الإنسان الشقي»؟ «من سوف يحرّره من هذا الجسم الميّت، سوى عنايتك، بواسطة اليسوع المسيح، مولانا» الذي نسلته شريكا في الأبديّة، وخلقته «في بداية طرقاتك» والذي لم يجد فيه «أمير هذه الدنيا» أيّ شيء جديرا بالموت والذي قتله مع ذلك وبذلك فُسخ العهد الذي كان مضادّا لنا؟»

هذا ما لا تتضمّنه تلك الصحف. تلك الصحف لا تتضمّن هذا الوجه من التّقوى ومن دموع الاعتراف و«قربانك وروحك المسحوقة والقلب المدمّر المهان» ونجاة شعبك و«المدينة الخطيبة وعربون الروح القدس» و«كأس فديتنا». فهنا لا أحد يغني: «هلاّ كانت روحي خاضعة للإله؟ فمنه بالذات نجاتي لأنّه بحق إلهي ومنقذي وسنَدي فلن أرتَجّ بعد الآن». لن يُسمع فيها مناد ينادي: «هلمّوا، أنتم الذين تعانون». يزدرون أن يتعلّموا منه «لأنّه لطيف وذو قلب متواضع». فأنت «أخفيت هذه الأشياء على الحكماء والحاذقين وكشفتها للصّغار». وشتان بين أنْ ترى من قمّة جبل مشجّر وطن السلام، ولا تجد السبيل إليه، فتحاول عبثا الوصول إليه عبر الأوعار وسط المحاصرين والمترصّدين الهاربين الفارّين، مع أميرهم الأسد - التنّين، وأنْ تتبّع الطريق المؤدّي إلى هناك، المحميّ بعناية الإمبراطور السماوي، حيث لا يتلصّص من فرّوا وخرجوا عن الجيش السماوي، لأنهم يتجنّبونه تجنبهم للعذاب.

هذه الأفكار كانت تمسك بأحشائي بصور غريبة، كلّما كنت أقرأ الأدنى من حواريّك، وكنت قد تمعّنت في آثارك وانبهرت بها.

الكتاب الثامن

1.I. يا إلـهي، لأتذكّر وأنا أُعرب عن شكري لك، شفقاتك نحوي، ولأقرّ بها، ولتتشبّعْ عظامي بحبّك، ولتقلْ: «مولاي، من مثلك؟ لقد حطّمت قيودي: فلأقدم لك قربان المديح». كيف حطّمت قيودي، سأروي ذلك، وسيقول كلّ الذين يعبدونك، عندما سيسمعونني: «حمدا للمولى في السماء وعلى الأرض! عظيم رائع هو اسمه!»

كانت كلماتك قد انتقشت في صدري، وكنت محاطا بك من كلّ جهة، كنت واثقا من حياتك الأبديّة، غير أنّي كنت قد رأيتها «كاللغز وعبر مرآة»؛ لكنّ كلّ شكّ انتزع منّي في خصوص جوهرك الذي لا يعرف الفساد، لأنّ كلّ جوهر صادر عنه، ولم أكن أكثر يقينا فيك، بل كنت أرغب أن أكون أكثر ثباتا. أمّا عن حياتي الدهريّة، فكان كلّ شيء فيها يتأرجح، وكان عليّ أن أطهّر قلبي من خميرته القديمة. وكان يروق لي الطريق – المُنَجّي ذاته – (ipse saluator = le Sauveur même)، ولكنه كان يصعب عليّ إلى حدّ ذلك الوقت أن أسير عبر دروبه الضيّقة[1].

وأوعزتَ لي، ونِعْمَ ما أوعزت، أن أذهب إلى سمبليسيانوس (ad Simplicianum = à Simplicianus)، كان يبدو لي خادما فاضلا من خدمك، وكانت نعمتك تتألّق فيه. وكنت قد سمعت أيضا أنّه، منذ الشباب، كان يحيا لك في أشدّ الورع.لكنه كان آنذاك قد شاخ، وكان اتّباعُه في حياته الطويلة طريقَك بتفان وإخلاص متناه دليلا على خبرته وعلمه الواسعين : كان ذلك عين الصواب! لذلك كنت أريد أن أتشاور معه في

---

(1) ...et ire per eius angustias... = أن أسير عبر دروبه الضيقة. المرجع نفسه،الكتاب الثامن، الملاحظة1، هامش ص 175: «التقدم الذي بقي عليه أن يحققه واضح جليّ هنا. لقد تأسّست قناعاته واكتملت، لكن الأمر بالنسبة إليه يتعلق باستخلاص النتائج العملية وقبول الانصراف الشديد القاسي عن أطايب الحياة الذي كان يشعر أنه مطالب به».

تردّداتي، حتّى يعرض لي، ما هي الطريقة الملائمة للحالة التي كنت عليها،حتى أتقدّم على دربك.

2. وكنت أرى الكنيسة ملآى بالمؤمنين، وكان كلّ واحد يسير على طريقة خاصّة. أما أنا فلم يكن يروق لي ما كنت أفعل في الدنيا؛ بل كان عبءًا يثقلني، إذ لم تعد شهواتي تؤجّجني كالعادة بآمال العزّة والثراء، حتى أتحمّل تلك العبوديّة الثّقيلة للغاية. فتلك الآمال لم تكن تعد تسحرني، مقارنة بعذوبتك و«بجمال بيتك» الذي«أحببته». لكنّي كنت لا أزال وثيق الارتباط بالمرأة، وما كان الحواريّ ليمنعني من الزواج، رغم أنه يحثّ على وضع أحسن، مريدا بكلّ قواه أن يكون الناس مثله هو بالذات. إلّا أني كنت أختار، بسبب كوني لا أزال ضعيفا، موقع المجهود الأدنى، ولذلك فقط كنت أتخبّط في سائر المجالات، وهِنا مضنًى بهمومي المثيرة، لأنني كنت مجبرا على أن أتلاءم، بالإضافة إلى الأشياء الأخرى التي كنت أرفض تحمّلها، مع الحياة الزوجيّة التي كنت موعودا بها وملتزما بها.

كان قد تناهى إلى علمي، من فم الحقّ وجود «مخْصيّين، كانوا خَصَوْا أنفسهم من أجل مملكة السماوات»؛ لكنه أضاف قائلا : «من استطاع أن يفهم، فليفهم»، «تافهون هم بحقّ كلّ الذين لا يسكن فيهم العلم بالإلـه، والذين لم يستطيعوا في هذه الأشياء التي تبدو حسنة، أن يجدوا ذاك الموجود». أماّ أنا فقد تجاوزت تلك التفاهة، كنت قد ترفّعت عنها وبشهادة الخليقة جمعاء، فوجدتك أنت خالقنا، وكلمتك،التي هي إلـه بالقرب منك، إلـه واحد معك، وبه قد خلقت كلّ شيء.

وهناك صنف آخر من الكافرين الذين «وإن عرفوا الإلـه، لم يمجّدوه كما يُمجَّد الإلـه ولم يشكروه». في هذا الخطإ كنت قد وقعت أيضا، «ويدُك انتشلتني» وأخرجتني منه، ووضعتني حيث كنت أتعافى،لأنّك قلت للإنسان : «ها إنّ التقوى حكمة» و«لا تحاولْ أن تبدوَ حكيما»، «لأنّ الذين زعموا أنّهم حكماء أصبحوا أغبياء».وكنت قد وجدت بعد «الدُرّة الثمينة» وكان عليّ أن أبيع كلّ أملاكي، كي أشتريها، وكنت متردّدا.

3.II. إذن ذهبت إلى سمبليسيانوس. كان آنذاك «أب» الأسقف أمبروزيوس في تقبّل النعمة الإلـهية، وكان هذا الأخير يحبّه حقا «حبّ الأب»[1]. رويت له متاهات

---

(1)...ut patrem... =... كالأب...، المرجع نفسه الكتاب الثامن ص ١٧٧: «كان «سمبليسيانوس» Simplicianus مضطرا لأن يخلف القديس أمبرواز» saint Ambroise في منصب الأسقف لمدينة ميلانو سنة 397. وكان أمبرواز وأوغستينوس يكنّان له كل التقدير. ورسائله التي يشير إليها «جينّاديوس» Gennadius في كتابه «مشاهير الأعلام» De Viris illustribus (§ 37) ضاع ولم يصلنا».

ضلالتي. لكن عندما ذكرت أنّي قرأت بعض الكتب الأفلاطونيّة التي كان وكتورينوس (Victorinus)، وهو مدرّس للبيان في مدينة روما قديما، وقد سمعت أنه مات مسيحيّا[1]، قد نقلها إلى اللغة اللاتينيّة. هنّأني أنْ لم أكن قد وقعت على كتب فلاسفة آخرين مليئة بالأكاذيب والضلالات «طبقا لعناصر هذه الدنيا»، بينما توجد في تلك الكتب جميع الأبواب المُوصلة إلى الإلٰه وكلمته المقدّسة. ثم عرض ذكرياته، كي يحرّضني على تواضع المسيح «الخفيّ للحكماء، الظاهر للصّغار».

كان يعرف وكتورينوس وكان قد عاشره في روما معاشرة حميمة. روى لي عن ذلك الرجل ما لا أودّ كتمانه، لأنّه يقرّ لك بواجب مدحك مدحا كبيرا، كان شيخا علاّمة عظيم الخبرة بجميع المذاهب الشريفة[2]، وكان قد قرأ ونقد الكثير من كتب الفلاسفة، وكان معلّم عدد لا يحصى من الشيوخ النبلاء. وكان نجاح دروسه الذي نال به في نفوس مواطنيه شرفا منقطع النظير، قد جعله يستحقّ إقامة تمثال له في الساحة العمومية بروما (sur le forum romain = Romano foro) وقبِل ذلك عن طيب خاطر. وكان إلى حدّ تلك السنّ المتقدمة يعبد الأصنام ويشارك في الطقوس الخارقة للقدسيّات التي كان جميع النبلاء الرومان تقريبا[3] آنذاك مهتاجين لها، نافخين في الشعب حبّ أوزوريس (Osirim = pour Osiris) و«كل أجناس الأغوال المؤلّهة» و«أنوبيس النابح (Anubem = pour Anubis l'aboyeur)»، تلك الآلهة التي حملت قديما الأسلحة «ضدّ نبتونوس (Neptunum = Neptune)» وونوس (Venerem = Vénus)، «وضدّ مينروا (Mineruam = Minerve)» والتي أصبحت روما تبتهل إليها بعد أن هزمتها. وكان الشيخ وكتورينوس، بعد أن دافع عن تلك الآلهة مرارا في السنين الطوال ببلاغته الرائعة الصدى، لا يخجل من أن يكون خادم مسيحك، وابن ينبوع رحمتك، مطأطئا عنقه لنير التواضع، ومخضعا جبهته كلّها لشيْن الصليب.

---

(1) Victorinus... christianum defunctum... = «فيكتورينوس...وقد مات مسيحيّا». ويحيل «دي لابريول» DE LABRIOLLE على كتابه «تاريخ الأدب في إفريقيا الرومانية» ص346 – 350. نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة2، هامش ص 177.

(2) Liberalium doctrinarum peritissimus = متمرّس بجميع المذاهب: لقد كانت جميع الترجمات القصيرة لكتاب أوغستينوس مدينة، إلى حدّ كبير لطبعة لكتاب prenceps الذي أفدنا منه أيما إفادة في ترجمتنا العربية وفي المعجم الثلاثي اللغة الذي أرفقنا ها به.

(3) ...tunc tota fere Romana nobilitas... = ...كل نبلاء مدينة روما تقريبا... : المرجع نفسه، الكتاب الثامن، الملاحظة 1 هامش ص 178. «Tota fere» : (الكلّ تقريبا). يتضمن هذا الكلام شيئا من المبالغة. ومهما يكن، فإنه بعد مرور حوالي ثلاثين سنة، أصبح النواب المسيحيون يمثلون الأغلبية في مجلس النوّاب. وأقرّ القديس «أمبرواز» ذلك في مناسبين.

4. يا مولاي، يا مولاي، أنت «الذي أنزلت السماوات، ونزلت منها، ولمست الجبال فأخذت تدخّن»، بأيّة كيفيّات تسلّلت إلى مثل هذا الصدر؟

كان وكتورينوس، على حدّ قول سمبليسيانوس، يقرأ الكتب المقدسة، وكان يبحث بأشدّ الاهتمام عن جميع الكتب المسيحيّة، وكان يستقصيها، وكان يقول لسمبليسيانوس سرّا لا علانية: «أتعْلم أني أصبحت مسيحيّا؟». وكان الآخر يجيبه: «لن أصدّقك ولن أحشرك في زمرة المسيحيين ما لم أرك في كنيسة المسيح!» وكان وكتورينوس يقول له ضاحكا: «الجدران إذن هي التي تصنع المسيحيين؟» ذاك ما كان يقوله ويكرره، أي أنّه أصبح مسيحيّا، وذاك ما كان يجيب به سمبليسيانوس ويكرره، وكان الأول يعيد نكتة الجدران. والحقّ أنّه كان يخشى أن يحرج أصدقاءه، عابدي الشياطين المتكبّرين الذين كان يعتقد أنه سينصبّ عليهم، من قمّة عـلياء بابل (Babylonicae dignitatis = de **(leur altière Babylone** انصبابه من أرزِ لبنان (ex cedris Libani = de ces cèdres **du Liban**) على الذين لم يمحقهم المولى بعدُ، بوابل من العداوة. لكن بعد أن قرأ الكتب بنهم واغترف منها الحزم، خشي، إن هو أقرّ به «أمام البشر» أن ينكره المسيح أمام الملائكة المقدّسين؛ وبدا له أنّه سيرتكب جرما كبيرا، لو خجل من الأسرار التي أرستها كلمتك المقدّسة، ولم يخجل من الطقوس الخارقة لقدسيّات الشياطين المتكبّرين، والتي كان قد تقبّلها مقلّدا متكبّرا، ولم يخجل بعد من التفاهة، بل خجل من الحقّ. وفجأة باغتَ سبليسيانوس، على حدّ ما رواه هذا الأخير، قائلا له: «فلنذهب إلى الكنسية،أريد أن أصبح مسيحيّا!» ولم يتمالك الرجل نفسه من الفرح فذهب معه إليها. وبعد أن تلقّن مبادئ تعلّم الطقوس(= **primis instructionis sacramentis** **aux premières vérités de la catéchèse**)، بادر بتسجيل اسمه، كي ينبعث بواسطة التعميد[1]. في حين أنّ روما استغربته، والكنيسة سرّت به. أمّا المتكبّرون فكانوا ينظرون، وكانوا غاضبين، كانوا يُصَرْصِرُونَ بأسنانهم ويذوبون غيظا : أما خادمك فكان المولى والإلـه «أمله» و«ما كان ليلتفت إلى التفاهات والأكاذيب الجنونيّة».

5. وأخيرا حلّت ساعة الإقرار بالعقيدة. كان المترشحون الذين يتقدمون في روما

---

(1) **...ut per baptismum regeneratur** = «للحصول على الإحياء العماديّ». نفس المرجع، الكتاب الثامن، الملاحظة1، هامش ص 179: «لئن كان مريد التنصير يرغب في استكمال تعلّمه ولئن كان رؤساء الكنيسة يعتبرونه جديرا بالتعميد فإنه انتقل إلى مصافّ المختارين أو الأكفّاء». نقلا عن L. DUCHESNE.

لتلقي نعمتك يتلون من مكان مرتفع نسبيّا وعلى مرأى من الشعب المسيحيّ كلاما مضبوطا، محفوظا عن ظهر قلب. وكان القساوسة، على حدّ قول «سمبليسيانوس» قد سمحوا لـ«وكتورينوس» أن يقوم بذلك في الخفاء، وقد جرت العادة أن يسمحوا بذلك للذين كانوا يضطربون من شدّة الوجل. أما هو فقد خيّر أن يقرّ بنجاته على مرأى من الحشد المقدّس. لم تكن النجاة مثل ما كان يدرّسه في درس البلاغة، ومع ذلك فقد كان يعلّمها علانيّة.لم يكن «وكتورينوس» وجِلا عندما كان يعلّم، أمام جماهير المعتوهين كلماتك الخاصّة، وكان عن الوجل أبعدَ وهو يتلو أمام قطيعك المسالم كلمتك المقدّسة؟ لذلك، عندما صعد ليلقيَ الكلام المعهود، أعاد جميع الناس الذين كانوا يعرفونه جيّدا، بعضَهم لبعض ذكرَ اسمه، في جلبة التّهنئة. فمن كان لا يعرفه هناك؟ وكان يدويّ دويّ خافت وسط أصوات عصبة المهلّلين : «وكتورينوس! وكتورينوس!». وسرعان ما دوّى ابتهاجهم، وهم يرونه، وسرعان ما صمتوا ليصغوا إليه باهتمام. ونطق هو بعبارة العقيدة الصحيحة بثقة مشهودة، وكانوا يريدون جميعا أن يختطفوه، وأن يدخلوه في قلوبهم. وكانوا يختطفونه بالحبّ والفرح : ذانِك كانا يديْ الاختطاف!

6.III. إلـهي الطيب، ماذا يجري في الإنسان حتى يبتهج لنجاة روح ميؤوس منها وتحريرها من خطر أكبر، أكثر مما لو كان لديه دوما أمل في نجاتها، أوَ كان الخطر أقلّ؟إنّك أنت أيضا، يا أب الشفقة، تبتهج «بتوبة مذنب واحد أكثر من ابتهاجك بتوبة تسعة وتسعين عادلا ليسوا في حاجة إلى التوبة». نحن نشعر بفرحة كبيرة عندما نسمع قصّة الراعي كم يكون شديد الحبور، وهو يعود وعلى كتفيه النعجة التي ضلّت الطريق، وقصة الدّرهم (dragma = la drachme)[1] الذي يعاد إلى كنوزك، تعيده المرأة التي وجدته، وسط تهليلات الجيران قاطبة. وتنهمر دموعنا فرحا باحتفالات «بيتك» الخاشعة عندما نقرأ عن ابنك الأصغر أنه في بيتك «مات وبُعث حيّا، وأنه ضاع ووُجد». وتفرح لعمري بنا وبملائكتك، المقدّسين بحبّ مقدّس، لأنك تظلّ أنت دوما في ذاتك ولأنّ الأشياء التي لا توجد دوما أو لا توجد بنفس الصورة تعرفها كلّها، دوما، وبنفس الصورة.

7. ماذا يجري إذن في النفس، عندما تجد في الأشياء المحبوبة التي تظفر بها أو

(1) هي القطعة النقديّة الأثينية المساوية لفلس روماني، وهي صورة الرسم المتأخّرة للكلمة drachma.

تعاد إليها، فرحة أكثر مما لو كانت تملكها دوما؟ هناك أشياء أخرى كثيرة تشهد بذلك، والعالم مملوء بشواهد عنها صارخة: «تلك هي الحال!» الامبراطور المنتصر يتغلّب، وما كان لينتصر لو لم يحارب، وبقدر ما يكون الخطر أكبر في المعركة، تكون الفرحة بالنصر أكبر. والعاصفة تزعزع الملاّحين، وتهدّدهم بالغرق، وكلّهم شاحبون بسبب الموت المحدق[1] : وتهدأ السماء والبحر، فيبتهجون بإفراط، لأنّهم خافوا بإفراط. ويكون عزيز عليك مريضا، ويُنذر نبضه بالخطر؛ فتمرض لمرضه أرواح جميع الذين يرجُون نجاته، وتعود إليه صحّته، لكنه لا يمشي بعد بقوّاه القديمة، فتكون الفرحة بعدُ، كما لم تكن من قبل قطّ لمّا كان يمشي صحيحا معافى. والناس أيضا لا يتحصّلون على ملذّات الحياة إلّا مقابل هموم ليست فقط مفاجئة تداهمهم رغم إرادتهم، بل وهموم متوقّعة وتطلب بصورة إراديّة. ولذّتا الأكل والشرب لا تمثلان شيئا إلّا إذا سبقهما ألما الجوع والعطش. وترى الندامى يتناولون بعض الموالح حتى تنشأ فيهم حرارة مؤلمةٌ، تنشأ عنها اللّذّةُ بعد أن يُطفئها الشراب. وجرت العادة ألّا يعجل الخطيب بالدخول بخطيبته الموعودة بالزواج، حتّى لا يَحتقر الزّوج المرأة التي كتبتْ له، دون أن يكون قد ترقّبها بفارغ الصبر خطيبا[1].

8. وهكذا سواء في حالة المسرّة المخزية الحقيرة، أو في حالة المسرّة المباحة الجائزة، وفي حالة الصداقة الأكثر نقاء وعفّة، أو في حالة الابن الذي «مَاتَ ثم بُعِثَ، وضَاعَ ثم وُجِدَ» : في كلّ الحالات تُسْبَقُ الفرحة الكبرى بألم أكبر.

ما معنى هذا، يا مولاي وإلـهي؟ أنت، الذي تمثل في ذاتك المسرّة الأبديّة لنفسك، وتسرّ المخلوقات المحيطة بك دوما. ما معنى أن يتناوب، في هذا الجزء من الكون، النقص والتقدّم، النشاز والتناسق؟ هل هذا هو نصيبه الذي كتب له، وهل منحته إيّاه بهذه القوّة، من «أعْلَى طَبَقَاتِ السَمَاواتِ» إلى أدنى أعماق الأرض، ومن بداية القرون إلى نهايتها، ومن الملاك إلى الدّويدة، ومن الحركة الأولى إلى الحركة الأخيرة لمّا كنت تضع كلّ أجناس الخير وكلّ آثارك العادلة في أماكنها الخاصّة بها، ولمّا كنت تسيّر كلّ واحدة منها في إبّانها؟ آه! كم أنت رفيع على القمم، وكم أنت عميق في الوِهاد! أنت لا تبتعد عنّا أيّا كنت، وأمّا نحن فلا نصل إليك إلّا بصعوبة!

---

(1)... non suspirauerit sponsus dilatam. = دون أن يكون قد ترقّبها خطيبا بفارغ الصبر... نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة1، هامش ص 182: «كانت الخطوبة أحيانا تعقد قبل الزواج بزمن طويل. وكان أوغستينوس ذاته (انظر ص 140 من الترجمة الفرنسية) قد انتظر الفتاة التي طلب يدها طيلة سنتين. وكان من النادر أن تتزوّج الفتيات قبل سنّ الثالثة عشرة أو الرّابعة عشرة».

IV.9. هيّا، يا مولاي، إلى الفعل،إلى العمل، أيقظنا وأعِدنا، أشعِلنا واختطفنا، أضرِمْنا، اسحرنا : فلنحبَّ، ولنَعْدُ! ألا يعود إليك كثيرون منْ جحيم منَ العمى أعمقَ من جحيم «وِكْتُورِينُوسَ»؟ ويقتربون منك، ويستنيرون بك وهم يتقبلون نورك، والذين يتقبّلون نورك فيتقبلون أيضا القدرة على أن يصبحوا أبناءك؟ لكن كلما قلّ عدد الناس الذين يعرفونهم قلّت فرحة أولئك الذين يعرفونهم بهم. والفرحة إذا عمّت وشملت الكثيرين، كانت أيضا أشدّ وأقوى لدى الأفراد، لأنّهم يتحمّسون ويُلهب بعضُهم بعضا. وكلما زادت شهرة بعضهم بين الناس، كانت هيبته مدعاة لنجاة الكثيرين، وتبعه الكثيرون متخذين إياه قائدا، لذلك يغتبط به أيضا بشدّة أولئك الذين سبقوه، لأنّهم لا يغتبطون بنجاة المشهورين فقط.

إذن، حاشى أن أعتبر أنّ أشخاص الأغنياء يُقبلون في قبّتك قبل الفقراء، والنبلاءَ قبل السوقة. ألم تصطفِ «من أهل هذه الدّنيا، الضُعفاءَ كيْ تُفْحِمَ الأقوياءَ؟ ألم تختر السُوقةَ والمحتقرين وما هو لا شيء، لتحوّل الكائن الموجود عدما». ومع ذلك «فأذْنَى حَوَارِيِّكَ» بالذّات هو الذي دوّت بلسانه كلمتُك المقدّسة هذه، لمّا انتصر بالسلاح على كبرياء الوالي الرّومانيّ باولوس (**Paulus proconsul = proconsul Paulus**) مخضعا إيّاه «لِنير» مسيحكَ «الخَفيفِ»، جاعلا إيّاه واحدا من رعيّة الملك الأعظم، في حين انّه هو بعينه أراد أن يبدل اسمه القديم ساولوسَ (**ex Saulo = Saül**) بالاسم الجديد «بباولُوسَ» تخليدا لذلك النصر العظيم. إذ يغلب العدوّ أكثر في الذي يملكه أكثر، وفي الذي يملك به أناسا أكثر. فهو يملك أكثر المتكبّرين بسبب نبلِهم، وبواسطتهم يملك منهم عددا أكبر، بسبب هيبتهم[1]. لذلك، بقدر ما كان صدر وكتورينوس (**Victorini pectus = le cœur de Victorinus**) الذي احتله الشيطان يُعدّ حصنا منيعا، ولسانه الذي كان قد قتل به الكثيرين يعدّ سلاحا قويّا حادّا، قلنا بقدر ذلك ينبغي أن يبتهج أبناؤك بأكثر حفاوة، لأنّ ملكنا «قيّدَ القَويّ بالسلاسل»، ولأنّهم كانوا يرون أوعيته المسلوبة تطهّرُ، وتصلحُ للإستعمال إجلالاً لك، وتُصبِحُ «صالحةً لِلْمَوْلَى في كلِّ عَمَلٍ خَيْرٍ».

V.10. لكن حالما روى لي خادمك سِمْبِلِيسِيانُوسُ هذه التفاصيل في خصوص

(1) **nomine auctoritatis** = بفضل شهرة سلطانهم. نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة١، هامش ص 183: «هذه الاعتبارات تفسّر لنا كيف أنّ المسيحيّة قد وجّهت عنايتها في حركة التبشير منذ البداية إلى الطبقة العليا... فقد وُجد مفكّرون حتى في قصور الأباطرة»...

وكُتُورِينُوسَ، تحرّقت نفسي لتقليده، ولم يكن هو يرغب فيه. لكنّه أضاف إثر ذلك، أنّه صدر، في عهد الإمبراطور يوليَانُوسَ (imperatoris Iuliani = l'empereur Julien) قانون «يمنع المسيحيّين من تدريس الأدب والخطابة» (litteraturam et oratoriam = la littérature et l'art oratoire)، فتقبّل وكُتُورِينُوسَ هذا القانون، وخيّر أن يهجر مدرسة الثّرثرة، عوضا عن كلمتك المقدّسة «التِي تَجْعَلُ بها أَلْسِنَةَ الأطْفَال طليقة فَصِيحَة»، لذا بدا لي أنّ همة (وكُتُوريُونوسُ) أقل من حظه، لأنّه وجد الفرصة للتفرّغ إليك. إلى ذلك الشيء كنتُ أنا أيضا أتوق، مكبّلا لا بإرادة الآخرين، بل بقيد إرادتي. كان الخصم ممسكا بمشيئتي، وقد جعل لي منها قيدا قيّدني به. فلعمري من الإرادة المنحرفة يأتي الشبقُ (libido = la passion)، ومن الخضوع للشّبق يأتي التعوّد، ومن عدم الصمود للتعوّد تأتي الحاجة(1). يا لها من عبوديةقاسية مسرودة من حديد تشدني وتكبّلني! إنها بالفعل سلسلة. أمّا الإرادة الجديدة التي فرّخت في نفسي، وجعلتني أعبدك بلا مقابل وأنشُد التمتع بك أنت، يا إلـهي، يا لذّتي الوحيدة الحق، فكانت لا تزال غير مؤهّلة التغلب على الإرادة الأولى التي أكسبها القدم قوّة. إذن لديّ إرادتان، واحدة قديمة والأخرى جديدة، الأولى جسمانيّة والثانية روحانيّة، وكانتا تتصارعان، وبتصارعهماكانتا تقضيان على روحي.

11. لقد فهمت،بتجربتي الذّاتيّة، ممّا قرأتُه أنّ «اللَّحْمَ مُغْتَلِمٌ ضِدَّ الرُّوحِ، وَأَنَّ الرُّوحَ مُغْتَلِمَةٌ ضِدَّ اللحْمِ». وكنتُ في كليْهما في آن واحد، لكنّي كنت موجودا أكثر في ما كنت أسْتَحْسِنُهُ في نفسي، منّي في ما كنت أسْتَهْجِنُهُ فيها. ففي ما كنت أستهجنه، كان الأمر أقرب إلى عدم الأنا، لأنّي كنت أتحمّل مكرَها أكبر جزء منه، بدل أن أفعله راغبا. ومع ذلك أصبح التعوُّد أكثر شراسة ضدّ نفسي بفعلي، لأنّي بمحض إرادتي كنت قد وصلت إلى مكان لم أكن أرغب أن أوجد فيه. ومن يملك أن يعارض هذا؟ العذاب الذي يتبع الإثم عدْل. وزال ما كنت أتعلّل به من كوني إن كنت لا أحتقر الدنيا بعدُ من أجل خدمتك، فلأنّ إدراكي للحقيقة غير واضح. كلاّ، الحقيقة عندي كانت واضحة المعالم بعد. أمّا أنا الذي كنت لا أزال مرتبطا بالأرض، فكنت أرفض أن أتَجَنّدَ لخدمتك، بقدر ما كنت أخشى أن أتخلّص من جميع عراقيلي التي من المفروض أن أخشى أكبالها.

---

(1)... «et dum consuetudini non resistitur, facta est necessitas»: «عدم مقاومة العادة هو الذي يخلق الضرورة». هذه قولة موجزة وقويّة للغاية، وهي تبدو نابعة عن معرفة عميقة بأغوار النفس... نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة2، هامش ص 184. والحقيقة أنّ أوغستينوس في هذا الكتاب بالخصوص، عالم كبير من علماء الأخلاق.

12. هكذا كان عبء الدّهر ينوء عليّ بلطف، كأنه حلم، وكانت أفكاري بشأنك شبيهة بمحاولة من يُريد أن يستيقظ ولكنّه يُغْلَبُ بعمق سُباتِهِ فينغمسُ فيه. لا أحد يريد أن ينام دوما؛ وجميع الناس، طبق الحكم السليم، يفضّلون اليقظة، غير أنّ الإنسان يؤجّل عادة وقت طرد النوم، عندما يكون عنده فتور يثقل أعضاءه ويجني منه لذّة، وإن لم يرق له بعد، بسبب حلول ساعة الإفاقة. كذلك كنت واثقا من تفضيل الاستسلام لحبّك على الخضوع لشهوتي، لكنّ الأوّل كان يعجبني ويستولي عليّ، أمّا الثّاني فكنت أَهْوَاهُ وأظلّ مكبلا به[1]. ولم يكن لي ما أجيبك به، وأنت تقول لي: «قُم، أيها النائمُ! قم مِنْ بيْنِ الْمَوْتَى! سَوْفَ يُنِيرُكَ المَسيحُ!»، ورغم أنّك كنت تريني في كلّ مكان أنّك تقول الحقّ، لم أكن أجد البتّة ما أجيبك به، وإن كنتُ غير مقتنع في الحقيقة، إلّا بعبارات الاسترخاء والنعاس: «في الحين!» و«حالا!» و«أمهلني قليلا!». لكنّ «في الحين!» و«حالا!» كانا لا ينتهيان، و«القليلِ منَ الوقْتِ» كان يتراخى ولا تعرف له نهاية. عبثًا كنتُ ألتذّ بقانونك من جهةِ «الإنسان الباطنيّ»، في حين أنّ قانونا آخر كان يقاوم في أعضائِي قانونَ عقلِي، ويقودني أسيرا، تحت قانون الإثم الذي كان في أعضائي». إنّ قانون الإثم هو عُنْفُ التعوّد الذي تُجرّ به الرّوح وتقاد أيضا مكرهةً، نائلةً ما تستحقّ، لأنها تسقطَ فيه مريدةً له. ما أشقاني! «مَنْ قَدْ يُحرّرني مِنْ موت جسم هذا المَوْتِ هذا، خَلاَ نِعْمَتَكَ بواَسِطَةِ اليَسُوعِ المَسِيحَ، مؤلاَنَا؟»

13.VI. وكيف خلّصتني، من قيد شهوة الجماع (concubitus = le coït) الذي كان يشدّني شدّا وثيقا، ومن عبوديّة الشؤون الدنيويّة، سأروي ذلك «وأَعتَرِفُ به، إجلالاً لك، أنت مولاي، أنت السّند وَالفادي (redemptor = rédempteur) لِي».

كنت أحيا حياة عاديّة، وكان الغمّ ينمو فيّ، كنتُ أتوق إليك كلّ يوم، كنتُ أتردّد على كنيستك، بقدر ما كانتْ تسمح لي به شؤون الحياة التي كنتُ أتأوّه تحت أعبائها. كان أَلِيبِيُوسُ (Alypius) معي، خاليا عاطلا عن عمله، عمل الخبير في الحقوق، بعد أن كان مستشارًا للمرّة الثّالثة. كان ينتظر من يبيعه استشاراته من جديد، كما كنتُ أنا

---

(1)... hoc libebat et uinciebat = كنت أهواه وسأبقى في قيوده. نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة2، هامش ص 185. والحقيقة أنّ: «جميع هذه المحاولات الحميمة تؤدّى باللغة اللاتينية على نحو أكمل بواسطة الجناسات والطباق التي كان أوغستينوس يؤلف بينها بشكل بديع (انظر dedere أي الاستسلام وcedere أي الخضوع؛ وانظر placebat أي يعجبني و uincebat أي يستولي عليّ؛ وlibebat أي أهواه وuinciebat أي كان يقيّدني). «وهي أساليب قديمة جدا في الأدب اللاتينيّ».

أبيع فنّ الفصاحة، هذا إن صحّ تحصيله بالتّعلّم.أمّا نبْريدِيُوسُ فكان قد ضحّى من أجل صداقتنا، بأن أصبح مساعد ويرِيكُنْدُوسَ(1) في التدريس، ذلك المواطن والنحويّ بمدينة ميلانو، الذي كان من أشدّ الناس قربا منّا جميعا. لقد عبّر ويرِيكُنْدُوسَ عن رغبته الشديدة فيه، وطلب من فريقنا، باسم الصداقة، خالص العون الذي كان في أشدّ الحاجة إليه. إذن ليست الرّغبة في الربح هي التي جرّت نبريدِيُوسَ إلى هذا القبول، إذ لو أراد، لكان بإمكانه أن يحرز بثقافته أكثر من ذلك. وبدافع حسن المعاملةَ لم يرد الصديق اللّطيف الحبيب، أن يعرض عن مطلبنا. وقد أبدى من ناحية أُخرى حكمة كبيرة جدّا، بتحاشي أن يشتهر أمره بين كبار القوم، واقيا، على هذا النحو نفسه من كلّ اضطراب، إذ كان يريد أن يملكها حرّةً، حتّى تكون، في معظم الأوقات هادئة مرتاحة مهيّأة للقراءة أو لسماع شيءٍ ما عن الحكمة.

14. استقبَلْنا ذات يوم أنا وأَلِيبِيُوس - ولا أتذكّر سبب غياب نبْرِيديُوس عنّا - في بيتنا فجأة شخصًا إفريقيا يدعى بُونتسيَانُوسَ (Ponticianus)، كان من أبناء وطننا، وكان يشغل في البلاط مهامّ سامية، لا أدري ما كان يريد منّا. جلسنا معا نتحادث. وصدفةً لمح، فوق طاولة لعب كانت أمامنا، كتابا. أخذه وفتحه، فوجد بين دفتيه رسائل الحواريّ باولُوسَ. لم يكن لعمري يتوقع ذلك! كان يظنّ أنّه واحد من الكتب التي كنت، بحكم مهنتي، أفني النفس فيها. عندئذ ضحك لي وهو ينظر إليّ، وهنّأني، متعجّبا من أنه وجد، أمام عينيّ، ذلك الكتاب فقط صدفة. لقد كان، لعمري، مسيحيّا مُوَاظبًا، وكثيرا ما كان يجثو إليك، يا إلـهنا، في الكنيسة في صلوات متكرّرة، تدوم طويلا. ولمّا ذكرت له أنّي أصرف في تلك النصوص المقدّسة جلّ اهتمامي، أخذنا نتبادل الحديث، فروى لي من حكايات الرّاهب المصريّ أنطونيُوسَ (**de Antonio monacho = Antoine, le moine égyptien**)، الذي كان اسمه مشهورا أيّما شهرة بين خدّامك، لكنه كان إلى حدّ تلك الساعة، مغمورا بيننا(2). وما أن اكتشف ذلك، حتّى

---

(1)... أن أصبح مساعدا في التدريس,... = (**Verecundo = de Verecundus** ...**suboceret**): «هذا الفعل **subdocere** كان موجودا بعد عند شيشرون Cicéron (في مراسلاته مع صديقه **Atticum VIII,4**) الذي صرح أنه اضطر للقيام بدور مؤدب أبنائه بسبب عجز العبد المعتوق (أي المربّي) المكلّف بتأديبهم». نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة1، هامش ص 186.

(2)... **latebat** ... **nos** =... ظلّ مجهولا بالنسبة إلينا. المرجع نفسه،الكتاب الثامن، الملاحظة1، هامش ص 187: «كان القديس «أتاناسي» Athanase قد ألف سيرة أنطونيوس Antoine حوالي سنة 357، أي سنةً بعد موت الراهب الشهير. ونقلت هذه السيرة من اليونانية إلى اللاتينية، نقلها =

تريّث في الكلام عنه، مزيلا جهلنا بذلك الرّجل العظيم، ومتعجّبًا منه في الآن نفسه. أمّا نحن فكنّا مشدوهين لِسَمَاع «عَجَائِبِكَ» المشهود بها، في وقت قريب جدًا منّا، والتي تكاد تطابق عقيدة الحقّ في عصرنا هذا، في الكنيسة الكاثوليكيّة. كنّا كلنا نعجب من عظمة مثل هذه الخوارق، وكان هو يعجب من كوننا لا علم لنا بها.

15. ومن هناك دار الحديث عن أهل الأذيارِ وعن عوائدهم ذات الرّائحة الزكيّة الصاعدة إليك، وعن العزلة الخصبة في الصحراء التي كنّا نحن لا نعلم عنها شيئا. وكان بمدينة ميولانو ديرٌ خارج أسوار المدينة، مليءٌ برهبان طيّبين، تحت رعاية أَمْبِرُوزْيوسَ **(sub Ambrosio nutritore = sous le patronage d'Ambroise)**، ولم نكن نعرفه. كان بُونْتِسِيانُوسُ يمشي دوما، وكان لا يزال يتحدّث، وكنّا نحن ساكتين، مهتمّين به. وانتهى به الأمر إلى أن ذَكر لنا، لا أدري متى، أنّه خرج، صحبةَ ثلاثة آخرين من رفاقه، بالطبع بالقرب من تريوا **(près de Trèves ou (apud) Treueros)** للتنزّه في الأجنّة المجاورة للأسوار، بينما كان الإمبراطور عشيّتها منشغلا بمشاهدة سباق الخيل **(circensium)**. وهناك، حيث أنّهم كانوا يتفسّحون بالصدفة في مجموعتين، إحداهما تتركب منه ومن بونتِيسِيَانُوس، والأخرى من الصديقين الآخرين معا، اتّفق أن اتجهوا اتّجاهين مختلفين. لكن، في تجوالهم، دخلا إلى بيت من خشب كان يسكنه بعض خدّامك من «فُقَراء الفِكْرِ الذين لهم مملكة السماواتِ»، ووجدا به مخطوطا كُتب عن حياة أَنْطُونْيُوسَ **(Vita Antonii = la vie d'Antoine)**. فأخذ أحدهما يقرؤها، ويُعْجَبُ بها، ويتحمّس لها، وفيما هو يقرأ، ويفكّر في تقمّص مثل تلك الحياة، وفي ترك الخدمة الدنيويّة ليخدمك وكانوا من ناحية أخرى من بين الذين يسمّونهم «أعوان» الإمبراطور **(agentes in rebus = les «agents» de l'empereur)**. وفجأة مُلئَ قلب ذلك القارئ بالحبّ المقدّس وبخجل الفضيلة، فغضب على نفسه، ونظر إلى صديقه، وصاح: «قل لي، بالله عليك، إلى أين نطمح أن نصل بكلّ أتعابنا هذه؟ وعمّ نبحثُ؟ ولأيّ سبب نبقى في خدمة الإدارة؟ هل يمكن أن نأمل، ونحن في البلاط، في أكثر من أن نصبح أصدقاء الإمبراطور[1]؟ كم من التقلّبات والأخطار الحافة بذلك المنصب؟

= «إفاقريوس» الأنطاكيّ Evagrius d'Antioche قبل سنة 388. ونحن نملك النص الأصليّ وترجمته (مؤلفات آباء الكنيسة اليونانية **Patrologie grecque XXVI** ص835 والتي تليها)».

(1) ننقل هنا الملاحظة 1 التي أوردها دي لابريول DE LABRIOLLE بالصفحة 188 من الجزء الأول من من طبعة الآداب الجميلة، نقلا عن العالم الألماني MOMMSEN: «كان =

وكم من المخاطر، لمواجهة الخطر الأكبر؟ ومتى سيكون الوصول إليه؟ أمّا إذا طلبت صداقة الإلـه، حصلت عليها في الحال!».

هذا حدث، وهو في أزمة الولادة لحياة جديدة، ثمّ أدار عينيه ثانية نحو الصفحات، وعاد يقرؤها، وكان يجري في قلبه تحول داخليّ لا يراه إلّا أنت، وكان عقله ينْسَلِخُ عن الدّنيا، كما ظهر من بعدُ. فبينما كان يقرأ وأمواج قلبه المرتجف تهتزّ، وقد تبيّن الأحسن، وقرّر اتّباعه، وقال لصديقه، وقد تحوّل بعد خادمك: «ها أنا قد قطعت من الآن مع أملنا القديم، وعزمت على خدمة الإلـه، وها أنا أباشر هذا بدءًا من الساعة، وفي هذا المكان! إن عزّ عليك أن تقلّدني، فلا تعارضني على الأقلّ». أجاب الآخر أنّه متعلّق برفيقه ليشاطره مثل هذه الجائزة ومثل هذه الخدمة. لقد كانا بَعْدُ معًا خادمَيْك، وهما يشيّدان صومعة النجاة على نفقتهما الخاصّة، تاركيْن كل أملاكهما، ليتبعوك.

وعندئذ كان بونتيسيانوس ورفيقه يتجوّلان في أرجاء أخرى من الجنان، وفي بحثهما عن الآخريْن، وصلا إلى نفس المكان، ولمّا وجداهما، نبّهاهما لضرورة العودة، لأن الشمس أخذت في الغروب. لكنّ الصديقيْن الآخريْن بعد أن رويا لهما قرارهما وعزمهما، وكيفيّة نشأة تلك الإرادة، ورسوخها، طلبا منهما ألّا يرفضا قرارهما، لو رفضا أن يتبعاهما. أمّا الصديقان، اللذان لم يتحوّلا عمّا كانا عليه من قبل، فبكيا مع ذلك على نفسيهما، على حدّ قول بُونْتِيسِيَانُوس، وهنّآهما بكل لطف، وتوسّلا إليهما أن يذكُراهما في دعواتهما، وعادا إلى البلاط جارّين قلبيهما في الأفكار الدنيا، في حين بقيَ المهديّان الراسخا القلبِ في السماء، في الكوخ الخشبيّ.

وكان لكليهما خطيبة: وكلتاهما، بعد أن علمتا بالأمر، نذرتا أيضا إليك عُذْرِيَّتَيْهِمَا.

16.VII. ذاك كان حديث بُونْتِيسِيَانُوس. أمّا أنتَ، مولاي، فكنتَ، وسط حديثِه، تُرجعني إلى ذاتي، جارًّا إيّاي من ورَاء ظهري، حيث كنتُ أخفي وجهي، لأنّي كنتُ أرفض أن أنظر إلى نفسي وجها لوجه. وكنتَ تضعني قبالة وجهي، حتّى أرى كم كنتُ بشعًا، كم كنتُ ذميمًا قبيحًا أرقطَ مُتقرّحًا. وكنتُ أرى نفسي فيتملكني الرعب.

= أصدقاء قيصر **amici Caesaris** يكوّنون، في عصر الإمبراطورية طبقة خاصة تتمتّع بحظوة وشهرة متميزين ويشغلون في الغالب وظائف عالية»... أضف إلى ذلك أننا نجد في نصّ أوغستينوس العبارة «أصدقاء الإمبراطور» **amici imperatoris**. ومن المعلوم أن العبارتين **Caesar** أي قيصر و**imperator** أي إمبراطور عبارتان مترادفتان. ومع ذلك من المفيد أن نبرز العبارتين الأوغستينيتين ذاتهما وأن نذكر أنّ العبارة «**agentes ni rebus**» أي أعوان الإمبراطور المذكورة أعلاه تكمّل معارف القارئ الحديث.

أين أفرّ من نفسي؟ وكلّما حاولتُ أن أحوّل نظري عنْ ذاتي، كان بُونْتِيسِيَانوس= ille = Ponticanus يروي لي ما كان يرويه، وكنتَ أنتَ بالعكس تجابهني بذاتي، وكنت ترغمني على رؤية نفسي، حتّى «أَقَعَ عَلَى جَوْرِي وأَكْرَهَهُ». لقد كنت أعرف جوري، لكنّي كنت أكبته وأطْرُدُهُ وأنساه.

17. أمّا آنذاك، فبقدر ما كنتُ أحبُّ ذينكَ الشابين حبّا جمّا بسبب ما سمعتُه عن عواطفهما المنجّية، بما أنّهما كانا قد سلّما لك نفسيهما كليّا لتداويَهما،كنتُ أمقت نفسي أكثر وأكرهها مقارنةً بهما؛ هذا وكانت قد مرّت عليّ الكثير من السنين - حوالي اثنتي عشرة سنة - منذ أن قرأت وأنا في التّاسعة عشرة من عمري مؤلّفَ شيشِرُون[1] الـهُرْطنْسِيُوسَ(Hortensio = l'Hortensius)[1]، وكنتُ قد اضطرمتُ بحبّ الحكمة، وأُؤَجّلُ احتقار السعادة الدّنيويّة، للتّفرّغ للبحث عنها، هي التي ليس اكتشافها فحسب، بل والتقصّي فيها وحده، كانا ينبغي أن يفضّلا بعدُ أيضا على كلّ ما يُوجَدُ من الكنوز، وعلى الممالك الدّنيويّة، وعلى الملاذ المحيطة بي، من كلّ صوب، لمجرّد إيماءة. إلّا أنّي، أنا المراهق الشقيّ للغاية، الشقيّ في مستهلّ المراهقة عينها، كنتُ قد طلبتُ منك أيْضا العفّة، وكنتُ قد قلت : «أَعْطِنِي الْعِفَّةَ والزُّهْدَ، لَكِنْ لاَ تُعْطِنِيهِمَا فَوْرًا!» إذ كنت أخاف أن تستجيب لي بسرعة، وأن تشفيني بسرعة من داء الشبق (concupiscentiae = la concupiscence) الذي كنتُ أفضّل أن أشبعه عوض أن أهَدِّئَهُ. وكنت قد سرتُ عبر «الطرقات المُتفسّخة» للمعتقدات الباطلة المرجّسة، دون ثقة فيها، بل مفضّلا إياها على الأخريات التي لم أكن أستقصي فيها النظر بصدق، بل كنت أحاربها بعداء[2].

18. وتصوّرت أنّي، لو أخّرت «مِنْ يوم إلى يوْم» أن أحتقر آمال الدّنيا، لأتعلّق بك أنت وحدك، فلأنّه لم يظهر لي أيّ نور موثوق به يهديني في ترحالي. وكان قد أتى اليومُ

(1) انظر بالخصوص، الكتاب الثالث الفقرة 7, IV، إلى الملاحظة المستفيضة عن هذين العلمين الرّومانيين، والخطيبين الشهيرين اللذيْن اهتم القديس كثيرا بآثارهما وبتأثيرهما في تكوينه الثقافي.

(2)... sed inimice oppugnabam = «... كنت أحارب بعداء». نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة1، هامش ص 190: «تتعلق المسألة بمعرفة إلى أي حدّ كان أوغستينوس يولي المذاهب المانوية انخراطه المطلق فيها. فأن يكون ناضل في سبيلها فهذا أمر لا مجال للشكّ فيه (انظر ص 88 ص 1). ومع ذلك فهو يقرّ أنه لم يطمئنّ إليها الاطمئنان كلّه لأنها لم تكن ترضي عقله. وهو من جهة أخرى قد ابتعد عنها دون كبير ضجّة، محترما «معتقداته القديمة» وكاشفا عن «حذر سابق»، كما قال بول مونسو Paul MONCEAUX.

الذي صرت فيه عاريا بين يديك، وصار ضميري يؤنبني قائلا : «أين لسانك؟ كنت تقول فيما مضى إنّك، بسبب الشكّ في الحق، ترفض أن تلقي عنك عبء التّفاهة. ها إنّه صار موثوقا به، وهو لا يزال يثقلك، وها أنّ كتفيك الأكثر حريّة صارا مجنّحيْن، دون أن تكون هكذا قد أضنيت نفسك في البحث، وتأملت في هذه الأشياء مدّة عشر سنين وأكثر...».

هكذا كنت أنْخرُ نفسي من الدّاخل، وخجلت خجلاً شنيعا جدّا، وبُونتيسِيأنُوسُ يتكلّم. وعندما أنهى كلامه وقضى الأمر الذي جاء من أجله، انسحب، وعدتُ أنا إلى نفسي. ماذا كتمتُ من الكلام ضدّي؟ وبأيّ سياط أفكاري لم أجلِدْ روحي كي تتبعني، في سعيي للالتحاق بك؟ كانت تصدّني، كانت ترفضني، ولم يخطر لها الاعتذار. كلّ البراهين كانت قد اسْتُنْفِدَتْ ودُحِضَتْ : كانت قد بقيت لها ارتجافةٌ صامتةٌ، وكانت تخشى، كالموت، أن توثقَ إلى الخلف، بعيدا عن تيّار العادة الذي كانت تنهل منه الفساد والموت.

19.VIII. عندئذ، في ذلك الشجار الكبير، وفي بيتي الدّاخلي الذي كنت قد زعزعته بقوّة، ضدّ روحي الموجودة في غرفتها الخفية قلبِي، اندفعت نحو ألِيبيُوسَ، مضطرب المحيّي مضطرب الفكر، وأنا أصرخ : «ماذا يحدث لنا؟ ما هذا الذي سمعته؟ يقوم الجهَلَةُ ويختطفون السماء، ونحن، رغم علومنا الخالية من الإيمان، ها إنّا نتمرّغ هنا، في هذه الدّنيا، في الشحم واللّحم! ألِكونهم سبقونا، نخجل أن نتّبعهم. أليس الخجلُ في ألّا نقدر حتىّ على اتّباعهم؟»

قلت له ما قلت من هذه الأقوال، واختطفني منه اهتياجي، وهو صامت مذهول يحدّق فيّ. نبراتُ صوتي لم تكن كالعادة. كان كلّ شيء فيّ، الجبينُ والخَدّان والعينان والبشرة ونبرة الصوت، يكشف عمّا بداخلي أكثر من الألفاظ التي كنت أتفوّه بها.

كان بمنزلنا بستان صغير كنّا نستغله، شأنه شأن سائر المنزل، إذ لم يكن المؤجّرُ صاحبُه يقطن فيه. هنالك رمتني عواصف صدري. لا أحد يستطيع أن يقطع الخصومة المتّقدة التي كنت أعلنتها على نفسي لتؤول المآلَ الذي كنت أنت تعلمه، أمّا أنا فلا. لكنّ هذياني كان يدفعني إلى الصواب، وكان هذا الموت يدفعني إلى الحياة، عارفا أيَّ شرٍّ كنت، وجاهلا أيَّ خير سأكون بعد لحظة.

اختليت إذن في البستان، وأليبيوسُ يقتفي أثري خطوةً بخطوة. أشعر أنّ المكان خال، وإن كان هو معي. وهل يتخلّى عنّي، وأنا في تلك الحال؟

جلسنا بعيدين عن البيت قدر المستطاع، وكانت روحي ترتجف، ساخطة سُخْطًا فيه الكثير من الصخب، على عدم سيري نحو مشيئتك وعهدك، إلهي، اللّذين إليهما كانت «كلّ عظامي» تناديني بوجوب السير، وترفع إلى السماء أصواتها بأماديحك. لا أحتاج للوصول إليك لركوب السفن أو المركبات ذات الجياد الأربعة (**quadrigis = char (tiré par quatre chevaux) ou quadrige**)، ولا حتى لقطع تلك الخطوات القليلة التي تفصل بين المنزل وذلك المكان الذي كنّا به جالسيْن. فليس السير فقط، بل والوصول إليك أيضا، لم يكونا شيئا آخر سوى إرادة السير بقوّة وحزم، لا إرادةً شبه جريحة، تتمايل يمنة ويسرة، وتضطرب في عِراك، يشتدّ فيه جانب منها ويتوتّر، بينما يتراخى الجانب الآخر ويتداعى.

20. وكنت في خضمّ تردّدي أحرك جسمي حركات عديدة كما يطيب للنّاس أحيانا أن يفعلوا فلا يستطيعون، إما لأنّهم لا يملكون الأعضاء اللازمة لذلك أو لأنّهم مكبّلون بالقيود أو لأنّ نفوسهم مثقلة بالفتور أو معوقة لأيّ سبب من الأسباب. إنْ أنا اقتلعت شعري أو لطمت جبيني أو احتضنت ركبتيّ بأصابعي مشتبكة،أكون فعلت ذلك، لأنّي أردته، ولكن كان بوسعي أن أريده دون أن أفعله، لو أنّ حركة أعضائي لم تطاوعني! فالإرادة والاستطاعة، بالنسبة إلى هذه الحركات المتنوعة التي فعلتُها، ليستا شيئا واحدا : لم أكن أفعل ما كانت أرغب في القيام به رغبة شديدة، أي ما كنت أستطيع القيام به، بمجرد أنني كنت أريده، لأنّي كنت أريد على الفور ما كنت أريده حقّا. فهنا تستوي القدرة والإرادة، وإرادة الشيء هي فعله، إلّا أنّها لا تُحدثه، وكان جسمي يطيع أدقّ إرادةٍ لروحي، بتحريك بعض الأعضاء لأدنى إشارة، بأكثر سهولة من روحي ذاتها عندما كانت لا تطيع نفسها، كي تحقق إرادتها الكبيرة بمحض إرادتها.

IX.21. من أين هذه الأعجوبة؟ ولم هذا؟ لتشعّ رحمتُك، ولأسألْها، إن كانت تملك الجواب، عن ظلمات البشريّة المعذّبة، ومصائب بني آدم الحالكة جدّا. من أين هذه الأعجوبة؟ ولم هذا؟ الرّوح تأمر الجسم، فتُطاعُ حالاً، وتأمر الرّوح نفسها فتُقاومُ. وتأمر الرّوح اليد بأن تتحرّك فيكون الشيء على درجة من السهولة، بحيث أنّ الأمر لا يكاد يتميّز عن التّنفيذ : ومع ذلك، فالرّوحُ روح، وأمّا اليد فهي جسد. تأمر الرّوح أن تريد الرّوح، والحال أنها هي هي لا غيرها، لكنّها لا تفعلُ. من أين هذه الأعجوبة؟ ولم هذا؟ تأمرها، قلتُ، كي تريد، وما كانت لتأمر لو لم تكن تريد، ولا يحصل ما تأمر به! لكنها لا تريد كليّا، لذلك هي لا تتحكّم كليّا. إذ لا تتحكّم إلّا بقدر ما تريد، وفشل

التنفيذ مناسب مباشرة لفشل الإرادة، إذ إنّ الإرادة تأمر الإرادة بأن تكون ذاتها، لا غيرها. إذن فهي لا تأمر أمرا تامّا : لذلك لا يتحقق ما تأمر به. إذ لو تعلّقت بالحكم تعلقا تاما لما احتاجت إلى أن تأمر نفسها بأن تكون، لأنّها تكون قد تحقّقت بعد. العجب ليس إذن في كونها، من ناحية تريد، ومن ناحية ترفض، بل هي مرض في الرّوح. لأنّ الحقّ يرفعها لكنه لا يرفعها كليّا، لأنّها ترزح تحت وطأة العادة بكلّ ثقلها. لذا هناك إرادتان، ليست واحدة منهما كاملة، وما يوجد في واحدة منهما ينقص في الأخرى.

22.X. «لِيغِبْ عَنْ مُحَيَاكَ» يا إلـهي، كما يغيب «المُتَحَدِّثُونَ التَّافِهُونَ» و«المُضَلِّلُونَ» للرّوح، أولئك الذين رأوْا في التروّي إرادتين فأكّدوا وجود روحين ذاتيْ طبيعتين، إحداهما حسنة والأخرى سيّئة. ألاَ بل هم السيّئون بحقّ لأنهم يروْن تلك الآراء الضالة، وسوف لن يصبحوا طيّبين، إلّا إذا عادوا إلى الصواب، واتفقوا مع أصحاب الحقيقة. حتّى يصدق عليهم قول حواريّك، «كُنتُمْ قَديمًا ظُلُماتٍ، أَمَّا الآنَ فَأَنْتُمْ نورٌ فِي المَوْلَى». إلّا أنّهم يريدون أن يكونوا لا نورا في المولى، بل نورا في أنفسهم، ظانّين أنّ طبيعة الرّوح هي الإلـه، ولذلك انقلبوا ظلماتٍ أشدّ كثافة، لأنّهم ازدادوا بعدا عنك، بغرورهم الشائن، أنت النور الحقّ المنير «لكُلّ إنسان آتٍ إلى هذه الدُّنيا». تنبّهوا لما ستقولون، واخجلوا، و«اقْتَرِبُوا مِنْهُ، واستَنِيرُوا بِهِ»، و«سَوْفَ لَنْ تَحْمَرَّ وُجُوهُكُم خجلا».

عندما كنتُ أقلّب النظر في الكيفيّة التي كنت أنوي أن أدخل بها في خدمة المولى إلـهي، كما خطّطت لها منذ زمن طويل، كنت أنا الذي كنت أريد، وأنا الذي كنت لا أريد، كنت أنا، أجلْ كنت أنا. فلم أكن أريد إرادة تامة، ولم أكن أرفض رفضا تاما. كذلك كنت في خصام مع نفسي، وكنت مشتّتا في قرارتها، وذلك التشتّت (scission = dissipatio) كان لعمري يقع ضدّ مشيئتي، لكنه لم يكن يُبْرِزُ سوى عقاب روحي، ولم يكن يبرز في نفسي حضور روح أجنبية. فأنا إذن لم أكن بعدُ الفاعلَ له، بل «الإِثْمُ الذي كَانَ يَسْكُنُ فِيَّ»، كان عقاباً لي على إثم الحريّة الكبرى، بما أنّي كنت ابن آدم.

23. فلو كان عدد الطبائع المتضادّة مساويا لعدد الإرادات المتصارعة فيما بينها لما كانت اثنتين، بل أكثر. فلو تساءل أحد هل يذهب إلى أحد اجتماعات المانويين الضيّقة[1] أو إلى المسرح لصاح القوم : «ها هما الطبيعتان، الأولى الحسنة تقوده إلينا

---

(1) ...ad conuenticulum eorum pergat... = الذهاب إلى بعض اجتماعاتهم. نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة1، هامش ص 195: «1. يتعلق الأمر في هذه الفقرات بالمانويين، وقد كان فكر أوغستينوس مُهوَّسا بهم».

والأخرى السيّئة تعود به إلى هناك. وإلّا من أين هذا التردّد للإرادتين المتعاكستين؟ أمّا أنا فأقول إنّهما كلتيْهما سيّئتان، سواء التي تقوده إلى المانويّين أو التي تعود به إلى المسرح. لكنّهم يعتقدون أنّ الطبيعة التي تؤدّي إليهم، ليست إلّا حسنة. ثمّ ماذا؟ فلو أنّ واحدا منّا تساءل، واحتار، بسبب تضارب الإرادتين، هل سيذهب إلى المسرح، أو إلى كنيستنا؟ فهل سيحتار أولئك أيضا، فيما سيجيبونه به؟ فإمّا أنّهم سيعترفون – وهو أمر يرفضونه – بأنّ الذّهاب إلى كنيستنا يكون بالإرادة الحسنة، كما يذهب إليها، من هم مُشْبَعُونَ بالقرابين المقدّسة (sacramentis = sacrements) التي تشغلهم؛ وإما أنهم سيظنّون أنّ طبيعتين سيّئتين وروحين سيّئتين تتخاصمان في الإنسان الواحد، وسوف لن يكون ما يقولونه عادةً صوابا، من كون واحدة منهما حسنةً، والأخرى سيّئةً، أو سيهتدون إلى الحقّ، ولن ينكروا عند التروّي، أنّ روحا واحدة تفور بفعل إرادتين متخالفتين.

24. فإن صادف أن يلاحظوا في الإنسان الواحد إرادتين متصادمتين، فلا يقولوا بوجود تدافع بين روحين متضادّتين، تتكوّنان من جوهرين متناقضين ومن مبدأين متناقضين، الأولى حسنة والثّانية سيّئة، لأنك أنت،«يا إلاَهَ الحقِّ»،لا توافقهم، بل تدحضهم،وتفحمهم. فهب أنك تجاه إرادتين سيّئتين، كأن يتردّد بعضهم بين أن يقتل إنسانا بالسمّ، أو بالخنجر، أو بين أن يستولي على ملك هذا أو ذاك، وهو لا يستطيع الاستيلاء على كليهما، أو بين أن يشتري اللّذّة بنفقات باهظة، أو يُبْقي على ماله بفعل بخْله، أو بين أن يذهب إلى سباق الخيل (ad circum = au cirque)، أو المسرح، إن كانا يعرضان نفسَ اليوم. وأضيف إلى هذا تساؤلا ثالثا : هل سيرتكب سرقة في منزل غيره، إن سنحت الفرصة؛ وتساؤلا رابعا : هل سيزني، إن كانت الظّروف سانحة. فلو اجتمعت كلّ هذه الإمكانات في وقت واحد،وكانت كلّها مرغوبا فيها بالتّساوي،دون أن يمكن بلوغها معا، لتمزّقت حقّا الرّوح، بتنازع أربع إرادات في قرارتها، بل حتّى أكثر، نظرا لمثل هذه الكثرة من الأشياء المرغوب فيها. ولكنّهم لا يتحدّثون عادة عن مثل هذه الكثرة من الجواهر المختلفة.

وكذا الشأن بخصوص الإرادات الحسنة. فهل يحسن الالتذاذ بقراءة الحواريّ، وهل يحسن الالتذاذ بمزْمُور جادّ (psalmo sobrio = le sérieux d'un psaume)، وهل يحسن شرح الإنجيل؟ سيجيبون عن جميع الأسئلة : «نعم، هذا حسن». ثمّ ماذا؟ لو أنّ جميع هذه الأشياء تلذّ بالتّساوي معًا وفي نفس الوقت، أفلا تتجاذب الإراداتُ المتعارضة قلوبنا، عندما نتساءل بأيها ستكون البداية؟ فجميع هذه الإرادات حسنة،

ومع ذلك فهي تتصادم فيما بينها، حتّى يتمّ اختيار مبدإ واحد، يوحّد الإرادة، بعد أن كانت مقسمة أجزاء كثيرة.

وكذا الشأن، عندما توفّر لنا الأبديّة اللّذّة العليا وتبقينا شهوة الخير الدّنيويّ في الأسفل: نفسُ الرّوح تريد هذا أو ذاك، لكن بنصف إرادة. لذلك تتمزّق تحت وطأة الكرَبِ: تزيّن لها الحقيقة هذا، في حين أنّ التعوّد يشدّها إلى الآخر.

25.XI. هكذا كانت نفسي مريضة، كنت أتعذّب، متهما نفسي بنفسي، بأكثر مرارة من المعتاد، متقلبا، متخبّطا في أغلالي حتّى تنفصِمَ كليّا، إذ كانت لي قيدا واهيا. إلّا أنّي كنت مقيّدا به مع ذلك. وكنت أنت تضغط، مولاي، على خفايا روحي، ضاربا إيّاها، في شفقة جادّة بسياط مزدوجة من الخوف والخجل، كي لا أخور ثانية، فلا تنفصم تلك الحلقة الضعيفة الرّقيقة التي بقيت، بل كي تقوى من جديد، وتربطني بأكثر متانة.

فكنت أقول في قرارة نفسي: «فليكن ذاك حالاً، ليكن حالاّ!»، ومن اللّفظ كنت أمشي إلى القرار، كنت أكاد أن أفعل ولم أكن أفعل، لكن لم أكن أسقط في هوّة حياتي القديمة، بل كنت أقف على حافتها وأتنفّس الصعداء. وكنت أعيد الكرّة، كنت على قاب قوسين أو أدنى من الهدف، أجل، قريبا من الهدف، كنت قد وصلت بعدُ إليه، وكنت أمسك به. كلاّ، لم أصل إليه، ولم أمسك به، كنت متردّدا في الموت أمام الموت، وفي الحياة أمام الحياة. وكان الشرّ المتأصّل فيّ أكثر قوّة من الخير الجديد، وبقدر ما كانت البرهة التي كنت سأتغيّر فيها تقترب أكثر، كانت تبعث فيّ رعبا شديدا، لكنها لم تكن تُثنِيَنِي عنِ السيْرِ، ولا تردُّني إلى الوراء، بل كانت تتركني معلّقا بين بين.

26. ما كان يشدني هو ترّهات التّرّهات وتفاهات التّفاهات وصديقاتي القديمات اللائي كنّ يجذبنني من تحت من ثيابي اللّحميّ، وكنّ يهمسن لي بصوت خافت: «أتطرُدُنا؟» «من هذه اللّحظة، لن نكون معك، إلى الأبد!»، و«من هذه اللّحظة، لن يُسْمَحَ لك بهذا وبذلك، إلى الأبد!»(1). ما هي الأشياء التي كانت تشير إليها بقولك «بهَذَا وَبِذلِكَ»، ما هي الأشياء التي كنت تشير إليها، إلـهي؟ فلتمْحُهاَ شفقَتُكَ من روح خادمك! يالها من أدناسٍ، يالها من أعوار كنتَ تشير إليها! وكنت لا أكاد أسمع صوتها،

---

(1)... in aeternum... in aeternum = «... إلى الأبد؟»، نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة ١، هامش ص ١97: «لم يكن الأسلوب المتمثّل في تشخيص الأشياء بالأمر الغريب عن الأدب اليوناني... وقَبله الذوق الروماني منذ زمن بعيد؛ ولنذْكر على سبيل المثال التجريدات المؤلّهة الكثيرة العدد في الديانة الرومانية؛... وفي الأدب المسيحيّ صورة «الصبر» la Patience كما رسمها بصورة سريعة «تارتوليان» Tertullien... وعددا كبيرا من عمليات النقل الأخرى».

لأنها لم تكن تعترضني في الطريق وجها لوجه، بل كانت تتمتم في ظهري وتلاحقني خفية، وأنا أبتعد عنها، كي أدير إليها البصر. كانت مع ذلك تجعلني أتأنّى وأتردّد في نبذِهَا، والإفلات منها، كي أواصل السير حيث كنت مدعوّا، والحال أنّ العادة القاسية تقول لي: «أتَظنُّ أنّك تستطيع الحيَاةَ بِدُونِها؟»

27. لكنها أصبحت بعدُ لا تكلّمني إلّا بصوتٍ خافتٍ جدّا، لأنه من الجهة التي كنت أقبل إليها وجهي، والتي كنت أخشى أن أسير إليها، كانت تتجلّى العزّة العفيفة في طهارة النفس، صافية ضاحكة بدون أية خلاعة، ملامسةً إياي بالورع، كي أذهب إليها، ولا أتريّث، باسطة ذراعيها التّقيّتيَن المليئتَيْن بكثير من الأمثلة الطيّبة لتقبّلني وتعانقني. وكم فيها من الأطفال والصبايا! وكم فيها من الشبّان من جميع الأعمار، ومن الأرامل الموقّرات، والعَوَانس؛ وليست العفّة، في حدّ ذاتها، في جميعهم عقيمةً، بل هي الأمّ النّثُورُ لأبناء السعادة أنجبتهم منك أنت بعلها، يا مولاي.

وكانت تبتسم ابتسامة ساخرة مشجّعة، كما لو كانت تقول: «ألا تستطيع ما استطاعه هؤلاء الأطفال وهؤلاء النسوة؟ وهل يستطيع هؤلاء رجالاً ونساءً ذلك بذاتهم، لا بالمولى، إلـٰههم؟ المولى إلـٰههم، هو الذي وهبني لهم. لِمَ تتوكّأ على ذاتك، وتتمايل؟ ألقِ بنفسَك نحوه ولا تخف، سوف لن يختفيَ ويتركك تقعُ: إرْمِ بنفسك في أمان، وسيتقبّلك ويداويك!» وكنت أخجل كثيرا، لأنّي كنت لا أزال أسمع همسات تلك الترّهات، وكنتُ معلّقا، متردّدا للغاية. وتوجّهت هي إليّ ثانية وكأنّها تقول: «كن أصمَّ لأدناس جسدك على الأرض، حتّى يموت فيك الجسد! فـ«الملاذّ التي ترويها لَكَ، ليست كملاذّ قَانُونِ المولى، إلـٰهِك». كلّ هذا الصراع كان يجري في قلبي. لم يكن إلّا صراعا بين نفسي ونفسي. أمّا أليبِيُوسُ القابع حذوي فكان يترقّب صامتا مآل أزمتي غير المعتادة.

28.XII. ولمّا جرّ إليّ تفحّص متعمّق في أعماق نفسي، كلَّ شقائي وجمَّعه «بِمَرْأًى» من قلبي، نشأت فيّ عاصفةٌ عاتية جلبت وابلا من الدّموع. ولكي أجعل العاصفة تهدأ وسط صخبها، وقفت وابتعدتُ عن أليبيوسَ. كنت أرغب في الوحدة لأطلق العنان للبكاء. وانسحبتُ إلى مكان بعيد لا يمكن أن يضايقني فيه حضوره.

كانت تلك حالي آنذاك، وقد شعر هو بحالي، لأنني أطلقت كلاما نسيت ما هو، كانت نبراته مثقلة بالنحيب. كنت قد نهضت واقفا. وبقي هو حيث كنّا جالسيْن مروّعا

جدّا. أمّا أنا فتمدّدت تحت إحدى أشجار التّين، لا أدري كيف، وأطلقت العنان للدّموع فتدفّقت عيناي أنهارا غزيرة، تدفقت قربانا جديرا بتقبّلك. وخاطبتك قائلا، لا حرفيّا، بل ما معناه : «وأنْتَ، موْلاَيَ، حتّى متَى؟ حتَّى متَى، موْلايَ، ستَغْضَبُ، وإلى أيّ حَدٍّ؟ لا تَكُنْ مُتَذَكِّرًا لأَصْنافِ جَوْرِنَا القَدِيم.» إذ كنت أشعر أنّي لا أزال أسيرا لها. كنت ألقي صيحات شقيّة : «في أيّ مدًى، ومتى سيكون «غدًا» هذا؟ لِمَ لا يكون حالاً؟ لِمَ لا تكون في هذه الساعة نهاية خِسَّتِي (turpitudinis = ma honte)؟»

29. كنت أقول هذا الكلام، وكنت أبكي بسبب انسحاق قلبي المرير ((amarissima contritione = toute l'amertume (de mon cœur broyé). ها أنذا أسمع من المنزل المجاور، صوت صبيّ أو صبيّة، لست أدري، يغنّي مردّدا : «خُذْ، اِقْرَأْ، خُذْ، اِقْرَأْ.» (Tolle, lege!) وعلى الفور، حاولت أن أتذكر، بكلّ اهتمام، وقد تغيّر وجهي هل ما سمعته غناء من غناء الصبيان كانوا عادة يرددونه في بعض ألعابهم. لا أتذكّر البتّة أنّي سمعت شيئا من هذا القبيل، وبعد أن كبحْتُ جماح دموعي، رأيت أنّي لم أتلق أمرا إلـهيا آخر غير أن أفتح الكتاب[1] (codicem)، وأن أقرأ أوّل باب أجده فيه. فقد بلغني بشان أَنطُونيُوسَ (de Antonio = au sujet d'Antoine) أنّه قد اتفق له ذات يوم، أثناء قراءة الإنْجِيلِ، أن يعتبر الكلام التالي نذيرا وتنبيها له : «اِذهَبْ، بِعْ كُلَّ ما تمْلِكُ، أَعْطِهِ للفقَراءِ، وسَوْفَ تَمْلِكُ كَنْزًا في السَمَوَاتِ، وجِىءْ، واتْبَعْنِي»، وأنّه اهتدى إليك توًّا بهذا الوحي (tali oraculo = (par) un tel oracle). لذلك أسرعت بالعودة إلى ذلك المكان، الذي كان أليبوسُ جالسا به : إذ إنّي كنتُ قد وضعتُ هناك كتاب الحواريّ عندما نهضت منه، وأمسكته،وفتحته، وقرأت في صمت أول باب وقعت عليه عيناي[2] : «لا تَعِيشُوا فِي المَآدِبِ والْحَمَاسَاتِ، ولاَ فِي الْمُضَاجَعَاتِ وَالفُجُورَاتِ، ولاَ فِي الْخِصَامِ وَالْغَيْرَةِ، بَلِ الْبَسُوا المَوْلى اليَسُوعَ المَسِيحَ، وَلاَ تُحَاوِلُوا إرْضَاءِ اللَّحْمِ، في غُلْمَاتِهِ». لَمْ أرد أن أقرأ أكثر، فلم أكن في حاجة إلى ذلك، فما أن انتهيتُ، لعمريَ، من هذه الجمل، حتّى انتشر في قلبي ما يشبه نور الأمان، وانقشعت كلّ ظلمات الشكّ.

---

(1) يعني كتاب الحواري (le livre de l'Apôtre)

(2)...quo...coniecti sunt oculi mei ... = «حيث اتجهتْ عيناي». نفس المرجع،الكتاب الثامن، الملاحظة1، هامش ص 200: «الأمر الغريب في الرسالة LV, 37 التي بعث بها أغستسينوس بعد سنة أو سنتين من نشر الاعترافات، إلى «إيانواروس» Ianuarius أنّه يستنكر عادة القرعة (sortes legere) في الإنجيل؛ ومن الواضح أنّ الاستشارات التي يستنكرها تتعلق بمصالح مادية صرف. (negotia saecularia)».

30. آنذاك، بعد أن وضعت علامة إمّا بإصبعي أو علامة أخرى لا أدري ما هي بين صفحات الكتاب، أغلقته وأخبرت بوجه هادئ أَلِيبْيُوسَ بالأمر. فأخبرني، بدوره، بما كان يقع في نفسه ولا علم لي به. طلب أن أطلعه على ما قرأت، فأطلعته عليه، وقرأ أيضا أكثر مما قرأت، وكنت أجهل بقية ما قرأ. وجاء في تلك البقية : «وأَمَّا الضَّعِيفَ فَآزِرُوه فِي الْعَقِيدَةِ». وذاك ما ردّه إلى ذاته وما فاتحني به. وبرسوخ عزيمته بهذا التّنبيه، على هذا القرار الطيّب الملائم كل الملاءمة لأخلاقه العفيفة التي كنت بعيدا عنها كل البعد منذ زمن قديم جدّا، انضمَّ إليّ دون تردّد ودون اضطراب.

ومن ثمة ذهبنا إلى أمّي نزف إليها الخبر ففرحت له. روينا لها كيف وقع الأمر، فهللتْ وانتصرت، وكانت تحمدك أنت، «الذي هُوَ قَادِرٌ علَى أنْ تَفْعَلَ أَكْثَرَ ممَّا نَطْلُبُ أو ممّا نُفَكِّرُ في فِعْلِهِ»، لأنّها كانت ترى أنّك منَحْتَها فيَّ أكثر بكثير، ممّا تعوّدت أن تطلبه منك بتأوّهاتها ونحيبها المثير للشّفقة. لقد هديتني إليك هداية خالصة، جعلتني أعرض عن طلب الزوجة، وعن كلّ أمل دنيويّ، ثابتا على ذلك القانون من **عقيدتي التي كنت قد كشفتها لأمي في بعض رؤاها**[1]، منذ عدّة سنين خلت، و«حوَّلْتَ حِدَادَهَا إِلى فَرَحٍ» أشد بكثير ممّا كانت أرادته، وأعزّ بكثير، وأعفّ، ممّا كانت تترقّبه من أحفادها، أي من لحمي.

(1) يحيل «ب. دي لابريول» P. DE LABRIOLLE هنا على ملاحظة من الكتاب الثالث الفقرة XI, 19، المتعلق بحلم مونيكا والذي جاء فيه : حسب كتاب «الردّ على الأكاديميين» (Contra Academicos) II, II, 3 يبدو أنّ أوغستينوس عاش في مدينة تاغست ذاتها في بيت صديقه «رومنيانوس»، Romanianus إلى أن سمحت له أمّه «مونيكا» بالعودة إلى الإقامة معها. انظر الصفحة 61 من المجلد الأول. ولنضف إلى ما تقدّم العبارة الأغوستينية **même… fidei, in qua me... ei reuelaueras**, = (ذلك) الإيمان الذي أبداني فيه وحيُك (واقفا بين يديْ أمّي). وفي هذا الموضع نتبين المنزلة الخارقة للعادة في نهاية هذا الكتاب الثامن، والدلالة البعيدة الرمزية للرابط الذي لا ينفصم بين مصيريْ أوغستينوس ومونيكا. فالأمّ تدعو الابن لاعتناق الديانة.

الكتاب التاسع

1.I. «يا مولاي، أنا خادمك، أنا خادِمُك وابن أَمَتِك، لقد حطّمتَ قيودي، إليك سأعقر قربان المديح». فليحمدك قلبي ولساني، ولتكلّمك عظامي جمعاء ولتقل لك: «مولانا من هو شبيه بك؟» أجبني أنت وقل لروحي: «فيّ أنا نجاتُك».

ماذا كنتُ أنا، ومنْ كنت؟ أيَّ شرّ جعلتُ في أفعالي، وإن لم يكن في أفعالي، ففي أقوالي، أو إن لم يكن في أقوالي ففي إرادتي؟ أمّا أنت، يا مولاي، فقد كنت الطيب والمشفق، وسبرت بنظرتك عمق موتي، واستأصلت بيمناك، من قاع قلبي، هوة الفساد، وكان كل ذلك كي لا أريد ما كنتُ أريده، وكي أريد ما كنتَ تريده.

لكن أين كانت حريّة اختياري خلال تلك السنين الطويلة؟ ومن أيّة خلوة بعيدة عميقة استرجعتها في لحظة؟ لأخفض عنقي لنيرك اللين وكتفيّ لعبئك الخفيف، أيّها المسيح اليسوع «مُعيني ومنقذي»! يا لها من عذوبة نشأت في نفسي الجائعة لعذوبات طيْشي، وكنت أخشى أن أفقدها، فإذا أنا أفرح بطردها وفقدانها![1] وأنت الذي كنت تبعدها عني، أنت العذوبة الحقّ والعذوبة القصوى، لتخرجها مني وتحلّ مكانها، يا ألذّ مِن كلّ لذة، لكنها ليست لذة اللحم والجسد، يا أسطع من كل نور، ولكنك أعمق سريرة من كلّ سرّ، يا أسمى من كلّ شرف، ولكن ليس لدى طالبي هذا الشرف

---

(1)... dimittere gaudium erat = «أفرح بطردها الاعترافات»، الكتاب التاسع، المجلد الثاني ص 209 الملاحظة 1. قارن بين هذه الحالة النفسية وحيرته في السابق: « لا أرى إلّا أناسا يعتبرون من المستحيل ما عجزوا عن تحقيقه. فمذاهبنا رفيعة جدّا... وتتجاوز قدرة البشر. آه! كم أكنّ لها من التقدير أكثر ممّا يكنّون! هم أيضا قادرون، لكنّهم لا يريدون. هل كشفت المحاولات التي نطالبهم بها عن الذين حاولوا القيام بها؟... » سيناك» Sénèque. (Ad Luc. = A Lucilius CIV, 25).

أنفسِهم. كان قلبي حرّا بعدُ من الهواجس الملحّة للطموح والثّراء والتمّرغ في الملاذّ والاحتكاك بجربها (scabiem = la lèpre ou la gale)، وكنت أثغثغ إليك أنت، أنت نوري وثروتي ونجاتي، أنت مولاي وإلـٰهي.

II.2. وقرّرت «بمرأى منك» ألا أُعرض في جلبة عن وظيفة لساني، بل أن أسحبه بلطف من سوق الثرثرة، كي لا أجعل صبيانا لا يفكّرون في قانونك ولا في سلْمك بل في حماقات كاذبة وفي حروب بالساحة العموميّة (bella forensia = batailles de forum) يشترون بفمي أسلحة لجنونهم.

ومن حسن الحظ لم تكن تفصلني عن عطلة قطف العنب إلّا أيام قليلة جدّا. وعزمت على تحمّلها كي أنسحب حسب العادة؛ لكن بعد خلاصي بفضلك لن أعرض نفسي للبيع ثانية (uenalis me = me vendre moi – même).

إذن هذا ما عقدت العزم عليه بين يديك، لم يكن يعرفه من الناس إلّا المقربون منّا، وقد كان تمّ الاتفاق بيننا ألّا نفشي منه لأحد من العموم شيئا، ولو أنّك «كنت قد أعطيتنا، ونحن صاعدون وادي النُواحِ نغنّي نشيد المدارج، سهاما حادّة وجمرات ملتهبة ضد اللسان الماكر» الذي يعارضَ بتعلّة النصح، ويغرق الناس بحبه، كما يفعل عادة بلون الطعام الذي يحبّه.

3. كنت قد خرقت بسهامك الحبيبة قلبنا، وكنا نحمل كلماتك مغروزة في الأحشاء، وأمثلة خدّامك الذين كنت قد حوّلتهم من الظلام إلى الضياء، ومن الموت إلى الحياة، تجمّعت في أعماق فكرنا لتحرق فتورنا الشديد وتلهبه، حتى لا ننحنيَ نحو الأشياءالسفليّة. وكنا نشعر بشدة لهبها، حتى أنّ كل رياح المعارضة في «اللسان الماكر» كانت قادرة على بعث الحماس فينا أكثر من أن تطفئه.

ولكن مع ذلك، فبسبب اسمك الذي مجّدته عبر الكون، كان يوجد بالطبع مادحون لأمنيتي ولمذهبي في الحياة. فقد كان يبدو فيه ما يشبه التبجّح، إن لم أنتظر زمن العطلة القريب للغاية، فالإعراض المبكّر عن وظيفة عمومية يتطلّع إليها الجميع كأنّي به يجلب كل الأنظار إلى عملي الذي أردت أن أستبق به عيد قطف العنب القادم، بحيث سيقول القوم فيه كلاما كثيرا، وسيقولون بالخصوص إنّي كنت راغبا في التباهي بنفسي، لِم أعرّض للنقاش والخصومات وجهتي الخاصّة، ولِم «أدنّس خيري»؟

4. أضف إلى ذلك أنّي في نفس الصائفة وبسبب انكبابي المفرط على التدريس، كنت قد أخذت أحسّ بضعف في رئتيّ. كنت أتنفس بصعوبة، وكانت الجروح التي

تدلّ عليها آلام صدري تمنعني من أن يكون صوتي جهوريّا واضحا، كان ذلك قد أحبطني أوّلا، لأنّه كاد يرغمني على التخلي عن عبء مهمة التدريس تلك، أو على التوّقف عنها مؤقتا، إلى أن يقدّر لي أن أشفى وأستردّ قواي. لكن عندما تكوّنت فيّ كامل الإرادة وتقوّت وتقوّت «لأصرف الوقت لرؤية كونك المولى» شعرتُ كما تعلم، بالفرحة لأنه كانت لي حجّة صادقة أقدر أن أخفّف بها استنكار الناس الذين كانوا يريدون أن يحتكروني لصالح أبنائهم.

لذلك ونظرا لامتلائي بهذه الفرحة، قابلت نهاية تلك المهلة الزمنية بالإذعان - ولا أدري أكانت ستدوم عشرين يوما - لكن هذا الإذعان كان ثقيلا على نفسي، بسبب فتور الرّغبة في الرّبح التي كنت عادة أصبر بها على هذه المهمة الشاقة، ولو لم يحلّ الصبر محلها لبقيت مرهقا بها.

قد يقول بعض خدّامك إني أذنبت في هذا، بما أنّي قبلت أن أبقى ساعة أخرى على كرسي الكذب، وأنا مفعم القلب بخدمتك. أمّا أنا فلا أجادل في هذا. لكنك، يا مولاي، شديد الشفقة، ألم تغفر لي وتمحُ عني بالماء المقّدس هذا الإثم مع جميع الذنوب الأخرى المقيتة المميتة؟

5.III. كانت سعادتنا تملأ ويريكُنْدُوس (Verecundus) همّا وغمّا، كان يرى أنّ قيوده التي كانت تكبله تبعده عن جمعنا. لم يصبح مسيحيّا بعدُ، في حين أنّ زوجته كانت مسيحية: لقد كانت حجر العثرة في طريقه إلى الطريق الذي انتهجناه، وكان يقول إنّه لا يريد أن يكون مسيحيا بغير الصورة التي كانت محظورة عليه.

ومع ذلك فقد عرض علينا بقلب طيّب أن نبقى في بيته، طيلة المدة التي نريد أن نقضيها فيه. وستجازيه، مولاي، يوم يُبعث العادلون. وقد جازيته بعد نفسَ الجزاء، إذ عند غيابنا، لما كنّا في روما، أصيب بمرض عضال، وأصبح في مرضه مسيحيا واعتنق المسيح، وغادر هذه الحياة. فهكذا لم تشفق عليه فحسب، بل وعلينا كذلك، حتى لا نتعذّب عذابا لا يطاق، ونحن نذكر إنسانية الصديق تجاهنا، دون أن نستطيع عدّه ضمن قطيعك.

حمدا لك إلـهنا، فنحن مِلك لك. علامة ذلك عِظَاتُك وعزاؤك. في وفائك بوعودك، ستهب ويريكُنْدُوس، بدل تلك الضيعة الكائنة بكسيسياكُوم (Cassiciaco = Cassiciacum)[1] حيث استرحنا في كنفك من قيظ الحياة الدنيا، فتنةَ جنتك الدائمة

---

(1) المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 212 الملاحظة 1. تمّ البحث عن بلدة «كاسّيسياوم» =

الخضرةِ، بما أنك غفرت له ذنوبه على الأرض، ووضعته «على الجبل الدّسم، جبلك، الجبل الخصب».

6. إذن كان ويريكندوس آنذاك مغتمّا، بينما كان نِبْريديوس (Nebridius) يشاركنا غبطتنا. ومع ذلك فهو لم يكن بعدُ مسيحيا، وكان قد سقط في هوّةِ أسوإ خطإ لاعتقاده أنّ لحم الحقيقة أي ابنَك وهمٌ، لكنّه تنصّل من هذا الرأي وكان يقف الموقف التالي: لم يكن متشبعا بأسرار كنيستك، ومع ذلك كان الباحث الأكثر حماسا عن الحقيقة. وبعد زمن قصير من اهتدائنا إليك وإحيائنا بالتّنصير، جعلته هو أيضا كاثوليكيا معتنقا المسيح، خادما إياك في عفّة فائقة واعتدال في إفريقيا (in Africa = en Afrique) بين ذويه، فأصبحت عائلته كلها بواسطته مسيحيّة، ثم خلّصتَه أنت من حياة الجسد.

فهو يعيش الآن «في أحضان إبراهيم» (Abraham)[1]، مهما كان مدلول عبارة الأحضان (illo... sinu = le sein))، هناك يعيش عزيزي نِبْريديُوس صديقي اللطيف الذي صار ابنك بالتبني (adoptiuus = adoptif)، بعد أن كان معتوقا (ex liberto = d'affranchi): هناك كان يعيش. فأي مكان آخر يليق بمثل روحه؟ يعيش في ذلك المكان، الذي كان يسألني عنه كثيرا، أنا الإنسان الضعيف الخالي من الخبرة؛ لم يعد يقرّب أذنه من فمي، بل يضع فمه الرّوحيّ قرب منهلك، وينهل، قدرَ ما يستطيع، الحكمة وفق عطشه، سعيدا دون حدّ! لكني لا أخاله ينتشي منها حتى ينساني، بما أنّك، مولاي، أنت الذي يشربك، تتذكرنا.

إذن كنّا هكذا نسلي لويريكندوس الممتعض من اهتدائنا هذا (= conuersione conversion)، دون مساس بما بيننا من صداقة، حاثّين إيّاه على القيام بواجبه الزوجي بإخلاص، مترقّبين من ناحية أخرى الوقت الذي قد يلتحق فيه نِبْريديُوس بنا. وكان ذلك ممكنا لشدة قربه منا، وكان يحس أن قراره يقوى رويدا رويدا، وها هي أخيرا تلك الأيام تمرّ، تلك الأيام التي كانت تبدو لي طويلة وكثيرة مقارنة بحبّي للحرية والتغني فيها من صميم جوارحي بـ: «لك قال قلبي: بحثت عن وجهك، أنا يا مولاي، أريد وجهك».

= Cassiciaum في ضواحي مدينة ميلانو. ويرجّح السيد «لويس بارتران» Louis Bertrand (حول القديس أوغستينوس، باريس...) بعد البحث والتحرّي على عين المكان، أنّها بلدة Cassago di Brianza التي تبعد 33 كلم عن مدينة ميلانو».

(1) المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 212 الملاحظة 2: «تتضمّن رسائل أوغستينوس في أكثر من موضع أثر تردّده بشأن المعنى الحقيقي لهذه العبارة. انظر الرسائل، الرسالة 164، 6ـ7 وكذلك 187 7ـ8، إلخ....».

7.IV. وأتى اليوم الذي سأتخلّص فيه بالفعل من وظيفة البلاغيّ التي كنت قد تخلصت بعدُ منها بالفكر، وتمّ ذلك، وحرّرت لساني، كما كنت قد حررت بعدُ قلبي، وكنت أحمدك في الغبطة، وأنا ذاهب، مع كلّ أقاربي، إلى المنزل الريفي.

أما ما صرفت إليه بعدُ مواهبي الأدبية، خدمة مني لك، ولكن في لهاث لا يزال به غرور المدرسة،كالمصارع عند الاستراحة، فتشهد به حواراتي مع أصدقائي ومع نفسي ذاتها أمامك فقط، وأما ما كان لي مع نِبْرِيدِيُوسَ وهو آنذاك غائب، فتشهد عليه رسائلي[1].

ومتى أجد متسعا من الوقت لذكر كل فضائلك تجاهي، خاصة في ذلك الوقت البعيد، لأني متطلع إلى الانتقال بسرعة إلى فضائل أخرى أعظم منها؟ ذاكرتي تعود بي إلى تلك الأيام، ويحلو لي، مولاي، أن أعترف لك بأية مناخس داخلية سيطرتَ عليّ كليّا، وكيف سوّيتَ كالبساط جبال أفكاري وتلالها، وكيف قوّمت اعوجاج طرقاتي، وسهّلت أوعاري بنفس الصورة وكيف أخضعت بها أليبيوس ذاته، أخ قلبي، لاسم ابنك الوحيد «مولانا ومنجّينا اليسوع المسيح» الذي كنت أكره أن أحشر احتقاره في كتاباتي. كان يفضّل أن يستنشق فيها رائحة «أشجار الأرْز» (cedros = cèdres) التي «كسّرها» المولى بعدُ، عوضا عن الأعشاب المنجّية لكنيستك الحامية من سمّ الأفاعي.

8. إلـهي! ما أقوى الصيحات التي وجّهتُها إليك، وأنا أرتّل مزامير داود، أناشيد الإيمان وأغاني التّقوى النابذة لروح الصلف، مُتَرهْبِنًا في حبّك الحق بعدُ، مريدا التنصّر في بيت ريفيّ، لاهيا فيه مع أليبيوس المريد للتنصّر، صحبة أمي ذات اللباس النسائي والعقيدة الرجولية وثقة المسنّات وحنان الأمهات وتقوى المسيحيّات! ما أقوى الصيحات التي كنت أوجّهها إليك في تراتيل تلك المزامير! وكم كنت أتّقد حبّا فيك من جرّائها، وأضطرم وأنا أتلوها، لو استطعت، إلى الكون كله، مناهضا كبرياء الجنس البشري! ومع ذلك فهي تغّنى في الكون كله، ولا يوجد أحد «ليتهرب من حرارتها». كم كنت أسخط في ألم حادّ مُرّ على المانوّيين، ثم أنقلب لأشفقَ عليهم، بسبب جهلهم تلك الأسرار وتلك الأدوية، ولرفضهم في صخب جنوني ترْيَاقا كانوا يستعيدون به الصحة[2]! كنت أودّ لو أنهم كانوا بالقرب منّي الآن، في مكان ما، ودون أن

(1) المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 214 الملاحظة 1: الرسائل 3 و4 و7 و9-14 وجّهها أوغستينوس إلى «نبريديوس» Nébridius وقد احتفظ بالرسائل 5 و6 و8، وهي لا تمثل إلّا عددا قليلا من الرسائل التي تمّ تبادلها والتي كانت زاخرة بالنقاشات الفلسفية»...

, testantur epistulae = كما تشهد على ذلك رسائلنا.

(2)... quo sani esse potuissent! = يستعيدون به الصحة! المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص =

أكون على علم بوجودهم فيه، ولو أنهم نظروا إلى محيّايَ وسمعوا كلماتي عندما كنت أقرأ المزمُور الرابع (psalmum = le Psaume) في ذلك الوقت من الفراغ، فيفهمون ما فعله بي ذلك المزمور: «لما ناديتك، أصغيتَ إليّ، يا إله عدالتي، في محنتي أرحتني، أشفق عليّ، مولاي، وأصغ إلى دعائي!» فليسمعوني، دون أن أكون على علم بذلك، حتى لا يظنوا أني بسببهم أقول تلك الكلمات التي قلتها خلال تلاوة المزمور الرابع، لأني ما كنت لأقولها حقًا لا كما هي، ولا كما كنت أقولها، لو شعرت بكونهم يسمعونني ويرونني. ولو قلتها على نفس الصورة، لما كانوا ليتقبلوها كما أقولها لنفسي وفي نفسي، أمامك، في قرارة عاطفة قلبي.

9. اقشعررت خوفا، وفي الآن نفسه اتّقدت أملا وابتهاجا «بشفقتك»، يا أبي. وكل هذا كان بارزا في عينيّ وفي صوتي، عندما كان روحك الطيب يخاطبنا قائلا لنا: «أيا أبناء البشر، حتى متى تكونون مُثقلي القلوب؟ لِمَ تحبون الغرور وتبحثون عن البهتان؟» إذ كنتُ قد أحببت الغرور وبحثتُ عن البهتان. وأنت، مولاي، «كنتَ قد مجّدتَ بعد قديسك، باعثا إياه من بين الموتى ومنصّبا إيّاه على يُمناك» كي يرسل من عليائه موعود «البارقليط»، «روح الحقّ» (Paracletum = le Paraclet). وكان قد أرسله بعدُ، لكني لم أكن أعلم ذلك، لقد أرسله لأنه كان قد مجّده، وأحياه من بين الموتى، ورفعه إلى السماء، لأنه «لئن كان الروح لم يعط بعدُ فلأن اليسوع لم يمجّد بعدُ». وصاح الرسول قائلا: «حتى متى تكونون مثقلي القلوب؟ لِمَ تحبّون الغرور وتبحثون عن البهتان؟ اعلموا أن المولى مَجّد قدّيسه». يصيح فينا قائلا: «حتى متى؟»، يصيح فينا: «اعلموا!»، أما أنا فخلال مدة طويلة «عن جهل» أحببت الغرورَ، وبحثت عن البهتان. لذلك ارتعشت وأنا أستمع إليه لأني كنت أتذكر أني كنت شبيها بأولئك الذين يوجه إليهم هذا التحذير. ففي الأوهام التي كنت أعتبرها حقيقة، كان يكمن الغرور والبهتان. ودوّت في نفسي الآهات بقوة وحدة وسط آلام التذكر. ليته قد سمعها بعد من يحبون إلى حدّ اليوم الغرور ويبحثون عن البهتان! لعلّهم كانوا يضطربون ويتقيّؤون ذلك، ولعلك كنت تستجيب لهم، لو صاحوا تجاهك قائلين: لأنّه «مات من أجلنا ميتة اللّحم الحقّ، ذلك الذي يتشفّع لنا»..

= 215 الملاحظة ١: «وفرة الاستعارات المأخوذة من السجل الطبيّ مظهر أسلوبي بارز في الأدب المسيحي في القرون الأولى».

10. كنت أقرأ: «اغضبوا ولا تُذنبوا»[1]، وكم كنت أتأثر لهذه الكلمات، يا إلـٰهي، أنا الذي كنت قد تعلمت بعدُ أن أغضب على نفسي بسبب الماضي، كي لا أذنب في المستقبل: أن أغضب غضبا مشروعا لأنه ما كانت لتغضبَ فيّ طبيعة أخرى من جنس الظلمات، كما يقول الذين لا يغضبون ضدّ أنفسهم، والذين «يكتنزون الغضب لأنفسهم ليوم الغضب، يوم حكمِك العادل»! لم تعد خيراتي خارج نفسي، ولم أعد أبحث عنها بأعين حقيقية فيَ ضوء الشمس. إن الذين يريدون أن يفرحوا بما هو خارج أنفسهم يضمحلّون بسهولة، ويسيلون على ما هو ماديّ ودنيوّي، ولا يلعق منه تفكيرهم السغبان إلّا الأوهام، آهِ! لو أنهم كَلّوا من الجوع المميت وقالوا: «من سيرينا الخير؟» لنجبهم، وليسمعونا نقول: «نور وجهك، يا مولانا، نُقش فينا كالطابع». لسنا نحن «النور الذي ينير كل إنسان» بل أنت منيرُنا، حتى نصبح «من الظلمات التي كنا فيها قديما نورا فيك» آه! لو كانوا يرون من داخلهم النور الأبدي الذي كنت قد ذقته فارتعشت، لكوني غير قادر على أن أبرزه لهم! ليتهم قدّموا لي قلوبهم المزورة عنك، والمرسومة في أعينهم، وقالوا: «من سوف يبرز لنا الخيرات»؟ فهناك انقلبت على نفسي مغتاظا، داخل المسكن الذي كنت فيه مضنى والذي عقرت فيه شيخوختي قربانا، معلّقا آمالي فيك في بداية استعدادي لحياة جديدة جذريّا، هناك كنت بدأت أحسّ بعذوبتك، و«كنت قد أعطيت الغبطة لقلبي». وكنت أهتف في تلك القراءة الخارجية بما كنت معترفا به داخليا، وما كنت أريد التشتت بين الخيرات الدنيوية، ألتهِم الزمان والزمان يلتهمني، بما أنّي كنت أجد في البساطة الأبدية «بُرا آخر وخمرة أخرى وزيتا آخر».

11. وكانت قراءة الآية الموالية تسلّ من قلبي هتافا طويلا: «آهٍ! في السِلم! آهٍ! في كيانه بالذات!» لكن ماذا قال: «سوف أنام وسوف أستسيغ النوم»؟ فمن سوف يجابهنا، عندما سيتحقق القول الذي كتب: «الموت امتُصّ في النصر»؟ أنت بحق ذلك «الكيان ذاته» أنت الذي لا تتغيّر، وفيك الاستراحة في نسيان الأتعاب كلها، بما أن لا أحد غيرك بجانبك، ولا رغبة لي في الكثير من الأشياء الأخرى التي ليست هي أنت، بل أنت، مولاي «الذي رسّختَني شخصيا في الأمل».

كنت أقرأ هذا وأضطرم، ولا أجد ما أفعله مع هؤلاء الصمّ الأموات، كنت واحدا

(1)... irascimini et nolite peccare ,... = «اغضبوا ولا تُذنبوا». المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 216 الملاحظة 1: «يقدم أوغستينوس، في موضع آخر، تفسيرين لهذه الآية: أ) إذا اتّفق أن غلبك الغضب فلينْكِزْ على الأقلّ، عقلك مثل هذا التصرّف الطائش، ب) اغضب على نفسك بسبب ذنوبك الماضية ولا تعد إلى ارتكاب ذنوب أخرى...»

منهم، آفة، نابحا بكل قواي، أعمى وعدوّا للكتب المقدسة المعسولة بعسل السماء المضيئة بضيائك، و«كنت أنسحق وأنا أفكر في أعداء كتبك المقدسة».

12. متى سأتذكّر عطلات كل تلك الأيام المشهودة؟ غير أني لم أنس ولم أكتم قسوة سياطك وسرعة شفقتك العجيبة.

كنتَ آنذاك تعذبني بآلام في الأسنان، ولما كانت تتضاعف أكثر فأكثر حتى لم أعد قادرا على الكلام، حلّ بخاطري أن أدعو ذويّ جميعا أن يتوسلوا إليك من أجلي، يا إلـه شفائي كله. وكتبت هذا على لوح، وعرضته عليهم كي يقرؤوه. وما أن جثونا على ركبتينا في هيئة المتوسّل حتى سكن الألم، ويا له من ألم! كيف اضمحل؟ لقد أزعجني، أعترف بذلك، يا مولاي وإلـهي، منذ بداية حياتي لم أعرف مثله، وفي أحشائي شعرت بتنبيهك، وفي فرحة الإيمان مدحت اسمك، وهذا الإيمان ما كان يسمح لي بالأمان في خصوص ذنوبي الماضية التي ما زالت لم يغفرها لي التّعميد.

13.V. بعد انتهاء حفلات قطف العنب نبّهت أهل ميلانو (**Mediolanenses = les Milanais**) أن يفكروا مسبقا في بائع كلام آخر لطلبتهم لأني قد اخترت أن أخدمك، ولأني لم أعد قادرا على تلك الوظيفة بسبب صعوبة في التنفس وألم في الصدر.

وأعلمتُ برسالة أسقفك أمبروزيوس الرّجل المقدّس، بأخطائي السابقة وبرغبتي الراهنة كي ينبهني إلى ما كان عليّ بالأحرى أن أقرأه من كتبك المقدسة،حتى أصبح أكثر تأهّلاً وكفاءة لتقبّل النعمة القصوى. أما هو فأمرني بقراءة الرسول إيزاي (**Esaiam = Isaïe**) لأنه، على ما أظن، أعلن بوضوح قبل الآخرين جميعا الإنجيل ونزعة الوثنيين (**Gentium = des Gentils ou Païens**)،غير أني مع ذلك، نظرا لأني لم أفهمه من أول قراءة، ولأنني كنت أظنّ جميع الناس على هذا النمط، أجّلتها إلى ما بعد في انتظار أن أتمكّن من لغة المولى تمكّنا تامّا.

14.VI. من هنا، عندما حان الوقت الذي كان لزاما عليّ فيه أن أترسّم، غادرنا الريف لنعود إلى ميلانو. أَلِيبيُوسُ قرّر هو أيضا أن يولد ثانية فيك معي، مرتديا بعدُ التواضع اللائق بأسرارك، والجسم منه كأبسل ما يكون وأقوى، حتى أنّه كان يدوس أرض إيطاليا الجليدية حافي الرجلين، في إقدام غير معهود.

ضممنا إلينا كذلك الشابّ أديُوداتوس: (**Adeodatum = son fils naturel, Adéodatus**) ذلك الابن المولود من خطيئتي الجسدية. أنت كنت قد فعلت به خيرا:

كان تقريبا في الخامسة عشرة من عمره. وكان ذكاؤه يفوق ذكاء كثير من الرجال الوقورين والمثقفين.

أعترف لك بنعمك، يا مولاي وإلـٰهي، يا خالق كل الأشياء والقادر على تقويم دمامتنا. لم يكن لي في ذلك الطفل سوى الخطيئة، وإن كنّا غذّيناه في تأديبك، فأنت الذي كنت تلهمه وليس أحد غيرك، أقرّ لك بنعمك.

هناك كتاب كتبتُه يسمّى «المُعلّم» (de Magistro = le Maître)، وكان يحاورني فيه. أنت تعلم أنّ جميع الآراء التي نسبتها إلى مخاطبي هي آراؤه عندما كان في السادسة عشرة من عمره. لقد عرفت منه أشياء أخرى أكثر عجبا. كانت عبقريته تبعث في نفسي فظاعة مقدسة. ترى من عداك يمكن أن يكون صانع مثل تلك المعجزات؟

سرعان ما رفعت حياته من الأرض، فصرت أتذكّره في أمان أكبر دون أيّ خوف على صباه وعلى مراهقته وعلى جميع ما فيه من ضعف البشر.

اقترنّا به إذن، كان مزامنا لنا في نعمتك، وكنا نريد تنشئته على تأديبك، وتلقينا التعميد، فراح عنّا قلقنا وحزننا بخصوص الحياة الماضية.

وما كنت لأشفيَ في تلك الأيام غليلي من العذوبة العجيبة، وأنا أتأمل رفعة تصميمك في شأن نجاة الجنس البشري. كم بكيت لأناشيدك ومزاميرك، متأثرا أيّما تأثّر بالأصوات العذبة المدوّية في كنيستك! تلك الأصوات كانت تنصبّ في أذنيّ، فكان الحق ينسكب في قلبي، وكانت مشاعر التّقوى تتّقد منه فيّ، وكانت الدموع تنهمر من عينيّ، ومع ذلك كان لي في الدموع لذّة.

15.VII. كانت كنيسة ميلانو قد بدأت منذ وقت غير بعيد في تقديم هذا النوع من السلّوان والوعظ، وكان الإخوان يغنّون في حماس كبير، وأصواتهم وقلوبهم متّحدة. كان ذلك ربما منذ سنة أو أكثر بقليل، عندما كانتْ يُوستينا (Iustina = Justine) أمّ الإمبراطور الصغير والنتينيانوس (Valentiniani = Valentinien) التي كانت قد فُتنت بالأريانيين (ab Arrianis = par les Arriens) تضطهد أمبروزيوس عبدك بسبب بدعتهم. كان الشعب التقيّ ينام في الكنيسة، مستعدّا للموت مع أسقفه، خادمك. وهناك أصبحت أمّي، خادمتك القائمة بالدور الأوّل في الحميّة وفي السهر، لا تعيش إلّا للصلوات. نحن، وإن كنّا حتى ذلك الوقت غير متأثرين بروحك الحامية، كانت المدينة تثير فينا البهتة والدهشة[1].

---

(1) ciuitate adtonita atque turbata ... = ... البهتة والدهشة. المرجع نفسه الكتاب التاسع، =

عندئذ تقرر أن تُغنى الأناشيد والمزامير، كما هي الحال في المشرق، مخافة أن يفتر الشعب من شدة الضجر والغمّ: ومن ذلك الوقت إلى يومنا هذا، حفظتْ هذه العادة وقلّدتْها أيضا، في بقية أصقاع الكون، كل قطعان رعاياك تقريبا.

16. عند ذاك كشفتَ عن طريق الرؤيا لأسقفك المذكور، المكان الذي دُفن فيه جسما الشهيدين بروتازيوس وجرفيزيوس **(Protasi et Gervasi = Protais et Gervais)** اللذيْن حفظتهما مدة سنين طويلة غير متعفّنين في كنز سرك، حتى تخرجهما منه في الإبّان، لتكبح جماح حنق امرأة هي أيضا إمبراطورة! فعندما أخرجا علَنا من قبريهما ونقلا في حفل بهيج نحو البازيليكية الأمبروزيّة، **(ad Ambrosiam basilicam = à la basilique ambrosienne)**، لم يكن فقط الممسوسون الذين كانت تزعجهم الأشباح الدنسة، يشفون منها، باعتراف تلك الأشباح ذاتها، بل كان هناك أيضا مواطن أصيب بالعمى منذ سنين عديدة، وكانت له شهرة كبيرة جدّا في المدينة. سأل عن سبب فرحة الشعب العارمة، فأخبروه، فنهض وطلب من مرشده أن يقوده إلى ذلك المكان. ولما أوصل، توسّل أن يسمح له بأن يمسّح بمنديله تابوت «شهيدَيْك اللذين كان موتهما نفيسا في نظرك»، وما إن فعل وقرّب المنديل من عينيه حتى فتحهما في الحال. فانتشر النبأ في كلّ مكان، فصعد إليك مديح حارّ لامع. ولئن لم يهدِ ذلك روحَ تلك العدوّة نحو سواء العقيدة، فإنه قد أجبرها على الأقل على كبح جماح رغبتها في التنكيل.

«حمدا لك، يا إلٰهي!» من أين وإلى أين جلبت لي هذه الذاكرة، حتى أعترف إليك أيضا بهذه الأحداث التي كنت قد أغفلتها، ناسيا إياها، على أهميتها؟ ولكن آنذاك، رغم أن «رائحة عطورك» كانت تفوح بهذه القوة، لم نكن «نجري» مسرعين نحوك، لذلك كان نحيبي يشتدّ أكثر وسط غناء مزاميرك، وكنت تائقا إليك قديما، وتنفست أخيرا ملء رئتيّ بقدر ما يدخل الهواء «مَنْزِلا مِن التبْن» **(in domo faenea = dans une «demeure de foin»)**.

17.VIII. أنت يا من «جعل القلوب تسكن متّحدة في منزلنا» ضممت إلينا إيووديوس **(Euodium = Evodius)** أيضا، وهو واحد من شباب مدينتنا؛ كان يشتغل في الإدارة وكيلا للإمبراطور، مهتديا إليك قبلنا، ومتعمدا، وتاركا العمل الدنيوي، ومتأهلا لخدمتك. كنا متلازمين دائما وعقدنا العزم على الإقامة معا بعزيمة مقدّسة.

= ص 220 الملاحظة 1: «انظر في هذا الشأن «بيار دي لابريول» P. DE LABRIOLLE القديس «أمبرواز» **Saint Ambroise, Paris 1908, pages 87 à 95**».

كنا نبحث عن المكان الذي تكون لنا فيه أكبر منفعة في خدمتك: كنا عائدين سويا إلى إفريقيا، وعندما وصلنا إلى بلدة أستيا، عند مصب التيبَر (**apud Ostia Tiberina = à l'embouchure du Tibre**) قضت أمي نحبها.

أمرّ على الكثير من التفاصيل، لشدّة ما أنا متلهف. تقبّل اعترافاتي وتشكراتي، يا إلـهي، مقابل النعم التي لا تحصى والتي سأسكت أيضا عنها: لكن لن أسكت عما يولد في نفسي من أفكار في خصوص تلك المرأة خادمتك التي ولدتني لحما، لأرى هذا النور الدّنيوي، لن أذكر خصالها، بل نعمك عليها. لأنها لم تخلق نفسها بنفسها ولا ربّت نفسها بنفسها: أنت خلقتها، ولم يكن أبوها ولا أمّها يعلمان ما سوف تكون بنتهما. عصا مسيحك هي التي ربّتها «على خشيتك»، أجل، تأديب ابنك الوحيد في منزل الإيمان، والعضو الطيب في كنيستك.

لم تكن تثني في تربيتها على عناية أمها بقدر ما كانت تثني على خادم عجوز كانت قد حملت أباها وهو طفل، على عادة البنات الكبيرات قليلا، حين يحملن الأطفال على ظهورهن. ويسبب هذا وبسبب الشيخوخة وعفة سلوكها، كانت محلّ احترام كبير جدّا من مواليها في البيت المسيحي. لذلك أيضا أوكلوا إليها تربية بناتهم وكانت تقوم بذلك بكل تفان. وكانت تشدّد عليهن، كلما اقتضت الحاجة ذلك، في صرامة مقدسة حازمة، وكانت في تثقيفهن ذات حذر معتدل مليء بالحصافة.

فهي لم تكن تسمح لهنّ، خارج تلك الساعات التّي كنّ يتناولن فيها غذاءهنّ الخفيف جدا على مائدة والديهن، أن يشربن حتى الماء، وإن كنّ ظامئات أيّما ظمإ، وكانت تنبههن لمغبّة تلك العادة السيئة، وتضيف قائلة حسب حكمتها: «لا تشربْن إلّا الماء، لأنكنّ لا تقدرن على الخمرة، لكن عندما ستذهبن إلى بيوت أزواجكن، وقد أصبحتن صاحبات مؤن ومخازن، ستعَفْن الماء، لكنّ عادة الشراب ستتغلب». بهذه العقلانية في النصح وهذه الصرامة في الأمر، كانت تحدث من الرغبة في هذا العمر الذي لا يزال هشا وتدرّب عطش الصبايا ذاته على الاستقامة والاعتدال، كي لا يرغبن مستقبلا في ما لا يليق بهن.

18. ولكن قد انتقل إلى نفس مونيكا خادمتِك - كما كانت هي تقصّ عليّ ذلك، أنا ابنها - ميل إلى الخمرة. فقد كان والدها يأمرها، باعتبارها البنت الرصينة، باغتراف الخمر من البرميل، فتغطّس القدح في فتحته العليا، قبل أن تصبّ النبيذ في الغرّافة. كانت تشرب منه قليلا على طرف شفتيها، لأنها لم تكن قادرة على أكثر من ذلك ولأنّ

ذوقها يرفضه، وكانت تفعل ذلك لا رغبة في النشوة بل بفعل نوع ما من النزق الفائض في ذلك العمر الذي يفور بحركات مازحة، فتقع عادة السيطرة عليه في نفوس الأطفال، بنفوذ الأبوين.

لذلك بإضافة جرعة صغيرة إلى جرعة صغيرة يوميًا – إذ «مَن يحتقر الأشياء الصغيرة يتدهور شيئا فشيئا» – كانت قد انساقت إلى تلك العادة، حتى أنها كانت تجترع بشره أقداحا من الخمرة الصافية تكاد تكون ملأى.

أين كانت آنذاك تلك العجوز الحصيفة، وأين كان ذلك الحظر الصارم؟

من كان يقوى على مقاومة هذا المرض الخفي، يا مولاي، لو لم ترعنا بطبّك؟ في غياب أبيها وأمّها ومربيتها، كنت أنت حاضرا، أنت الذي خلقتنا والذي تنادينا إليك والذي – حتى بواسطة أناس مسخرين – تجلب بعض الخير لنجاة الأرواح.

ماذا فعلت آنذاك، يا إلـٰهي؟ كيف داويتها؟ كيف شفيتها؟ ألم تخرج، من روح شخص آخر، شتيمة صلبة حادّة كالحديد الذي يُتطبّب به (**medicinale ferrum = l'acier guérisseur**)والمستخرج من مدخراتك السرية، لتجتثّ بها ذلك التعفّن دفعة واحدة؟

وكانت الخادم التي تعودت مرافقتها إلى البرميل، تشاجرت مع سيدتها الصغرى، كما يقع بين صبيّتين تُترَكان لشأنهما، فرمتها بهذه التهمة ووسمتها بالشرّيبة (**biberonne**» = **meribibulam**»[1]، وهي أمرٌ شتيمة. أمّا هي فارتجّت من جراء هذا النعت الجارح، وأدركت فظاعة عادتها واستنكرتها في الحال وتخلصت منها.

يفسدك الأصحاب بتملقهم، والأعداء كذلك كثيرا ما يصلحونك بشتائمهم. وأنت لا تجازيهم على ما أنت فاعل بهم، بل على ما كانت نيتهم تجاهك. فتلك الخادم ابتغت في حنقها أن تغيظ السيدة الصغرى، لا أن تشفيها، ولذلك قالت لها ما قالت سرا، إمّا لأنهما وُجدتا وحدهما في مكان الخصام وزمانه، أو ربّما كي لا تقع إدانتها لأنها تراخت في فضح الجانية.

---

(1) الملاحظة 1،ص 244، المرجع نفسه الكتاب التاسع: «هو المثال الوحيد المعروف من كلمة **meribibula**. هذا علاوة على كون هذه الكلمة اليتيمة (ذات الاستعمال الوحيد) تذكرنا بالكلمة **merobibus, - a, - um**، أي السكّير الذي يحبّ شرب الخمر، وقد استعملها بلاوت **Plaute** في كتابه «كوركيليو» **Curculio**. وأشار «قافيوت» **GAFFIOT** إلى ذلك ص 970، (العمود الثالث). وإليك هذه الصفة النادرة مستعملة في سياقها الأوغوستينيّ: :...**amarissima insultatione uocans meribibulam** =... قذفتها... بتلك الصفة المقيتة، صفة «الشرّيبة»».

أما أنت، يا مولاي، يا مسيّر السماء والأرض، ومبدّل مجاري السيول العميقة ومسار الأزمنة التي تخضع تقلباتها لنظام محدّد، فقد شفيت بجنون روح روحًا أخرى، وبالتمعّن في هذا المثال لن ينسب أحد إلى نفسه أنّ كلماته أصلحت شأن شخص آخر يرغب هو في إصلاح شأنه.

19.IX. إذن تربّتْ في العفّة والاعتدال، وبالأحرى تربت خاضعة بك لوالديها أكثر من خضوعها بوالديها لك، ولما أصبحت في تمام سنّ البلوغ، زوجت لبعل خدمته «كمولاها»، وحاولت أن تستهويه لك، محدّثة إياه عنك بخصالها التي كنت تجمّلها بها وتجعلها محبوبة ومحلّ إعجاب بعلها وتقديره. من ناحية أخرى، تحمّلت خياناته بصبر جعلها لا تدخل مع زوجها أبدا في أي خصام في خصوصها، إذ كانت تترقب نزول «رأفتك» عليه، حتى تتطهّر نفسه بعقيدتك.

أمّا هو فكان يمتاز بقدر كبير من طيبة القلب، لكنه كان عرضة لسوْرات الغضب. وكانت هي تعرف كيف تتحاشى مجابهة غضب بعلها، لا فقط بالفعل، بل وحتى باللفظ. فإذا رأته ثاب إلى رشده وعاد إليه هدوؤه، رأت الفرصة سانحة لتعلّل له ما فعلته، إن صادفه أن ينفعل أكثر من اللزوم. وباختصار كنتَ ترى كثيرا من السيدات (matronae = femmes ou dames)، اللائي كان بعولتهنّ أكثر لطفا، يحملن آثار اللكمات أيضا على وجوه مشوّهة. كنّ يتّهمن، في أحاديثهنّ مع صواحبهن، سلوك أزواجهنّ تجاههنّ. أما أمي فكانت تتهم لسانهنّ منبّهة إياهنّ، جادّة كالمازحة، أنّه كان عليهنّ، منذ أن أنصتن لقراءة عقد زواجهن[1]، أن يعتبرنه بمثابة الميثاق الذي أصبحن بمقتضاه خادمات لهم. لذا عليهنّ أن يتذكرن وضعهنّ (conditionis = leur condition (d'esclaves) وألّا يتكبرن على مواليهنّ وأسيادهن (dominos = leurs seigneurs et maîtres = leurs maris). أمّا الأخريات اللائي كنّ يعرفن أيّ زوج قاسٍ كانت أمّي تتحمّله، فكنّ يتعجبّن من أنهن لم يسمعن شيئا قطّ، ولم تنبّهْهُن علامة ما، إلى كون باتريسيوس والدِي قد انهال ضربا على زوجته، أو إلى كون والديَّ قد

---

(1) في الصفحة 225 من المجلد الثاني من الاعترافات نجد ما يلي: «يُقرأ عقد القران بحضور جميع الشهود، وبحضور الأبويْن عندما يزوِّجان بنتهما». ويحيلنا "دي لابريول" DE LABRIOLLE على اليمين 22 § LI بشأن هذا الشاهد الذي يؤكد فيه أوغستينوس عظمة الزواج الذي يجعل من المرأة الزوج الخاضعة للزوج. والأمر لا يتعلّق بعد بالزواج المسيحيّ الذي يعتبر ضربا من التقرّب sacrement.

تخاصما خصاما زوجيا في ما بينهما، ولو لمجرد يوم واحد. ولما كنّ يسألنها بلا كلفة عن السبب، كانت هي تخبرهنّ بطريقتها التي ذكرتها أعلاه. فاللائي اتّبعنها واختبرن صحتها شكرنها عليها، واللائي لم يتبعنها، كنّ دوما مُهانات مُعذّبات.

20. في البداية تحاملت حماتها عليها بسبب تلميحات الخادمات المغرضة. لكنها تغلّبت على ذلك بفضل المثابرة على التقدير والصبر والدّماثة حتّى أنّ حماتها أخبرت من تلقاء نفسها ابنها عن صاحبات الألسنة النمّامة اللائي كنّ يعكّرن صفو الحياة في البيت، بالدسّ بينها وبين كنّتها، وطلبت منه أن يعاقبهنّ. لذلك أطاعها هو من بعد، وسهر على تركيز الآداب العائلية، وعمل على إحداث الوئام بين أهله، مسلطا على المجرمات السياط، طبقا لإرادة مخبرتِه أمّه، ووعد بمثل ذلك الجزاء كل خادم تريد أن تنال استحسان أمّه بأن تقول بحضورها شرّا في كنّتها بأيّ شكل من الأشكال، وبما أنه لم تتجرّأ أية واحدة من الخدم من بعد على ذلك، عاشتا معا، الحماةُ والكنّةُ، في وفاق عذب يستحقّ الذّكر.

21. لأمتِك الطيبة تلك التي خلقتني في أرحامها، «يا إلٰهي ورأفتي»، كنت قد وهبت أيضا هذه الموهبة العظيمة، وهي أنها كلما وجدت نفسها أمام روحين متخالفتين ومتخاصمتين، تقدمت من أجل المصالحة بينهما: فإذا سمعت عدوّتين تقول كل واحدة في الأخرى الكثير من مُرّ الاتهامات التي يقولها عادة أهل الشقاق المتورّم بالشكاوى، وعندما تحدّث بعضهن بالنميمة صديقةً لها بشأن عدوّة غائبة[1] في شكل مُسارّات لاذعة، لم تكن أمّي مع ذلك تنقل للواحدة عن الأخرى إلّا ما من شأنه أن يصلح ذات البين.

هذا السلوك كان يبدو لي شيمة حقيرة، لكنني أعلم عن تجربة بائسة أن أفواجا لا تحصى من الناس، لا أدري بفعل أيّة عدوى فظيعة من الخطايا المنتشرة أيما انتشار، لا ينقلون فقط إلى الأعداء الغاضبين الأقوال التي قالها الأعداء في حالة غضب، بل ويضيفون إليها ما لم يقولوه أيضا، والحال أنه بالعكس يجب على الإنسان «الحق» الجدير بهذا الاسم (**homini humano = un homme vraiment digne de ce nom**) اعتبار تغذية عداوات الناس وتقويتها بالكلام السيء شيئا تافها، هذا إن هو لم يجتهد أيضا في إخمادها بالكلام الطيب.

هكذا كانت أمّي، وأنت معلّمها ومدرّسها الذي سوّيتها هكذا في قرار مدرسة صدرها.

22. وانتهى بها الأمر أيضا إلى أن استمالت إليك من بعدُ بعلَها في نهاية حياته الدّنيوية، وبعد أن أصبح مسيحيا لم تتذمّر مما كانت قد تحملته منه، عندما كان غير

مسيحي. كانت كذلك «خادمَ خادمِك»، وكل من كان يعرفها كان يمدحك فيها ويُجلّك ويحبّك، لأنّ حضورك في قلبها كان يجعله يحسّ بدلائل ثمار الحياة المقدّسة. لقد كانت «قرينة زوج واحد، وسدّدت لوالدها دين الجميل الذي عليها، وسيّرت شؤون منزلها بتقى، وقامت بما قامت به من أعمال الخير التي تشهد لها بذلك».

كانت قد ربّت أبناءها بآلام الوضع تعودها من جديد كلما رأتهم يحيدون عنك. وبالنسبة إلينا جميعا، يا مولانا، بما أنك في نهاية الأمر تسمح لعبادك، بسبب جميلك، بالتحدث إليك، كانتْ قبل أن تنام نوم الموت، وكنا نحن قد ارتبطنا بك عائشين بهبة التعميد، تعتني بنا معاملة إيّانا، كما لو كانت قد أنجبتنا جميعا، وخدمتنا تماما كما لو كنا جميعا منجِبِيها.

23.X. وباقتراب اليوم الذي ستفارق فيه هذه الحياة وهو يوم تعرفه أنت، ونحن نجهله كان قد حدث تباعا، حسب ما أعتقد، وبتدبير من طرقك الخفية، أن نكون أنا وهي وحدنا، واقفين متكئين إلى نافذة كانت منها ترى الحديقة، في المنزل الذي كنا نسكنه بالقرب من بلدة أستيا (**apud Ostia = à Ostie**) على نهر التّيبر (**Tiberina = sur le Tibre**). كنا هناك نستريح من أتعاب السفر الطويل ونتهيأ للإبحار. كنا إذن نتحادث وحدنا بفائق العذوبة[1]«ونبحث معا «ناسين الماضي وتائقين إلى المستقبل» عن ضوء الحقيقة التي تمثلها، وعمّا ستكون حياة القديسين الأبديّة التي «لم ترها عين، ولم تسمع عنها أذن، ولا خطرت ببال إنسان». لكننا كنا نفتح شفتي قلبينا إلى السيول العالية «لنبعك، نبع الحياة التي هي فيك» كي نرشّ أنفسنا بما نأخذه منها ونكوّن لأنفسنا، بأية صورة كانت، فكرة عن قضيّة رفيعة من هذا القبيل.

24. وانتهى بنا الحديث إلى استخلاص أنّ لذة الحواسّ الجسديّة، مهما كانت قوّتها، ومهما كانت قوة نور جسديتها، تبدو غير جديرة بالمقارنة، ولا حتى مجرد الإشارة إليها، مقارنة بعذوبة تلك الحياة. وفي ارتفاعنا بشغف حارّ إلى «الكيان الحقيقي بالذات»، مررنا تدريجيا بمجوع الأشياء المادية، وبالسماء ذاتها التي تنير من عليائها

---

(1)... **ualde dulciter...** = «بفائق العذوبة». المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 228 الملاحظة 1: «ساهمت اللوحة الشهيرة التي رسمها "أري شيفر" Ary Scheffer والتي عرضت للمرة الأولى بمتحف اللوفر سنة 1846 في شهرة هذا المشهد. على أن "شيفّر" أهمل جزئيّة دقيقة لاحظها أوغستينوس (**incumbentes ad quandam fenestram** = «مطلّين من نافذة ما»، انظر أعلاه ص 227، وهو شرح موفّق قدّمه "ل. فيتيت" L. VITET في مجلة« **la Revue des Deux Mon-des**»بتاريخ 1er octobre 1858.

الشمس والقمر والنجوم الأرضَ. وما زلنا مصعّدين ونحن نفكّر في قرارة نفوسنا في آثارك، متحدثين عنها ومعجبين بها، حتى بلغنا رحيقنا، وتجاوزناه لنصل إلى إقليم الخصوبة اللامحدودة الذي ترعى فيه إسرائيل إلى الأبد مراعيَ الحق، حيث الحياة هي الحكمة التي بها يكون كل ما هو كائن وما كان وما سيكون، دون أن تكون هي فُعلت، لأنها كائنة تماما كما كانت، وسوف تكون هكذا دوما، أو قلْ ليس فيها ما كان وما سيكون، بل فيها كيان فقط، لأنّ ما كان وما سيكون ليسا أزليين.وبينما كنا نتحدث عن هذه الحكمة ونتوق إليها، بلغناها في برهة من الوقت، باندفاع شامل من قلبينا. ثم تنفسنا الصعداء، وتركنا هناك «طلائع الروح» مقيّدة، ونزلنا إلى حفيف شفاهنا الفارغ، حيث تبدأ الكلمة وتنتهي؛ كلمة لا تشبه كلمتك التي هي أنت مولانا الدائم في ذاتك، أنت الذي لا تشيخ، والمجدّد لكلّ شيء!

25. كنّا إذن نقول: «لو سكتت في بعضهم ضوضاء الجسم، لو سكتت صور الأرض والمياه والهواء، لو سكتت أيضا السماوات، ولو سكتت الروح نفسها كذلك، ولو تجاوزت نفسها غير مفكرة في ذاتها، لو سكتت الأحلام والرؤى الخيالية وسكت كل لسان وكل علامة، وكل ما يوجد ليضمحلّ، لو سكت في بعضهم كل شيء (فمن سيسمع هذا الكلّ وهو يقول له: «لسنا نحن خالقي أنفسنا، بل خلقنا من يدوم إلى الأبد»؛ وصمت كلّ شيء بعد أن قال هذا الكلام، لأنه وجّه سمعه نحو الذي خلقه). ولو تكلم الذي يتكلم وحده، لا على لسان جميع الأشياء، بل على لسانه الخاص، لسمعنا كلماته لا بكلام الجسم ولا بصوت الملائكة ولا بقصف الغيوم ولا بلغز الرموز، بل بصوته هو الذي نحبّه في جميع هذه الأشياء والذي نسمعه دون وساطتها. وكذلك لو تمادى هذا ونحن نحاول الآن ذلك، وقد وصلنا في لمح برق التفكير إلى الحكمة الأزليّة الدائمة فوق الكل، ولو امّحت تحته الرؤى الأخرى المختلفة اختلافا تاما، فلتصِدِ الناظرَ تلك الكلمةُ الحكيمة وحدها، ولتمتصَّه، ولتُتلفه في اللذات الداخلية، بحيث تكون الحياة الأبدية التي نَشَدْناها، شبيهة بذلك الحدس العابر؛ ألم يكن الأمر كما قيل: «ادخل في غبطة مولاك»؟ ومتى يكون ذلك؟ «ألا يكون يوم نُبعث جميعا ولا نكون قد تغيّرنا جميعا؟»[1].

---

(1) ليس من المستبعد أن تجد هنا أثرا خفيا عن PLOTIN «بلوتان»، Ennéades V, I, 1, 2 (ترجمة BOUILLET, III, p. 5): «كيف تنتشر الحياة في الآن نفسه في الكون وفي كلّ فرد؟ لفهم هذا الأمر يجب أن تتأمّل الروحُ الروحَ الكونيّة. إلّا أنّه لكي ترقَى الروح إلى هذا المستوى من التأمّل يجب أن تكون جديرة بنبلها وأن تكون قد تخلّصت من الخطيئة وأن تخفي وجهها عن الأشياء =

26. كنت أقول مثل هذا الكلام، وإن لم يكن على هذا النمط وبهذه الألفاظ، ومع ذلك، مولاي، أنت تعلم أنه في ذلك اليوم، الذي كنا نتحادث فيه على هذه الصورة، والذي كان فيه عالمنا هذا يشحب مع كل لذاته، في سياق كلامنا، قالت هي آنذاك: «يا بني، لم أعد فيما يخصّني ألتذّ بشيء من هذه الحياة، ماذا سأفعل مستقبلا في هذه الدنيا؟ ولماذا أوجد في هذه الدنيا؟ لا أعلم. كلّ أملي في هذه الدنيا قد نفد. والشيء الوحيد الذي يشدّني إلى هذه الحياة هو أن أراك مسيحيا كاثوليكيا قبل أن أموت. إلـٰهي أعطاني هذه الغبطة بغزارة، بما أني أراك في خدمته لا تتوانى حتى عن احتقار الملذات الدنيوية. ترى ماذا أفعل إذن هنا؟»

27.XI. لا أتذكر جيّدا بم أجبتها عن هذه الكلمات. ومهما يكن، فبعد خمسة أيام تقريبا، أو ليس أكثر بكثير، لزمتِ الفراش بالحمّى. وأثناء مرضها كان يتّفق أن تفقد الوعي، وأن تبقى بعض الوقت في غيبوبة عن الحاضرين، أما نحن فأسرعنا اليها، لكنها استعادت بسرعة وعيها، ولمحتنا، أنا وأخي، واقفيْن بالقرب منها، فقالت لنا، وكأنّها تبحث عن شيء: «أين كنتُ؟» ثم أضافت، ناظرة إلينا، ونحن مذهولان في كربتنا: «ستدفنان هنا أمّكما». كنت أنا ساكتا أكبح جماح دموعي. أما أخي فقال كلمات يفهم منها أنه كان يبتغي ألّا تموتَ في بلاد الغربة بل داخل الوطن. ما إن سمعته حتى أدارت نحوه عينين في وجه ملؤه الحيرة واللوم، لكونه فكّر في مثل هذا، ثم قالت لي محدّقة فيّ: «انظر ماذا يقول». ثم قالت لنا بعد ذلك: «ادفنا هذا الجسد حيثما تشاءان: لا تهتمّا ولا تضطربا، أطلب منكما شيئا واحدا، أن تتذكراني أمام مذبح المولى (**ad domini altare = devant l'autel du Seigneur**) حيثما كنتما». وبعد أن تلفظت بوضوح بهذه الجملة، سكتت، لقد كان الداء فيها يتفاقم ويشتدّ.

28. أما أنا، يا لإلـٰهي الخفيّ، فقد كنت أفكّر في هباتك التي تزرعها في قلوب الذين آمنوا بك والتي يأتي منها حصاد رائع. كنت مغتبطا وكنت أحمدك، ذاكرا ما كنت أعلمه من شدة اهتمامها الذي كانت دوما تضطرم به في خصوص لحدها، وكانت قد رأته وقد هيّأت موقعه مسبقا بجانب قبر بعلها، لأنهما عاشا في وئام تامّ. كانت تريد كذلك كما

= التي تشدّ إليها ذوي الأرواح السوقية، وأن تنغمس في ابتهالات عميقة، وأن تسكت من حولها لا اضطراب الجسم الذي يلفّها وتشويش الأحاسيس، بل وجميع ما يحيط بها. فليسكنْ كلّ شيء ولتصمتِ الأرض والبحر والهواء وحتّى السماء...» المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 229 و230 الملاحظة 1.

هي حال النفس البشرية في كونها أقلّ إلماما بالإلـهيّات[1]- أن يضاف إلى تلك السعادة سعادة أخرى وأن يقول الناس إنه سُمح لها بعد السفر إلى ما وراء البحار أن تجمع رفاتها إلى رفات بعلها، تحت لحد واحد.

أمّا متى بدأ هذا الغرور يفارق قلبها بفضل طيبتك الكاملة، فلم أكن أعرف ذلك، لكني كنت مغتبطا متعجّبا لأني قد تنبأت بذلك، والحال أنها، في تلك المحادثة بالقرب من النافذة عندما قالت: «ماذا أنا فاعلة هنا مستقبلا؟» لم تَبدُ راغبة في الموت في أرض الوطن. وعلمت أيضا من بعد، أنّها عندما كنا ببلدة أسْتِيَا، كانت ذات يوم تتحدث مع بعض أصدقائي بطمأنينة وفي ثقة الأم، عن احتقارها لهذه الحياة وعن فوائد الموت، ولم أكن أنا حاضرا معها، وكانوا مبهورين بالفضيلة التي كنتَ قد وهبتَها أنت لتلك المرأة فسألوها إن كانت تخشى أن تُترك جثتها في ذلك المكان البعيد للغاية عن مدينتها، فقالت لهم: «لا شيء بعيد عن الإلـه، ولا يُخشى عليه ألّا يعرف في آخر الحياة الدنيا المكان الذي سوف يبعثني منه».

وختاما، في اليوم التاسع من مرضها، تخلّصت تلك الروح المقدسة التقيّة من جسدها، عن سنّ السادسة والخمسين، في حين أنّي كنت في الثالثة والثلاثين من عمري.

29.XII. أغلقت عينيها، وكان الحزن العارم ينصّب في قلبي، ويتحوّل إلى دموع، وفي الآن نفسه كانت عيناي بأمر قاهر من إرادتي، تُقلّص نبعها إلى حدّ الجفاف، وفي مثل هذا الجهد، كنت أشعر بألم كبير جدّا، أما عندما لفظت أنفاسها الأخيرة، فإن ابني أديُودَاتُوس (Adéodatus) أجهش بالبكاء، لكن الجميع نهروه فسكت. بهذه الكيفية أيضا وبصوت الصبي، صوتِ القلب، مُنع فيّ وسكن ما كان يسيل من عبرات صبيانية، إذ كنّا نعتقد أنه لا يليق أن نحتفل في ذلك المأتم بالتأوّهات والدموع والتحسّرات، لأنه، في أغلب الأحيان، من العادة أن نرثي بها هكذا تعاسة الموتى، أو قل انقراضهم التّام. غير أنّ أمّي ما كانت لتموت تعسة، ولا كانت لتموت تماما. كنّا واثقين من ذلك بطباعها و«بعقيدة صادقة»، ولأسباب ثابتة[2].

---

(1) ...,minus capax diuinorum... = «...أقلّ إلماما بالإلـهيات!» المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 231 الملاحظة 1: «هذا المشغل الذي اختلطت فيه ذرّة من حبّ الذات بتقوى الذكرى (الإبراز من المترجم) يبدو إذن لأوغستينوس ضربا من الضعف. وسنقف في موضع لاحق (ص235) على معلم له نفس القيمة، أو نفس التجرّد».

(2) ...rationibusque certis... = "... ولأسباب ثابتة...". المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 232 =

30. إذن ما السبب الذي من أجله كنت أتألم كثيرا في أحشائي، إن لم يكن الانفصام الفجئي لعادة العيش معا، تلك العادة الحلوة جدّا والعزيزة على نفسي كثيرا، وهو جرح حديث؟ كنت مع ذلك مبتهجا بشهادتها فيّ، عندما كانت في آخر أيّام مرضها تربّت عليّ وأنا أخدمها بوقار وتناديني «بابنها الحبيب»، وكانت تذكرني، بحنان فياض لا مثيل له، أنها لم تسمعني قطّ أتفوّه بكلمة عنيفة أو شائنة[1].

لكن مع ذلك، يا إلـهي الذي خلقتنا، كيف لي أن أقارن، كيف لي أن أشبّه الاحترام الذي كنت أكنّه لها بالعبودية التي كانت فيها تجاهي؟ لذلك، عندما حرمت من سلوانها الأكبر، أضحت روحي جريحة، وصارت حياتي كالممزقة، بعد أن كانت تمثل مع حياتها وحدة لا تنفصم.

31. إذن، بعد أن أوقفْنا عن البكاء ذلك الولد[2]،أخذ إيووديوس (**Evodius**) كتاب الزّبور (**psalterium = le Psautier**)،وطفق ينشد زَبورا (**psalmum = un psaume**). فأجابته الدار جميعا بمن فيها: «الشَفَقَةُ وَالْعَدَالَةُ سَوْفَ أُنْشِدُهُمَا إلَيْكَ، يَا مَوْلاَيَ». ولسماع ما كان يجري من جهة أخرى، تجمّع حولنا الكثير من الإخوان ومن النساء التقيّات، وفيهم من كان، حسب العادة، موكولا إليه الإشراف على المأتم، أما أنا فمكثت في الجهة التي كان يليق بي أن أستطيع ذلك، مع أولئك الذين كانوا يرون أنه عليهم ألّا يتركوني وحدي، حيث كنت أحادثهم بما كان يناسب الظرف، وبهذا البلسم من الحقّ، كنت أهوّن العذاب المعروف لديك، في حين كانوا يجهلونه، مستمعين إليّ بانتباه، ولكن ظانّين أني غير شاعر بالألم. أما أنا فقد كنت بالقرب من أذنيك، حيث لا أحد منهم كان يسمع، أوبّخ ضعف مشاعري، وأكبح جماح حزني، فيذعن لي بعض الإذعان: إلّا أنّه كان ينطلق من بعد بفعل اندفاعه، لا إلى حدّ تدفق الدموع، ولا إلى حدّ تغيّر المحيّا، غير أني كنت أنا أعرف ما كنت أكتمه في قلبي، وحيث أنه كان لا يروق لي البتة أن تتمكّن مني إلى هذا الحدّ هذه الأعراض الإنسانية التي تحدث بالضرورة،

= الملاحظة ١: قارن بين قول القديس بولس في كتابه "رسالة إلى أهل "تيسالونيا""**Thessaloniciens** **IV, 13** : "لا نريد، يا إخواني أن تجهلوا أمر الذين دخلوا في السبات، حتى لا تحزنوا كما حزن الرجال الآخرون الذين لم يكن لهم أمل...»"...»

(1) ...**durum aut contumeliosum** ... = (كلام) عنيف أو شائن : «وهذا القول يتّفق اتفاقا تامّا مع ما حكاه أوغستينوس، أعلاه بشأن موقف أمّه تجاهه. الجزء الأول، ص 61 الملاحظة 2.

(2) أي الابن أديوداتوس (**Adéodatus**).

حسب نظام إجباريّ وقَدَرِ مصيرنا. كنت أتألّم من كون ألمي ناشئا عن ألم ثان، وكنت مضنى بحزن مزدوج.

32. ثم بعد أن أخرجت الجثة للدّفن، ها نحن نذهب ثم نعود بدون دموع، فحتى في تلك الدعاءات التي أعربنا عنها لك، بينما كانت تهدى لها أضحية خلاصنا، وقد وُضعت بعد جثّتها بالقرب من قبرها، قبل أن توارى فيه التراب، كما يقع عادة هناك، ولا حتى في تلك الدّعاءات بكيت، بل كنت، طيلة اليوم كله، حزينا حزنا شديدا خفيّا، وكنت أتوسل إليك، مضطرب الفكر، وبكلّ ما أوتيت من قوّة، أن تشفي ألمي. ولم تستجب لدعائي، لا بدّ أن ذلك كان من أجل أن تنقش في ذاكرتي، ولو بواسطة هذا البرهان الوحيد، مدى قوّة قيد العادة حتى لدى النفس التي تتغذّى بعد من الكلمة التي لا تعرف الضلال. خطر لي أيضا أن أذهب إلى الحمامات، لأني كنت قد سمعتهم يقولون إن هذا الاسم سميت به **الحمامات** (**balneis = aux bains**)، لأنّ اليونان قالوا βαλανειον (بالانيّون)[1]، أي إنّ الحمّام هو ما يطرد عن الرّوح الحصر النفساني (**anxietatem = l'angoisse**)[2]، وها أنذا أعترف لشفقتك، يا إلـه «الأيتام» أنّني استحممت، وبقيت تماما كما كنت قبل أن أستحمّ. إذ لم ترق لقلبي مرارة حزني. ثم نمت، وأفقت، ووجدت ألمي قد خفّ بصورة غير ضئيلة، كنت وحدي في الفراش، فتذكرت أبياتا صادقة **لأمْبرُوزيوس عبدك** (**Ambrosii tui = votre Ambroise**)[3]:

نعم أنت هو
«الإِلاَهُ، خَالِقُ الكُلّ
وَمُسَيِّرُ السمَاءِ،
مُلْبِسُ النَهَارَ بِالنُور السَاطِعِ،
واللّيْلَ بِنِعْمةِ النوْمِ،
حَتَّى تُعِيدَ الرّاحَةُ

---

(1) تكتب بالحروف اللاتينية على النحو التالي : BALANEION.

(2) لنُعد ذكر الملاحظة عدد 1من الجزء الثاني ص 234: : «1. كان القدامى يعوزهم المنهج في البحوث الإتيمولوجيّة، فكانوا يرضوْن بالأمور التقريبيّة...».

(3) «أناشيد تسمى بالأناشيد الأمبروازيّة (نسبة إلى «أمبرواز»)، أربعة منها يرى النقاد أنّها صحيحة النسبة... وثمانية أخرى مشكوك في نسبتها. ولدينا عن الأربعة الأولى شهادة أوغستينوس الصريحة التي تعدّ شهادة حاسمة...» المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 234 الملاحظة 2.

الأَعْضَاءَ الْمَنْهُوكَةَ إِلَى الْعَمَلِ العَادِيِّ،
وَتُخَفِّفُ الْقُلُوبَ التَّعِبَةَ
وَتَمْحُو الْهُمُومَ الْحَاضِرَةَ في النفْسِ».

33. بعد ذلك، وشيئا فشيئا، كنت أرجع إلى الشعور السابق بشأن خادمتك وعلاقتها التقية بك، والمقدسة في طيبتها ولطفها بنا التي حرمت منها فجأة. وراق لي «في حضورك» أن أبكيها وأبكي لها، وأن أبكي نفسي وأبكي لها. وذرفت الدموع التي كنت حبستها، لتسيل ما شاء لها أن تسيل، والقلب مني قد توسّدها ولقيَ فيها الراحة، لأنّ هنا كانت أذناك تسمعها، ولا أحدَ كان يؤوّل بكائي. والآن، يا مولاي، أقرّ لك بكل هذا في هذا الكتاب. فليقرأه من يريد، وليتأوّله كما يريد. وإن اعتبر خطيئة، كوني بكيت أمّي مدّة قصيرة، أمّي التي ماتت بسرعة على مرأى مني، والتي بكتني سنين طويلة، كي تراني أعيش في رعايتك[1]، فلا يسخرْ مني، بل بالعكس إن كان ذا إحسان (= **caritate charité**) كبير، فليبكِ هو لخطاياي أمامك، أنت أب كلّ إخوان مسيحك.

34.XIII. أما أنا، فبعد أن شفي قلبي من ذلك الجرح الذي كان من الممكن أن يشهّر فيه بشدة تعلقه بالعاطفة الجسدية، أذرف الآن أمامك، يا إلـهنا، لخادمتك تلك نوعا مختلفا جدّا من الدموع، يفيض من فكر مزعزع بالتأمّل في أخطار كل روح «تموت في آدم». فهي، وإن أُحييتْ أيضا في المسيح، قبل أن تتخلّص من الجسد، قد عاشت عيشة يُحمد بها اسمك، عقيدة وخصالا، ومع ذلك لا أجرؤ أن أقول إنها، بعد أن جدّدتها بالتعميد، لم تتلفظ بأية كلمة مخالفة لقانونك. وقد قال الحق الذي هو ابنك: «إذا قال أحدكم لأخيه «أنت مجنون»، فليعاقب بنار جهنم»؛ تبا كذلك لحياة البشر المرموقة، إن تفحصتها وصرفت عنها شفقتك! ونظرا إلى كونك لا تحصي ذنوبنا بصرامة، فإننا نرجو واثقين فيك مكانا بالقرب منك. أمّا من يعدِّد أمامك مزاياه الخاصة، فهو لا يعدِّد في الحقيقة إلّا هباتك؟ آه لو عرف الناس أنفسهم كأناس! «ومن يتباهي فليتباه في المولى!».

---

(1).... **ut oculis tuis inuerem,...** =.. كي أعيش في رعايتك،..المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 235 الملاحظة 1: «انظر أعلاه ص 231». والأمر يتعلق باللحظات الأخيرة من حياة مونيكا، المشغولة بالخصوص بشأن قبرها والراغبة على حدّ تعبير "بيار دي لابريول" Pierre DE LA-BRIOLLE في ترجمته الرائعة في أن يختلط غبار (رفاتها) بغبار رفات زوجها تحت أرض واحدة».

35. لهذا، «يا عزّتي وحياتي، يا إلـه قلبي»، بعد أن أعرضت للأي عن أفعالها الحسنة التي من أجلها أمدحك بفرح، ها أنذا الآن أدعوك من أجل ذنوب أمي: «أصْغِ» إليّ بجاه طبيب جروحنا المسيح الذي عُلّق على الخشب[1] والذي هو جالس «على يمناك»، «متشفّعا» لنا لديك. أعلم أنّ أفعالها اتسمت بالشفقة، وأنها أبرأت من قلبها مدينيها من ديونهم: أبرئها أنت أيضا من ديونها، إن استدانت بعض الدين أيضا، طيلة كل هذه السنين، بعد ماء النجاة بالتّعميد. أبرئها، مولاي، أبرئها، أتوسّل إليك، «كي لا تُدخلها في محاكمة». «ولتنتصر الشفقة على العدالة»، بما أنّ أقوالك صادقة، وبما أنّك وعدت بالشفقة المشفقين، إذ إن كانوا كذلك، فأنت أعطيتهم إيّاها، أنت الذي «تشفق على من أردت أن تُشفق عليه والذي تُمدّ بالشفقة من كنت مشفقا عليه».

36. ستكون، أظنّ، قد فعلت بعدُ ما أنا طالبٌ، لكن «تقبّل عطيّة إراديّة من فمي، يا مولاي». فهي لم تفكّر، عندما اقترب يوم تواريها، في أن تدفن في جنازة فاخرة، أو في أن تحنّط بالعطور، ولم ترغب في ضريح ممتاز، ولم تنشغل بقبر في أرض الوطن: لم توصنا بهذه الـرغبات، بل ابتغت فقط أن نذكرها عند مذبحك (**ad altare tuum = à votre autel**) الذي كانت تخدمه دون أن تتوقّف عن خدمته يوما واحدا والذي كانت تعلم أن به ينتصب القربان المقدّس الذي محيت به «الوثيقة التي كانت ضدّنا»، والتي انتصرنا بها على العدّو الذي يعُدّ زلاتِنا، ويبحث عما يرمينا به، فلا يجد شيئا عند من نحن به منتصرون. من سيريق له الدم البريء؟ من سيعيد إليه الثمن الذي اشترانا به، كي ينتزعنا من ذلك العدّو؟ لِسرّ افتدائنا ربطت خادمتك روحها بقيد العقيدة. فلا يفصلها أحد عن حمايتك، ولا يتوسط بينكما أسد ولا تنّينٌ، لا بالقوّة ولا بالأحبولة: فهي لن تجيب أنّها غير مدينة، مخافة أن تُفحم، وأن تسّلم لمتّهم ماهر، بل ستجيب أنّ ديونها أبرِئت، وأنّ من أبرأها لا أحد سيرّد إليه ما أبرأه لنا، دون استدانة.

37. لتنم إذن بسلام مع بعلها، هي التي لم تتزوّج قبله ولا بعده أيّ رجل، بل خدمته «بالصبر»، مقدّمة لك «ابنها» كي يفوز بك هو أيضا. وألْهِم، يا مولاي وإلـهي، ألْهم خدّامك وإخواني وأبناءك وأسيادي الذين أخدمهم بالقلب والصوت والكتب، يوم

---

(1) **quae pependit in ligno...**... =.. الذي عُلّق على خشب الصليب،... المرجع نفسه الكتاب التاسع، ص 236 الملاحظة 1: «بشأن معنى المسيح الطبيب انظر مقال «مونسو» **MONCEAUX** الذي أشرنا إليه ص 215». ونجد في هذا المقال هذه المعلومة البيبليوغرافية لـ"مونسو" في أعمال مجمع النقوش والآداب الجميلة، «**l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres** **1920**, ص 75 - 83 ».

سيقرؤون هذه الأسطر، أن يتذكّروا عند مذبحك مونيكا Monnicae[1] خادمتك، مع بارتيسيوس، زوجها سابقا، اللذيْن أدخلتَني بلحمهما هذه الحياة، لا أدري كيف. ليتذكّروا، بعاطفة التقوى، والدَيّ في هذه الحياة الفانية، وإخواني في القدس الخالدة (Hierusalem)[2] التي يتوق إليها في الحج شعبك من الذهاب إلى الإياب، حتى يكون ما طلبته مني، في النهاية، يحقّق لها بصورة أوفر في هذه الدعوات الكثيرة منه في أدعيتي الخاصّة، وذلك بفضل هذه الاعترافات (per confessiones = grâce à ces confessions).

(1) يتضمّن اسم أمّ أوغستينوس في اللاتينية حرفا خيشوميّا مضاعفا Monnicae وأصبح حرفا غير مضاعف في اللغات الرّوْمنيّة (الفرنسيّة والإيطاليّة وغيرهما).
(2) Hierusalem هي الصورة القديمة لكتابة اسم المدينة Jérusalem (مدينة القدس)، أما اللفظة Hiéru فتذكرنا بالصفة اليونانية القديمة hiéros التي تعني"مقدّس وذو أصل إلهيّ". أمّا في اليونانية المسيحيّة تعني العبارة To hiéron كلّ شيء مقدّس أو مَنْذور مثل المعبد اليهودي في الترجمة السبعينيّة للإنجيل, la Bible des Septante, 1 Par, 29, 4, ou Macc. 10, 43, انظر معجم «هاشات» Hachette اليوناني اللاتيني لـ«بالّي». أمّا Ta Hiérosolyma فهي صيغة اسم المدينة التي تمثل مهد الديانات الثلاث الموحّدة كما توجد في الترجمة السبعينيّة Tob, 1,4. وكان الناس لا يزالون يقولون Hiérosolyme في القرن السادس عشر.(Agrippa d'Aubigné).

الكتاب العاشر

I.1. «سأعْرِفُكَ»، يا من تعرفني، «سأعرفك كما تعرفني أنت نفسك». يا فضيلة روحي، أُدخُلْهَا وصوّرها، حتى تحتلّها وتمتلكها «دُونَ شَامَةٍ ولا جَعْدَةٍ». ذلك هو أملي، لذلك أنطق، وفي ذلك الأمل أغتبط عندما أغتبط غبطة سليمة. أما بقية خيرات هذه الحياة فهي خليقة أن نبكيها أقلّ، كلّما بكيناها أكثر، وخليقة أن نبكيها أكثر، كلّما بكيناها أقلّ، لكنك أنت «أحببت الحقّ»، بما أن «الذي ينجز الحق يأتي إلى النور». أريد أن أنجزه في قلبي، أمامك، في الاعتراف ومن ناحية أخرى في نصّ ما أكتبه، أمام الكثير من الشهود.

II.2. يا مولاي، وما الذي يمكن أن يخفى عليك أنت الذي ترى بالعين المجرّدة أعماق ضمير الإنسان، وإنْ رفضتُ أن أعترف لك به؟ فأنت الذي أخفيك عن نفسي، دون أن أستطيع أن أخفيَ نفسي عنك، أمّا الآن، وحسرتي شاهد على غمّي من نفسي، فأنت ضيائي ومسرّتي، وأنت حبّي ومرادي، حتى أنّي أخجل من نفسي، وأعرض عنها وأختارك، ولن أسرّ بنفسي أو بك، إلّا بوساطتك.

أنت تعرفني تمام المعرفة إذن، يا مولاي، مهما كنتُ. وأنت تعرف الغرض من اعترافاتي، فقد قلت لك ذلك. أفعل ذلك، لا بألفاظ الجسم وأصواته، بل بألفاظ الروح وهتاف الفكر الذي تعرفه أذنك. عندما أكون سيئا، لا أقرّ لك إلّا بكوني مستاء من نفسي؛ أمّا إذا كنت تقيّا، فلا أقرّ لك إلّا بكوني لا أنسبه إلى نفسي، «بما أنّك»، يا مولاي، «تُبارك العادل»، لكن ليس قبل «أن تثبته مذنبا». إذن فاعترافي هذا، يا إلـهي، يكون «أمامك» بالصمت وبدون الصمت. فهو صمت بالنسبة إلى صوتي، لكنّه هتاف العاطفة. إذ لا أقول للناس شيئا صائبا لم تكن سمعته أنت منّي من قبلُ، أو لا تسمع مني كذلك شيئا مثله، لم تكن قد قلتَه لي من قبل.

3.III. ما لي إذن مع الناس، وما الحاجة أن يسمعوا اعترافاتي، كما لو كانوا سيداوُون «جميع أسقامي»؟ يا لهم من جنس فضولي في معرفة حياة الآخرين لكنه كسول في تقويم حياته! لماذا يريدون أن يسمعوا مني ما أنا، هم الذين يرفضون أن يسمعوا منك ما هم؟ وكيف يعرفون، عندما يسمعونني أتكلم بنفسي عن نفسي ذاتها، هل أقول حقًا، إذ لا أحد من الناس يعلم «ما يدور في الإنسان، خلا نفس الإنسان التي توجد فيه»؟ لكن لو سمعوا قولك عن أنفسهم ذاتها، لما استطاعوا أن يقولوا: «المولى يكذب». فما معنى أن يسمعوك تتكلّم عنهم، سوى أن يعرفوا أنفسهم؟ زد على ذلك، هل من أحد يعرف نفسه ويقول: «هذا خاطِئ» دون أن يكذب هو؟ لكن بما أن «الرّحمة» تؤمِن «بالكلّ»، على الأقلّ بين الذين تجعلهم ملتحمين بعضهم ببعض في صلبها، فأنا كذلك، مولاي، أعترف لك بنفس الكيفية، حتى يسمعني الناس[1]، وإن كنت لا أقدر أن أبرهن على كوني أعترف بالحقّ؛ إلّا أنّ الذين تفتح الرحمة آذانهم يؤمنون بقولي.

4. أمّا أنت، مع ذلك، يا طبيب روحي، فأوضح لي الفائدة التي من أجلها أفعل هذه الأشياء. فاعترافاتي بخطاياي السالفة التي غفرتها وبرّأتني منها، كي تجعلني مغتبطا في قرارك، مغيّرا روحي بعقيدتك وسرّك، عندما تُقرأ أو تسمع، تحيي القلب، مخافة أن ينام في اليأس فيقول: «لا أستطيع»، بل وتجعله يستيقظ لحبّ رأفتك وعذوبة نعمتك التي يكون كلّ ضعيف بها قويّا ويصبح واعيا بضعفه بها. ويلذّ للأخيار أن يسمعوا خطاياهم السالفة التي لم يعودوا يشتكون منها، ولا يلذّ لهم كونها خطايا، بل كونها كانت ولم تعد كذلك.

إذن لأية فائدة، يا مولاي، أنت الذي يعترف لك يوميا ضميري، متأكدا من شفقتك أكثر من تأكده من براءتي، لأيّة فائدة، أرجوك، أعترف كذلك للناس أمامك في هذا الكتاب لا بما كنت بل بما أنا الآن؟ إذ الفائدة من الأولى رأيتها، وذكّرت بها. أما ما أكون الآن بالذات في نفس الوقت الذي أذكر اعترافاتي، فالكثيرون يرغبون في أن يعرفوه، منهم من يعرفونني، ومنهم من لا يعرفونني، ومنهم من سمعوني أو أنهم سمعوا الناس يحدثون عنّي، غير أنّ آذانهم ليست على صدري عند قلبي، حيث أكون على حقيقة

(1) ...ut audiant homines ...,... = ... «ليسمعْه جميع الناس». المرجع نفسه الكتاب العاشر، ص 241
الملاحظة 1: «بداية الكتاب العاشر هذا مفيدة لمن يريد أن يحدّد معنى العبارة "اعترافات" الذي لا يخلو من التشعّب».

ذاتي، مهما كنت. يريدون إذن أن يسمعوني أعترف بما أكون حقًا في قرارتي، حيث لا تستطيع أن تصل أعينهم ولا آذانهم ولا عقولهم؛ يريدون أن يسمعوني وهم أقرب ما يكونون إلى تصديقي، فكيف يَنْوُونَ أن يعرفوني؟ هو الإحسان الذي يكونون به طيبين، يقول لهم في قرارتهم إنّي لا أكذب في ما أعترف به، فذلك الإحسان عينه الموجود فيهم هو الذي يصدّق بي.

5.IV. ولكن لأيّة فائدة يريدونه؟ هل يرغبون في أن يشاركوني شكري لك عندما سيعلمون كم أنّ هِبَتَك والدعاء لي يقربانني منك، عندما سيعلمون كم أنا مشلول بثقلي. لمثل هؤلاء سأكشف عن سريرتي، فليس بالفائدة القليلة، يا مولاي وإلـهي، «أن يتقدم إليك الكثيرون بالتشكرات في خصوصنا»، وأن يتوسل إليك الكثيرون لفائدتنا. وليُحبّ قلبُ إخواني فِيَّ، ما تحبّ أن يحب، وليتألم مما تُحبّ أن يُتألم منه فيّ!

ليفعلْ هذا قلبُ أخ حقيقيّ، لا قلب أجنبيّ، ولا قلبُ «أبناء ليسوا من جنسي، لسانهم لا يقول إلّا عبثا، ويُمناهم يُمنى جور»، ذلك القلب الأخويّ يفرح لي إذا استحسنني، أما إذا شجبني فإنه يحزن من أجلي، لأنه يحبني، سواء استحسنني، أو شجبني. لمثل هؤلاء سأوضّح سريرتي: ليتنفسوا الصعداء للخير فيّ، وليتحسّروا على الشرّ فيّ. الخير فيّ أنت ركّزته وأنت أعطيتنيه، أمّا الشرّ فهو جنايتي ومركزُ عدلك. فليتنفسوا الصعداء للأوّل، وليتحسّروا على الثاني، وليتصاعد النشيد والنحيب بمرأى منك من القلوب الأخوية «التي يحترق فيها بخورك» (**turibulis tuis = vos encensoirs**).

أما أنت، يا مولاي المنتشي برائحة هيكلك المقدّس (**sancti templi tui = de votre saint Temple**)، «فأشفق عليّ طبق شفَقَتِك الكبيرة» بسبب اسمك، وبما أنك لا تهجر أبدا مشاريعك، وأكمل الناقص فيّ.

6. تلك هي فائدة اعترافاتي، لا كيف كنتُ، بل كيف أنا الآن[1]، أريد أن أقدمها، لا فقط بين يديك في تهليل سرّي مشوب بالرعشة وحزن سرّي مشوب بالأمل، بل في آذان بني الإنسان المؤمنين الذين يشاركونني فرحتي وفناء مصيري، أبناء وطني المسافرين معي في الحياة الدنيا، السابقين لي واللاحقين بي، ورفاق طريقي. إنهم خدّامك إخواني الذين أردتهم أبناء لك وأسيادا لي والذين أردتني أن أخدمهم، إن أنا

(1) **...sed qualis sim,...** =... بل كيف أنا الآن. المرجع نفسه، ص 243 الملاحظة 1: «يذكر بكل وضوح أن قصّة ماضيه قد تمّت وختمت. والأمر يتعلق بأوغستينوس في سنة 398 الذي سيحاول أن يكشف عن ميوله ويدقّق أمر معتقداته...»

أردت أن أعيش منك معك. وهذه الكلمة ستكون غير كافية، لو أنها أمرتني فقط بالقول ولم تسبقني بالفعل أيضا في طريقي.

ها أنا إذن أخدمهم بالقول وبالفعل، أفعله «تحت جناحيك»، لأن الخطر سيكون كبيرا جدّا، لو لم تنزو روحي تحت لواء جناحيك، ولو لم تكن تعرف ضعفي. لست إلّا طفلا صغيرا، لكنّ أبي حيّ دائما، وهو أهل لأن يكون وصيّا عليّ، فهو عينه الذي أوجدني بالذات والذي يُشرف عليّ. أنت بحقّ كلّ خيري، أنت القدير الذي توجد معي، قبل أن أكون معك. سأوضح إذن لمثل هؤلاء الذين تأمرني أن أخدمهم، لا كيف كنتُ بل كيف أصبحتُ بعدُ، وكيف أكون الآن، إلّا «أني لا أحكم على نفسي ذاتها».

فليسمعوا اعترافاتي إذن حسب هذا!

V.7. فأنت، يا مولاي، تحاسبني. «لا أحد من الناس يعلم، ما يدور في الإنسان عدا روح الإنسان التي هي فيه»، ومع ذلك هناك شيء في الإنسان لا تعرفه حتى روح الإنسان التي هي فيه. أمّا أنت، يا مولاي، فتعلم كلّ ما فيه لأنّك خلقته. غير أنّي، وإن احتقرت ذاتي بين يديك وحسبت نفسي ترابا ورمادا، أعرف مع ذلك شيئا ما عنك لا أعرفه عن نفسي. «نحن نرى الآن ما نرى في المرآة، بصورة غامضة»، ولا نراه بعدُ «وجها لوجه». لذلك، مادمت أسافر (peregrinor = j'accomplis... mon pélerinage) بعيدا عنك، فأنا أقرب لنفسي منّي إليك، ومع ذلك فإني أعلم أنّك لا يمكن أن تَفسُد بأيّة صورة، أما أنا، فلا أعلم أيّ النزغات أقدر أن أتصدى إليها وأيها لا أقدر. وأملي هو أنّك «مخلص»، أنت الذي لا تسمح أن تكون نزغاتنا أقوى مما نستطيع أن نتحمله، بل تجعل مع النزغات انفراجا، وتعطينا القدرة على أن نطيقها».

فلأعترف إذن بما أعلم عن نفسي، وبما لا أعلم عنها، بما أني فيما أعلم عن نفسي، أعلمه بإنارة منك، وفيما لا أعلمه عنها، لا أعلمه طيلة المدّة التي ستصبح بعدها «ظلماتي كالشمس في الظهر» أمام وجهك.

VI.8. أحبّك، يا مولاي، حبا لا يعرف الشك، حبا محقّقا. لقد اخترقت قلبي بكلامك، وأحببتك، لكنّ السماء والأرض، وكل ما يوجد فيهما، ها هي تأمرني من كل جهة أن أحبّك، ولا تتوقّف عن قوله لجميع الناس حتى يقطع عليهم سبل التعلل. أما أنت فستكون أشد رأفة بمن سبق أن رأفت به، وستمدّ بالشفقة من كنت مشفقا عليه: وإلّا كانت السماء والأرض كالصادح بمديحك إلى الصمّ.

لكن ماذا أحب، عندما أحبّك؟ ليس جمالَ الجسم، ولا فتنتَه الزّائلة ولا بريق النور، هذا الحبيب لعينيّ ولا الألحان العذبة للأغاني الكثيبة (cantilenarum = des cantilènes)، ذات الألف نغمة ونغمة (omnimodarum = aux tons variés) ولا الرائحة الفائحة من الأزهار والعطور والطيوب، ولا حلاوة النرنجين والشهد، ولا الأعضاء التي نعانق بها الأجساد: لا أحبّ هذه الأشياء، عندما أحبّ إلـٰهي. ومع هذا فهو نور وصوت ورائحة وطعم وعناق عندما أحبّ إلـٰهي: هو النور والصوت والشذى والغذاء وعناق «الإنسان الدّاخليّ» فيّ، حيث يسطع لروحي نور لا يحتويه مكان وحيث يدوّي نغم لا يخطفه الزّمان، وحيث تفوح رائحة لا يشتّتها ريح، وحيث يُستساغ طعام لا يمحوه نهم وحيث يَتعانق جسمان لا يفصلهما انتهاء النشوة. هذا هو ما أحبّ، عندما أحبّ إلـٰهي.

9. ومن هو هذا الإلـٰه الذي أحبه؟

سألت الأرض فقالت: «لستُ هذا (الإلـٰه)»؟ وكلّ ما يوجد عليها أقرّ لي بنفس الشيء. سألت البحر والأعماق والزّاحفات الحيّة العائشة فيه، فأجابت: «لسنا إلـٰهك؟ ابحث عنه فوقنا». وسألت نسمات الهواء، فقال الهواء، مع سكّانه قاطبة: «يخطىء أناكْسيمَانَاسُ (Anaximenes)[1]، لست إلـٰها». سألت السماء والشمس والقمر والنجوم فقلن: «لسنا الإلـٰه الذي تبحث عنه». وقلت لجميع الكائنات التي تحيط بأبواب جسمي: «حدّثنني عن إلـٰهي الذي لا تمثّلنَه، قلن لي شيئا ما عنه!». فصحن بصوت عال: «هو الذي خلقنا». كنت أسألها في تأملي، وكانت تجيبني في جمالها.

وأدرت النظر إلى نفسي وقلت: «وأنت، من تكونين؟» فأجبت: «أنا إنسان»، ولي في خدمتي جسم وروح، هما هكذا فيَّ، الأوّل خارجي والثاني باطني. فعند أيّهما كان عليّ أن أبحث عن إلـٰهي الذي كنت قد بحثت بعدُ عنه بواسطة الجسم، من الأرض إلى السماء، إلى مدى ما استطعت أن أرسل إليه أشعّة عيني رُسُلا؟ لكن الباطني أنفس، لأن جميع رجل جسمي يخبرونه وهو بالطبع، كما يخبر الرئيس والحاكم، في خصوص أجوبة السماء والأرض، وكل ما يوجد فيهما، كانت تخبره قائلة: «لسنا بالإلـٰه»، «هو الذي خلقنا». والإنسان الباطني يتعرّف عليها بواسطةالإنسان الخارجيّ. أنا،الباطنيُّ،

(1) «في الصفحة 246 من الجزء الثاني الملاحظة كَتَبَ «دي لابريول» DE LABRIOLLE ما يلي: «كان «أناكسيمان» Anaximène، في أواسط القرن السادس قبل الميلاد، يعتقد أن الهواء هو أصل كلّ شيء...» بل إن "شيشرون" كان يعتبره إلـٰها.

تعرّفت عليها، أنا، أنا الرّوح، تعرفت عليها بحواسّ جسمي، سألت كتلة الكون عن إلـٰهي، فأجابتني: «أنا لست هو، بل هو الذي خلقني».

10. هل يظهر هذا الجمال لكلّ من كانت حواسّهم سليمة؟ لِمَ لا تقول لهم جميعا نفس القول؟ تَراه الحيوانات الصغيرة والكبيرة، لكنّها لا تقدر أن تسأله. إذ لا يوجد لديها العقل حاكما على إشارات الحواسّ. أمّا الناس فيستطيعون أن يسألوه كي «يبصر العقل كمالاتِ الإلـٰه التي لا تُرى بواسطة أفعاله»، لكنهم يخضعون لها حبّا، ويمنعهم خضوعهم لها من أن يحكموا عليها. وهي لا تجيب إلّا من يسألونها ويحكمون عليها، ولا تغيّر من لهجتها، أعني جمال مظهرها، إن رآها أحد واقتصر على رؤيتها، في حين يراها الآخر ويسألها، بحيث لن تبدو بصورة مختلفة لهذا ولذلك. بل قل إنها وإن بدت لهما بنفس الصورة، تكون خرساء للأول، في حين أنها تكلّم الثاني، أو بالأحرى تكلّم الجميع، غير أن الذين يفهمونها هم الذين يقارنون الصوت القادم من الخارج بالحقيقة الداخلية، إذ الحقيقة تقول لي: «إلـٰهك ليس السماءَ، ولا الأرض، ولا أي جسم». وتؤكد ذلك طبيعتُها. فالكتلة في أجزائها تبدو لجميع الناظرين أصغر منها في كلّيتها. أنتِ، يا روحي أحسن بعدُ، أقوله لك هذا، لأنّكِ تُحيين كتلة الجسم الذي توجدين فيه، تمدّينه بالحياة التي لا يمد بها أيّ جسم جسما آخر، أمّا إلـٰهك فهو بالنسبة إليك حياة حياتك.

11.VII. إذن ماذا أحبّ، عندما أحبّ إلـٰهي؟ من هو هذا الذي يهيْمن على قمّة روحي؟ فلأصعد مستعينا بروحي ذاتها إليه. نعم سأتجاوز قوتي التي تربطني بالجسم والتي تملأ كتلته حيويّة. ليست تلك القوّة هي التي سأجد بها إلـٰهِي، ولو كان الأمر كذلك لوجده أيضا «الحصان والبغل، المحرومان من العقل»، ولكن لهما نفس القوّة التي يحيا بها جسماهما.

ولي قوّة أخرى، وهي لا تحيي جسمي فقط، بل تبعث فيه الحسّ، جسمي الذي خلقه لي المولى، آمرا العين ألّا تسمع، والأذن ألّا ترى، ولكن آمرا الأولى أن أرى بها، والثانية أن أسمع بها، وهكذا دواليك في خصوص جميع الحواسّ الأخرى، حسب خصائص الأعضاء القائمة بها وأدوارها: وبواسطتها أقوم بتلك الوظائف المختلفة مع الحفاظ على وحدتي الروحية. وسأتجاوز أيضا قوّتي هذه لأنني أشترك فيهما مع «الحصان والبغل»، فهما كذلك يحسّان بجسميهما بالذات.

12.VIII. أريد إذن أن أتجاوز إذن هذه القوّة من طبيعتي أيضا، صاعدا تدريجيا إليك أنت الذي خلقتني، وأصل إلى حقول الذاكرة وقصورها حيث توجد كنوز من

الصور لا تحصى ولا تعدّ، وقد جاءت بها مدرَكات الحواسّ المتعددة الأشكال[1]، فيها أودعت جميع الصور التي صوّرناها أيضا إمّا بالزيادة أو بالنقصان أو بأي شكل من أشكال التحوير لما بلغته حواسّنا، وكل ما أودع وادخر هناك، ما لم يغمره النسيان ويدفنه.

عندما أكون هنالك، أستدعي من تلك الصور ما أريد أن يحضرني، يأتي بعضها في الحال، وبعضها أترقّبه مدّة أطول، وكأنّه انتزع من أماكن أكثر عزلة وخفاء، أما بعضها الآخر فيندفع حشودا، وبينما نطلب غيرها ونبحث عنها تقفز إلى الصف الأول، وكأنّها تقول: «لعلّه دورنا نحن...؟»، وأطردها بيد قلبي من محيّا ذاكرتي حتّى تخرج الصورة التي أريدها من السحاب وتأتي أمام عينيّ من أعماق مخبئها (**ex abditis = du fond de sa cachette**). وبعضها يتقدم، حالما يُستدعى بكل يسر وفي صفوف منتظمة، ويترك السابق منها المكان للاّحق، وفيما هي تفسح لها المجال، تصطفّ جانبا حتى تتقدّم ثانية بإذن مني. فذاك كلّ ما يحدث، عندما أروي شيئا ما تذكّرا.

13. هنالك تحفظ جميع الأحاسيس مصنّفة أصنافا منفصلة طبق الأجناس وحسب المدخل الخاصّ الذي سلكه كلّ واحد، كالنور وجميع الألوان وأشكال الأجسام عن طريق العيون، أما عن طريق الأذنيْن فتأتي جميع أجناس الأصوات، وتدخل جميع الرّوائح من المنخريْن، وكل الطعُوم من الأفواه، وأخيرا بواسطة حسّ الجسم كاملا يميّز ما هو صلب وما هو طريّ، وما هو ساخن أو بارد، ما هو ليّن أو خشن، وما هو ثقيل أو خفيف، سواء أكان خارجيّا أم داخليّا بالنسبة إلى الجسم. وتتقبّل الذّاكرة مجموع الأحاسيس في خفاياها العميقة المجهولة، وفي منعطفاتها السريّة، لتستظهرها عند الاقتضاء، ولتستدعيها: فتدخلها قاطبة، من الباب الخاص بكل واحد منها، وتصطفّ بانتظام فيها، إلّا أنّ الأشياء المحسوسة عينها لا تدخلها، بل تدخلها صورها تكون جاهزة هنالك للفكر المتذكّر لها.

وهذه الصور كيف تكوّنت؟ لا أحد يملك الجواب، رغم أننا نعلم بأيّة حواسّ التقطت وأودعت في الدّاخل. فحتى عندما أنعزل في الظلمات وفي الصمت، أستطيع إن أردت ذلك، أن أتصوّر في ذاكرتي الألوان وأميّز الأبيض من الأسود وأيّ فوارق أخرى بينها، دون أن تتدخّل الأصوات وتُحدثَ البلبلة في ما أتأمله بعينيّ، رغم أنها

---

(1) **rebus sensis...** = الأشياء المحسوسة المتعددة الأشكال، المرجع نفسه، ص 248 الملاحظة 1: «تحدّث أوغستينوس في مناسبات عديدة عن الجانب النفسي من الذاكرة...».

بذاتها هناك، لكنها مختفية في مخزن منفصل. وإنّي أدعوها هي أيضا، إن راق لي، فتحضر في الحال، ورغم سكوت لساني وصمت حنجرتي، أغنّي قدر ما أشاء، ومع ذلك فتلك الصور للألوان التي توجد هناك لا تتدخّل ولا توقفني عن الغناء، وأتذكّر، بقدر ما يروق لي الكنوز التي جاءت بها جميع الحواسّ الأخرى، فتكدسّت هناك، وأميّز رائحة زهور الزّنبق من رائحة البنفسج، دون أن أشمّ أيّة زهرة، وأفضّل الشهد على الخمر المطبوخ، والناعم المصقول على الأحرش، بدون أن أذوق أو ألمس آنذاك أي شيء، بل بالتذكّر.

14. أقوم بهذه الأشياء في الداخل، في بلاط ذاكرتي الفسيح. هناك تكون السماء والأرض والبحر تحت تصرّفي، مع كلّ ما استطاعت أن تحسّ به حواسي، ما عدا ما نسيته. هناك ألتقي بنفسي مع نفسي، وأتذكّر ماذا فعلتُ ومتى فعلت ما فعلته، وأين، وبأية صورة، والمشاعر التي أحسست بها عندما فعلتها. فهناك يوجد كلّ ما أتذكّره، سواء أكنت اختبرته اختبارا أم سمعته فصدّقت. ومِن نفس الحشد من الصور أقتبس ما يقارن بالأشياء إمّا التي اختبرتها وإما التي صدّقت بها، تبعا لاختباري لها، هذه تارة، وتلك تارة أخرى، وأربطها أنا بالماضي، وبه كذلك أتصوّر أعمالا مقبلة وأحداثا وآمالا؛ فكل هذا يصبح بمثابة الحاضر: «سأفعل هذا ثمّ ذاك»، أقول هذا في قرارة نفسي، في منعطف روحي الفسيح الملآن بالكثير من صور الأشياء العظيمة للغاية، وأستخلص هذا مرّة وذاك أخرى: «آهِ! ليت هذا أو ذاك يقع!». «ليبعد الإلـه عنّا هذا أو ذاك!» أقول هذه الكلمات في قرارة نفسي، وعندما أقولها، تحضر صور جميع الأشياء التي أقولها من نفس كنز الذّاكرة، وما كنت لأقول بتاتا واحدة منها، لو كانت تعوزني.

15. كبيرة هي قوّة هذه الذاكرة، كبيرة جدا، يا إلـهي. هي مَعبد متسع لا متناه! من يصل إلى نهايته؟ وهذه القوّة تكمن في فكري وتتعلق بطبيعتي، غير أنّي لا أفقه تماما ما أنا بالذات. إذن فالفكر أضيق من أن يحتوي نفسه، بحيث أتساءل أين يذهب ما لا يفقهه منها؟ أيكون خارجا عنه وليس فيه؟ كيف لا يُفقه إذن؟ يبعث هذا في نفسي دهشة كبيرة، ويتملّكني الذهول.

ويخرج الناس ليتفرّجوا على ارتفاع الجبال وأمواج البحر الكبيرة ومجاري الأنهار الواسعة للغاية وشواطئ المحيط الملتوية ومدارات حركة الكواكب، ويهملون أنفسهم ذاتها. إنهم لا يعجبون من كوني، عندما كنت أحدث عن جميع هذه الأشياء، لم أكن أراها بعينيّ، ومع ذلك فما كنت لأحدّث عنها لو أنّ هذه الجبال والأمواج والأنهار والكواكب التي رأيتها والمحيط الذي أعرفه بالسماع فقط لا أراها في قرارة نفسي في ذاكرتي بنفس الحجم الذي كنت أراها به في الواقع. إلّا أني لم أبتلعها بالنظر، عندما رأيتها بالعينين،

وليست هي بالذات لديّ، بل صورها، وأعلم بأية حاسّة من الجسد انطبعت فيّ.

16.IX. لكن لا تحتوي هذه القدرة الواسعة لذاكرتي هذا القبيل من الأشياء فقط. بل يوجد فيها أيضا جميع الأشياء التي تعلّمتها من العلوم الشريفة والتي لم أستوعبها بعد؛ وكان جميع ذلك محفوظا في مكان داخلي، وما هو في الحقيقة بمكان. لا أحمل في نفسي مجرّد صور، بل أحمل تلك المعارف ذاتها؛ فما هو الأدب وما هو فنّ النقاش وكم هو عدد أجناس المسائل، جميع ما أعلمه من هذه الأشياء لم يستقرّ في ذاكرتي، كما لو أنني احتفظت فيها بالصورة، وتركت الشيء خارجها، أو كما لو كانت صوتا عابرا، كالصوت المنطبع في الأذن بأثره الذي نتذكّره به، كما لو كان يرنّ، والحال أنه لم يعد يرنّ فيها، أو كالرائحة وهي تعبر في الهواء وتتلاشى، مؤثرة في الشمّ ومرسلة منه إلى الذاكرة صورتها التي نستقدمها منها بالتذكر، أو كالطعام، الذي لم يعد له بالطبع طعم في المعدة، ومع ذلك فكأنه في الذاكرة ذو طعم، أو كشيء ما نحس به بحاسة اللمس وتتصوره الذاكرة، وإن كان أيضا منفصلا عنّا. وعلى كلّ، فهذه الأشياء لا تلج الذاكرة، بل صورها فقط تُلتقط بسرعة عجيبة وتُختزن في شبه بيوت، وتستخرج منها عند التّذكر بصورة عجيبة.

17.X. أمّا، عند سماع من يقول إنّ هناك ثلاثة أجناس من المسائل، يعني هل الشيء يوجد؟ وما كنهه؟ وما كيفه؟ فإني على كلّ أحفظ صور الأصوات التي تكوّنت منها هذه الكلمات، وأعرف أنّها اخترقت الهواء بضجة، وأنّها لم تعد موجودة. لكن الأشياء ذاتها التي تدلّ عليها تلك الأصوات فلم أبلغها بأيّة حاسّة في الجسم ولم أرها في أيّ مكان، خلا فكري، وخبّأتُ في الذّاكرة لا صورَها، بل هي بالذات.

فمن أين دخلت فيّ؟ أخبرني، إن استطعت. أجوب أبواب لحمي كلها، فلا أجد من أيّها ولجتني. على كلّ تقول العينان: «إن كانت ملوّنة، فنحن اللّتان نقلناها»؛ وتقول الأذنان: «إن دوّتا، فنحن اللّتان أشرنا إليها»؛ ويقول المنخران: «إن فاحت، فقد مرّت بنا»؛ وتقول أيضا حاسة التذوّق: «إن لم يكن لها طعم، فلا تَسَلْنِي عنها»؛ ويقول اللمس: «إن لم تكن جسما، فلم أمسسْها، وإن لم أمسسْها، لم أشرْ إليها».

فمن أين وعبر أيّ طريق دخلت هذه الأشياء إلى ذاكرتي؟ لا أدري كيف. وعندما حفظتها، لم أحفظها على أساس تصديق غيري بها، بل تعرّفت عليها في فكري، ووافقت على صحتها، وسلّمتها له وديعةً بإمكاني أن أستردّها متى شئت. إذن، فهي كانت فيه أيضا، قبل أن أحفظها، لكنها لم تكن في الذاكرة. إذن أين كانت؟ ولأي سبب عندما قيلت لي، عرفتها وقلت: «هذا صحيح، هذا حقيقي!»؟ ما ذلك إلّا لأنها كانت من قبلُ في الذاكرة، لكنها كانت مخفيّة، وكأنّها مدفونة في إعماق عجيبة على قدر من العمق بحيث لو لم تنبشها يد معلم، لربما ما كنت أفكّر فيها.

18.XI. لذلك نستخلص أن حفظ الأشياء التي لا نستوعب صورها بالحواسّ لكنّنا نراها بلا صور كما هي بالذات، ليس شيئا آخر سوى التجميع بالفكر لما كانت الذاكرة تحتويه هنا وهناك مبعثرا ودون نظام، وجعلها، عن طريق الانتباه، في المتناول وتحت الطلب في الذاكرة عينها، بعد أن كانت مختفية فيها مبعثرة ومهملة، فيسهل على طالبها المتعود على ذلك استحضارها.

وكم منْ معارفَ من هذا القبيل تحملها ذاكرتي، وهي معارف موجودة بعدُ، كأنّها كما قلت، موضوعة تحت الطلب، ونقول بشأنها: حفظناها وعرفناها! فلو توقّفتُ، مُدة وجيزة من الزمن، عن تذكّرها لرأيتها تُغْمَر من جديد، وكأنّها تتشتت في حجرات أكثر خفاء، حتى أنّه يجب التفكير فيها مرة ثانية، كما لو كانت جديدة، وإخراجها منها مرّة أخرى من هناك - إذ إنه ليس لها مكان آخر توجد فيه - وتجميعها ثانية (cogenda)، لأتمكن من أن أعرفها، أي يجب عليّ، إن صحّ التّعبير أن أحشدها بعد تشتّتها، ومن قبل قيل cogitare أي «عقل وفكّر»، فالعلاقة بين «جمّعَ» (cogo) و«فكَّرَ» (cogito) هي التي توجد بين «فَعَلَ» (ago) و«خَمَّنَ» (agito)، وبين «فَعَلَ» (facio) و«فَعَلَ بكثرة» (factito). لكنّ العقل طالب مع ذلك لنفسه بتلك اللفظة (cogito)، لاستعماله الخاصّ، بحيث أنّ تلك التجمّعات التي لا تقع إلّا في الفكر أو تلك التجميعات (cogitur)، هي بالذات التي تسمّى الآن فكرا (cogitare).

19.XII. تحتوي الذاكرة أيضا على العلاقات والقوانين اللامحدودة للأعداد والمقاييس. ولا شيء منها انطبع فينا بواسطة حسّ جسمانيّ، فهي لا لون لها ولا صوت ولا رائحة ولا طعم ولا هي بالملموسة. ونحن عندما نتكلم نسمع بالفعل الأصوات التي تدل على الكلمات عندما ننطق بها، لكن شتّان بين الكلمات والأشياء، فالأولى تنطق بصورة مختلفة، من جهة ما تكون يونانية أو لاتينيّة، أما المفاهيم فليست وقفا على أيّة لغة من اللغات. ورأيت خطوطا من صنع صانعين مَهرة، في منتهى الدقة، كخيوط العنكبوت؛ لكن الخطوط الأخرى، أي خطوط الرياضيين، مختلفة عنها، فهي ليست صور تلك التي عرّفتْني إياها العين الجارحة، إذ يعرفها كلّ من تعرّف عليها داخليا، دون أدنى تفكير في أي جسم كان. أدركت أيضا، بجميع حواسّ الجسم، الأعداد المعدودة التي نعدّها، لكن الأعداد التي نعد بها مختلفة عنها اختلافا تاما، وليست بصور الأولى، لذلك فهي موجودة وجودا مطلقا(1). فليسخر مني، وأنا أقول

(1)... et ideo ualde sunt =... فهي موجودة وجودا مطلقا. المرجع نفسه، ص 254 الملاحظة =

هذا للذين لا يميّزون بين نوعي العدد، ولأشفق أنا عليهم، لضحكهم منّي!

20.XIII. جميع هذه الأشياء، أحتفظ بها في الذاكرة، وكيفية تعلّمها أحتفظ بها أيضا في الذّاكرة. والعديد كذلك من الاعتراضات التي قدّمت ضدّها على وجه الخطإ، سمعتها وأحتفظ بها في الذّاكرة؛ ورغم أنّ هذه الأطروحات غالطة، فتذكرها ليس بالغلط؛ والفرق بين تلك الحقائق وهذه الأغلوطات التي تقال ضدها، أتذكره أيضا، وأرى الآن من ناحية أني أميز بينها، ومن ناحية أخرى، أتذكر أني كثيرا ما ميزت بينها، وأنا أفكّر فيها عديد المرّات. إذن أتذكّر أنني فهمت هذه الأشياء في الغالب، وكوني أميّزها الآن وأفهمها، فأشدّ عليه في الذاكرة، كي أتذكّر من بعد أنّي فهمته الآن. إذن أتذكّر أيضا أنّي تذكّرت، كما أنّي، من بعد، إن تذكرت أنّه أمكنني الآن أن أتذكّر، فإنني سأتذكّر طبعا بفضل قوّة الذاكرة.

21.XIV. مشاعر روحي تحتويها أيضا نفس الذاكرة، لا بالكيفية عينها التي تملكها الروح ذاتها فيها عندما تنفعل من جرّائها، بل بكيفية أخرى مختلفة جدّا، شبيهة بالقوة التي تملكها الذاكرة.

فأنا أتذكّر أني كنت فرحا، ولست فرحا، وأستعيد حزني السابق، ولست حزينا، وأتذكر أنني خشيت في يوم ما، وأنا دون خشية، وأتذكر رغبة قديمة، وأنا بلا رغبة. وقد يحدث بالعكس أن أتذكر حزني السابق وأنا فرح، وأتذكر فرحي وأنا حزين.

ولا مجال للاستغراب إذا تعلق الأمر بالجسم، لأنّ الروح شيء والجسم شيء آخر. لذلك، إن أنا شعرت بالغبطة عند تذكّر ألم قديم في الجسم، فلا مدعاة للاستغراب من ذلك. لكن الأمر يختلف عن هذا على الصعيد الذهني، فالذاكرة هي الفكر عينه. يدل على ذلك حتى كلامُنا عندما نأمر شخصا بالقيام بشيء ونؤكد على حفظه في الذاكرة فنقول: «احرص على أن تمسكه بفكرك!» وإذا نسينا قلنا: «لم يعد ذلك في فكري»، أو «أفلت من فكري»، مسمّين الذاكرة ذاتها بالفكر.

وإن كان الأمر إذن هكذا، فما السبب في كوني، عندما أتذكر حزني السالف، وأنا فرح، يكون الفكر فرحا، وتكون الذاكرة حزينة، وإن كان الفكر فرحا، فبسبب كون

= 1: «هذا التمييز بين الأعداد الملموسة والأعداد المجرّدة عرضه أرسطو... فالأعداد الملموسة تصلح لعدّ الاشياء، لكن هذا العدّ الملموس يستعصي ويكون متعذّرا لو لم تكن لنا تلك المعرفة المسبقة للأعداد المجرّدة».

الفرح موجودا فيه، أما والذاكرة يوجد فيها الحزن، فلماذا لا تكون حزينة؟ أتكون ربما دون اتصال بالفكر؟ من يتجرأ على القول بمثل هذا؟

لا غرو إذن أن تكون الذاكرة بمثابة مَعِدة الرّوح، والفرح والحزن بمثابة الطعامين الحلو والمرّ: فعندما يبلغ هذان الشعوران إلى الذاكرة، فكأني بهما، بعد أن يحلا بالمعدة، يستطيعان أن يظلاّ هنالك، دون أن يكون لهما طعم.

وليس من الجد القول بكون هذه الأشياء تشبه تلك، لكنه مع ذلك لا يوجد فرق كبير بينهما.

22. بل إني أصدر عن الذّاكرة، عندما أقول إنّ هناك أربعة انفعالات في النفس: الرغبة والفرح والخوف والحزن. وآخذ من الذاكرة أيضا جميع الأطاريح التي يمكن أن أثيرها عنها، مقسما كل واحدة إلى مختلف أصنافها ومحددا إياها، فأجد في الذاكرة ما أقوله، ومنها أخرجه. ومع ذلك لا أشعر من جرّائها بأدنى اضطراب، عندما أسترجعها بالتذكّر. وقبل أن أسترجعها وأسهب فيها، كانت هي هنالك، في الذاكرة؛ لذلك تمكّنت من استخراجها منها بالتّذكّر.

إذن لعلّ ما يقع للطعام في المعدة بالاجترار شبيه تماما بعودة تلك الأشياء من الذاكرة بالتذكّر. لماذا إذن لا يشعر المناقش، وهو المتذكّر، في فم الفكر، بحلاوة الفرح أو مرارة الحزن؟ ألا يكون هنا الفارق، بما أن التّشابه لا يوجد من كل جهة ولا يعني التطابق؟ إذ من يقول بمثل هذا، لو كنّا كلما سمّينا الحزن أو الخوف نجبر كل مرّة على الحزن أو الخوف؟

وعلى الرّغم من ذلك، فما كنّا نحدّث عنها، لو لم نكن نجد في ذاكرتنا، لا فقط أصوات الكلمات، من جهة الصور المنطبعة فينا بواسطة الحواسّ الجسمانيّة، بل وأيضا الأفكار المتعلّقة بالأشياء ذاتها التي تقبّلناها لا عبر أيّ باب من أبواب لحمنا، بل عبر الرّوح نفسها الخبيرة بانفعالاتها المحسّة بها، وقد أوصلتها إلى الذاكرة، أو أنّ هذه الأخيرة هي التي سجلتها، وإن لم تكلّف بذلك.

23.XV. لكن هل يتمّ هذا عن طريق الصور أم دونها؟ لا يمكن أن نجيب عن هذا السؤال بسهولة؟

أسمّي الحجارة، وأسمّي الشمس، لكن دون أن تكون إحداهما حاضرة لحواسّي، بل تحفظ في الذاكرة صورتهما على ذمتي. وأسمّي ألم الجسم؛ وهو غير حاضر، بما أني لا أتألم، مع ذلك، لو لم تحضر صورته في ذاكرتي لما فقهت ما أقوله عنه، ولما

ميّزت في النقاش بينه وبين اللّذة. وأسمّي صحّة البدن، عندما أكون سليما معافًى؛ فهذه الحال حاضرة حقّا لديّ، لكن مع ذلك، لو لم تكن أيضا صورتها موجودة في ذاكرتي، لما تذكرت بأيّ وجه من الوجوه ما تدل عليه الأصوات المكونة لهذا الإسم، ولما تعرّف المرضى على ما يشير إليه ما يسمّى بالصحة، لو لم تحتفظ قوّة الذاكرة عندهم بالصورة عينها، وإن كان الشيء بالذات غائبا عن أجسامهم.

أسمّي الأعداد التي نَعُدّ بها، فإذا هي ذاتها في ذاكرتي، لا صورها. وأسمّي صورة الشمس، وها هي حاضرة في ذاكرتي، فأنا لا أتذكّر صورة صورتها، بل أتذكّرها هي بالذات: هي بالذّات حاضرة على ذمّة ذاكرتي حالما أستحضرها. أسمّي الذّاكرة، وأتعرّف على ما أسمّي. فأين أتعرّف عليها، إن لم يكن في الذاكرة ذاتها؟ فهل تكون هي بصورتها حاضرة لنفسها، ولا حقيقة ذاتها؟

24.XVI. ثمّ ماذا؟ عندما أسمّي النسيان وأتعرّف هناك على ما أسمي، فأنّى لي أن أتعرّف عليه إن لم أتذكّره؟ لا أقصد هنا لفظ الإسم ذاته، بل المعنى الذي تدلّ عليه، فلو كنت قد نسيته، لما كنت قادرا على أن أتعرّف على ما يدّل عليه تلك الأصوات. إذن، عندما أتذكر الذاكرة، تكون الذاكرة نفسها تحت طلب نفسها بالذات؛ أمّا عندما أتذكّر النسيان فالذاكرة والنسيان يكونان معا تحت الطلب، الذاكرة التي بها أقدر أن أتذكرّ، والنسيان الذي أقدر أن أتذكره. لكن ما عسى أن يكون النسيان، إن لم يكن فقدان الذّاكرة؟ إذن كيف يمكن أن يكون حاضرا كي أتذكره، والحال أنه، عندما يكون حاضرا، لا أستطيع أن أتذكر؟ أمّا وأنّنا، إن احتفظنا بما نتذكره بالذاكرة، فلو لم نتذكر النسيان، لما استطعنا البتّة وقد استمعنا إلى هذا الإسم، أن نتعرف على ما يدل هو عليه، لذا فالنسيان تحتفظ به الذاكرةُ. إذن فهو حاضر، مخافة أن ننساه، أما عندما يحضر، فننسى.

هل يستخلص من هذا أنه لا يكمن هو ذاته في الذاكرة، عندما نتذكرّه، بل صورته، حيث أن النسيان، لو كان بذاته حاضرا تحت الطلب، لجعلنا لا نتذكّر، بل ننسى؟"[1]

ومن سيقتفي هذا الأثر إلى النهاية؟ من سيفهم كنه المسألة؟

---

(1)... **non ut meminissemus, sed ut obliuisceremur**,... = لا نتذكّر بل ننسى؟ المرجع نفسه، ص 243 الملاحظة 1: «يغوص التحليل الثاقب الذي يقوم به أوغستينوس في متاهات ودقائق متناقضة... لا تخفى منها نزعته التصوّف: كما لو كان مجرّد العدّ الذهني "للنسيان" امرا كافيا لتضليل الذاكرة!».

25. أنا حقّا، مولاي، أُجهِد نفسي في هذه المسألة، أجهدها في ذاتي: أصبحتُ لنفسي أرض عسر وعرق مفرطين. لأننا الآن «لا نتفحص مناطق السماء» ولا نقيس بُعْد الكواكب، ولا نبحث عن توازن الأرض. أنا الذي أتذكرّ، أنا، أعني فكري. لا غرابة هكذا أن يكون بعيدا عني كلّ ما ليس أنا. لكن أيّ شيء هو أقرب منّي من ذاتي عينها؟ وها أنا لا أفهم حتى قوّة ذاكرتي، إذ إني دون الذاكرة لا أقدر أن أسّمي حتّى نفسي ذاتها. فماذا سأقول إذن، عندما سأكون متحققا من كوني أتذكّر النسيان؟ هل سأقول إنّ ما أتذكّره ليس بذاكرتي؟ أم هل سأقول إن النسيان يكمن في ذاكرتي من أجل ألّا أنسى؟ كلا الرّأيين غاية في العبث.

ما حظ هذا الرأي الثالث من الصحة؟ كيف يمكن أن أقول إن صورةَ النسيان هي التي تحفظ في الذاكرة لا النسيان عينه، عندما أتذكره؟ نعم بأية طريقة أقدر أن قول هذا، خاصة وأنه - عندما تنطبع صورة شيء ما في الذاكرة - لا بد أوّلا أن يحضر الشيء ذاته، كي يمكن أن تنطبع منه تلك الصورة؟ فها أنذا أتذكر قرطاجةَ[1]، وها أنذا أتذكّر جميع الأماكن التي عشت فيها، وها أنذا أتذكّر وجوه الناس الذين رأيتهم، وكل ما تعرفت عليه بحواسّي الأخرى؛ كذلك صحة الجسم أو الألم. عندما كانت هذه الحقائق حاضرة تقبلتْ منها ذاكرتي صورا، حتى أتأمل فيها كالحاضرة، وأستعرضها في الفكر وأنا أتذكرّها كالغائبة.

إذن، لتحفظ الذاكرة لا النسيان ذاته بل صورته، لابدّ أنّه كان حاضرا، كي تأخذ صورته. لكن لو كان حاضرا، فكيف ستسجل صورته في الذاكرة، بما أنّ النسيان، بمجرد حضوره يمحو كلّ ما يجده بعد مسجّلا؟ ومع ذلك، وبأية كيفيّة كانت، رغم أن تلك الصورة لا تفهم ولا تفسّر، أنا متحقّق من كوني أتذكّر أيضا النسيان ذاته، الذي يهدم جميع ما نتذكره.

XVII.26. عظيمة هي قوة الذاكرة! إنها شيء لا أدري ما هو، يا إلـهي، شيء مرعب بعيد القرار، لامحدود التنوع (multiplicitas = multiplicité)؛ ذاك هو الفكر، وأنا بالذات هو ذاك، لذا فما أنا، يا إلـهي؟ ما هو كنهي؟ حياة متنوّعة، متعدّدة الأشكال، شاسعة للغاية.

انظرْ، في ذاكرتي الحقولُ والكهوفُ والمغاراتُ التي لا تحصى، والمليئة بعديد الأجناس من الأشياء، سواء بالصور كما هو شأن جميع الأجسام أو بالحضور كما في

---

(1) Carthaginis memini... ,... =... ها أنذا أذكر قرطاجة... المرجع نفسه، ص258 الملاحظة 2: «سبق أن استعمل أوغستينوس هذا المثال في الرسالة VII،1 التي كتبها قبل عشر سنوات».

العلوم، أو بما لا أدري من الأفكار أو التدوينات، كما في مشاعر الروح التي تحفظها الذاكرة، وإن لم تنفعل الروح من جرائها رغم أنّ كلّ ما يوجد في الذاكرة يوجد في الفكر أجري مخترقا جميع هذه الأشياء وأطير هنا وهناك، ألجها أيضا، بقدر ما أستطيع: لا شيء يحدّها! ما أعظم قوّة الذاكرة، وما أعظم قوّة الحياة عند الإنسان الحيّ الفاني!

تُرى، ما العمل، يا حياتي الحقّ، يا إلهي! سأتجاوز أيضا هذه القوّة لديّ التي تسمّى الذاكرة، سأتجاوزها حتى أتجه نحوك، يا نوريَ العذب. ماذا تقول لي؟ ها أنذا صاعد بفضل روحي إليك، أنت الذي تسكن عاليا فوقي، وسأتجاوز قوّتي هذه التي تسمّى الذاكرة، راغبا في الوصول إليك، من الجهة التي أستطيع أن أصل إليك منها، وفي معانقتك من الجهة التي يمكن أن تُعانق منها، فالذاكرة تملكها أيضا الدوابّ والعصافير، وإلّا لما عادت إلى مرابضها وأعشاشها، ولما قامت بأشياء كثيرة أخرى عاديّة لديها، إذ ما كانت لتتعوّد كذلك على أيّ من هذه الأفعال إلّا بالذاكرة، إذن سأتجاوز أيضا الذاكرة، حتى أصل إلى الذي «فصلني عن السوائم وجعلني أكثر حكمة من الطيور في السماء». سأتجاوز أيضا الذاكرة لأجدك: أين أنت،أيّها الطيب الحقّ، أيتّها العذوبة الثابتة؟

إن وجدتك خارج ذاكرتي، فهذا دليل على أني نسيتك، وأنّى لي أن أجدك مستقبلا، إن لم أعد أتذكّرك[1]؟

27.XVIII. والمرأة التي أضاعت دراخمتها[2] (**Drachme ou dragman**)، فهبّت تبحث عنها على ضوء المصباح، لو لم تكن تذكر مكانها، لما وجدتها. فمن أين كان لها، بعد أن وجدتها، أن تلك القطعة المالية هي القطعة التي فقدتها، إن لم تكن تتذكرها؟ أذكر أنّي أضعت كثيرا من الأشياء، فبحثت عنها ووجدتها؛ وأعرف جيّدا أنني، أثناء البحث عن شيء ما، كان يقال لي: «ألا يكون ربّما هذا؟»، «ألا يكون ربّما ذاك؟»، وكنت أجيب «كلاّ»، طالما لم أهتد إلى ما كنت أبحث عنه. فلو لم أكن أتذكّره، مهما كان هو، ما كنت – وإن كنت اهتديت إليه – لأجده، لأني ما كنت لأتعرّف عليه. هكذا يحدث دائما، عندما نبحث عن شيء مفقود ثمّ نجده. وبالعكس، إن صادف أن

---

(1) ?si memor non sum tui... =.. إن لم أعد أتذكّرك؟ المرجع نفسه، ص 260 الملاحظة 1: «هو نفس الاعتراض الذي تقدّم به "مينون" Ménon بين يدي سقراط عندما أعلن هذا الأخير أنّه يقوم بالبحث عن حقيقة العفّة التي كان يتظاهر بتجاهل حقيقة أمرها».

(2) هي القطعة النقدية اليونانيّة المعروفة: انظر الكتاب الثامن III.6.

غاب شيء ما عن بصرنا لا عن ذاكرتنا، كأن يكون جسما ماديا يُرى، فإنّ صورته تُحفظ فينا، ونبحث عنه حتى يُردّ إلى نظرنا. وبعد أن نجده، نتعرّف عليه طبقا للصورة التي هي فينا، ولا نقول إننا قد وجدنا ما كان قد فُقِدَ، ما لم نتعرّف عليه، ولا نستطيع أن نتعرّف عليه، إن لم نتذكرّه: فذلك الشيء قد ضاع لعمري عن بصرنا، لكنّ الذاكرة حفظته ولم تضيّعه.

28.XIX. ثمّ ماذا؟ عندما تفقد الذاكرة ذاتها شيئا ما، كما يحدث، عندما ننسى شيئا ونبحث عنه لنتذكّر، أين إذن نبحث عنه، إن لم يكن في الذّاكرة بالذات؟ وإن قدّمت لنا صدفة شيئا مكانَ آخر، رفضناه، إلى أن يأتي ذلك الذي نبحث عنه، وعندما يأتي، نقول «ها هو!»؛ وما كنّا لنقوله، لو لم نتعرّف عليه، وما كنّا لنتعرّف عليه، لو لم نتذكرْه. والحقيقة أننا قد نسيناه بالفعل.

أم هل يجب أن نعتبر أنّ الشيء لم يفلت منّا كليّا، بل كنا اعتمادا على الجزء الذي نمسكه، نبحث عن الجزء الآخر، لأن الذاكرة كانت تشعر أنها لا تستطيع أن تتصوّره كليّا، كما اعتادت ذلك، ولأنّها كما لو كانت مقطوعة من عادتها كانت عرجاء تطالب بأن يرد لها الجزء الذي كان ناقصا؟

ذاك ما يقع، عندما نرى بأعيننا رجلا نعرفه، أو عندما نفكّر فيه، ونبحث عن اسمه لكن دون جدوى، فيتبادر اسم آخر، لكنه لا يرتبط به، لأنّنا لم نعتد أن نقرنه به في فكرنا، ولذلك لا نقبله حتى يحضر الإسم الذي تَجِدُ فيه أخيرا الدّلالةُ المعتادة موافقتنا التامة. فمن أين يحضر إن لم يكن من الذاكرة عينِها؟ فعندما نتعرّف عليه بعد أن يعيننا شخص آخر علي ذلك، فهو يخرج من هناك. إذ إنه ليس شيئا جديدا نصدّق به، بل هو شيء نتذكره ونُقِرّ بكونه هو الذي قيل. ولو مُحي من داخل فكرنا محوا تاما لما تذكرناه، وإن نبّهنا إليه، إذ إن تذكّر كونك قد نسيت شيئا دليل على كونك لم تنسه تماما. فنحن لن نقدر أن نبحث عن هذا الشيء المفقود، إن كنا قد نسيناه تماما.

29.XX. إذن كيف أبحث عنك، يا مولاي؟ عندما أبحث عنك، يا مولاي، أبحث عن السعادة. فلأبحثْ عنك، كي تحيا روحي! لأنّ جسدي يحيا من روحي، وتحيا روحي منك ! كيف أبحث إذن عن السعادة والحالُ أنها ليست ملكِي طالما لم أُحمَلْ على أن أقول: «كفى، هي هنا». فكيف أبحث عنها؟ هل يتمّ ذلك بتذكّرها من جديد، وكأني نسيتها ورغم نسياني فلا أزال أشعر بها. أوليست السعادةُ مطلبَ جميع الناس وما يرغبون في إدراكه والفوز به؟ أين عرفوها حتى يريدوها هكذا؟ أين رأوها حتى يحبوها؟ لا شكّ أنّنا نملكها، لكن لا أدري كيف. هناك معيارٌ آخرُ للسّعادة، به يكون

من يملكه سعيدا، وثمّة من يكونون سعداء بالأمل. هؤلاء يملكون منها معيارا أقلّ من أولئك الذين هم بعد في السعادة الحقّ ذاتها، لكنهم أسعد مع ذلك من الذين ليسوا بالسعداء لا بالفعل، ولا بالأمل.

ومع ذلك فهؤلاء أيضا، لو لم يملكوا منها قسطا ضئيلا، لما كانوا يريدون هكذا أن يكونوا سعداء: أمّا أنهم يريدون السعادة، فذاك مؤكّد! كيف تمّ ذلك؟ لا أدري كيف عرفوها، على كلّ فهي توجد عندهم، ولهم عنها فكرة لا أدري ما هي. والأمر الذي يشغلني هو هل تكمن هذه الفكرة في الذاكرة؟ فإن كانت فيها، كنّا إذن سعداء في الماضي؛ هل كنّا جميعا سعداء فردا فردا، أم هل كانت السعادة في ذلك الإنسان الذي كان أوّل مذنب والذي متْنا أيضا فيه جميعا والذي ولدنا منه جميعا بشقائنا؟ لا أبحث فيه الآن، بل أبحث هل توجد السعادة في الذاكرة. إذ ما كنّا لنحبّها، لو لم نعرفها. نسمع هذا الإسم، فنعترف جميعنا بأنّنا نتوق إلى هذا الشيء؛ إذ لا نُفتن بالصوت وحده. فعندما يسمع يونانيّ هذه الأصوات اللاتينية لا يفتن بها، لأنّه يجهل ما تعنيه، أمّا نحن فنفتن بها فتنة اليونانيّ إذا سمعها باللغة اليونانية، ذلك أن الدلالة عينها ليست يونانيّة ولا لاتينيّة، وهي التي يحلم بالبلوغ إليها اليونانيون واللاتينيون والناطقون بجميع اللغات الأخرى. إذن فهي معروفة، يعرفها الجميع، فلو أمكن أن يُسألوا مرّة واحدة، هل يريدون أن يكونوا سعداء، لأجابوا دون أيّ تردّد: نعم. وما كان ليقع ذلك، لو لم تكن الدّلالة عينها التي ذلك الاسم هو اسمها، محفوظة في ذاكرتهم.

XXI.30. هل ذلك التذكّر هو كما يتذكّر قرطاجةَ من رآها؟ لا: فالسعادة لا ترى بالعينين، لأنّها ليست بجسم[1].

وهل هو كما نتذكر الأعدادَ؟ لا: فمن له فكرة عنها لا يحاول من بعد أن يتحصّل عليها، أمّا السعادة فبما أنةّ لنا فكرة عنها، فنحن نحبّها لذلك، ومع ذلك نريد أيضا أن نتحصل عليها، حتى نكون سعداء.

هل هو كما نتذكّر قواعد البلاغة؟ لا: رغم أن الذين ليسوا بعدُ بلغاء يتذكّرون الشيء بالذات لمجرد سماع هذا الإسم، ورغم أنّ الكثير منهم يرغبون في أن يكونوا هكذا سعداء – من هنا يظهر للعيان أنّ لهم فكرة عنها – مع ذلك فبحواس الجسم

---

(1) المعنى العامّ لهذا الكلام، حسب هذا الشارح، المرجع نفسه، ص 264 الملاحظة 1: «... توجد فكرتان متماسكتان: 1°) نملك عن الفصاحة وكذلك عن السعادة تصوّرا باطنيّا، 2°) لكنّنا نلاحظ الفصاحة بالحواسّ، أمّا السعادة فتفلت من قبضتها».

لاحظوا أن الآخرين بلغاء، وفُتنوا ببلاغتهم، وكانوا يرغبون فيها. على أنّ افتتانهم بهم، ورغبتهم فيها يقتضي أن تكون لهم عنها فكرة داخلية، وأن يكونوا قد ذاقوها واختبروها بحواسهم: أمّا السعادة فلا نختبرها عند الآخرين بأيّة حاسّة جسمانيّة.

وهل هذا التذكّر كما نتذكرّ الفرح؟ لعلّه كذلك. فأنا أتذكّر فرحي، ولو كنت حزينا، تذكّري لسعادتي ولو كنت شقيّا، والحال أنّ فرحي ما رأيته ولا سمعته ولا شممته ولا ذقته ولا لمسته بأية حاسّة جسمانيّة، بل اختبرته في روحي عندما سُررت، وبقي المفهوم منه عالقا في ذاكرتي، كي أقدر تارة أن أتذكره بازدراء، وطورا بشهوة، طبقا لاختلاف تلك الأشياء التي أتذكّر أني فرحت بسببها. فقد اتفق أن غُمرت بنوع من الفرح، تارة في ظروف مخزية أكرهها وألعنها الآن في ذاكرتي؛ وتارة أخرى لأسباب طيّبة وشريفة، أتذكرّها بالندم، وإن لم تكن حاضرة، فإني أتذكّر لذلك بالحزن فرحي السالف.

31. أين إذن ومتى اختبرت السعادة، حتى أتذكّرها، وأحبّها وأرغب فيها؟ لا أريد ذلك لنفسي وحدها، أو لنخبة ضيقة، بل أريد أن نكون جميعا سعداء. ولو كنّا نعرفها معرفة غير ثابتة، لما طلبناها بهذه الإرادة الثّابتة. لكن ماذا تكون؟ فلو طُلبَ من اثنين هل يريدان أن يحاربا، لربّما أجاب أحدهما أنّه يريد ذلك، والثاني أنه لا يريده؛ أمّا لو طلب منهما هل يريدان أن يكونا سعيدين، لأجاب كل منهما على الفور دون أي تردّد أنهما يرغبان في ذلك. ولم يرغب الأوّل في الحرب، ولا رغب عنها الآخر إلّا لكونهما يريدان السعادة.

فقد يختلفان فيحب أحدهما شيئا ويحب الآخر شيئا آخر، لكنهما يتفقان معا على طلب السعادة، تماما كما يتّفقان، لو سئلا هل يريدان الفرح، ويسمّيان فرحهما عينه بالسعادة، أمّا إن اتّبع الواحد هذا المسلك، والآخر مسلكا مغايرا، فمع ذلك يتّحدان في كونهما يحاولان معا أن يبلغا الفرح. وبما أنه لا أحد يستطيع أن يدّعي أنه لم يختبر الفرح فإننا نجده في الذّاكرة، ونتعرّف عليه فيها، عندما نسمع اسم «السعادة» ينطق.

32.XXII. ليبتعدْ عن قلبي، يا مولاي، ليبتعدْ عن قلب خادمك الذي يعترف إليك، ليبتعدْ عن قلبه كوني أظنّ أنّي سعيد بأي فرح أفرح به! إذ هناك فرح لا يعطى للكفّار، بل يعطى لمن يعبدونك مجانا، أنت ذاتك فرحهم، والسعادة ذاتها هي الفرح بك ولك وبسببك: تلك هي بالذات ولا غيرها. أمّا الذين يظنّونها فرحة أخرى، فيقتفون أثر فرح آخر، لا الفرح الحقّ بالذات. ومع ذلك فلا تحيد إرادتهم عن صورة ما من صور الفرح.

XXIII.33. أليس من الثابت إذن أنّ جميع الناس يريدون أن يكونوا سعداء، بما أنّ الذين لا يبحثون عن الفرحة فيك أنت – مصدر السعادة الوحيدة – لا يريدون السعادة بأتم معنى الكلمة؟ أم هل يريد الجميع ذلك، لكن بما أن «اللحم يشتهي ضدّ الرّوح، والروح ضد اللحم، حتى لا يفعلا ما يريدان»، فهما ينزلان إلى ما يقدران عليه، ويقنعان به، لأنّ ذلك الذي لا يقدران عليه لا يريدانه بما يكفي من القوة ليكونا قادريْن عليه؟

أسأل جميع الناس أيفضّلون الفرح في الحق أم الفرح في الباطل، فيقولون دون تردد إنّهم يفضّلون الحقّ، تماما كما يفضلون أن يكونوا سعداء. السعادة هي لعمري الفرح في الحق. فذاك هو الفرح فيك، أنت الحقّ، أنت إلـٰهي «ونوري وسلامة مُحيّايَ يا إلـٰهي»! جميعُ الناس يريدون تلك السعادة، هذه الحياة السعيدة دون سواها، الجميع يريدونها، الفرح في الحقّ يريده الجميع.

عرفتُ كثيرا من الناس يريدون أن يغالطوا غيرهم، لكن لم أعرف أحدا يريد أن يغالَط. إذن فأين عرفوا هذه السعادة، إن لم يكن حيث عرفوا أيضا الحقّ؟ يحبونه هو أيضا، لأنّهم يرفضون أن يغالَطوا، وبما أنّهم يحبّون السعادة، وليست سوى الفرح في الحق، يحبّون بالطبع الحق أيضا، وما كانوا ليحبّوه لو لم يكن شيء ما من معناه في ذاكرتهم.

إذن لِمَ لا يفرحون فيه؟ لِمَ هم ليسوا سعداء؟ لأنهم منشغلون انشغالا أكبر بأمور أخرى تجعلهم تعساء، أكثر ممّا يجعلهم سعداء ذلك الشيء الذي يتذكرونه بصورة ضئيلة. «فهو لا يزال نورا ضئيلا بين الناس»: فليمشوا! ليمشوا «حتى لا تمسك بهم الظلمات!».

34. من ناحية أخرى لماذا «يلد الحقّ الكراهيّة»؟ لماذا أصبح الإنسان المبشّر بالحقّ باسمك، عدوّا لهم، والحال أن السعادة محبوبة وليست إلّا الفرح في الحقّ، لو لم يكن لأنّ الحقّ يُحبّ بكيفيّة تجعل الذين يحبون غيرهم يريدون أن يكون ما يحبونه هو الحقّ، ولمّا كانوا رافضين الزلل، فهم يرفضون أن يفحموا بضلالهم؟ لذلك يكرهون الحقّ، بسبب ذلك الشيء الذي يحبونه وكأنّه الحقّ. يحبّونه لضيائه، يكرهونه لمؤاخذة الناس لهم. فلأنّهم يرفضون كونهم ضالّين، ويريدون تضليل الآخرين، يحبّون النور عندما ينكشف في ذاته، ويكرهونه عندما يكشف أمرهم. لذا سيعاقبون: عقابهم أنهم لا يريدون أن يكشف النور أمرهم، لكنه سيفضحهم لا محالة، وسيبقى محجوبا عنهم. ذلك هو شأن القلب البشري، نعم ذلك بحقّ شأنه، قلب أعمى كسول مخجل وقح،

يريد أن يختفي، لكن لا يريد أن يَخفَى عنه شيء. فيجازى بعكس هذا: لا يخفى هو عن الحقّ، في حين أنّ الحق يخفى عنه. ومع ذلك أيضا، ومهما كان شقيّا، فهو يفضّل أن يفرح في الحق عوضا عن الضلال. سيكون إذن سعيدا، إن لم تعترضه أيّة عقبة، فيفرح في الحق وحده الذي من ذاته عينها تأتي كل الحقائق.

35.XXIV. انظرْ كم جُبت في ذاكرتي، باحثا عنك، يا مولاي، ولم أجدك خارجها! لم أجد منك شيئا لم أتذكرّه، منذ أن عرفتك. إذ منذ أن عرفتك ما نسيتك، فعندما وجدت الحقيقة، وجدت فيها إلـهي الحقّ بالذات، ومنذ أن عرفته، لم أنسه. إذن منذ أن عرفتك، وأنت دائما في ذاكرتي، وهنالك أجدك، عندما أتذكرّك، وألتذّ فيك. تلك هي ملاذّي المقدّسة التي أعطتنيها رأفتُك، ناظرة إلى فقري بالشفقة.

36.XXV. لكن، أين مقرّك في ذاكرتي، يا مولاي، أين مقرك هناك؟ أيّة حجرة أعددتها لنفسك؟ أيّ معبد بنيته لك؟ أنت أعطيت ذاكرتي هذا الشرف، لتقيم فيها، لكن في أي جزء منها تقيم؟ ذاك ما أسأل عنه نفسي، وعندما سألتها تجاوزت أجزاء ذاكرتي التي أشترك فيها مع السوّائم، ولم أجدك فيها بين صور الأشياء الجسمانية، وانتقلت إلى أجزائها التي أودعتُ فيها مشاعر روحي، فلم أجدك هنالك أيضا. ودخلت إلى مركز روحي ذاتها الذي يوجد في ذاكرتي، بما أن الروح تتذكر كذلك ذاتها، فما كنت أنت هناك، لأنك لست صورة جسمانية ولا شعورا من مشاعر الكائن الحيّ كالفرحة مثلا أو الحزن أو الرغبة أو الخوف أو التذكر أو النسيان وهلم جرّا، ولست أيضا الفكرَ ذاته، لأنّك مولى الفكر وإلـهُه. كلّ هذا يتغيّر، أما أنت فدائم لامتغيّر، وتظلّ فوق كلّ شيء، وتكرّمت فسكنت في ذاكرتي منذ أن عرفتك.

لِمَ أبحث فيها عن المكان الذي تسكنه، كما لو كانت الأماكن فيها متميّزة؟ فيها تسكن حقّا، بما أني أتذكرك، منذ أن عرفتك، وفيها أجدك، عندما أعود إليك.

37.XXVI. إذن أين أجدك كي أتعرّف عليك؟ إذ لم تكن بعدُ في ذاكرتي، قبل أن أتعرّف عليك. إذن أين وجدتك، كي أتعرّف عليك، إن لم يكن فيك، أنت الأعلى مني؟ إذا سرنا نحوك فلا مسافة تبعدنا عنك أو تقرّبنا منك. أنت الحقّ، ترأس كل الاستشارات أيضا، الموجهة إليك في كل مكان، وفي نفس الوقت تجيب جميع أصحابها في مختلف أغراضهم. أنت تجيبهم بوضوح، ولكنهم جميعا لا يسمعونك بوضوح. كلهم يستشيرونك فيما يريدونه، ولكنهم لا يسمعون دوما منك ما يريدون. خادمك الأمثل ليس الذي ينشغل بأن يسمع منك ما يريده هو، بل الذي ينشغل بأن يريد ما يسمعه منك.

38.XXVII. تأخّرت في حبّك، أيها الجمال القديم كلّ القدم الحديث كلّ الحداثة، تأخّرت في حبّك! وها إنّك كنت في داخلي، وأنا خارج نفسي، وكنت أبحث عنك فيها، وكنت أنقضّ، أنا الدّميم، على جلال خلائقك. لقد كنت معي، ولم أكن معك. كانت تشدني بعيدا عنك، تلك الأشياءُ التي لو لم تكن فيك لما كانت. ناديتَني فأسمعتَ صمَمِي، وأشرقتَ فرفعتَ عماي، وفُحت فشممت عبقَك وتنشقته؛ ها أنذا أحنّ إليك، ذقتك فازداد جوعي لك وعطشي، ولمستني فاتّقدت (شوقا) إلى سلامك.

39.XXVIII. عندما سأحلّ فيك كلّيا، لن يكون لي في أيّ مكان ألم ولا ضنًى، وستكون حياتي، وهي ملأى بك كلّيا، الحياة الحقّ. إنّك من تملؤه تُخفّفه. أمّا الآن، وأنا ما زلت غير مليىء بك، فأنا عبء لنفسي، فأفراحي التي عليّ أن أبكيها تتنافس مع أحزاني التي عليّ أن أفرح منها، ولا أدري لمن سيكون النصر.

ويل لي، أنا الفقير! «مولاي أشفق عليّ!». تتنافس أحزاني السيئة مع أفراحي الطيّبة، ولا أدري لمن سيكون النصر، ويل لي! «مولاي، أشفق عليّ!» ويل لي! ها أنذا لا أخفي جروحي؛ أنت الطبيب وأنا المريض؛ أنت المشفِق وأنا الشقيُّ، هلاّ تكون «الحياة البشرية فوق الأرض نزغة؟ (**temtatio = graphie tardive de temptatio = «tentation»**) فمن يريد العقاب والمصاعب؟ تأمرنا بأن نتحمّلها، لا بأن نحِبّها، لا أحد يحبّ ما يتحمّل، وإن أحبّ أن يتحمّله، فعلى الرّغم من كونه يفرح بأن يتحمّل، إلّا أنه يفضّل ألّا يكون له ما يتحمّله. عند المِحن أرغب في السعادة، أما في السعادة فأخشى المِحن. هل بين هذين النقيضين من منزلة وسطى حيث لا تكون «الحياة البشرية نزغة»؟ تبّا لسعادات الدنيا أوّلا، وتبّا لها بسبب الخوف من المحن ومن فساد السرور ثانيا! تبّا لمحن الدّنيا مرّة أولى، وثانية، وثالثة، تبّا لها بسبب الرّغبة في السعادة، ولكون المحنة قاسية فيها، ومن أجل حماية الصبر من الاندثار! هلاّ تكون «الحياة البشريّة فوق الأرض نزغةً دون انقطاع؟».

40.XXIX. وكلّ أملي ليس إلّا في شفقتك الكبيرة للغاية. أعطِ ما تأمر به، ولتأمرْ بما تريد. تطالبنا بالعفّة، و«كنتُ أعلم، كما قال أحدهم، ألّا أحد يستطيع أن يكون عفيفا، إن لم يعطه الإلـه ذلك، ولذلك بالذات كان من الحكمة أن نعرف هبةَ منْ هو؟» فالعفّة لعمري تجمعنا، وتردّنا إلى الواحد الذي انحرفنا عنه متبعثرين. إذ لا يحبّك بما فيه الكفاية، من يحبّ معك شيئا آخر لا يحبّه من أجلك. يا حبّا يتقد على الدوام ولا يخبو أبدا، أيتها الرحمة، يا إلـهي، أضرم فيّ النار! تطالبنا بالعفّة: أعطني ما تأمر به، ومُرْني بما تريد.

41.XXX. تأمرني حقّا بأن أتّقي «شَبَق اللحم، وشبق العينين، وطموح الدّنيا».

أمرتَ بالإعراض عن المضاجعة غير الشرعية، وفي خصوص الزواج بالذات، الذي أجزته، نبّهتني إلى ما هو أفضل منه. وبفضل منّك وهبتنيه، وعملت بمقتضاه قبل أن أصبح ناشرَ سرّك. ولكنّها لا تزال تحيا في ذاكرتي التي حدّثت كثيرا عنها صورُ تلك الملاذّ التي رسّختْها هناك العادة. كانت تتقدّم إليّ في يقظتي، خالية من قواها، لكنّها في النوم تأتي قويّة لا فقط إلى حدّ بلوغ اللّذّة، بل وأيضا إلى حدّ الرضا بها وتَوَهُّم عملية الجماع ذاتها. ورغم كونها صورة وهمية فإنها تسيطر على روحي ولحمي، بقوّةَ تجعل الرّؤى الباطلة تقنعني في النوم بما لا تستطيع أن تقنعني به الحقيقيّة في اليقظة. هل أنا آنذاك مختلف عن ذاتي، يا مولاي وإلـهي؟ إن البون شاسع بيني وبين ذاتي، منذ الآونة التي أنغمسُ فيها في النعاس إلى التي أعود فيها إلى اليقظة! أين هو الآن السبب الذي أقاوم من أجله، يقظا، مثل تلك الإيعازات، وأبقى ثابتا أمام هجوماتها عينها؟ هل يوصد مع إغماض العينين عند النعاس؟ هل ينام مع حواسّ الجسم؟ لماذا كثيرا ما نصمد، حتى في المنام، فلا ننسى قراراتِنا الصارمة، ونبقى مخلصين لها كل الإخلاص، ولا ننساق مع أيّة واحدة من تلك الإغراءات؟ ومع ذلك فالبون شاسع جدا، إلى درجة أنّ هذه المقاومة عندما تضعُف نعود عندما نستيقظ إلى راحة الضمير، والمسافة الفاصلة بين الحالتين تجعلنا نكتشف أننا، وإن أسِفنا لذلك، لسنا نحن الذين فعلنا ما فُعل فينا.

42. هل تقدر يدك، يا إلـهي القدير، أن تداوي أسقام روحي، وبنعمة منك أوفر أن تطفئ أيضا الحركات الخليعة في نعاسي؟ ستزيد، مولاي، أكثر فأكثر في نعمك عليّ، حتى تتبعني روحي إليك، متخلّصة من دبق الشبق (**concupiscentiae uisco = de la glu de la concupiscence**)، حتى لا تكون ثائرة على نفسها، ولا ترتكب، في النوم أيضا، لا فقط تلك الدّناءات المخزية، عن طريق صور حيوانيّة تجرّ اللحم إلى الفسق، بل وحتى لا توافق عليها بتاتا، فألّا يروق لي شيء كهذا، وإن كان ضئيلا جدّا، بحيث يمكن لي أن أمنعه أيضا بإشارة مني، وأنا نائم في شعور عفيف، لا فقط في هذه الحياة، بل وأيضا في تلك الأيام الآتية، فليس بالعزيز عليك، أنت القدير الذي «تقدر أن تفعل أكثر ممّا نطلب ونفقه». ومع ذلك، فما أنا لا أزال فيه الآن من هذا النوع من الضنى، قد قلته فيما ينقصني، آملا أن تتّم فيَّ شفقاتك، حتى السلام الكامل الذي ستملكه ذاتي، الداخلية والخارجية، عندما «سوف يُلتهم الموت من أجل النصر».

43.XXXI. ويأتي اليوم بمحنة أخرى، كم أوّد أن «تكون كافية» لك! نُصلِح يوميّا بالطعام والشراب الجسم المنهوك، قبل أن يأتي يومٌ «تَهدِم فيه المأكل والمعدة»،

وتقضي على العوز فيّ بشبع عجيب وتُلبس «هذا الجسم الفاسد ثياب اللافساد الدائم».

أما الآن فأجد في الاضطرار إليهما عذوبة، وأحارب تلك العذوبة حتى لا أصبح لها أسيرا، وأقوم بحرب يومية قوامها الصيام، وكثيرا ما أُلزم جسمي «بالخضوع» إليه[1]. ومع ذلك فالآلام فيّ تطرد باللذة، لأن الجوع والعطش هما ضربان من الألم، يَحرقان ويَقتلان كالحمّى، لولا نجدة الأغذية كالأدوية. لكن بما أنّ هذه الأغذية جاهزة، بفضل سلوان هباتك التي تخدم الأرض والماء والسماء بها ضعفنا، فإن الضرورة المؤلمة تصبح ضربا من اللذة.

44. ذاك ما علّمتنيه: أن أتقدّم للأغذية لأتناولها كالأدوية. لكن، عندما أمُرُّ من ضنى الجوع إلى راحة الشبع، يترصّدني عند مروري بالذات فخّ الشبق. إذ للمرور ذاته لذّة، ولا يوجد غيره، كي أمرّ حيث تفرض عليّ الضرورة العبور. ورغم أنّ الصحة هي سبب الأكل والشراب، فالعذوبة تَنْضَمُّ بخطرها، كأنها تابعة، وكثيرا ما تحاول أن تحوز السبق حتى تصبح السبب الذي من أجله أقول أو أريد ما أفعله من أجل الصحّة.

لكنّ المعيار ليس عينه في كلتا الحالتين، إذ ما يكفي للصحّة قليل بالنسبة إلى المتعة، وكثيرا ما يكون مشكوكا فيه، هل إنّ العناية الضرورية بالجسم تتطلّب زيادة أخرى، أم أنّ خدمة الشبق الخليع تقتضي ذلك باطلا. لهذا الشك تبتهج الروح الشقيّة، وفيه تهيّىء الدفاع على اعتذارها في هذا المضمار، مبتهجة بكونه لا يتضح أن ما يكفي دعامة للصحة يغطّى خدمة اللذة تحت غطاء سلامتها. أحاول يوميّا أن أتصدى لهذه النزعات، وأنادي يمناك، وأعرض عليك ارتباكي، لأنّ رأيي لا يزال غير ثابت في هذا الشأن.

45. أسمع كلمة إلـٰهي تأمرنا: «لا تثقِلوا قلوبكم بالشراهة والإدمان»؛ الإدمان بعيد عنّي، اِرْأف بي كي لا يقترب مني! أما الشراهة فتتسرب أحيانا إلى خادمك[2]: اِرأف بي

---

(1)... in seruitutem redigens corpus ... = «ألزم جسمي بالخضوع إليه». المرجع نفسه، ص 272 الملاحظة 1: «يقدّم لنا "بوسّيديوس" Possidius الذي كتب ترجمة حياة أوغستينوس بعض التفاصيل عن بساطة التقشّف التي كانت تتصف بها مائدة أوغستينوس. على أنّ اللحم والخمرة كانا مباحين...». و«حتى في الحالات التي كان فيها الأسقف يصوم النهار كلّه، فإنه كان يخصص ذلك الوقت لحلّ القضايا التي تعرض عليه...».

(2)... Crapula, s'entend..) subrepit seruo tuo) = الشراهة تتسرّب أحيانا إلى خادمك. المرجع نفسه، ص 273 الملاحظة 1: « La crapula هي البدانة المفرطة بسبب الإفراط في الأكل أو الشرب.والكلمة تنتمي إلى أقدم العصور اللاتينية... لدى الكتاب الكلاسيكيين. والكلمة =

كي تبتعد عنّي! «إذ لا أحد يقدر أن يكون عفيفا، إلّا لو وهبته ذلك». تعطينا الكثير، ونحن ندعوك، وكل الخير الذي تقبلناه قبل أن ندعوك، تقبّلناه منك؛ وما نتعرّف عليه من بعد، تقبّلناه منك. ما كنتُ قطّ سكّيرا مدمنا، بل أعرف مدمنين أصبحوا بفضلك معتدلين. إذن فكون بعضهم اليوم ليسوا البتة كما كانوا هو من صنيعك، وكون بعضهم الآخر لم يعودوا ما كانوا هو أيضا من صنيعك، وكون أولئك وهؤلاء يعلمون من صَانِعُ ذلك فمِن صنيعك أيضا.

سمعت كلاما آخر منك: «لا تجرِ وراء شراهاتك، وابتعد عن الملاذّ». وسمعت كلاما آخر أنعمت به عليّ فأحببته: «إن أكلنا، لم نزدد شيئا، وإن لم نأكل لم ينقصنا شيء». وهذا يعني: الشيءُ الأوّل لن يجعلني غنيّا، والشيء الثاني لن يجعلني فقيرا. وسمعت كلاما آخر: «تعلمتُ أن أكون مقتنعا بما أنا فيه: أعرفُ العيشَ في الوفرة، وأعرف تحمّل الفاقة. أقدر على كلّ شيء بالذي يُقوّيني». ذاك هو جنديّ المعسكر السماوي[1] لا الغبار الذي نمثّله، لكنك تذكر، يا مولاي، «أننا غبار»، ومن الغبار (de puluere = avec de la poussière) خلقتَ الإنسان، «وكان قد ضاع ووجد نفسه». ولم يقو الحواريّ فيه، لأنه غبار مثله، وأحببت قول وحيك هذا وإلهامِك «أقدر على كلّ شيء في الذي يقوّيني». قوّني كي تكون لي القوّة، أعطني ما تأمر به، ومُرْني بما تريد[2]»، فهو يعترف أنه تقبّل منك كل شيء، وأنّه «يفتخر بما يفتخر به في المولى». سمعت غيره يطلب أن يتقبّل ما يقول: «أبعد عنّي غلمات البطن». واضح، يا إلـٰهي المقدّس، أنك أنت الواهب، عندما يحدث أن يقع ما تأمر به.

46. علّمتني، يا أبي الطيّب، أنّ «كلّ شيء صاف للأصفياء!»، لكنه يسوء «المرءَ أن يأكل للفضيحة»؛ و«أن كلّ مخلوق ملك طيّب»، و«ألّا شيء يجب أن يطرح، ممّا يؤخذ منك بالشكر»؛ و«أنّ نوع الطعام لا يشفع لنا لدى الإلـٰه»، و«ألّا أحد يديننا بسبب ما نأكل أو ما نشرب»؛ و«أنّ من يجد ما يأكل يجب ألّا يحتقر من لا يأكل»، و«أنّ من لا يأكل

= crapula تعني الإفراط في شرب الخمرة، في حين أنّ الكتاب المسيحيين كانوا يستعملونها وهم يعنون بها الإفراط في تناول الطعام».

(1)... miles castrorum caelestium ,... = جنديّ المعسكر السماويّ. المرجع نفسه، ص 274 الملاحظة 1: «نمت الاستعارات الحربية بغزارة وتكاثرت في لغة رجال الكنيسة حول معنى مكر المؤمن الذي أصبح جنديّ الغلاه بفضل القدسة البابوية...»

(2) ذكرت هذه القاعدة الأخلاقية العديد من المرّات في هذا الكتاب«quae iubes et iube quod uis...» = هَبْ ما تأمر به ومُرْ بما تريد. المرجع نفسه، ص274 الملاحظة 2.

يجب ألّا يُدين الآكل». تعلّمت هذا، فالشكر لك والحمد، يا إلـهي ومعلّمي وطارق أذنيّ ومنير قلبي: خلّصني من كلّ نزغة. أنا لا أخشى دنس الغذاء بل دنس الشهوة، أعلم أنّه سُمح لنوح(Noe = Noé) أن يأكل كل نوع من أنواع اللحم الصالح للأكل، وأنّ إلياس (Heliam = Hélie) استعاد قواه بأكل اللّحم، وأنّ يوحنّا (Iohannem = Jean)، رغم الزّهد العجيب الذي كان يوصف به، لم يتنجّس بتلك الحيوانات، ذلك الجراد الذي كان منه طعامه: وأعلم أنّ إيزاو (Esau = Esaü) غالطته شهوته العاتية للعدس، وأنّ داود (Dauid = David) لام نفسه ذاتها بسبب الرغبة في الماء، وأنّ ملكنا استهواه لا اللّحم بل الخبز. ولذلك بالذات حُقّ للشّعب في الصحراء أن يلام، لا لأنه رغب في اللحوم، بل لأنه بسبب الرّغبة في الطعام قد تذمّر من المولى[1].

47. إذن بما أني وُضعت وسط هذه النزغات، فإني أصارع يوميا شهوتيْ الطعام والشراب، لأن هذه المتعة ليست كالشهوة الجنسية: لم أكن قادرا على أن أقطعهما دفعة واحدة، وألّا أعود إليهما من بعد، كما فعلت ذلك في خصوص المضاجعة. لذلك كان عليّ أن أكبح جماح بطني، كبحا خفيفا تارة، وقويا تارة أخرى. ومنْ، يا مولاي! منْ ذا الذي لن يُجرّ في يوم ما إلى ما وراء حدود الضرورة؟ منْ يكن عظيما، أيّا كان، فليعظّم اسمك! أمّا أنا فلست ذلك الإنسان العظيم، لأني إنسان مذنب. لكني أنا أيضا أمجّد اسمك، و«يشفع لي لديك من أجل خطاياي» ذلك الذي «غلب الدنيا». وهو يَعُدّني ضمن «الأعضاء الضعيفة في جسمه» لأن «عينيك رأيا اللاكامل فيه، وسوف يسجل كلّ شيء في كتابك».

48.XXXII. فتنة الروائح لا تشدني أكثر من اللاّزم: عندما تكون غائبة، لا أبحث عنها، وعندما تكون حاضرة، لا أزدريها، لكني متهيّئ أيضا لأستغني دوما عنها. ذاك على كلّ ما أظنّ، ولعلي مخطئ، إذ فيّ كذلك من تلك الظلمات ما يجب الانتحاب بسببه، لأنّه يخفي المقدرة التي توجد في نفسي، بحيث أنّ فكري – عندما يتساءل بذاته عن قواه الخاصة لا يعتقد أنه من السهل جدا أن يثق بنفسي، لأن ما يكمن فيه يكون في الغالب مكتوما، إلّا أن تظهره التجربة، ولا أحد ينبغي أن يكون آمنا في هذه الحياة التي تسمى «بالنزغة الدائمة»: هل الذي أمكنه أن يتحوّل من الأسوإ إلى الأحسن، لا يستطيع أن يتحوّل من الأحسن إلى الأسوإ؟ الأمل الوحيد والثقة الوحيدة والوعد الصادق الوحيد في رأفتك.

---

(1) «ذكرَ هذا الكلامَ «بوزيديوس» (Possidius (Vita Augustini, § 22) ليبرّر به عادة أوغستينوس في وضع الخمرة دائما بارزة على مائدته» انظر أعلاه ص 272 وهنا ص 275 الملاحظة 1..

XXXIII.49. ملاذّ السمع كانت قد عانقتني، وأسّرتني بأكثر شدّة، لكنّك فككت وثاقي وحرّرتني. فالآن في الألحان التي تحييها كلماتك، عندما تغنى بحذق بصوت عذب. أقرّ أنّي أطرب لها، لا إلى حدّ الفتنة، بل إني قادر أن أتوقف، متى شئت. لكن مع ذلك،عندما كانت روحي تتقبّلها صحبة الأفكار عينها التي تحيا بها، فهي تبحث في قلبي عن مكان يليق بها بعض الشيء، وأقدّم لها بصعوبة ما يناسبها. إذ أحيانا يبدو لي أنّي أمنحها من الشرف أكثر ممّا يليق بها، وأنا أحسّ بكون الكلمات المقدّسة ذاتها والمغنّاة هكذا، تؤثّر في روحي بنار من التقوى والإيمان أكثر اتّقادا منها، لو لم تكن مغنّاة، وكلّ مشاعر روحنا تجد فيها، حسب اختلافها، طابعها الخاص في الصوت والغناء، وتتحرّك بتناسق خفيّ بينهما لا أدري ما يكون، إلّا أن لذّة اللحم فيّ التي يجب ألّا تزُعج روحي، تضلّلني كثيرا، عندما يرافق الإحساس العقل، دون أن يصبر على وجوده خلفها، ولكنّه بسببها استحقّ فقط أن يقبل فيها، ومع ذلك يحاول أن يسبقها وأن يقودها. إذن، في هذه الأشياء، أذنب دون أن أشعر، ولكني أشعر، بعدَ ذلك.

50. لكن أحيانا، بسبب اتّقاء ذلك الغلط اتقاء مفرطًا أكثر من اللزوم أقع في زلل الصرامة المفرطة، لكن من حين إلى آخر أوّد بحقّ أن أُبعِد، عن أذنيّ وعن الكنيسة ذاتها جميع الألحان الرثائيّة العذبة التي يرافق بها زَبُورُ داوُد (**Dauidicum psalterium =** **les psaumes de David**)، ويبدو لي أضمن أن يقتصر في هذا على اتباع أثانازيوس (**Athanasio = Athanase**) أسقف الإسكندرية، وأتذكر ما قيل لي عنه أكثر من مرّة، من أنه كان يجعل قارىء المزامير ذا صوت يخرج منه في ترنّم ضعيف، أشبه بالإلقاء منه بالغناء[1].

أمّا عندما أتذكّر مع ذلك دموعي التي كنت أذرفها بسبب غناء كنيستك، في أوائل استرجاعي لعقيدتي، وبما أنّي لا أتأثّر الآن بالغناء، بل بالكلمات التي تغنّى، عندما تغنّى بصوت جهوريّ وفي ترنّم مناسب جدّا، أعترف من جديد بفائدة هذه الطريقة الكبيرة.

هكذا أتموّج بين خطر اللّذة الحّسية واختبار السلامة الحاصلة منها، ولذا أنقاد أكثر لا لعمري للبوح برأي لا رجوع فيه، بل لكوني أوافق على عادة الغناء في الكنيسة،

---

(1) **pronuntianti iucinio... quam canenti...** =... أشبه بالنطق منه بالغناء... المرجع نفسه، ص 277 الملاحظة 2: وفي موضع آخر ينتصر أوغستينوس للغناء الكنائسيّ، اعتمادا على المبدإ القائل: إنه يسبب من الخير للنفوس الحسنة النيّة أكثر من الشرّ الذي يمكن أن يسبّبه لذوي النفوس "المريضة"...»

حتى تصعد الروح التي لا تزال ضعيفة، من متعات الآذان إلى مشاعر التّقوى. ومع ذلك، عندما يتفق لي أن يؤثّر فيّ الغناء أكثر من الكلمات، أقرّ بأنّي مطالب بالتّكفير عن خطيئتي، وكم أودّ عند ذاك ألّا أسمع الغناء!

هذا ما أنا فيه! ابكُوا معي، وابكوا لي، أنتم الذين تحسّون في نفوسكم من التّقى ما يصدر عنه العمل الصالح. فأنتم الذين لا تحسون به، لا يحرّككم هذا. أما أنت، يا مولاي وإلـهي، فأصغ إليّ، أدر إليّ عينيك، وانظر، وأشفق عليّ، وداوني»، أنت الذي أصبحتُ في عينيك لغزا، وذاك سقمي عينه.

51.XXXIV. تبقى لذّة عينيْ لحمي تلك. ما أريد أن أقوله عنها من الاعترافات يجب أن تسمعها آذان معبدك[1] الأخويّة التّقية، فنضع حدّا لنزغات الغلمة الجنسية (concupiscentiae carnis = de la concupiscene charnelle) التي لا تزال تزهقني، رغم آهاتي ورغم أني «راغب في أن يُضفى عليّ مسكني الذي هو في السماء».

تحبّ عيناي الخلائق الجميلة المختلفة والألوان الساطعة النضرة، وكم أودّ ألّا تُؤسّر روحي! ليؤسّرْها الإلـه دون سواه، فقد خلق لعمري تلك الأشياء «الحسنة جدا»، لكنه هو بالذات خيري، لا هي. فهي تغريني، كل يوم، في اليقظة ولا تعطيني الرّاحة، كما تعطينيها الأصوات الرّخيمة، ويعطينيها الكون أحيانا في ساعة السكون. فملكة الألوان عينها والنور ذاته المنتشر فوق كلّ، ما نبصره، حيثما كنّا، طيلة النهار، هذه الملكة تتسرب إليّ بأشكال عديدة، فتلامسني، حتى عندما أكون منهمكا ومنصرفا عنها إلى شيئ آخر. لكنها تنفذ فيّ بقوّة فائقة تجعلني إن تعطّلت فجأة أطلبها برغبة شديدة، وإن غابت طويلا، أحزنت روحي.

52. أيها النور الذي كان يراه طُوبيسُ (Tobis = Tobie) عندما كان، وهو مكفوف البصر، يعلّم ابنه طريق الحياة، وكان يسبقه بخطى المحبّة دون أن يضلّ أبدا؛ أوالنور الذي كان يراه إسحاق (Isaac)، وقد أثقل بصرَه حجابُ الشيخوخة الثقيل، عندما استحقّ لا أن يبارك أبناءه وهو يتعرّف عليهم، بل أن يتعرّف عليهم، وهو يباركهم، أو

---

(1) انظر القدّيس باول، Saint Paul الرسالة الثانية للكورنتيين «IIe Epître aux Corinthiens» VI, 16: «نحن جميعنا معبدُ الإلـه الحيّ». المرجع نفسه، ص 278 الملاحظة 1:... aures templi tui,... = les oreilles de votre «temple»... وهو الاسلوب الذي يسمّى التشخيص والكناية. وتوجد من هذا الأسلوب أمثلة عديدة أخرى في الاعترافات. فهو ينسب الأذنيْن مثلا إلى القلب، مقيما على ذلك النحو علاقة بين التائب (أي أوغستينوس) وربّه المملوء حبّا لعباده من البشر (والتدقيق من المترجم).

النور الذي كان يراه يعقوب (Iacob = Jacob) فتغشّى عيناه بسبب سنّه المتقدّم، فأضاء بأشعّة قلبه النيّر أجيال الشعب المقبل المتجسّد في أبنائه، ولمس أحفاده من ذرّية يوسف (ex Ioseph = Joseph) ببركة يديه المتصالبتين طبق الروحانية المسيحيّة، لا كما كان يصلحهم أبوهم من الخارج، بل كما كان هو يدركه في قرارة نفسه! ذلك هو النور، هو واحد أحد، ويكوّن وحدة مع كل من يراه ويحبّه.

أمّا ذلك النور الدنيويّ الذي كنت أتحدّث عنه، فيفوّه بالعذوبة الفاتنة الخطرة حياة المكفوفين، عشّاق الدنيا. أما الذين يعرفون كيف يمدحونك في شأنه، «يا إلـهي الخالق للكل» فيتسلمونه في نشيدك، ولا يستسلمون له في سباتهم: أريد أن أكون هكذا، أتصدى لفتنات العيون، حتى لا تتعرقل فيها رجلاي التي أتقدّم بهما في طريقك، وأرفع إليك عينيْن خفيّتين «حتى تفكّ القيد عن رجليّ». أنت الذي تفكّه دوما عنهما، لأنّهما تتعرقلان فيه. أنت الذي لا تتوقّف عن تخليصي، أمّا أنا فكثيرا ما أتوقّف في كل مكان، بسبب الفخاخ المنتشرة، حيث «أنك لن تنام ولن تنعس، أنت الحارس لإسرائيل».

53. كم هي عديدة لا تحصى الإغراءات التي عرف الناس كيف يضيفونها إلى ما يفتن الأنظار، بالفنون بمختلف أشكالها، وبمهارة العاملين في الثياب والأحذية والأواني والمصنوعات من جميع أنواع اللّوحات والرسوم الأخرى التي تتجاوز كثيرا حدود الفائدة الضرورية المعتدلة، ذات الدّلالة المطابقة حقّا للتقوى! فيهتمون خارجيا بمهارة أيديهم خاصة، تاركين في قرارة أنفسهم ذلك الذي هم مخلوقاته، ومبّددين صناعة الخالق فيهم.

أما أنا، يا إلـهي وعزّتي، فمن هذا أيضا أنشدك نشيدا، وأضحي أضحية المدح للذي ضحّى من أجلي، حيث أنّ آيات الجمال المتنقلة من أرواح الفنانين إلى أيديهم تأتي من ذلك الجمال الذي يوجد فوق الأرواح والذي تتوق إليه روحي ليل نهار. لكنّ المبدعين للجمالات الخارجية والمغرمين بها يأخذون منه صيغة موافقتهم عليه، ولكن لا يأخذون منه صيغة الاستعمال السليم. ورغم أنّ هذه الأخيرة موجودة هناك، فإنهم لا يرونها، وإلّا لما ذهبوا إلى ما هو أبعد، و«لحفظوا قوّتهم لك» ولم يبدّدوها في الملاذّ الموهنة.

أما أنا الناطق بهذه الحقائق والمبصر لها، فإني أُعيق أيضا مسيرتي بهذه الجمالات، لكنّك، مولاي، أنت تخلّصني منها، تخلّصني أنت، «لأنّ شفقتك دوما أمام عينيّ». أقع فيها بشقائي، وتخلّصني أنت منها بشفقتك، وأنا غير شاعر بذلك في بعض الأحيان، لأنّ

سقوطي كان خفيفا ناعما، وفي بعض الأحيان بشيء من الألم، لأنّي كنت قد تعلّقت بها بعدُ.

54.XXXV. هنا يضاف شكل آخر من النزغات، أكثر تعقّدا وخطرا، فعلاوة على الشهوة الجسديّة التي تكمن في استمتاع كل الحواس بلذاتها التي يفنى في خدمتها العباد الذين يجعلون أنفسهم في عزلة عنك، توجد في الروح شهوة أخرى. وهي تمرّ عبر نفس الحواسّ لكنها لا ترمي إلى المتعة الجسديّة،بل إلى إجراء اختبارٍ آلتُه اللّحم، فهي رغبة تافهة فضوليّة مغطاة وراء اسم المعرفة والعلم. وبما أنها بالأساس رغبة في المعرفة وبما أنّ للعيون دورا رئيسيا في العلم، فإن وسيط الوحي الإلـهي **(eloquio diuino = l'oracle divin)** قد نعتها باسم «شهوة العيون».

فالرّؤية تعود بالخصوص إلى العيون. لكننا نطلق هذه الكلمة أيضا على الحواس الباقية، عندما نقصد بها المعرفة، فلا نقول: «اسمعْ كم يلمع»، ولا «استنشقْ كم يبرق»، ولا «ذقْ كم يسطع»، ولا «المسْ كم يومض»: بل نستعمل «انظر» **(uideri = être vu)**[1] في جميع هذه الإحساسات. فلا نقول فقط: «انظر كم هذا مُنير»، الشيء الذي لا تقدر أن تحسّ به إلّا الأعين، لكننا نقول أيضا: «انظر ما الصوت، انظر ما الرائحة، انظر ما الطعم، انظر كم هذا صُلب».

ولذلك فخبرة الحواسّ العامّة، كما سبق أن قلنا، تدعى «شهوة العيون»، لأنّ وظيفة الرّؤية التي تحتّل العينان فيها الصدارة تقوم بها أيضا سائر الحواسّ بسبب التشابه، عند تقصيها موضوعا معرفيّا ما.

55. من هذا نتبيّن من ناحية أخرى ما تقوم اللذة به، وما حب الاطلاع في حركة الحواسّ، وأن اللذة تبحث عن الجميل وعن المطرب وعن العذب وعن حلو المذاق وعن لطيف اللمس، أما حب الإطّلاع فيبحث عن إحساسات مضادّة تماما، من أجل التجربة، لا من أجل مواجهة غمّة، بل رغبة في الاختبار والمعرفة.

فما هي اللذّة في رؤية جثة ممزّقة أشلاء تملؤنا رعبا؟ ومع ذلك، فكلما طُرح

---

(1) يقول «ب. دي لابريول» P. DE LABRIOLLE ص ص 280 282 من الجزء الثاني من الاعترافات، نقلا عن «بوسوي» BOSSUET من كتابه «كتاب في الشهوة» **Traité de la Concupiscence, VIII** «إنّ هذه الرغبة في مباشرة الأشياء ومعرفتها تسمّى شهوة البصر، لأنّ العينين، من بين جميع الحواس الأخرى، هي التي توسّع أكثر من غيرها من مجال معارفنا. فجميع الحواس الأخرى تنضوي ضمنيّا في العينين أي حاسة البصر. ألا ترى أنّ الناس كثيرا ما يجرون في كلامهم على الترادف «أرى» و«أحسّ» من رؤية البصر ورؤية البصيرة...».

بعضهم أرضا، هب إليه الناس واصفرّت الوجوه ومن فرط الانذهال. ويخاف الناس أيضا رؤيَة الميت في المنام، كما لو أن أحدا أجبرهم، في اليقظة على أن يروْه، أو أنّ شيئا من الجمال شهر فيه، فشدّهم إليه.

وكذلك الشأن في بقية الحواسّ، والحديث عنها يطول. وعن هذه الرغبة المرضية يصدر، في عُروض الفرجة، عرض المخلوقات الوحشية (**quaeque miracula =** **(tous) les monstres**). وعن ذلك نصدر في سبر أغوار الطبيعة التي تتعدّانا فلا نجني من معرفتها فائدة والتي لا يريدون منها إلّا العلم. ومن ذلك أيضا كل ما يبحثون عنه بفنون الشعوذة لنفس الغاية ألا إنّه لَعلمٌ مضلل ومن هنا أيضا، في الدّين عينه، «امتحان الإلـه» عندما تُطلب منه إشارات ومعجزات، لا للنجاة بل لمجرد الرغبة في اختباره.

56. في هذه الغابة الواسعة، الملأى بالفخاخ والأخطار، ها أنا قد قلعت منها الكثير وطرحته من قلبي، كما وهبتني القدرة على فعله، « يا إلـه نجاتي»، ومع ذلك فمتى أجرأ أن أقول، وهذه الإحساسات الكثيرة والمتنوعة جدا تدوّي حولي في حياتي اليومية، متى أجرأ أن أقول إنّي غير مهتمّ بأيّة واحدة من الشبيهات بها، وإنّي لا أنظر إليها، ولا أتناولها بفضولي التافه؟

حقا لم يعد المسرح يستهويني، وصرت لا أكترث بمعرفة مسارات النجوم، وروحي لم تبحث قطّ عن أجوبة عند أشباح الظّلال؛ أكره كل الطقوس المرجّسة، أطلب منك، مولاي وإلـهي، أنت الذي يجب أن أكون خادمك المتواضع البسيط، كم من دسائس يدّسها لي العدو الشيطان (**inimicus = l'Ennemi ou Satan**) في إيعازاته بأن ألتمس منك معجزة ما! لكني أرجوك، باسم ملكنا وباسم القدس (**Hierusalem**)[1] وطنِنا النقي التّقي، أن تكون موافقتي المذنبة هذه التي هي بعيدة عني دوما بعيدة، وتزيدها بعدا! أمّا، عندما أتوّسل إليك لنجاة شخص آخر، فتكون الغاية من إرادتي هذه مباينة جدّا، اجعلني دائما، اجعلني دائما أتبع بطيبة الخاطر إرادتك، مهما كانت.

57. لكن مع ذلك، ما أكثر الأشياء التي يمتحن فيها يوميا حبّنا للاطلاع وما أدقّها وما أحقرها! وما أكثر سقوطنا فيها، فمن يحصيها؟ كم من مرة نتحمّل في البداية من يروون لنا التّرهات كي لا نهين ضعفهم، ثم نهتمّ شيئا فشيئا بهم عن طيب خاطر! لم أعد أقصد الملاعب لأشاهد كلبا يجري وراء قُوّاع (**leporem = un lièvre**)، وبالعكس إن صادفني ذلك في حقل من الحقول، فإنّ مشهد الصيد ذاك قد يلهيني عن تفكير عميق،

---

(1) انظر ص 189 في نهاية الكتاب التاسع الفقرة XIII, 37 بشأن اشتقاق اسم هذه المدينة الشهيرة.

وقد يوجهني إلى وجهته، لكن دون أن يجبرني على تغيير وجهة الدّابة التي تحملني، في حين أن قلبي يتعلق به؛ ولو لم تنبّهني أنت لضعفي، سريعا، بواسطة هذا الدليل، أو بالابتعاد عن هذا المشهد، كي أرتفع إليك بنوع آخر من التّفكير، أو باحتقاره كلّيا وتجاوزه، لبقيت فاغر الفم من تفاهتي.

ماذا أقول؟ عندما أكون جالسا في منزلي، والحرباء تصطاد الذبابَ، والعنكبوتُ يلف بشِعّه[1] الحشرات الساقطة فيه، كثيرا ما يجلب هذا انتباهي. أفلا يقع نفس الشيء لأنّ تلك الحيوانات صغيرة؟ أنتقل من ذاك إلى مدحك، أنت الخالق العجيب المنظّم لكلّ الأشياء، لكنّي لم أبدأ بالاهتمام بهذا. فأن تهب واقفا بسرعة ورشاقة شيء، أمّا ألّا تسقط أبدا فتلك قضيّة أخرى.

حياتي ملأى بمثل هذه الأشياء، وأملي الوحيد في رأفتك الكبيرة جدا، لأنّ قلبنا ملجأ لمثل هذه الأشياء، وحامل لفيالق عديدة من الحماقات. لذلك كثيرا ما تتوقف دعواتنا وتتلعثم، وبينما نحن، بمرأى منك، نوجّه إلى أذنيك صوت قلبنا، لا أدري من أين تنقضّ علينا الأفكار السخيفة، فتقطع مثل هذا العمل الجليل.

58.XXXVI. فهل سنعتبر هذا أيضا ضمن ما يجب احتقاره؟ أم هل أنّ شيئا غيره سيعيد إلينا الأمل ولا يكون رأفتَك المعروفة، بما أنّك بدأت تغيّر ما بأنفسنا؟ وأنت تعلم الجانب الكبير الذي غيّرته فينا، أنت الذي تداويني في البداية من هوى الانتقام، كي «تصبح أيضا عطوفا على كلّ أشكال جوري الأخرى، وكي تداوي كلّ أسقامي وتنقذ حياتي من الفساد وتتوّجني في الشفقة والرّأفة، وتشفي بخيراتك غليلي»، أنت الذي أخضعْت بالخوف منك كبريائي وروّضْت لنيرك عنقي. ها أنذا أحمله وهو ليّن «مريح» (lene = doux)، كما وعدت وأنجزت حقّا ما وعدت، وكان كذلك حقّا، ولم أكن أعلم ذلك عندما كنت أخاف أن أطأطىء له رأسي.

59. لكن، قل لي يا مولاي، أنت الذي تسود وحدك دون كبرياء[2] لأنّك «المولى الوحيد الحقّ» الذي لا مولى له، قل لي: هل انتهى بالنسبة إليّ هذا النوع الثالث أيضا من الإغراء، أم هل يمكن أن ينتهي في هذه الحياة، أعني الإرادة المتعلّقة بخشية الناس

---

(1) العُكَاشُ أو الشُّعُّ = بَيتُ العنكبُوت،

(2) يقارن «ب. ديلابريول» P. DE LABRIÓLLE (ص 285 الملاحظة 1) هذه المعلومات المتعلّقة بجحيم «دانتي» DANTE, Enfer , chants XXXI - XXXII «الدائرة الأخيرة التي تسمّى «كوسيت» Cocyte كانت مبلّطة بالجليد».

وحبّهم لنا، لا من أجل شيء آخر، بل لنحصل منهما على فرح ليس بالفرح الحقّ. تلك هي الحياة الشقيّة والمباهاة الكئيبة! من هنا يأتي كونهم بالخصوص لا يحبّونك، ولا يخشوْنك بالتّقوى، ولذلك أنت «تتصدّى للمتكبّرين، لكنك تعطي النعمة للمتواضعين»، «أنت تُرعد» فوق طموحات الدّنيا، فترتجف «أسس الجبال».

إذن، فبسبب بعض وظائف المجتمع البشريّ، نحن في حاجة إلى أن يحبّنا الناس ويخشوننا، لكنّ عدوّ سعادتنا الحقّ يلاحقنا حيثما كنّا، ناشرا الفخاخ أمامنا بقوله «مرحى، مرحى!» كي توقعنا لهفتنا على جمع هذه الأشياء المظللة في شراكها ونحن في غفلة من أمرها. إن ما ينشده هو إبعاد فرحتنا عن الحقيقة، وربطها بكذب الناس، جاعلا إيانا نتمتّع بحبّهم لنا وبخوفهم منّا، لا بسببك بل عوضا عنك، فنصبح بهذه الكيفيّة شبيهين به هو عينه، لا من أجل الوفاق في المحبّة، بل من أجل الإشتراك في تعذيبه، هو الذي قرّر «أن يضع منزله فوق الشمال (in aquilone = sur l'aquilon) حتى نخدم، في الظلمات والثّلوج[1] مقلدك المنحرف الملتوي.

أما نحن، يا مولاي، انظر كيف كنّا «قطيعك الصغير»، فاملكنا أنت وابسط علينا جناحيْك، ولنحتم إليهما. ولتكن أنت عزّتنا! وليحبّنا المحبّون من أجلك، ولتُخش فينا كلمتك. من يريد أن يمدحه الناس رغم توبيخك له، لن يحميه الناس يوم تحاسبه فلا يُنتزع من عقابك. لكن رغم أنّه ليس بالمذنب «الذي يمدح من أجل شهوات روحه»، ولا بـ«من تُبارِك أفعاله الجائرة»، بل إنسان يُمدح بسبب هبة وهبته إيّاها، فمع ذلك، إن فرح هو بكونه يمدح لشخصه بالذات أكثر من فرحه بالهبة التي مدح من أجلها، فإن مدحه يستحق التوبيخ، فيكون المادح عندئذ أحسن من الممدوح! فللأوّل راقت هبة الإلـه لذلك الإنسان، بينما راقت للثّاني هبة الإنسان أكثر من هبة الإلـه.

XXXVII.60. بهذه النزغات، يا مولاي، نُمتحن يوميّا، نُمتحن دون انقطاع. لسان البشر يكون لنا يوميّا وطيسا من المحن. تأمرنا، في هذا الشأن بالعفّة: أعط ما تأمر به، ومر بما تريد! أنت تعلم في هذا الخصوص تنهّد قلبي وسيول عينيّ بالدّموع. لا أرى بوضوح كم أكون أكثر طهارة من هذا الوباء، بل أخشى كثيرا أحشائي التي تعرفها

(1) ... sans orgueil ... = ... sine tyfo. المرجع نفسه، ص 284 و285 الملاحظة 1: يذكر «ب. دي لابريول» أيضا «كتاب الشهوة» Traité de la concupiscence, X لـ«بوسّوي» بشأن «كبرياء الحياة»، يقول: هي غواية أكثر عمقا، بسببها ينظر الإنسان إلى نفسه، وقد تُرِكَ هو وشأنه، كما لو كان إلـها بسبب حبّه المفرط لشخصه... وهذا العيب تخلل عظامنا حتّى النخاع، ونفوسنا متعفنة به... (قمنا بإبراز العبارات الهامّة (المترجم).

عيناك، أمّا عيناي فلا. ففي أنواع النزغات الأخرى أملك نوعا من المقدرة على رؤية نفسي رؤية واضحة، أمّا في هذه فتقريبا لا.

فكم توصّلت إلى القدرة على كبح جماح روحي من لذّات اللّحم، ومن حبّ الاطلاع التّافه للغاية، أعرف ذلك، وأنا أرى تلك الأشياء التي أحرم منها، إمّا بإرادتي أو بغيابها، فعندئذ أتساءل هل الوضع أسوأ أم أقلّ سوءا بالنسبة إليّ، إن لم أكن أملكها.

أما المال الذي نبتغيه لخدمة شهوة من تلك الشهوات الثّلاث أو شهوتيْن أو ثلاث فإن لم تستطع الرّوح أن تتكهن هل إنها تحتقره وهي تملكه، فبإمكانها على أيّ حال أن تتخلّص منه لتمتحن نفسها.

لكن لنُحرم من الحمد والتمجيد، ونَختبر درجة استقلالنا عنه، هل يجب علينا أن نرضى بحياة شقيّة مهلكة فظيعة لا يرانا أحد فيها دون أن يكرهنا؟ هل يمكن أن نقول أو نتصور حماقة أكبر؟ لكن، إن كان الحمد، عادة وبالضرورة، رفيق الحياة الطيّبة والأعمال الصالحة، فلا ينبغي أن نتخلّى عن رفقته، بقدر ما لا نتخلّى عن الحياة الطيبة، إلا أني لا أعلم هل أتحمّل الحرمان من الشيء باللامبالاة أم بالامتعاض إلّا عندما يكون غائبا عنّي.

61. إذن بمَ أعترف لك، يا مولاي، في هذا الصنف من النزغات؟ بمَ أعترف، سوى كوني ألتذّ بالمديح(1)؟ لكني ألتذّ بالحقّ أكثر من المديح. فلو عرض عليّ أن أختار بين أن تمدحني البشرية جمعاء لحمقي أو ضلالي، في جميع المسائل، أو أن يوبخني الجميع لثبوتي ووثوقي في الحقّ، لعرفت ما سأفضل. لكنّي أرفض، لا محالة، أن يزيدني فرحا رضا الآخرين بأيّ عمل من أعمالي الصالحة لكنه ينمّيه، أقرّ بذلك، أمّا التّوبيخ عينه فيقلّصه.

وبما أنّي شقيّ هكذا، ومضطرب، يتسرّب إلى ذهني عذر؛ أنت تعلم، يا إلـهي، قيمته، أما أنا فيتركني حيران، لأنّك لم تأمرنا بالعفة فحسب، أي بما يجب علينا أن نتّقيه من الأشياء بالحبّ، بل بالعدل أيضا، أي بما يجب علينا أن نقصده؛ وما أردت أن نحبّك أنت وحدك، بل أن نحب أيضا أخانا الإنسان **(proximum = mon prochain)**:

---

(1)...delectari me laudibus? =.. ألتذّ بالمديح؟ المرجع نفسه، ص 286 الملاحظة 1 : «الرسالة الثانية والعشرون لأوغستينيوس إلى أسقف قرطاج «أوريليوس» Aurélius تتضمّن تأملات قصيرة بشأن حبّ المدح... والمخاطر التي تتهدّد رجال الكنيسة عندما يعجزون عن مقاومتها». لكنّه يؤكّد أيضا أنّه «يكنّ بعض الميل إلى ذلك».

فكثيرا ما يبدو لي أنّي ألتذّ بتقدّم أخي الإنسان أو بأمله، عندما ألتذّ بتمجيد ذكيّ جدّا، وأنّي بالعكس أحزن بسبب إساءته إليّ، عندما أسمعه يوبّخني، بسبب إمّا ما يجهله، أو ما هو حسن.

وأحزن أيضا أحيانا لما يمدح فيّ، إمّا لكوْنه لا يروقني، أنا بذاتي، أو لأن ميزات ثانويّة ذات قيمة تافهة تعتبر فيّ ذات بال أكثر ممّا تستحقّه. ولكن بالعكس من أين لي أن أعرف هل أنّ لي هذا الشعور، بسبب كوني أرفض أن أختلف، في خصوص نفسي ذاتها، مع المادح لي، لا بحيث أكون متأثرا بذلك الاهتمام، بل لأن الخصال التي تروقني في نفسي، إن راقت هي بعينها لغيري، فسوف تجعلني ألتذّ أكثر؟ فبصورة ما أنا لا أشعر أني ممدوح بحقّ عندما لا يتّفق المديح مع الرأي الذي لي عن نفسي، إمّا لأنّ ما يمدح فيّ لا يروق لي، أو لأنّ ما يمدح فيّ بإطناب يروق لي أقلّ. أليس إذن هذا دليلا على شكّي في نفسي؟

62. وها أنذا، أيها الحقّ، أرى فيك أنّه يجب ألّا أتأثّر بما يمدح فيّ من أجلي أنا، بل من أجل مصلحة أخي الإنسان. هل الأمر على هذه الحال، لا أدري؟ معرفتي بك في هذا المضمار أكثر من معرفتي بنفسي. أتوسّل إليك، يا إلـٰهي، عرّف نفسي بنفسي كي أعترف لإخواني المستعدين للدّعاء لي، بما سأكون قد وقفت عليه من جروحي. اجعلني أتساءل من جديد بأكثر حزما. لو كانت مصلحة أخي الإنسان حقا هي التي تهزّني، فلِمَ أكون أقلّ تأثّرا، إن وقع لأحد غيري تأنيبٌ غير عادل، منّي لو وقع لي أنا؟ لِمَ يؤلمني وخز الإهانة التي تسلّط عليّ أكثر من وخز التي تسلّط على غيري بمرأى مني لنفس الجرم؟ هل كنت أجهل هذا كذلك؟ وهل أستخلص منه أيضا أنّي «أغشّ نفسي بنفسي» وأنّي أخون الحقّ أمامك «في قلبي ولساني»؟ اجعل، يا مولاي، هذه الحماقة بعيدة عنّي، مخافة «أن يكون كلامي كزيت المُذنب لتطييب رأسي».

XXXVIII.63. «أنا فقير مُعوز» أنا لا أساوي شيئا إلّا عندما لا أروق لنفسي غارقا في تأوّهاتي الخفيّة، فأبحث عن رأفتك، إلى أن يتم صلاح النقائص التي فيّ واكتمالها، من أجل السلام الذي تجهله عين المتغطرس: أمّا الكلام الصادر من أفواهنا والأفعال التي تعرّف الناس بنا، فهي ذات نزغة خطرة جدّا، ناتجة عن حبّ المديح الذي يجمع كالمتسوّل أصوات المؤيدين، من أجل التفوّق في الحياة الخاصّة،: إغراء دائم متواصل وإن انتقدته بنفسي عن نفسي، بسبب ما ينتقد فيه ذاته. وكثيرا ما يفتخر الإنسان في نفسه افتخارا تافها باحتقاره للفخر، ولذلك فهو لا يفتخر حقّا باحتقار الفخر، لأنه إن افتخر به فذلك دليل على أنه لا يحتقره.

64.XXXIX. يوجد أيضا في داخلنا، في أعمق أعماقنا، نوع قبيح آخر من نفس النزعات يجعل من يعجَبون بأنفسهم في أنفسهم تافهين للغاية، رغم أنّه لا يعجب بهم الآخرون، أو لا يروقون لهم، أو أنّهم لا يحاولون أن يروقوا لغيرهم أجمعين. لكن مهما بلغ إعجابهم بأنفسهم، فهم لا يروقون لك، لا فقط وهم يفتخرون بما ليس خيرا كما لو كان خيرا، بل أيضا بخيراتك، كما لو كانت خيراتهم؛ أو أنّهم يعترفون أنها من خيراتك، لكنهم يرجعونها إلى خصالهم الخاصة، أو وهم يعزونها إلى نعمتك (ex tua gratia = votre grâce)، لكن دون أن يشركوا غيرهم في الفرحة بها، فيحرمونهم منها. ووسط جميع هذه الأنواع من الأخطار والمحن، ترى ارتجاف قلبي بقوة، وأشعر أني لست في مأمن قطّ من جروح جديدة، وإن كنت تشفيها في الحال.

65.XL. متى توقّفتَ عن السير معي، أيها الحقّ، تعلّمني ما يجب أن أتّقيه أو أن أتوق إليه، وأنا أعرض عليك ما استطعت آرائي المتواضعة وأستشيرك؟

جبت العالم الخارجيّ بحواسّي، قدر المستطاع، وتأمّلت في الحياة التي أحيي بها جسمي وحواسّي عينها. ثمّ نفذت إلى غياهب ذاكرتي، وكهوفها العديدة الملآى بأنواع عجيبة من المدّخرات التي لا تحصى، وتمعّنت فيها واندهشت، وما كنت لألاحظ أيّ شيء منها بدونك، ووجدت أنّك لست أيّ شيء منها.

لست أنا بذاتي الذي وجدتها، وأنا أستعرضها جمعاء وأحاول أن أتبيّنها وأن أعيّرها، كُلّا حسب قيمتها الخاصّة، متقبّلا بعضها من إشارات الحواسّ ومسائلا إيّاها، محسّا ببعضها ممزوجة بذاتي، متقصّيا في أعضائها بالذّات، ومحصيا إياها، ومعالجا بعضها علاجا طويلا في مخازن الذّاكرة الفسيحة، خازنا بعضها، مظهرا بعضها الآخر: لست أنا بذاتي ذلك الرّجل الذي كان يقوم بهذه الأشياء، أعني القوّة التي كنت أعمل بها هذا العمل، إذ لم تكن هي أنت، لأنّك أنت النور الدائم، الذي كنت أستشيره في ماهيّة المسائل المطروحة وكيفها وكمّها: وكنت أستمع لدروسك ولأوامرك وكثيرا ما أفعل ذلك، ذاك يروق لي، وبقدر ما أستطيع أن أستريح من الأعمال الضرورية، ألتجىء إلى هذه اللذة. وفي كل هذه الأشياء التي أطوف بها، مستشيرا إياك، لا أجد مكانا آمنا لروحي إلّا عندك، به تتجمع مشاعري المبعثرة، فلا شيء منّي يبتعد عنك. وأحيانا تعوّدني بشعور غير عاديّ، يقودني في الداخل إلى عذوبة لا أدري ما هي، لكن – إن اكتملت فيّ – ستصبح شيئا لا أدري ما هو، لا علاقة له بهذه الحياة. إلا أنّي أسقط من

جديد في الأشياء الدّنيويّة وفي أعبائها الشقيّة، وأنغمس فيها كالعادة، فتشدّني إليها، وأبكي كثيرا، لكنها تشدني كثيرا. كم تُثقل العادة لعمري كاهلنا! فحيث أقدر لا أريد، وحيث أريد، لا أقدر؛ أنا شقيّ في كلتا الحالتين.

XLI.66. ولذلك تأمّلت في أسقام ذنوبي في خصوص النزغات الثّلاث، وناديت يمناك من أجل شفائي، إذ رأيت بهاءك بالقلب الجريح، وقلت مدحورا: من يصل إلى هنالك؟ « قُذف بي بعيدا عن مرأى عينيك». أنت هو الحقّ تسود الكلّ. أمّا أنا فبسبب بخلي، لم أرد أن أفقدك، بل أردت أن أملك معك الكذب: فلا أحد يريد أن يقول باطلا إلى درجة أنه ذاته لا يعلم ما هو الحقّ. لذلك فقدتك، إذ إنك لا تقبل أن يملكك أحد كذبا وبهتانا.

XLII.67. من عساه يوفّق بيني وبينك؟ أكان عليّ أن أتوسّل للملائكة؟ وبأيّ دعاء؟ وبأيّة طقوس؟ الكثيرون المحاولون للرّجوع إليك، وغير القادرين على ذلك بأنفسهم ذاتها، جرّبوا تلك الطريق، وسقطوا في شغف بالرّؤى الشاذّة، واعتبروا جديرين بالأوهام، كما علمته.

فهم في صلفهم كانوا يبحثون عنك، منتفخي الأوداج بعلم كله غرور، عوض أن يضربوها بأيديهم، وجلبوا إلى أنفسهم، بسبب تقارب سرائرهم، «قوّات الهواء» المتواطئات المتضامنات مع غرورهم، والمضلّلات لهم بقدراتهن السحريّة، وكانوا باحثين عن وسيط يقبل تنقيتهم، ولم يكن موجودا. «فالشيطان كان متنكّرا في صورة ملاك النور». وفتن أيّما فتنة غرورَهم كونُ جسمه غير مكسوّ في ذاته لحما[1].

كانوا فانين مذنبين، أمّا أنت، يا مولاي المتكبّر، الذي كانوا يبحثون أن يتصالحوا معك، فأبديّ دائم ودون خطيئة. أمّا الوسيط بين الإلـه والبشر، فكان ينبغي أن يكون له من الإلـه شبه ومن البشر شبه، حتى لا يكون شبيها بالبشر فقط، ومن ثمّ بعيدا عن الإلـه، أو شبيها بالإلـه، فقط ومن ثمّ بعيدا عن البشر، وبالتالي لا يكون وسيطا. فيكون لهذا الوسيط الكاذب بما يتمتع به من تضليل المتكبرين بقراراتك الخفية، شيء يشارك فيه البشرَ، هو الخطيئة، ويريد أن يظهر أنّ له شيئا آخر مشتركا مع الإلـه، فبما أنّه غير

(1) ...carneo corpore ipse non esset =... لم يكن في ذاته مكسوّا لحما...المرجع نفسه، ص 290 الملاحظة 1: «إنّه يقصد هنا بالفعل الأفلاطونيين الجدد... وهو يؤاخذهم (في مكان آخر) أنّهم أسندوا إلى الشيطان دور الوساطة بين الإلـه والإنسان...».

مكسّو بلحم الفناء، يتبجّح بكونه أبدّيا، لكن - بما أنّ «الموت هو أجرة الخطيئة» - فهو يشترك مع البشر في كونه مثلهم محكوما عليه بالموت.

68.XLIII. أمّا الوسيط الحقّ، الذي أبرزته وأرسلته إلى البشر في رأفتك الخفيّة، كي يتعلّموا أيضا، أسوة به، عين التّواضع، «ذلك الوسيط بين الإلـه والبشر، الإنسان المسيح اليسوعُ»، ظهر بين المذنبين الفانين والعادل الدّائم، فانيا كالبشر، عادلا كالإلـه، وبما أنّ الحياة والسلام هما جزاء العدل، بالعدل المرتبط بالإلـه كان يزيل الموت عن المذنبين المبّرئين، فأراد أن يشترك فيه معهم. هو الذي أبرز للقدّيسين القدامى، حتى يكونوا ناجين هم أنفسهم بالإعتقاد في آلامه المقبلة (**futurae passionis** = **sa passion à venir**)، كما نجونا نحن بإيمانا بآلامه الحاصلة! فباعتباره إنسانا، هو وسيط، أمّا باعتبار الكلمة، فليس وسيطا، لأنّه مساوٍ للإلـه وإلـهٌ لدى الإلـه، وفي نفس الوقت إلـه واحد.

69. كم أحببتنا، أيّها الأب الطيب، إنك «لم تُنجّ ابنك الوحيد، بل ضحّيت به من أجلنا، نحن المذنبين»! كم أحببتنا، نحن الذين من أجلنا «ذلك الإبن الذي لم يعتقد أنّه من التّطاول عليك أن يكون مساويا لك، فأطاعاك إلى حدّ الموت على الصليب، الوحيد الحّر بين الأموات، ذو القدرة على التخلّي عن روحه، وذو القدرة على استرجاعها من بعد»، المنتصر من أجلنا أمامك والضحيّة، والمنتصر لكونه الضحيّة، القسّ من أجلنا أمامك والقربان، والقسّ لكونه القربان، الجاعل منّا أبناء لك، بعد أن كنّا عبيدك، المولود منك ثمّ الخادم لنا. لي بحقّ الأمل الثّابت فيه أنك ستداوي كل أسقامي بواسطته، هو الذي يجلس على يمينك و«يتشّفع لديك من أجلنا»: وإلّا تملّكني اليأس! إذ كثيرة وكبيرة هي أسقامي عينها، قلت كثيرة وكبيرة، لكنّ دواءك أقوى. كنا نظنّ كلمته بعيدة عن الارتباط بالإنسان، وكنا نيأس من أنفسنا، لو لم تصبح لحما وتستقرّ بيننا.

70. كان قد جال بخاطري، وأنا مذعور بخطايا شقائي وعبثه، وكنت قد تدبّرت (**meditatusque fueram... j'avais songé**)[1] أمر الهروب إلى العزلة، لكنك منعتني منها، وسكّنت روعي، قائلا: «ها إنّ المسيح قد مات، كي لا يحيا من سيحيَوْن لأنفسهم، بل الذي قد مات من أجلهم». ها أنذا، مولاي، ألقي فيك همومي، حتى

(1) الملاحظة 2 ص 292 من الجزء الثاني من الاعترافات، يقول دي لابريول: «هذه معلومة تضاف إلى المعلومات التي وفرها لنا بشأن مستقبل حديثه».

أحيا، و«سوف أتمعّن في عجائب قانونك». أنت تعرف جهالتي وضعفي: علّمني وداوني. «ذلك الإبن الوحيد الذي حفظت فيه كلّ كنوز الحكمة والعلم» افتداني بدمه. فلا يفترِ عليّ المتكبرون الكذب لأني أفكر في ثمن فديتي، وآكلها، وأشربها، وأوزّعها، ولأنّي - أنا الفقير - أبتغي أن أشبع منها، مع أولئك الذين «يأكلون فيشبعون»: «وسوف يمدح المولى أولئك الذين يبحثون عنه».

الكتاب الحادي عشر

I.1. مولايَ، بما أنّ الأبديّة لك، فهل تجهل يا ترى ما أقوله لك؟ أم هل ما يقع في الزمان تَراه في الزّمان فقط؟ لمَ إذن أقصّ عليك جميع تفاصيل تلك الأحداث؟ لا أفعل هذا، على كلٍّ، لتعلمَها منّي، بل لأوقظ تجاهك مشاعري ومشاعر الذين سيقرؤون هذه الاعترافات فيقولون جميعا:«كبير هو المولى وجدير بالمديح!» قلت هذا بعد، ولأعده: أفعله حبّا في حبّك. إذ ندعوك حقّا، ومع ذلك، الحق يقول: «يعلم أبوكم ما تحتاجون إليه، قبل أن تطلبوه منه». لذا نفتح لك قرارة نفوسنا، ونحن معترفون بشقائنا وبرأفتك بنا، حتى تحرّرنا بالتمام كما بدأت، وحتّى ننتهيَ من الشقاء فينا، ونبلغ السعادة فيك، حيث أنّك حرّضتنا على أن نكون فقراء الفكر، لطيفين، مشفقين، نقيّي القلوب، ومسالمين.

ها أنذا قد قصصت عليك الكثير، كما استطعت وكما أردت، إلّا أنك الأول الذي أردت أن أعترف لك، «يا مولاي وإلـهي، حيث أنّك طيّب، حيث أنّ شفقتك هي دائمة إلى الأبد.»

II.2. من ناحية أخرى، إلى متى سيكفي لسان قلمي لتعديد كلّ تحريضاتك وكلّ أهوالي والتسليّات والتوجيهات التي أوصلتني بها إلى الوعظ بكلمتك وإلى تدريس سرّك لشعبك؟ فإن كفى الزمان لعدها بحذافيرها كانت كلّ قطرة منه بالنسبة إليّ غالية.

ومنذ القديم أضطرمُ، وأنا أتأمّلُ في قانونك، وأعترف لك بعلمي وجهالتي، بأنوارك الأولى وببقايا ظلماتي، ريثما تلتهم قوّتُك ضعفي. ولا أريد أن تنقضيَ في شيء آخر الساعات التي أجدها خالية من ضروريّات الإصلاح الجسمانيّ والعمل العقلانيّ والخدمات التي نطالب بها الناس أو نؤديها لهم دون أن نطالَب بها.

3. مولاي وإلـهي، «أصغ لدعائي»، ولتسمع شفقتُك رغبتي، فهي لا تحرقني

أنا فقط، بل تريد أن تكون صالحة للمحبّة الأخويّة. وترى في قلبي أنّ الأمر هكذا. دعني أضحّي لك بعبوديّة فكري ولساني، وأعطني «ما أهديه إليك». «فإنّي معوز وفقير، وأنت غنيّ لكلّ المتوسّلين إليك»، أنت الآمن القائم بهمومنا. طهّر شفتيّ من كلّ مجازفة وكلّ كذب،من الداخل والخارج. ولتكن كتبك المقدّسة ملذّاتي كي لا أضلّ فيها، ولا أضلّل غيري بها! مولاي، أصغ إليّ وأشفق عليّ، مولاي وإلـهي، يا نور العميان وفضيلة الضعفاء، وفي الآن نفسه يا نور المبصرين وفضيلة الأقوياء، أصغ إلى روحي واسمعها «منادية من الهاوية». إذ لو لم تكن أذناك حاضرتين أيضا في الهاوية، فأين سنروح؟ ومن سننادي؟

«النهار لك والليل لك»: لمجرّد إشارة منك تطير اللحظات. أسبغ عليّ إذن الوقت لتأمّلاتي في أسرار قانونك، ولا تغلقْ بابه «أمام الطارقين». إذ لم تشأ عبثا أن تُكتب تلك الصفحات العديدة جدّا من الأسرار الغامضة، أو إن كانت تلك الغابات ليس لها «أيائلها» الآوية إليها، الآمنة فيها، الرائحة والغادية، الراعية، النائمة المجترّة، مولاي، أكمل فيّ عملك، وأرنيها. ها إنّ كلمتك هي فرحي، وصوتك أعلى من وفرة الملاذ. أعطني ما أحبّ: إذ إنّي أحبّه، وأنت الذي أعطيته. لا تتخلّ عن هباتك ولا تحتقر كلأك العطشان. ولأعترف إليك بما سأكون قد وجدته في كتبك، و«لأسمع صوت المدح»، ولأشربك، ولأتأمّل في «عجائب قانونك»، ابتداء من اليوم الذي خلقت فيه السماء والأرض، ووصولا إلى العهد الأبديّ المشترك بينك وبين مدينتك المقدّسة.

4. «مولاي، أشفقْ عليّ، وأصغِ» لرغبتي. فأظنّ أنها لا تتصل بما هو من الأرض ولا بما هو من الذّهب والفضّة والحجارة الكريمة، أو من الثياب الرائقة، أو من الأمجاد والمناصب العالية، أو لذّات اللحم، ولا من ضروريّات الجسم، طيلة رحلتنا في هذه الحياة، فتلك كلّها «تضاف إلينا، ونحن باحثون عن مملكتك وعن عدالتك».

انظر، إلـهي، ممّا هي رغبتي. «قصّ عليّ الجائرون لذّاتهم، لكنّها ليست كقانونك، يا مولاي»: ذاك هو مصدر رغبتي[1]. انظر، يا أبي، تأمّل وانظر ووافق، وليرق لك «بمرأى» من شفقتك أن أجد النعمة أمامك، بحيث يفتح للطارق، الذي أكون، هيكل كلماتك

(1)... Ecce unde... desiderium ...= ذاك هو مصدر رغبتي. المرجع نفسه، ص 298 الملاحظة 2: «لم يكن أوغستينوس يحمل في دراسته للكتاب المقدّس حبّ اطلاع فاترا وذهنيّا خالصا، فهو يحبّه وينتظر منه أن يكشف له عن معظم صور الوحي الأساسية».... الكتاب الحادي عشر من الاعترافات، طبعة la C.U.F. (les Belles Lettres).

في داخله. أتوسّل إليك بمولانا اليسوع المسيح ابنك، الإنسان الذي على يمناك، ابن الإنسان الذي ثبّته وسيطا بينك وبيننا، والذي بحثت به عنّا، ونحن غير باحثين عنك، (نعم بحثت عنّا كي نبحث عنك!) هو كلمتك التي خلقت بواسطتها الكلّ الذي أنا واحد منه، ابنك الوحيد الذي ناديت به إلى التبنّي **(adoptionem = l'adoption)** شعب المؤمنين الذي أنا منه كذلك: بواسطته أتوسّل إليك، وهو «الذي يجلس على يمناك، ويتشفّع لنا، والذي حفظت فيه كلّ كنوز الحكمة والعلم». أبحث عنه بهذه الألقاب في كتبك. كتب عنه موسى: «هو يقول ذاك، الحقّ يقول ذاك!»

5.III. ولأسمع منك ولأفهم كيف «في البداية خلقت السماء والأرض». كتبَه موسى، كتبَه ومضى، انتقل من هنا حيث أنت إليك هنالك، وهو الآن ليس أمامي. إذ لو كان حاضرا لتعلّقت به وسألته ولتوسّلت إليه باسمك، أن يبسط لي هذا، ولوجّهت أذنيْ جسمي للكلمات الصادرة عن فمه، ولو نطق باللغة العبريّة، لقرع سمعي سُدى، ولما مسّ عقلي شيء منها، أما لو نطق باللاتينيّة، لفهت ما يقول. لكن من أين لي أن أعلم هل يقول حقّا؟ وهب أني علمت ذلك، فهل سأعلمه منه؟ لا، بل سيكون بالتأكيد في قرارتي، في منزل الفكر، سيقول الحقّ - الذي ليس عبريّا، ولا يونانيّا، ولا لاتينيّا، ولا أعجميّا، دون حاجة إلى لسان وشفتين، ودون رنين المقاطع اللفظيّة: «يقول الصواب»، وأنا في الحال سأقول لخادمك ذاك، واثقا من الحق: «تقول صوابا».

إذن، بما أني لا أستطيع أن أسأله، أطلب منك أنت أيّها الحقّ الذي كنت تملؤه عندما قال صوابا، أطلب منك، إلـهي، أن «تغفر لي ذنوبي»، وأنت الذي جعلت خادمك ذاك يقول تلك الكلمات، اجعلني أنا كذلك أفهمها.

6.IV. ها إنّ السماء والأرض أمامنا. إنهما تناديان: «لقد خلقنا».الدليل على خلقهما في تحوّلهما واختلافهما. أما الشيء الذي لم يخلق، وهو موجود، فلا يكون فيه أيّ شيء لم يكن موجودا من قبل، وإلّا يكون فيهما التحوّل والاختلاف.

يناديان أيضا أنّهما ما خلقا نفسيهما بنفسيهما، يقولان: «نوجد بسبب كوننا خلقنا، إذ لم نكن، قبل أن نكون، كما لو أننا استطعنا أن نخلق نفسيْنا». وصوت قولهما صداه في الواقع.

إذن أنت، مولاي، هو الذي خلقتهما: أنت جميل لأنّهما جميلان؛ أنت طيب لأنهما طيّبان، أنت توجد لأنّهما يوجدان. لكنّهما ليسا جميلين ولا طيّبين ولا كائنين بنفس

درجتك أنت خالقهما، وهما بالمقارنة بك، ليسا لا جميلين ولا طيّبين ولا كائنين. نحن نعرف هذه الحقائق، وشكرا لك؛ معرفتنا جهالة مقارنة بمعرفتك.

V .7. لكن كيف خلقت السماء والأرض، وما هي الآلة في مثل هذه العملية الضخمة؟ فأنت لست كالإنسان الفنان الذي يصنع جسما بجسم آخر طبقا لخياله القادر على تحقيق أيّ شكل كان يتصوّره في قرارة نفسه بالعين الداخلية - وأنّى له أن يستطيعه لو لم تخلقه أنت؟ - فهو يصوّر الأشكال في مادّة سابقة وذات كيان، كالأرض أو الحجر أو الخشب أو الذّهب أو أي صنف غيرها من هذه الأشياء. ومن أين تصدر هذه الأخيرة، لو لم تخلقها أنت؟ أنت الذي خلقت جسم الصانع والروح التي تسيّر أعضاءه والمادّة التي يصنع منها تحفة ما والموهبة التي يمارس بها الفن (artem = ses conceptions artistiques)[1] ويرى بها داخليّا ما سيفعله خارجيّا، أنت خلقت حواسّ جسمه التي ينقل بها من الروح إلى المادّة ما يصنعه، ويعرض بها من بعد ما صنع على فكره، حتى يتشاور هذا الأخير مع الحقيقة الحاكمة الداخليّة عن قيمة المصنوع.

هذه الأشياء كلّها تمدحك أنت، يا خالق كلّ شيء. لكن أنت كيف تخلقها؟ كيف خلقت، يا إلـهي، «السماء والأرض»؟ لا ريب أنّك لم تخلق السماء والأرض لا في السماء ولا في الأرض، ولا في الهواء، ولا تحت المياه، بما أنّ هذين الوسطين يعودان إلى السماء والأرض، ولا أنت خلقت الكون بأسره، في الكون بأسره، لأنّه ما كان به مكان يمكن «أن يكون فيه، قبل أن يخلق ليكون» ما كنت تمسك بيدك شيئا تقدر أن تكوّن به السماء والأرض: فمن أين كان لك ما لم تكن قد كوّنته، وكان بإمكانك أن تكوّن منه شيئا؟ فماذا يكون، إن لم يكن بسبب أنّك كائن؟

إذن قلتَ، و«خلقت الأشياء»، وخلقتها في كلمتك.

VI .8. لكن كيف قلتها؟ هل قلتها بتلك الكيفيّة التي صدر بها صوت من الغمامة قائلا: «هذا هو ابني المحبوب؟» دوّى ذلك الصوت وخفت، وابتدأ ثم انتهى. رنّت مقاطعه وسكنت، الأول بعد الثاني الثالث بعد الثاني، وهكذا دواليك حتى المقطع الأخير، بعد كلّ ما سبقه، الذي جاء إثره الصمت. من الواضح الجلي إذن أنّ حركةَ الشيء المخلوق، وهي الخادمة الدّنيويّة لإرادتك الأبديّة، هي المعبّرة عنها. وتلك الكلمات التي قلتها لتوّها نقلت من الأذن الخارجيّة إلى العقل الذكيّ، ومنه - حيث

(1) عن طبعتنا الرئيسية، ص 301 من الجزء الثاني الملاحظة 1: «Ars تعني بالفعل إذن خيال الفنّان وتصوّره الفنيّ».

وضعت الأذن الداخليّة - إلى كلمتك الأزليّة. لكنّ هذه الأخيرة قارنت تلك الكلمات الرنّانة لهنيْهة بالأبديّة الصامتة لكلمتك وقالت:«هذا مغاير، هذا مغاير جدّا، هذه الكلمات توجد بعيدة تحتي، ولا توجد، بما أنّها تهرب وتنقضي. أما كلمة إلـهي فتبقى فوقي إلى الأبد.»

إذن إن قلتَ، بكلمات رنانة عابرة، للسماء والأرض أن تكونا، وإن خلقت هكذا السماء والأرض، كان هناك بالضرورة مخلوق جسمانيّ قبل السماء والأرض، وبحركاته الدنيويّة نقل ذلك الصوت دنيويّا. لكن لا وجود لأي جسم قبل السماء والأرض، أو إن كان، فلا شكّ أنك قد خلقته دون الصوت العابر، ولكنّك جعلت فيه صوتا عابرا، كي تقول بواسطته للسماء والأرض «أن كونا». فمهما يكن ذلك الجسم الذي صدر عنه صوت كهذا، فإنّه ما كان ليكون بتاتا، لو لم تخلقه أنت. إذن إلى أيّة كلمات لجأت، كي تعطي الكيان للمادّة التي عمدت إليها لتكوين تلك الكلمات؟

VII.9. إذن تدعونا إلى أن نفهم كلمتك، أعني «أنّها إلـه بجانبك، إلـه كامل» وهي تقال منذ الأزل، وبها يقال الكلّ منذ الأزل. فلا تَعاقبَ هنا، بحيث أنّ مقطعا ينتهي، ويتبعه آخر، حتّى يمكن أن يقال الكلّ، بل يقال الكلّ دفعة واحدة وأزليّا: وإلّا لكان الزمان والتحوّل، ولما كانت الأزليّة الحقّ، ولا الخلود الحقّ!

أعرفه، يا إلـهي، و«أشكرك عليه». أعرفه، وأعترف لك به، يا مولاي، ويعرفه معي ويباركك عليه كلّ من ليس بجَحود في الحقّ الثابت. نعرف مولاي، نعرف أنّ الشيء يموت عندما ينتهي وجوده بعد أن كان، وأنّه يولد عندما يوجد، بعد أن لم يكن. فلا شيء من كلمتك إذن ينقرض أو يتبع غيره، بما أنّها بحقّ لا تفنى وهي أبديّة. ولذا تقول قولا أزليا كلّ ما تقوله بالكلمة مشتركة الأبديّة معك، ويكون كلّ ما تقول له أن يكون، ولا تجعله يكون بغير قولك: ومع ذلك فلا تكون كلّ الأشياء التي تجعلها تكون بقولك، كائنة في الآن نفسه وكائنة كونا أزليّا.

VIII.10. لِمَ هذا، أرجوك، يامولاي وإلـهي؟ إني أفهمه فهما ما، لكن لا أدري كيف أفسّره، إلّا بكون كلّ مخلوق يبدأ وجوده أو ينتهي وجوده، لا يبدأ في الكيان ولا ينتهي منه، إلّا عندما يعلم العقل الأزليّ الذي لا شيء يبتدئ فيه ولا ينتهي أنّه أصبح ضروريّا أن يبدأ أو أن ينتهي في الوجود. تلك هي كلمتك، و«هي المبدأ، لأنّها تكلّمنا أيضا». فهكذا، في الإنجيل، كلّمتنا بواسطة اللحم (**per carnem = par la voix de la chair**)، ورنّت هذه الكلمة في آذان الناس خارجيّا، حتى يؤمنوا به، ويبحثوا عنه في

الداخل، ويجدوه في الحقّ الأزليّ، حيث يُعلّم المعلّم الطيّب الأوحد جميع التلاميذ.

هناك أسمع صوتك، يا مولاي، يقول لي: إنّ من يكلّمنا هو الذي يعلّمنا، أما الذي لا يعلّمنا، ولو تكلّم، فلا يكلّمنا. ومن لعمري يعلّمنا غير الحقّ الثابت؟ إذ إننا لا نجني الموعظة من المخلوق المتغير، إلّا باعتبارها توصلنا إلى الحقّ الثابت. هنالك نتعلّم بحقّ، ونحن ماثلون بين يديه، نستمع إليه، و«نفرح فرحا بسبب صوت الزّوج» وهو يردّنا من حيث أتينا. ولذلك فهو «المبدأ» (principium = le«principe») الذي لو لا دوامه لضللنا، ولما كان لنا إلى أين نعود، لكن عندما نرجع من الضلال، نرجع منه بالطبع عن معرفة، أما هو، فيعلّمنا كي نعرفه، حيث أنّه «المبدأ» و«أنه يكلّمنا».

11.IX. في ذلك المبدإ، يا إلـهي، خلقت «السماء والأرض»، أي في كلمتك، وفي ابنك، وفي فضيلتك،و في حكمتك، وفي حقّك، بكيفيّة عجيبة قائلا، وبكيفيّة عجيبة فاعلا. من يقوى على فهم هذه العجائب؟ من يستطيع أن يقصّها؟ ما ذاك الذي ينيرني من حين إلى آخر، ويقرع قلبي دون جرح؟ أنا أرتعد وأضطرم:أرتعد بقدر ما أنا غير شبيه به، وأضطرم بقدر ما أنا شبيه به. الحكمة هي الحكمة التي تنيرني من حين إلى آخر، ممزّقة سحابتي التي تغطّيني من جديد، عند ضعفي بتلك الظلمة، وبكومة شقائي، حيث أنّ «قوّتي ضعفت إلى هذا الحدّ في الشدّة» حتى أني لا أطيق خيري، ما لم «تصبح» أنت، يا مولاي، «عطوفا على كلّ أنواع جوري»، فتداوي أيضا «كلّ أسقامي»، وتخلّص «من الفساد حياتي»، وتتوّجني «في الشفقة والرأفة»، وتشفي غليل «رغبتي من الخيرات»، إذ «سوف يتجدّد شبابي، كشباب النسر».« فبالأمل أصبحنا ناجين» ووعودَك«بالصبر نترقّب». فليسمعك متكلّما داخله من يستطيع؛ أنا سأنادي، بثقة طبقا لوحيك، «كم هي رائقة مخلوقاتك، مولاي، قد خلقتها كلّها في الحكمة!» وهذا هو «المبدأ»، و«في هذا المبدأ»، قد خلقت السماء والأرض.

12.X. أليسوا مليئين بضلالهم القديم[1]، أولئك الذين يقولون لنا:«ماذا كان يفعل الإلـه، قبل أن يخلق السماء والأرض؟ فإن كان عاطلا، حسب قولهم، ولم يكن يفعل شيئا، لماذا لم يبق هكذا فيما تلى من الأزمان، كما كان فيما مضى دوما محجما عن كل عمل؟ فإن لم توجد في الإلـه أيّة حركة جديدة، أو إرادة جديدة لخلق ما لم يكن

(1)... pleni... uetustatis suae ... = مليئين بضلالهم القديم. المرجع نفسه، ص 304 الملاحظة 1: «في «اليمين» عدد 267 §2، بشأن تمثيل الخمرة الجديدة والدنان العتيقة، يماهي أوغستينوس بين «الإنسان العجوز» و«الإنسان الجسدي»أي carnalitas uetustas est على حدّ تعبيره.

قد خلقه من قبل، فكيف تكون لعمري الأزليّة الحقّ، حيث تنشأ الإرادة التي لم تكن؟ إذ إرادة الإلـه ليست بالمخلوقة، بل تسبق المخلوقات، لأنّه لا شيء كان ليخلق لو لم تسبقه إرادة الخالق. إلى جوهر الإلـه إذن تعود إرادته. فلو نشأ شيء في جوهر الإلـه، لم يكن من قبل فيه، لما عدّ ذلك الجوهر بحقّ أزليّا: أما لو كانت إرادة الإلـه الأبديّة في أن يوجد المخلوق، فكيف لا يكون المخلوق أيضا أبديّا؟»[1]

13.XI. إنّ الذين يقولون هذه الأقوال لا يزالون «أَيَا حِكْمَةَ الإلَاَهِ» ونور العقول، غير فاهمين لك، وغير فاهمين للكيفيّة التي ينشأ بها ما ينشأ بك وفيك، ويحاولون أن يعرفوا الأزليّات، لكنّ «قَلْبَهُمْ يَتَطَايَرُ ولا يَزَالُ تافِهًا» بين تموّجات الماضي والمستقبل.

من سيوقفه، ومن سيقيّده حتى يثبت قليلا، ولينفتح قليلا على رونَق الأزليّة الثّابتة على الدوام، ويقارنه بالأزمان غير الثابتة قطّ، فيرى أنّه غير شبيه البتّة بها، ويرى أنّ الزّمان ليس بالطويل، إلّا بالكثير من الحركات السابقة التي لا يمكنها أن تنبسط معا؟ أمّا في الأبديّة فلا شيء يسبق غيره، بل الكلّ حاضر، وأمّا الزّمان كلّه فليس بالحاضر: ولذا سيرى الماضي كلّه يطرده المستقبل، وكلّ المستقبل يتبع الماضي، وأنّ كُلاّ من الماضي والمستقبل مخلوقان وصادران عمّا هو الحاضر الدائم. من سوف يوقف قلب الإنسان، كي يثبت، ويرى كيف أنّ الأزليّة الثابتة، اللاّمستقبلية واللاّماضية، تحدّد الأزمنة المستقبليّة والماضية؟

أتقدر عليه يدي، أم يَقوم بمثل هذا العمل الكبير كلامي الذي هو لفمي بمثابة اليد؟

14.XI. بما يلي سأجيب السائل:«ماذا كان يفعل الإلـه، قبل أن يخلق السماء والأرض؟»

لا أجيبه بذلك الجواب المازح الذي أراد به بعضهم أن يتهرب من هذا السؤال المخيف عندما أجاب:«كان يهيّئ جهنّم للذين يتقصّوْن هذه الأسرار!» فالرأي شيء والمزاح شيء آخر. لا أجيبه بهذا الجواب، بل أفضّل أن أجيب بـ:«لا أدري» ما لا أدري، عوض أن أعمد إلى ما يجلب السخرية للذي تساءل عن الأسرار، والمدح لمن أجابه بالباطل.

لكنّي أقول إنّك، يا إلـهنا، يا خالق كلّ مخلوق، وإن عنى باسم «السماء» و«الأرض» كلّ مخلوق، أجرؤ بالقول:قبل أن يخلق الإلـه السماء والأرض، لم يكن يفعل شيئا. إذ

---

(1) ?non sempiterna et creatura... =... فكيف يكون المخلوق إذن أبديّا؟ المرجع نفسه، ص 305 الملاحظة 1: «...(يتوجّه أوغستينوس هنا إلى الأفلاطونيين الجدد):...».

لو فعل شيئا، فما كان ليفعل سوى الخلق؟ وحبّذا لو فعلت هكذا، كلّ ما أبغي أن أفعله في صالحي، كما أعلم حقّا ألّا مخلوق كان، قبل أن يكون الخلق!

15.XIII. أما لو تاه فكر سطحيّ ما، عبر صور الأزمنة الماضية، وتعجّب أنّك أنت، الإله القدير، والخلّاق، الماسك بالكون، الصانع للسماء والأرض، أمسكت عن هذا العمل العظيم، قبل أن تقوم به، طيلة قرون لا تحصى، فليُفِق وليلاحظ أنّ تعجّبه باطل!

فأنّى للقرون التي لا تحصى أن تنقرض، وأنت بذاتك ما كنت قد خلقتها، رغم أنّك خالق القرون كلّها ومنشئها؟ أم أيّة أزمنة كانت لتكون يوما، دون أن تكون أنت قد أنشأتها؟ أم كيف تكون قد انقرضت، لو لم تكن قد كانت قطّ؟

إذن، أمّا وأنت صانع كلّ الأزمنة، إن كان زمان ما، قبل أن تخلق السماء والأرض، فكيف يقال إنّك كنت ممسكا عن العمل؟ الزمان عينه أنت قد خلقته، ولا أزمنة سابقة قبل أن تخلق الأزمنة،بل بالعكس، إن لم يكن أي زمان، قبل السماء والأرض، فلم التساؤل عما كنتَ فاعلا «آنذاك»؟ إذ ما كان «آنذاك» حيث ما كان زمان.

16. أنت لا تسبق في الزمان الأزمنة: وإلّا ما كنت لتسبق الأزمنة كلّها. بل تسبق كلّ الأزمنة الماضية من علياء أزليّتك الدائمة، وتسمو على كلّ الأزمنة المستقبليّة، لأنّها بالطبع مستقبليّة، ولأنّها - عندما ستكون قد أتت - ستكون ماضية، أما أنت «فذاتك هي عينها»، «وأعوامك لن تنقرض». أعوامك لا تغدو ولا تروح، أما أعوامنا هذه فتغدو وتروح، كي تأتي جميعها. أعوامك تبقى كلّها معا، لأنّها تبقى بالطبع، والغادية منها لا تطردها الأعوام الرائحة، لأنّها لا تمرّ: أما أعوامنا هذه، فلن تكون جمعاء، إلّا عندما ستكون قد انتهت. «أعوامك كيوم واحد» و«يومك» لا يتجدّد كل يوم، بل هو «اليومَ». وهذا «اليومَ» عندك لا يتلوه «غد»؛ كما أنه لا يتبع «أمس»، «اليومَ» لديك كالأبديّة: (Hodiernus tuus aeternitas = votre aujourd'hui, c'est l'Eternité) ولذلك أنجبت ولدا مشترك الأبديّة، وقلت له:«إنّي نسلتك اليوم». أنت الذي خلقت كلّ الأزمنة، وأنت تسبق كلّ الأزمنة، ولا يمكن ألّا يكون الزمان في زمان ما.

17.XIV. فإذن لا يوجد زمن لم تكن قد فعلت فيه شيئا، بما أنك أنت قد خلقت الزمان نفسه. ولا أزمنة تكون معك شريكة في الأبديّة، لأنّك أنت تدوم أما هي، لو دامت، لما كانت أزمنة.

فما هو الزّمان يا ترى؟ من يفسّره بسهولة واقتضاب؟ من يستطيع أن يكون له عنه،

ولو في الذهن، فكرة واضحة يمكن أن يعبّر عنها باللفظ؟ لكن أيّ مفهوم يتردّد في حديثنا مألوفا ومعروفا أكثر من الزّمان؟ نحن نفهمه، لعمري، عندما نتحدث عنه، ونفهمه أيضا، عندما نسمع غيرنا يتحدث عنه.

ماذا هو الزمان إذن؟ إن لم يسألني عنه أحد، فأنا أعرفه، وإن أردت أن أفسّره للسائلين لم أعرفه[1]: لكنّي أجرؤ على القول إني أعرف أنه، لو لم يمض شيء، لما كان زمان ماض، ولو لم يأت شيء، لما كان زمان مستقبل، ولو لم يكن شيء، لما كان زمان حاضر.

إذن فذانك الزمانان، الماضي والمستقبل، كيف يوجدان، والحال أنّ الماضي لم يعد موجودا، وأنّ المستقبل لا يزال غير موجود؟ أما الحاضر فلو كان دوما حاضرا، ولو لم ينقلب ماضيا، لما كان بعد زمانا، بل أبديّة. إذن، لو كان الحاضر زمانا، لاستمدّ الوجود من انقلابه إلى الماضي. فكيف نقول أيضا إنّه يوجد، بما أنّ سبب وجوده الوحيد أنه لن يوجد؟ فلذلك ما كنّا لنقول، بالطبع حقّا، إنّ الزمان يوجد، إلّا لأنّه ينزع إلى اللاّوجود.

18.XV. ومع ذلك نتكلّم عن زمان طويل وزمان قصير، ولا نقول ذلك إلّا عن الماضي أو المستقبل. الزمن الماضي الطويل، مثلا، نسمّي به مائة سنة خلت، والزمن المستقبليّ الطويل نسمّي به كذلك المائة سنة الآتية، أما الزمن القصير الماضي فنسمّي به أيضا، كما أظنّ، عشرة أيام خلت، وبالزمن القصير المستقبليّ العشرة أيام الآتية. لكن بأيّة صورة يكون ما ليس كائنا طويلا أو قصيرا؟ فالماضي لم يعد موجودا، والمستقبل لا يزال غير موجود. فلا نقل إذن: «الزمان طويل»، بل لنقل عن الماضي: «كان طويلا»، وعن المستقبل: «سيكون طويلا».

يا مولاي، و«نوري»، ألن تسخر، هنا أيضا، حقيقتك من الإنسان؟ أكان هذا الزمان الماضي طويلا عندما لم يعد موجودا، أم طويلا عندما كان لا يزال حاضرا؟ لعلّه لم يكن طويلا، إلّا ما دام زمانا مؤهّلا ليكون طويلا، أما بعد أن انقرض، فلم يعد كذلك؛ من هنا ما أمكنه أن يكون طويلا، بما أنه لم يكن البتّة.

(1) Si... explicare uelim, nescio...: ... = ... وإن أردت أن أفسره للسائلين لم أعرفه... المرجع نفسه، ص 309/ 308 الملاحظة 1 (الكتاب التاسع من الاعترافات): «هذا الاعتراف الصادق صدقا ساذجا يبين حرج أوغستينوس تجاه مشكل الزمان هذا الذي كثيرا ما تدرّب عليه الفكر اليوناني»... «فقد كان أرسطو... يربط بين... معنى الزمان ومعنى الحركة...»: «وكان الأفلاطونيون الجدد يحِيدون قليلا عن القول بذلك...»

فإذن لا نقل: «الزمان الماضي كان طويلا»، إذ لن نجد فيه ما كان طويلا، بما أنه ماض وبفعل الواقع لا كائن، بل لنقل: «هذا الوقت الذي كان حاضرا كان طويلا»، بما أنه كان طويلا لأنّه حاضر. فلم يعد قد انقلب إلى الماضي، أي إلى اللاّوجود، ولذلك كان مؤهّلا ليكون طويلا، لكنّه ما إن انقضى، حتى لم يعد طويلا في الحال، كما أنّه لم يعد موجودا.

19. إذن لنر، أيّتها الروح البشريّة، هل يمكن أن يكون الزمان الحاضر طويلا: فقد أُعطيتِ القدرة على أن تشعري بمُدده وأن تقيسيها. بماذا ستُجيبينني؟

هل تكوّن مائة سنة حاضرة زمانا طويلا؟ انظري أوّلا هل يمكن أن تكون المائة سنة حاضرة. فلنفترض أنّ السنة الأولى منها جارية، وأنّها إذن حاضرة، أما التسع والتسعون الأخريات فهي آتية، ولا تزال لذلك عديمة الوجود: أما إن افترضنا أن السنة الثانية تمرّ، فالأولى تكون قد مضت بعد، في حين أنّ الثانية حاضرة، وأنّ الأخريات آتيات جميعا؛ وفي هذا العدد للمائة سنة إذن، مهما تكن السنة التي نفترضهاحاضرة، كلّ التي ستكون قد سبقتها، ستكون ماضية، وكلّ التي ستكون قد تبعتها، ستكون مستقبليّة. فلهذا السبب لن يمكن أن تكون المائة سنة حاضرة.

انظري على الأقلّ هل إنّ السنة الجارية عينها حاضرة. فإن كان الشهر الأول منها جاريا، كانت الأشهر الباقية آتية، وإن كان الثاني، كان الأول قد انقضى بعد، وكانت البقيّة عديمة الوجود. لذلك، فالسنة الجارية غير حاضرة جمليّا، وإن هي غير حاضرة جمليّا، فليست بسنة حاضرة. إذ السنة هي اثنا عشر شهرا، وكلّ شهر جار مهما كان، يكون حاضرا بالذات، والأشهر الباقية تكون، إمّا ماضية أو آتية. إلّا أن الشهر الجاري ليس بالحاضر، بل اليوم الواحد منه: فإن كان الأول، كانت البقيّة آتية،وإن كان الأخير كانت البقيّة ماضية، وإن كان أحد الأشهر الوسطى، كان بين الماضية والآتية.

20. ها إنّ الوقت الحاضر الذي كنّا نجده الوحيد الجدير أن يسمّى بالطويل، يتقلّص تقريبا إلى مدى يوم واحد. لكن فلنتأمله مليا هو أيضا، لأنّ اليوم الواحد ليس كلّه حاضرا. إذ يتكوّن من أربع وعشرين ساعة ليلية ونهاريّة، وبالنسبة إلى الساعة الأولى فالباقيات آتيات، وأما الأخيرة فماضيات، وأمّا الواحدة من الوسطى، فما قبلها ماض وما بعدها مستقبليّ. وتلك الساعة الوحيدة تتركّب من أجزاء عابرة: فكلّ ما تطاير منها يكون ماضيا، وكلّ ما هو باق يكون آتيا. وإن تصوّرنا نقطة زمانيّة، لا يمكن أن تنقسم، من بعد، إلى أيّة أجزاء من اللحظات، مهما كانت دقيقة، فتلك وحدها يجدر أن تسمّى «بالحاضرة»؛ لكنّها تتطاير كلمح البرق من المستقبل إلى الماضي، بحيث أنّها لا تمتدّ

إلى أيّ مدى. إذ لو امتدّت لانقسمت إلى ماض ومستقبل: أما الحاضر فلا امتداد له.

إذن فأين هو الزمان الذي يجدر أن نسميه «بالطويل»؟ هل هو المستقبل؟ لا نقول عنه، لعمري، إنّه «طويل»، فلا شيء يوجد منه ليكون طويلا، بل نقول إنّه «سيكون طويلا». إذن متى سيكون؟ فإن كان لحدّ الآن آتيا بعد، لن يكون طويلا، حيث ألّا شيء مؤهّل فيه ليكون طويلا. أما لو كان طويلا بعد أن يكون قد بدأ في الوجود، من المستقبل اللاموجود حاليا، إلى الحاضر الذي يكون قد أصبح فيه، بحيث يمكنه أن يكون طويلا، فها إن الوقت الحاضر يصدح بأعلى الأصوات أنه لا يمكنه أيضا أن يكون طويلا.

XVI.21. ومع ذلك، يا مولاي، فنحن نحسّ بالفوارق الزمانيّة، ونقارنها بعضها ببعض، ونقول إنّ البعض أطول، أو البعض أقصر. ونقيس أيضا بأيّ فارق يكون هذا الزمان أطول أو أقصر من ذاك، ونجيب أنه الضِّعف أو الضعفان أوالثلاثة أضعاف، أو أنّ نسبتهما بسيطة، أو أنّ الأول يساوي تماما الثاني. لكنّنا نقيس الأزمنة العابرة، عندما نقيسها بالشعور، أما الماضية التي لم تعد موجودة، أو المستقبليّة التي لا تزال غير موجودة، فمن يستطيع أن يقيسها، سوى من يتجرّأ على القول بإمكان قيس اللاموجود؟ إذن، عندما يمرّ الزمان، يمكن أن نحسّ به، وأن نقيسه، أما إن صار ماضيا، فلا يمكن ذلك لأنه لاموجود.

XVII.22. أبحثُ، يا أبي، ولا أجزم: يا إلـهي، أعِنّي ووجِّهني. فمن يا ترى يمكنه أن يقول لي ألّا وجود للأزمنة الثّلاثة، كما تعلّمناها صغارا، وعلّمناها للصبيان، الماضي والحاضر والمستقبل، لكنّ الحاضر وحده يوجد، بما أنّ الآخريْن لا يوجدان؟ أو هل إنّهما يوجدان أيضا، لكن الحاضر يخرج من خلوة عجيبة، عندما ينقلب المستقبل حاضرا، والماضي ينصرف إلى خلوة عجيبة مثلها، عندما يصبح الحاضر ماضيا؟ فالذين تنبّؤوا بالمستقبل (**cecinerunt = ont prédit l'avenir**)[1] أين رأوه، بما أنه لا يوجد بعد؟ إذ ما لا يوجد لا يمكن أن يُرى. والذين يقصّون القصص الماضية، ما كانوا يقصّون لعمري الحقيقة، لو لم يكونوا يتصوّرونها في مخيّلاتهم: فلو كانت دون وجود، لما أمكن أن تتصوّر البتّة. إذن يوجد المستقبل والماضي.

---

(1) نعلم نقلا عن «ب. دي لابريول» ص 311 من الجزء الثاني المذكور أعلاه أنّ «Canere هي العبارة الكلاسيكية للدلالة على كلام كهنة الوحي الإلـهيّ langage des oracles» وأوغستينوس يعني هنا الأنبياء. انظر **Thesaurus, l. lat. s.u., col. 271**». هذا بالإضافة إلى أنّ هذا الفعل يعني في معناه العاديّ "غنّى" وأنّ معنى "تنبّأ" يوجد عند شيشرون Cicéron وفيرجيل Virgile وتيت ليف Tite Live، انظر: **Gaffiot, page 254, 3ème colonne**.

23.XVIII. اسمح لي يا مولاي أن أوسّع مجال بحثي، أيا أملي؛ وقِني ممّا تضطرب له همّتي.

فإن وجد المستقبل والماضي، أريد أن أعلم أين يوجدان. ولئن كان علم ذلك لا يزال مستحيلا، فأنا أعلم على الأقلّ أنّهما - حيثما يوجدان - لا يوجدان فيه وجود المستقبل أو الماضي، بل وجود الحاضر. إذ لو كان فيه المستقبل مستقبلا، لما وجد فيه بعدُ، ولو كان فيه الماضي ماضيا، لكان منقضيا ولم يعدْ موجودا فيه بعدُ. إذن حيثما يكونان ومهما يكونان، فليسا سوى حاضرين. مع ذلك، عندما نقصّ القصص الماضية بحقّ، فلا تصدر عن ذاكرتنا الأشياء ذاتها التي مرّت. بل الكلمات الناشئة عن صور الأشياء التي رسخت في أنفسنا آثارها، وهي مارّة بحواسّنا. فطفولتي، لعمري التي لم تعد موجودة، توجد في الزمان الماضي الذي لم يعد موجودا، أما صورتها، عندما أتذكّرها وأرويها، فإني أشاهدها في الزمان الحاضر، لأنّها لا تزال في ذاكرتي.

هل الوضع شبيه بما يقع أيضا في التنبّؤ بالأحداث المستقبليّة، حيث تشعر النفس مسبّقا بصور حاضرة عن أشياء لم توجد بعد. **أعترف، يا إلـهي، بجهلي بهذا الأمر؟**[1]. أعلم، على كلّ، أننا غالبا ما نتبصّر أفعالنا الآتية، وأنّ هذا التبصّر حاضر، أما الفعل الذي نتبصّره، فلا يوجد بعد، إذ هو مستقبليّ، وعندما نكون قد أقدمنا عليه، وشرعنا في فعل ما كنّا نتبصّره، عندئذ سيكون ذلك الفعل حاضرا، لأنّه لن يكون عندئذ مستقبليّا.

24. ومهما كانت صفة هذا التنبّؤ الغريب بالمستقبل، فإنه لا يمكن أن يرى منه إلّا ما يوجد. لكن ما يوجد بعدُ ليس مستقبلا بل هو حاضر. إذن، عندما يقال إنّ المستقبل يرى، فلا ترى الأشياء ذاتها التي لا تزال غير موجودة، أعني التي هي آتية، بل أسبابها أو ربّما دلائلها التي توجد بعد: لذلك فهي ليست بالمستقبليّة، بل هي حاضرة بعد للعيان، وبها يتصوّر الفكر المستقبل ويتنبّأ به. وهذه التصوّرات، من ناحية أخرى، تكون موجودة، ويراها، في قرارتهم كالحاضرة أولئك **الذين يتكهّنون بذلك الغيب**[2].

---

(1) confiteor,..., nescio... = ... أعترف بجهلي بهذا الأمر. المرجع نفسه، الكتاب الحادي عشر ص 312 الملاحظة 1: «مسألة النبوّة وتفسيرها تعقّد على أوغستينوس بحثه في مسألة الزمان... وهو يَقبَل هنا بصورة محتشمة متردّدة ضربا من الرؤية المسبقة للوقائع التي لا تزال غير موجودة»... وهو يلاحظ في موضع آخر أن الكتاب المقدس يُسَمّي الأنبياءَ «مبصرين voyants»...

(2) qui illa praedicunt... = ... الذين يتكهّنون بالغيب. المرجع نفسه، ص 313 الملاحظة 1: «يغامر أوغستينوس هنا بتقديم تفسير عقليّ: المستقبل ظنّ وتخمين اعتمادا على المؤشرات التي يكشف عنها الحاضر للذين يقدرون على ملاحظتها وتأويلها...».

وسآخذ مثالا أختاره من بين أمثلة كثيرة جدّا منها وسأجعله ينطق ويتكلم.

أتأمّل في الفجر فأعلن مسبّقا أن الشمس ستشرق. فما أتأمّل فيه هو حاضر، وما أعلن عنه مسبّقا هو آت: وليست الشمس، لأنّها حاصلة موجودة بعد، بل شروقها الذي لا يوجد بعد. ومع ذلك، فلو لم أكن أيضا أتصوّر شروقها بالذات في الفكر، كما أتصوره وأنا أتكلّم الآن عنه، لما استطعت أن أتكهّن به. لكن ذلك الفجر الذي أراه في السماء، ليس بشروق الشمس، رغم أنه يسبقه، ولا ذلك التصوّر له في فكري، إلّا أنّ ذينك الوضعين أراهما كالحاضرين، فأستطيع أن أعلن مسبّقا أنّ الوضع الآخر سيتحقق.

إذن فالمستقبل لا يوجد بعد، وإن لم يوجد بعد، فلا يكون، وإن لم يكن، فلا يمكنه البتّة أن يرى، بل يمكن التكهّن به، طبقا للأشياء الحاضرة التي توجد بعد وتُرى.

25.XIX. فلذلك أسألك، يا ملك الخليقة، ما هي الطريقة التي تَعْلم بها الأرواحُ الأشياء الذي ستكون؟ فقد علّمتها لرسلك. قلتُ، ما هي تلك الطريقة التي تَعلّم بها الغيب، أنت الذي لا غيب يغيب عنك؟ أو، بالأحرى، كيف تُعَلِّم - من المستقبل - ما هو حاضر بعد؟ فما لا يوجد لا يمكن بالطبع تَعَلُّمُه. فطريقتك بعيدة جدّا عن نظري؛ فقد غلبتْني؛ وبمفردي «لن أقدر» على الوصول إليها، أما بعونك، لو أعطيتنيه، فسأقدر، أنت، أيا نور عيني العذب.

26.XX. أما ما يظهر الآن واضحا فلا المستقبل موجود ولا الماضي موجود، وقولهم:«الأزمنة ثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل» قولة ليست مضبوطة، بل قد يكون من الأنسب أن نقول:«الأزمنة ثلاثة، حاضر هو حاضر الماضي وحاضر هو حاضر الحاضر وحاضر هو حاضر المستقبل». إذ إنّ هذه الصيغ الثلاث يوجد بعضها مع بعض في الفكر، ولا أراها في غيره: فحاضر الماضي الذاكرة وحاضر الحاضر النظرُ، وحاضر المستقبل الترقّبُ. إن صح ما قلناه، رأينا ثلاثة أزمنة نقرّ بها، نعم هي ثلاثة.

ليقولوا دوما:«الأزمنة ثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل»، كما جرت به العادة التعسفيّة، نعم ليقولوا هذا! فها أنذا لا أهتمّ بها، ولا أعارضها، ولا أنتقدها، لكن على شرط أن يفهموا ما يقولون، وألّا يتصوّروا أنّ المستقبل يوجد بعد، وأنّ الماضي لا يزال موجودا. «فقلّما نقول كلاما مضبوطا، بل إن كلامنا يكاد يكون كله غير صحيح، لكننا مع ذلك نعرف بوضوح ما نقصد».

XXI.27. قلت إذن، منذ قليل، إننا نقيس الأزمنة في مرورها، حتى نستطيع أن نقول إنّ هذه الفيْئة ضعف تلك الفيْئة أو إنّها مساوية لها، وأن نركّب، بالقيس، أيّ تناسب آخر بين أجزاء الزمان.

فلذلك السبب، كما كنت أقول، نقيس الأزمنة، ولو أنّ أحدا قال لي: «من أين لك هذا؟» لأجبت:«أعلمه، لأننا نقيس، ولا نقدر أن نقيس ما لا يوجد، والماضي والمستقبل لا يوجدان». لكنّ الزمان الحاضر كيف نقيسه، بما أنه لا امتداد له؟ فإذن يقاس، عندما يمرّ، أما عندما يكون قد مرّ فلا يقاس: فهو إذن لن يكون قابلا للقيس.

لكن من أين يأتي الزمان، ومن أين يمرّ، وإلى أين يروح، عندما يقاس؟ من أين يأتي، إن لم يكن من المستقبل؟ وبم يمرّ، إن لم يكن بالحاضر؟ وإلى أين يروح، إن لم يكن إلى الماضي؟ إذن يأتي مما لا يوجد بعد، ويمرّ بما هو عديم الامتداد، ليروح إلى ما لم يعد موجودا.

ومن جهة أخرى، ماذا نقيس، سوى الزمان في فضاء ما؟ فعندما نتكلّم عن المدد البسيطة والمضاعفة والمثلّثة والمتساوية وجميع النسب الزمانيّة المماثلة، لا نتكلّم إلّا عن الفضاءات الزّمانيّة (**nisi spatia temporum = si ce n'est des espaces temporels**). ففي أي فضاء نقيس الزمان العابر؟ هل يكون في المستقبل الذي يأتي منه ليروح؟ لكنّ ما لا يوجد بعد لا يقاس. أم هل يكون في الحاضر الذي يمرّ به؟ لكننا لا نقيس ما لا يكون في فضاء. أم هل يكون في الماضي الذي يروح إليه؟ لكنّنا لا نقيس ما لم يعد موجودا.

XXII.28. فكري يضطرم لفهم هذا اللّغز المعقّد أيّما تعقيد[1]. لا توصدْ، يا مولاي وإلـهي وأبي الطيّب، أتوسّل إليك بالمسيح، لا توصدْ الباب في وجه رغبتي لفهم هذه المسائل المألوفة والسريّة، حتى ألجها، فتستنير بأشعّة شفقتك، يا مولاي. من سأسأله عنها؟ ولمن أقرّ بجهلي لها فأجني من ذلك فائدة أكبر، إن لم يكن إليك،أنت الذي لا تعارض شغفي بكتبك المقدّسة واهتمامي الشديد بها؟ أعطني ما أحبّ: فإنّي أحبّ، وأنت أعطيتني ذلك. فأعطنيه، يا أبي، أنت الذي تعرف كيف «تعطي لأبنائك الخيرات الحقّ!». أعطنيه حيث تجشمت المعرفة الصعبة، وهاك شقائي أمامك، حتى «تفتح

---

(1) **istuc inplicatissimum aenigma ....** =.. هذا اللغز المعقّد أيما تعقيدا... المرجع نفسه، ص 315 الملاحظة 1: «البحث الفلسفيّ عند أوغستينوس يذكّيه بصورة متواصلة الشغف الذي يكنه له».

لي الباب». أتوسّل إليك بالمسيح، باسم قدّيس القدّيسين، ألّا يواجهني أحد فيها. «وقد آمنت أنا، ولهذا أتكلّم». ذلك هو أملي؛ الذي أحيا من أجله «حتى أتأمّل في ملاذّ المولى». ها «إنّك قد وضعت أيّامي الغابرة وهي تمرّ»، ولا أدري كيف.

ونتكلّم عن زمن وزمن، عن أزمنة وأزمنة: «كم زمنا طال كلام فلان؟»، و«كم زمنا طال فعل فلان؟» و«كم زمنا طويلا مضى دون أن أرى ذلك الشيء؟»، و«هذا المقطع اللفظيّ يدوم ضعف زمن ذلك المقطع القصير». نقول هذه العبارات ونسمعها، ونُفْهِم غيرَنا، ونفهم عنه، فلا شيء أوضح منها ولا أكثر استعمالا، وبالعكس فهي بعينها غامضة جدا، وتأويلها غير متداول.

XXIII.29. سمعت رجلا عالما يقول إنّ الأزمنة ذاتها هي حركات الشمس والقمر والكواكب، ولم أوافقه. فلماذا لا تكون بالأحرى حركات جميع الأجسام! أو بصورة أخرى، لو توقّفت نجوم السماء عن دورانها وكانت عجلة الخزفيّ تتحرّك، ألم يعد هناك زمن، لكي نقيس به دوراتها، فنقول إنّها تدور في مدد متساوية، أو إنّها تتحرّك وبعضها أكثر بطءا، أو بعضها أكثر سرعة، أو إنّ **بعضها أطول زمنا وبعضها أقصر**[1]؟ أو إن كنّا نقول هذا، ألم نكن نقوله أيضا في الزمان، أو أما كانت مقاطع كلامنا بعضها طويل، وبعضها قصير، إلّا لكون الأولى قد رنّت مدّة أطول والثانية مدّة أقصر؟

يا إلـهي، هب البشر القدرة على أن يرتؤوا، في المثال البسيط، الرؤى المشتركة بين الأشياء الصغيرة والكبيرة. فهناك الكواكب ومصابيح السماء «كالعلامات للفصول والأيام والسنين». نعم هي كذلك؛ لكني ما كنت أنا لأقول إنّ دورة تلك العجلة الخشبيّة الصغيرة تعدّ يوما، ومع ذلك، فعالمنا ما كان أيضا ليقول إنّها ليست بالزّمان.

30. لذلك أودّ أن أعرف جوهر الزمان وطبيعة الزمان الذي نقيس به حركات الأجسام، فنقول إنّ تلك الحركة، مثلا، تدوم ضعف الزمان الذي تدومه هذه. إذ أبحث كيف أنّ اليوم لا يسمّى فقط بِرَيْثِ الشمس فوق الأرض، ثمّ إن النهار شيء والليل شيء آخر، بل وأيضا أنّ الدّوران الكامل لها يكون من الشرق إلى الشرق، طبقا لما نقوله: «مرّ كذا من الأيام» - إذ نقول «هذه الأيام» مقرونة بلياليها، أو دون أن تحذف منها مدد الليالي. لذلك فلمّا كان اليوم مستوفًى بحركة الشمس وبدورانها من الشرق

---

(1) **alios magis diuturnos, alios minus? =... بعضها أطول وبعضها أقصر؟** المرجع نفسه، ص 316 الملاحظة 1: «حلل بلوتين Plotin في كلام أكثر تجريدا (**Enneádes, III, 7, 8, tome III...**) أنّ الحركة يمكن أن تتوقّف أو ألّا تحدث إلّا بصورة متقطّعة، لكنّ الزمان لا يمكنه ذلك».

إلى الشرق، أبحث هل تكون الحركة ذاتها هي اليوم، أم الرّيث ذاته، حسب طول مدّته، أم هل هي الاثنان معا.

فلنفترض أنّ اليوم هو حركة الشمس، إذن يكون اليومُ، حتى لو أتمّت الشمس تلك الدورة في مدّة زمانيّة مساوية لساعة واحدة. وهل اليومُ ريثُ الحركة؟ إذن لا يكون «اليومُ» لو كان للرّيث (mora = durée du mouvement) - من شروق الشمس إلى شروق آخر - من القِصر بحيث يساوي ساعة واحدة؛ وفي هذه الحال يجب أن تدور الشمس أربعا وعشرين مرّة، حتى تستوفي اليوم. ولنفترض أن اليوم هو فيهما معا أي حركة الشمس والرّيث، فلن يسمّى اليوم يوما، لو دارت الشمس كامل دورتها في مدّة ساعة، أو لو توقفت الشمس عن الدوران، ليمرّ من الوقت ما اعتادت أن تقضيه في طوافها التامّ، من الصباح إلى الصباح.

فلذلك لا أريد الآن أن أبحث عن ماهية ذلك الذي يسمّى اليوم، بل عن ماهية الزمان الذي قد نقول، ونحن نقيس به دوران الشمس، إنه اجتيز في نصف المدّة الزمانيّة التي اعتادها، لو كان الاجتياز في زمن يساوي الاثنتي عشرة ساعة، وقد نقول ونحن نقارن كلتا المدّتين، إن تلك هي البسيطة وهذه ضعفها، ولو كانت الشمس لتطوف أحيانا الطواف البسيط، وأحيانا ضعفه من الشرق إلى الشرق.

لذا فلا يقلْ لي أحد «إن الأزمنة هي حركات الأجرام السماويّة». فعندما توقّفتِ الشمس، استجابة لدعاء داع، كي تتمّ المعركة بالنصر، كانت الشمس ثابتة لامتحرّكة، لكنّ عجلة الزمان كانت تدور، لأنّ تلك المعركة، لعمري، شنّت وانتهت، في مدتها الزمانيّة التي كانت تكفيها حقا.

أرى إذن أنّ الزمان عبارة عن الامتداد. لكن ماذا أرى؟ أو أأظنّ أني أرى؟ أنت هو الذي سترينيه، يا نورُ، يا حقٌّ.

31.XXIV. أتأمرني أن أوافق من يقول إنّ الزمان هو حركة الجسم؟ لا تأمرني بذلك. فألّا يتحرّك الجسم إلّا في الزمان، أفهم ذلك: أنت تقوله. أمّا أن تكون حركة الجسم هي الزمان، فذاك ما لا أفهمه[1]. أنت لا تقوله. فعندما يتحرّك الجسم، أقيس بالزمان مدّة تحرّكه، منذ أن يبدأ التحرّك إلى أن ينتهي منه، وإن لم أر منذ أي زمن

(1) يورد "ب، دي لابريول" الرأي التالي لـ "ب. دوهام" P. DUHEM بالصفحتين 318 و319 من الجزء الثاني: «فالزمان إذن شيء آخر مختلف عن حركة الأجسام. فكلّ جسم يتحرّك في الزمان. وبالزمان نقيس حركة الأجسام... والزمان ليس مقترنا بحركة الأجسام، ونحن نقيس هذه الحركة بواسطة شيء يوجد في مكان آخر». الملاحظة 1.

يبتدئه، وهو يواصل تحرّكه، بحيث لا أرى متى ينتهي منه، فلا أقدر أن أقيس تلك المدّة، إلّا ربّما منذ أن أبدأ في رؤية الحركة وحتى أنتهي منها. فإن رأيته طويلا، لا أعلن إلّا كون مدّته طويلة، لا كم تكون، لأننا، عندما نقول كم تكون، فكأنّما نقوله على وجه المقارنة: «هذا يساوي ذاك» أو «هذا ضعف ذاك»، وهكذا دواليك. أما لو استطعنا أن نرسم في الفضاء المكانين اللّذين يأتي الجسم المتحرّك من أحدهما ليذهب إلى الآخر، أو نرسم أجزاءه، إن تحرّك كما يقع عادة في المخرطة (**in torno = un tour**)، فيمكننا أن نقول كم زمنا استغرقت، من ذلك المكان إلى ذلك المكان، حركة الجسم أو حركة أجزائه.

إذن فبما أن حركة الجسم هي شيء، وأنّ قيس مدّته شيء آخر، فمن يعلم على أيّ منهما، يجدر أن نطلق اسم الزمان؟ إذ يحرّك الجسم، مرّة، حركة غير متساوية، ومرة يتوقّف، فنحن نقيس بالزمان، لا فقط، حركته، بل وأيضا سكونه، ونقول: «قد سكن مدّة تساوي تحرّكه»، أو «قد سكن مرّتين أو ثلاث مرات أكثر مما تحرّك» أو غير ذلك مما تضمّنه قيسنا أو عيّره بصورة تقريبيّة كما يقال. إذن فالزّمان ليس بحركة الجسم.

32.XXV. وأقرّ لك، مولاي، أني أجهل ما هو الزمان، وبالعكس أقرّ لك، مولاي، أنّي أعرف أنّي أقول هذا في الزمان، وأنّي أتكلّم عن الزمان منذ زمن طويل، وأنّ «هذا الزّمن الطويل» ليس طويلا، إلّا بالرّيث الزّمانيّ. فإذن كيف أعرف ذلك، وأنا أجهل ماهيّة الزمان؟ أم لعلّي أجهل كيف أقول ما أعرفه؟ ويل لي، أنا الذي أجهل حتى ما أجهله. انظر، يا إلـٰهي، إنّه جليّ إليك أني لا أكذب. إنّ قلبي كقولي، «فلتنر أنت مصباحي، يا مولاي وإلـٰهي، ولتنر ظلماتي».

33.XXVI. ألا تعترف إليك روحي اعترافا صادقا، أني أقيس الأزمنة؟ بل بالعكس، يامولاي وإلـٰهي، أقيسها، ولا أدري ما أقيس. أقيس حركة الجسم بالزّمان. ألا أقيس أيضا الزمان عينه؟ أم هل لي أن أقيس حركة الجسم، وكم تدوم وكم وقتا يقضيه ليصل من هنا إلى هناك، لو لم أقس الوقت الذي يتحرّك خلاله؟

فبم إذن أقيس الزمان عينه؟ هل نقيس، بزمن أقصر، زمنا أطول، كما نقيس بالذراع عارضة؟ فتجدنا هكذا نقيس مدى المقطع الطويل، بمدى القصير، وقائلين إنّ ذاك ضِعف هذا. لذا نقيس طول القصائد بعدد الأبيات، وطول الأبيات بعدد المقاطع، وطول المقاطع بعدد أجزائها، ونقيس مدد الطويلة منها بالقصيرة، لا على الصفحات - إذ نقيس بهذه الكيفيّة الأمكنة لا الأزمنة - بل عندما تجري الكلمات في النطق، ونقول: «هذه القصيدة طويلة، فهي تتركّب من كذا من الأبيات؛ والأبيات طويلة، إذ

تمتدّ على كذا من المقاطع؛ وأجزاؤها طويلة، إذ تتسّع لكذا من المقاطع؛ وهذا المقطع طويل، إذ هو ضعف القصير».

لكن، حتّى هكذا لا ندرك قيس الزمان بيقين، حيث قد يتّفق أن يكون البيت الأقصر يرنّ في الأذن مدّة أطول، إن نطقنا به بأكثر بطءا من الأطول إن نطقنا به بأكثر سرعة. وكذا الحال في القصيدة وفي البيت وفي المقطع.

من ذلك تراءى لي أنّ الزمان هو لا شيء، سوى الامتداد: لكن امتداد ماذا، لا أدري؟ والعجيب ألّا يكون امتداد الفكر ذاته. فماذا أقيس - أتوسّل إليك، يا إلـٰهي - قائلا إمّا بالتقريب:«هذا الزمن أطول من ذاك» أو على وجه الدقّة:«هذا ضعف ذاك»؟ أقيس الزمان، وأعرفه؛ لكنّي لا أقيس الآتي منه، لأنه لا يوجد بعد، لا أقيس الحاضر، لأنّه لا يمتدّ أيّ امتداد، لا أقيس المستقبل، لأنّه لا يوجد بعد، فماذا أقيس؟ هل هي الأزمنة العابرة لا الأزمنة الماضية؟ فذاك ما كنت قد قلته.

34.XXVII. أصرّي، يا روحي وتأمّلي بقوّة:«الإلـه مُعيننا؛ هو الذي خلقنا، لا نحن». تأمّلي حيث يشرق الحقّ[1].

هناك، مثلا، صوت جسم يبدأ في الرنين، يرنّ ولا يزال يرنّ، وها إنّه ينتهي منه، وها هو الصمت وقد أصبح ذلك الصوت في الماضي، وليس بعد صوتا.كان مستقبليا، قبل أن يكون ليرنّ، ولم يكن ليمكنه أن يقاس، لأنّه لم يوجد بعد، ولا يمكنه ذلك الآن، لأنه لم يعد موجودا. إذن كان له ذلك، لمّا كان يرنّ، لأنه كان آنذاك موجودا بحيث كان يمكنه أن يقاس. لكنّه لم يكن - حتّى آنذاك ثابتا، إذ كان يغدو ويروح. أهذا بالذات ما يجعلها أقرب إلى أن تقاس؟ إذ إنها عند عبورها كانت ذات امتداد زمانيّ يمكن من أن نقيسها، في حين أنه لا امتداد للحاضر البتّة.

إذن، إن كان، لذلك الصوت آنذاك هذا الطابع، ها هو مثال آخر لصوت يبدأ في

---

(1) ubi albescit ueritas... = حيث يشرق الحقّ... نفس الإحالة الكتاب الحادي عشر، الملاحظة 1: «هي عبارة فيرجيلية (Aen. IV, 586...)حوّرها أوغستينوس تحويرا موفقا...» هذا علاوة على كون ديدون،Didon في النشيد الرابع من الإنيادة، رأت من أعلى قصرها نور الفجر يشرق primam albescere lucem... وأسطول الخائن «إيني» Enée يبتعد... وفي سوْرة من الهيجان أرادت أن ترسل في البحر أسطولا يتعقّب أثره، عقابًا له. ويذكر «دي لابريول» في هذا السياق ص321 » أنهم «قلّما كانوا يحملون Albescere على المعنى المجازيّ». ويمكن أن نختم هذه الملاحظة بالإشارة إلى أنّ الناس كانوا معجبين إعجابا كبيرا بالشاعر "فيرجيل" في إفريقيا في العصور المتأخرة والعصور المسيحية.

الرنين، ولا يزال يرنّ باستمرار ودوام، ودون أيّ توقّف، فلنقسه، ما دام يرنّ؛ وعندما سيتوقّف، سيكون بعد ماضيا، ولن يكون قابلا للقيس. فلنقسه إذن، ولنقل كم سيدوم. لكنّه لا يزال يرنّ، ولا يمكن قيسه إلّا من بدايته التي يبدأ الرنين فيها، إلى نهايته التي ينتهي منه فيها. فالمدّة ذاتها، لعمري، نقيسها، من بداية ما إلى نهاية ما. فلهذا السبب، لا يمكن أن يقاس الصوت الذي لم ينته بعد، بحيث يقال كم طويلا يكون أو قصيرا، أو يقال إنه مساو لصوت ما، أو إنّه بالنسبة إلى صوت ما، بسيط أو ضعفه، إلخ... أما، عندما سيكون قد انتهى، فلن يكون بعد موجودا. إذن، فبأيّة طريقة سوف يمكن أن يقاس؟ ومع ذلك، نقيس الأزمنة لا التي لا تزال غير موجودة، ولا التي لم تعد موجودة، ولا التي لا تمتدّ على أيّ ريث، ولا التي ليست لها أيّة حدود. إذن فلا نقيس الأزمنة الآتية ولا الماضية ولا الحاضرة ولا الجارية، وعلى الرغم من ذلك، نقيس الأزمنة!

35. «الإله، خالق الكلّ»[1]:

هذا البيت يتركّب من ثمانية مقاطع، تتراوح فيه بين القصيرة والطويلة: هي إذن ثلاثة مقاطع قصيرة، الثاني والرابع والسادس، وهي بسيطة بالنسبة إلى الخمسة الطويلة، الأول والثالث والخامس والسابع والثامن. ولكلّ واحد من هذه الأخيرة ضعف زمن كلّ واحد من تلك الأولى؛ أتلفّظ بها وأجزم بذلك، والأمر كذلك، حسب شهادة الحاسّة الجليّة. وبقدر ما إنّ الحاسّة جليّة، أقيس بالمقطع القصير الطويل، وأشعر بكونه يوجد فيه مرّتين. لكن لمّا كان المقطع يرنّ بعد غيره، فإن كان القصير الأول، والطويل بعده، كيف سأمسك بالقصير، وكيف سأستعمله لقيس الطويل، حتى أجد أنّه يوجد فيه مرّتين، بما أن الطويل لا يبدأ يرنّ، إلّا بعد أن يكون القصير قد انتهى من الرّنين؟ والطويل ذاته، هل أقيسه حاضرا، في حين أنّي لا أقيسه إلّا وقد انتهى؟ لكن في نهايته انقلاب إلى الماضي.

فما الذي أقيسه إذن؟ أين هو المقطع القصير الذي أقيس به؟ وأين هو الطويل الذي أقيسه؟ فالإثنان (أي المقطعان القصير والطويل)[2] قد رنّا وطارا، ومرّا، وليس لهما وجود بعد: وأنا أقيس، وأجيب بالقدر من الثّقة الموثوق بها في الحاسّة المجرّبة، أنّ

---

(1) «Deus creator omnium»... = الإله خالق الكون... (المترجم [أي المترجم الفرنسي "ب. دي لابريول"]) المرجع نفسه، الملاحظة 1 ص 322، وقد أورد أوغستينوس في موضع سابق مقطوعتين من هذا النشيد (انظر الكتاب التاسع، الفقرة XII, 32)».

(2) ما بين القوسين يعدّ توضيحا للسّياق، لا ترجمة حرفيّة.

ذاك هو البسيط، وأنّ هذا هو الضعف، في خصوص المدّة طبعا. ولا أستطيع هذا إلّا لأنّهما مرّا وانتهيا. فلا أقيس إذن المقطعين بالذات اللذين لم يعد لهما وجود، بل شيئا ما يبقى عالقا بذاكرتي.

36. فيك، يا فكري، أقيس الأزمنة(1)، فلا تعارضْني، فذاك يوجد؛ لا تعارضْني طبقا لسيول مشاعرك. قلت: فيك أقيس الأزمنة. الشعور الذي تبعثه فيك الأشياء العابرة، والذي يبقى عندما تكون قد مرّت، ذلك ما أقيسه حاضرا، لا الأشياء التي قد مضت حتّى يوجد ذاك ما أقيسه، عندما أقيس أزمنة. إذن، فإمّا تلك هي الأزمنة، أو لست أقيس أزمنة.

لكن ماذا؟ عندما نقيس الصمت، ونقول إنّ ذلك الصمت قد دام مدّة زمنيّة تساوي مدّة ذلك الصوت، أفلا نشغّل الفكر لقيس الصوت، وكأنّه يرنّ، حتّى نقدر أن نميّز البعض من مدد الصمت في الرّيث الزماني؟ فدون حركة صوتيّة للفم، نقوم بسرد القصائد والأبيات وكلّ الخطب، مميّزين تناسب حركاتها وتفاعل مددها، تماما كما لو كنّا نسردها بصوت جهوريّ. إذا أراد أحد أن يصدر صوتا طويلا ما، وضبط منه مسبّقا، في فكره، الطول، فهو يتصوّر مدّته بصمت، ويعهد بتحديدها لذاكرته، وعندئذ فقط، يصدر الصوت الذي لا يرنّ إلّا إلى الحدّ المقرّر مسبّقا: لكنّه رنّ وسوف يرنّ؛ فما مرّ منه بعد لعمري، قد رنّ، أما ما يبقى، فسيرنّ، وعلى هذه الصورة يكتمل، في حين أنّ الفعل الحاليّ يوصل الآتي إلى الماضي، وهذا يزداد بما ينقص المستقبليّ، حتى يصبح الكلّ ماضيا بعد فناء المستقبليّ.

XXVIII.37. لكن كيف ينقص أو يفنى المستقبليّ الذي لا يوجد بعد؟ أو كيف يزداد الماضي الذي لم يعد موجودا، لا يكون ذلك إلّا لأنّه توجد في الفكر الذي تحدث فيه هذه الظواهر ثلاثةُ أشياء؟ فالأول يُنتظر، والثاني يهتمّ به، والثالث يتذكّر، بحيث أنّ ما ينتظر يتحوّل _ بواسطة ما يهتمّ به - إلى ما يتذكّر. إذن فمن ينكر أنّ المستقبليّ غير موجود بعد؟ لكن، مع ذلك، فانتظار الآتي موجود في الفكر، ومن ينكر أنّ الماضي لم يعد موجودا؟ لكن، مع ذلك، فتذكّر الماضي لا يزال في الفكر. ومن ينكر أنّ الزّمان الحاضر يفتقر للامتداد لأنّه في نقطة عابرة؟ لكن، مع ذلك، يدوم الاهتمام كثيرا، وهو ما يتّجه به ما سيكون غائبا إلى ما سيكون قد مضى. إذن ليس

(1)... In te, anime meus, tempora metior» = «فيك يا فكري... أقيس الأزمنة». المرجع نفسه، ص 322 الملاحظة 2، قال الشارح الشهير: «هذا هو القول الفصل...».

الزمان المستقبليّ بالطويل، بما أنّه لا يوجد، بل المستقبل الطويل هو في ترقّب للآتي يُتصوّر طويلا، وليس الزّمان الماضي بالطويل، بما أنّه لا يوجد، بل الماضي الطّويل هو في تذكّرٍ للماضي يُتصوّر طويلا.

38. أقبل على ترتيل نشيد أعرفه عن ظهر قلب: وقبل أن أبدأه، يتشغّل انتظاري تجاه كليّته، أما بعد أن أبتدئ فيه، وبقدر ما سأكون قد رميت منه في الماضي، فتكون ذاكرتي مشغّلة كما يشغّل فعلي حيويّا تجاه الذاكرة بسبب ما رتّلته، وتجاه الانتظار بسبب ما سأرتّله: إلّا أنّ اهتمامي باق حاضر، بحيث سيصبح به ما كان آتيا ماضيا. وبقدر ما تنمو هذه الحركة، تثري الذاكرة بما يفقده الانتظار، حتى الوقت الذي يكون الانتظار فيه قد فَنِي، كأن عملي قد اختتم وانتقل كليّا إلى ذاكرتي. وما يحدث لكليّة النشيد المرتّل يحدث لكلّ واحد من مقاطعه، وتلك هي الحال بالنسبة إلى عمل أوسع ربّما كان ذلك النشيد جزءا صغيرا منه: كذلك في خصوص حياة الإنسان كلّها التي تكون أعماله أجزاء لها، كذلك أخيرا بالنسبة إلى «تاريخ جميع الأجيال البشريّة» التي تكون حياة الناس جميعا أجزاء لها.

XXIX.39. لكن «حيث أنّ شفقتك خير من كلّ حياة»، فها إنّ حياتي عصيان، وإنّ «يمناك أمسكت بي» في مولاي، ابن الإنسان والوسيط بين وحدتك وكثرتنا، في الكثير وبالكثير، حتّى «أقبض به على من قبض عليّ» وأتحرّر من الأيام الغابرة متّصلا بك ومندمجا في وحدتك، «ناسيا الماضي»، غير تائق لما سيأتي ويمضي ويمرّ، بل لما هو الآن حاضر، مواصلا جهدا خاليا من كلّ تشتّت[1] لنيل «إكليل النزعة السماويّة»، حيث سأسمع المديح، وسأشاهد غبطتك»، وهي ثابتة لا تغدو ولا تروح.

أما الآن «فأعوامي تمضي في الحسرات»، وأنت، ياسلواني، يا مولاي، يا أبي، أنت دائم؛ أما أنا فمتشتت في الأزمنة التي لا أدري ترتيبها. في التقلّبات المضطربة تتمزّق أفكاري، وأحشاء روحي العميقة، في انتظار أن أسيل فيك، مطهّرا ومسبوكا بنار حبّك.

---

(1) العبارات «Non distentus, sed extentus» التي ترجمها «ب. دي لابريول» P. DE LA-BRIOLLE في الصفحة 325 على النحو التالي «tendu... vers les choses présentes,... par un effort exclusif de tout éparpillement,...» أي «مشدودا...إلى الأشياء الحاضرة... بجهد خال من كلّ تشتّت» شرحت بالعبارات التالية: «هاتان الصفتان اللتان تكررتا في صورة الاسمين distentionem و intentionem تعبران عن التقابل بين الجهد الذي يُلاَقى والجهد الذي يتشر». الإحالة نفسها، الملاحظة 1.

XXX.40. وسأكتسب الثبات والمتانة فيك وفي حقّك، ولن أتحمّل أسئلة الناس الذين، يريدون، بسبب حبّهم الجائر للاطّلاع، أن يشربوا أكثر ممّا يشفي غليلهم، ويقولون: «ماذا كان يفعل الإلـه، قبل أن يخلق السماء والأرض؟»، أو «كيف جال بخلده أن يفعل شيئا ما، والحال أنّه لم يفعل من قبل أيّ شيء قطّ؟»

هَبْ لهُمْ، يا مولاي، القدرة على التفكير مليّا في ما يقولون واجعلهم يفقهون أنّ «قطّ»[1] (numquam) لا تقال حيث لا يكون الزمان[2] (ubi non est tempus). فإذن، من يقال عنه «إنّه لم يفعل شيئا قطّ» هل يقال عنه شيء آخر عدا أنّه لم يفعل شيئا «في أيّ زمان»؟ لذلك ليروا ألّا زمان كان ليوجد قبل الخليقة، وليتوقفوا عن قول هذه الترّهات. وليتوجّهوا أيضا «إلى ما هو أمامهم»، وليفهموا أنّك، قبل الأزمنة، الخالق الأزليّ لكلّ الأزمنة، وألّا أزمنة هي شريكتك في الأزليّة، ولا أيّة خليقة، مهما تكن فوق الأزمنة[3].

XXXI.41. مولاي وإلـهي، ما أكثر منعطفات سرّك العميق، وكم بعيدا عنه رمت بي عواقب خطاياي؟ لتشفِ عينيَّ، ولأغتبط برؤية نورك! فالمؤكد أنه لو كان لعقل من العقول معرفة كبيرة بالعلم والتنبّؤ تجعله يعرف كلّ الماضي والمستقبل كما أعرف أنا نشيدا مشهورا جدّا، لكان ذلك الفكر عجيبا للغاية، ومفزعا إلى حدّ الرعب، بما أنّه لن يخفى عنه على هذا النحو أيّ حدث ماض، ولا أيّ حدث من القرون الباقية، كما أنه لا يخفى عليّ وأنا أرتّل هذا النشيد (cantantem illud canticum)[4] كم مقطعا سردت منه منذ البداية وكم بقي منه حتى النهاية. لكن لتبتعد عنّي، نعم ليبتعد عنّي أن تكون، أنت، يا صانع الكون، وصانع الأرواح والأجسام، أن تكون تعرف هكذا كلّ المستقبليّ والماضي. أما أنت فمصدر عجب وسرّ أكبرين، أقول أكبرين! إذ، عندما يغنّى لحن معروف، أو يسمع غناؤه، تترقّب الخانات الآتية، وتتذكّر الماضية، وذاك ما يبعث المشاعر، ويعطي للأحاسيس كلّ قوّتها. أمّا أنت فلا يحدث فيك شيء من هذا

---

(1) (ne signifie rien) = «jamais». (الأحالة نفسها).

(2) حيث الزمان لا يوجد.(الاحالة نفسها).

(3)...Etiamsi... aliqua supra tempora =... مهما تكن فوق الأزمنة... المرجع نفسه، ص 326 الملاحظة 2: «يقصد الملائكة: انظر النقاش بشأن علاقة الملائكة بالزمان، المرجع نفسه، XII, XVI».

(4) عندما أرتّل هذه المقطوعة على حدّ قول "ب. دي لابريول"(أو قل هذا النشيد cantique)...

القبيل، أنت ذو الدّيمومة الأزليّة التي هي السمة الحقّ لخالق الأفكار الأبديّ. إذن، كما أنّك عرفت «في المبدإ السماء والأرض»، دون أن تتغير معرفتك، كذلك خلقت «في البداية السماء والأرض»، دون أن يتغير عملك.

من يفقه هذا فليمدحك، وليمدحك أيضا من لا يفقهه،! آه! كم أنت رفيع! وكم تجد منزلك في قلوب المتواضعين!

فأنت «ترفع الطريحين أرضا»، وهم لا يسقطون لأنّك رفعتهم[1](quorum celsitudo es = que vous maintenez debout)..

---

(1) هذه خاتمة على غاية من الحبكة اجتمعت فيها excelsus أي «كبير» صفةً للإله وهي من نفس عائلة celsitudo أي "العظمة" وelisos أي "مكسور" صفةً للبشر المتواضعين (أو الأذلّاء). وبفضل رحمة الإله يُرفع شأنهم ويحلّون على الرحب في بيته المضياف فترى انحطاطهم يزول ويمّحي في يسر وسهولة.

الكتاب الثاني عَشَرَ

I.1. عانى قلبي كثيرا، يا مولاي، من عَوز حياتي هذا، وكلمات كتبك المقدّسة تقرعه، ولذلك غالبا ما يكون فقرُ الذكاء البشريّ ثريًّا بالكلام، لأنّ البحث يتطلّب كلاما أكثر ممّا يتطلّبه الاكتشاف، ولأنّ الطلب أطولُ من التحصيل، ولأنّ اليد تتعبُ أكثر عند القَرْع والضربِ منها عند مجرّد التلقّي. لكننا حصلنا على وعْدِك: فمن ذا الذي يفسده؟ و«إنْ كَانَ الإلاَهُ معَنَا، فَمَنْ يَكُونُ ضِدَّنَا؟ أُطْلُبُوا، وَسَوْفَ تَأْخُذُونَ؛ ابْحَثُوا، وسَوْفَ تَجدُونَ؛ أُطْرُقُوا، وسوْفَ تُفْتَحُ لَكُمْ الأبواب. فمَنْ طَلَبَ، أَخَذْ، وَمَنْ بَحَثَ وَجَدْ، وسَوْفَ يُفْتَحُ لِلطَّارِقِ».

هذه وعودك. ومن يخشى أن يُخْدَعَ والحقّ واعدُه؟

II.2. لساني المتواضع يعترف لسموّك، أنّك أنت خلقت السماء والأرض، هذه السماء التي أراها، وهذه الأرض التي أدُوسُها والتي يصدر عنها الغبار الذي أحمله. أنت خلقتهما.

لكن أين هي سماء السماء، يا مولاي التي سمعنا مؤلّف المزامير (**in uoce psalmi = dans les paroles du Psalmiste**) يقول عنها: «سَمَاءُ السَمَاءِ للْمَوْلَى: أَمَّا الأَرْضُ فَقَدْ أَعْطَاهَا لأَبْنَاءِ البَشَرِ»؟ أين هي السماء التي لا نراها والتي نَعُدّ بالنسبة إليها كل ما نراه أرضا؟ فكلّ هذا الكون الجسمانيّ الذي قاعدته أرْضنا، وَإن لم يكن كلّهُ كامل الجمال، قد اتّخذ في أقصى أجزائه منظرا جميلا، لكن بالنسبة إلى تلك «السَمَاءِ لِلسَّماءِ»، فحتى سماءُ أرضنا تعتبَرُ كالأرض. وكلا هذَيْن الجسمَيْن الكبيرين قد يعتبر، دون لامعقوليّة، أرضيْن، مقارنة بتلك السماء التي لا أدري ما هي، والتي هي «لِلْمَوْلَى»، لا «لأَبْنَاءِ الْبَشَرِ».

III.3. ولا غرابة إن كانت هذه «الأرْضُ لا مرْئِيَّةً لا منظمة» وهاويةً بعيدة القرار،

لا أدري ماهيَ، ليس عليها أيّ نور، لأنّه لم يكن لها أيّ شكل: لذلك أمرت أن يُكْتَبَ أنّ «الظُّلُمَاتِ كَانَتْ علَى سَطْحِ الهاوِيَةِ»، فما معنى حضور الظلمات إن لم يكن غياب النور؟ وأين كان النور، لو كانَ موجودا بعدُ، إن لم يكن يعلو الكون ويضيئه؟ إذن، بما أنّ النور ما وجد بعد، فليس معنى حضور الظّلمات سوى غياب النور؟ وإذن كانت الظّلمات تعمّ الكون، لأنّ النور لم يكن يعمّه، تماما كما أنّه حيث لا يكون الصوت يكون الصمت. وما معنى كوْن الصمت هنا، سوى كون أنّه لا صوت هنا؟

ألم «تُعَلِّمْ»، أنت يا مولاي، ذلك لهذه الرُّوح التي تعترف لك؟ ألم «تعلّمني»، أنت يا مولاي، أنّه، قبل أن تعطي هذه المادّة اللاّمحدّدة شكلها وتغيُّراتِه، لم يكن فيها أيّ شيء، لا لون ولا صورة ولا جسم ولا روح؟ لكن لم تكن مطلقا لاشيئا، بل كانت شيئًا لامحدّدا لا شكل له ولا قوام (**quaedam informitas = quelque chose d'informe**).

4.IV. كيف إذن نسمّيها، وكيف ندلّ عليها حتى ذوي الأفكار الأكثر بطءا أنفسهم، إن لم يكُن بكلمة متداولة؟ وهل يمكن أن يوجد في جميع أرجاء المعمورة، ما هو أشدّ شبها من حيث اللامحدودية من الأرض والهاوية؟ فهما أقلّ رونقا، بسبب درجتيهما السفليّتَيْن، من بقيّة المخلوقات العليا النيّرة، وكلّ الكائنات المتألّقة. لماذا لا أقبل إذن أنّ لامحدوديّة المادّة التي كنتَ قد خلقتَها خالية من الرّونق، لتجعل منها عالما جميلا قد أشير بها، بهذه السهولة، إلى البشر، «تَسْمِيَةً للأَرْضِ اللاَّمَرْئِيَّةِ واللاَّمُنظَّمَةِ»؟

5.V. هكذا، عندما يبحث الفكر عمّا يبلغه الحسّ في المادّة، ويقول لنفسه: «ليست صورة معقولة كالحياة وكالعدالة بما أنّها مادّة الأجسام، ولا محسوسة بما أنّه لا شيء في اللاّمرئي واللاّمنظّم قابل لأن يُرَى أو لأن يحسَّ به»، مادام الفكر الإنسانيّ يقول هذه الأقوال لنفسه، يكون لزاما عليه أن يحاول، إمّا أن يعرفها، وهو جاهل لها، أو أن يجهلها، وهو عارف بها[1].

6.VI. أمّا أنا، يا مولاي، إذا كان عليّ أن أعترف لك، بفمي وبقلمي، بكلّ ما قد علّمتنيه عن هذه المادّة التي كنت سابقا أسمع اسمها، ولا أفهمها، حيث أنّ من كانوا يحدّثونني عنها، لم يكونوا يفهمونها، فكنت أتصوّرها مختلفة وذات أشكال لا

(1) uel ignorare noscendo... =.. أن يجهلها وهو عارف بها. الاعترافات، الكتاب الثاني عشر، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 332، الملاحظة 1. (أوغستينوس يبحث عن هذه التقابلات بين الكلمات ويطلبها) انظر الفقرة «. I, VI, § 10...».

تحصى، ولا تعدّ، ولذلك لم أكن أتصوّرها حقّا، كانت تجول في فكري صور فظيعةٌ مفزعةٌ في أنظمة مشوّهة، ولكنّها صورٌ مع ذلك، وكنت أسمّي لامحدّدا لا ما كان مفتقرا للشكل، بل ما كان له شكل سمته أنّه، لو بدا أمامي شاذّا غريبا، لاشمأزّت منه حواسّي ولاضطرب له ضعفي البشري أيما اضطراب.

أمّا ما كنت أتصوّره هكذا، فلم «يكن لامحدّدا بانعدام أيّ شكل، فيه بل بالمقارنة مع أشكال أجمل، والعقل الحقّ كان يحثني على أن أجرّد اللاّمحدّد من جميع بقايا الشكل فيه، مهما كانت، لو كنت أريد تصوّره بصفة مطلقة، وما كنت أستطيع ذلك، إذ سرعان ما كنت أعتبر غيرَ موجود ما كان مفتقرا لأيّ شكل، عوض أن أتصوّر شيئا ما وسيطا بين الشكل والعدم، لا شكلا ولا عدما، ولا محدّدا، بل يكاد يكون العدم.

وتوقّف عقلي عندئذ عن مساءَلة خيالي المليء بصور الأشكال الجسمانيّة، والمغيِّر والمدمج لها حسب مشيئته، واهتممتُ بالأجسام عينها، وتأمّلت تأملا أعمق ممّا كانت تظهر عليه في تقلّبها الذي تنتهي طِبقه، لتبدأ في الوجود بمظاهر ليست لها، وخمّنت أنّ ذاك التحوّل من شكل إلى شكل، يقع عن طريق لامحدّد ما، لا عن طريق العدم المطلق.

لكنّي كنت لا أرضى بالتخمين، بل كنت أرغب أن أعلم، ولو اعترف لك صوتي وقلمي بكلّ ما منحتنيه في هذا المضمار، فمن من قرّائي سيتحمّله لفهمي؟[1]ولذلك، على كلّ، لن يتوقّف قلبي عن تمجيدك وعن مدحك بترتيل خاصّ بما يعجز أن يعرب عنه.

فتقلّب الأشياء المتقلّبة ذاته قابل لأن يتخذ جميع الأشكال التي تتقلّب بينها الأشياء المتقلّبة. لكن ما المتقلِّب؟ أهو الفكر؟ أم هو الجسم؟ أم هي صنف من الفكر أو الجسم؟ فلو أمكن أن يُقال عنه «لاشَيْءَ وهو شيءٌ» أو «هُوَ عَدَمٌ إيجَابِيٌّ» لقلت إنّه هكذا، ومع ذلك، فهو كان على كلٍّ شيئا ما، لتقدر أن تتّخذ تلك المظاهر المرئيّة والمتشعبة.

7.VII. وعلى كلّ، فمن أين يمكن أن تأتي، إن لم تكن منك أنت الذي يأتي كلّ شيء من لدنك، بقدر ما يكون؟ لكنّ الشيء يكون أبعد منك، بقدر ما يكون أقلّ شبها بك: وهذا البعد ليس ماديا.

فأنت إذن، يا مولاي، أنت – الذي لست شيئا آخر ولا كائنا على نحو مختلف، بل

---

(1) capere durabit?... = من... الذي سيقدر على الصمود...؟ «هو يشعر بالطابع الجادّ بعض الجدّ للاعتبارات التي يبسطها في عَرضه ويَخشى أن يُقلع الناس عن اتباعه».

تكون أنت نفسك، نفسك، نعم أنت نفسك، «مُقَدَّسًا، مُقَدَّسًا، مقَدَّسًا، يا مَوْلاَنَا وإلاَهنَا القدِيرَ» – قلتُ أنت، في المبدإ الذي يصدر عنك في حكمتك التي هي مولودة من جوهرك، خلقت شيئا ما من العدم.

خلقت «السماءَ وَالأرْضَ» لا من جوهرك، وإلّا لكانتا مساويتَين لابنك الوحيد، ومن ثمّ لك أيضا، ولما كان من العدل بأيّة صورة أن يكون مساويًا لك، ما لم يكن صادرًا عنك[1]. وما كان شيء آخر خارجا عنك، لتخلقهما منه، أيها الثالُوثُ الأوْحَدِيُّ، أيتها الأُحُدِيَّةُ الثَّالُوثِيَّةُ: *(una trinitas et trina unitas)*[2]. لذلك خلقت من العدم «السَمَاءَ والأرْضَ»، شيئا كبيرا وشيئا صغيرا، حيث يحلو لك، أنت القَديرُ الطيّبَ، خلقُ كل ما هو طيب، السماء الكبيرة والأرض الصغيرة. كنتَ أنت، ولم يكن شيء آخر، ومنه خلقت «السَمَاءَ وَالأرْضَ»، خليقتيْن اثنتَين، الأولى قربك والأخرى قرب العدم، الأولى لا شيء أرفع منها سواك، والأخرى لا شيء أسفل منها إلّا العدم.

8.VIII. لكنّ «سَمَاءَ السَمَاءِ» تلك هي لك، يا مولاي، أمّا الأرضُ التي أعطيتها «لِبَنِي البَشَرِ» ليشاهدوها وليلمسوها، فلم تكن كما نبصرها ونلمسها الآن، إذ كانت لا مرئيّة ولا محدّدة الشكل، كانت هاوية ليس عليها نورٌ: و«كَانَتِ الظُّلُمَاتُ فَوْقَ الهاوِيَةِ»، كانت أشد ظلمة من الهَاوِيَةِ. وهاوية المياه هذه التي أصبحت تُرى، تتقبّل حتّى في أعماقها نوعا من النور تحسّ به الحيتان والزواحف التي تعيش في لجّتها: إلّا أنّ ذلك في كلّيته كان تقريبا كالعدم، بما أنّه كان لا يزال تماما غير محدّد الشكل، لكنّه كان مؤهّلا بعد ليتّخذ شكلا.

فأنت، مولاي الذي خلقت الكون من مادة لا شكل لها، خلقته من عدم لتجعل منه شيئا كالعدم لتخرج منه إثر ذلك عجائب كبيرة، لنا نحن بني البشر. فما أعجب تلك السماء الجسمانيّة، تلك القبّة الزّرقاء، الكائنة بين الماء والماء والتي قلت لها في اليوم الثاني بعد خلق النور: «فَلْتَكُونِي» (Fiat)!، وكانتْ كما شئتَ[3]... هذه القبّة الزّرقاء سمّيتها سماء، ولكنّها سماء هذه الأرض وهذا البحر اللّذين خلقتهما في اليوم الثالث، واهبا الصورة المرئيّةَ للمادّة اللاّمحدّدة التي خلقتها قبل كلّ الأيّام. فقد كنتَ خلقتَ

---

(1) ut aequale tibi..., quod de te non esset... =.. «أن يكون مساويا لك... ما لم يكن صادرا عنك» الاعترافات، الكتاب الثاني عشر، ص 334، الملاحظة 1: «يشبه التمشي في التفكير، حسب الصيغة التي قُدّم عليها هنا، «الدائرةَ المفرغةَ» شبها كبيرا.

(2) *Ô Trinité une, Unité trine*! انظر الترجمة ص 334، المرجع نفسه.

(3) «Lux fiat et lux fit» كما ورد في الكتاب المقدس: وَلْيَكُنْ النُورُ، وَكَانَ النُورُ!

بعد أيضا سماءً، قبل بداية الأيّام، لكنّها «سَمَاءُ هَذِهِ السّماءِ»، لأنّك «في المبدإ كنت قد خلقت السماء والأرض»، أمّا الأرض ذاتها التي كنتَ قد خلقتها فكانت مادّة لامحدّدة الشكل، «لأنَّهَا كَانَتْ لاَمَرْئِيَّةً، ولامُرَكَّبَةً، وكانَتِ الظُّلُماتُ فِيهَا فَوْقَ الْهَاوِيَةِ.» ومن هذه الأرض اللاّمرئية واللاّمنظمة ومن هذه اللاّمحدوديّة، ومن شبه العدم هذا، قد كنت تريد أن تخلق هذا الكلّ الذي يبقى ولا يبقى، هذا الكون المتقلّب الذي يظهر فيه التقلّب بالذات والذي يمكن الشعور فيه بالأزمنة، وقيسها لأنّ الأزمنة تتكوّن من تقلّبات الأشياء، بينما تتغيّر وتتحوّل مظاهرها، والتي مادّتها المشار إليها أعلاه هي الأرض اللاّمرئيّة.

9.IX. ولهذا فالرّوح التي هي معلّمة خادمك، عندما تذكر أنّك «في المَبْدَإِ» خلقت السماء والأرض، تسكت عن الأزمنة ولا تذكر الأيّام. فلا غرابة أن تكون سماء السماء، التي خلقتها «فِي المَبْدَإِ»، خليقة عاقلة وإن لم تكن بأيّة صورة شريكتك في الأزليّة، أيها الثالوث، فإن لها قسطا من ديمومتك[1]، حيث أنّها تحصر حصرا تقلّبها بعذوبة مشاهدتك، كَأسعد ما تكون، ودون أيّ أفول، ومنذ أن خلقت، وفي تعلّقها بك، ارتفعت فوق كلّ تقلبات الأزمنة الزّائلة.

أمّا لامحدوديّة الشكل تلك، «تِلْكَ الأَرْضُ اللاَّمَرْئِيَّةُ وَاللاَّمُنَظَّمَةُ»، فلم تحصها هي أيضا في الأيّام. فحيث لا صورة ولا نظام لا شيء يغدو ولا شيء يروح، وحيث لا يقع هذا، فبالطبع لا أيّام ولاتعاقب للمدد الزّمانيّة.

10.X. يا حقّ ويا نور قلبي، لتكن الظّلمات ليست هي التي تكلّمني! قد انزلقتُ فيها، وأظلمتْ عيناي، لكنّي من أعماق تلك الهوة هناك، نعم من ذلك العمق ذاته، شُغِفْتُ بك. «ضَلَلْتُ وتذَكَّرْتُكَ، سَمِعْتُ صَوْتَكَ يُنَادِينِي مِنَ الوَرَاءِ كَيْ أَعودَ»، ولم أكد أسمعه، بسبب صخب مشاعري غير الهادئة. والآن ها أنذا أعود إلى نبعك، ضائقَ النفس والعرق يتصبّب،! فلا يمنعني منه أحد: سأشرب منه، وسأحيا آنذاك. وهلاّ تكن حياتي أنا! حياتي كانت سيّئة بسببي! كنت لنفسي موتا! فيك أنتعش! كلّمني أنت، وعلّمني. أنا مؤمن بكتبك، وكلماتها غامضة جدّا لي.

11.XI. قد قلت لي بعدُ، يا مولاي، بصوتك القويّ في أذني الداخليّة، إنّك أزليّ «مَالكٌ وَحْدَكَ الدَيْمُومَةَ»، بما أنّه لا شيء يتغيّر فيك لا الشكل، ولا الحركة، ولا تتحوّل مع الأزمنة

(1) «في كامل هذا الموضع الذي تُفتتَح به الفقرة التاسعة يقصد أوغستينوس الملائكة». المرجع نفسه ص الملاحظة ١ (...aeternitatis... = الأزليّة).

إرادتك، فالإرادة التي تتحول ليست إرادة أبديّة. وهذه الإرادة «بِمَرْأى مِنْكَ» جليّة لي، ولتصبحْ أكثر فأكثر جلاء، أتوسّل إليك، ولأبقَ في هذا الوحي، تحت جناحيْ حكمتك!

كما قلتَ لي، مولاي، بالصوت القويّ في الأذن الداخليّة، إنّك أنت خلقت كلّ الطبيعات والجواهر التي ليْست أنت، ولكنّها موجودة: فلا شيء ليس منك إلّا العدم، وإلّا حركة إرادة مبتعدة عنك، أنت الوجود ذاته، نحو كائنات سفلى، لأنّ مثل هذه الحركة عار وخطيئة، ولا خطيئة تضرّك أو تقلب نظام إمبراطوريّتك، لا في القمّة ولا في القاعدة. «هَذَا بِمَرْأى منكَ» جليّ لي، فليصبح أكثر فأكثر جلاء، أتوسّل إليك، ولأبقَ في هذا الوحي تحت حكمة جناحيْك!

12. قلتَ لي كذلك، بالصوت القويّ، في الأذن الداخليّة، إنّها أيضا ليست شريكتك في الأزليّة، تلك الخليقة التي أنت لذّتها الوحيدة، والمتمتّعة بك في عفّة دائمة، دون أن تخون، في أيّ مكان أو وقت تقلّبها، والمرتبطة بك بكلّ روحها، والتي لا تنتظر في حضورك الأبديّ مستقبلا ولا ماضيا لا يترك إضافاته إليها إلّا الذكرى، دون تعاقب ولا امتداد في الأزمنة.

لو كانت هذه الخليقه موجودة فما أعظم سعادتها بالتحامها بغبطتك، مغتبطة بكونك أنت ساكنها الأبديّ، وبقبول وحيِك! لا أجد شيئا أجدرَ أن يسَمَّى «سماءَ كَسَمَاءِ المَوْلَى» من منزلك هذا الذي يشاهد ملذّاتك دون أيّ أُفُولٍ يخرجه إلى غيره، ومن هذا الذكاءِ الصافي المتّحد بالقربى وبرباط السلام، مع الأرواح المقدّسة مواطني مدينتك السماويّة التي هي فوق سمائنا.

13. ولتفهم كلّ روح – أقول وأؤكد كل روح حادت عنك، في سفرها الطويل، إن هي أصبحت ظمأى إليك، وإن أصبحت «دُمُوعُهَا رَغِيفَهَا» مادَامَ يُقَالُ لها على مرِّ الأيّام: «أيْنَ إلـٰهكِ؟»، «إنْ طلَبَتْ مِنكَ، وألَحّتْ علَى شَيْءٍ واحِدٍ: أنْ تَسْكُنَ فِي مَنْزِلكَ، طِيلَةَ كُلِّ أيَّام حيَاتِهَا»، «ومَاهِيَ حَيَاتُهَا خلاَكَ؟»، «وَمَاهِيَ أيَّامُكَ سِوَى ديْمُومَتِكَ، كأعْوَامِكَ التي لاَ تَمُرُّ، بما أنّكَ دوْمًا بذَاتِكَ؟» – قلت: لتفهم إذن من هنا كلّ روح، إن استطاعت، كم أنت ذو ديمومة تفوق بكثير كلّ الأزمنة، بما أنّ منزلك الذي لم يبتعد في أيّ سفر عنك، وإن كان شريكا لك في الأزليّة، لا يتحمّل مع ذلك، بسبب التحامه اللاّمنتهي والسرمديّ بك، أيّ تعاقب للأزمنة.

هذه الحقيقة «بمَرْأى مِنْكَ» جليّة واضحة، فلتصبح أكثر فأكثر جلاء، أتوسّل إليك، ولأدمْ في هذا الوحي تحت حكمة جناحيْك!

14. هناك بالفعل لست أدري أية مادة غير محدّدة الشكل في تلك التقلّبات للأشياء الموجودة في أسفل القاعدة. ومن سينبئني، باستثناء ذلك الذي يتيه ويتقلّب في ترّهات قلبه وأوهامه، من سيخبرني - ما عدا مثل هذا الشخص - أنّه لو انعدم كلّ شكل أو اِمّحى، ولم تبق سوى تلك المادة التي لا شكل لها **(Informitas = informité)** والتي تمر عبرها الأشياء في تحولها وانسلاخها من صورة إلى صورة، لأمكن لتلك اللامحدودية أن تحدث تقلبات الأزمان؟ إذ إنّ هذا مستحيل تماما، لأنّه بلا تغيّر في الحركات، لا تكون الأزمنة، ولا تغيّر، حيث لا صورة[1].

15.XII. بعد هذه التأمّلات، فبقدر ما تسمح لي به، يا إلـهي، وبقدر ما تحرّضني على «طَرْقِ بابِكَ»، وبقدر ما «تَفْتَحُهُ» في وجهي من الأبواب، «أَنَا الطارِقُ»، أجد شيئين قد خلقتهما خاليين من الأزمان، وإن لم يكن واحد منهما شريكك في الأزليّة: الأوّل، وهو من الكمال بحيث أنّه، دون أيّ توقّف عن مشاهدتك، دون أيّ أُفُولٍ أو تقلّب، وإن كان قابلا للتقلّب، يتمتّع، مع ذلك، دون أيّ تغيّر، بأزليّتك ولاقابليّتك للتقلّب، والثاني، وهو من لامحدوديّة الشكل، بحيث أنّ ليس له من القوّة للتحوّل من شكل إلى شكل، إما حركةً أو سكونًا، وللخضوع فيه للزّمان. لكنّك لم تتركه يكون غير محدّد الشكل، بما أنّك خلقت، قبل كلّ الأيّام، و«في المَبْدَإ»، «السَمَاءَ والأَرْضَ»، تينك الخليقتين اللّتين كنت أذكرهما. «أَمَّا الأَرْضُ فَكَانَتْ لاَمَرْئِيَّةً ولاَمُنَظَّمَةً، وكَانَتِ الظُّلُماتُ فَوْقَ الهَاوِيَةِ.». فبهذه الكلمات يُشارُ إلى اللاّمحدوديّة، ريثما يقحم، تدريجيّا، أولئك الذين لا يقدرون أن يتصوّروا كون الانعدام المطلق للصّورة لا ينطوي، مع ذلك، على العدم المطلق، بما أنّ منه كانت تصدر السماء الثانية، والأرض المرئيّة المنظّمة والجميلة بمائها، ومن بعدهما كلّ ما يُرْوَى أنّه خُلق في أيّام محدّدة عند تكوين هذا الكون، وتلك هي المخلوقات التي تريد أن تدخل عليها صروف الأزمنة، بسبب التحويرات المنتظمة في حركاتها وأشكالها.

16.XIII. هذا ما أفهمه، يا إلـهي، عندما أسمع كتابك يقول: «فِي المَبْدَإِ خَلَقَ الإِلاَهُ السَماءَ والأرضَ: أمّا الأرضُ فكانتْ لامرْئِيَّةً، ولامنَظَّمَةً، وكانت الظُّلُمَاتُ فَوْقَ الهاَوِيَةِ»، دون أن يذكر في أيّ يوم خلقت تلك الأشياء. أفهم أنّ هذا الأمر يتعلّق «بِسَمَاءِ السَمَاءِ»، بالسّماءِ العَقْلانيّةِ، حيث يتميز العقل بميزة كونه يعلم فورا لا علما

---

(1) **et nulla uarietas, ubi nulla species...** = ولا تَغيُّرَ حيث لا صورة... المرجع نفسه ص 338 الملاحظ 2. : «انظر أعلاه في آخر الفصل التاسع، الفقرة التاسعة».

«جُزئيّا» ولا «باللّغزِ» ولا «بالمِرْآةِ»، بل علما كليًّا، جليّا، «وجْهًا لِوَجْهٍ»، لا تارة هذا، وتارة ذاك، بل، كما قلتُ، بالمعرفة الفوريّة، دون أيّ تعاقب للأزمنة؛ وأفهم أن السبب هو الأرض اللاّمرئيّة اللاّمنظّمة المنزوعة من تعاقب الأزمنة الذي يأتي عادة بهذا تارة، وبذاك طورا، لأنّه حيث لا صورة لا وجود في أيّ مكان لهذا وذاك.

بسبب هذين الشيئين، أحدهما متناسق منذ البداية، والثاني لا قوام له البتة، وتلك السماء، أعني «سماءَ السماء»، ومن ناحية أخرى الأرض، لكنها الأرض اللاّمرئيّة اللاّمُنظّمة، بسبب هذين الشيئين، أفهم في الأثناء، دون تحديد اليوم، ما يقول كتابك: «فِي المَبْدَإِ خَلَقَ الإلٰهُ السَماَءَ والأَرْضَ»، وقد أشار لتوّه إلى الأرض التي يقصدها. وبما أنّه يذكر أنّ «القُبّةَ الزّرقَاءَ» خُلِقَت في اليوم الثاني وسمِّيت «سَمَاءً» فهو يلمّح إلى السماء التي تكلّم عنها سابقا كلاما بلا أيّام.

17.XIV. ما أعجب عمق كلامك، فها هو أمامنا، يكشف ما يطفو منه على السطح، ويداعبنا كالأطفال! لكن ما أعجب عمقه، يا إلـٰهي، ما أعجب عمقه! بالرّعب المقدّس يُتأمّل فيه، رعب الاحترام وفزع الحبّ! أكره بشدّة أعداءه: آه، لو قتلتهم بسيفك «ذي الحدَّيْن»، لكي لا يكون له أعداء! فإنّي أحبّ أن يموتوا لأنفسهم، كي يحيوا لك!

لكن هناك آخرون، ليسوا ثالبــين، بل مادحين لسفر التكوين **(libri Geneseos laudatores... = admirateurs du livre de la Genèse)**، يقولون لي: «ليس هذا ما أراد أن يفهمنا إيّاه الرّوح القُدُسُ بهذه الكلمات التي أملاها على موسى خادمِه، لم يرد أن يُسمع ما قلت أنت، بل أراد أن يسمع شيئا آخر نقوله نحن».

سأجيبهم بما يلي، وستكون أنت، يا إلـٰهنا جميعا، الحكم الشاهد على ذلك:

18.XV. هل ستعتبرون باطلا، ما يقوله لي الحق، بصوته القويّ، في أذني الداخليّة، عن ديمومة الخالق الحقّ، وعن ثبوت جوهره المطلق عبر الأزمان، وعن اتحاد جوهر مادته وإرادته؟ من هنا لا نراه يريد تارةً هذا وطورًا ذاك، بل يريد ما يريد دفعةً واحدةً وفي نفس الوقت وبصورة نهائية. ولا يريد تارة هذه الأشياء، وطورًا تلك، ولا يريد من بعدُ ما كان يرفضه، أو يرفض من قبلُ ما كان يريده، لأنّ مثل هذه الإرادة قابلةٌ للتقلّب، وكلٌّ قابل للتقلّب غير أزليّ؟ «أَمّا إِلاَهُنَا فَهُوَ أَزَلِيٌّ.»

وهل تخالف كذلك ما تقوله لي في الأذن الداخليّة، من كون انتظار الأشياء المستقبليّة يصبح رؤية مباشرة[1]، عندما تصبح حاضرة، وأنّ الرّؤية المباشرة ذاتها

---

(1) ترجمت العبارة اللاتينية **Contuitus** بـ«الرؤية المباشرة بالبصر» في الطبعة الأصلية للاعترافات، =

تصبح تذكّرا، بعد أن تكون قد مضت: ختاما، فكلّ هذه الحركة التي تتغيّر هكذا، قابلة للتقلّب، وكلّ متقلّب لاأزليّ: «أَمَّا إِلاَهُنَا فَهُوَ أَزَلِيٌّ». هذه الحقائق أُجمِّعُهَا، وأُقيّدها، وأجد أنّ إلـهي، الإلـهَ الدائم، قد صنع الكون بإرادة ما غير جديدة، وأنّ علمه لا يحتمل أيّ شيء عابر.

19. فإذن ماذا ستقولون، أيّها المعترضون؟ أكلّ هذا باطل؟ تجيبون «لا». ثمّ ماذا؟ هل من الباطل أنّ كلّ طبيعة ذات شكل، أو كلّ مادّة قابلة للتشكّل لا تكونان إلّا صادرتين عن ذلك الذي هو الطيّب الأسمى، لأنّه الكائن الأسمى؟ يقولون: «لا ننكر هذا أيضا». فماذا إذن؟ هل تنكرون أيضا أنّ الخليقة الجليلة تكون مندمجة في الإلـه الحقّ الدائم بحقّ، بحبّ من العفّة، بحيث أنّها ولو لم تكن شريكته في الديمومة لا تنفصل عنه ولا تنفكّ، بل تستريح في مشاهدة حقيقته الوحيدة. لأنّها تحبك، يا إلـهي، بقدر ما تطلبه، فتبرز إليها وتكفيها، ولذلك لا تزورّ عنك ولا تلتفت إلى ذاتها؟ «ذَلِكَ هُوَ مَنْزِلُ الإِلاَهِ، لاَ أَرْضيٌّ» ولا ذو كتلة جسمانيّة، ورغم كونها سماويّة فهي روحيّة، ومساهمة في ديمومتك، لأنّها خالية من كلّ وصْمَةٍ للديمومة. إذ إنّك أنشأتها «لِلأَبَدِ، ولأبد الآبدين. لقَدْ سطَّرْتَ قَانُونًا لَنْ يزول». غير أنّها لا تشاركك أبديّتك، لأنّ لها بداية، لكونها خُلِقَتْ.

20. نحن، ولا شكّ، لا نجد الزّمان قبل تلك الحكمة، لأنّ الحكمة خلقت قبل جميع المخلوقات. ومع ذلك، ليست تلك الحكمةَ التي أنت أبوها، يا إلـهنا، والتي هي شريكتك ومساوية لك تماما في الأبديّة والتي قد خُلقَ بها كلّ شيء، والتي في مبدئها خلقتَ «السَماءَ وَالأَرْضَ»، بل هي الحكمة الحقّ التي خُلِقَتْ من هذه الطبيعة العقلانيّة، والتي هي النور لفرط مشاهدة النور، وتسمّى أيضا حكمة وإن كانت مخلوقة، لكن بقدر الفرق بين النور الذي ينير والنور الذي ينعكس يكون الفرق بين الحكمتين: الحكمة التي تخلق، والحكمة المخلوقة، تماما كالفرق بين العدالة المبرّئِة، والعدالة التي نشأت عن التبرئة. ألسنا نحن كذلك نُسمي عدالتَك؟ ألم يقل بعض خدمك: «...كَيْ نَكُونَ عدَالَةَ الإلـهِ فِي ذَاتِهِ»؟ هناك إذن عدالة «خلقت قبل كل خليقة» خلقت فكرًا عقلانيّا ذكيّا» في مدينتك المقدّسة التي هي أمّنا و«التي هِيَ فَوْق، حُرَّةٌ، أَبَدِيَّةٌ فِي

= وشرحها "ب. دي لابريول"، ص 431 من الجزء الثاني، على النحو التالي: لم تكن الكلمة **Contuitus** موجودة قبل القرن الأول ميلاديا، وهي تعني 1°) المشاهدة، 2°) الرؤية المباشرة والتأمل الروحي: «وقد استعمل أوغستينوس هذه الكلمة مرّات عديدة.

السَماواتِ» - وأيّ سَماوات إن لم تكن «سَمَاواتِ السَماواتِ» التي تمدحك، لأنّ هناك أيضا «سَمَاءَ السَماءِ تلك التي هِيَ لِلْمَولَى. نعم، لا نجد الزّمان قبلها، فهي تسبق خلق الزمان أيضا، لأنّها «خُلِقَتْ قَبْلَ الكُلِّ»، غير أنّ قبلها توجد أبديّة خالقها عينه الذي استمدّت منه نشأتها بالفعل، لا طبقا للزّمان الذي لم يكن موجودا بعد وجود الزمان، بل طبقا لخلقها عينه.

21. لذلك فهي صادرة عنك، يا إلـهنا، لكن مع كونها مختلفة تماما عنك وذات جوهر آخر. ورغم ذلك نحن لا نجد أيّ زمان قبلها، ولا حتى فيها، إذ إنّها مؤهّلة لترى دوما وجهك، دون أنْ تزورّ عنه أيّ ازورار، وهذا ما يجعلها لا تتغيّر من جرّاء أيّ تقلّب. ومع ذلك، ففيها يكمن التقلّب عينه، بحيث أنّه قد يُصيبها الظّلام والبرد، لو لم تندمج فيك بحبّها الكبير، فتأخذ منك نورها وحرارتها، كما لو كانت دوما في الظّهيرة.

أيّتها الدار النيّرة الرائقة! «أَحْبَبْتُ جَمَالَكِ ومَكَانَ سُكْنَى مَجْدِ مولايَ»، صانعك ومالكك! إليك أودّ أن تتوق نفسي في سفري الدنيويّ[1]، وأرجو من الذي خلقك أن يملكني أنا أيضا فيك، لأنّه خلقني أنا أيضا. «قَدْ ضَلَلْتُ كالنَعْجَةِ الضَائِعَةِ»، لكنّي آمل أن يرجعني إليك، وهو يحملني على كتفيه هو راعيّ الذي بناك.

22. ماذا تقولون لي، أنتم المعترضون الذين كنت أخاطبكم، أنتم الذين تعتبرون، مع ذلك، موسى خادما تقيّا للإلـه، وكتبه وحيا من الروح القدس؟ أليس هذا منزل الإلـه، نعم منزله الذي لئن لم يكن شريكا للإلـه في أزليّته، فإن له مع ذلك، أزليته الخاصة «فِي السَماوَاتِ» حيث تبحثون سدى عن تعاقب الأزمنة، لأنّكم لن تجدوه؟ فهو مُمَجَّدٌ فوق كلّ امتداد وفوق كلّ مدّة عابرة من الزّمان، هو الذي فضله أنه «دَوْمًا مُنْدَمِجٌ في الإلاَهِ». يجيبون: «نعم» دون شكّ. إذن، من بين تلك الكلمات التي صرخ قلبي بها نحو إلـهي عندما كان يسمع في داخله «صَوْت مديحِهِ» الإلـهيّ، ما الذي تجزمون أخيرا أنّه باطل؟ أهو ما قلتُ من كون المادّة لامحدّدة الشكل لا نظام فيها بسبب انعدام الشكل منها؟ لكن حيث لا نظامَ، لا يمكن أن يكون أيّ تعاقب للأزمنة؛ ومع ذلك، فشبه العدم هذا[2]، بقدر ما لم يكن لا شيء البتة، كان، على كلّ، صادرا عن

(1) peregrinatio mea ...,... = في سَفَري الدنيويّ هذا. المرجع نفسه، الكتاب الثاني عشر، ص 343، الملاحظة 1: «لاحظ جرأة هذا الموضوع المجرّد. ويحلل أوغستينوس في كتاب «مدينة الإلـه» معنى ترحال الإنسان المسيحيّ في الأرض... وهو معنى قديم قِدم المسيحيّة ذاتها...»
(2) paene nihil = هذا العدمُ شبهُ التامّ.

ذلك الذي منه يكون كلّ ما يوجد، مهما يكن ضعيفًا في وجوده. يقولون: «ونحن لا ننكر هذا كذلك».

XVI.23. فإنّي أريد، يا إلـهي، أن أتباحث قليلا بين يديك، مع الذين يسلّمون بصحّة كلّ هذه الإقرارات التي لا يسكت عنها في داخل عقلي حقّك. أمّا الذين ينكرونها فلينبّحوا ما طاب لهم النباح، وليصمّوا أنفسهم: سأحاول أن أقنعهم بأن يهدؤوا، ويفتحوا أبواب نفوسهم لكلمتك. أمّا لو رفضوا وأقصوني، أتوسّل إليك، يا إلـهي، «ألاّ تَسْكُتَ بَعيدًا عَنّي»، بل تكلّم بالحق «في قلْبِي»، إذ أنت وحدك تتكلّم هكذا، ولأتركْ خارجه الآخرين ينفخون في التراب فتعمى به أعينهم، ولأدخل إلى خلوتي، ولأنشدك أناشيد الحبّ، متحسّرا حسرات لا تُروى، على سفري الدنيويّ، ومتذكّرا مدينة القدس (Hierusalem = Jérusalem) وقلبي شديد التوق إليها، مدينةَ القدس وطني[1] وأمّي، وإليك أنت صاحبَ المُلكِ فيها ومنيرَها وأباها ووليّها، وزوجها وملاذَها العفيفة القويّة، وغبطتها الثابتة، وكلّ الخيرات التي لا توصف، كلّها جمعاء، إذ إنّك وحدك الخير الأسمى الحقّ! لن أحيد عنك، ريثما تتقبّلني، في سلامة تلك الأمّ العزيزة للغاية، حيث بواكير روحي، ومن أين تكون لي هذه التأكّدات، (تتقبّلني) كليّا، كيفما أكن بعد هذا التشتّت وهذا التشوّه، وتصلحني، وتثبّتني إلى الأبد، «يا إلـهي، يا شَفَقَتِي»؟

أمّا الذين لا يرفضون صحّة جميع هذه الحقائق، ويُعلُون معنا، في أعلى القيم الجديرة بالاتّباع، كتابك المقدّس، المأثور عن موسى التقيّ، ويعارضوننا مع ذلك في بعض الأشياء، فأقول ما يلي: «كنْ أَنْتَ، إلاَهنا، الحَكَمَ بينَ اعْتِرافاتِي واعتِراضَاتِهِمْ»[2].

XVII.24. يقولون: رغم أنّ هذه التأكيدات صحيحة، فإنّ موسى ما كان يقصد ذينك الشيئين، عندما كان يقول، بوحي من الروح القُدس: «فِي المَبْدَإِ خلقَ الإلـهُ السماءَ والأرْضَ. وهو لم يعن باسم السماء تلك الخليقة الروحيّة، أو العقلانيّة المتأملة

---

(1) هذا التكرار لاسم المدينة المقدّسة والعظيمة يعدّ هكذا مناجاة ختاميّة في الاعترافات للرّوح. انظر أعلاه، الصفحة 372، في نهاية الكتاب التاسع، 73.

(2)...«inter confessiones meas et contradictiones eorum». لاحظ التقابل الأساسيّ بين الاعترافات والتناقضات أو الاعتراضات، (وهذه الكلمة الأخيرة أي الاعتراضات objections من ترجمة «دي لابريول» (الجزء الثاني، ص 345). وفي الملاحظة 1 ص 345 من المرجع نفسه نقرأ ما يلي: «يحدّد أوغستينوس بكلّ وضوح وبواسطة العقل حلقة المستمعين الذين يتوجّه إليهم: فكلّ من لا يعدّ التوراة كتابَ حَقٍ هو مقصى مسبّقا، أو قل إنّه يقصِي نفسَه بنفسه».

دوما لوجه الإله، ولم يَعنِ باسم الأرض المادّة اللامحددة الشكل». ماذا كان يقصد إذن؟ يقولون: «ما نقوله نحن، ذلك الرجل شعر به، وقاله بكلماته ذاتها.» ما ذاك بالضبط؟ يقولون: «باسميْ السماء والأرض قصد أوّلا مجموع هذا الكون المرئيّ، في عمومه وباختصار، كي يفصّل إثر ذلك هذا المجموع عنصرا عنصرا في تعداد الأيّام، على النهج الذي اختاره الروح القدس. لقد كان،لعمري، يخاطب أناسا أفظاظا غلاظا في ذلك الشعب، فلم يكن بوسعه أن يقدّم إليه هم، من خلائق الإله - لمّا كان يكلّمهم - إلّا المرئيّات فحسب».

أمّا «الأرض غير المرئيّة وغير المُنَظَّمَةِ» و«الهَاوِيَةُ المظْلِمَةُ» اللّتان خلقت منهما هذه المرئيات جمعاء وانتظمت حسب صنع تلك الأيّام، فيوافقون دون أيّ تناقض على عقلانيّة تناسبهما مع تلك المادّة اللامحدّدة الشكل.

25. ثمّ ماذا؟ لو قال آخر إنّ عين اللاّمحدوديّة والفوضى في هذه المادّة قد أشير إليهما أوّلا باسميْ «السَماءِ والأرْضِ»، إذ منهما وُجد هذا الكون المرئيّ مع كلّ الكيانات التي تبرز فيه بكلّ جلاء، والتي عادة ما يطلق عليها اسما السماء والأرض، وأنّه تكوّن بها واكتمل؟ ثم ماذا؟ لو قال آخر أيضا **Quid.? Si dicat et alius... = un autre encore ne dira – t – il pas?**[1] إنّ الطبيعتين، اللاّمرئيّة والمرئيّة، قد سمّيتا، لعمري بحقّ، سماءً وأرضًا، وإنّ الخليقة جمعاء التي خلقها الإله في الحكمة، أي في المبدإ، مُتَضَمَّنَةٌ بسبب هذا في تينك المفردتين بالذات، لكن مع ذلك، لما كان الكلّ قد خُلقَ، لا من جوهر الإله عينه، بل من العدم، ولما كانت شيئا آخر مختلفا عن ذات الإله، وكان في جميع المخلوقات نوع من التقلّب، سواء بقيت منزلا أبديّا للإله الأبديّ، أو تحولت وتغيرت تغيّر روح الإنسان وجسمه، فالمادّة المشتركة بين كلّ الأشياء اللاّمرئيّة والمرئيّة التي لا تزال لامحدّدة الأشكال، ولكن مؤهّلة حقّا للتشكّل، والتي كانت السماء والأرض تنشآن منها، أعني تينك الخليقتين اللاّمرئيّة والمرئيّة، المتشكّلتين بعد، تلك المادّة أطلقت عليها تلك الكلمات، كي تسمّى بهما «الأرْضُ اللاَّمرْئِيَّةُ اللاَّمُنَظَّمَةُ» والظُّلُمَاتُ فوْقَ الهاويةِ». أمّا التمييز الوحيد الجدير أن نقيمه فأنْ يقصد بـ«الأرض اللاّمرئيّةِ واللاَّمُنظَّمَةِ» المادّةَ الجسمانيّة السّابقة لكل تكييف للصورة

(1) كتب «ب. دي لابريول» ص 346 من نفس المرجع ما يلي: «يعدّ أوغستينوس هنا نظريّته بشأن تعدّدية الحواس المشروعة في تأويل التوراة التي ولّدت الكثير من المحاورات بين علماء الدين».

(ante qualitatem formae)[1]، وبـ «الظلُماتِ فوقَ الهاويةِ»، من ناحية أخرى، المادّةُ الرّوحانيّةُ، قبل منع سيلانها المفرط، وقبل تنوير الحكمة لها.

26. ولقائل آخر أن يقول أيضا لو أراد ذلك: إنّه لاغرو أنّ الطبيعتين المكتملتين والمتشكّلتين بعد، اللاّمرئيّة والمرئيّة، غير معنيتين باسمي السماء والأرض، عند قراءة: «في المَبْدَإِ خَلَقَ الإلٰه السّماءَ والأرْضَ»، بل إنّ هذين الاسمين يطلقان على الرسم الأوليّ واللاّمحدّد بعدُ للأشياء وعلى المادّة المؤهّلة للتشكّل والخلق، لأنّ الكيانات كانت تكمن بعدُ فيها بغموض، ودون أن تتميّز فيها الكيفيّات والأشكال، الكيانات التي بعد أن تترتّب في مراتبها الخاصّة تسمّى «سَمَاءً وأرْضًا»، الأولى خليقةً روحانيّة، والثانية خليقةً جسمانيّة».

XVIII.27. استمعت إلى جميع هذه التأويلات، وتفحّصتها مليّا، لكنني لا أريد «أنْ أشاحَ بِالكَلاَم: فَهْوَ لاَ يَصْلَحُ لأيِّ شَيْءٍ، سِوَى تَدْمِير من يستمعون إلينا». أمّا «القَانُونُ فَهُوَ طَيِّبٌ لِلتَّنْوِيرِ، إنْ عَمَدْنَا إليْهِ قَانُونيًّا»، لأنّ غايته «هِيَ الحُبُّ النَّاشِئُ مِنْ قَلْبٍ صَافٍ وضَمِيرٍ طيِّبٍ وعقيدَةٍ صادقة»، ويعلم معلّمنا، إلى أيّ التعليمين قد أرجع جميع القوانين والرسل. فعندما أقرّ بهما بحماس، إلٰهي، «يَانُورَ عِيْنَيَّ فِي الظلام»، ما يضيرني لو أمكن لهذه الكلمات أن تؤوّل التأويلات المختلفة، متى كانت جميعها صحيحة؟ أقول: ماذا يضيرني أن يفهم شخص آخر المعنى الصحيح لكاتب النصّ المقدّس فهما مخالفا لفهمي؟ فنحن جميعنا الذين نقرؤه، نحاول أن نكتشفه، وندرك مقاصد الذي نقرؤه، وبما أنّنا نعتقد أنّه على حقّ، فلا نتجرّأ على أن نعتبر أنّه قد قال أيّ شيء نعرفه، أو نظنّه باطلا. إذن، فما دام كلّ واحد يحاول أن يفهم، في الكتب المقدّسة، ما قصده الذي كتبها، فأيّ ضرر أن يفهم ما أنت، يا نور جميع الأفكار الصادقة، تبرزه صحيحا، وإن لم يقصده ذلك الذي نقرؤه، والذي كان الحقّ نصب عينيه في تفكيره المغاير؟

XIX.28. صحيح، يا مولاي، أنّك خلقت السماء والأرض، وصحيح أنّ المبدأ حكمتك التي فيها «خَلَقْتَ الكُلَّ». وصحيح أيضا أنّ هذا الكون المرئيّ له جزءان كبيران، السماء والأرض، وهذا يلخص بإيجاز كلّ الكائنات المخلوقة والمكوّنة. وصحيح أنّ كلّ متقلّب حجّة ودليل لا محدوديّة في الشكل بها يتّخذ صورة أو يتغيّر أو يتحوّل. وصحيح أنّ تقلبات الأزمنة لا تؤثر في ما هو مندمج بصورة قوية بما له صورة

(1)...قبل كلّ تحديد للشكل (ترجمة موضوعة للغرض ad hoc).

ثابتة، بحيث أنّه وإن كان متقلّبا لا يتغيّر البتة. وصحيح أنّ اللاّمحدوديّة التي هي شبه العدم، لا يمكنها أن تخضع لتعاقب الأزمنة. وصحيح أنّ منشأ الشيء، يمكن، بعبارة متعارفة، أن يسمّى باسم الشيء الذي منه نشأ: ومن ثم أمكن أن يطلق اسما السماء والأرض على نوع ما من اللاّمحدوديّة التي خلقت منها السماء والأرض. وصحيح أنه، من بين كلّ الأشياء المخلوقة، لا شيء أقرب من اللاّمحدوديّة من الأرض والهاوية. وصحيح أنّه لا فقط أنّ كلّ مخلوق ومتشكل، بل أيضا كلّ ما هو قابل للخلق وللتشكّل، خلقته أنت الذي «مِنْكَ يَصْدُرُ الكلُّ». وصحيح أنّ كلّ ما هو متشكّل من لامحدّد الشكل، يكون أوّلا لامحدّدا، ثمّ متشكّلا.

XX.29. من بين كلّ هذه الحقائق التي لا يشكّ فيها أولئك الذين أعطيت عينَهم الداخليّة أن يروها بها، والذين يعتقدون راسخ الاعتقاد أنّ موسى خادمَك، قد تكلّم بروح «الحقّ»، من بين تلك الحقائق إذن، يختار بعضهم واحدة، ويقول: «في الْمَبْدَإِ خَلَقَ الإِلاَهُ السَمَاءَ وَالأرْضَ»، أعني في كلمته، شريكته في الأزليّة، خلق الإلـه الخليقة المعقولة والمحسوسة، أو الروحانيّة والجسمانيّة، أمّا الآخر فيقول: «فِي المَبْدَإِ خَلَقَ الإلـه السَماءَ والأرْضَ»، أعني في كلمته، شريكته في الأزليّة، خلق الإلـه مجموع هذه الكتلة لهذا الكون الجسمانيّ، مع كلّ الكائنات الجليّة والمعروفة التي يحتوي عليها، ويقول ثالث: «فِي المبْدإِ خلق الإلاَهُ السَمَاءَ والأَرْضَ»، أعني في كلمته، شريكته في الأزليّة، خلق المادّة اللاّمحدّدة الشكل للخليقة الرّوحيّة والجسمانيّة، ويقول رابع: «فِي المَبْدَإِ خَلَقَ الإِلاَهُ السَماءَ والأرْضَ»، أعني في كلمته، شريكته في الأزليّة، خلق الإلـه المادّة اللامحدّدة الشكل للخليقة الرّوحانية، حيث كانت السماء والأرض لا تزالان مختلطتين، بينما نشهدهما،الآن بعد، متميّزتين ومتشكّلتين في كتلة هذا الكون، ويقول خامس: «فِي المَبْدَإِ خَلَقَ الإِلاَهُ السَماءَ والأرْضَ»، أعني في بداية خلقه وفعله بالذات، خلق الإلـه المادّة اللامحدّدة الشكل، متضمّنة السماء والأرض مختلطتين، بينما تبرزان الآن متشكّلتين، وتظهران مع كلّ الكائنات التي تكمن فيها.

XXI.30. كذلك في ما يتعلّق بفهم الكلمات التالية، فمن بين التأويلات الصحيحة كلّها، يختار كلّ واحد تأويله. فهذا فيقول[1]: «أمّا الأَرْضُ فَكَانَتْ لامَرْئِيَّةً لامُنظَّمَةً،

(1) ...ex illis omnibus ueris aliud sibi tollit... =.. من بين التأويلات الصحيحة كلّها يختار كلّ واحد تأويله. المرجع نفسه ص 350 وص351 الملاحظة 1: «...يبدو من المستحيل أن نصدّق أنّ أوغستينوس يمكن أن يكون قد فكّر ولو مرّة واحدة في أن يفسّر جميع كتب التوراة في اعترافاته...».

وَكَانَتِ الظـلُماَتُ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، يعني أنّ ذلك الجسم الذي خلقه الإلـه كان لايزال مادّة لامتشكّلة للأشياء الجسديّة، بلا نظام وبلا نور، والآخر يقول: «أمّا الأرْضُ فَكاَنَتْ لامَرْئِيَّةً، ولامُنظَّمَةً، وَكَانَتِ الظُّلُماَتُ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، يعني أنّ ذلك الكلّ الذي سمّي السماء والأرض، كان لا يزال مادّة لامتشكّلة ومظلمة، منها كانت تأتي السماء جسمانيّة، والأرض جسمانيّة، مع كلّ الكائنات التي تكمن فيها كالمعروفة للحواس الجسمانيّة، والآخر يقول: «أمّا الأرْضُ فَكاَنَتْ لامَرْئِيَّةً، ولامُنظَّمَةً، وَكَانَتِ الظُّلُماَتُ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، يعني أنّ ذلك الكلّ الذي قد سمّي بالسماء وبالأرض، كان لا يزال مادّة لامتشكّلة ومظلمة، منها كانت تأتي السماء العقلانية _ وهي تسمّى في مكان آخر «سَمَاءَ السَمَاءِ» – وكذا الأرض، يعني كلّ الطبيعة الجسمانيّة التي تحت اسمها يجب أن تفهم أيضا تلك السماء الجسمانيّة، أي التي كانت تأتي منها كلّ الخليقة اللاّمرئيّة والمرئيّة، والآخر يقول: «أمّا الأرْضُ فَكاَنَتْ لامَرْئِيَّةً، ولامُنظَّمَةً، وَكَانَتِ الظُّلُماَتُ فَوْقَ الْهَاوِيَةِ»، يعني لم يسمِّ هنا الكتاب المقدّس ذلك اللاّتشكّل، باسميْ السماء والأرض، بل يقول إنّ اللاّتشكّل عينه كان يوجد بعد، وهو الذي قد سمّاه بالأرض اللاّمرئيّة واللاّمنظّمة، وبالهاوية المظلمة، والذي كان قد أعلن مسبّقا أنّ الإلـه خلق السماء والأرض، أي الخليقتين الرّوحانيّة والجسمانيّة، والآخر يقول: «أمَّا الأرْضُ فَكَانَتْ لا مَرْئِيَّةً، ولاَ مُنَظَّمَةً، وكَانَتِ الظُّلُمَاتُ فَوْقَ الهَاوِيَةِ»، يعني أنّ اللاّتشكّل هو آنذاك مادة ما، منها أعلن الكتاب المقدّس، مسبّقا، أنّ الإلـه قد خلق السماء والأرض، أي كليّةَ كتلةِ الكون الجسمانيّة، موزّعة إلى جزءين كبيرين جدّا، أعلى وأسفل، مع جميع المخلوقات التي تكمن فيها، العاديّة المعروفة.

31.XXII. ولمعارضة هذين التأويلين الأخيرين، يمكن لبعضهم أن يقول: «إن لم تريدوا أن يسمّى ذلك اللاّتشكّل في المادّة باسميْ السماء والأرض، إذن فقد كان هناك شيءٌ ما، لم يكن الإلـه قد خلقه، ولم تكن لتخلق منه السماء والأرض، إذ الكتاب المقدّس لم يرو أن الإلـه خلق تلك المادّة، إلّا إذا فهمنا أنّها المعنيّة بكلمتي السماء والأرض، أو بكلمة الأرض وحدها عندما قيل: «فِي المَبْدَإِ خَلَقَ الإِلاَهُ السَماءَ وَالأَرْضَ»، إلى قوله: «أمّا الأرْضُ فَكاَنَتْ لامَرْئِيَّةً، ولامُنظَّمَةً»، وإن كان يروق له أن يسمّي هكذا المادة اللاّمتشكّلة، إلّا أنّنا لن نقدر أن نفهم هنا إلّا تلك التي خلقها الإلـه، في المقام السابق، حيث كتب: «خَلَقَ الإِلاَهُ السَمَاءَ وَالأَرْضَ»، ويمكن أن يجيبه المؤكّدون لذيْنك الرأيين الأخيرين اللذيْن وضعناهما، أو لهذا أو ذاك، لو سمعوا ما قيل، فيقولوا: «لا ننكر بالطبع أنّ تلك المادّة قد خُلِقَتْ من لدن الإلـه الذي منه تأتي

«كُلُّ الأَشْيَاءِ الطَيِّبَة جدًا»، لأنّنا، كما نقول إنّ ما قد خُلِقَ تشكّل أكثر طيبا، كذلك نعترف بكون ما قد جُعل قابلا للخلق وللتّشكّل أقلّ طيبا، لكنّه مع ذلك طيّب. وأما عن كون الكتاب لم يَذْكر خلق الإلـه لذلك المتشكل فإنّه سكت أيضا عن أشياء أخرى كثيرة كخلق «الكَرُوبينَ» (Cherubim = Chérubins)[1] و«السَّارُوفِيمِينَ» (Seraphim = Séraphins)[2]، وكـ«الأرائك» و«السِيَادات» و«الطَغْمَات» و«المَلاَئكَة» التي يذكرها الحواريّ بوضوح والتي هي جميعا، بصورة جلية، من صنع الإلـه. أو إن قال قائل: يجب أن نفهم من قوله «خَلَقَ السَمَاءَ والأَرْضَ»، أنه خلق كلّ شيء، فماذا نقول عن المياه «التِي كَانَ فَوْقَهَا يُحْمَلُ رُوحُ الإِلاَهِ»؟ فلو فُهمت هي أيضا من تسمية الأرض، كيف تؤوّل بعد، باسم الأرض، المادّة اللاّمتشكّلة، عندما نرى المياه بمثل ذلك الجمال؟ أو إن صحّ هذا التأويل فلماذا كُتِبَ أنّ «القُبَّة» الزّرقاء قد خلقت من عين اللاّتشكّل وأنّها سمّيت «بالسّماءِ»، ولم يُكْتَبْ أنّ المياه كانت قد خلقت؟ لأنّ تلك المياه لم تعد لا غير متشكّلة، ولا غير مرئيّة، هي التي نشهدها تسيل بمثل رونقها البديع. أوَ تلقّت ذلك الرّونق في الوقت عينه الذي قال فيه الإلـه: «فَلْيَتَجَمَّع الْمَاءُ الذي هُوَ تَحْتَ القُبَّةِ»، حتّى يكون التجمّع إيذانا بالتشكّل؟ وماذا ستكون الإجابة في خصوص المياه التي هي فوق القبّة، بما أنّها لامتشكّلة؟ فما كانت لِتحظى عن جدارة بمركز بمثل هذا الشرف، ولا نقرأ في أي موضع من كتابك الكلمة شكّلتها؟

فمن هنا، إن سكت سفر التكوين عن شيء خلقه الإلـه، فإنّ العقيدة السليمة مع ذلك لا تنازع في كونه خلقه، ولا العقل الصحيح؛ وعلى كلّ لا يوجد مذهب معتدل ستكون له جرأة القول بشراكة تلك المياه في أزليّة الإلـه، لأنّنا لا نسمع، لعمري، التذكير بها في سفر التكوين، أمّا متى خلقت، فلا نجده. فلم إذن لا نعتبر، مهتدين بالحقّ، أنّ تلك المادّة اللاّمتشكّلة أيضا والتي يسمّيها هذا الكتاب «أَرْضًا لا مَرْئِيَّةً، ولا مُنَظَّمةً، وَهَاوِيَةً مُظْلِمَةً»، قد خلقها الإلـه من العدم، وأنّها لذلك ليست شريكته في الأزليّة، رغم أن الرّواية المقدسة فاتها أن تشير إلي تاريخ خلقها؟

XXIII.32. إذن، بعد سماع هذه الآراء، والتمحيص فيها، حسب ما يسمح به ضعفي الذي أعترف لك به، يا إلـهي، العالم به، أرى أنّ نوعين من الخلافات يمكن أن

---

(1) «تمّ ذِكرُ الكَرُوبين فـي سـفر التـكوين III, 24 ; وفي سفر الخروج XXV, 22 وXXXVII, 7; وفي les Nombres VII, 89 إلخ...» الإحالة السابقة، ص 351، الملاحظة 1.

(2) «ولم يذكر الساروفيمين إلّا في كتاب Isaïe VII 2, 6» الإحالة السابقة.

ينشأ منها، عندما يعرب المؤوّلون الصادقون بواسطة الأدلّة عن شيء ما، الأوّل، إن كان الخلاف حول حقيقة الأشياء، والثاني، إن كان حول إرادة الذي يعرب عنها بالذات، إذ شيء هو أن نبحث عن الحقيقة الخاصّة بخلق الخليقة، وشيء آخر أن نبحث عمّا أراد موسى في تلك الكلمات، وهو الخادم الرّائع لعقيدتك، أن يفهمه القارئ لها أو السامع.

في النوع الأوّل، فليبتعد عنّي كلّ الذين يتخذون الآراء الباطلة[1]علما لهم. وكذلك في النوع الثاني، ليبتعد عني كلّ الذين يعتبرون أنّ موسى قد قال آراء باطلة! لكنني أريد يا مولاي، أن أحُلّ فيك، وألتذّ فيك معهم، هم الذين يقتاتون من واسع حبّك، ولنصل معا إلى كلمات كتابك، ولنبحث فيها عن إرادتك، عبر إرادة خادمك التي علّمتنيها بقلمه.

XXIV.33. لكن من منّا يستطيع أن يدعي أنه، من بين جميع التأويلات الصحيحة التي تعرض للباحثين عن فهم كلماتك هذا الفهم أو ذاك، سيقدر أن يقول، بكلّ ثقة، إنّ موسى قد قصد هذا، وإنّه قد أراد أن يفهم هذا في تلك الرّواية، ويقول بنفس الثقة إن هذا هو الحق، مهما كان قصدُ موسى نفسه؟

فها أنذا، إلـٰهي، «أَنَا خَادِمُكَ» الذي نذرت إليك أضحية الاعتراف في هذا الكتاب وطلبت من شفقتك، أن تسمح لي «بِأَنْ أُحَقِّقَ نَذْرِي إِلَيْكَ»، ها أنذا أقول بكامل الثقة إنّك، بكلمتك اللاّمتقلّبة، خلقت كلّ الأشياء اللاّمرئيّة والمرئيّة. لكن هل لي أن أقول بنفس الثقة إنّ موسى (**Moysen = Moïse**) لم يكن واضعا نصب عينيه غير هذا المقصد، عندما كان يكتب: «فِي الْمَبْدَإِ خَلَقَ الإِلاَهُ السَّمَاءَ والأَرْضَ»، لأنّي، إن رأيت أنّ ذاك في حقّك صحيح، فلا أرى بنفس الصورة أنّه قد تراءى له في فكره هذا، عندما كان يكتب هذه الكلمات؟

فلعله، لما كان يقول: «فِي المَبْدَإِ» قصد بدايةَ عمليّة الخلق، ولعلّه قصد بالسماء والأرض، في هذا المقام، الطبيعةَ الروحانية والجسمانيّة لا طبيعةً متشكّلة مكتملة، بل في صورة بداية لم تتشكل بعدُ. أرى، لعمري، أنّه يمكن بحقّ أن يصحّ كلّ واحد من هذين القولين. لكن أيَ الرأيين قصد موسى عندما قال تلك الكلمات، لا علم لي

(1) المرجع نفسه، ص 352، الملاحظة 1:...: « هنا أيضا وكما هو الشأن أعلاه (XII, XVI, 23) لا يقبل أوغستينوس النقاش إلّا مع الذين يعتبرون من المبادئ الأساسيّة صحّة قصص التوراة والصدق التام للكَتَبَة rédacteurs».

بذلك، رغم أنّ ذلك الرّجل العظيم عندما كتب ما كتب كان يقصد أحد المعنيين أو معنى آخر غيرهما، لا أذكره هنا. المؤكد أنّ رجلا في مثل عظمته قد رأى الحقّ، وقد أعرب عنه كما يليق به[1].

34.XXV. لا يزعجْني أحدٌ بعدُ بقوله: «لم يقصد موسى هذا الذي تقول، بل قصد، هذا الذي أقول أنا». فلو قال لي: «من أين لك أنّ موسى قصد هذا، طبق ما تقوله عن هذه الكلمات؟»، لوجب عليّ أن أتحمّله عن طيب خاطر، وأن أجيبه ربّما، بما أجبت به أعلاه، أو أجيبه بأكثر إطنابا، لو كان السائل صعب المراس؟ أمّا إذا قال قائل: «ذلك الرّجل لم يقصد هذا الذي تقوله، بل هذا الذي أقول أنا»، دون أن ينكر مع ذلك أنّ ما يقوله كلانا صحيح في الحالتين، يا حياة الفقراء وإلـهي، أنت الذي لا يسكن صدرَك أدنى تناقض، أمطر قلبي بقطرات الندى المسكّنة حتّى أتحمَّل بالصبر أمثاله الذين لا يقولون لي هذا لأنّهم عباد الإلـه، ولأنّهم رأوا في قلب خادمك ما يقولونه، بل لأنّهم متكبّرون، لا يفقهون فكرة موسى، ويحبّون فكرتهم، لا لكونها حقيقيّة، بل لكونها فكرتهم الخاصّة. ولو لا ذلك لأحبّوا نفس الدرجة من الحب فكرة غيرهم، إذا كانت الحقيقة، كما أحبّ أنا ما يقولونه، عندما يقولون الحقّ، لا لأنّ ذاك من عندهم، بل لأنّه الحقّ! أمّا لو أحبّوها لهذا السبب، أي لأنّها الحقّ، فإنها ستصبح لهم بالذات ولي، لأنّها ملك مشاع لكلّ محبّي الحقّ.

أمّا أن يجزموا بكون موسى لم يقصد هذا الذي أقول أنا، بل ما يقولون هم أنفسهم، فأرفضه، ولا أحبّه، لأنّه – وإن كانت تلك الحال – فهذه المجازفة ترتكز لا على العلم، بل على الجرأة، ولم تولد من الاستبصار، بل من الغرور.

ولهذا، مولاي، يجب أن تُخشَى أحكامُك، بما أنّ حقَّك ليس لي ولا لفلان أو فلان، بل لنا جميعا، نحن الذين تدعونا علنًا إلى الاشتراك فيه، محذّرا إيّانا بهولك، حتّى نرفض أن يكون ملكنا الخاصّ، وحتّى لا نحرم منه.

إذ كلّ من يطالب بأن يجعل من ملكه الخاص ذلك الذي تعرضه أنت ليتمتّع به الجميع والذي يريد أن يكون له ما هو ملك للجميع، يطرد من المشاع إلى الخاصّ، يعني من الحقّ إلى الكذب، فالذي «يَقُولُ كَذِبًا، يَتَكَلَّمُ مِنْ ملكه الخاصّ».

---

(1)...apteque... enuntiasse... = قد أعرب عنه كما يليق به. المرجع نفسه ص 353، الملاحظة 1: «هذا الأمن المتفائل يخمي أوغستينوس من كلّ تعلّق برأيه الخاص son sens propre ومن كل رغبة في الخِصام في المحاورات الخاصة بالكتاب المقدس...».

35. «أَصْغِ»، أيّها الحكَم الأمثلُ وإلـهي، أيها الحقّ الحق، «أَصْغِ»، إلى ما أقوله لهذا المعترضِ، «أَصْغِ»، فإني سأتكلّم أمامك وأمام إخوتي الذين يعمدون «حَسَبَ القَانُونِ إلى القَانُونِ»، إلى حدّ الحبّ، وهي غايته، أصغ وانظر ما أقوله له، إن شئت ذلك.

أتوجّه إليه بالقولة الأخويّة السلميّة التالية: إن رأى كلانا أنّ ما تقوله صحيح، وإن رأى كلانا أنّ ما أقوله صحيح، فأين - من فضلك - نرى ذلك؟ على كلّ لا أراه أنا فيك، ولا أنت فيّ، بل يراه كلانا في ذات الحقّ اللاّمتقلّب الذي هو فوق أفكارنا. إذن، إن كنا لا نتنازع في خصوص ذات نور المولى، إلـهنا، فلماذا نتنازع في خصوص تفكير أخينا الإنسان[1] الذي لا نقدر أن نراه، تماما كما يُرى الحقّ اللاّمتقلّب، بحيث لو كان موسى يظهر لنا ويقول بنفسه: «هذا ما فكّرت فيه» لما رأينا ذلك التفكير، بل لكنّا صدّقنا به؟ لذلك «فلا يَنْتَفِخْ وَاحِدٌ مِنَّا ضدّ الآخر بالكبْرياءِ فِي خُصُوصِ الكِتَابِ المُقَدَّسِ». ولنحبّ «المَوْلَى إلـهنَا، مِنْ كُلِّ قَلْبِنَا، وَمِنْ كُلِّ رُوحِنَا، وَمِنْ كُلِّ عَقْلِنَا، وأَخانَا الإنْسَانَ كَمَا نُحِبُّ أَنْفُسَنَا». فلو كنّا نعتقد أنّ موسى ما فكّر في كلّ ما قد فكّر فيه في تلك الكتب إلّا بسبب تينك الوصيّتين المتعلّقتين بالحبّ (caritatis)[2]، لافترينا على المولى «الكَذِبَ»، ونحن نظنّ في خصوص فكر خادمه غير ما علّمنا إيّاه عنه. أنظر الآن، أمام تلك الوفرة من الآراء الصحيحة جدّا التي يمكن أن تستخرج من تلك الكلمات، كم تكون الحماقة كبيرة أن يجازف أحد، بأن يجزم، أنّ موسى كان قد قصد هذا الرّأي بالتدقيق، وأن يخاطر بإهانة الحبّ عينه، في نزاعات مضرّة به، والحال أنّه من أجله قال جميع الأقوال التي نسعى في تفسيرها.

36.XXVI. ومع ذلك، يا إلـهي، يا رفْعة تواضعي وراحة كدّي، أنت الذي تسمع اعترافاتي وتغفر «خطايايَ»، بما أنّك أنت توصيني بحبّ أخي الإنسان، كما أحبّ نفسي ذاتها، فأنا لا أقدرُ أن أعتقد أنّ موسى، خادمك الأمين للغاية، أهدي منك من الهدايا أقلّ،

---

(1) «... de proximi cogitatione» = ... في خصوص تفكير أخينا الإنسان. المرجع نفسه ص 353، الملاحظة 2: «حُسن نيّة أوغستينوس تتبدّى في هذا الموضع»، في موضع لاحق ص 356 يختصّ المجادل عند أوغستينوس، حسب رأي "مونسو" MONCEAUX بدقّته واستقامته» والاحتراز الوحيد يتعلّق «بسَوْرة من نفاد الصبر تجاه البعض من أعدائه». (ص 354، 1.10. والتي بعدها).

(2) لنؤكد هذا الإلحاح على العبارة caritatis بمعنى المحبّة أو التعلّق...، وهي عبارة لا يفصلها إلّا بعض الكلمات عن العبارة proximum nostrum التي تعني ذلك القريب الذي يستوجب أن نحبّه كما نحبّ أنفسنا.

ممّا كنت أبتغيَ أو أتمنّى، لو كنتُ قد ولدت في ذلك الوقت الذي عاش فيه، ولو كنتَ قد نصّبتني لتلك المهمّة التي كنت لأخدمك فيها، بقلبي وبلساني، معلّما الناس تلك الكتبَ المقدّسة التي كانت، بعد زمان طويل، ستصبح صالحة لكلّ الأمم، ولتسمو، عبر الكون قاطبة، إلى أسمى قمم النفوذ، وفوق جميع مذاهب الضلال والكبرياء.

كنت لعمري أريد، لو كنت آنذاك أنا موسى (Moyses = Moïse) - ألسنا نأتي جميعا من نفس الطينة، «وما الإنْسَانُ، إنْ لم تكن مُتَذَكِّرًا لَهُ؟» - لو كنت أنا آنذاك ما كان هو، ولو كنتَ تأمرني أن أكتب سفِر التكوين (Geneseos liber = le livre de la Genèse)، نعم كنت أريد أن تعطيني قدرة على التعبير، وعلى سبك القول، تجعل الذين لا يستطيعون أن يفهموا كيف يخلق الإله، لا ينكرون أقوالي ولا يجدونها فوق طاقتهم، وأنّ الذين يستطيعون فهم ذلك، يجدون في كلام خادمك جميع الآراء الصائبة التي يكون التفكير والتأمل قد كشفاها لهم بعدُ، كما أنه لو فهمه بعضهم فهما آخر مهتدين إليه بنور حقيقتك لاستطاعوا العثور عليها أيضا في نفس الكلمات.

37.XXVII. فكما أنّ النبع، في حوضه الصغير، يكون أغزر ويروي السيول التي يغذّيها، مساحات أوسع من أيّ سيل من تلك السيول التي تنحدر من ذلك النبع عبر عديد الأماكن، فكذلك رواية معلّم كلامك موسى التي ستصبح زاد الكثير الكثير من المؤوّلين، تنبع من عدد ضئيل من العبارات، بسيل من الحقيقة الشفّافة، منه سيُخْرِجُ كلّ واحد ما يمكنه من الأفكار الصائبة، هذا هذا، وذاك ذاك، في منعرجات كلاميّة أطول.

فهناك أناس، عندما يقرؤون تلك الكلمات أو يسمعونها، يحسبون الإله شبيها بإنسان أو كتلة ذات قوّة لامحدودة، وأنّه، بإرادة جديدة بعض الجدّة وفجئية، قد يكون خلق السماء والأرض وكأنهما خارجتان عنه أو بعيدتان في الفضاء، وباعتبارهما جسمين كبيرين، أحدهما في الأعلى والآخر في الأسفل، يحتويان جميع الكائنات، وعندما يسمعون: «قَالَ الإِلاَهُ: لِيَكُنْ ذَاكَ! وكانَ ذَاكَ»، يظنّونها كلمات ابتدأت وانتهت، مدوّيةً مُهْلَةً متوقّفة مهلة، بحيث أنّها ما إن تمضي، حتّى يوجد ما أُمِرَ أنْ يوجد، ويرون كلّ آرائهم الأخرى بنفس المنهج المتّسم بالجسمانيّة.

هؤلاء لا يزالون «أَطْفَالا صغَارا»[1] نفوسهم قريبة من النفوس الحيوانية: فما دام

(1) paruulis animalibus,...... = «أطفال صغار» معرضون عن الأفكار الروحيّة... spirituelles: المرجع نفسه ص 358، الملاحظة 2 (بشأن animalis): يقصد أوغستينوس العقول المحدودة شيئا ما والتي لا تفكر إلّا بواسطة صور ذات دقّة تقلّ وتعظم. وهو لا يحتقر البتة هذا الصنف شريطة أن يظلّ تحت رعاية سلطة الكنيسة.

هذا الجِنْس المتواضع من الكلام يحمل ضعفهم، كما لو كانوا لا يزالون في أحضان أمّهاتهم، فإنه تنشأ فيهم بسلامة العقيدة المنجية التي يستطيعون أن يتحقّقوا بها ويصدّقوا بأنّ الإلـه قد خلق كلّ المخلوقات التي تراها حواسّهم دائرة بها في تنوّع رائع.

أمّا لو أنّ أحدهم ازدرى بفظاظة أقوالك المزعومة ليرمي بنفسه خارج العش المغذّي له بسبب ضعف مغرور، فالويل له! لقد سقط الشقيّ. «يا مَولاَيَ، أَشْفِقْ عليهِ» كي لا يدوس المارّون في الطريق العصفورَ الصغير الذي لا ريش له، و«أَرْسِلْ ملاَكَكَ»، ليعيده إلى العشّ حتّى يعيش فيه ريثما يتعلّم كيف يطير.

38.XXVIII. وهناك أناس آخرون ليست تلك الكلمات بالنسبة إليهم كالعشّ، بل كالبستان المظلّل. يرون الثمار مخفية بين الأوراق، ويرفرفون سعداء، باحثين عنها مزقزقين، ويقطفونها.

إذ يرون، عندما يقرؤون تلك الكلمات أو يسمعونها، أنّ كلّ الأزمنة الماضية والآتية، يا إلـهي، يسيطر عليها ثبات أزليّتك وديمومتك، وألّا شيء دنيويًا مع ذلك، لم تخلقه أنت الذي تَساوى بإرادتك ذاتك، والذي لم تتغيّر أيَّ تغيّر ولم تنشأ فيك عزيمة لم تكن موجودة من قبل. أنت قلت قد خلقت كلّ الكائنات لاشبيهة بك، أنت الصورةُ المثلى، بل مادّة لامتشكّلة أخرجتها من العدم، لاشبيهة بك، لكنها قادرة على التشكّل طبقا لصورتك بالرّجوع إليك، أنت الأوحد، وطبقا للقدَر المعيَّر والمعطى لكلّ جنس من الكائنات على حدة. ويرون أنّها «كُلَّهَا جِدُّ حَسَنَةٍ»، سواء بقيت حولك، أو أبعدت من حولك إن كثيرا أو قليلا في الزمان والمكان، وأنّها تفعل أو تنفعل ببديع تحوّلات الكون.

يرون كلّ هذا ويغتبطون، على نور حقّك، بقدر ما يسمح لهم به ضعفهم هنا.

39. وهذا آخر يتفحّص هذا الذي قيل: «فِي الْمَبْدَإِ خَلَقَ الإِلاَهُ»، ويؤوّل المبْدأَ بالحكمة «لأَنَّ الحكمة تُكَلِّمُناَ هِيَ أَيْضًا». وهذا آخر يتفحّص نفس الكلمات، ويفهم من المبدإ بداية خلق الأشياء، ويؤوّله هكذا: «في المبْدَإ فَعَلَ»، كما لو أنّه قال: «فَعَلَ فِي الأَوَّلِ».

ومن بين الذين يفهمون من «في المَبْدَإ»، أنكَ في حكمتك «خَلَقْتَ السَمَاءَ والأَرْضَ»، يعتقد بعضهم أنّه بالسماء وبالأرض ذاتيْهما، قد سمّيت هكذا المادّة القابلة للتّنظيم في السماء والأرض، فهذا يرى أنها تعني الأكْنَاهَ المتشكّلة بعدُ والمتميّزة، والآخر يرى أنها تعني الجوهرَ المتشكّل بعدُ والرّوحانيّ تحت اسم السماء، وكنْهًا غيره لامتشكّلا للمادّة الجسمانيّة، تحت اسم الأرْض.

أمّا الذين يفهمون من اسميْ السماء والأرض المادّة اللاّمتشكّلة بعد والتي ستتشكّل منها السماء والأرض، فهم بدورهم لا يفهمونها نفس الفهم بل يفهمها بعضُهم كما ستكتمل منها الخليقتان المعقولة والمحسوسة، أمّا بعضهم الآخر فيفهم منها تلك الكتلة المحسوسة الجسمانيّة فقط المحتوية في بطنها الكبير للأكناه الشفافة والجليّة.

كما لا يفهمها نفس الفهم، أولئك الذين يعتقدون في هذا المقام، أنّ اسمي السماء والأرض يطلقان على الخلائق المنظّمة بعد والمركّزة، لكنّ بعضهم يرى هنا اللاّمرئيّ والمرئيّ، في حين يرى بعضهم المرئيّ فقط، حيث نشاهد السماء المشرقة والأرض القاتمة وكلّ ما يوجد فيهما.

40.XXIX. أمّا الذي لا يؤوّل العبارة «فِي الْمَبْدَإِ» تأويلا مغايرا، فهو كما لو قال: «فِي الأَوَّلِ فَعَلَ»، إذ ليس له من طريقة يفهم بها السماء والأرض، غير أن يفهم بهما مادّة السماء والأرض، يعني الكون، أي الخليقتين المعقولة والجسمانيّة. فلو أراد بها كلاّ متشكّلا بعد، لأمكن بحقّ أن يُسْأَلَ، إن كان الإلـه فعل ذاك «في الأَوَّلِ»، عمّا يكون قد فعل «مِنْ بَعْدُ»، ولما وجد شيئا بعد الكلّ، ولذلك فهو سوف يسمع هذا السؤال المُحْرِج: «مَا مَعنى «في الأَوَّلِ»، إن لم يكن «بَعْدَهُ شيء؟»».

أمّا أن يقول إنّ الأوّل هو اللاّمتشكّل، والثاني المتشكّل، فليس بلامعقول، على شرط أن يكون قادرا على أن يميّز ما هو السابق، من جهة الديمومة، ومن جهة الزّمن، ومن جهة الأفضليّة، ومن جهة المصدر: من جهة الديمومة كقولك الإلـه قبل الكلّ، ومن جهة الزّمن، كقولك الزّهرة قبل الثمرة، ومن جهة الأفضليّة، كقولك الثمرة أفضل من الزّهرة، ومن جهة المصدر، كقولك الصوت قبل اللّحن.

في هذه الشروط الأربعة التي ذكّرت بها، يفهم الأوّل والأخير بأصعب ما يكون، أمّا الاثنان الأوسطان فبأسهل ما يكون. إذ إنّه يندر ويصعب جدّا، يا مولاي، أن تُرى ديمومتُك وتُشاهَدَ وهي تصنع المتقلّبات بلا تقلّب، ولهذا فهي مقدَّمَة على الكلّ. فمَنْ من ثمّ يكون له من حدّة الفكر، ما يجعله قادرا على أن يميّز دون كبير عناء، كيف يكون الصوت متقدّما على الغناء؟

هذا لا يكون إلّا لأنّ الغناء تشكّلٌ للأصوات، والشيء يمكن أن يكون دون أن يكون متشكّلا، في حين أنّ ما ليس كائنا البتة لا يمكنه أن يتشكّل. من ذلك أنّ المادّة متقدمة على ما ينشأ منها، لكنه ليس تقدما ناتجا عن كونها فاعلة حقا، فهي بالأحرى منفعلة، ولا تقدما في المدة الزمانيّة، لأننا لا نُصدر في وقت أوّل أصواتا غير منظمة لنؤلّف بينها

ونصنع منها، في وقت لاحق، شكلا غنائيا، كما هو الشأن في الخشب، نعمل فيه لنصنع منه صندوقا، أو في الفضّة لنصنع منها مزهريّة صغيرة (uasculum = petit vase)؛ فمثل هذه الموادّ، لعمري، تسبق أيضا، في الزّمان، أشكال الأشياء التي تصنع منها. لكن في الغناء، ليس الأمر هكذا، إذ عندما نغنّي، لا نسمع صوت الأغنية لامتشكّلا، ثمّ متشكّلا في صورة غناء. إذ إنّه حالما نكون قد صوّتنا به، يمّحي، ولن نجد منه أيّ شيء نستطيع أن نعيد تركيبه فنّيا: ولذا فنسيج الغناء يتكون من أصواته، بما أنّ الصوت هو مادّته. وهو الذي يتخذ شكلا ليصبح غناء. ولذا، كما كنت أقول، فمادّة الصوت متقدّمة على شكل الغناء: لكنها ليست متقدّمة بقوّة خالقة، إذ الصوت ليس هو الذي يصنع الغناء، بل تضعه أعضاء الجسد على ذمّة روح المغنّي، ليخلق منه لحنا، كما أنها ليست متقدّمة بالزّمن: إذ الصوت ليس بأفضل من اللّحن، حيث أنّ اللّحن لعمري ليس فقط هو الصوت، بل وأيضا الصوت الرّائق. غير أنّ تلك المادّة متقدّمة باعتبرها مصدرا، لأنّ اللّحن لا يتشكّل ليكون صوتا، بل الصوت يتشكّل ليكون لحنا.

ليفهم بهذا المثال من يقدر، أنّ مادّة الطبيعة قد خُلقت أوّلا، وسمّيت سماء وأرضا، إذ منها خُلقت السماء والأرض، وإذ لم تُخلق أوّلا، من حيث الزّمان، لأنّ أشكال المخلوقات تُحدِثُ الأزمنة، أمّا هي فكانت لامتشكّلة، ولوحظ وجودها بعْدُ متزامنا مع الأزمنة، ومع ذلك فلن يمكن أن يروَى أيّ شيء عنها، لو لم تكن شبه متقدّمة في الزّمان، رغم كونها بديهيّا أقلّ قيمة، لأنّ المتشكّلات هي لا غروَ أحسن من اللاّمتشكّلات، وينبغي أن تسبقها ديمومة الخالق، لتكون المادّة التي سيخلق منها كل شيء مصنوعة في ذاتها من العدم.

41.XXX. في هذا التعدّد للآراء الصحيحة، فلتلدِ الحقيقةُ ذاتها الوفاق بينها، وليشفقْ علينا إلـهنا، كي «نَعْمَدَ إلَى القَانُونِ قَانُونِيًّا، مُعْتَبِرِينَ غَايَةَ الوصيّةِ، وَهِيَ الحُبُّ الخَالِصُ».

ولذا، فعندما يسألني بعضهم، أيّ هذه الآراء قصدَ موسى خادمُك العظيم، سأحيد عن حقيقة اعترافاتي، إن لم أعترفْ لك بأنّي «لاَ أَدْرِي». ومع ذلك، فأنا أعلم أنّ تلك الآراء صحيحة، ما عدا اللّحميّة التي تكلّمت فيها بقدر ما تراءى لي. إلّا أنّ أصحابها، وهم «أَطْفَالٌ صِغَارٌ»، يرجى منهم الخير، فلا تروّعهم هذه الكلمات من كتابك السامية في تواضعها والغزيرة في قلّتها.

لكن، وأنا أقرّ بذلك، نحن الذين، في هذه الكلمات، نرى الحقّ ونقول الحقّ،

ليحبّ بعضُنا بعضا، ولنحبّك سويّا، أنت إلـهنا ومنبع الحقيقة، إن ظمئنا لا إلى الغول، بل إلى الحقّ بالذات، ولنكرّم كذلك خادمك ومعلّم كتابك الملآن بروحك، بكيفيّة تجعلنا نؤمن بأنّه لم يضع نصب عينيه، وهو ينشر كتابَ الوحي هذا، إلّا ما يمتاز به من نور الحقيقة وثمرة الفائدة.

42.XXXI. لذا، فلو قال لي قائل: «قد رأى موسى ما أراه أنا»، ولو قال آخر: «بل بالعكس، فكرته فكرتي أنا»، لقلت، أظنّ، قولا أكثر ورعا: «لمَ لا يكون بالأحرى رأى الرأيين، لو كان كلاهما صحيحا ؟ وإذا كانت هناك آراء أخرى صحيحة، ثالث ورابع وهلم جرّا، فلماذا لا تكون قد تراءت له جميعها، هو الذي قد عدّل به الإلـه الوحيد الكتب المقدّسة، كتبا حقيقيّة متنوّعة، في نظر عيون الكثيرين»؟

أمّا أنا فأعلن، بجرأة ومن أعماق قلبي، أنّه لو كنت في قمّة السلطة وكان عليّ أن أكتب شيئا لوددت أن أكتب كتابا تدوّي فيه كلماتي، بما يمكن أن يبلغه كلّ إنسان، من الحقّ، عن هذه الأشياء، عوض أن أضع رأيا صحيحا واحدا، فيه من الوضوح ما أكون أقصي به بقية الآراء، ولو أنّ الباطل ما كان ليصدمني فيها.

ولذلك أرفض، مولاي، أن أكون مجازفا، لأعتقد أنّ مثل ذلك الرّجل العظيم لم يحظ منك بهذه الموهبة! نعم فقد رأى حقّا، في ذلك الكلام الذي كان يكتبه، كلّ الأفكار الصحيحة التي استطعنا أن نجدها في كلمته، وكذلك التي يمكن أن نجدها فيها، لكننا لم نستطع أو لم نستطع بعدُ أن نجدها.

43.XXXII. وأخيرا، يا مولاي، فأنت إلـه، لا لحم ودم، وإن قصُر نظر الإنسان، فهل يمكن أن يخفى أيضا على روحك القدس الذي «سَوْفَ يَقُودُنِي إلى سَوَاءِ السَبيل»، شيء ما كنت أنت، في ذلك الكلام، تبشّر به بنفسك القرّاء المستقبليّين، وإن كان الذي أوّله قد اختار فكرة واحدة فقط، من بين الكثير من الأفكار الصحيحة؟

وإن كان الأمر هكذا، فلا بدّ أن تكون إذن تلك الفكرة أرقى من البواقي. أمّا بشأننا، يا مولاي، فاكشفها لنا هي، أو فكرة أخرى غيرها تروق لك صحّتها، حتّى أنّك إمّا أن تريَنا ما قد أريته أيضا لذلك الخادم خادمك، أو غيرها، في تأويل نفس الكلمات، وحتّى تغذّينا مع ذلك أنت، ولا يخدعنا الباطل.

أنظر، يا مولاي وإلـهي، أتوسّل إليك، كم من عديد الشروح، كم من عديد الشروح، كتبنا لكلمات قليلة! فكيف نجدد قوانا، وكيف سيكفينا الزّمان، على هذا النحو، لنفسّر جميع كتبك؟

اسمح لي، إذن، بأن أعترف إليك، باقتضاب أكبر، في خصوصها، وبأن أختار سبيلا واحدا تكون أنت قد ألهمتنيه سبيلا حقيقيّا، ثابتا حسنا، وإن اعترضتني الكثير من السبل، حيث كان لها أن تعترضني وبهذه العقيدة، سأعترف اعترافا، أقول فيه ما رآه خادمك، بصفة مستقيمة مثلى - فهذا ما عليّ أن أحاوله - بحيث أنّي لو كنت لم أنجح فيه، لقلتُ على الأقلّ، ما أراد حقّك أنْ يقوله لي، بواسطة ذلك الكلام، بما أنّه قال له أيضا ما أراد.

الكِتَابُ الثَالِث عشَرَ

1.I. أدعوك (Inuoco, je vous invoque)[1]، «يَا إلاَهِي، ويا شَفَقَتِي»،أنت الذي خلقْتني، وما نسيتَ ناسيَك (Inuoco, bis). أدعوكَ إلى روحي التي تهيّئها لقبولك، بالرّغبة التي تلهمُها إيّاها: لا تتخلَّ عن داعيك (Inuocantem, (ter) je vous appelle)، أنت الذي، قبل أن أدعوك، قد سبقتني، وأكّدت عليّ أكثر من مرّة، وبألف نداء، أن أصْغِيَ إليك عن بعد، وأن أتّجه نحوك، وأن (Inuocarem, appeler à moi (quater) celui...) أدعوك، أنت يا داعِيَّ.

فأنت، مولاي، محَوْت كلّ أعمالي السيئة، حتّى لا تعاقب يدي التي تخلّيت بها عنك، وسبقتني في كلّ أعمالي الصالحة، لأنّك - قبل أن أكون - قد كنت أنت، وما كنتُ أهلا لكي تمدّني بالوجود، ومع ذلك فها أنذا موجودٌ، بفضل طيبتك السابقة لكلّ ذلك الذي وهبته لي من الوجود، والذي منه خلقتني. إذ ما كنتَ في حاجة لي أو قلْ ما كان فيّ أيّ خير قد تستعين به، يا مولاي، ويا إلـهي، بحيث أخدمك من أجل إبعاد التعب عنك في العمل، أو كي لا تكون قدرتك ناقصة بسبب نقص في انصياعي، ولا بحيث أبجّلك، كما لو كنت لأحرث أرضا، فلو لم أحرثها، لكانت جدباء!، بل أريد أن أخدمك وأن أبجّلك، حتّى تأتيني منك السعادة، أنا الذي أتقبّل منك قابليّة السعادة.

2.II. فمن طيبك، لعمري، المكتمل تستمدّ خليقتك الوجود، حتّى لا يغيب خير «لم يكن ينفعك ولا يساويك في شيء، وإن لم يكن ليوجد إلّا صادرا عنك».

---

(1) يبدو أنّ الدعاء سيختم الاعترافات في بداية هذا الكتاب الثالث عشر (وهو الكتاب الأخير في هذا المؤلف من مؤلفات أوغستينوس). ويمكن أن نلاحظ في هذا الشأن أن الدائرة تنغلق هنا، بما أنّنا نجد الأدعية العديدة االتي افتُتح بها الكتاب الأول. ونحن نحيل القارئ عن طيب خاطر على بناء مخطط بصورة واعية لدى أسقف مدينة هِيبُّون Hippone.

فما كانت لتحظى به منك «السَماءُ والأرْضُ» اللّتان خلقتهما «فِي المَبْدإ»؟ فلتقل لي الخليقتان الرّوحانيّة والجسمانيّة، اللّتان «خلَقْتَهُمَا فِي حِكْمَتِكَ»، ما سبب حظوتهما، حتّى يتوقّف عليها حتّى اللاّمكتمل واللاّمتشكّل في جنسه، إمّا في العنصر الرّوحاني، أو في الجسمانيّ على حدة، وصولا إلى الفوضى وإلى اللاّشبه التامّ بك، بحيث يكون الكائن الرّوحانيّ اللاّمتشكّل أفضل من الجسم المتشكّل، ويكون بالعكس العنصر الجسمانيّ اللاّمتشكّل أفضل من العدم المطلق. وكانت هذه العناصر تبقى لامتشكّلة، تحت كلمتك، لو لم تُردّ بنفس الكلمة إلى أحاديّتك **(unitatem = votre unité)** بأن تسبغ عليها الشكل والفضل الصادرين عنك أنت، أيها الخير الأعلى الوحيد. نعمْ، جميع هذه الأشياء لِمَ لقيتْ منك كل هذه الحظوة، ليتحقّق وجودها ولو كاللاامتشكّلة، والحال أنّه ما كان ليكون لها، لولا عونك؟

3. ما الذي حظيتْ به منك المادّة الجسمانيّة حتّى تكون، ولو كاللامرئيّة والامنظّمته، والحال أنّها ما كانت لتكون كذلك، إلّا لأنّك خلقتها؟ فبسبب كونها لم يكن لها وجود، ما كانت لتحظى منك بأن تكون.

أو ماذا حظيت به منك الخليقة البدائيّة الرّوحانيّة، حتّى تتموّج، ولو في ظلامها، شبيهةً بالهاوية، لا شبيهةً بك، لو لم تَرّدها نفس الكلمة إلى الكلمة التي خلقتها بها، ولو لم تنِرها، فتصبح نورًا لامساويًا لنورك، بل شبيها بصورتك؟

وكونُ الجسم مطلقا ليس مثل كونه جميلا،وإلّا لاستحال أن يوجد جسم قبيح. كذلك الحياة أيضا، بالنسبة إلى الفكر المخلوق، ليست الحياة مطلقا كالحياة طبق الحكمة: وإلّا لاستحال أن يعرف الفكر فيه تقلّبا. «أمَّا الْخَيْرُ فهُوَ فِي التَعَلّق دَوْمًا بكَ» مخافة أن يفقد بالازورار عنك النور الذي قد تحصّل عليه بالتوجه نحوك، وأن يسقط ثانية في الحياة الشبيهة بالهاوية المظلمة.

إذ نحن أيضا، بامتلاكنا روحا، نكون خليقة روحانيّة، ونكون قد ازوررنا عنك أنت نورنا، وقد كنّا، في هذه الحياة، «قَدِيمًا ظُلُمَاتٍ»، ونحن نعاني من بقايا ظلامنا، ريثما نصبح «عَدْلَكَ» في شخص ابنك الوحيد «كَجِبَالِ الإلاَه»: لأننا كنّا «أَحْكَامَ عقابكَ»، شبيهين «بالهَاوِيَةِ العَمِيقَةِ».

III.4. أمّا ما قلته في أوقات الخلق الأولى: «لِيَكُن النُورُ، وكَانَ النُورُ!»، فأطبّقه دون أن يكون أمرا مستبعدا على الخليقة الرّوحانيّة التي كانت بعدُ وبوجه من الوجوه حياةً بما أنك كنتَ تنيرها. لكنها إن لم تحظ منك بأن تكون حياة تتلقى منك نورها، فإنّها

لم تكن كذلك - عندما أصبحت بعدُ حياة - أهلا لأن تنيرها. إذ لم تكن تروقك لعدم تشكلها، لو لم تكن نورا، لا بمجرد الوجود، بل بتأمل النور المضيء، وبالاندماج فيه، بحيث أنّ الحياة، والحياة السعيدة بالخصوص، ما كانت مدينة بهما إلّا لنعمتك، وهي متّجهة بفضل تقلّب أحسن، نحو ذلك الذي لا يعرف إلّا التقلب إلى الأحسن، ولا يعرف التقلب إلى الأسوإ. فأنت وحدك، أجلْ، وحدك الكائن البسيط الذي تستوي بالنسبة إليه الحياة والحياة السعيدة، بما أنّك أنت سعادتك ذاتُها.

5.IV. إذن، فما الذي ينقص نعمتك التي صنعتها لنفسك، وحتى لو لم توجد هذه المخلوقات، أو ظلّت لا شكل لها؟ تلك المخلوقات ما خلقتها لحاجتك إليها، بل خلقتها لاكتمال خيرك، وأعطيتها صورة مناسبة، دون أن تأخذ منها غبطتُك قدر ذرّة لتكتمل به. إذ لا يروق لك، أنت الكامل، عدم اكتمالها، لذلك فأنت تصنعها في أحسن صورة بفضلك، حتّى تروق لك؛ فليس فيك البتة ما في الكائن الناقص لتنشد الكمال من كمالهم. «فرُوحُكَ» القدس «كَانَ يُحْمَلُ فَوْقَ المِيَاهِ» ولم تكن هي التي تحمله كما لو كان يطفو عليها. فالذين يقال إنّ روحك يستريح فيهم، يجعلهم روحك[1] في الحقيقة يستريحون فيه. لكنّ إرادتك التي لا تعرف الفساد والتقلب والمكتفية بنفسها هي التي رُفعت فوق الحياة التي خلقتها، أنت الذي ليست الحياة والحياة السعيدة لديْك شيئا واحدا، إذ هي تحيا أيضا، وإن سبحت في ظلماتها! ويبقى لها أن تولّي وجهها نحو خالقها، وأن تحيا أكثر فأكثر قرب نبع «الْحَيَاةِ» وأن ترى «فِي النورِ» «نُورَهَا» وأن تجد الكمال والنور والغبطة.

6.V. ها هو الثالوث (*trinitas = la Trinité*) يظهر لي «في اللغز» الذي هو أنت، يا إلٰهي، بما أنّك أنت الأب قد خلقت «السَماءَ والأرْضَ» «في مَبْدَإٍ» حكمتنَا، وهي حكمتك المولودة منك والمساوية لك وشريكتك في أزليّتك أي في ابنك، وقد قلنا الكثير عن «سَمَاءِ السَمَاءِ» وعن «الأرْضِ اللاَمرئيَّةِ واللاَّمُنَظَّمَةِ» وعن «الهَاوِيَةِ المُظْلِمَةِ» من جهة السيول التائهة للاّتشكّل الرّوحانيّ، لو لم تولّ الوجوه نحو الذي كانت صادرة عنه كلّ حياة، حتّى تصبح الحياة بنوره مشرقة رائقة، وحتّى تكون «سَمَاءُ تِلْكَ السَماءِ التِي خُلقَتْ مِنْ بَعْدُ بَيْنَ الأرْضِ وَالْمَاءِ» (**inter aquam et aquam**)[2].

---

(1) هذا تعليق، وليس ترجمة حرفيّة، حتّى يفهم غموض الجملة اللاّتينيّة، كما لاحظنا مرارا (المترجم).

(2) التّرجمة الحرفيّة هي «بَيْنَ مَاءٍ ومَاءٍ». ولكنّنا خيّرنا تأويل «بيار دي لابريول» بالصفحة 370 من الجزء الثاني المشار إليه أعلاه (المترجم).

وكنت أمسك بعد بالأب في اسم «الإِلَاهِ» الذي خلق هذه الخلائق، وبالابن في كلمة «المبدَإ» الذي خلق فيه تلك الخَلائق، وبما أني كنت مؤمنا بثالوث إلـٰهي، كما كنت مؤمنا به، كنت أبحث عنه في وحيه المقدّس، وها أنّ «رُوحَكَ كانَ يُحْمَلُ فَوْقَ المِيَاهِ».
ها هو الثالوث، يا إلـٰهي، الأب، والابن، والرّوح القُدس، خالق الخليقة جمعاء.

VI.7. لكن ما الذي يدفعني، أيّها النور الحقّ، إلى أن أقرّب منك قلبي، مخافة أن يعلّمني الترّهات؟ قشّع عنّي ظلماته وقل لي، أتوسّل إليك باسم المحبّةِ أمِّنا،(par la charité, notre mère)[1]، أتوسّل إليك، قل لي لمَ لمْ يذكر كتابُك الروحَ القدس إلّا بعد تسمية السماء والأرض اللاّمرئيّة واللاّمنظّمة والظّلمات فوق الهاوية. ألأنّه كان ينبغي أن يشار إليه هكذا، حتّى يقال عنه «إنّهُ كان يُحْمَلَ مرفوعا»، ولأنّ هذا لا يمكن أن يقال، لو لم يذكر سابقا ذلك العنصر الذي كان يمكن أن يفهم به «أنَّ رُوحَكَ كَانَ يُحْمَلَ مرفوعا»؟ فلم يكن محمولا فوق الأب ولا فوق الابن، وما كان يصحّ أن يقال «يُحْمَلُ» لو كان قد حمل فوق لاشيء. كان ينبغي إذن أن يقال مسبّقا فوق ماذا كان قد حمل، ثمّ أن يذكر ذلك الذي ما كان ينبغي أن يذكر بصفة أخرى، إلّا بقولك «يُحْمَلُ». فلماذا إذن ما كان ينبغي أن يشار إليه بإشارة أخرى، غير قولك «كَانَ يُحْمَلَ»؟

VII.8. ومن هنا فليتّبع الآن بعقله من يقدر أن يتّبع حواريّك وهو يقول إنّ «محبّتَكَ قدِ انْتَشَرَتْ فِي قُلُوبِنَا بِوَاسِطَةِ الرُّوحِ القُدُسِ الذي قَدْ أَعْطِينَاهُ»، وهو يعلّمنا «الرُّوحانِيَّاتِ» ويبيّن لنا «الطَرِيقَ الفَائِقَةَ السُمُوِّ» للفوز بمحبّتك، جاثيا من أجلنا أمامك، كي نتعرّف على «عِلْمِ مَحَبَّةِ المَسِيحِ الفائِقِ السُمُوِّ».

ولهذا فهو الفائق في السمو، منذ البداية، كان يُحمل فوق المياه. فمن أكلّم، وكيف أتكلّم عن ثقل الشبق المؤدّي إلى الهاوية الشديدة الانحدار، وعن المحبّة الرافعة إلى السماء بواسطة روحك الذي «كان يُحْمَلَ فَوْقَ المِيَاهِ»؟ من أكلّم؟ كيف أتكلّم؟ أنرسب ونطْفو؟ ليس لنا أماكن، نرسب فيها ونطفو. ما الأشبه بهذا، وما الأكثر تباينا؟ إنّه المشاعر، إنّه العواطف، هو دنس روحنا الجارف إلى الأسفل في حبّنا للهموم، وهي قداستك الرّافعة لنا إلى الأعلى في حبّنا للأمن كي نأتيك بقلوبنا إلى الأعلى، حيث «كانَ

---

(1) «Mater caritas» أي Ecclesia mater يعني: الكنيسة أمّي، «والعبارة كما كتب «ب. دي لابريول» تعود عديد المرّات عند أوغستينوس، وهو يربطها بفكرة ولادة الأرواح،» الإحالة نفسها ص 370 الملاحظة 1.

رُوحُكَ لِيُحْمَل»، وكي نصل إلى الرّاحة الفائقة في السموّ، عندما ستكون «روحنا قد عَبَرَتِ المِيَاهَ التي بِلاَ جَوْهَر».[1]

VIII.9. لقد هوى الملاك، وهوى روح الإنسان، فكان في ذلك دليل على أنّ الهاوية التي تضم كلّ الخليقة الرّوحانيّة كانت تُظْلِم في العمق، لو لم تقل أنت من البدء: «فَلْيَكُنِ النُورا»، ولو لم يكن النور، مندمجا فيك، مطيعا كلّ فكر في مدينتك السماويّة، ومستريحا في روحك الذي يحمل لامتقبّلا فوق كلّ متقلّب، وإلّا «لَكانتْ سَمَاءُ السَماءِ»، ذاتها، هاوية مظلمة حقّا؛ «إلاّ أنّهَا الآنَ نورٌ في المَوْلَى».

إذ في الحيرة التعسة للأرواح الهاوية، والكاشفة عن ظلماتها تحت ثياب نورك، أنت تبرز بما فيه الكفاية حجم الخليقة العقلانيّة التي خلقتها والتي لا يكفيها، بأيّة صورة كانت، في طريقها إلى الغبطة والرّاحة، ما هو أقلّ منك، ولذلك فلا تكتفي هي بذاتها. إذ أنت، يا «إِلاَهَنَا»، سَتنير «ظُلُمَاتِنَا»: منك نتقبّل لباسنا، و«ظُلُمَاتُنا سوف تكون كوقْتِ الظّهيرَةِ».

هب لي نفسك، يا إلـهي، وعُد إليّ: ها أنا أحبّك، وإن كان حبي ضعيفا، فاجعله أقوى! لا أقدر أن أقيسه، كي أعرف ماذا ينقصه كي يكون كافيا وكي تندفع حياتي إلى معانقتك ولا ترتدّ عنها إلّا بعد أن تكون قد انغمرت «فِي سِرِّ مُحَيَّاك». أعلم هذا فقط، أعلمُ أنّني شقيّ، إلّا أنْ أكون معك، لا فحسب خارج نفسي بل وكذلك في نفسي بالذات، وأنّ كلّ ثروة لا تكون إلـهي هي فقر.

IX.10. لكن ألم يكن الأب والابن يُحملان فوق المياه؟

لو قيل هذا، كما يقال عن جسم في الفضاء، لما انطبق على الرّوح القدس، أمّا لو قيل، عن سموّ الألوهيّة، اللاّمتقلّبة فوق كل متقلّب، لكان الأب والابن والرّوح القدس «يحمَلون فَوْقَ الْمِيَاهِ».

إذن، لماذا وقع القول على روحك وحده؟ لماذا وقع القول عليه بمثابة المكان الذي قد يكون فيه، هو الذي ليس بالمكان؟ لماذا وقع عليه وحده، القول بأنّه «هِبَتُكَ»؟ وفي هبتك نستريح، وفيها نتمتّع بك: فراحتُنا هي «مَكَانُنَا».

الحبّ يرفعنا إلى هناك، وروحك الطيّب «يُرَقِّي تَوَاضُعَنَا»، بعيدا عن «أَبْوَابِ المَوْتِ». إذ «فِي الإِرَادَةِ المُسْتَقِيمَةِ يَكْمُنُ السِلْمُ». الجسم ينحو بثقله إلى مكانه

---

(1) sine substantia... =... بلا جوهر. نقرأ في صفحة 371 الملاحظة 1 ما يلي: «تتحدّث الترجمة السبعينية اليونانية Le grec des Septante عن مياه عنيفة عاتية». الاعترافات، الكتاب الثالث عشر.

الخاصّ، لكنّ الثقل لا ينحو فقط إلى الأسفل، بل إلى مكانه الخاصّ. والنار تنزع إلى أعلى، والحجارة إلى أسفل، إذ يقاد كلٌّ بثقله، ولكنهما تتّجهان إلى مكانيهما الخاصّين. والزّيت المراقُ في الماء يطفو على السطح، أمّا الماء المراق في الزّيت فيرسب تحته: إذ يقاد كلٌّ بثقله، ويستقر كل في مكانه الخاص به. والأشياء التي ليست في مكانها تتحرّك: فإذا ظفرت به سكنت. ثقلي هو حبّي، وهو يحملني حيثما يحملني. بهبتك نتّقد ونُحْمَلُ إلى أعلى نضطرم ونمشي. نرتقي «عَبْرَ دَرَجَاتِ القَلْب» وننشد «تَرْتِيلَ الدَرَجاَت»[1]. بنارِك، بنارك الطيّبة نضطرم ونسير إلى الأعلى، «إلى سَلاَم القُدْسِ» (Hierusalem = Jérusalem)، حيث أنّي «سَعِيدٌ بِسَمَاعِ أُولَئِكَ الذِينَ قَالُواَ لِي: سَوْفَ نَسيرُ إلِى منْزِلِ المولَى». بها سوف تركّزنا الإرادة الطيّبة، بحيث لن نريد سوى أن نبقى «هُنَاكَ إلى لأبَدِ».

11.X. ما أسعد الخليقة التي لم تعرف غير هذه الحالة، كانت ستكون على غير ما هي عليه، لو لم ترفعها، لحظة خلقها، هبتُك التي توجد فوق كلّ الأشياء المتقلّبة بالنداء التالي: «فَلْيَكُنِ النُورُ!» (fiat lux = que la lumière soit)، وهذا النداء بعث النور![2] فنحن نميز الوقت الذي كنّا فيه «ظلماتٍ»، عن الذي أصبحنا فيه «نُورًا»: أمّا عن تلك الخليقة فقد قيل، لعمري، إنّها ما كانت لتكون لو لم تقتبس النور، وقيل كذلك إنّها كانت من قبلُ هشّة مظلمة، حتّى يظهر السبب الذي من أجله كانت مختلفة عن ذلك، أي أن تتجّه نحو النور السرمديّ وتكون هي ذاتها نورا. من يقدر على ذلك فليفهمه، وليطلبه منك! ولمن يضجرني بالسؤال، أقول: هل أنا مؤهّل لتنوير «كُلِّ إنْسَانٍ آتٍ إلى هذِه الدُنْيَا؟»

12.XI. من يفهم الثالوث القدير؟ ومن لا يتكلّم عنه، إن كان حقّا يتكلّم عنه؟ نادرة هي الرّوح التي تتكلّم عنه وتعرف عمّا تتكلّم. ويتنارعون، ويتخاصمون، ولكن لا أحد، دون راحة داخليّة، يرى تلك الرّؤية.

كم أودّ أن يتأمل الناس في قرارة أنفسهم، هذه الأشياء الثلاثة: فثلاثتها مخالفة جدّا لذلك الثالوث، لكنّي أذكره، كي يختبروا أنفسهم ويجرّبوا، ويعُوا كم هم بعيدون عن حقيقته!

---

(1) canticum graduum... = .. ترتيل الدرجات. الاعترافات، الكتاب الثالث عشر، édition des Belles Lettres, tome II, page 373, note n°1: «تُبْسَط في نشيد الـ des degrés أو des montées سلسلة من المزامير القصيرة (من 119 إلى 133 من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس)....

(2) اتبعنا هنا ترجمة "ب. دي لابريول" لهذه العبارة «et fieret lux» والتي هي «الذي خلق النور!» *Loc. cit.* p. 373.

أقول من ناحية أخرى إنّ تلك الثلاثة هي: الكيان والمعرفة والإرادة، فأنا أكون، وأعرف وأريد: أنا عارف، ومريد، وأعرف أنّي أكون، وأريد، وأريد أن أكون وأن أعرف.

إذن في هذه الثلاثة، كم تكون الحياة غير منفصلة عن الحياة الواحدة، وعن العقل الواحد، وعن الجوهر الواحد، دون أن يمكن التمييز بينها ممكنا، وهو مع ذلك حقّ، فلينتبه إلى ذلك من يقدر! فكلّ إنسان، لعمري، هو أمام نفسه، فليتأمّل في ذاته، ولينظر، وليجبني.

لكن، لو وَجد بعضهم بينها وجه شبه، ولو عبّر عنه، فلا يظنَّنَ أنّه قد بلغ بعد الحقيقة الثابتة التي تهيمن على هذه الأشياء والتي توجد ثابتة والتي تكون بلا تقلّب وتَعرف بلا تقلّب وتُريد بلا تقلّب (**inconmutabiliter = immuablement**). وهل يكون الإلـه بسبب هذه الثلاثة عناصر هو الثالوث (*Trinitas = la Trinité*)، أم هل يكون، في كلّ واحد منه ثلاثتُها، بحيث يوجد الثلاثة في كلّ عنصر على حدة، أم هل أنّ كلتا الحالتين عبارة عن البساطة العجيبة في التعدّد، أو الثالوث الذي هو غاية ذاته اللاّنهائيّة، إذ هو يكون بسببها ويتعرّف عليها ويكتفي بها دون أيّ تقلّب، في وحدة جوهره الثري العظيم؟ من يتصوّر ذاك بسهولة؟ ومن يعرب عنه بأيّة صورة؟ ومن يجازف بتسميته بأيّ اسم كان؟

13.XII. تقدّمي في الاعتراف، يا عقيدتي وقولي للمولى إلـهي: يا مقدّس، يا مقدّس، يا مقدّس، يا مولاي، يا إلـهي، «باسْمِكَ قَدِ تَنَصَّرْنَا»، أيها الأب والابن والرّوح القدس، وباسمك «نُنصِّرُ»، أيّها الأب والإبن والرّوح القدس، لأنّ «الإلاَهَ قدْ خَلَقَ» بيننا في مسيحه «السَمَاءَ والأَرْضَ» الرّوحانيّتين والجسمانيّتين في كنيسته، وأرضنا، أن تتقبّل صورة المذهب، «كانتْ لامَرْئِيّةً ولاَمُنَظَّمَةً»، وكنا مغطّين بظلمات الجهل، لأنّك «عَاقَبْتَ الإِنْسَانَ بِسَبَبِ جَوْرِهِ»، و«أحْكَامُكَ هِي كالْهَاوِيَةِ الْعَمِيقَةِ».

لكن، لما «كان رُوحُكَ يُحْمَلُ فَوْقَ المِيَاهِ»، فشفقتك ما تخلّت عن تعاستنا، وقلتَ: «فَلْيَكُنِ النُورُ!» و«كَفِّرُوا عن ذُنُوبِكُمْ، ولِيَكُنِ النُورُ!» وبما أنّ روحنا «كَانَتْ مُضطَرِبَةً» في أحشائنا، فقد تذكّرناك، يا مولاي، «بالقُرْبِ من الأُرْدُنِ، على الجبلِ المُسَاوِي لَعلوّك» والذي انبسط مع ذلك، من أجلنا، ولم ترق لنا ظلماتنا، فأدرنا وجوهنا نحوك، و«كانَ النُورُ!»، وها قد كنّا «يَوْمًا ظُلُمَاتٍ، أمَّا الآنَ، فنحْنُ نورٌ في المَوْلَى.»

14.XIII. ومع ذلك، فلسنا بعد نورا إلّا «بالعَقِيدة» «لا بالرُّؤْيَةِ»، «فَقَدْ كُنَّا بالأَمَلِ حقَّقْنَا النَجاةَ. أمَّا الأمَلُ الذي تراهُ، فَلَيْسَ بالأَمَلِ.» لا تزال «هاوِيَةٌ تُنادِي هَاوِيَةً»، لكن

بعد «فِي صوتِ شلاّلاتِكَ». ولا يزال أيضا ذلك الذي يقول: «لَمْ أقْدِر أنْ أُكلِّمَكُمْ، كروحَانِيينَ، بل كجسْمَانيينَ» يعتقد هو بذاته أنّه لم يبلغ الغاية بعد، و«هُو النّاسي لِمَا ورَاءَهُ »، يتوق «إلى مَاهو أمَامَهُ»، ويتحسّر «مُثْقَلاً»، و«النَفْسُ مِنْهُ ظمآى إلى الإِلاَهِ الحيّ كالأيْلِ إلى منَابعِ المِيَاهِ»، ويقول: «متَى سَأَصِلُ إليها؟»، «إلى مَنْزِلِه الذي هُوَ في السَمَاءِ»، حيث يرغَب أن يتخبّأ، وينادي الهاوية الدنيا قائلا: «لاَ تَتَشَكَّلُوا حَسبَ النَمَطِ الدُنيويّ، بل تشكّلوا من جَدِيدٍ حسَبَ نَمَطٍ جديدٍ لعقْلَيّتِكُم»، و«لا تَكونُوا صِبْيَانًا بعُقولكُم، بَلْ كُونُوا أَطْفَالاً مِنْ جِهَةِ المَكْرِ، حتّى تكُونُوا كاملينَ بِعُقُولِكُمْ»... «يا سُكّانَ قالاتيَا (Galatae = Galates) المَجْنُونِينَ، مَنْ خَلَبَ لُبَّكُمْ؟» لكن لم يعد يتكلّم بصوته، بل بصوتك، أنت الذي أرسلت روحك من عليائك، عبر الذي «صعِدَ إلى السماءِ» وفتح «شَلاّلاَتِ» هباته كي يغمر «نهرٌ من الاندِفاع مدِينَتَكَ.»

فإلى هذه يحنّ «صديقُ الزّوْجِ، وهو مالكٌ بعدُ لبواكيرِ الرُّوح» في قلبه، لكنّه لا يزال متحسّرا في ذات نفسه، مُترقّبًا، «التَبنّيَ» و«خَلاَصَ جِسْمِهِ». إليها يحنّ لأنه عضو «بالزوجة» أي الكنيسة[1]، ولأنه «صديق الزّوجِ لها يتحمّس لا لنفسه»، لأنّه «بصوت شلاّلاتك»،لا بصوته الخاصّ، «ينادِي الهَاويةَ» الأخرى التي يتحمّس لها، خاشيا، «أنّه كما خَدَعَت الحيَّةُ حوَّاء بمكْرِهَا، كَذَلكَ يَفْسُدُ فكرُ الضعفاء، مُتَخَلّيًا عن العِفَّةِ التي توجَدُ» عند زوجنا، ابنك الوحيد. لكن يا له من رونق في ذلك النور، «عندمَا سَوْفَ نَراهُ، كمَا هُوَ، وسَتَكُونُ قدْ مرَّتِ الدموعُ التي أصْبَحَتْ رغيفي لَيْلَ نَهَار، وهُمْ يَقُولُون لي يوْمِيًّا: أين يَكُونُ إلاَهُكَ؟»[2]

15.XIV. وأقول أنا: أين تكون، يا إلـهي؟ أين تكون إذن؟ أتنفّس فيك «قَليلا»، عندما أتنفّس «الصُعَدَاءَ فوْقَ رُوحي، في صَوْتِ التَهْليل والاعتراف، صوْتِ الاحْتِفاءِ والابتِهاجِ». لكن لا تزال حزينة، لأنّها تنتكس، وتصبح هاوية، أو قل إنّها تعي بكونها لا تزال هاوية. تقول لها عقيدتي التي أضرمتها باللّيل أمام خطواتي: «لِمَ أَنْتِ حَزينةٌ، يا رُوحي، ولِمَ تُكَدّرينني؟ ليكُنْ أمَلُكِ في المولَى، فمِصْبَاحُ خطواتكِ هُوَ كلمَتُهُ!» ليكن أملك فيه ولتثابري، ريثما تمرّ اللّيلة أم الجائرين، وريثما يمرّ غضب المولى الذي كنّا

(1) تعتبر الكنيسة في اللاّهوت الكاثوليكيّ زوجة المسيح، وهذا يسمّى زوجها على المجاز بالطبع (المترجم).

(2)...ubi est deus tuus? = .. أين إلـهك؟ المرجع نفسه ص 377، الملاحظة 1...: «هذا الفصل، شأنه شأن الفصل السابق يمثّل تضمينا حقيقيًا لنصوص من الكتاب المقدس. وتعدّ وفرة الشواهد من الكتاب المقدس خاصّية من خصائص الأدب المسيحيّ في القرون الأولى...».

أبناءه يوما، ونحن ظلمات، ونجرّ بقاياها في الجسم الميّت «بِسبب الخطيئةِ»، «ورَيْثَمَا تهُبّ الرّياحُ، وتتَقَشَّعُ الظُّلُماتُ. ليكُنْ أَمَلُكَ في المؤلَى: سوف أستيقظ صباحًا»، وسوف أشاهده، «سوْفَ أُقرُّ دومًا إليه. سوفَ أسْتيقِظُ، وسوفَ أرى نجاةَ مُحيَّايَ»، يا إلـهي «الذي سوفَ يحيِي أيضًا أجْسَامَنَا الميّتَةَ، بِسَبَبِ الرُّوح التي تسكُنُ فينا»، لأنّه كان «يحمل» حياتنا الخفية بالشفقة فوق السيل المظلم الجارف. من ثمّ فنحن في السفَر الدنيوي تقبّلنا «الضَّمَان» في أننا سنكون من بعدُ «نورًا»، ما دمنا «قد أصْبَحْنَا الآنَ ناجينَ بالأمَلِ، وأصبحنا أبْناءَ النور والنَهارِ، بعد أن كنا أبْناءَ اللَّيلِ والظُّلُمَاتِ».

وبين هؤلاء وأولئك، وفي هذه المعرفة الإنسانية التي لا تزال غير ثابتة، أنت وحدك تفرّق، وأنت تختبر «قُلُوبَنَا»، وتسمّي «النور نهارًا والظُّلماتِ ليْلاً»،«فمَنْ يَميزنا خلاكَ؟ أو ما نمْلك، لم نكُنْ «تقبّلْناه» منك، نَحن أوعية «الشرف»، ومن نفس الكتلة التي منها خلق الآخرون، وهم أوعية «الخِزْيِ»؟

16.XV. من سواك، يا إلـهنا، قد بسط فوقنا «قُبّةً زَرْقَاءَ» من الجاه في كتابك الإلـهيّ؟ «فالسماء سوف تطوى كالكتاب»، والآن تمتدّ، كالجلد، فوقنا. إذ إنّ السلطان أسمى في كتابك الإلـهيّ، بعد أن قضى بنو الفناء نحبهم، أولئك الذين بواسطتهم علّمتنا إيّاه. وأنتَ تعلم، يا مولاي، أنت تعلم، كيف كسوت الناس جلودا، بعد أن أصبحوا بالخطيئة فانين. من ثمّ بسطت «بمثابةِ الجِلْدِ»،قبّة (**firmamentum = le firmament**) كتابك،وهو وحيك المنسجم الذي نصبته فوق رؤوسنا بكهنوت (**ministerium = le ministère**) بني الفناء. إذ بموتهم ذاته، يمتدّ في العلوّ هيكل سلطاتك الذي نشروه على كلّ ما يوجد من تحت، كما لم يكن لمّا كانوا أحياء قد امتدّ في العلوّ. إذ لم تكن بعد قد بسطت «السَماءَ كالجلْدِ»، ولم تكن قد نشرت بعد شهرة موتهم، في كل مكان.

17. فلنر، مولاي، «السَماواتِ، وهي أعمالُ أصابعك»: وقشّعْ عن أعيننا السحاب الذي غطّيتها به من تحت. في ذلك آيتك ودليلك يا «مُعْطِيَ الحِكْمَةِ للصّغَارِ.» أكمل يا إلـهي «مجْدَكَ في فَم الأطْفَالِ والرُّضّعِ». إذ لا نعرف كتبا أخرى تدمّر التكبّر مثل هذا التدمير، وتدمّر «العَدُوَّ والمُحَامِيَ» المعارضيْن لمصالحتك، المدافعيْن خصوصا عن ذنوبهما. لا أعرف، يا مولاي، لا أعرف وحيا آخر بنفس العفّة يقنعني بهذا الاعتراف، ويجعلني أطأطئ عنقي إلى نيرك، ويدعوني إلى خدمتك مجانا. فلأفهمْه، يا أبي الطيّب، وهب لي من هذا الفضل في خضوعي، إذ أنت ثبّتّه للخاضعين.

18. هناك فوق تلك «القُبّةِ الزّرقاءِ»، «مِياهٌ» أخرى أظنّها غير فانية، ومصونة من

فساد الأرض. فلتَمدح «اسْمَك»، لتمدحك الأفواج فوق السماوية لملائكتك التي لا تحتاج لتأمّل تلك القبّة وحفظ كلمتك بالقراءة؛ إذ «ترى مُحيَّاكَ دومًا» وتقرأ فيه، دون تعاقب زمنيّ للمقاطع، ما تريده إرادة الأبديّة. يقرؤون ويختارون ويحبّون، يقرؤون دائما، ولا ينقضي ما يقرؤون. إذ بالإختيار والمحبّة، يقرؤون عدم تقلّب تصميمك ذاته. لا يُغْلَقُ سِفرهم، ولا يُلفُّ كتابهم، لأنّك أنت بالذات ذلك الكتاب الذي جعل لهم، وأنت كذلك «إلى الأبدِ»، لأنّك قد نصّبتهم فوق القبّة الزّرقاء، تلك التي ثبّتّها فوق ضعف الشعوب السفلية، كي ينظروا إلى أعلى ويتعرّفوا على شفقتك المبشّرة زمنيا بك، أنت الذي قد خلقت الأزمنة. إذ «في السَماءِ، مولايَ، شفقتُك، وحقُّك حتّى السُحُبِ». تمرّ السحب، أمّا السماء فتبقى. ويمرّ المبشّرون بكلمتك، من هذه الحياة إلى حياة أخرى، أمّا كلمتك فتمتدّ حتّى نهاية القرون فوق الشعوب. لكنّ «السماءَ والأرْضَ سوفَ تمرّان»، «أمّا كلامُكَ فَلَنْ يَمُرَّ»، لأنّ الجلد سوف يلفّ، و«العُشْبَ» الذي كان يمتدّ فوقه سوف يمرّ مع نضارَته، «أمّا كلِمَتُكَ فَتَبْقَى إلى الأَبَدِ»، فهي تبدو لنا الآن، «في لغزٍ» السحب وعبر «مِرْآةٍ» السماء، لا كما هي، لأنّنا – وإن كان ابنك يغمرنا بحبه – «إلّا أنّنا لمْ نتبيّن بعدُ ما سوْفَ نكونُ». نظر إلينا عبر حجابِ اللّحم، ولامسنا، واستضرمنا، و«نغْدو وَراء عبق رَائِحَتِهِ». لكن «عِندمَا سيظهَرَ، سنكُونُ شبيهين به، بما أنّنا سنَرَاهُ، كما هُوَ»: أن نراه كما هو، مولاي، ذاك حظّنا الذي لا نزال منه محْرومين.

19.XVI. وكما أنّك أنت الكائن المطلق، فأنت أيضا العالِم الوحيد، أنت الكائن بلا تقلّب، والعالِم بلا تقلّب، والمريد بلا تقلّب. كيانك يعلم ويريد، بلا تقلّب، وعلمك يكون، ويريد بلا تقلّب، وإرادتك تكون وتريد، بلا تقلّب. وليس من العدل، في نظرك، أن يَعرف النورَ اللامتقلبَ المخلوقُ المتقلبُ بنفس الدرجة التي يعرف بها نفسه. ولذلك «فروحي شبيهةٌ أمامَك بأرضٍ دونِ ماءٍ»، لأنّها،كما أنّها لا تقدر أن تنير نفسها بنفسها، كذلك لا تقدر أن تشفي غليلَها بنفسها. فلذا «لدَيْكَ نبْعُ الحيَاةِ، كَما في نورِكَ سوْفَ نرى النُورَ.»

20.XVII. من جمّع مياه المرارة(1) في كليّة واحدة؟ لها جميعا نفس الغاية: سعادة دنيويّة وعلى الأرض من أجلها تفعل كلّ أفعالها، وإن تموّجت بما لا يحصى

(1)... amaricantes (= مياه المرارة). *loc. cit* ص 380، الملاحظة 1، حيث نقرأ ما يلي: «بنى أوغستينوس هذه الصورة المجازية في كتابه Enarratio «الشرح» على المزمور 64. 6. § 9 حيث نجد: «البحر هنا هو صورة هذا العالم بحرافة مرارته وعتاوة عواصفه حيث أصبح البشر، لانسياقهم لشهواتهم الضالّة كالحيتان يلتهم بعضهم بعضا...».

من المشاغل المختلفة. من، يا مولاي، سواك الذي أمر المياه أن تتجمع «في تجمّع واحدٍ»؟ ومن أمر الأرض الجافة أن تظهر ظمأى لك؟ «والبحْرُ لك»، وأنت من قد خلقته، و«الأرْضُ القَاحِلَةُ يداك شكّلتاها»، إذ ليستْ مرارة الإرادات التي تسمّى بحرا، بل تجمّع المياه، فأنت الذي تمنع شهوات النفوس السيّئة، وتعيّن للمياه الحدود التي يسمح لها أن تصل إليها، كي تتحطّم أمواجها بعضها على بعض، وهكذا تنظم البحر طبق نظام إمبراطوريّتك الممتدّة على الكلّ.

21. أمّا الأرواح الظّمأى إليك والحاضرة بين يديك، والتي فصلتها عن كل اتحاد مع البحر لغاية أخرى، فتسقيها من ماء سرّيّ عذب، كي «تعْطي الأرض ثمارها بإذن منك» أنت مولاها وإلـهها، و«تُنبِتُ» روحُنا أعمال البرّ،«كما يريده سمْتها»، تنبت محبّةَ الإنسان المعوز في الضروريات المادية، «حاملة» في ذاتها تلك البذرةَ من التعاطف، «من جهةِ الشبه به»، لأنّ شعورنا بالشقاء هو الذي يدفعنا إلى التعاطف مع الفقراء والأخذ بأيديهم، كما نحب ذلك لأنفسنا لو كنّا فقراء مثلهم. وهذا الماعون لا فقط في الأشياء اليسيرة التي تشبه الأعشاب الطرية، بل وأيضا في حمايتهم ومعاضدتهم بقوّة وصلابة كصلابة الشجرة المثقلة بالثمار والخيرات، وهو عمل صالح يُنْتَزَعُ به ذلك الذي يعاني القهر، من يد الجبابرة، ليتفيأ الظلال التي تحميه في قوّة العدالة العادلة الصلبة.

22.XVIII. لذا، مولاي، لذا، أتوسّل إليك أن ينشأ - كما تفعله، وكما تعطي الاستبشار والقدرة – أن ينشأ «من الأرض الحقُّ»، وأن تدير «العدالةُ» نظرها إلينا «منَ السّماءِ»، و«أنْ تَكُونَ في القُبَّةِ الزّرقاءِ الأنوارُ!» فلنقـتسم «خُبْزَنَا معَ الجائِعِ»، ولندخل المعوز الذي لا بيت له «إلى دارِنَا»، ولنكسُ «العاريَ» ولا نحتقر «المُواطنينَ ذوي أصلِنَا!»

فانظر إلى الثمار الناشئة في الأرض كم هي طيّبة، «ولْيَتفجّرْ في أوانه» نورنا، ومن حصيد العمل الدنيويّ هذا فلنلتذّ بمشاهدة كلمة الحياة، بالسماح لنا بالارتقاء إليك، حتّى نظهر «كالأنوارِ في الكَوْنِ»، مندمجين «في قُبّة» كتابك.

هنا تبيّن لنا تعاليمك كيف نفرّق بين المعقولات والمحسوسات، وبين النهار واللّيل، أو بين الأرواح المقبلة على المعقولات من جهة والأخرى المقبلة على المحسوسات، وعلى هذا النحو لن تكون وحدك، في سرّية تمييزك، كما هو الشأن قبل خلق القبّة، قادرا

على التمييز بين النور والظّلمات، بل حتّى يكون روحانيّوك أيضا، المنصّبون حسب رتبهم في نفس القبّة - بعد تجلّي نعمتك عبر الكون - مُنيرين فوق الأرْض، «يفصلون اليومَ عن النّهارِ، ويُرْشِدُون إلى الأزمنَةِ». ذلك أنّ «الأشياء القديمة قد مرَّت، وها هي الجديدةُ قد خلقَتْ»؛ إنّ نجاتنا أقرب «ممّا كنّا ظننّا»، و«الليلُ قدْ تَقدَّمَ أمّا النهارُ فقد اقْتَرَبَ»، و«أنّكَ تُباركُ السّنة بتاجكَ» مرسلا «العمّال إلى حصيدك» الذي «قد عمل آخرونَ» لبذره، مرسلا أيضا غيرهم لبذر آخر، يكون حصاده في نهاية الكون!

وهكذا تستجيب لرغبات العادل وتبارك أعوامه، «أمّا أنت فدومًا بذاتك» وفي أعوامك «التي لا تَمُرُّ»، كالأنبار التي تعدّه للأعوام التي تمضي.

23. وبتصميمك لعمري الأبديّ، وفي الأزمنة المناسبة، تمنح الخيرات السماويّة للأرض، «فهؤلاء يعطيهم الرّوحُ كلامَ الحكمةِ، كالمنارة الكبرى»، من أجل الذين يروقهم نور الحقّ الساطع، كنور مطلع الفجر، وهؤلاء «يعطيهم بواسطة نفس الرُّوح، كَلاَمَ العلْم، كالمنارة الصغيرة، أمّا الآخرون فيعطيهم العقيدَةَ أو موْهِبَةَ العلاجِ، أو موهِبَةَ المعجزاتِ أو النُبوّةَ أو تمييزَ العُقولِ أو موهبة اللُّغاتِ». وجميع هذه المواهب هي كالنجوم «إذ تعمَلُ فيها كلّهَا نفسُ الرّوحِ الواحدة، موزّعةً هداياها على كل واحِدٍ، كما تشاءُ»، وجاعِلةً النجوم تظهر «ساطعةً صالحَةً».

أمّا «كلام العلم» الذي يحتوي جميع الأسرار التي تتوزع حسب الأزمنة، كما القمر، وكلّ المعارف المهداة الباقية التي كنت قد شبهتها بالنجوم، فتختلف عن بهاء نور الحكمة الذي يشبه فرح اليوم المبتدئ، اختلافا، تكون به في المبدإ بمثابة الليل. إذ هي ضروريّة لأولئك الذين إليهم ذلك الخادم لك الحكيم للغاية «لمْ يقْدرْ أنْ يتكلّمَ، كما يكلم الروحانيّن، بلْ كما يكلم الجسْمانيين، هو الذي لا يقول «الحكمةَ إلّا وسطَ المكتمليِنَ».

«أمّا الإنسانُ الجسمانيُّ» الذي هو «كالصبِيّ في المسيح»، والرّضيع الذي يتغذى باللبن ويترقّب أن يشتدّ عوده، لتناول غذاء صلب، أو ينتظر أن يقوّي بصره لمواجهة الشمس، حتّى لا يشعر بالوحشة في الليل ويكتفي بنور القمر والنجوم.

هذه هي الحجج التي تقدمها لنا بمنتهى الحكمة، يا إلـهنا، في كتابك الذي هو قبّتك الزّرقاء، كي نُميّز الكلّ في تأمّل رائع، وإن كان لا يزال محدودا بالدلائل والأزمنة والأيّام والأعوام.

XIX.24. لكن «استحمُّوا أوّلا، وتطهّرواَ، أزيحُوا الجورَ عن نفُوسكُمْ، وعن مرأى

عيْنَيَّ»، حتّى تظهر «الأرضُ القاحلة»، تعلّموا فعل الخير، انصروا اليتيم، ودافعوا عنِ الأرْملَةِ لتنبت الأرض كلأ مغذّيا وشجرا مثمرا. «هلمّوا أقبلوا، ولْنتناقَشْ، كما يقولُ المولى، حتَى تكونَ الأنوارُ في قبَّةِ السماءِ، وحتّى تُنيرَ ما فوْقَ الأرْضِ».

كان ذلك الغنيّ يسأل المعلّم الطيّب ما ينبغي أن يفعله، كي يحصل على «الحياة الأزليّة». وكان المعلّم الطيّب الذي كان الغنيّ يظنّه إنسانا لا غير - إلّا أنه لم يكن «طيّبا إلّا لأنّه إلـهٌ» - كان يسأله «هل يريد أن يسيرَ نحو الحياةِ»، فإذا كان ذلك فليعمل «بالوصايا» وليبعد عن نفسه مرارة الأذى والجور ولا يقتلنّ ولا يزنينّ ولا يسرقنّ ولا يشهدنّ بالباطل، حتّى تظهر «الأرضُ القالحةُ، وتنبت طاعة الأمّ والأب وحبّ الأخ الإنسان. يقول الغنيّ: «قد فعَلْتُ كلَّ هذه الوصاياَ»، فمن أين إذن كلّ هذه الأشواك، إن كانت الأرض مثمرة؟ اذهب، اقتلع أدغال البخل الكثيفة، «بع ما تملكُهُ» ووفّر لنفسك الثمار، بالعطاء «للفقراء، وسوفَ يكونُ لكَ كنزٌ في السّماواتِ واتّبع المولى، إنْ أرَدْتَ أن تكونَ كاملاً»، صاحبْ أولئك الذين يقول لهم ذلك الذي يعلم ما ينبغي أن يوزّع على النهار واللّيل «كلامَ الحكمة». وستعرفهم أيضا، «وستتكوّن لك أيضًا الأنوارُ في قُبّةِ السّماءِ». وهو شيء مستحيل إن لم يكن «قلبك» هناك: وهو أمر مستحيل أيضا، إن لم يكن «كنزُكَ» هناك. تلك كانت كلمات المعلّم الطيّب. لكنّ «الحزنَ قدْ عمَّ الأرض القاحلةَ، والأشواك ضيّقت النفسَ على الكلمة».

25. أمّا أنت، «أيّها العُنْصُرُ المختارُ»، «أيا ضعفاءَ الكَوْنِ»، أنتم الذين أعرضتم عن الكلّ، لتتبعوا المولى، فسيروا وراءه، وأفحموا «الأقوياء»، سيروا وراءه، «بأرجُلِكُمْ الباهرة»، واسطعوا «في القبّة الزّرقاء»، كي «تَقُصَّ السّماواتُ مجدَهُ»، مفرّقة بين «نور» الكاملين الذين لا يزالون غير شبيهين بالملائكة، و«ظلماتِ» الصبيانِ الذين ليسوا يائسين: «اسْطعُوا» فوق كلّ الأرض، وليقلِ اليومُ الوضّاء بالشمس لليوم كلِمَةَ الحكمة، وليُعلِنِ اللّيْلُ اللاّمع بالقمر، للّيل كلمةَ العِلم! القمر والنجوم يلمعان للّيل، لكنّ اللّيل لا يحيطهما بظلامه، لأنّهما يضيئانه بمقدار معيّن. فها كما لو كان الإلـه يقول: «فلتكن الأنوار في قُبّة السماء، فجْأةً كان صوتٌ آتيا من السماء، كما لو هبّت ريح عنيفة» وظهرت ألسِنَةٌ منقسِمَةٌ كأنّها نار «استقرَّتْ فَوْقَ كلّ واحدٍ منهاَ» ووُجدتْ «الأنوارُ في قُبّةِ السّماءِ» وبها كلمة «الحياةِ». فلتجرين في كلّ مكان، أيّتها النيران المقدّسة الفتّانة! فأنتن «نور الكون»، ولستنّ «خفيّاتٍ». فقد ارتفع الذي كنتم قد اندمجتم فيه ورفعكم. فلتجرين، ولتعرّفن بأنفسكنّ كلّ الشعوب!

.26.XX. وليحبل (concipiat = conçoive) البحر أيضا، وليلدْ أعمالك، «ولتلدِ

المياهُ الزاحفات ذواتِ الأرواحِ الحيّةِ». فأنتنّ المميّزات الثمين من البخس قد أصبحتنّ فم الإلـه الذي كان يقول به، «فلتلِدِ المياهُ» لا الرّوح الحيّة التي تلدها الأرض، بل «الزّاحفاتِ ذواتِ الأرواحِ الحيّةِ والطيورَ الطائرَةَ فوق الأرضِ». فقد زحفت أسرارك، يا إلـهي، بواسطة أعمال قدّيسيك، وسط أمواج نزغات الدنيا، كي تغمر الشعوب بمياه التعميد المعطى باسمك.

ومن بين هذه الأشياء، هناك معجزات «جسيمةٌ» وقعت، شبيهة بالأغوال البحريّة وأصوات مبشريك المتطايرة فوق الأرض، قريبا من قبّة كتابك، المؤهّل لتكون سلطته موجّهة لتطير حيث كانت ستسير. إذ ليست «بلغةٍ ولا خطاباتٍ لا تسمع نبراتها» لأنّ «دويّها سرى في الأرض كلّها، وكلماتها إلى أقاصي الكرةِ الأرضيّةِ»، بما أنك، يا مولاي، بمباركتك «قدْ كثّرتها».

27. فهل أنا كاذب،أو أتخبّط عشوائيا، ولا أميّز بين المعارف النيّرة في تلك الأشياء الموجودة بقبّة السماء، والعمليات الجسمانيّة الموجودة في البحر الهائج وتحت قبّة السماء؟ فمعلومات تلك الأشياء ثابتة محدّدة، بلا ازدياد عبر الأجيال، مثل أنوار الحكمة والعلم. ولنفس الأشياء عمليّات جسمانيّة عديدة مختلفة، وبالنموّ شيئا فشيئا تتكاثر، بمباركتك، يا إلـهي، أنت الذي سلّيت بني الفناء من اشمئزاز حواسّهم، حتّى تكون معرفة الرّوح للحقّ الأوحد تتصوّر، بألف صورة وبحركات الجسم، ويعرب عنها.

«ذاكَ ما قد وَلدتِ المياهُ»، لكن في كلمتك: فضرورات الشعوب المنسلخة عن أزليّة حقّك هي التي قد ولدته، لكن في إنجيلك، بما أنّ المياه ذاتها قد وضعته، تلك التي كان فتورها المرّ السبب في وضعها إيّاه.

28. كل شيء جميل عندما تكون خالقه، وها أنت بلامنازع أجمل، أنت الذي قد خلقته! فلو لم يذنب آدم، لما انتشر من سلالته، ذات المرارة البحريّة، الجنس البشريّ ذو الفضول اللاّنهائيّ والكبرياء العصوف والسيل المتقلّب، ولما كان معلّمو كلامك في حاجة ليترجموا، جسمانيّا وحسيّا، أفعالك وأقوالك الرّوحانيّة.

إذ هكذا كان عندي تأويل «الزاحفات» و«الطُيور». لكنّ الناس المتضلّعين والملقّنين، بسبب خضوعهم للأسرار الجسمانية، ما كانوا ليسيروا إلى أبعد منها لو لم تنتعش نفوسهم روحانيّا، وهي ترتقي إلى درجة أعلى، ولو لم تكن، بعد كلمة البداية، لتتوق إلى الكمال.

XXI.29. ولهذا، ففي كلمتك، ليست أعماق البحر، بل الأرض المفروقة من مرارة المياه تلد لا زاحفات ذات نفوس حيّة، وطيورا، بل «الرّوحَ الحيَّةَ».

فهذه لم تعد في حاجة إلى التعميد الضروريّ للوثنيّين، كما كانت في حاجة إليه، عندما كانت مغطّاة بالمياه: إذ لا يدخل أحد بصفة أخرى إلى «مملكةِ السَماء»، منذ أن اشترطت أن يدخل إليها هكذا! وهي لا تتطلّب معجزات جسيمة، حتى يكون لها الإيمان: فهي تؤمن، وإن لم تر «الدلائلَ والمعجزاتِ»، بما أنّها بعد الأرض المؤمنة المفصولة عن المياه المرّة للبحر غير المؤمن، و«الألسِنَةُ فيهَا دلِيلٌ لا للمؤمنين، بلْ لغيْرِ المُؤمنينَ». إذن فالأرض ليست في حاجة لجنس الطُيور التي ولدَتْهَا المياه، استجابة لكلمتك، تلك الأرض التي «ركّزتها فوقَ المِياهِ». أرسل إليها كلمتك بواسطة رسلك. فنحن نقصّ أعمالهم، لكن أنت الذي تعمل فيهم، حتّى يكون عملهم «الرُّوحَ الحيَّةَ».

الأرض «تلدها»، لأنّ الأرض هي السبب في العملية التي تخلق تلك الروح عليها، كما أنّ البحر كان السبب في كون «الزّاحفاتِ ذاتِ الأَرْواحِ الحيَّةِ، والطيُورِ تحْتَ قبّةِ السَماءِ» كانت تعمل فيها تلك الكائنات التي لا تحتاج لَها الأرض بعد، بالرّغم من كونها تأكل **الحوت المصطاد**[1] في الأعماق، «على تلك المائدةِ التي هيَّأْتَهاَ أمامَ المؤمنين». فإن اصطيد في الأعماق، فلكي «يغَذّيَ الأرْض القاحِلَةَ»! والعصافير من سلالة البحر، ولكن مع ذلك فهي تتكاثر على الأرض. لأنه لئن كانت حملات الوعظ الأناجيليّ الأولى كانت بسبب إلحاد الناس، فإنّ ذوي الإيمان يوعظون بها ويُباركونها بكثرة يوما بعد يوم. أمّا الرّوح الحيّة فمصدرها من الأرض، لأنّه لا يفيد بعد إلّا ذوي الإيمان أن يمتنعوا منِ حبّ هذه الدنيا، حتّى تحيا روحهم لك، هي التي «كانتْ قدْ ماتتْ» حيّة «في الملاذّ»، تلك الملاذّ القاتلة، يا مولاي، إذ إنّك تمثّل الملاذّ التي تحيي للقلب الصافي.

30. فليعمل إذن خدَمُكَ في هذه الأرض، لا كما في مياه الإلحاد، بل بالوعظ والحديث القائمين على المعجزات والأسرار والأصوات الرّوحانيّة، من أجل تثبيت تأمل الجهل مصدر التعجّب بسبب الخشية التي تبعثها الدلائل الملغزة، لأنّ دخول بني آدم إلى الإيمان يكون هكذا، وهم ينسونك ما داموا يزورّون عن محيّاك، ويصبحون

(1) piscem... leuatum ...= ... الحوت... المصطاد. الاعترافات، الكتاب الثالث عشر، ص 388ـ389، الملاحظة 1: «إشارة إلى رمز السمك المألوف جدّا في الخيال المسيحيّ في القرون الأولى... واسم رمزيّ استعاري للمسيح الذي استطاع في غياهب الموت، كما في أعماق البحر أن يظلّ حيّا، أي خاليا من الذنوب».

«كالهاوية»، بل ليعملوا أيضا كما يعملون في الأرض القاحلة المنفصلة عن غياهب الهاوية، وليكونوا مثالا لذوي الإيمان، وهم يحيون أمامهم، ويحثّونهم على الاقتداء بهم.

هكذا لا ينصت المؤمنون بآذانهم فقط ليسمعوا، بل أيضا ليعملوا: «ابْحثُوا عنِ الإلـٰهِ، وسوفَ تحيَا رُوحُكُم، كيْ تلد الأرض روحًا حيّةً، لا تَمْتَـثِلُوا هذِهِ الدُنيَا»، امتنعوا عنها. لا تحيا الرّوح إلّا وهي تتجنب ما تموت بالتوق إليه. امتنعوا من وحشيّة الكبرياء العنيفة ومن شهوات الفجور المضعفة ومن مظاهر «المعْرِفَةِ» الكاذبة، وستكون السوائم أليفة والحيوانات الأهليّة مروّحة والحيّات غير ضارّة. فهي تمثل في باب الرّموز حركات النفس: لكنّ أبّهة الزّهو والتلذّذ بالشبقيّة وسمّ الفضول حركات للرّوح الميّتة التي لا تموت لفقد كلّ حركة، بل تموت وهي مبتعدة عن نبع الحياة، فتحتضنها الحياة الدنيا، وتمتثل الرّوح لها.

31. أمّا كلمتك، يا إلـٰهي، فهي «منْبَعُ الحياةِ الأبديَّةِ»، وهي «لاَ تَمُرُّ»: ولذا ففي كلمتك يمتنع ذلك الابتعاد، عندما يقال لنا: «لا تمتثِلوا لهذه الدنيا حتّى تلد الأرضُ» في منبع الحياة «روحًا حيّةً»، أمام كلمتك، تحتوي، بفضل إنجليّيك، روحا مقتدية بالمقتدين بمسيحك. فهذا هو معنى «منْ جهة الجنس»، إذ من شيم المحبة أن يقلد الخلّ خلّه. ويقول الحواريّ: «كونوا مثلي، لأنّي أنا أيْضًا مثْلُكُمْ».

هكذا ستكون، في «الرّوحِ الحيَّةِ»، سوائم طيّبة لطيفة المعاملة. فقد أوصيتنا قائلا: «باللطف أتمَّ أعمالكَ، فتكونَ محْبُوبًا من كلِّ إنسانٍ!» والسوائم ستكون طيّبة أيضا، «إذا أكَلَتْ» لم تعان من النّهم، و«إذا لَمَ تأكُلْ» لم تعان من الجوع، والحيّات الطيّبة لن يكون لها من السمّ ما تضرّ به، بل من الخبرة ما تحتمي به، وهي لا تستكشف الطبيعة الدنيويّة إلّا بقدر ما يكفيها لترتقي من «الكائناتِ التي خُلِقَتْ» إلى رؤية أسرار الديمومة. فهذه الحيوانات تخدم العقل، عندما تكون قد منعت مسيرتها القاتلة، لتحيا وتكون طيّبة.

32.XXII. وهكذا، يا مولانا وإلـٰهنا وخالقنا، فإنّ روحنا بعد أن تكون مشاعرنا قد حرمت من حبّ الدنيا، وهي التي كنّا نموت من جرّائها، لأنّ حياتنا سيّئة تبدأ «في الحَياةِ»، تحيا عندئذ حياة طيّبة، وتتمّ كلمتك التي قلتها لنا على لسان حواريِّك: «لا تَمْتَثِلُوا بهذِهِ الدُنيَا»، وسيتبعها أيضا ما قد أضفته في الحال، قائلا: «لكنْ أَصْلِحُوا أنْفسكمْ، مجدّدِينَ عقْلِيَّتكم» لا من «جِهَةِ الجنسِ»، أي مقلّدين السلف الطيب،

أو بالعيش على منوال إنسان أكثر اكتمالا. إذ لم تقل: «فليكُنِ الإنسانُ مِنْ حيثُ الجنسُ!»، بل قلت «فلنخْلِق الإنسان حسب صورتنا والتَشابه بنا»، حتّى نختبر ما هي إرادتك (uoluntas tua = votre volonté)[1].

ولهذا كان ذلك المعلّم لكلمتك ينجب بالإنجيل الأولاد، حتى لا يكون له دوما رضّع يغذّيهم باللبن، ويحتضنهم كالمرضع، ويقول: «أَصلِحُوا أنفُسكم، مجَدِّدِينَ عقليَّتَكُمْ، مِنْ أَجْلِ اخْتيارِ ما تَكُونُ عَلَيْهِ إرادَةُ الإلاَهِ التي هي طيِّبَةٌ، ورائقةٌ، ومُكْتَمِلَةٌ». ولذلك لا تقول: فليكن الإنسان، بل «فلنخلُقه»، ولا تقول، من جهة الجنس، بل «حسَبَ صورَتِنَا والتَشابُهِ بِنَا». فالمجدّد لعمري لعقليّته، والمشاهد والمتعقل لحقّك ليس في حاجة إلى إنسان آخر ليسيّره، حتى يقلّد جنسه، بل بتسييرك له، يخبر بنفسه «ما تكونُ عَلَيْهِ إرادتُكَ، وهي طيّبةٌ، ورائقةٌ، ومكتملةٌ»، وتعلّمه، وقد أصبح مؤهّلا، أن يرى ثالوث الأحديّة، أو أحديّة الثالوث *(trinitatem unitatis uel unitatem trinitatis = Trinité de l'Unité (ou) l'Unité de la Trinité)*.

ولذلك، بعد أن تقول، بصيغة الجمع، «فلْنَخْلقِ الإنسانَ»، تضيف، بصيغة المفرد: «وخلقَ الإلـهُ الإنسانَ»، وبصيغة الجمع «حسب صورَتِنَا»، لكن بصيغة المفرد تضيف: «حسبَ صورةِ الإلـه»، فهكذا الإنسان «يتجدّدُ من أجْلِ معرفَةِ الإلـهِ من جهة صورةِ الذي قدْ خلقَهُ، والشيءُ الرّوحانيُّ يحكُمُ على كلِّ الأشياءِ» التي لا بدّ أن يحكم عليها بالطبع، «أمّا هو فلا يحكمُ عليهِ من طرف أيّ كانَ.»

33.XXIII. أمّا أنّه «يحكُمُ على الكلّ»، فيعني أنّ له السلطان على حيتان «البحرِ» و«طيور» السماء وكلّ السوائم والوحوش والأرض كلّها والحيّات كلّها «التي تزْحفُ فوق الأرض». فيعمل به عبر الإدراك بالعقل الذي به «يُدركُ ما يتعلّق بروحِ الإلـهِ». أضف إلى ذلك أنّ «الإنسانَ لمْ يعقل الشرفَ الذي وضعَ فيه؛ فقد اقترنَ بالسوائمِ اللاّعاقِلَةِ، وقد أصْبَح شبيهًا بها».

إذن في كنيستك، يا إلـهنا، «تبعًا لنعمَتِكَ» التي أعطيته إيّاها - إذ نحن «قد خُلِقنا من قِبلك مخلوقاتٍ ضمن الأعمالِ الطيِّبَةِ» - لا يوجدُ فقطْ الذين يأمرون روحانيّا، بل أيضا أولئك الذين يأتمرون روحانيّا، بأوامر الأوّلين - فقد خلقت «الذكر والأنثى»

---

(1) *Loc. cit*. ص 390 وص 391، الملاحظة 1: بفضل هذا الشرح... تمكّن أوغستينوس من استنباط مبدإ أخلاقي ديني من سفر التكوين (I, 21): «وخلق الله العظيم الطيور المائية الكبيرة وكلّ كائن حيّ يتحرّك ويعجّ في المياه...وكلّ طائر مجنح،... ووجد أنّ ذلك جيّد».

في الإنسان، بهذه الصفة، في نعمتك الرّوحانيّة التي لا يوجد فيها - من جهة الجنس الجسمانيّ - لا ذكر ولا أنثى، كما لا وجود «ليهوديّ ولا ليونَانِيّ، ولا لعبْدٍ ولا لحرّ» - بل «الرّوحانيّونَ»، إمّا الآمرون أو المطيعون، يحكمون فيها «رُوحَانيًّا»، لا على الأفكار الرّوحانيّة التي تسطع في «القُبّةِ الزّرقاء» - إذ لا ينبغي أن يحكموا على سلطة بهذه الرّفعة - ولا على كتابك عينه، حتّى حيث يكون بعض الغموض، بما أنّنا نخضع له عقلنا، ونتأكّد من كون ما لا يزال مغلقا لأنظارنا قد قيل فيه القول الحقّ الفصل - لذا فالإنسان، وإن كان «رُوحَانِيًّا» ومُتَجَدِّدًا في معرفَةِ الإلـه، من جهة صورة الذي خلقه، «ينبغي أن يكون مع ذلك» مُطيعًا للقَانونِ، «لاَ حَاكِمًا عَلَيْهِ». ولا يحكم طبعا حكما يفرّق فيه بين الرّوحانيّين والجسمانيّين، إذ إنّك، يا إلـهنا، تعرفهم عيانا، فلم يظهروا بعد لنا بأعمالهم، حتّى «يُمكِنَنَا أن نعرِفَهم، اعتمادًا على ثِمارهم». أمّا أنت، مولاي، فتعرفهم بعد، وقد قسمتهم وسمّيتهم في الخفاء، قبل أن تكون القبّة الزّرقاء، «فالإنسان الرُّوحانيّ لا يحكم، مع ذلك، على فوضى شعوب هذه الدنيا. فَهَل له أن يحكُمَ على من هم منَ الخارج»، هو الذي يجهل من سيأتي من بينهم إلى لذّة نعمتك، ومن سيبقى في مرارة الإلحاد الأبديّة؟

34. لذا فالإنسان الذي قد خلقتَه «على صُورتِكَ»، لم يتقبّل السلطان والسيطرة على أنوار السماء، ولا على السماء السرية بذاتها، ولا على النهار والليل اللذيْن، قبل تكوين السماء، قد ناديتهما، ولا على «عُصْبَةِ المياهِ» التي هي البحر، لكنّه تقبّل السلطان على حيتان البحر، وطيور السماء، وكلّ السوائم، والأرض كلّها، وعلى كلّ الحيّات، «التي تزْحفُ فوقَ الأرض».

فهو يحكم، ويبارك ما هو صواب، ويعارض ما يجده غير صواب، سواء كان في تلك الاحتفالات بالأسرار التي يطّلع عليها أولئك الذين تبحث عنهم شفقتك في أعماق المياه، أو في تلك التي يُعرضُ فيها ذلك السمك الذي اصطيد في الأعماق، لتأكله الأرض التقيّة[1]، أو في أدلّة الكلام والخطابات الخاضعة لسلطانك، والمتطايرة كالعصافير تحت قبّتك: تأويلات وعروض ومقالات ومناقشات ومباركات وتوسّلات إليك متدفّقة من الأفواه في دويّ عال كي يجيب الشعب: آمين! والسبب في الإعراب

(1) terra pia... = الأرض التقيّة...، الاعترافات، الكتاب الثامن ص 393 الملاحظة 1: يُحِيل "بيار دي لابريول" هنا على الصفحة 388 حيث قيل في الأرض «إنّها سبب العملية التي خَلَقَتْ عليها الروحَ،... الروحَ الحيّة... تلك الروحَ التي كانت ميتة عندما كانت تحيا في الأطاييب القاتلة...».

الجسمانيّ عن كلّ هذه الألفاظ يكمن في هاوية الدنيا، وفي اللّحم الأعمى الذي لا يقدر أن يرى الفكر المطلق، فيحتاج إلى أصوات رنّانة تقرع الأذنين. ورغم أنّ الطيور تفرّخ في اليابسة فإنها تأخذ أصلها من الماء.

و«الرّوحانِيُّ يحكمُ» أيضا بالموافقة على ما هو صائب، وبالمخالفة لما قد يجده مجانبا للصّواب، في أعمال المؤمنين وفي أخلاقهم وصدقاتهم التي هي بمثابة الأرض المثمرة، وفي خصوص لطافة مشاعر «الرّوحِ الحيّة» «الناشئة عنِ العفّة»، و«عن الصيام» وعن الأفكار التقيّة المتّصلة بالأشياءِ الّتي ندركها بحواس الجسم. وباختصار هو يحكم، بقدر ما له من القدرة على أن يهذّب.

XXIV.35. لكن ما هذا؟ ويا له من سرّ! ها أنت تبارك الناس، يا إلـٰهي، «كيْ ينْمُوا ويتكاثرُوا ويَمْلَؤُوا الأرْضَ». فهل في هذا من إشارة إلينا منك، كي نفهم شيئا؟ وكيف لم تبارك أيضا النور الذي سميته النهار، ولا قبّة السماء، ولا الأنوار، ولا النجوم، ولا الأرض، ولا البحر! كم كنت أودّ أن أقول، إلـٰهنا، إنّك أنت الذي قد خلقتنا على صورتك! كم كنت أودّ أن أقول إنّك قد أردت أن تجود بهذه الهبة المباركة على الإنسان خاصّة، لو لم تكن قد باركت بنفس الصفة، الحيتان والأغوال، حتّى تنمو وتتكاثر، وتملأ مياه البحر، والطيور، كي تتكاثر فوق الأرض! كذلك، كم كنت أودّ أن أقول إنّ هذه المباركة تتعلّق بتلك الأجناس من الكائنات التي تنتشر من تلقاء ذاتها، جيلا بعد جيل، لو كنت أجد أثرها على الأشجار وفي الأدغال وعند سوائم الأرض! لكن، في الواقع، لم يقل للنّبات والشجر، ولا للحيوانات والزّاحفات أن «تنْمُوَ وتتَكَاثَرَ»، رغم أنّها كلّها تنمو أيضا كالحيتان والطيور والبشر، جيلا بعد جيل، وتحمي جنسها.

36. ما عساني إذن أقول، يا نوري، يا حقّ؟ هل إنّ هذا لا يعني شيئا، وهل هو الفراغ التامّ؟ كلاّ، يا أبا التقوى، فليتحاش خادم كلمتك هذا الكلام! وإن لم أفهم أنا ما يعنيه هذا الوحي، فليعتمد عليه اعتمادا أحسن، أناس أفضل منّي، أي أكثر ذكاء، بقدر ما آتيت كلّ واحد منهم، من العلم، يا إلـٰهي.

لكن، تقبّلْ على الأقل اعترافي «بمرأى من عينيْك»، وأنا أعترف إليك أني، يا مولاي، أعتقد أنّك لم تتكلّم سُدى، ولن أسكت عن الأفكار التي تحرّكها في نفسي هذه القراءة. فهي صائبة، ولا أرى ما يمنعني من أن أعتبرها تأويلات مجازيّة لكتبك. إذ أعرف أنّ الفكرة التي يصوغها العقل بصورة واحدة يمكن أن تدلّ عليها عديد الصور الماديّة، والفكرة التي يصوغها العقل بعديد الصور يمكن أن تدلّ عليها صورة ماديّة واحدة. فانظر إلى مفهوم بسيط كحبّ الإلـٰه وحبّ الإنسان. فكم من عديد الرموز،

وكم من عديد اللغات، وكم من عديد الطرق في كلّ لغة على حدة، يعبّر عنه تعبيرا ملموسا!

هكذا تنمو سلالة البشر وتتكاثر، فليتأمّل، ثانية، من يقرأ هذا القول الذي يقدّمه الكتاب بصورة واحدة، ويدوّي به الصوت: «في المبدإ قد خلق الإله السماء والأرض»، فهلاّ يفهم فهما متعدّدا، دون أخطاء أو تضليلات، بل حسب أجناس الأفكار المعقولة؟

هكذا تنمو سلالة البشر وتتكاثر!

37 إذن، إن فكرّنا في جواهر الأشياء بالذات، لا على المجاز والتخييل بل على الحقيقة[1]، فكل ما ينشأ من البذور تصلح له كلمة:«انموا وتكاثروا». أمّا لو تناولناها في الصيغة المجازيّة - فذاك بالعكس ما أظن أنّ الكتاب المقدس قد قصد إليه، وهو لا يخصّ بتلك المباركة، على كلّ، أجِنَّة الحيوانات البحرية والبشر، لوجدنا لعمري «أفواجا» منها، في المخلوقات الروحانيّة والجسمانيّة، كما في السماء والأرض، وفي الأرواح العادلة والجائرة، وكما في «النور» وفي «الظلمات»، وعند الكتّاب التقاة، إذ بواسطتهم قد أعطينا القانون، كما في القبّة الزرقاء التي انتصبت بين الماء والماء، وفي عصبة الشعوب المرّة، كما في البحر، وفي ما تعني به الأرواح الورعة، كما في الأرض القاحلة وفي أعمال البرّ، من جهة الحياة الدنيا، (كما في النبات ذي البذور، والأشجار المثمرة) وفي الهدايا الروحانيّة المعطاة لصالح الإنسان (كما في «أنوار» السماء)، وفي المشاعر المتشكّلة تجاه الاعتدال، كما (هي الحال في «الروح الحيّة»).

في جميع هذه الأشياء، نقف على تنوعات وخصوبات ونموّات، لكن كيف يمكنها أن تنمو وتتكاثر، بحيث أنّ الشيء الوحيد يعبّر عنه بعديد الأوجه، وأنّ التعبير الوحيد يستنبط بعديد الطرق، فلا نجده إلّا في الدلائل المعطاة جسمانيا، وفي الأشياء المتصوّرة عقلانيا.

والدلائل المعطاة جسمانيا هي في أنسال «المياه»، بسبب العوامل الضروريّة لعمق خطيئتنا، أمّا الأشياء المتصوّرة عقلانيا فقد أدركناها عند الأنسال البشريّة، بسبب خصوبة عقلنا.

---

(1) ...non allegorie, sed proprie... (لا على المجاز والتخييل، بل على الحقيقة)... في كامل هذا القسم يقول "ب. دي لابريول" ص 395 ": «إن أوغستينوس يعود، من أجل تبريرها باعتبارات جديدة وبرمز جديد، إلى نظريته المتعلقة بشرعيّة الحواس المتعدّدة، انظر أعلاه ص 346 والتي بعدها».

ولهذا اعتقدنا أنك يا مولانا قد قلت لكلا الجنسين: «أُنموا وتكاثروا». ففي تلك المباركة أرى أنّك قد منحتنا القدرة والاستطاعة كي نعرب، بألف صورة، عمّا قد نقف عليه عقلانيّا بصورة واحدة، وكي نستنبط، بألف طريقة، ما قد نقرؤه غامضا، لكنه مَصُوغ في قالب واحد. هكذا تمتلئ «مياه البحر» التي لا تتحرّك إلّا بالتأويلات المختلفة وبالأجنن البشريّة تمتلئ كذلك الأرض التي تظهر قحولتها في توقها إلى الحق، والتي يسودها العقل[1].

38.XXV. أريد أن أقول أيضا، يا مولاي وإلـهي، ما يوصيني به باقي كتابك، سأقوله ولن أخاف. إذ سأقول الحق، وأنت ملهمي أن أقول، من هذه الكلمات، ما أردته. فلا أعتقد أن أقول الحقّ تحت إلهام غيرك، إذ إنك «الحقّ، أمّا كلّ إنسان فكاذب». ولذا، فمن «يقول الكذب، يتكلّم من عنديّاته». إذن فلِقوْلِ الحقّ، سأتكلّم من فضلك.

ها قد أعطيتنا «غذاءً، كل نباتة مبذورة، تحمل بذرة، وهي فوق الأرض قاطبة، وكلّ شجرة تملك في ذاتها بذرة الثمرة المغروسة». ولكن لا إلينا فقط، بل وأيضا إلى جميع طيور السماء وسوائم الأرض والحيّات؛ أما الحيتان وأغوال البحار فلم تُعْطِها ذلك.

كنّا نقول إنّ تلك الثمار في الأرض أدلّة تتشكّل على المجاز والتخيّل لأعمال الشفقة الإلـهيّة، وتُبرز في ضروريّات هذه الحياة ما تجود به علينا الأرض الحبلى بالثمار. ومثل هذه الأرض قد تمثل في التقيّ أونزيفوروس(Onesiforus = Onésiphore) الذي أعطيتَ داره «الشفقة»، لأنه كثيرا ما قد واسى «باولوس»(Paulum = Paul) خادمَك، ولم يخجل من قيده». «هذا» ما فعله أيضا «الإخوان الذين قد أكملوا له،من مقدونيا، ما كان يحتاج إليه» ونالوا ثمار مثل هذا الحصيد.

أما كيف كان يتذمّر، من كون بعض «الشجرات» لم تعطه الثمار التي كانت مدينة له بها، فقد كان يقول:«في أول دفاع عنّي لم يقف أحد إلى جانبي، بل الجميع قد خذلوني: فلا تعزُ ذلك إليهم!» إذ تلك الثمار هي ديون لمن يلقّنون مذهبا عقلانيّا، بواسطة فهم الأسرار الإلـهية، وهي ديون إليهم، كبشر، وهي من ناحية أخرى ديون إليهم، كأرواح حيّة، من جهة كونهم يعرضون مثلا عليا، يقتدى بها في الاعتدال، بالذات. وهي ديون

---

(1) ... et dominatur ei ratio =... العقل... يسودها. الاعترافات، الكتاب الثالث عشر، ص 7/ 396، الملاحظة 1: «من الآراء المفضلة عند أوغستينوس أنّه يجب أن نقدم لأصحاب العقول المثقّفة الكتب المقدّسة باعتبارها كتبا خصبة بالمعاني العميقة، وأنه من المباح الكشف عنها حسب الظاهر. وعلى هذا النحو نبتعد عن جعلهم يمجّون هذه القراءة «التي سيتاح لهم فيها تفتيق النشاط الفكري الذي يحبّونه».

إليهم، كالطيور بسبب المباركات التي تتكاثر فوق الأرض، من حيث أنّ «صوتهم قد عمّ الأرض جمعاء».

39.XXVI. يتغذّى، من ناحية أخرى، بهذا القوت، أولئك الذين يفرحون بها، ولكن لا يفرح بها أولئك الذين «إِلاَهُهُمْ هُوَ بَطْنُهُمْ». إذ في نظر الذين يعطُون، الثمار ليست في ما يعطُون، بل في النيّة التي يعطُونه بها.

من هنا أرى غبطة الحواريّ الذي كان «يخدم إلـهَه لا بطنَه»، أراها وأهنّئه بها. إذ كان قد تقبّل من الفيليبّيين (**a Filippensibus = des Philippiens**) الهدايا التي أرسلوها إليه، عن طريق إيبافرودتوس(**per Epafroditum = par Epaphrodite**)، لكني، مع ذلك، أرى بمَ كان يغتبط. فمصدر غبطته هو، من ناحية أخرى، قوّته، إذ يقول حقّا ما يلي:«قد اغتبطت غبطة رائعة في المولى، وقد أبرزتم أخيرا من جديد ودّكم تجاهي، كما كان من قبل، أمّا أنتم فقد تقزّزتم». إذن فأولئك كانوا قد ذبلوا من التقزّز الطويل، وكأنهم قد هزلوا بسبب ثمار تلك الأعمال الصالحة، وهو فرح لهم، لا لنفسه، بازدهارها لأنّهم قد آزروا عوزه. فلذلك واصل قائلا:«أتكلّم لا بسبب حاجة ما، فأنا قد تعلّمت أن أقنع بما أنا فيه. أعرف الفاقة كما أعرف الرخاء، في الكلّ وفي كلّ مكان، قد اقتنعت بأن أشبع وبأن أجوع، وبأن أكون في الرخاء، وبأن أتحمّل المجاعة، أستطيع الكلّ في الذي يقوّيني».

40. فمن أين إذن تأتيك الغبطة، يا باولوس العظيم؟ ممّ تغتبط، ممّ تتغذّى، أيها الإنسان المتجدد، «من أجل معرفة الإلـه، طبقا لصورة الذي قد خلقك»، وأيّتها الروح الحيّة ذات الاعتدال الأقصى واللسان الطائر الناطق بالأسرار؟ لمثل هذه الأرواح، لعمري، هذا القوت حقّ مستحقّ. فما الذي يغذّيك؟ أهو الفرح! ولنسمع ما يلي من قوله:«لكن، مع ذلك، قد فعلتم خيرا، مشاركين في محنتي». مِن هذا يغتبط، مِن هذا يقتات: مِن عملهم الصالح تجاهه، لا مَن كون ضائقته قد انفرجت، إذ يقول لك: «في المحنة قد جعلتني أنشرح» لأنه يعرف «كيف يكون في الرخاء ويتحمّل المجاعة» فيك أنت الذي تقوّيه. فهو القائل:«تعلمون أيضا أنتم، أيها الفيليبيون، أنّي، في بداية التبشير بالإنجيل، عندما غادرت مقدونيا (**ex Macedonia = de la Macédoine**) لم تسلّمني أيّة كنيسة وصْلا فيما أعطيته وتقبّلته (**dati et accepti = un compte de Doit et Avoir**) خلاكم أنتم فقط، لأنّكم قد أرسلتم إلى تيسّالونيكا (**Thessalonicam = à Thessalonique**) مرّة أولى، ومرة ثانية ما كنت في حاجة إليه». ويفرح الآن لكونهم

قد عادوا إلى الأعمال الصالحة، وينشرح لكونها قد ازدهرت كالحقل المخضوضر من خصبه.

41. هل كان بسبب مصالحه يقول:«قد أرسلتم ما كنت في حاجة إليه»؟ ألذلك السبب ينشرح؟ لا وألف لا. وممّ نعلمه؟ مما يقوله هو من بعد: «لست أبحث عن الهديّة بل أنا أطلب الثمرة».

قد تعلّمت منك، يا إلـهي، الفرق بين «الهديّة والثمرة». «الهدية» هي الشيء نفسه الذي يعطينا إياه من يساعدنا في فقرنا كالمال، والطعام، والشراب، والثياب، والمسكن، وكل وجوه المساعدة. أما «الثمرة» فهي الإرادة الطيّبة المستقيمة للمهدي. والمعلّم الطيّب لا يقول فقط:«من سيستقبل رسولا...» بل يضيف: «كما يُستقبَل الرسول»؛ وهو لا يقول فقط: «من سيستقبل عادلا» بل يضيف:«كما يُستقبل العادل». على هذا النحو فقط سيتقبّل هذا جائزة الرّسول، وهذا جائزة العادل. وهو لا يقول فقط:«من سيعطى كأس ماء بارد ليشربه أشدّ تلامذتي تواضعا» بل يضيف: «شريطة أن يكون التلميذ الحقّ». ويضيف قائلا:«أقول لكم آمين (amen = en vérité)، لن يضيّع جائزته». الهدية في استقبال «الرسول»، وفي استقبال «العادل»، وفي تقديم «كأس ماء بارد» لِتلميذٍ، أمّا «الثمرة» ففي هذا الفعل المرتبط «بشخص الرسول»، و«بشخص العادل»، و«بشخص التلميذ». ومن مثل هذه الثمرة كان يقتات إلياس (Helias = Hélie) وقد كانت تغذّيه أرملة تعلم أنه خادم الإلـه، ولذلك كانت تغذّيه، أمّا ما كان يقتات به من الغراب، فكان «هبة». لم يكن إلياس الداخليّ (interior Helias = l'Hélie intérieur) يتغذّى هكذا بل الخارجيّ (sed exterior = mais... extérieur)، أي جسم إلياس الذي كان سيهلك لو حرم من مثل هذا الطعام.

42.XXVII. ولذلك، أودّ أن أقول الحقيقة كاملة بحضرتك، يا مولاي، والحال أنّ أناسا «جهلة»[1] (idiotae = ignorants) و«ملحدين» تقتضي الضرورة، لِتلقينهم الديانة وإدخالهم إليها، اللجوءَ إلى الأسرار وإلى المعجزات الجسيمة التي نظنّ أنه يرمز إليها «الحيتان» و«أغوال البحر»، يعمدون إلى معالجة أجسام أبنائكم، أو إلى مساعدتهم على حاجة ما في هذه الحياة، والحال أنّهم يجهلون ما ينبغي أن يقوموا به،

(1) في كلام الرواقيين تعني الكلمة «idiôtès» معنى هو ضدّ معنى «الرجل المثقّف» (أي«pépaideuménos»). فهي تدلّ على الجاهل مقابل العالم، وأحيانا تدل على المدني مقابل العسكريّ...». هذا ما ورد في الملاحظة 1 من طبعة الآداب الجميلة ص 400.

وأيّة غاية يرمي ذلك إليها، فلا يغذّونهم، ولا يتغذّى هؤلاء من أيديهم، إذ إنّ الأوّلين لا يقومون بتلك الأفعال بنيّة مقدّسة مستقيمة، وأنّ الآخرين لا يفرحون بهداياهم، إذ لا يرون بعد أية ثمرات. فلذا، لعمري، تتغذّى النفس مما تنبسط به. ولهذا فالحيتان والأغوال لا تقتات من القوت الذي لا ينبت إلّا في الأرض بعد أن خُلِّصت وصُفِّيت من مرارة أمواج البحر.

43.XXVIII. وقد رأيت، يا إلـهي، كلّ مخلوقاتك، ووجدتها طيبة جدّا. ونراها نحن أيضا، وهاهي كلّها طيّبة جدّا. في كلّ صنف من أصناف أعمالك، بعد أن كنت قلت: فلتكن، وبعد أن ظهرت للوجود، رأيتَ أنّ هذا وذاك طيّبان. أحصيتُ أنّه كُتِب سبعَ مرات أنّك رأيت أنّه طيّب، أعني ما خلقتَه؛ والثامنة هي عندما رأيت كلّ الخلائق التي خلقتها،لا فقط «طيّبة» بل وأيضا «طيّبة جدّا» في مجموعها. فهي، فردا فردا، طيّبة فقط، أما في مجموعة تامة فهي طيّبة وطيّبة جدّا. يقولون هذا أيضا عن جميع الأجسام الجميلة، أي أنّ الجسم الذي يتركّب من كلّ الأعضاء الجميلة يكون جميلا، وأكثر جمالا من الأعضاء عينها، فردا فردا، حيث أنّه، بائتلافها وتنظيمها المحكم للغاية، يكتمل جمال المجموع، ولو أنّها، واحدا واحدا، جميلة كذلك.

44.XXIX. وتأمّلتُ بعناية هل رأيتَ سبع مرّات أم ثمانيَ، أنّ أعمالك طيّبة، وأنها أعجبتْك. لكني لم أجد في رؤيتك رؤية خاضعة للزمن لأفهم بها أنّك قد رأيت ما خلقت عددا من المرّات، فصحتُ قائلا: «يا مولاي، أليس كتابك هذا الحقّ، بما أنك أنت الصادق الحقّ قد نشرته؟ لمَ إذن تقولُ لي ألّا وجود للأزمنة في رؤيتك، والحال أنّ كتابك يقول لي إنّك، يوما بعد يوم، رأيت ما خلقت ورأيت أنّه طيّب، وقد أحصيتَ كم مرة فعلتَ ذلك؟»

تجيب عن هذا فتقول لي، لأنك أنت إلـهي، وتقولها بصوت قويّ لأذن خادمك الداخليّة، قاطعا صممي ومناديا:«يا أيها الإنسان، لا شكّ أنّ ما يقوله كتابي المقدّس أقوله أنا. ومع ذلك، فهو يقول في الزمان (**temporaliter = dans le temps**)، أمّا كلماتي فلا يحدث لها الزمان، لأنّها تبقى معي في مثل ديمومتي. فهكذا الأشياء التي ترونها أنتم عبر روحي، أنا أراها، كما أنّ ما تقولونه أنتم عبر روحي، أنا أقوله. ولكن بينما ترونها أنتم، في الزمان، لا أراها أنا كذلك زمانيّا، وبينما تقولونها أنتم، في الزمان، لا أقولها أنا كذلك زمانيّا»

45.XXX. قد سمعت كلماتك، يا مولاي وإلـهي، ولعقت قطرة من عذوبة حقّك،

وفهمت أنّ هناك أناسا لا تعجبهم أعمالك، وأنّ الكثير منهم يدّعون أنّك قد قمت بها مجبرا مضطرّا، مثل صنع السماوات، وتنظيم النجوم، وأنّ هذا ليس من صنعك، بل هي مخلوقات كانت موجودة بعدُ في أماكن أخرى وصنعتها أياد أخرى، ومنها كنت أنت تجلبها وتضمّ بعضها إلى بعض لتؤلّف بينها، كي تبني بها، بعد انهزام أعدائك، أسوار الكون، حتّى لا يستطيعوا، بعد أن انتصرت عليهم في هذا الصرح الشامخ أن يثوروا من جديد عليك، ويقولون، من ناحية أخرى، إنّ الباقي لم تخلقه أنت ولم تنظّمه، مثل جميع الأجسام والحيوانات الضئيلة جدّا وكلّ ما ينبت في الأرض بجذوره، بل إنّ عقلا معاديا لك، وطبيعة أخرى مضادّة لك لم تنشأ منك، في الأماكن السفلى من الكون، قد أنشآها وشكّلاها.

هذا ما كان يقوله هؤلاء الضالون، لأنهم لم يروْا صنيعك بفضل روحك فلم يعترفوا بك فيها.

46.XXXI. أمّا الذين يرون الأمور عبر روحك، فأنت ترى ما فيهم. عندما يرون أنها طيّبة، فأنت الذي ترى أنّها طيّبة، وكلّ الأشياء التي يعجبون بها بسبب حبك، فإنهم يعجبون فيها بك، والتي نعجب بها، عبر روحك، تعجب بها، أنت فينا. «إذ منْ مِن الناس يعرف ما يجول في خاطر الإنسان غير الروح التي توجد في ذات الإنسان؟ وكذلك ما يجول في خاطر الإلـه، لا أحد يعلمه، خلا روح الإلـه». ويقول الحواريّ: «أما نحن، فقد تقبّلنا لا روح هذا الكون، بل الروح التي هي صادرة عن الإلـه، حتى نعلم ما هي الأشياء التي وهبها لنا الإلـه بفضله».

أستطيع إذن أن أقول: «الحقّ أنه لا أحد يعلم ما يجول بخاطر الإلـه، عدا روح الإلـه». إذن كيف نعلّم نحن أنفسنا «ما هي الأشياء التي وهبها لنا الإلـه؟» الإجابة أنّ حتى ما نعلّمه هكذا، عبر روحه «لا أحد يعلمه خلا روح الإلـه!». فكما قد قيل بحقّ للذين كانوا يتكلّمون عنها، متأثرين بروح الإلـه: «إذ لستم أنتم الذين تتكلّمون»، كذلك يقال بحقّ للذين يرونها متأثرين بروح الإلـه: «لستم أنتم الذين تروْن». لذا فكلّ ما يرون أنّه طيّب متأثرين بروح الإلـه، لا يرونه هم بالذات، بل الإلـه هو الذي يرى أنّه طيّب!

إذن هناك إنسان يحسب الطيّب سيّئا، وهو من أولئك الذين تكلّمت عنهم أعلاه[1]،

---

(1) «في الفصل الثلاثين الفقرة 45. يتعلق الأمر بالمانويين الذين كثيرا ما هاجم أوغستينوس في الاعترافات آراءهم الضالّة». ملاحظة "ب. دي لابريول" ص 403، من الجزء الثاني من طبعته ص 403.

=

وهناك إنسان ثان يرى الطيّب طيّبا، كالكثيرين المعجبين بخليقتك، لأنّها طيّبة لكنّهم غير معجبين بك فيها، ومن ثمّ يريدون أن يتمتّعوا بها أكثر من التمتّع بك: وهناك أخيرا إنسان ثالث، عندما يرى شيئا طيّبا، يكون الإله قد رأى فيه أنه طيب، ليكون محبوبا في ما خلق. وما كان هذا الحبّ ليكون إلّا بواسطة الروح التي قد أعطانا إياها «إذ إنّ محبّة الإله منتشرة في قلوبنا، بواسطة الروح القدس الذي قد أُعطِيناه» والذي نرى بواسطته طيّبا كلّ ما يكون، كيفما كان: فهو صادر عن الذي ليس كائنا على كيفية ما، بل عن الذي هو الكائن المطلق!

47.XXXII. «شكرا لك، يا مولاي!» نرى السماء والأرض، إما الجزء الجسمانيّ (الأعلى والأسفل) أو الخليقتين الروحانيّة والجسمانيّة؛ وفي زينة هذه الأجزاء التي تتركّب منها إمّا كتلة الكون جمعاء أو الخليقة، كلّها بالتمام، نرى النور المخلوق المنفصل عن الظّلمات. نرى قبّة السماء الزرقاء، إمّا الموجودة بين المياه الروحانيّة العليا والجسمانيّة السفلى، أجسام الكون الأولى البكر، أو ذلك الفضاء في الهواء الذي يسمّى أيضا سماء والذي تتجوّل عبره طيور السماء، بين المياه التي تتطاير كالبخار، وتنزل أيضا كالندى في الليالي الصافية، وبين التي تنساب ثقيلة فوق الأرض. نرى رونق المياه المتجمّعة عبر سهول البحر، والأرض القاحلة، إما عارية، وإمّا مزروعة بادية للعيان ومنظّمة وإمّا للنّبات والشجر. ونرى الأنوار تسطع من عليائها، والشمس تكفي النهارَ نورا والقمر والنجوم تسلّي الليل، وبجميعها تدوّن الأزمنةُ ويشار إليها. نرى في كلّ مكان الطبيعة المائيّة تخصب بالحيتان والمسوخ، والكائنات المجنحة، لأنّ كثافة الهواء الذي يحمل العصافير الطائرة فيه تتكثّف أكثر من جرّاء تبخّر المياه. ونرى وجه الأرض يزدان بالحيوانات الأرضيّة، والإنسان الشبيه بصورتك يتفوّق على الحيوانات غير العاقلة قاطبة، بفضل مماثلته لك بالذات، أعني بفضل ميزة العقل والذكاء. وكما أنّك تجد في الروح البشرية[1] تفكيرا يقود من جهة، ومن جهة أخرى طاعةً تَخضع، تجدُ

= بالإضافة إلى هذا يقول أوغستينوس بصراحة ما يلي: **quales supra dicti sunt** =... أي الناس الذين حدّثت عنهم أعلاه. فقد كان هدفه إذن، من بداية الاعترافات إلى آخرها، التخلّص من تعليمهم للدين «**catéchèse**» الذي كان يجده مُفسِدا لأنه دام وتواصل مدّة طويلة، ولأنّه خاطىء ضالّ بصورة خاصّة.

(1) «خضوع المرأة للرجل يوصي به أوغستينوس بوضوح أقلّ» إذ يقول في موضع لاحق إنّها «... خُلقت جسديّا للرجل» الاعترافات، الكتاب الثامن، الملاحظة 2 ص 404 و405.

أنّ المرأة وإن خلقت جسديّا (corporaliter = physiquement) للرجل، تملك مثله تماما، نفس الجوهر العاقل الذكيّ، أمّا بحكم جنس الأنثى، فهي ترضخ بالطبع لجنس الذكر وتخضع له خضوعَ الإقبال على العمل لما يمليه العقل من أجل الظفر بالوجهة الصحيحة.

هكذا ندرك الأشياء، ففي كلّ عمل خير، والخير كلُّ الخير فيها مجتمعة.

XXXIII.48. فلتشكُرك أعمالك، كيْ نحبّك، ولنحبك نحن، كي تشكرك أعمالك! لها في الزمان بداية ونهاية، لها شروق وغروب، ولها تقدّم وتدهور، ولها رونق وذبول. ولها إذن صباحها ومساؤها، خافييْن تارة، واضحين طورا.

لقد خلقتها من العدم، لا من كنهك، ولا من مادة غريبة عنك، أو خلقتْ قبلك، بل من مادّة متزامنة الخلق (de concreata = concréée)، أي مخلوقة من قبلك، في آن واحد مع ذاتها، حيث أنّك صوّرت عدم تشكّلها، دون أيّة مدّة زمانيّة عارضة.

أمّا مادّة السماء والأرض فشيء مختلف، وكذا المظهر الخارجي للسماء والأرض، فلعمري قد خلقت مادّتها من العدم، أمّا مظهر الكون، فمن المادة اللامتشكلة، والاثنتان أي السماء والأرض متوافقتان بحيث كان الشكل يتبع الجوهر، دون أدنى مهلة بينهما.

XXXIV.49. وتأملنا أيضا شيئا آخر: ما هو المعنى الرمزي الذي أردت أن يكون لأعمالك باعتبار تعاقب وقائعها أو ترتيب حكاياتها. ورأينا أنّها طيّبة، واحدا واحدا، وأنّها كلّها طيّبة جدا؛ وفي كلمتك وفي ابنك الوحيد رأينا السماء والأرض، رأسَ الكنيسة وجسمَها، مقدَّريْن (in praedestinatione = prédestinés) قبل كلّ الأزمنة، دون صباح ومساء. وما أن بدأتَ تنجز، في الزمان الأشياء المقدّرة، كي تبرز مقاصدك الخفيّة وتنظّم فوضانا – لأنّ خطايانا كانت فوقنا، وكنّا نبتعد عنك إلى الهاوية المظلمة، وكانت روحك الطيّبة تحلّق فوقنا لإسعافنا في الوقت المناسب - حتّى برّأت الملحدين، فميّزتهم عن الجائرين، وثبّتّ سلطانك المقدّس لدى الخاصّة (superiores = ceux dont la supériorité...) الذين كانوا مؤهّلين لطاعتك، والعامّة الذين كانوا مؤهّلين للإذعان لهم، وجمعت غير المؤمنين في زمرة واحدة تضمّهم، حتى تظهر حميّة المؤمنين في القيام بأعمال البرّ من أجلك، وهم يوزّعون على الفقراء أملاكهم الأرضيّة للفوز بالسماويّة منها.

وعندئذ أوقدتَ بعض الأنوار في القبّة الزرقاء – في قدّيسيك المالكين لكلمة الحياة، المحظوظين بالهدايا الروحانيّة، الساطعين بهيبتهم الفائقة. ثمّ استخرجت

من المادّة الجسمانيّة، من أجل إخصاب الأمم غير المؤمنة بالمسيحيّة، الأسرارَ والمعجزاتِ المرئيّة وأصوات الكلمات طبقا لقبّة كتابك - أوقدتَ بعض الأنوار ليتبرّك بها المؤمنون بك بالذات. ومن بعد صوّرت الروح الحية لذوي عقيدتك طبق العواطف المنظّمة والعفّة الحازمة، ومن ثمّ قد جدّدت، حسب الصورة الشبيهة بك، النفس المذعنة لك وحدك، وغير المحتاجة للاقتداء بأيّة سلطة إنسانية كانت، وأخضعت العمليّة العقلانيّة لنفوذ الذكاء، كما تخضع المرأة للرجل، وقد أردت أن يقدّم المؤمنون بك إلى كلّ كهنتك ثمن تدريبهم، في هذه الحياة، ما يتطلّبه منهم هؤلاء للضّرورات الدنيويّة عملا صالحا مثمرا غدا.[1]

كلّ هذه الأعمال نراها «وهي جدّ طيّبة»، إذ إنّك ترى فينا، أنت الذي قد أعطيتنا الروح التي نقدر أن نراها بواسطته، وأن نحبّك فيها.

50.XXXV. مولاي الإله، أعطنا السلم - فقد قدّمت لنا كلّ الأشياء - سلم الراحة، وسلم السبت، والسلام دون أفول! فكلّ هذا التلاحق الجميل جدّا للأشياء الطيّبة جدّا سينقضي، بعد اجتياز حدوده: إذ جعل لهم، لعمري، الصباح كما جعل لهم المساء.

51.XXXVI. أمّا اليوم السابع فهو بلا مساء، وليس له غروب، لأنّك قد قدّسته، ليدوم إلى الأبد، حتى أنّ تلك الرّاحة التي استرحتها في اليوم السابع، أنت بعد أعمالك «الطيّبة جدّا» - وإن قمت بها في الطمأنينة - كان صوت كتابك لا بدّ أن يشير إليها مسبّقا، قائلا إنّنا نحن أيضا، بعد الفراغ من أعمالنا «الطيّبة جدّا» لأنّك أنت لعمري قد أعطيتنا إياها، لا بدّ أن نستريح فيك، في سبت الحياة الأبديّة.

52.XXXVII. فعندئذ ستستريح فينا كذلك تماما، كما تعمل الآن فينا، ولذا فراحتنا ستكون بفضلك فينا، تماما كما أنّ أعمالنا هي لك بتوسّطنا. أما أنت، يا مولاي، فتعمل دوما، وتستريح دوما، ولا ترى في الزمان، ولا تتحرّك في الزمان، ولا تستريح في الزمان، ومع ذلك فتفعل رؤانا في الزمان، وتفعل الأزمنة ذاتها، والراحة في آخر الزمان.

(1) «يلخص أوغستينوس في هذا الفصل «الحقائق الروحية» (الإبراز من المترجم) التي مكنه شرحه القائم على التصوير المجازي من استخلاصها من الآيات الأولى من سفر التكوين...» من ملاحظة «ب. دي لابريول» ص 406 من الجزء الثاني من طبعة الاعترافات (الكتاب الثامن) الآنفة الذكر: وهذه الملاحظة تنتهي على النحو التالي: «لكن منذ زمن مبكّر نظروا في النص المقدّس باعتباره يحتوي معنى خفيّا تحجبه الحروف أكثر ممّا تعبر عنه. وعبقرية القرون الوسطى، علاوة على أحد هذه العناصر، أصولها ضاربة في هذه الطريقة في فهم الكتاب المقدس وتأويله». الإحالة نفسها ص 406 و407.

53.XXXVIII. إذن فنحن نرى هذه الأشياء التي خلقتها، لأنّها كائنة، أما بالنسبة إليك فهي بالعكس كائنة فلأنّك تراها. ونحن علاوة على ذلك نرى بالحواس أنّها كائنة، وبالعقل أنها طيّبة، أما أنت فقد رأيتها وقد خلقت بعد، إذ رأيت أنه يجب أن تُخلق.

نحن الآن مستعدّون لفعل الخير، بعد أن تصوّر قلبنا عن روحك صورة الخير، أما في السابق فقد كنّا نتخلى عنك منساقين إلى فعل الشرّ: أما أنت، أيّها الإلـه الأحد الحسن، فما توقّفت عن فعل الخير. بعض أعمالنا حسنة، لعمري، بفضل نعمتك، لكنّها لاأبديّة: نتمنّى من بعدها، أن نستريح نحن في قدسيّتك اللامتناهية. أما أنت، وأنت الخير الذي ليس في حاجة إلى أيّ خير، فإنك في راحة دائمة، لأنّ راحتك هي أنت بالذات.

فهمُ هذه الحقيقة! مَنْ مِنَ البشر سيعطيه للإنسان؟ ومن هو الملاك الذي سيعطيها لملاك؟ ومن هو الملاك الذي سيعطيها للإنسان؟ فليطلب هذا الفهم منك طالبوه، وليبحثوا عنه فيك، وليطرقوا له بابك: عندئذ، عندئذ فقط سنتلقاها، وسنظفر بها، وسيفتح لنا مصراعاها.[1].

(1) هذه هي الإستعارة الأخّاذة القصوى التي يبرزها أوغستينوس في بحثه الذي عبّر عنه للناس ولنفسه. وحبّ الأقربين هو لديه من الثوابت الحقيقية، لأن الاعترافات تكشف لنا عن روح التائب التي كان عليها، لكنها تكشف لنا أيضا عن التمشي الذي يتبعه جميع الناس الذين مكنهم الأمل من الفوز في نهاية المطاف بالنجاة. وأخيرا فإنّ الباب الذي سينفتح أمامهم قد تمّت الإشارة إليه أعلاه باعتباره بابا يحبه أسقف "هبّون" Hippone.

آراء بشأن الاعتـرافات

نشفع الترجمة الكاملة لاعترافات أوْريليُوس أوغستينوس بثلاثين صفحة منتقاة من كتاب الأستاذ بيار كورسال (Pierre Courcelle) المعروف بـ«أبحاث متعلقة باعترافات القدّيس أوغستينوس» (Recherches sur les Confessions de Saint Augustin)، المنشور في باريس سنة 1950، بدار «أ. دي بوكّار» للنشر E. de Boccard, Paris, 1950.

• أ) الصفحات 7 إلى 12 من المقدمة المعنونة بـ«نصف قرن من الجدال حول الاعترافات والحوارات»:

Un demi – siècle de controverses autour des Confessions et des Dialogues» (p. 7 – 12).

•ب) الصفحات 29إلى40 من الفصل الأوّل المعنون «أوغستينوس وسيرته الذاتية» Augustin, biographe، ومن الجزء الثاني منه المعنون «قيمة الاعترافات التاريخية»:

II - La valeur historique des Confessions p. 29 - 40

•ج) الصفحات 247 إلى 258 من الفصل السابع المعنون بـ«أحكام على الاعترافات» Jugements sur les Confessions، ومن الجزء الثاني منه المعنون بـ«كيف نحكم على الاعترافات؟» Comment Juger les confessions? II, pp. 247 – 258.

• أ) «نصف قرن من الجدال حول الاعترافات والحوارات»

كثيرا ما تعوّد مترجمو سيرة القدّيس أوغستينوس أن يصفوا الطور الأوّل من حياته، ناسخين قصة الاعترافات. وكانوا يضيفون بعض الملحقات الجزئيّة المستمدة من حوارات «كسّيسياكيوم» (Cassiciacum). فـ«هرناك» (Harnack) كان أوّل من ظنّ

ورأى، سنة 1888، أنّ أوغستينوس، لأسباب ذات صبغة لاهوتيّة، قد بسّط قصّة تطوّره وقدّم اعتناقه للمسيحيّة في صورة ارتداد فُجْئي عن حياته الماضية ذات الألوان القاتمة للغاية، مقارنة بحياة النعمة الإلـهيّة. وفي نفس السنة، وفي فصل لامع ظهر في «مجلة العالميْن» **la Revue des Deux – Mondes**، طرح بواسيي **(Boissier)** المسألة في نفس النطاق الذي صارت المجادلة تتطوّر فيه من بعد: كان يشدّد فيه على الإزدواجيّة التي تلوح بين أوغستينوس «الاعترافات» المعتنق فيها للمسيحيّة، والمصعوق بالنعمة الإلـهيّة وأسير الندم على خطاياه الماضية، وأوغستينوس «الحوارات»، الأستاذ المشغوف بالثقافة العتيقة وبالمناقشات الغيبيّة الهادئة هدوءَ حوارات «شيشرون» **(Cicéron)**، كما لو كانت المسيحية ذاتها ضربا من التفلسف: «وبما أن الشخصيْن مختلفان، هل نقدر أن نعلم مَنْ هو، مِنَ التائب أو الفيلسوف، الحقيقيّ فيه؟ لعلّه ينبغي أن نجيب أنّهما حقيقيّان في نفس الوقت. إذ كان القدّيس أوغستينوس آنذاك في أحد الأوقات التي يشعر فيها الإنسان، طبقا لقول الشاعر، بأنّه يحتوي على عدّة شخصيّات».

الحلّ رشيق، لكنّه أشبه بحيلة. ولم يكن يرضي لا أنصار الرّأي التقليدي ولا ذوي الحسّ النقديّ. فهؤلاء يبحثون في تحليلاتهم عمّا يفصل الاعترافات عن الحوارات، ويعطون الحوارات قيمة تاريخيّة أعلى، بسبب كونها معاصرة للأحداث. فـ«شميد» **(Schmid)** يبرز كيف أنّ أسباب التحوّل المزعومة ليست تماما عينها في الحوارات كما في الاعترافات. أما «غُردون» **(Gourdon)** فيذهب إلى أبعد من ذلك ويتساءل: «هل القصة الصادقة التي يعطيها أوغستينوس عن اعتناقه المسيحيّة تامّة الصدق؟» فهو لا يؤمن فيها بشيء. بل إنّ ما يعدّ في الاعترافات اعتناقا للكاثوليكيّة حدث سنة 386، ليس – حسب رأيه – إلّا تطوّرا نحو الأفلاطونية المتأخّرة، وبالتالي اختيارا للزّهد نمطا في العيش، وبعد خمس سنين فقط، وفي الوقت الذي نُصّب فيه أوغستينوس قسّا، قد يكون اعتنق الكاثوليكيّة، بسبب واجبات قُسوسته.

وفي نفس الاتجاه يشدّد «شيل» **(Scheel)** و«بيكر» **(Becker)** و«ثِمّ» **(Thimme)** على أفلاطونيّة أوغستينوس المتأخّرة وعلى بطء تطوّره نحو المسيحيّة. فأوغستينوس حسب رأيهم، لا يبحث بعد، في «كسيسياكوم»، إلّا عن تجاوز الإرتيابيّة وعن الإتجاه نحو دراسة العالم المعقول، أمّا خلوته فلم يكن الغرض منها التهيّؤ للتّعميد؛ إذ هو لم يكتشف مذهبه في الخطيئة والنعمة الإلـهيّة ولم يصغه إلّا في إفريقيا. أمّا أكبر جهد نقدّي فقد سعى إليه «ألفريك» **(Alfaric)**: فبعد أن بيّن كيف أنّ أوغستينوس قد كان

مانويّا للغاية، اعتبر أنّ الاعترافات غير نزيهة في ما يتّصل بالوثبات العقليّة وبالوثبات الأخلاقيّة؛ فهو يقول إنّ أوغستينوس يسعى ليظهَر في مظهر المسيحيّ حتى قبل اكتشاف الأفلاطونية المتأخّرة، وليبرز تطوّره الأخلاقيّ كأنه تحوّل للإرادة تحت تأثير الزّهد المسيحيّ، وفي ذاك قلبٌ لترتيب الأحداث: «اعتمد أوغستينوس إذن الأفلاطونيّة قبل أن يبدي انتسابه إلى المسيحيّة، ولم ينضو تحت هذا اللّواء إلّا بعد أن اعتبره - مع التمحيص - مطابقا للآخر... وحتى فيما بعد، فقد تمسّك، لبعض الوقت، بمذهب «بلوتين» أكثر ممّا تمسّك بالعقيدة الكاثوليكية». خلاصة هذا التحليل الدّقيق قطعيّة: «إذن أخلاقيّا وعقليّا قد اعتنق الأفلاطونيّة المتأخّرة عوضا عن الإنجيل».

أثار هذا المؤلّف العظيم ردود فعل حادّة؛ فمن جملة التقارير المهمّة جدّا نسجّل ما أتى به «لوازي» (Loisy) و«جلسون» (Gilson). فالثاني يشير إلى أنّ بلوتينيّة أوغستينوس تمثّل صيغة متغيّرة جدّا في اتجّاه المسيحيّة، يقول: «الحقيقة الوحيدة في كون أوغستينوس قد قبل منذ البداية خلق الأشخاص الإلـٰهيّة ومساواتها، تكفي أن تثبت أنّه كان لتوّه كاثوليكيّا، لا بلوتينيّا». ويبدو لوازي أكثر تحفّظا منه، يقول: فـ«الحقيقة هي بالعكس أن أوغستينوس، في ذلك التاريخ، كان قد تعمّد، وأنّه يُعتبر مسيحيّا منذ ذلك الوقت... فكتب كسّيسياكوم والفترة الخاصّة بالأفلاطونيّة المتأخّرة لا تمثّل كلّ حياة أوغستينوس الداخليّة، أو ليست مؤهلّة لتمثيلها...ولا تمس إلّا عرضا بواقع اعتناق المسيحيّة، ولا تمكّن من التثبّت، على افتراض أن يكون مثل هذا التثبّت ضروريّا، مَن قصة الاعترافات».

عدة مؤلّفات منشورة في ذلك التاريخ تقريبا، تبرز كذلك ردّ فعل يشي بالإتجاه المحافظ. وذاك شأن عرض «هول» (Holl) أمام مجمع برلين. وشدّد الأب «بوايي» (Boyer) أيضا على التأثيرات المسيحيّةالتي تأثّر بها أوغستينوس طوال حياته كلّها، فقد تكون أفلاطونيّته المتأخّرة بقيت دوما خاضعة لمسيحيّته: «فقد وجد إيمان مونيكا قبل أن يقرأ بلوتين». وثابر «نورغارْد» (Nörregaard) على تحديد ما يمكن أن يتراءى، عبر الحوارات، من فكر أوغستينوس المسيحيّ، وعبر الاعترافات من فكر المتّسم بالأفلاطونيّة المتأخّرة، ويستخلص، إن كانت قراءة تابعي الأفلاطونيّة المتأخّرة حاسمة من الوجهة النظريّة، أنّ عزيمة جنان ميلانو كانت حاسمة من الوجهات النفسيّة والعمليّة والدينيّة؛ على كلّ حال، «يكون بُعدُ الاعترافات مضبوطا».

هذه الآراء المؤيّدة للإعترافات لم تمنع النزعة النقدّية من التأكّد أكثر فأكثر. فانتهى

الأمر بـ«ووندت» (Wundt) إلى أن يفكّك اعتناق أوغستينوس المزعوم للمسيحيّة إلى أربع فترات منفصلة: فعلاوة على قراءته لـ«هرطنسيوس» (Hortensius)، وقراءة تابعي الأفلاطونيّة المتأخّرة، ومشهد جنان ميلانو؛ وقد تكون مرحلة حاسمة في بداية 391 تاريخ تنصيبه قسّا؛ قد يكون إذن تضادّ عنيف بين كتب 386/ 390 المشبعة كلّ الإشباع بالأفلاطونيّة المتأخّرة، وكتب السنين اللاّحقة، المضادّة للفلسفة والمرتكزة أصلا على مذهب الحواريّ «باولوس» (Paulus) الدّاعي إلى التّوبة بواسطة النعمة الإلـٰهيّة.

هذه الأطروحة كان سيهاجمها من قريب «دُرّيز» (Dörries)، تبعا لدراسة مفصّلة عن الدّين الحقّ (De uera religione). وأخيرا، وبعد أن شدّدت الرّاهبة «غَرواي» (Garvey) في مقالة لها سنة 1939، على التضادّ الذي يوجد بين الأفلاطونيّة المتأخّرة والمسيحيّة في أصولهما المذهبيّة، لم تتردّد في التأكيد على كون أوغستينوس قد اختار الثّانية.

ولا يسعنا البتّة أن نعتبر أنّ اتّفاقا قد حصل مع مرور الوقت. أفلم يشهّر «بيغنيول» (Piganiol) منذ زمن قريب، «بالتشويه البيانيّ وبالنفاق» في الاعترافات؟ وبشأن «مارّو» (Marrou)، ألم يتحدّ أيّا كان أن يبين كيف مرّ أوغستينوس من الأفلاطونيّة المتأخّرة إلى عقيدة كاثوليكيّة أمتن فأمتن؟ العرض الشديد الاقتضاب الذي سبق يمكّننا فقط من استخلاص بعض الخطوط العريضة.

هناك عائلتان فكريّتان متضادّتان في خصوص الاعترافات: من ناحية نَزعة نقديّة دوما أكثر جرأة، ومن ناحية أخرى نزعة محـافظة متجدّدة منذ 1920. ولا أنوي البتة أن أختار قبليّا إحدى الهيئتين، بل أن أعطي بعض الملاحظات المتعلقّة بالمنهج،إذ صُنّفت الدّراسات، عادة، حسب منهج التاريخ المذهبيّ، عوض أن تكون حسب منهج التحليل «الفيلولوجيّ» للنّصوص. فالمحافظون قد شدّدوا على العناصر المسيحيّة، ولو داخل الحوارات، وشدّد الناقدون على عناصر الأفلاطونيّة المتأخّرة، ولو داخل الاعترافات. فالمجادلة تمسّ تارة الأسبقيّة الزّمنيّة للمسيحيّة أو للأفلاطونيّة المتأخّرة في فكر أوغستينوس، وطورا أهميتيهما النسبيّتين: هل ينبغي أن نرى، في مؤلف ما، «لا أفلاطونية متأخّرة مطليّة بالمسيحيّة، بل بالعكس مسيحيّة مطليّة بالأفلاطونية المتأخّرة؟» بعد أن توضع المسألة هكذا، يكون من المحتّم أن يبقى نصيب التقييم الوجدانيّ عظيما في الإجابة التي يعطيها المرء. ولو افترضنا أن يكون المعاصرون

متّفقين على المعيار الذي يتعرّفون به على الأصليّ والهامشيّ، فهل سيقبله لا محالة إنسان عاش في آخر القرن الرابع؟

هناك سبب آخر في سوء التفاهم خاصّ بمنطوق اعتناق المسيحيّة: فالأوّلون مستعدّون كل الاستعداد لقبول إمكان الفعل الفجئي، والآخرون لا يرون إلّا تطوّرا بطيئا وتدريجيّا؛ فهكذا يبدو مشهد جنان ميلانو محتمَلا للأوّلين، مفتعَلا للآخرين. والإشكال زيادة على ذلك هو في أن نعرف، ضمن سلسلتين من الوثائق لا تتطابق تماما فيها الواحدة مع الأخرى الحوارات والاعترافات، ما هي السلسلة التي تعطي أكبر مصداقيّة؟ فالأوّلون يميلون قبليّا إلى السلسلة الأقرب من الأحداث، والآخرون إلى الاعترافات كجنس أدبيّ أكثر نزاهة وقرارا في الضمير. ختاما، وبالخصوص، يتوقّف الجدل على كون الفريقين يعتبران من قبيل القطبين المنفصلين، الحكمة اليونانيّة الصادرة عن الأفلاطونيّة المتأخّرة من ناحية، ومن ناحية أخرى حكمة الإنجيل اليهوديّة المسيحيّة. فالمحاولة تكون آنذاك لتحديد القطب الذي يتعلّق به أوغستينوس سنة 386. لكنّ التضادّ بين الهلّينيّة والمسيحيّة أليس هو بالخصوص رأيا للمحدثين؟ ولو افترضنا، في الوسط الذي كان أوغستينوس يتردّد عليه في ذلك التاريخ، أن هذا التضادّ لم يكن شيئا محسوسا، أفلا تفقد المناقشة عينها كلّ أساس؟

الغرض من هذه الدّراسة الخاصّة بالاعترافات ليس الإتيان بحلّ لمجادلة دامت نصف قرن، بل الخروج من المسالك الضيقة المسّطرة. إذ يبدو أنّ الأوكد هو في حصر نصيب اللاّهوت ونصيب السيرة الذاتيّة في الاعترافات وفي وصف آليّة استعادة الذكريات وفي تغيير درجة الحسّ التاريخيّ عند أوغستينوس بعد ذلك،وبهذا سنقدر على إعداد برنامج أبحاث «فيلولوجية» وتاريخيّة أدبيّة مطبّق على هذا النص. بالطبع لن يكون التعليق على الاعترافات متواصلا، وبالنسبة إلى عديد الفترات التي لا نمتلك عنها إلّا وثيقة واحدة، لا تستطيع الفيلولوجيا أن تسلط عليها أيّ نور. وعلى العكس فعديد النصوص غير التي هي في الحوارات أو الاعترافات، يجب أن تضاف إلى الجدل. والنقاط الوحيدة المعمّقة ستكون تلك التي يبدو أنّه يمكن أن تكشف نتيجة جديدة تقلّ فيها قابليّة التنازع بفضل مقارنة النصوص. ينبغي أن نأمل على الأقلّ، عندما ستنتقل المسألة من المستوى المذهبيّ إلى المستوى «الفيلولوجي»، ألّا تجد أحكام المؤلّف المسبّقة والوجدانيّة من الحرّية ما تريد القيام به.

• ب) «قيمة الاعترافات التاريخيّة».

الصورة اللاّهوتيّة ليست مع ذلك، في الكتب التسعة الأولى، إلّا تأويلا للواقع التاريخيّ. فقد رأينا أوغستينوس، مرّة بعد مرّة، يتيقّن من تلك الإزدواجيّة في مؤلّفه: إذ الإرتقاء إلى الإلـٰه لا يقع إلّا بخصوص الأحداث المسرودة للبشر. ومع ذلك، نستطيع أن نحدّد من يسمّيهم أوغستينوس بـ«الرّوحانيّين» الذين يرسل إليهم جزء المؤلّف الخاصّ بالسيرة الذاتيّة.

خلال صائفة 395، كان «أليبيوس» (**Alypius**) أسقف «تاجاسته» (**Thagaste**) وصديق أوغستينوس الحميم، قد كاتب، دون سابق معرفة، «بولين» (**Paulin**) «المعتنق» الشهير للزّهد، بمناسبة استقراره ببلدة «نولة» (**Nole**) حيث أسّس منذ زمن قريب طائفة دينيّة. وفي تلك الرسالة كان «أليبيوس» يشير إلى كونه، منذ الوقت الذي كان يتلقّى فيه تلقين الدّين المسيحيّ بغية التعميد، قد سمع الثّناء على خصال بولين؛ وكان يعرب بقوّة عن عواطف صداقته المسيحيّة تجاهه، وأرسل إليه خمسة كتب من كتب أوغستينوس ضدّ المانويّين (**les Manichéens**). وكان يعبّر عن رغبته في الحصول على نسخة من «تاريخ كلّ الأزمان» لأوزيب قيصريّة (**Eusèbe de Césarée**). وفي الخريف أجابه «بولين»: كان أرسل إليّ «أخبار أوزيب»، لكنّه رجا «أليبيوس»، مقابل ذلك،إلى أن يكتب كامل تاريخ حياته الخاصّة (أي كامل تاريخ قداسته) (**omnem tuae sanctitatis historiam = toute l'histoire de votre sainteté**)، وأن يرسله إليه. فهي إذن سيرة ذاتية كاملة يطالبه بها، ولو أنّه كان يهتمّ بصورة أخصّ بتاريخ نزعته للزّهد، بتعمّده وبقساسته. وبما أنّ «أليبيوس» قد لُقّن العقيدة بميلانو، أفلم يشارك «أمبرواز» (**Ambroise**) في تعميد أليبيوس وقساسته، كما كان له تأثير كبير في «اعتناق» بولين للمسيحيّة؟ لقد كان ناسك بلدة نولة يرغب بحقّ في أن يعرف «كلّ المعرفة» أليبيوس («حتّى أعرفك من كلّ جهة») (**ut omni parte te nouerim = pour vous connaître de tout côté**).

ضاعت الإجابة التي أجاب بها «أليبيوس» عن هذا المطلب، لكّننا نعلم ما كانت عليه عواطفه،لقد كان يريد أن يقدر على تلبية رغبة بولين، غير أنّ الحياء يمنعه من ذلك: فلو ألف مثل هذا المؤلّف، أفلن يتّهمه الكثير من القرّاء بكونه تحدّث عن نفسه للتباهي؟ إذن سيرسل المطلب إلى أوغستينوس، الإنسان الذي لا يعرف أحد في الدّنيا أحسن منه تاريخه، بما أنّه كان قد شاركه في حياته.

ويقبل هذا الأخير المهمّة ويرسم، طبقا لرغبة بولين، «كلّ أليبيوس» (totum Alypium = tout Alypius)، محاولا أن يظهر، عبر تقدّمه الرّوحاني، نعمة الإلٰه الدّائمة. ويبلغ بولينَ الخبرُ (صائفة 396)، ولكنه لا يقدر أن يرسل إليه الكتيّب توّا، لأنّ الساعي «رومانيان» (Romanien) يجب عليه أن يذهب في الحال، دون أن يترقّب الفراغ منه؛ وفي نفس الرّسالة، يشكر أوغستينوس بولين الذي بدأ أيضا في عقد صلات مراسلة ودودة معه: «رسالتك تهديك إلينا كي نتعرّف عليك، كما تحثّنا على البحث عنك»، ومن ناحيته، فهو مستعدّ ليهب نفسه: «أهديك نفسي برمّتها... حذار أن تصدّق كلام الإطراء الذي قد يقوله عنّي حامل هذه الرّسالة، إذ هو صديقي الحميم».

وبعد مرور بضعة أشهر، وبعد أن تلقّى رسالة أخرى من بولين، يبرز أنّه استخبر عنه، بعناية فائقة جدّا، لدى المبعوثين؛ كلّ واحد من المتراسليْن يأسف لكونهما لم يتقابلا قطّ، إذ إنّ واجبات مهمّتيهما تمنعهما من أن يزور الواحد الآخر؛ فكلاهما حريص على أن يهب نفسه للآخر، وراغب في أن يتعرّف عليه كليّا.

بقيّة المراسلة قد ضاعت، إلّا أن سيرة أليبيوس الذاتية قد أعيد استعمالها في الاعترافات. ثمّة ما يدعونا إلى الظنّ أنّ بولين الذي كان قد استمتع بهذا الكتيّب، حثّ أوغستينوس على أن يسرد على نحو متواصل تاريخ حياته واعتناقه المسيحيّة وقساسته، وهي أحداث عميقة الإندماج في تاريخ أليبيوس. وعندما يذكر أوغستينوس «الروحانيّين» الذين قد يتسمون بودّ، وهم يعلمون الضلالات الغريبة التي وقع هو فيها في شبابه، فهو يتذكّر حقّا خاصّة بولين. إذن ليس للإعترافات هدف لاهوتيّ فحسب، بل إنّ تركيبة الكتب التسعة الأولى موجّهة فيها لإبراز التاريخ الحقيقيّ لحياة صاحبها؛ والنقد التاريخيّ قادر على أن ينطبق انطباقا مفيدا على تلك القصص، بقدر ما هي تعكس ذكريات أوغستينوس.

الواقع أنّ الإعتراف اللاّهوتيّ غالبا ما هو حليف لتذكّر حدث محدّد، فالقصّة البسيطة للأحداث العائدة إلى الذاكرة هي في حدّ ذاتها اعتراف. وأوغستينوس أوّل من يميّز ما هو تذكّر ممّا ليس تذكّرا. فالكتاب الأوّل، في أغلبه، غير قائم على الذكريات، إذ الأمر يدور فيه حول الطفولة (infantia = l'enfance)؛ ومحطّ القول فيه هو: «لا أتذكّر». ويشدّد أوغستينوس بعناية على كونه لا يتذكرّ لا حياته السابقة لمجيئه إلى هذه الدنيا ولا حياته في رحم أمّه ولا اللّبن الذي شربه وهو رضيع ولا ابتساماته الأولى ولا دموعه الأولى. في كل هذه النقاط، هو مضطرّ لإعادة تركيب حياته بواسطة الحدس، وبمراقبة

شهادات معايني طفولته الثّرثارين بمشاهدة الرضّع المباشرة. وتبدي له هذه المعاينة أن الرّضيع غلمة محض؛ فأخوَا الرّضاع مثلا يتنازعان حسدا ثدي مرضعتهما. هكذا تكون حياة الرّضيع، في نفس الوقت خطيئة وظلمات نسيان. ويحدس أوغستينوس أيضا في طريقة تحصيل الطفل استعمال الألفاظ، إلّا أن حياة الطفل القادر على التكلّم (في الصبى **Pueritia = l'enfance**) تركت بعض البقايا في ذاكراته؛ ففي الواقع، يرسم عن حياة التلميذ لوحة لا تزال اتفاقيّة جدّا، دون أيّ إشارة إلى تذكّر خاصّ، ويوضّح فقط أنّه ما استطاع قطّ أن يقول لِمَ كان يكره دراسة اليونانيّة.

والكتاب الثاني يتجلّى تأمّلا يستعيد أخطاء سنّ المراهقة التي تحافظ عليها ذاكرته. وفي خصوص تلك الفترة، كانت ذكرياته بعيدة، فقد حفظ منها فقط ما كانت نصائحُ أمّه غداة بلوغه، وقلّة الاعتبار الذي خصّها به. ويتذكّر بوضوح أيضا ما كانت مشاعره زمان سرقة الإجّاص: فقد شعر بإثارة خاصّة لارتكابها، فبقيت الذكرى حيّة في نفسه. غير أنّه مضطرّ للحدس في خصوص الدّوافع التي من أجلها كان والداه، كلاّ على حدة، يهتمّان أكثر بتنشئته الخطابيّة منهما بتربيته الأخلاقيّة، فلم يعد يدري دراية صحيحة ما كانت عقليّته، عندما قصّت عليه أمّه الحلم الذي رأته خلاله واقفا على مسطرة خشبيّة؛ ينبغي عليه، في هذه النقطة، أن يعود إلى تصريحات سابقة كان قام بها وأن يعترف بكونه نسي كثيرا من أحداث تلك الفترة، وبكونه يُعرض قصدا عن أحداث كثيرة أخرى، وإن تذكّر، بصورة جيّدة للغاية، العبارات التي صدرت في خصوصه عن قسّ، فلأنّ مونيكا قد ردّدتها عليه كثيرا منذ ذلك الوقت.

في الكتاب الرّابع، حاول أوغستينوس أن يتذكّر، منعطفات ضلالاته الماضية وسط الطائفة المانويّة، كما لو كانت ضلالات حديثه العهد. سنلاحظ أنّه بقي، في الواقع، غامضا جدّا في ما يخصّ حركته بالذات بين إخوته في الدين؛ وهو يمسك عمدا عن وصفها، بينما يروي بالتفصيل، في مؤلّفات أخرى، الكثير من الذكريات الشخصية عن تلك الفترة. يذكر بالعكس كم كان عنيفا ردّ فعله تجاه العروض النفعية لمنجّم كان يعد بجعله، بالسحر، يفوز بالجائزة في مناظرة دراميّة؛ هو متأكد أيضا من عقليّته الخاصة للغاية، المكوّنة في الآن نفسه من اشمئزاز من العيش ومن خشية الموت، والتي كانت له زمن موت صديق عزيز عليه منذ عهد الشباب. لكنّه لم يعد قادرا على أن يقول هل إنّ مؤلّفه الأوّل: «في الجميل وفي المناسب» (**Du beau et du convenable**) الذي أضاعه منذ زمن طويل، كان في جزئين أم في ثلاثة أجزاء. كما أنه ليس متحقّقا بجدّ

من الإنطباع الذي تركته في نفسه أولى مقابلة له مع فاوستوس ميلاف (Faustus de Milève).

إنّ الذاكرة يفترض أنّها تلعب دورا كبيرا في اعتناق الناس للدين المسيحي، سواء أكان هذا لأليبوس أم لأوغستينوس. فهذا الأخير يخصّص، بالفعل، عديد الكتب للقصة المفصلة لاعتناقة المسيحيّة، وهو في نظره قمّة سيرته الذاتية، لكنْ حتّى في المشاهد الأكثر بروزا، فكثيرا من الجزئيّات لا تحضُره: فلا يتذكّر بعد لمَ كان نبريديوس (Nebridius) غائبا يوم زيارة بونتيسانوس (Pontitianus) ولا دوافع حركاته وسكناته في زمن مشهد جنان ميلانو ولا الإجابة التي ردّ بها على أمّه بمدينة أستيا (Ostie). فهو يركّب من جديد بعض الجزئيات بالحدس، مثل الدّافع الذي من أجله لم يصاحبه أليبوس تحت شجرة التين.أمر عجيب! فأوغستينوس، عندما يصل إلى الإقامة في كِتّيسياكوم، عوض أن يحصي الخيرات الإلـٰهيّة التي غُمر بها، يلجأ إلى التعريض: فهو يسرع ليمرّ إلى مواضيع أكبر، وإن قال بعض الكلمات في العمل الداخلي الذي كان يدور آنذاك في نفسه، فكأنّه مرغم، لأن حافظته تذكّره به قهرا: الحدث المحدّد الوحيد الذي يُذكر هزيل جدّا: ألم الأسنان الذي شُفِيَ منه فجأة. فهل خاف أوغستينوس أن يكون هذا الجزء مزدوج الإستعمال بالنسبة إلى ما قيل في «الحوارات»؟ لكن بصورة ربما كان من السهل عليه – وصالحا لنواياه، لو فكّرنا في الاعتراضات التي كان للنقد العصري أن يوجّهها إليه – أن يكشف هنا عن الخلفية التي تعرّف بتلك الحوارات على الطريقة الشيشرونيّة: لا بتاتا المناقشات الفلسفية المهذّبة تهذيبا غامرا، بل أوجه التقدّم الداخليّ، الدينيّ تحديدا، لكل واحد من المتجاورين. فهو يقتصر على بضع صفحات من التعليق المناوئ للمانويّة على الزبور الرابع (Psaume IV).

كنت قد فسّرت الأسباب الحقيقية لتلك العجلة: يذكّر بكلّ أنواع الذكريات، خلطا ملطا، كما تأتيه، دون انشغال بالتسلسل التاريخيّ، وغالبا ما يكون لسدّ ثغرة بارزة جدا في القصة السابقة. فدون أن يتوقف مليّا ولو على زمان تعميده وعلى أشهر إقامته بميلانو التي تلته، يمرّ إلى المشهد الأساسيّ الذي سيختم به كتب سيرته الذاتيّة التسعة: قصّة جَذْب أُوسْتِيَا (l'extase d'Ostie) وموت أمّه، إلّا أنّه، وإن عاد طويلا إلى ماضي مونيكا، فهو، على ما أظنّ، يعيد استعمالا يكاد يكون حرفيّا لكتيّب حرّر مسّبقا عن حياة أمّه.

ومن المدهش أن نلاحظ، في خاتمة تلك الكتب التسعة القائمة على السرد التاريخيّ والمتركّزة على الذكريات، أنّ أوغستينوس ذاته واع جدّا بمنهجه وأنه يطلعنا عليه:

«...أستدعي من تلك الصور ما أريد أن يحضرني، يأتي بعضها في الحال، وبعضها أترقّبه مدّة أطول، وكأنّه انتزع من أماكن أكثر عزلة وخفاء، أما بعضها الآخر فيندفع حشودا، وبينما نطلب غيرها ونبحث عنها تقفز إلى الصف الأول، وكأنّها تقول: «لعلّه دورنا نحن...؟»، وأطردها بيد قلبي من محيّا ذاكرتي حتّى تخرج الصورة التي أريدها من السحاب وتأتي أمام عينيّ من أعماق مخبئها (ex abditis = du fond de sa cachette). وبعضها يتقدم، حالما يُستدعى بكل يسر وفي صفوف منتظمة، ويترك السابق منها المكان للاّحق، وفيما هي تفسح لها المجال، تصطفّ جانبا حتى تتقدّم ثانية بإذن مني. فذاك كلّ ما يحدث، عندما أروي شيئا ما تذكرا.»[1].

يحدّد هكذا، تبعا لخبرته الشخصية، كيفيّة استعادة الذكريات، وبحثه عن الذكريات المنسيّة أو شبه المنسيّة، وجهده حتى يستردّ أقصى الدّقة، والفرز اللازم للذكريات التي تنصبّ عليه، وتارة ظهورها في صفوف متكوّنة، يدعو فيها الواحد الآخر، حسب نظام معاكس للنظام التاريخيّ.

ينبغي الاعتراف لأوغستينوس باهتمام بالمنهج وببعض صفات المؤرّخ في ترتيب تلك الذكريات وتقديمها.

نحتاط أوّلا من التعبير الذي يمدّها به، إذ المؤرّخون القدامى لم يكونوا يتورّعون البتّة من أن ينسبوا إلى الشخصيّات التاريخيّة خطابات لم تكن في الواقع إلّا إعادة حدسيّة للتّركيب أو إبداعا فنّيا. ويخضع أوغستينوس للعادة، لكنه لا يخلو من التورّع. فهو يُنبّه إلى أنّ الأقوال التي يرويها، وكأنّه تفوّه بها أمام أصدقائه عند ملاقاة متسوّل سكران في طريق بميلانو، أقوال تقريبيّة، وكذلك، مشهد الجنان، فالخطاب الذي يرسم حديثه الباطني أو الخطاب الموجّه لأليبوس - وفي مشهد أوستيا الكلام بينه وبين مونيكا - لم يكن يطمح فيه إلى الدقة التامّة.

ويمتنع أيضا من نزعته الشخصيّة للتّعبير عن الماضي، كما لو كان هو دوما كاثوليكيّا، وإن قارب تحريض الهرطنسيوس (l'Hortensius) على تحاشي الفلاسفة المزوّرين،

---

(1) انظر في الكتاب العاشر من الاعترافات: X، 8، 12، 10 بالصفحة 248 من الجزء الثاني من كتاب دي لابرييول المذكور، وترجمتنا العربية لهذه الفقرة، الكتاب العاشر، ص 307.

بتحريض مشابه في الرّسالة الموجهة للكولسّيين (Epître aux Colossiens)، ويدقّق ذلك مضيفا أنّه في الفترة التي قرأ فيها مؤلّف شيشرون، كان يجهل بعد كتابات القدّيس بول. عندما يصف الكتاب المقدّس بكونه عصيّ الفهم على المتكّبرين، ويعدّل فيقول: «ما قلت منذ قليل غير متناسب مع الشعور الذي شعرت به زمن تلك الدّراسة الأولى. فهذا الكتاب خِلْتُهُ غير جدير بأن يقارن بجلالة شيشرون». عندما يصرّح أوغستينوس بأنّ بعض المذاهب المسيحيّة المتعلّقة بالكلمة الإلـهيّة توجد عند بلوتين(Plotin)، يدقّق أنّ التعبير عن هذه المذاهب مختلف مع ذلك، في الكتب المقدّسة، عمّا هو في الإنّيادات (Ennéades) أو التساعيّات.

وبصفة عامة، يثابر على تمييز الحاضر من الماضي، وعلى مختلف فترات تطوّره. والأسقف الذي كانت مونيكا التمست منه أن يتناقش مع أوغستينوس ليبعده عن المانويّة رفض ذلك «بحصافة تامّة، كما فهمتها من بعد»؛ بتلك الكلمات، يتركنا أوغستينوس نفهم أنّه، في الحين، رأى في ذلك تهربًا من الأسقف العاجز عن مجادلة الخطيب البارع الذي هو أوغستينوس، عندما يذكرّ باشمئزازه من العيش الذي تركه فيه فقدانه لصديق مات حالما تعمّد، ويحكم على تلك المرارة بأنّها مرجّسة، غير أنّه يلاحظ أنّه، مع ذلك، قد شعر بها. وإن أشار إلى عقيدة الخلاص (Rédemption)، أو إلى المذهب الذي لا يكون الشرّ بمقتضاه جوهرا، فهو يشدّد قائلا: «آنذاك لم أكن أعرف هذا». وتبيّن أوجه تقدّم فكره الشخصيّ في خصوص الأكاديميين: اتّضح له، في وقت ما، أنّ مذهب الأكادميّين ليس هو الذي يعزى إليهم عادة. ففي وقت ما، كان أوغستينوس يخشى أن يَعتقد أنّ المسيح متجسّد، لأن اللّحم رجس وتصوّر مثير للسّخريّة، «لكنّني كنت مع ذلك هكذا».

هذا الإستقصاء السريع يبدي بجلاء حالة ذكريات أوغستينوس في الوقت الذي كان يحرّرها فيه بالقلم، والقيمة النسبيّة لمختلف رواياته. فكامل الجزء الخاص بالطفولة (infantia = enfance) مجرّد من أيّة صبغة تاريخيّة، إذ أقدم الذكريات أقلّها دقة، إلّا بالنسبة إلى بعض الأحوال النفسانيّة ذات الحدّة الكبيرة: كفرحه بالإساءة عند سرقة الإجّاص، وغضبه من عروض المنجّم، وإحباطه زمان موت أعزّ صديق له. وفي خصوص إقامته بميلانو، تصبح ذكرياته كأدقّ ما تكون، كما هو طبيعيّ بالنسبة إلى فترة أساسيّة من حياته؛ لكنّه، حتّى عندما يصف مشهدا بكل نتوء ممكن، يعلن بصدق أنّ بعض الجزئيّات غابت عنه، فهو يجدّ في الأمانة التاريخيّة مستدركا، عندما تمثّل إحدى

عباراته تفكيره الحالي، لا تفكيره القديم، فنحن بحقّ أمام مؤلّف تاريخيّ ذي قيمة، لا فقط أمام عرض لأطروحة لاهوتيّة.

• كيف نَحْكُم على الاعترافات؟

أثارت الاعترافات الكثير من الانتقادات، في السابق وفي أيّامنا هذه أيضا. فكما رأينا، ليست نزعة المحدثين الإمساك عن اللّجوء إلى شهادتها ضدّ أوغستينوس، بل التنقيص من تلك الشهادة مقابل شهادة الحوارات. فإن كان للمؤلف الحاليّ من فائدة، فستكون في استعمال النصوص الخاصة بالسيرة الذاتيّة غير الاعترافات والحوارات، ومن ذلك، في قلب معطيات هذه المجادلة التي امتدت على نصف قرن، هذه النصوص، مهما يكن تاريخها، ينبغي حقّا أن تؤخذ بعين الاعتبار، عندما نريد سدّ الثّغرات وتعيير درجة المصداقيّة في الاعترافات.

فالكتاب هو، في البداية، سرد تاريخيّ: يرمي أوغستينوس منه إلى أن يُطلع على حياته بولن نولة (Paulin de Nole) و«الرّوحانيين» الآخرين. وهذا السرد التاريخيّ مؤطرّ في مخطّط لاهوتيّ أوسع، فلا يمثّل، في تفكير أوغستينوس، إلّا شبه مقدّمة لمجموع ضخم، فأوغستينوس - مهما يكن قد تخلّى عمدا عن نهاية السيرة الذاتية ليتصدّى بأكثر عجلة إلى عروض لاهوتيّة بحتة - لم يجد قط الفرصة السانحة لختم ذلك المجموع. وبالفعل، على الرّغم من إدماج عديد العروض ذات الطابع الغنائي أو المذهبيّ، فقصّة سيرته الذاتيّة ترتكز على تذكّر أحداث حقيقيّة، وهي من الأمانة بحيث أنّ الذّكريات القديمة، ما عدا بعض الأفعال البارزة، تبدو كأنّها امّحت من ذاكرته؛ فهو قد حاول أن يميّز تاريخيّا عقليّاته المتتالية ويصل إلى الدّقّة التاريخيّة، لا بواسطة توضيحات وهميّة، بل بالإعتراف الأمين بثغرات في ذاكرته، ولو كان الأمر بالنسبة إلى المشاهد التي يخالها ذات قيمة أساسيّة.

قد لا يكون من العدل أن نظنّ أن يكون الهدف من الإسقاطات ومن الإغفالات ومن الأخطاء، لدى أوغستينوس الحقيقي، تغيير الصورة - في نهج معيّن ودوما هو بذاته - لتطوّره الحقيقي، فمقابلة الشهادات الهشّة غالبا ما تمكّن من إعادة صياغة تسلسل الأفعال كما يجب أن يسجّله مؤرّخ لا يلجأ إلى العناية أو النعمة الإلـهيّتين ولا إلى أيّة رؤية لاهوتيّة أخرى.

فهذه الطريقة في النقد تترك مجالا ضيّقا للغاية لطفولة أوغستينوس، فشخصيّته لا تبدأ في البروز إلّا مع فصل سرقة الإجّاص. وعلى العكس، ينير نصّان، من مدينة

الإله (Cité de Dieu) نهج تطوّرات الكتاب الثّالث من الاعترافات المناهضة للعروض المسرحية والعروض التي كان أوغستينوس يفكّر فيها عندما كان يكتب تلك التطوّرات، وهي بالخصوص في التمثيل الإيمائيّ والواقعيّ للغاية لملذّات سيبال (Cybèle) وأتّيس (Attis)الجسدّية.ففي زمان مراهقته، شاهد تلك المشاهد باهتمام واندهاش ولذّة.

وقد بدأ مع ذلك في التجرّد من الحياة الجنسانيّة، ما إن بلغ سنّ التاسعة عشرة، بقراءة الهرطنسيوس. وهذا الحوار لم يلهمه فقط احتراما مبدئيا للفلسفة النظريّة، بل كان أساسًا لتتغيّر حياته جذريّا، إذ إنّ مناجيات نفسه تَردُّ لاكتشاف الهرطنسيوس هذا تخليّه عن عقليّة الثراء، ومن بعد ذلك، عندما سيريد أوغستينوس، المانويّ أو الكاثوليكيّ، الحصول من مثقّف ما، تلميذ أو صديق، تغيّرا جذريّا من نفس القبيل، فهو سيضع بين يديه الهرطنسيوس، وسيلعب الدور الكلاسيكيّ الذي لعبه كسينوكرات (Xénocrate) عندما أوقع بولمون (Polémon) أسيرا للحكمة، وزيادة على ذلك، فليس الأمر في إهمال الثقافة الخطابيّة لفائدة الثقافة الفلسفيّة، لأنّ التضاد المألوف، في الفترة التي نوجد فيها، بين صنفي الثّقافة، لم يعد محسوسا في المدرسة.

ففقرة من الخطبة الحادية والخمسين تمكّننا من ضبط الكيفيّة التي يقوم عليها الانتقال من التحوّل الفلسفيّ إلى التحوّل المانويّ. إنّ أوغستينوس، المفتون بحياة الفكر، قد أراد أن يقيّم بنفسه أهمّية الشهادة المسيحيّة. فحالما فتح الأناجيل، وجد نفسه في مواجهة مسألة ازدواج أصل المسيح. والتفسير الوحيد الذي تراءى له كان ذلك الذي أوحى به إليه أحد المانويّين: ذلك التناقض بين الأصلين هو علامة على كون الفصول المتعلقة بالميلاد العذريّ للمسيح مدسوسة، فالمسيح ليس إنسانا من لحم، بل هو كائن ملائكيّ ليس له من الجسم إلّا المظهر. ومن هناك فصاعدا، كان التبشير المانويّ يلج صدره.

فلو رتّبنا، حسب النظام الأكثر احتمالا، الفقرات العديدة للسيرة الذاتية في تآليف أوغستينوس المعارضة للمانويّين، لظهرت أوجه التقدّم، ثم التقهقر للمانويّة في فكره بيّنة جدا، بتقاطعها مع معطيات الاعترافات، فبسبب استيائه من كون بعض السلطات الكاثوليكيّة قد نصحته بالعدول عن دراسة الكتب المقدّسة، طالب أوّلا، بأنفة، بحقّه في قراءتها وبالقيام بنفسه بنقدها العقلانيّ، وشفى المانويّون غليله العقلانيّ مشيرين عليه بعديد الفقرات الأخرى المزعجة، ناسخين إياها بنظريتهم

الخاصة بالنصوص المدسوسة. وأوغستينوس الذي كان قد انفصل منذ مدّة طويلة عن الكاثوليكية، بجنسانيّة المراهق، يبتعد الآن عنها بالذكاء. ويقدّر أيضا الودّ الذي يبديه له المانويّون؛ فيصبح بسرعة،لا فقط تابعا،بل مناضلا متحمّسا لهم، يجعل الكثير من أقربائه،وأصدقائه،وتلاميذه يعتنقون مذهبه، ويناصر الطائفة في محاضرات متعارضة، ويحترم في ما يخصّه، احتراما كلّيا، التحريـمات التي تفرضها عليه درجته «منصتا».

ينبغي إذن القول إن أوغستينوس قد انبهر بالمذهب، ولو أن بعض الصعوبات العقلية لم تزل في فكر المعتنق. والحدّ الوحيد لاعتناقه هو أنّه، بعد تسع سنين وأكثر، لم يزل غير قادر على أن يعتزم التفوه بالبذور الخاصّة «بالمختارين»، وكان لا يبغي العدول عن مسيرته، ولا يشعر أنّ له القوّة ليلتزم بتقشف كامل، إذ إنّ حماسه الأوّل تبعته فترة من الرّكود أو نوع من الفتور، فالصعوبات العقلية بدأت تصير أكثر جدّية، لأنّه اتضح أنّ رؤساء الطائفة الأكثر تخصّصا، عاجزون على حلّها، فأوغستينوس ساخط على بعض نتائج الصبغة السريّة للكنيسة المانويّة، إذ هي مرغمة الآن على المزيد من الاحتياطات. كان يريد لو يرى حِزْمَ المختارين الذين يرتكبون خرقا لقانون حياتهم، وأحيانا إخلالا حقيقيا بالآداب العامّة، إلّا أن رؤساء الطائفة لا يتجرّؤون على عقابهم بقسوة مخافة الوشايات.

يبقى تطوّر أوغستينوس داخليّا سرّيا، ففي روما كان يحيا ويعمل دوما بين المانويّين، ولم يكن له إلّا أن يرضى بمساعيهم الحميدة. وحافظ على عقليّةٍ وردود فعل مانويّة حتى وصوله إلى ميلانو، حتى بعد أن أصبح ارتيابيّا ثم كاثوليكيّا؛ وكان في بداية إقامته بها، لا يزال يتصوّر أن فاوستوس ميلاف قد يستطيع أن يأتي لرفع شكوكه؛ وعندما أشار أمبرواز (Ambroise) عليه بأمر في خصوص مسألة الصوم، كان ردّ فعله الدّاخليّ في عقليّة الرّيبة من السلطة؛ ففي خلوته بكسّيسياكوم، كان في الحياة السعيدة (De uita beata = De la vie heureuse) يلتفت إلى الماضي، ويعيب على السلطات الكاثوليكيّة تحريمها قراءة الكتب المقدّسة.

وموقف أوغستينوس، خلال سنته الأولى للتدريس بميلانو، جدير بأن نتوقف عنده، فتلك المدة هي التي سيمرّ فيها من الشك الوقتيّ المانويّ إلى الشكّ الوقتيّ الكاثوليكيّ. وفي فترة الانتظار كان ارتيابيّا، ومتقزّزا، إلّا أنه كان طموحا أكثر من أي وقت مضى؛ فبما أنّه عدل عن مشروع تحوّله يوما ما إلى منصب «مختار»، كان الدّافع الرئيسي الذي يحرّكه هو اهتمامه بمسلك نيّر في التدريس، أو بالأحرى في الإدارة.

اغتبط بكونه مدعوّا، بسبب مهامه، لأن يلقيَ في غرّة يناير 385، المدح الرّسميّ لبوطون (Bauton)، وفي 22 نوفمبر، مدح الإمبراطور الصغير «والنتينيون» الثاني (Valentinien II)؛ فسعى إلى أن ينال إعجاب ذوي النفوذ في ذلك الوقت، دون أن يهتمّ بكون سياستهم، معادية للمانويّين أو الكاثوليكيّين؛ وطمح في زواج مفيد. وبقي، مع ذلك، قابلا للنّقد الذاتيّ، عندما حثّه حدث تافه، كضحكِ متسوّل سكران ونزاهة حاجب بائس، على أن يحاسب نفسه.

وبعض فقرات الاعترافات الفاسدة التأويل، غالبا ما جعلت الناس يعتقدون أنّ أوغستينوس كانت له علاقات شخصيّة حميمةتربطه بـ«أمبرواز»؛ أمّا في الواقع، فطيلة السنتين الأوليين من إقامته بميلانو، وحتى مغادرته لها لكسّيسياكوم، انحصرت علاقاتهما في شيء قليل جدا: زيارة مجاملة عند الوصول، ومسعى غير مكلّل بالنجاح، لفائدة مونيكا، وتبادل لبعض العبارات اللطيفة، لكنها مقتضبَة، ودون أيةّ صبغة سرّية؛ ولو أنّ الوازع الخاصّ لأوغستينوس، خلال المسعى المتعلّق بمونيكا، كان منه ردّ فعل مانوياً محضا، فيبدو أنّه قد سهر، في اعترافاته، على السكوت عن هذه الواقعة، وعلى إخفاء الضمانات (مع كونه يتّهم نفسه بالطمّوح) التي أعطاها ربّما، في مدائحه، لحكومة معادية للكاثوليكيّين.

هل ينبغي إذن، كما فعل البعض، أن نظنّ أن التأثير المزعوم لأمبرواز على أوغستينوس، والمؤكد مرارا وتكرارا في الاعترافات، غشّ تقيّ؟النتيجة تبدو متأكّدة، لو اعتبرنا أمبرواز عدوّا للفلاسفة، ولو عاينّا أنّ أوغستينوس مولع، خلال سنة 386 بالأفلاطونيّين المتأخرين. لكنّنا أيقننا، بالعكس، في هذا العمل، يقينا متركّزا على المقابلة بين النصوص، أنّ بعض خطبات أمبرواز قد أثّرت حقّا تأثيرا أساسيّا في تفكير أوغستينوس، وعلى الأقل إبتداء من أبريل 386.

ومن ناحية أخرى، فخطبتان من الهكزامرون (Hexameron)، الأولى تتعلق بحريّة الاختيار، والأخرى بطبيعة الإله اللاّجسدّية، لأنّهما كانتا تتعارضان رأسا مع الآراء المانويّة التي كان أوغستينوس قد قبلها دوما، أصاباته في الصميم؛ فقد فتحتا قليلا أمامه الباب لعالم روحانيّ، لم يكن يخطر بباله؛ ويبدو أنّه قد تعاطى، ابتداء من ذلك الوقت، استقصاء شخصيّا حول النفس البشريّة، مهتمّا بالأحلام، معاينا انسانًا أصّم أبكَم.

ومن ناحية أخرى، فخطبتاه عن إسحاق أو النفّس (De Isaac uel anima = Isaac

(De bono mortis = du bien de la mort) وعن فضل الموت (ou de l'âme تستعملان صفحات كاملة من بلوتين؛ ففي خاتمة الخطبة الأولى تعليقٌ، جملةً بجملة، على الخلاصة الرّائعة للمقالة في الجمال (Sur le Beau)؛وهاتان الخطبتان تقدّمان، في قرينة الإيصاء، بعد أن وقعت مراجعتها مراجعة دقيقة حسب أركان العقيدة الكاثوليكيّة، المبادىء الأساسيّة للتّساعيات (Ennéades) حول الخير المطلق وأصل الشرّ وصعود النفس نحو الإلـه، وصولا إلى الجذب والوطن السماويّ والتحرّر الذي يمنحه موت الجسم، وحياة المنعّمين السرمديّة. و«النشوة القنوعة» التي كان أمبرواز في خطبه يعلّمها لأوغستينوس، هي في الآن نفسه تلك التي يهبها الروح القدس، وتلك التي ينشئها الرّحيق المحبوب لدى الأفلاطونيّين المتأخّرين.

ولو كانت البراهين التي أُثبتُ بها أنّ تاريخ ظهور تلك الخطب براهين قليلة التأكد، لكان الواقع وحده، في أنّ أمبرواز ربّما درّس على العموم، مذاهب أصلها البلوتينيّ لا يزال ملموسا من أوّل وهلة، واقعا منيرا بنور جديد مشكلة اعتناق أوغستينوس للمسيحيّة. أهو اعتناق للأفلاطونية الجديدة أم للمسيحيّة؟ أهو اعتناق للأفلاطونية المتأخّرة مشوبة بالمسيحيّة، أم للمسيحيّة مشوبة بالأفلاطونية المتأخّرة؟ «كيف يفسّر تداخل العناصر المسيحيّة والأفلاطونيّة المتأخّرة، الذي يُعايَن، دون شكّ، عند اعتناقه للمسيحيّة؟ لا نستطيع، كما كان يقول يانسان (Janssen)، إلّا أن نقدّم افتراضات، بما أن مراجعنا بكماء في هذا الموضوع». لكن الفحص العميق يبرز أنّها ليست حقّا بكماء؛ ولذا تفقد المجادلة المتعلّقة بالاعتناق مغزاها حالما نرى أمبرواز، وهو أسقف منذ اثني عشر عاما، ولامسيحيّ منذ زمن قريب، لا يتردّد في مناداة رعاياه بالأطروحات البلوتينيّة مندمجة في العقيدة المسيحيّة. ولا يسعنا إلّا التخمين في كونه يتبنّى حتّى بعض الأطروحات البورفيريانيّة!

فالأفلاطونيّة المتأخّرة والمسيحيّة وثيقتا الصلة بالنسبة إلى الأدمغة المفكرّة في كنيسة ميلانو، وليستا متضادّتين، كما ظنّه المحدثون، فهذه الصيغة التأليفيّة، والمركبّة بعد، هي التي أعطاها أوغستينوس موافقته الكليّة، وأصل ذلك التآلف الرّائع يبدو أنّه يرجع حقّا إلى ماريوس وكتورينوس (Marius Victorinus) الذي كان قد عاشره سمبليسيان (Simplicien) معلم العقيدة المسيحيّة لأمبرواز، لكننا نجد أقلّ سهولة في تحديد كيف أنّ أوغستينوس أخذ يتقدّم في المذهب. والأمر المتأكدّ هو أنّه ما انبهر بالدّعوى للمسيحيّة ولا بالشجاعة السياسيّة لأمبرواز ولا بمعجزاته في جوان

386. فلا بدّ أنّ تَطوّره كان سريعا للغاية، أي نتيجة بضعة أشهر؛ وتتالي الأحداث يبدو أنه يجب أن يصاغ من جديد كما يلي، اعتمادا على أقلّ ما يمكن من الإفتراضات: فأوغستينوس، بعد أن سمع خطب امبرواز البلوتينيّة، لعلّه شعر بإثارة عقليّة شديدة؛ وأراد أن يتعرّف على المراجع، فلربّما اتّصل، إثر نصيحة من أمبرواز، بفيلسوف ميلانو الكبير ثيودوروس (Theodorus)، وهو بلوتينيّ ومسيحيّ معا، وهذا الأخير خصّه بعدّة محادثات حول النفس وأعاره كتب الأفلاطونيّين (libri Platonicorum = les livres des Platoniciens)، فحالما قرأ أوغستينوس بعض تآليف التساعيات (Ennéades) شعر، وهو مرتع «لحريق لا يصدّق»، بقدرته على الإرتقاء على الفور إلى التجلّي، وهذه المحاولة المتجدّدة مرارا عديدة انتهت بإخفاق مرّ، وفي اضطراب هائل. اتّجه أوغستينوس آنذاك نحو سمبليسيان، معلّم أمبرواز السابق للمسيحيّة، وهذا الأخير قارب أمامه بمنهجيّة تامّة التسّاعيّات والدّيباجة اليوحنيّة، مشدّدا على إضافات المسيحيّة بالذات؛ ونصحه بقراءة رسائل بول (Epîtres de Paul)؛ وكان يعتقد أنّ تلك القراءة ستفسّر لأوغستينوس التباين الكلّي الذي كان يلحظه بين رغباته الحادّة في التجلّي، وعجزه الجذريّ في الوصول إليه. أمبرواز وثيودوروس وسمبليسيان، هؤلاء الرجال الثلاثة، رغم أنّهم مختلفون كلّ الإختلاف، الواحد عن الآخر، عملوا في نفس الإتجاه وفي سعي مشترك على تطوير فكر أوغستينوس. وهذا التطوير فلسفيّ ودينيّ معا. إذ إنّ خطب أمبرواز قد جعلته يكتشف وجود بلوتينيّة مسيحيّة تضادّ روحانيّتها المعتقدات المانويّة، ولكنها تتّفق مع العقيدة الكاثوليكيّة. فالفيلسوف ثيودوروس علّمه بصورة أعمق المذاهب الأفلاطونيّة المتأخّرة، ومدّه بالكثير من مؤلّفات بلوتين. والقسّ سمبليسيان ختم ذلك التكوين العقليّ الجديد بتصفية معطيات الأفلاطونية المتأخّرة على ضوء الكتب المقدّسة. زدْ على ذلك أنّ ثيودوروس قد قاد، بمِثاله، أوغستينوس إلى حدّ الرغبة الأكثر حرارة في الخلوة الفلسفيّة (l'otium)، وسمبليسيان قد عجّل باعتناقه لأخلاقيّته الجديدة، فوهبه وكتورينوس مثالا يحتذى، وحثّه على العمل من أجل الإنخراط في الكنيسة، وبقداسته الزّهديّة، أوصله إلى القرار الذي به أعاد النظر في سيرته.

فسنلاحظ أنّ أوغستينوس، في الاعترافات، إمّا لغاية مقرّرة، أو بسبب سهولة العرض، يوضّح بتوضيحات مختلفة هذه التأثيرات المختلفة: فيخصّ أمبرواز وحده بفضل تهيئة ثورته العقليّة؛ ويقلّص أكثر ما يـمكن من عمل ثيودوروس، إلى حدّ

السكوت عن اسمه، ولا يذكر من سبليسيان إلّا تأثيره الأخلاقيّ، والحال أنّ التأثير الثّقافيّ لم يكن أقلّ عمقا، كما تشهد بذلك بضعة أسطر ثمينة من مدينة الإله (**Cité de Dieu**)، وهو ما حمى أوغستينوس من أن يتيه في اتجاه البلوتينيّة المحضة، وجعله ينبهر بخشوع المسيح المتجسّد.

ولنا بضع علامات عن الإهتمام الذي أظهره أوغستينوس، وعن المغزى الذي علّقه على الكثير من الآيات (المذكورة) في الرّسالة إلى الرّومان (**Epître aux Romains**) عند قراءتها. لماذا كان عليه، في نصف الطريق، أن يأخذ القرار بالاستقالة وبالإبتعاد عن الدنيا في خلوة دراسيّة؟ ليس ذلك إلّا نتيجة إرادة ضعيفة قديمة، حيث أنّه كان قد تمنّى بعدُ مثل هذا المشروع، رفقة المانويّ رومانيان (**Romanien**) وخلّين آخرين؛ فالأوساط المانويّة بروما كانت، في نفس التاريخ، تنجح مثل هذا المقصد. فمنذ أن شغف بالأفلاطونيّين المتأخرّين، لا غرو أن تكون فكرة الإقتداء ببلوتين، صاحب المدينة الأفلاطونيّة (**la Platonopolis = la cité platonicienne de Plotin**)، تتردّد عليه من جديد، أو بثيودوروس، الأقرب منه، والذي كان قد استقال من مهامّه لينعزل للحياة الفلسفيّة في ريف ميلانو؛ إذ إنّ أزمة الرّبو العنيفة التي كان أوغستينوس آنذاك يعاني منها تجعله لعمري قليل التأهل للتّدريس. لذا فمشهد جنان ميلانو ليس، من جهة الإستقالة، إلّا شيئا طبيعيّا، والقرار الفجئيّ ليس، في الواقع، إلّا خاتمة تطوّر مديد. والرّغبة ذاتها في الإنقطاع للتقشف تعود إلى الوقت الذي كان أوغستينوس فيه، وهو مجرّد «مُنْصِت» مانويّ، يحاول عبثا أن يبلغ درجة الكمال لدى «المختارين». والسبب الموجب هو، حسب الاعترافات، رواية بونتيسيانوس (**Pontitianus**) التي تكشف عن وجود تلامذة للقدّيس أنطوان (**Saint Antoine**) منقطعين للتقشّف ومنضوين في زمرة طوائف مسيحيّة.

ونفهم فهما أحسن لِم كان لهذه الرّواية كبيرُ الصدى لدى أوغستينوس وأليبيوس، لو كان «المعتنقان» الصغيران للمسيحية بتريفا (**Trèves**)، واللذان حطّما دربيْهما ليعتنقا الحياة الفاضلة، مثقّفين مثلهما، وذوي مستقبل زاهر؛ ويحتمل على الأقلّ أنه ينبغي تحديد هويّتي هذين الشابيّن بكونهما بونوز (**Bonose**) والقدّيس جيروم (**Saint Jérôme**)، إذ إنّهما اعتنقا المسيحيّة بتريفا لاتّصالهما بايواغور الأنطاكي (**Evagre d'Antioche**)، مترجم حياة القديس أنطوان (**La Vie de Saint Antoine**). وجيروم، في الفترة التي رويت فيها القصّة، كان قد حظي بعد بسمعة فائقة بكتبه.

ومشهد الجنان أيحتوي، كما قيل، على معجزة مسيحيّة، أم على شيء خارق للعادة من الوثنيّة؟ فشجرة التين هي إطار رمزيّ؛ والعبارات ارفع (Tolle) واقرأ (lege)[1]، بالنسبة إلى من يعرف كيف يقرأ أوغستينوس، ليستا إلّا تعبيرا أدبيّا عن فعل داخليّ، فأوغستينوس ينسب صيحة أولاد التقشّف هذه، إلى كل أولئك الشباب الذين يسكنون الدّار الإلـهيّة، لأنّهم انقطعوا، منذ المراهقة، إلى عزلة تقيّة. فهذه العبارة المجازيّة تترجم فقط النداء القلبيّ الذّي يسمعه أوغستينوس، تحت تأثير روايات بونتيسيانوس؛ ومشهد جنان ميلانو لا يقوم بعد إلّا برسم جديد، خطّا بخطّ، لمشهد حديقة تريفا. فلذلك إذن، حالما يستعيد أوغستينوس قراءة الرسالة الموجّهة إلى الرّومان، وكان توقّف عنها بضع ساعات بعد زيارة بونتيسيانوس المبَاغتة، تراه بالطبع يطبّق على نفسه أوّل آية تقع أمام عينيه، ويترّواها في صمت، ويؤوّلها بمعنى أنّها دعوة للتقشّف، ويتخذ - شأنه كشأن أليبيوس - القرار الذي لن يحيدا عنه بالمرّة.

فالإقامة بكسّيسياكوم كان رسمها بصفة عابرة في الاعترافات، لأنّ أوغستينوس، بعد أن وصل إلى الكتاب التاسع، كان يريد الإنتهاء من سيرته الذاتيّة كأسرع ما يكون، غير أنّه يرمي بإشارة إلى صراعاته الداخليّة، دون أيّ تحديد، والمناجيّات (Soliloques) تكشف عن صراعه ضدّ النزغات الجنسانيّة، وكتابه في النظام (De ordine = de l'ordre) يكشف عن صراعه ضدّ الصعوبات العقلانيّة والشخصيّة التي توجّه إليها آنذاك أوغستينوس، لكن دون نجاح، حتّى تعينه على حلّ إشكالاته المتعلّقة بطبيعة النفس، ليست حقّا أمبرواز، كما قيل مرارا، بل هي لا غرو ثيودوروس.

لماذا الاندهاش من كون رواية الإعتناق للمسيحيّة، كما تتجلّى من الاعترافات، مختلفة جدّا عن الشعور الذي تتركه فينا الحوارات المحرّرة في كسّيسياكوم؟ لو فكرّنا هكذا، لوجب علينا أن نستخلص، لا فقط، أنّ أوغستينوس ليس مسيحيّا بالنيّة في ذلك التاريخ، لكن ولا أفلاطونيّا متأخّرا أيضا، لأنّ الحوارات هي شيشرونيّة بالأساس، بالنسبة إلى المحتوى وكذلك إلى الصيغة. إذ لا نجد فيها سوى إشارات سريعة إلى الفكر الأفلاطوني المتأخّر، وكذلك إلى الدّين المسيحيّ. أمّا الجرأة فكانت بالرّغم من الجنس الفلسفيّ للحوارات الشيشرونيّة، لأنّه دسّ فيها اسم المسيح. وينّبهنا أوغستينوس نفسه إلى أنّ أليبيوس كان قد استنكر، في البداية، أن رآه مدرجا فيه، وأنّه

(1) انظر ما قاله عن ذلك الدكتور عبد الوهاب بوحديبة، رئيس «بيت الحكمة»، في مقدّمته لهذا الكتاب.

كان يرغب أن تحذف الفقرات التي يظهر فيها من التلاخيص المختزلة: «.... فذاكرتي تعيدني إليه (أي إلى الوقت البعيد من حياته) ويحلو لي، مولاي، أن أعترف إليك... كيف أخضعت... أليبيوس ذاته، أخ قلبي، لاسم ابنك الوحيد «مولانا ومنجّينا اليسوع المسيح» الذي كان احتقاره يكره أوّلا أن أحشره في كتاباتي. إذ كان يفّضل أن يستنشق فيها رائحة «أشجار الأرز» التي «كسّرها» المولى بعد، عوضا عن الأعشاب المنجيّة لكنيستك، الحامية من الحيّات».

في الاعترافات، يمرّ أوغستينوس بسرعة أكبر بكثير على تعميده وعلى إقامته الثّانية بميلانو وروما، منه على إقامته بكسّيسياكوم، فلا يعتني حتى بتحديد كونه تعمّد على يد أمبرواز، ولا يقول شيئا عن تلقينه قواعد التعميد الدينيّة؛ نستطيع فقط، بالتقاطعات، أن نخمّن أنه أنصت آنذاك إلى الخطبتين الوعظيتين لأمبرواز الخاصّتين بإيزايْ (Isaïe) ولوك (Luc)، وأنّه قد لقّن المذهبين الخاصّين بالخطيئة الأصليّة وبالخلاص.

فموقف أوغستينوس، قبل التعميد بقليل، ليس أكثر ولا أقلّ غرابة من موقفه بكسّيسياكوم. إذ ليس له أيّ احتقار للثّقافة الدّنيويّة، بما أنّه يحرّر كتابا كبيرا عن الاتجاهات الأدبيّة (les disciplines)، رغم كل الإعتراضات القادمة. ويؤلّف مؤلّفا عن ديمومة الرّوح (De l'immortalité de l'âme)، وهو يبدو بلوتينيّا أكثر بكثير منه في حوارات كسّيسياكوم. ولكن، في نفس الوقت، يمشي قدما، وراء أليبيوس، في طريق الزّهد المسيحيّ؛ وكلاهما يتخّذ من بولين، قديس نولة القادم مثالا «للمعتنق» الشهير للمسيحيّة. وهذا المثال الأعلى (exemplum = l'exemple ou l'homme idéal) يجدّد في نفسيهما التأثير الذي كان قد أثّره فيهما، في السنة الماضية، «معتنقا» تريفا. وهذا العمق الماورائيّ والدّينيّ، الأفلاطونيّ المتأخّر والمسيحيّ في الآن نفسه، الذي سيتواصل كذلك طيلة إقامته الثّانية بروما، كان يبدو إلى وقتنا هذا صعب التفسير. لكنّه يصبح سهلا حالما نعلم أنّ أوغستينوس قد لقّن الأفلاطونيّة المتأخّرة، داخل كنيسة ميلانو عينها.

وبعد التعميد، يبدو أنّ صلة حميمة قد نشأت أخيرا، بين أمبرواز وأوغستينوس، مدّة الأشهر الأخيرة من الإقامة بـميلانو، ورغم صمت الإعترافات الكلّيّ عنها، فنحن نملك عن الموضوع شبكة من النصوص والقرائن الدقيقة، لكنها متطابقة. فالسنة المقضّاة بروما لن تُنسى أوغستينوس لا دروس أمبرواز، ولا عادات ميلانو، والتجربة بأوستيا تكشف لنا أخيرا التقدّم المسجّل منذ زمن محاولات الجذب (في 386). وفي

الواقع، يتجلّى أنّ أوغستينوس ليس أقلّ بلوتينيّة (آنذاك) منه في السنة السابقة؛ ونظرته ليست أقلّ عبورا؛ أمّا الفرق الوحيد، وهو مع ذلك أساسيّ، فيتّصل بكون ذلك العبور ينشىء الأمل، لا البلبلة؛ فأوغستينوس، وهو يصّدق الوعود المسيحيّة، يملك الآن الأمل في الرّؤية وجها لوجه، الموعودة للمعمّدين.

ونرى كيف يمكن، اعتمادا على دلائل خارجية، أن تراقب المصداقيّة النسبيّة للإعترافات والحوارات، ولكن أن تثري أيضا كل الإثراء قصّة السيرة الذاتيّة. فينبغي، في الخاتمة، أن نلاحظ كم تكون قصّة الاعترافات نزيهة، إذا قارنّاها بالأساليب المعتادة في القِدَاسَةِ وفي تقييم الفضيلة في ذلك العصر.

فلا حيل ولا «معجزات» البتّة مسبوكة عمدا في حياة أوغستينوس، رغم الخطابة والنزعة الرّوائية المحسوستين في التعبير الخاصّ بمشهد الجنان. إلّا أنّ أسقف عنّابة مقتنع، ويحاول إقناع القارىء، أنّ الإلـه يقود اللّعبة من أوّلها إلى آخرها، بواسطة عنايته ونعمته؛ فالملحدون أنفسهم هم أدواته دون علمهم؛ والصدف الظّاهريّة تغطّي مقاصدهُ الخفيّة. وهذا التأويل قد أدّى أحيانا بأوغستينوس إلى الإعراض عن تحديد الطرق البشريّة التي كانت الأحداث تتسلسل بها في الاعترافات. لكن الكثير من النصوص الأخرى في السيرة الذاتية تسدّ هذا الفراغ، وتثري بها - إذا قاربنا شهاداتها - معلوماتنا عن التاريخ الأدبيّ المتّصل بخطيب قرطاجة وميلانو؛ فقد مكّنت، بالخصوص، من إدراك أحسن لتواصل الأحداث وللإنتقال من الإعتناق الفلسفيّ إلى الإعتناق المانويّ، وللصّلة الوثقى بين اعتناق الأفلاطونيّة المتأخّرة واعتناق المسيحيّة.

المعجم الثلاثيّ

عربي لاتينيّ فرنسيّ

نأتي الآن إلى معجمنا الثلاثيّ: عربي / لاتينيّ / فرنسيّ، وقد اعتمدنا في صلبه على متابعة تسلسل الكتب الثّلاثة عشر للإعترافات (les Confessions) بمفاهيمها ومصطلحاتها المختلفة، وبدأنا بذكر ترجمتنا العربيّة، ثم انتقلنا إلى ألفاظ أوغستينوس وعباراته وجُمَله ذاتها، وقد جعلناها بحروف مائلة (*en italiques*) للتنبيه إلى أولويتها المعرفية في هذا المقام، ثمّ أوردنا ترجمات بيار دي لابريول (Pierre DE LABRIOLLE) باللغة الفرنسية:

الكتاب الأوّل	
1) مبشّر	I, 1, le Prédicateur – *praedicator*
2) كهنوت	Le ministère – *ministerium*
3) يَسَعُ	II, 2 contenir – *capere*
4) ابتهل	invoquer – *inuocare*
5) تلاشى	III, 3 s'éparpiller – *dissipari*
6) خطايا	V, 6, les péchés – *delicta*
7) نجاة	VI, 7 le salut – *salus*
8) غرائز الحيّ	VII, 12 les impulsions de la vie – *conatus animantis*
9) في الآثام	dans l'iniquité – *in iniquitate*
10) في الأوزار	dans le péché – *in peccatis*

IX, 14 la science verbeuse – *linguosae artes*	11) ثرثرة
les chevalets – *eculei*	12) منصبات التعذيب
IX, 15 les ongles de fer – *ungulae*	13) أظفار الحديد
le jeu de paume – *ludere pila*	14) كرة الراحيّة
X, 16 la curiosité – *curiositas*	15) فضول
les spectacles – *spectacula*	16) عروض مسرحية
XI, 17 le baptême – *baptismum*	17) تعميد
l'église mère – *mater ecclesia*	18) الكنيسة الأمّ
la rémission des péchés– *remissio peccatorum*	19) تكفير عن الذّنوب
la purification – *mundatio*	20) تطهير
se souiller – *sordidari*	21) نجس
II,18 les tentations – *temptationes, (et aussi temtatio* (graphie tardive	22) نزغات
XII, 19 l'assouvissance – *satiari*	23) إشباع
les passions insatiables–*insatiabiles cupiditates*	24) شهوات غير مشبعة
XIII, 20 les courses errantes – *errores*	25) تشرّدات
21 de telles folies – *talis dementia*	26) هذه الحمَاقات
la fornication – *fornicatio*	27) زنى
22 les mauvaises voies – *malae uiae*	28) سير خبيثة
XV, 24 les séductions – *seductiones*	29) إغراءات

XVII, 27 l'esprit – *ingenium*	30) موهبة
le sarment du cœur – *palmes cordis*	31) سرْع القلب
les frivolités – *nugae*	32) ترّهات
XVIII, 28 les vanités – *uanitates*	33) تفاهات
l'abîme effrayant – *inmanissimum profundum*	34) هاوية مذهلة
la passion ténébreuse – *affectus tenebrosus*	35) عاطفة مظلمة
XIX, 30 (regarder) de sottes comédies – *spectandi nugatoria*	36) مشاهدة هزليّات جوفاء
l'innocence de l'enfant – *innocentia puerilis*	37) براءة الأطفال
XX, 31 l'abjection – *abiectio*	38) سفالة
ô ma douceur – *dulcedo mea**	39) يا عذوبتي
ô mon honneur – *honor meus**	40) يا شرفي
ô ma confiance – *fiducia mea**	41) يا ثقتي
الكتاب الثاني	
I, 1, les turpitudes - *foeditates*	42) دناءات
II, 2 la concupiscence - *concupiscentia*	43) شبق (جنسيّ)
II, 2 (les) vices - *flagitia*	44) رذائل
II, 4 (les) verges - *flagella*	45) مَجَالد
II, 4 (les) joies - *iucunditates*	46) مسرّات
II, 4 (les dégoûts) - *offensiones*	47) قرف
II, 4 (le) honteux honneur (humain) *dedecus humanum*	48) خزي (بشري)

III, 5 cœur pénitent - *cor confitens*	49) قلب تائب
III, 6, l'inquiète adolescence - *inquieta adulescentia*	50) فتوّة حيرى
III, 6 catéchumène - *catechumenus*	51) طلب التّنصير
III, 6 (les) voies tortueuses - *uiae distortae*	52) طرقات ملتوية
III, 7 (la) gloriole - *laus*	53) زهو
III, 7, plus vil ≠ plus chaste - *uilior ≠ castior*	54) لؤم ≠ أكثر عفّة
III, 8 (rouler) dans la fange - *uolutari in caeno*	55) يتمرّغ في الوحل
III, 8 (facile) à séduire - *seductilis*	56) غويّ
III, 8 (les germes) funestes - *pestilentiosum*	57) طاعون
III, 8, une vie pure - *pudicitia*	58) طهارة
IV, 9 surabondance d'iniquité - *sagina iniquitatis*	59) وفرة الجور
IV, 9 (la) détestable habitude - *pestilentiae mos*	60) عادة طاعونيّة
IV, 9 bande de jeunes vauriens - *nequissimi adulescentuli*	61) صبيان أوغاد
IV, 9 âme souillée - *turpis anima*	62) روح دنسة
V, 10 (les) beautés terrestres - *infima pulchra*	63) أشياء جميلة دنيويّة
V, II (les) biens supérieurs et béatifiques *bona superiora et beatifica*	64) مزايا عليا ومنعّمة
V, 11 honneurs, pouvoir, richesse *honores, imperia, diuitiae*	65) مجد، سلطة، ثروة

VI, 13 (la rigueur) des puissants *(saeuitia) potestatum*	66) متجبرون جبروت
VI, 13 les libertins - *lasciuientes*	67) خلعاء
VI,13 la prodigalité = la libéralité - *effusio = liberalitas*	68) إسراف = سخاء
VI, 13 colère et vengeance - *ira et uindicta*	69) غضب وانتقام
VI, 13 tristesse et cupidité - *tristitia et cupiditas*	70) حزن وجشع
VI, 14 O corruption - *o putredo!*	71) يا للفساد!
VI, 14 une liberté tronquée - *manca libertas*	72) حرّيّة مبتورة
VI, 14 une ténébreuse parodie - *tenebrosa similitudo*	73) محاكاة ضبابية
VII, 15 actions mauvaises et criminelles *mala et nefaria opera*	74) أفعال سيئة وإجرامية
VII, 15 langueurs des péchés *peccatorum languores*	75) سقام الآثام
VIII, 16 illuminer le cœur - *inluminare cor*	76) ينير قلبي
IX, 17 badinage et jeu - *ludus et iocus*	77) لعب ومزح
IX, 17 amitié ennemie - *inimica amicitia*	78) صداقة العداوة
X, 18 Belle et prestigieuse - *pulchra et decora*	79) جمال ورونق
X, 18 une région de disette - *regio egestatis*	80) إقليم جدب
الكتاب الثالث	
I, 1 (les) honteuses amours - *flagitiosi amores*	81) غرام شائن

I, 1 l'excès de vanité - *abundans uanitas*	82) غرور فيّاض
I, 1 les liens de jouissance - *uinculum fruendi*	83) قيد اللذة الجنسيّة
I, 1 les verges de fer - *uirgae ferreae*	84) مقارع حديدية
II, 3 le (gouffre) ardent des voluptés *aestus.. libidinum*	85) اضطرامات الشبق
II, 3 un misérable bonheur - *misera felicitas*	86) سعادة بائسة
II, 4 le jeu du comédien - *actio histrionis*	87) دور المشعوذ
II, 4 pauvre brebis égarée - *infelix pecus aberrans*	88) نعجة تعسة تائهة
III, 5, la curiosité sacrilège - *sacrilega curiositas*	89) فضول مرجّس
III, 5 asservissement aux démons *obsequia daemoniorum*	90) إذعان للشّياطين
III, 5 (célébration) des solennités *celebritas sollemnitatum*	91) قُدّاس مهيب
III, 6 le forum de la chicane *fora litigiosa*	92) نزاعات في السّاحة العمومية
IV, 7 l'immortelle sagesse - *inmortalitas sapientiae*	93) حكمة أبديّة
IV, 7 à aiguiser ma langue - *ad acuendam linguam*	94) لصقل لغتي
IV, 7 (farder ses) erreurs - *fucantes errores suos*	95) قنّع أخطاءه
VI, 10 un piège diabolique - *laquei diaboli*	96) شرك شيطانيّ
VI, 10 mensonges qui... trompent l'esprit *falsa animo decepto*	97) أباطيل خادعة
VI, 10 splendides chimères - *phantasmata splendida*	98) أوهام فخمة

VI, 10 vaines fictions - *figmenta inania*	99) خرافات باطلة
VI, 11 antres de ténèbres - *antra tenebrorum*	100) مغارات الظلام
VIII, 12 comme piqué par un aiguillon *quasi acutule mouebar*	101) كأني أُدفع بمنخَس
VII, 13 se chausser avec le casque *et galea calciari*	102) ينتعل بالخوذة
VII, 13 dans ces siècles lointains... permis aux justes - *illo saeculo (licuisse)*	103) كان في القرون الغابرة جائزا للعادلين
VII, 14 la prosodie même - *et ars ipsa...*	104) فنّ العروض
VII, 14 nos pieux ancêtres - *pios patres*	105) آباؤنا الورعون
VIII, 15 la société entre Dieu et nous *ipsa societas... cum Deo*	106) شراكة... بين الإلٰه وبيننا
VIII, 15 les dépravations du libertinage *libidinis peruersitas*	107) انحراف شهواني
VIII, 15 l'obéissance aux rois - *oboedire regibus*	108) امتثال لملوكه
VIII, 16 ceux qui bernent leur prochain - *inrisores*	109) مستهزئون
VIII, 16 ceux qui mystifient leur prochain - *inlusores*	110) متلاعبون
VIII, 16 les chefs d'iniquité - *capita iniquitatis*	111) رؤوس الجور
VIII, 16 «regimbant contre votre aiguillon» *aduersus stimulum calcitrantes*	112) «متمردون ضد منخسك»
VIII, 16 ô source de vie - *fons uitae*	113) أنت ينبوع الحياة
IX, 17 comme la verdure annonce la moisson - *sicut herba segetis*	114) كما يُؤمَّل الحصادُ من الخضرة

XI, 19 les blasphèmes (de) mes erreurs *blasphemias erroris*	115) تجاديف ضلالي
XI, 20 je me roulai «dans la fange...» *in limo.... uolutatus sum*	116) تمرّغت... في الوحل
XI,21... me débattre dans cette nuit *inuolui illa caligine*	117) أتخبّط في تلك الظّلمة
XII, 21 me désabuser du mal *dedocere me mala*	118) تعليمي الإعراض عن الشّرّ
XII, 21 et m'enseigner le bien - *ac docere bona*	119) والتمسّك بالخير
XII, 21 cette secte était à fuir (*celle des **Manichéens**, en l'occurrence) - *illa secta* fugienda*	120) يجب الفرار من تلك الملّة (ملّة المانويّين)
الكتاب الرابع	
I, 1 couronne de foin - *coronarum faenearum*	121) أكاليل من الجفيف
I, 1 me purifier de ces souillures *purgari... ab istis sordibus*	122) التطهّر من هذه الأدران
I, 1 immoler «une victime de jubilation» *immolare... «hostiam iubilationis»*	123) أعقر... «قربان التهليل»
II, 2 chanceler sur un sol glissant *lapsantem in lubrico*	124) مترنّحا في مكان زلق
II, 2 une ardeur inquiète - *ardor inops prudentiae*	125) شوق... خال من الحصافة
II, 3 splendeurs corporelles - *fulgores corporeos*	126) بهاء الأجسام
III, 4 en vue de leurs divinations - *ob diuinationem*	127) من أجل الكهانة
III, 4 orgueilleuse pourriture - *superba putredo*	128) عفن ذو صلف
III, 5 les livres des horoscopes - *libris genethliacorum*	129) كتب الطوالع

III, 5 (le) hasard,.. répandu dans la nature *uim sortis diffusam*	130) قوّة الصدفة الموزّعة في... الطبيعة
IV, 7 (la) fleur de l'adolescence - *flore adulescentiae*	131) ريعان الفتوّة
IV, 7 (les) pernicieuses supertitions *superstitiosas fabellas et perniciosas*	132) الأساطير والخرافات المفسدة
IV, 7 Dieu des vengeances - *«deus ultionum»*	133) إلـه الأثآر
IV, 8 l'abîme de vos jugements *abyssus iudicorum tuorum*	134) لجج أحكامك
IV, 8 stupéfait et troublé - *stupefactus atque turbatus*	135) مذهول ومضطرب
IV, 9 (la douleur)... ennuagea mon cœur de ténèbres *contenebratum est cor meum*	136) إدلهمّ قلبي
IV, 11 je me reposais dans l'amerture *requiescebam «in amaritudine»*	137) ساكنا في «المرارة»
VII, 12 âme déchirée et sanglante *concisam et cruentam animam*	138) روحي الممزقة والدامية
VII, 12 (j'étais)... lieu d'infélicité *«infelix locus»*	139) (كنت)... بمثابة مكان تعاسة
VIII, 13 une réfection s'opérait en moi - *resarciebant me*	140) (الساعات)... كانت ترمّمـ(ها)
X, 15 (les belles choses)... vieillissent meurent *perfecta senescunt et intereunt*	141)...إذا بلغ الكمال شاخ ومات
X 15, à la glu d'un amour - *glutine armoris*	142) بفعل دبوقا الحب
XI, 16 au tumulte de ta vanité *tumultu uanitatis tuae*	143) بسبب صخب تفاهتك
XII, 18 où allez - vous? vers les lieux abrupts? *Quo itis? in aspera?*	144) لم تقصدون الأوعار
XII, 18 dans une région de mort - *in regione mortis*	145) في إقليم الموت

XII, 19... ardente du feu de la charité *ardens igne caritatis*	146) بنار المحبة الحارة
XIV, 21 on s'éprend de celui qui est loué *amatur qui laudatur*	147) يُحبُّ من يُمدَحُ
XIV, 22 le conducteur de chars réputé *auriga nobilis*	148) سائق عربة شهير
XIV, 23, mon enthousiasme redoublerait... (s'il les approuvait, c.à.d. **mes travaux**) *flagrarem magis*	149) كنت لأتحمس أكثر
XIV, 23, j'étais blessé au cœur... (dans le cas contraire)... *sauciaretur cor meum*	150) كان سيجرح قلبي
XIV, 23 s ‹il approuvait ≠ (s'il désapprouvait) *probaret ≠ inprobaret*	151) (إن استحسنها) ≠ (إن استهجنها)
XV, 24 la racine profonde de ces grandes idées *tantae rei cardinem*	152) صميم هذا المنطق
XV, 24 exemples empruntés au monde des corps, *exemplis corporeis*	153) (أستشهد) بأمثلة جسمانية
XV, 24... des choses incorporelles vers les lignes *ab incorporea re ad lineamenta*	154) (عن) اللاّجسماني... إلى الخطوط
XV, 26 (bavard et inepte) *garulus et ineptus*	155) ثرثرتي الخرقاء
XV, 27 (les os)... n'étant pas encore «humiliés» *humiliata non erant*	156) لم تعرف بعد الهوان
XVI, 28 (les joues du rhéteur)... se bouffissaient d'une emphase bruyante *buccis tyfo crepantibus*	157) (خدود البلاغي) كانت... ترنّ تفاصحا
XVI, 29 «des chardons et des ronces» *«spinas et tribulos»*	158) الشوك والعُلّيق
XVI, 30 (les) passions, ces courtisanes *meretrices cupiditates*	159) العاهرات، شهواتي

XVI, 31 cette demeure nôtre... votre éternité *domus nostra, aeternitas tua*	160) دارنا...، ديمومتك
الكتاب الخامس	
II, 2 les inquiets et les pervers - *inquieti et iniqui*	161) الحيارى والبُغاة
III, 3 par l'appât de son bien - dire *per inlecebram suauiloquentiae*	162) بسحر فصحاته العذبة
III, les éclipses de soleil et de lune *defectus luminarium solis et lunae*	163) كسوف الشمس وخسوف القمر
III, 5 (ils se croient) aussi élevés, aussi brillants que les étoiles *excelsos... cum sideribus et lucidos*	164) في علوّ النجوم ولمعانها (هذا عن اعتقاد المانويّين الأخرق)
III, 6 je ne trouvais la raison.... *non mihi occurrebat ratio*	165) لم يكن ليتراى لي... من عقلانيّة
IV, 7 les circuits de la Grande Ourse *septentrionum gyros*	166) مدارات الدبّ الأكبر
V, 8 (l'Esprit Saint) qui console et enrichit - *consolatorem et ditatorem*	167) (الروح القدس) الذي يُسلّي ويُثري
V, 9 «à tout vent de doctrine» *«omni uento doctrinae»*	168) «في كل مهبّ عقائدي»
VI, 10... ma pensée vagabonde - *animo uagabundus*	169) بعقلي الشارد
VI, 10 (l'échanson)... des coupes (précieuses) *poculorum... ministrator*	170) بالأقداح النفيسة (من يد أطيب الندماء)
VI, 11 dexterité verbale - *eloquium acceptius*	171) الفصاحة آلة طيّعة
VII, 12 N'ignorant point... son ignorance *inperitus... inperitiae*	172) غير خبير بعدم خبرته
VII, 13... son tour d'esprit - *tali ingenio* - (i.e. Fausti)	173) تلك العبقرية (أي فاوستوس)
VIII, 14 la profondeur de vos desseins secrets *altissimi tui recessus*	(174) مقاصدك الخفية

VIII, 14 des émoluments plus élevés, (une) situation plus en relief *maiores quaestus maiorque... dignitas*	175) الجرايات العليا والرّتب...
[VIII, 14 la licence [des étudiants odieuse et sans frein - *foeda et intemperans licentia*	176) كان تسيّب الطلبة... شنيعا جامحا
VIII, 15 mon départ (lui) arracha... des plaintes affreuses - *me profecum atrociter planxit*	177) بكت رحيلي بحرقة ولوْعة
VIII, 15.... (le) juste... fouet de douleur *iusto dolorum flagello*	178) سياط الآلام العادلة
IX, 16 sans que se guérît... mon cœur sacrilège *adhuc insanus corde sacrilego*	179) لم يزل قلبي المرجّس في هذيانه
IX, 17 les entrailles de son amour, *uiscera dilectionis eius (i.e. Monnicae)*	180) أحشاء حبّها (أي مونيكا، والدته)
X, 18 pseudo - saints menteurs («les plus» chers aux Manichéens) *falsis atque fallentibus sanctis*	181) القدّيسين المزيّفين والكاذبين،
X, 18 mon exécrable iniquité - *execrabilis iniquitas*	182) جوري المقيت
X, 19 fables (dont les livres des Manichéens sont pleins) *rebus fabulosis... manichaei libri pleni*	183) القضايا الأسطورية التي تملأ الكتب المانويّة
X, 19 créateur des choses visibles et invisibles *creator... uisibilium et inuisibilium*	184) خالق... المرئيات واللاّمرئيّات
X, 20 (le Mal)... une masse affreuse, informe... *molem tetram et deformem (Mali)*	185) كتلة بشعة وبلا شكل محدود
X, 20 de ce principe désastreux... tous les sacrilèges - *ex... initio pestilentioso cetera sacrilegia*	186) من المبدإ الطاعوني... جميع أنواع الرجس...

X, 20... l'esprit... un corps subtil.... *mentem... subtile corpus*	187)... العقل... جسم دقيق
X, 20... la masse de votre corps de lumière... *massa lucidissimae molis tuae (i.e. Dei)*	188) كتلة جمسك النير الساطع
XI, 21 conférences et discussions (d'Elpidius) *(Elpidii) loquentis et disserentis...*	189) المحاضرات والمناقشات (لألبيديوس ضدّ المانويّين)
XI, 21 les Écritures auraient été falsifiées, *scripturas... falsatas fuisse...*	190) الكتب المقدّسة... قد حرّفت
XII, 22 les «chambardements» familiers aux jeunes gens - *a perditis adulescentibus*	191) (المشاغبات)... لدى المراهقين الفاسدين
XII, 22... l'âme humaine... prostituée... *meretrici humanae animae*	192) الرّوح البشرية العائدة إليك بعد عهرها
XII, 22.. perversité, difformité morale *prauos et distortos*	193) المتفسّخين المنحرفين
XIII, 23 «la pure substance de votre froment» *adipem frumenti tui»*	194) «جوهر بُرّك»
XIII, 23 «la joie de votre huile» - *laetitiam olei*	195) «غِبْطَةَ زَيْتِكَ»
XIII, 23 «l'ivresse»... de votre vin - *uini ebrietatem*	196) «نشوة خمرك»
XIV, 24 Déjà sans espoir... - *mihi iam desperanti*	197) ومع يأسي بعد
XIV, 24... parole éloquente... *diserte diceret...*	198) ما كان يقول بالفصاحة
XIV, 25 convaincre de fausseté les opinions manichéennes - *manichaeos conuincere falsitatis...*	199) أفحم المانويّين ببطلان رؤاهم
XIV, 25 je résolus de quitter les Manichéens - *manichaeos... relinquendos... decreui*	200) قررت... أن أهجر المانويّين

الكتاب السادس	
I, 1 la civière de la pensée - *feretro cogitationis*	201) على محفّة الفكر
II, 2 de la bouillie, du pain et du vin pur - *pultes et panem et merum*	202) العصائد والخبز والخمر الصّافي
II, 2 une petite coupe de vin dilué - *unum pocillum temperatum*	203) خمرة مشعشعة
II, 2 à petites gorgées - *per sorbitones exiguas*	204) في جرعات صغيرة
III, 3 les plus hauts personnages - *tantae potestates*	205) أعظم الأساطين
III, 3 le tumulte des affaires d'autrui *ab strepitu causarum alienarum*	206) ضجيج شؤون الآخرين
IV, 5 ma confusion , l'évolution... en moi et ma joie - *confundebar et conuertebar et gaudebam*	207) كنت مرتبكا ومتحوّلا وفرحا
IV, 6 une règle recommandée avec insistance *regulam diligentissime conmendaret*	208) يعظ القوم بموعظته العاجلة للغاية
IV, 6 le voile mystique - *mystico uelamento*	209) الستار المجازي
V, 7 qui se moquaient de la foi, en promettant audacieusement la science - *temeraria pollicitatione scientiae credulitatem inrideri*	210) يسخرون بالإيمان ويعدون العلم جزافا
V, 7 dans ces luttes sophistiques d'objections calomniatrices... - *nulla pugnacitas calomniosarum quaestionum*	211) لا شيء في الإشكاليات الإفترائية
V, 8... absurdités.... mystérieuses vérités *absurditatem.... probabiliter*	212) اللاّمعقولية... على وجه الاحتمال
V, 8 le giron de son humilité sainte *gremio sanctae humilitatis*	213) حضن تواضعها المقدّس

VI, 9 honneurs, profits, mariage.... *honoribus, lucris, coniugio*	214) الأشراف، المكاسب، الزواج
VI, 9 (mon cœur) tout enfiévré de pensées... *cogitationum... febribus aestuaret..*	215) يضطرم بحمّى الأفكار
VI, 10... la cause de la joie... dans la gloire *gaudere cupiebas gloria*	216) الفرحة بسبب المجد
VI, 10 je cherchais une vaine gloire - *quaerebam tyfum*	217) فخر زائف
VII, 11 d'une famille très bien posée *ex primatibus municipalibus*	218) من أعلى شرائح الأعيان
VII, 11 le gouffre des mœurs carthaginoises... *Gurges... morum Carthaginiensium*	219) لجّة السّلوكات القرطاجيّة
VII, 12 par ce goût aveugle et passionné pour des jeux absurdes... - *caeco et praecipti studio*	220) الولع الأعمى وغير المتبصر بالألعاب التّافهة...
VII, 12 par un énergique renoncement *forti temperantia*	221) بتنسّك تامّ...
VIII, 12 charbons ardents - *carbones ardentes*	222) جمرات حامية
VIII, 13 la carrière mondaine - *terrenam uiam*	223) الدّرب الدنيويّ
VIII, 13 ces cruels, ces funestes jeux (du Cirque) *crudelium et funestorum ludorum*	224) الألعاب الفظيعة المشؤومة
VIII, 13 elle lui ouvrit les yeux - *reserauit eius lumina*	225) فتحت عيناه [من جرّاء الصراخ]
VIII, 13 la férocité -... (la) fureur *inmanitatem... furias*	226) التوحّش... الشراسة
IX, 14 crédulité téméraire - *temeraria credulitate*	227) المجازفة والسذاجة
IX, 15 (ils) faisaient gronder les menaces *minaciter frementes*	228) المدوّين بالوعيد

X, 16 les séductions de la cupidité - *inlecebra cupiditatis*	229) بإغراء الطمع
X, 16 l'aiguillon de frayeur - *stimulo timoris*	230) بمنخس الخوف
X, 16 on essaya des menaces - *praetentae minae*	231) جرّبت التهديدات
X, 17 trois bouches affamées... indigence... *ora trium egentium et inopiam... anhelantium*	232) ثلاثة أفواه معوزة يزفر بعضها... بفقره
XI, 18 c'est un crime que de... *nefas est* + proposition infinitive	233) من الرجس أن نعتقد...
XI, 19 le prestige si éminent (de **l'autorité de la foi chrétienne)** - *tam eminens culmen*	234) الحظوة الشامخة (لسلطان العقيدة المسيحية)
XII, 21 il observait... une complète chasteté *erat... ipse (Alypius) castissimus*	235) كان متعفّفا تعففا تاما
XII, 21 l'enlaçait... pour semer... les doux lacs *innectebat atque spargebat... dulces laqueos....*	236) كانت تزرع... حبائلها الحلوة
XIII, 23 l'eau salutaire du baptême *baptismus salutaris ablueret*	237) يغسلني التعميد المنجّي
XIV, 24 soupirs et gémissements *suspiria et gemitus*	238) الحسرات والتأوهّات
XV, 25... une déchirante blessure... traîna longtemps son ensanglantement: *cor... uulneratum trahebat sanguinem*	239) قد تمزّق وطال نزيف جرحه الدامي (يعني الجرح في القلب)
XVI, 26 ô voies tortueuses! malheur à l'âme téméraire...! - *O tortuosas uias! Vae animae audaci...!*	240) يا لها من طرقات ملتوية ويح للرّوح المجازفة!

الكتاب السابع	
I, 1 adolescence mauvaise et criminelle *adulescentia mala et nefanda*	241) مراهقتي الإجرامية السيّئة
I, 1 de toute l'ardeur de mon cœur, je croyais *totis medullis credebam*	242) أؤمن من أعماق قلبي...
I, 2 incapable de lire moi - même.. en moi - même *nec mihimet... ipse conspicuus*	243) وعاجزا عن القراءة في... باطن نفسي ذاتها
I, 2 telles étaient mes conjectures, ne pouvant imaginer autre chose. *ita suspicablar, quia cogitare aliud non poteram...*	244) تلك كانت تخميناتي، لأنّي لم أكن أتصوّر غيرها
II, 3 ces trompeurs trompés, ces bavards muets, - *deceptos deceptores et loquaces mutos*	245) الخادعين المخدوعين، والثرثارين البكم.
II, 3 horrible sacrilège de langue et de cœur *horribili sacrilegio cordis et linguae*	246) رجس فظيع بالقلب واللسان
III, 5 libre choix de notre volonté *liberum uoluntatis arbitrium*	247) حريّة اختيار إرادتنا...
III, 5 germes d'amerture - *plantarium amaritudinis*	248) بذرة المرارة
IV, 6 l'incorruptible... meilleur que le corruptible *melius... incorruptibile quam corruptibile*	249) غير القابل للفساد أحسن من القابل له
IV, 6 la volonté et la puissance de Dieu, c'est Dieu même *uoluntas... et potentia dei deus ipse est*	250) إرادة الإلٰه وقوّته هما الإلٰه ذاته
V, 7 une éponge... imbibée, en toutes ses parties, de l'immense mer - *plena... utique spongia ex omni sua parte ex inmenso mari*	251) الإسفنجة ملآى في جميع أجزائها بالبحر الشاسع

V, 7 c'est ainsi que votre création est pleine de votre infinitude - *creaturam tuam infinito te plenam*	252) هكذا.. خليقتك..ملآى بذاتك اللامحدودة
V, 7 pendant un innombrable passé *per infinita retro spatia temporum*	253) طوال الأزمنة الماضية الأزلية
VI, 8 il n'y point d'art de prédire l'avenir *non esse... futura prouidendi*	254) لا وجود... للتنبّؤ بالمستقبل
VI, 8 les conjectures des hommes... la collaboration du hasard - *coniecturas hominum... uim sortis*	255) تخمينات البَشر تصدق بعون قوّة الإتفاق...
VI, 8 (ils furent obligés)... de tirer le même horoscope - *easdem constellationes... facere cogerentur*	256) على أن يرسما نفس الطالع الفلكيّ
VI, 8 (l'esclave), toujours courbé sous... sa condition servile - *(seruus) conditionis iugo..seruiebat*	257) دون أن يفلت من نير العبودية
VI, 9 (prophéties)... tirées de l'observation des astres - *consideratis constellationibus*	258) بعد رصد كوكبات النجوم
VI, 10 l'un de ces extravagants.. que je voulais ridiculiser et réfuter - *(... delirorum)... inrisos refellere*	259) أستهزىء بهم وأدحرهم (أي الذين يهذُون)
VII, 11 vous m'aviez déjà délivré de ces liens *illis uinculis solueras*	260) قد فككت عنّي تلك الأغلال
VII, 11 les muettes détresses de ma pensée *tacitae contritiones animi mei*	261) توبات روحي الصامتة
VII, 11 intimes amis *familiarissimorum meorum*	262) أصدقائي الحميمين للغاية
VIII, 12 vous avez eu pitié de mon limon et de ma cendre *miseratus es terram et cinerem*	263) أشفقت على طَميِ وعلى رمادي
VIII, 12 l'œil trouble et obscurci de mon âme *acies... conturbata et contenebrata mentis meae*	264) عين روحي المغشّاة العمياء

IX, 13 «vous résistez aux superbes» *«resistas superbis»*	265) «تتصدّى للمتكّبرين»
IX, 15 Esaü perdit son droit d'aînesse *Esau perdidit primogenita sua*	266) حقّه الخاص في البكوريّة (و«إيزاو» هو المشار إليه هنا)
IX, 15 devant l'image «d'un veau en train de manger son foin» *ante imaginem «uituli manducantis faenum»*	267) أمام صورة عجل يأكل علفا
X, 16 comme l'huile au - dessus de l'eau, et non comme le ciel au - dessus de la terre - *sicut oleum super aquam, nec sicut caelum super terram*	268) كالزّيت فوق الماء ولا كالسماء فوق الأرض
XI, 17 cela est véritablement qui demeure immuablement *id... uere... inconmutabiliter manet*	269) ما يوجد بحقّ... (هو) ما يبقى على الدوام
XII, 18 la corruption est nuisible, or si son œuvre (n'altérait pas) le bon, elle ne nuirait point - *nocet enim corruptio et, nisi bonum minueret, non esset.*	270) الفاسد مضرّ، ولو لم يكن يغيّر الطيّب لما كان يضرّ.
XIII, 19 les souffles de la tempête qui exécutent votre parole - *sp ritus tempestatis, quae faciunt uerbum tuum*	271) وهبوب العاصفة التي تردّد كلها كلامك المقدّس.
XIV, 20 le temple de son idole, abominable... *idoli sui abominandum*	272) معبد صنمها المقيت (الأشياء)
XV, 21 le reste des choses... vous doivent l'être *alia... tibi debere quia sunt*	273) مدينة لك بكونها موجودة
XVI, 22 le mal (est) la perversité d'une volonté qui se détourne de la susbstance souveraine *iniquitas a summa substantia detortae in infima uoluntatis peruersitatem*	274) الفساد... انحراف للإرادة عن الجوهر الأسمى.. وتوجّه نحو الأشياء الدنيا

XII, 23 mon propre poids m'arrachait de vous *diripiebar abs te pondere meo*	275) أنجذِبُ عنك بفعلِ ثقلِ وزني
XVII, 23 elle se déroba à l'essaim des fantômes... contradictoires - *subtrahens se contradicentibus turbis phantasmatum*	276) مفلتة من حشود الأوهام المتناقضة
XVII, 23 dans l'éclair d'un regard frémissant *in ictu trepidantis aspectus*	277) في لمح البصر المرتجف
XX, 26 cette charité qui édifie sur le fondement de l'humilité - *illa aedificans caritas a fundamento humilitatis*	278) الحبّ المشيّد على التّواضع
XXI, 27 l'antique pécheur, prince de mort (*Satan ou le **Diable***) *antiquo peccatori, praeposito mortis*	279) المذنب العتيق، مندوب الموت
XXI, 27 le Prince du Ciel, *Caelestis imperatoris*, le susnommé **Iesum Christum**, (Jésus - Christ) à la ligne 29 de ce même paragraphe.	280) الإمبراطور السماوي (اليسوع المسيح،كما سمّي أعلاه في نفس الفقرة)
الكتاب الثّامن	
I, il fallait que mon cœur se purifiât du vieux levain - *mundandum... cor a fermento ueteri*	281) أطهّر قلبي من خميرته القديمة
I, 2 les flottements dans tout le reste, de mes langueurs... - *uoluebar in ceteris languidus...*	282) كنت أتخبّط في سائر المجالات... وهنا...
II, 3 je lui racontai tout le dédale de mes erreurs, *narraui ei circuitus erroris mei...*	283) رويت له متاهات ضلالي
II, 3 «toutes sortes de monstres divinisés.». *« et omnigenum deum monstra»*	284) أجناس الأغوال المؤلّهة

II, 3... défendus... avec les éclats d'une terrifiante éloquence... - *ore terricrepo defensitauerat...(senex Victorinus)*	285) ببلاغته الرائعة الصدى (للشّيخ ويكتورينوس)
II, 4 du sommet de leur altière Babylone *ex culmine Babylonicae dignitatis*	286) من قمّة علياء بابل
II, 4 du haut de ces cèdres du Liban *quasi ex cedris Libani*	287) من أرز لبنان
II, 4, premières vérités de la catéchèse *primis instructionis sacramentis*	288) مبادىء تعلّم الطقوس
II, 5 devant votre pacifique troupeau *mansuetum gregem tuum...*	289) أمام قطيعك المسالم
III, 6 à la joie de tous ses voisins *conlaetantibus uicinis*	290) وسط تهليلات الجيران قاطبة
III, 6 la brebis... égarée... *ouis errauerat*	291) النعجة التي ضلّت الطّريق
III, 7 une tempête ballotte les navigateurs *iactat tempestas nauigantes*	292) العاصفة تزعزع الملاّحين
III, 7 tous pâlissent de la mort qu'ils sentent venir *omnes futura morte pallescunt*	293) كلّهم شاحبون بسبب الموت الآتي
III, 8 dans une joie honteuse et méprisable *in turpi et exsecranda laetitia*	294) المسرة المخزية الحقيرة
III, 8 de déficits et de progrès, de discordances et d'harmonies - *defectu et profectu, offensionibus et conciliationibus*	295) النقص والتقدّم النشاز والتوفيق
III, 8 sublime dans les hauteurs et profond dans les abîmes - *excelsus in excelsis..., profundus in profundis*	296)... رفيع على القمم،... عميق في الوهاد

IV, 9 le riche (ne) passe (pas) avant le pauvre, le noble avant l'homme sans naissance *pauperibus ≠ diuitum, ignobilibus ≠ nobiles*	297) الأغنياء ≠ الفقراء النبلاء ≠ السوقة
V, 10.. dans les fers dont m'enchaînait... ma propre volonté, de fer elle aussi - *ego.. ligatus non ferro alieno, sed mea ferrea uoluntate*	298) مكبّلا لا بإرادة الآخرين، بل بقيد إرادتي الحديدية
V, 11 «la chair convoite contre l'esprit, et l'esprit contre la chair». *caro concupisceret aduersus spiritum et spiritus aduersus carnem»*	299) اللحم مغتلم ضدّ الروح،والروح مغملة ضدّ اللحم
V, 12 Ainsi le fardeau du siècle pesait sur moi..., comme en un rêve - *Ita sarcina saeculi, uelut somno assolet,...*	300) فهكذا كان عبء الدهر، ينوء عليّ بلطف، كأنّه حلم...
VI, 13 la loi du péché, c'est la violence de l'habitude *lex enim peccati... uiolentia consuetudinis*	301) فقانون الإثم هو عنف التعوّد
VI, 13 vous m'avez débarrassé... de la servitude des affaires temporelles *de uniculo... saecularium negotiorum seruitute*	302) خلّصتني... من عبودية الشؤون الدنيويّة
VI, 13 Alypius... libéré de ses fonctions juridiques, *Alypius otiosus ab opera iuris peritorum*	303) كان أليبيوس عاطلا من عمله، عمل الخبير في الحقوق
VI, 14 Ponticianus... occupait à la cour un poste élevé - *Ponticianus... praeclare in palatio militans*	304) له في البلاط مهامّ سامية (أي لبونيتسيانوس)
VI, 15 l'un d'eux se met à (faire) le projet... d'embrasser une telle vie **(celle du moine égyptien Antoine)** - *coepit unus eorum... meditari arripere talem uitam (i.e. Antonii)*	305) أخذ أحدهم... يفكّر في تقمّص مثل تلك الحياة (أي حياة أنطونيوس)

VI, 16 difforme, hideux, avec mes taches et mes ulcères - *distortus et sordidus, maculosus et ulcerosus...*	306) كم كنت دميما قبيحا، وأرقط متقرّحا
VII, 17... mépriser les félicités terrestres *contempta felicitate terrena*	307) احتقار السعادة الدنيوية
VII, 17... par les voies mauvaises d'une superstition sacrilège - *per «uias prauas» superstitione sacrilega*	308) «الطرقات المتفسّخة» للمعتقدات الباطلة المرجّسة
VII, 18 ainsi je me rongeais intérieurement *ita rodebar intus*	309) كنت أنخر نفسي من الداخل
VII, 18 il ne lui restait qu'une peur muette (il s'agit de son âme).... *animam meam... remanserat muta trepidatio*	310) كانت قد بقيت لها (أي لنفسه) ارتجافة صامتة
VIII, 19 puis mon agitation passionnée m'arracha de lui (c.à.d d'Al pius) *et abripuit me ab illo aestus meus*	311) واختطفني منه اهتياجي
VIII, 19 le ton de ma voix - *modus uocis*	312) نبرة الصوت
VIII, 20 dans le tumulte de nos hésitations *in ipsis cunctationibus aestibus*	313) في نفس تردّداتي المضطرمة
VIII, 20 ou... chargés de liens, ou affaiblis par une morbide langueur - *uel conligata uinculis, uel resoluta languore*	314) إمّا مكبّلة بالقيود، أو مثقلة بالفتور
IX, 21 d'où vient cet étrange prodige? *Vnde hoc monstrum?*	315) من أين هذه الأعجوبة؟
IX, 21 l'exécution = l'ordre - *seruitium = imperium* (l'exécution est dans le prolongement de l'ordre)	316) التنفيذ = الأمر (التنفيذ يأتي مجيبا للأمر)

X, 22 leur arrogance abominable - *horrenda arrogantia*	317) بغرورهم الشائن
XI, 25 et vous me pressiez...me flagellant à coups redoublés de crainte et de honte *Et instabas... flagella ingeminans timoris et pudoris*	318) ضاربا إيّاها (أي الروح)... بسياط مزدوجة من الخوف والخجل
XII, 28 et je donnais libre cours à mes larmes et les sources de mes yeux ruisselèrent,...*et dimisi habenas lacrimis, et prorupuerunt fl mina oculorum meorum...*	319) أطلقت العنان للدموع، فتدفقت عيناي أنهارا غزيرة!
XII, 30 Et son deuil était changé par vous en une joie bien plus abondante... *et «conuertisti luctum eius in gaudium» multo uberius....*	320) و«حوّلت حدادها إلى فرح» أغزر بكثير (أي مونيكا)
	الكتاب التاسع
I, 1 mesurant du regard la profondeur de ma mort... *respiciens profunditatem mortis meae*	321) سبرت بنظرتك عمق موتي
I, 1... pour moi d'être frustré de frivoles délices!... *mihi factum est carere suauitatibus nugarum...*	322) نفسي الجائعة لعذوبات طيشي
II, 2 je retirerais en douceur, le ministère de ma langue de la foire aux bavardages *leniter subtrahere ministeriuum linguae meae nundinis loquacitatis...*	323)... لساني.. أسحبه بلطف من سوق الثرثرة
II, 2 la langue perfide «*linguam subdolam*»	324) اللسان الماكر
II, 3 A quoi... discussions et disputes... et «faire blasphémer mon bien?» *et quo... putaretur et disputaretur..., et blasphemaretur bonum»*	325) أعرّض للنقاش والخصومات... وجهتي الخاصة، ولِمَ «أدنّس خيري»؟

III, 5 **Verecundus**... sa femme... c'était le gros obstacle qui lui barrait le chemin où nous étions engagés - *Verecundus coniuge... ipsa artiore...conpede ab itinere...*	326) (ويريكندوس)... زوجته.. كانت حجر العثرة في طريقه إلى الطريق الذي انتهجناه...
III, 6 **Nebridius**, lui, partageait notre allégresse *Nebridius autem conlaetabatur...*	327) كان «نبريديوس»... يشاركنا غبطتنا
III, 6 Peu de temps après notre conversion et notre régénération... *non multo post conuersionem nostram et regenerationem....*	328) بعد زمن قصير من اهتدائنا إليك وإحيائنا...
IV, 7 métier de rhéteur *professione rhetorica*	329)... وظيفة البلاغيّ
IV, 7 vous avez redressé mes voies tortueuses *tortuosa mea direxeris*	330) قوّمت اعوجاج طرقاتي
IV, 8 en lisant les Psaumes de David - *cum legerem psalmos Dauid*	331) وأنا أرتّل مزامير داود
IV, 8 un antidote qui eût pu leur rendre la santé! -... *antidotum, quo sani esse potuissent!*	332) ترْيَاقا كانوا يستعيدون به الصحة
IV, 9 pourquoi aimez - vous la vanité et recherchez - vous le mensonge ? *quid diligitis uanitatem et quaeritis mendacium?*	333) «لِمَ تحبّون الغرور وتبحثون عن البهتان؟»
IV, 10 et leur famélique pensée n'en lèche que les images... *et imagines eorum famelica cogitatione lambiunt*	334) ولا يلعق منه تفكيرهم السغبان إلاّ الأوهام
IV, 11 «Je m'endormirai. Je goûterai le sommeil» *obdormiam et somnun capiam».*	335) «سوف أنام، وسوف أستسيغ النوم»
V, 13 pour me rendre plus apte... à l'immense grâce que j'allais recevoir. *quo percipiendae tantae gratiae paratior aptiorque fierem.*	336) حتى أصبح أكثر تأهّلا وكفاءة لتقبّل النعمة القصوى

VI, 14 Déjà il (**Alypius**) avait revêtu cette humilité... si conforme à l'esprit de vos sacrements... *iam induto humilitate sacramentis tuis congrua*	337) مرتديا بعد التواضع اللآئق بأسرارك
VI, 14 son génie m'inspirait une sorte d'effroi sacré *Horrori mihi erat illud ingenium...*	338) كانت عبقريته تبعث في نفسي فظاعة مقدّسة
VII, 15 nous partagions l'émotion, la consternation de la cité, *excitabamur tamen ciuitate adtonita atque turbata*	340) كانت المدينة تثير فينا البهتة والدهشة
VII, 15 par un grand nombre de vos communautés de fidèles - *ac paene omnibus gregibus tuis*	341) كل قطعان رعاياك تقريبا
VII, 16 (le cœur de Justine, mère de **Valentinien**)... dut refouler sa fureur de persécution - *a persequendi tamen furore conpressus*	342) أجبرت (يوستينا) على كبح جماح رغبتها في التنكيل
VIII, 17 à Ostie, à l'embouchure du Tibre, ma mère mourut... *apud Ostia Tiberina... mater defuncta est..*	343) في أوستيا، عند مصبّ التّيبر، قضت أمّي نحْبها
VIII, 17... une sainte et véhémente sévérité... *sancta seueritate uehemens*	344) في صرامة مقدسة حازمة
VIII, 18 nullement par amour de la boisson, mais par cette pétulance débordante de la jeunesse... *non... ulla temulenta cupidine, sed... superfluentibus aetatis excessibus...*	345)... لا رغبة في النشوة، بل بفعل النزق الفائض(1)
IX, 19 Elle fut donc élevée dans la vertu et la tempérance - *Educata itaque pudice ac sobrie*	(346) إذن تربّت (أي مونيكا) في العفة والإعتدال
IX, 19... leur contrat de mariage,... cette pièce... est (un) document légal... *illas tabulas, quae matrimoniales uocantur... recitari..,. tamquam instrumenta...*	347) تلك اللوحات، التي تسمّى بالزوجية،أن يعتبرنها بمثابة الميثاق

IX, 20 à force de prévenances, de patiente et persévérante douceur... *uicit obsequiis perseuerans tolerantia et mansuetudine*	348) وتتغلب دوما بالتقدير والصبر والدماثة (تلك هي خصال والدته المتوفّاة)
IX, 21 vous, son maître,... dans la secrète école de son cœur *docente te magistro intimo in schola pectoris*	349) أنت معلّمها... في قرار مدرسة صدرها (إذ كانت مسيحيّة بعد)
X, 23 nous reprenions nos forces en vue de la traversée (c.à.d. **après les fatigues d'un long voyage**) *remoti a turbis post longi itineris laborem instaurabamus nos nauigationi*	350) كنّا هنا نستريح من أتعاب السفر الطويل ونتهيّأ للإبحار
X, 24... une région d'inépuisable abondance *regionem ubertatis indeficientis*	351) إقليم الخصوبة اللاّمحدودة
X, 25... en un éclair de pensée nous avons atteint l'éternelle sagesse -... *et rapida cogitatione attigimus aeternam sapientiam*	352) وقد وصلنا في لمح برق التفكير إلى الحكمة الأزليّة
XI, 27 **(Je me taisais)**, luttant contre mes larmes... *et fletum frenabam...*, après le «vous enterrerez ici votre mère» de Monique: (*Ponete hic... matrem uestram)...*	353) كنت... أكبح جماح دمعي
XI, 28... il lui avait été donné de mêler sa poussière à celle de son mari,... *concessum. ut coniuncta terra amborum coniugum...*,**«suprême bonheur!»**	354)... سمح لها... أن تجمع رفاتها إلى رفات بعلها...
XII, 29 c'est... peu convenable de célébrer un deuil comme celui - là avec des plaintes, des larmes, des gémissements - *neque... decere... funus illud questibus lacrimosis gemitibusque celebrare..*	355)... لا يليق أن نحتفل بذلك المأتم بالتأوّهات، والدموع،والتحسرات.

XIII, 31 ces accidents humains qu'amène fatalement l'ordre naturel... *haec humana, quae ordine debito... accidere necesse est...*	356) تلك الأعراض الإنسانية... التي تحدث بالضرورة حسب نظام إجباريّ (في الطبيعة)
XIII, 34... des larmes qui sortent d'un esprit profondément ému des périls de toute âme «**qui meurt en Adam**» - *(lacrimarum genus) manat de concussu spiritu consideratione periculorum omnis animae, «quae in Adam moritur».*	357) (دمعي) يفيض من فكر مزعزع بالتأمّل في أخطار كل روح «تموت في آدم»
XIII, 35 remettez - lui aussi les siennes (**dettes**)... *dimitte illi et tu debita sua... (à l'adresse de Dieu)*	358) أبْرِئها (أي مونيكا) أنت أيضا من ديونها
XIII, 36, elle ne s'occupa point... de somptueuses funérailles, ni de son corps... embaumé dans des aromates. -... *non cogitauit suum corpus sumptuose contegi aut condiri aromatibus....*	359) لم تفكّر... في دفن جثتها دفنا فاخرا، أو في تحنيطها بالعطور
XIII, 37... dans la **Jérusalem** éternelle, vers laquelle soupire votre peuple, durant son pélerinage, depuis son départ jusqu'à son retour.... *in aeterna **Hierusalem**, cui suspirat peregrinatio populi*	360) مدينة القدس الخالدة، التي يتوق إليها في الحجّ شعبك، من الذهاب إلى الإياب
الكتاب العاشر	
II, 2... aux yeux de qui l'abîme de la conscience humaine reste découvert... - *cuius «oculis nuda» est abyssus humanae conscientiae*	361)... ترى بالعين المجرّدة أعماق ضمير الإنسان

III, 4 ma conscience..., plus assurée en l'espoir de votre miséricorde qu'en son innocence *conscientia mea spe misericordiae tuae securior quam innocentia sua...*	362) ضميري...متأكّدا من شفقتك أكثر منه من براءتي
IV, 6... avec cette mystérieuse joie qui tremble... - *secreta exultatione cum «tremore»*	363) في تهليل سري مشوب... بالرعشة...
VI, 8... ni l'odeur suave des fleurs, des parfums et des aromates.... *non florum et ungentorum et aromatum suauiolentiam...*	364)... الرائحة الفائحة من الأزهاروالعطور والطيوب...
VII, 11... cette force qui me lie à mon corps...... *uim meam, qua haereo corpori...*	365) قوّتي... التي تربطني بالجسم...
VIII, 12,... la mémoire... les trésors des images innombrables apportées par... (les) sens *memoriae thesauri innumerabilium imaginum de... rebus sensis*	366)... الذاكرة... كنوز من الصور لا تحصى،ولا تعدّ وقد جاءت بها مدركات الحواسّ...
VIII, 14 et 15 l'ample palais de ma mémoire... un sanctuaire immense, infini...*in aula ingenti memoriae meae... penetrale amplum et infinitum*	367)... في بلاط ذاكرتي الفسيح...هي معبد متّسع لامتناه...
X, 17 telle chose existe - t - elle? Quelle... essence? Quelle qualité?... *an sit, quid sit, quale sit...*	368) هل الشيء يوجد؟ ما كنهه؟ ما كيفه؟
XII, 19... les rapports, les lois innombrables des nombres et des mesures... *numerorum dimensionum rationes et leges innumerabiles...*	369)... العلاقات والقوانين اللامحدودة للأعداد والمقاسات
XIV, 21, Sans doute, la mémoire est - elle comme l'estomac de l'âme;... *Nimirum ergo memoria quasi uenter est animi,...*	370)... لا غرو إذن أن تكون الذاكرة بمثابة مَعدة الرّوح....

XIV, 22... la rumimation... (comme) le souvenir (venu) du fond de la mémoire... *sicut...de ruminando sic, ista de memoria recordando proferuntur..*	371) الإجترار شبيه تماما بعودة تلك الأشياء من الذاكرة بالتذكر
XVI, 25 Je suis pour moi une terre de difficulté et de sueurs abondantes. *factus sum mihi terra difficultatis et sudoris nimü*	372)... أصبحت لنفسي أرضُ عسر وعرق مفرطين
XVII, 26... dans ma mémoire des champs, des antres, des cavernes innombrables. -... *in memoriae meae campis et antris et cauernis innumerabil bus...*	373)... في ذاكرتي الحقول والكهوف والمغارات التي لا تحصى
XVIII, 27 (la chose) n'était perdue que pour nos yeux, mais notre mémoire la possédait toujours - *hoc perierat... oculis, memoria tenebatur..*	374)... إن صادف أن غاب شيء عن بصرنا لا عن ذاكرتنا
XX, 29... le bonheur (y arrive - t - on) par le ressouvenir, ou bien par le désir de le connaître? [... *eam quaero, utrum per recordationem,... an per appetitum discendi*	375) (أبحث عن السعادة)... هل يتمّ ذلك بتذكرها... ما يرغبون في إدراكه... والفوز به (اقترحنا هنا ترجمة فرنسية مختلفة بعض الاختلاف عن ترجمة ب. دي لابريول)
XXI, 30... Je me souviens, dans la tristesse, de ma joie, de même que dans ma misère, je songe au bonheur - *gaudium meum etiam tristis memini sicut uitam beatam miser...*	376)... أتذكّر فرحي ولو حزينا كالسّعادة ولو شقيّا
XXIII, 33... la joie qui naît de la vérité, voilà le bonheur... la joie qui naît... de la vérité, tous la veulent - *Beata quippe uita est gaudium de ueritate... gaudium de ueritate omnes uolunt*	377) السعادة هي لعمري الفرح في الحقّ... الفرح في الحقّ يريده الجميع

XXV, 36 ni une affection d'être vivant - joie, tristesse, désir, crainte, souvenir, oubli etc... *nec affectio uiuentis, qualis est, cum laetamur, contristamur, cupimus, metuimus, meminimus, obliuiscimur...*	378) مشاعر الكائن الحي، كالفرحة أو الحزن أو الرغبة أو الخوف أو التذكر أو النسيان...
XXVI, 37 vous êtes la vérité et vous siégez pour répondre à ceux qui vous consultent - *Veritas..., praesides... omnibus... consulentibus te*	379) أنت الحق ترأس كل الإستشارات...
XXVII, 39 tracas et difficultés - *molestias et difficultates*	380) العقاب والمصاعب
XXXI, 43 la faim et la soif sont des douleurs.. elles tueraient comme la fièvre - *fames et sitis quiddam dolores... sicut febris necant..*	381) الجوع والعطش ضربان من الألم، ويقتلان كالحمى
XXXI, 45 l'intempérance et l'ivrognerie - *«crapula et ebrietate»*	382) الشراهة والإدمان
XXXI, 47 Il me faut imposer à mon palais comme un frein que tantôt je relâche, et tantôt je resserre - *freni gutturis temperata relaxatione et constrictione tenendi sunt*	383)... كان عليّ أن أكبح جماح بطني كبحا خفيفا تارة قويّا تارة أخرى
XXXIII, 49... j'écoute avec une certaine complaisance les mélodies... Cependant, je ne m'y laisse pas enchaîner... *in sonis... cantantur, fateor, aliquantulum*	384) أقرّ بأني أطرب لها لا إلى حدّ الفتنة...
XXXIV, 51... les couleurs brillantes et fraîches, *nitidos et amoenos colores*	385) الألوان الساطعة النضرة
XXXIV, 53, ceux qui créent les beautés extérieures et ceux qui les recherchent.... *pulchritudinum exteriorum operatores et sectatores...*	386) المبدعين للجمالات الخارجية والمغرَمين بها

XXXV, 54.... vaine curiosité... (que) «la concupiscence des yeux». - *uana et curiosa cupiditas...»concupiscentia oculorum»*	387) وهي رغبة تافهة فضولية... «شهوة العيون»
XXXV, 55... tous accourent pour blémir là de consternation - *«concurrunt ut contristentur, ut palleant*	388) هبّ الناس إليه واصفرّت الوجوه من فرط الإنذهال
XXXV, 57 que de détails... méprisables, viennent tenter chaque jour notre curiosité! *contemtibilibus rebus curiositas cotidie nostra temtetur!*	389) ما أكثر الأشياءالتي يُمتحن فيها يوميّا حبّنا للإطّلاع وما أدقّها وما أحقرها
XXXV, 57, notre cœur... porte en soi une foule d'épaisses niaiseries - *cor nostrum et portat copiosae uanitatis cateruas...*	390) قلبنا... حامل لفيالق عديدة من الحماقات
XXXVI, 59 Bien misérable vie et bien répugnante vanité! *Misera uita et foeda iactantia*	391) تلك هي الحياة الشقية والمباهاة الكئيبة
XXXVII, 60 la langue des hommes est pour nous, chaque jour,... fournaise d'épreuves: - *cotidiana fornax nostra est humana lingua*	392) لسان البشر يكون يوميا وَطيسَنا
XXXVII, 60... La louange est la compagne... d'une vie bonne et de bonnes actions.. - *bonae uitae bonorumque operum comes... laudatio*	393) الحمد... رفيق الحياة الطيبة والأعمال الصالحة
XXXVII,61: «je suis fort sensible à la louange une louange intelligente me fait plaisir...» *«delectari me laudibus... bene intellegentis laude delector...»*	394)... ألتذّ بالمديح... ألتذّ بتمجيد ذكي جدا
XXXVIII, 63 pour cette paix qu'ignore l'œil du présomptueux... *in pacem quam nescit arrogantis oculus*	395) من أجل السلام الذي تجهله عين المتغطرس

XXXIV, 64, tous les périls, les épreuves de ce genre *periculis et laboribus*	396) الأخطار والمحن
XL, 65... dans les profondeurs de ma mémoire - *in recessus memoriae meae...*	397) في مخازن الذاكرة الفسيحة
XLI, 66 J'ai vu votre splendeur, et refoulé par son éclat, *Vidi enim splendorem tuum... et repercussus...*	398) رأيت بهاءك بالقلب الجريح وقلت مدحورا:
XLII, 67 ils cherchaient orgueilleusement *superbe quaerebant*	399) في صلفهم يبحثون عنك
XLIII, 69... comme une usurpation d'être égal à vous *rapinam... esse aequalis tibi*	400)... من التطاول عليك أن يكون مساويا لك...
الكتاب الحادي عشر	
I, 1 Pourquoi vous raconter tout le détail de ces faits? *cur tibi tot rerum narrationes digero?*	401) لن أقصّ عليكم جميع تفاصيل تلك الأحداث
II, 2... jusqu'à ce que ma faiblesse soit absorbée par votre force - *quousque deuoretur a fortitudine infirmitas...*	402) ريثما تلتهم قوّتك ضعفي
II, 3 ces forêts - là... n'ont - elles pas... leurs «cerfs» qui ruminent... *non habent illae siluae ceruos... ruminantes*	403) تلك الغابات ليس لها أيائيلها... المجترة
III, 5 la vérité qui n'est ni hébraïque, ni grecque, ni latine, ni barbare,... *nec hebraea nec graeca nec latina nec barbara ueritas...*	404)... الحقّ الذي ليس عبريّا ولا يونانيّا ولا لاتينيا ولا أعجميّا
V, 7 de quelle machine... un ouvrage de cette immensité - *quae machina tam grandis operationis...?*	405) وما هي الآلة العملية الضخمة؟

V , 7 il n'y avait point de lieu où il pût être avant qu'il fût créé pour être: *non erat, ubi fieret, antequam fieret, ut esset...»*	406) ما كان به مكان يمكن أن يكون فيه، قبل أن يخلق ليكون.
VI, 8 et ces paroles, formées pour un court moment..., la raison (les) compara à l'éternité silencieuse de votre Verbe,... *At illa conparauit haec uerba temporaliter sonantia cum aeterno in silentio uerbo tuo...*	407)... لكنّ هذه الأخيرة (أي الأذن الداخلية) قارنت الكلمات الرّانة لهنيهة بالأبدية الصامتة لكلمتك
VII, 9 Votre Verbe est véritablement immortel et éternel *quicquam uerbi.. uere inmortale atque aeternum est*	408)... كلمتك... بحقّ لا تفنى وهي أبديّة
IX, 11 la Sagesse... déchire mon nuage (qui) m'enveloppe: *sapientia... discindens nubilum meum, quod me... cooperit...*	409) الحكمة... ممزّقة سحابتي التي تغطيني
XII, 14 Je ne veux pas m'appropier la plaisante réponse... (pour) éluder cette question redoutable... *Respondeo non..ilocaliter eludens quaestionis uiolentiam..*	410) لا أجيبه بذلك الجواب...أن يتهرب من هذا السؤال... المخيف
XIII, 15 Si quelque esprit superficiel, errant à travers les images... des temps écoulés *at si cuiusquam uolatilis sensus uagatur per imagines retro temporum...*	411) أمّا لو تاهَ فكرٌ سطحيّ ما، عبر صور الأزمنة الماضية...
XIII, 16 Votre aujourd'hui, c'est l'Eternité... ***«Hodiernus tuus aeternitas»! Résumé de toute sa philosophie du Temps que cette formule lapidaire.***	412) «اليوم» لديك كالأبدية
XIV, 17 est - il une idée... plus familière et mieux connue que l'idée de temps? *Quid... familiarius et notius... quam tempus?*	413)... أي مفهوم... مألوفا ومعروفا أكثر من الزمان؟

XV, 19 il t'a été donné d'en percevoir et d'en mesurer la durée (c.à.d du temps): ***(Appel à l'âme humaine) datum tibi.. sentire moras atque metiri***	414) أعطيت القدرة على أن تشعري بمدده (أي الزَّمان) وأن تقيسيها..
XV, 20... ce temps présent... se resserre dans les limites d'un seul jour à peine... *praesens tempus... uix ad unius diei spatium contractum est*	415) هذا الوقت الحاضر... يتقلص تقريبا إلى مدى يوم واحد
XV, 20... et ce point (c.à.d divisé en parcelles de temps) est emporté si rapidement de l'avenir au passé... *quod ita raptim a futuro in praeteritum transuolat...*	416)... اللحظات... تتطاير كلمح البرق من المستقبل إلى الماضي...
XVII, 22.. le présent seul existe, puisque les deux autres ne sont pas... ***sed tantum praesens, quoniam illa duo (i.e. praeteritum et futurum) non sunt...***	417)... الحاضر وحده يوجد، بما أن الآخرين (أي الماضي والمستقبل) لا يوجدان...
XVIII, 24... il ne s'agit pas des choses elles - mêmes..., qui sont futures,.. (mais de) leurs causes, leurs signes précurseurs...... *non ipsa... quae futura sunt, sed eorum causae uel signa forsitan uidentur*	418)... لا ترى الأشياء التي هي آتية، بل أسبابها أو ربما دلائلها...
XVIII, 24 prédire - ***praedicere*** cf. le prédicateur (***praedicator)*** au numéro 1 de ce lexique, *et* le ministère (***ministerium***) الكهنوت = au numéro 2.	419) التكهّن (المبشّر)
XX, 26... ce fâcheux usage est passé en habitude.. (trois temps) *sicut abutitur consuetudo.. (tria tempora... sunt)...*	420) العادة التعسفية التي يجري بها العمل في التعليم بالخصوص،(أي كون الأزمنة ثلاثة)

XXI, 27... nous parlons... d'espaces temporels *neque... dicimus nisi spatia temporum*	421) لا نتكلم إلّا عن الفضاءات الزمانيّة
XXII, 28... cela nous le disons... (et son) interprétation (n'est pas) du domaine courant *dicimus haec... et noua est inuentio eorum*	422) نقول هذه العبارات... وتأويلها غير متداول...
XXIII, 30... le mouvement du soleil (est - il) le jour, ou la durée du mouvement, ou l'un et l'autre? *motu solis... utrum motus ipse sit dies an mora ipsa,an utrumque.*	423)... بحركة الشمس... هل..هي اليوم، أم الرَيْث ذاته، أم هل هي الإثنان معا؟
XXIII, 30 (le délai séparant) un lever de soleil (d')un autre lever... - *ab ortu solis usque in ortun alterum... mora...*	424) الرّيث.. من شروق الشمس إلى شروق آخر
XXIII, 30... le temps est une sorte d'extension - *tempus quandam esse distentionem....*	425)... الزمان عبارة عن الإمتداد
XXIV, 31... par le temps, nous mesurons non seulement son mouvement, mais même son repos - *non solum motum eius, sed etiam statum tempore metimur....*	426)... نقيس بالزمان لا فقط حركته،بل وأيضا سكونه.
XXVI, 33 (je) mesure le temps lui - même.... comme avec la coudée nous mesurons une traverse - *ipsum... tempus... metior... sicut spatio cubiti spatium transtri...*	427)... أقيس الزمان عينه... كما نقيس بالذراع عارضة
XXVI, 33 le poème - *carmen*	428) القصيدة
XXVI, 33 les vers longs - *longi uersus*	429) الأبيات الطويلة
XXVI, 33 les syllabes - *syllabae*	430) المقاطع
XXVI, 33... le temps n'est qu'une extension... *nihil esse aliud tempus quam distentionem...*	431)... الزمان هو لا شيء، سوى الامتداد...

XXVI, 33 (je ne mesure pas le présent, parce qu'il ne s'étend d'aucune extension)... *non metior praesens, quia nullo spatio tenditur...*	432) لا أقيس الحاضر لأنه لا يمتد أي امتداد...
XXVI, 33... je mesure le temps pendant qu'il passe, non le temps passé... *metior... praetereuntia tempora, non praeterita...*	433) أقيس... الأزمنة العابرة لا الأزمنة الماضية
XXVII, 34 (la voix)... n'était pas immobile, elle allait et passait.... - *uox... non stabat, ibat enim et praeteribat*	434)... لم يكن (الصوت) ثابتا، إذ كان يغدو ويروح...
XXVII, 34 Tout intervalle se mesure, d'un certain commencement à une certaine fin *ipsum... interuallum metimur ab initiousque ad finem...*	435) فالمدة ذاتها،... نقيسها من بداية ما إلى نهاية ما...
XXVII, 35 je (ne les) mesure (pas), mais quelque chose qui reste dans ma.... mémoire *«Non... ipsas (syllabas), sed aliquid in memoria metior quod infixum manet»*	436) لا أقيس المقطعيْن بالذات... بل شيئا ما يبقى عالقا بذاكرتي
XXVII, 36, comme si nous les débitions (poèmes, vers, discours...) à voix haute: *ac si ea sonando diceremus...*	437) الصوت الجهوري
XXVIII, III, 37 n'étant qu'un point fugitif *in puncto praeterit..*	438) نقطة عابرة
XXVIII, 39 l'éparpillement - *distentioneum* -	439) التشتت
XXXI, 41, les notes à venir - *uoces futurae*	440) الخانات الآتية
الكتاب الثاني عشر	
I, 1 ma vie indigente - *hac inopia uitae meae*	441)... عوز حياتي هذا

III, 3 la présence de ténèbres... signifiait l'absence de lumière *adesse tenebras... abesse lucem*	442) معنى حضور الظلمات... غياب النّور...
IV, 4... des êtres supérieurs, revêtus de lumière et d'éclat... *cetera superiora perlucida et luculenta omnia...*	443)... (المخلوقات) العليا النيّرة وكل الكائنات المتألقة
VI, 6 tenir pour néant l'objet ainsi privé de toute forme... *non esse censebam, quod omni forma priuaretur*	444)... كنت أعتبر لاموجودًا ما كان مفتقرا للشكل...
VI, 6 la mutabilité même des choses muables... est susceptible de recevoir toutes les formes... *Mutabilitas... mutabilium ipsa capax...formarum omnium..*	445) فتقلب الأشياء المتقلّبة ذاته قابل لأن يتخذ جميع الأشكال
VIII, 8... le ciel qu'après la création de la lumière, vous avez formé d'un mot: «qu'il soit!» - et il fut. *caelum... post conditionem lucis dixisti «fiat», et sic est factum...*	446)... القبة الزرقاء، قلت لها... بعد خلق النور: «ولتكوني!» وكانت كما شئت...
VIII, 8.... le temps, c'est le mouvement même des choses, les vicissitudes et les modifications des apparences. - *rerum mutationibus fiunt tempora, dum uariantur et uertuntur species*	447) الأزمنة تتكوّن من تقلبات الأشياء، بينما تتغيّر مظاهرها وتتحوّل...
X, 10... je l'ai mal entendue à cause du tumulte de mes passions non apaisées *et uix audi ui propter tumultus inpacatorum....*	448) لم أكد أسمعه (أي صوتك)بسبب صخب مشاعري غير الهادئة

XI, 14... cette matière sans forme, par laquelle les choses passent pour se muer.... d'une forme en une autre - *informitas, per quam de specie..in speciem res mutabatur et uertebatur..*	449) اللامحدودية... الأشياء في تحولها وانسلاخها من صورة إلى صورة....
XI, 14... sans variété de mouvements, point de temps; et là où il n'y a nulle forme, il n'y a nulle variété *sine uarietate motionum non sunt tempora: et nulla uarietas, ubi nulla species..*	450)... بلا تغيّر في الحركات، لا تكون الأزمنة، ولا تغيّر، حيث لا صورة
XII, 15... toute cette œuvre... par suite de l'évolution regulière de ses mouvements et de ses formes,...est assujettie au temps, *uicissitudines temporum propter ordinatas conmutationes motionum atque formarum*	451) صروف الأزمنة، بسبب التحويرات المنتظمة في حركاتها وأشكالها
XIII; 16 car là où (il n'y a) nulle forme,...(il n'y a pas) de «ceci» ou de «cela» *quia ubi nulla species, nusquam est hoc et illud...*	452) حيث لا صورة، لا وجود في أي مكان لهذا وذاك
XV, 18 toute activité intellectuelle... est muable, rien de ce qui est muable n'est éternel *omnis intentio... mutabilis..., et omne mutabile non aeternum...*	453) كل هذه الحركة... قابلة للتقلب، وكل قابل للتقلب لا أزليّ
XV, 20 (la) nature intellectuelle par la contemplation de votre lumière, est lumière.... sagesse...*intellectualis natura, quae contemplationeluminis lumen est -... sapientia*	454)... الطبيعة العقلانيّة، التي هي النور لفرط مشاهدة النور، (الحكمة)
XV, 21 vers toi je veux soupirer pendant ce pélerinage terrestre! *Tibi suspiret pereginatio mea*	455) إليك أودّ أن تتوق نفسي في سفري (الدّنيوي)

XVI, 23 Quant à ceux qui les nient, qu'ils aboient tant qu'ils veulent - *nam qui negant, latrent quantum uolunt....*	456) أما الذين ينكرونها فلينبحوا ما طاب لهم النباح
XVI, 23 **Jérusalem** ma patrie, Jérusalem ma mère ***Hierusalem***, *patriam meam*, ***Hierusalem*** *matrem meam...*	457) مدينة القدس، وطني، وأمّي...
XVI, 23... cette mère chérie, où sont les prémices de mon esprit... *matris carissimae, ubi sunt primitiae spiritus mei,....* cf le numéro 360 de ce lexique trilingue	458) الأم العزيزة للغاية، حيث بواكير روحي
XVII, 25... il y a (dans toutes les créatures) un principe de mutabilité.... *et inest quaedam mutabilitas omnibus...*	459) كان في جميع المخلوقات نوع من التّقلب
XVII, 25 les «ténèbres» (sont) l'étoffe spirituelle avant que sa fluidité sans limite eût été contenue... *«tenebrae» spiritalis materies ante cohibitionem quasi fluentis immoderationis...*	460) «الظلمات»... (هي) المادة الرّوحانيّة، قبل منع سيلانها المفرط...
XIX, 28... tout être muable suggère... l'idée d'une certaine informité... *omne mutabile insinuat quandam informitatem...*	461)... كل متقلّب حجة ودليل على لامحدوديّة في الشكل
XX, 29.... le monde intelligible et sensible, ou spirituel et corporel -.... *intelligibilem atque corporalemque creaturam...*	462) الخليقة المعقولة والمحسوسة، أو الروحانية والجسمانية
XXI, 30 matière informe, sans ordre, sans lumière... *materies informis, sine ordine, sine luce*	463).... مادة لا شكل لها...، وبلا نظام، وبلا نور

XXI, 30... cette informité... (est) terre inivisible, inorganisée.... *ipsa informitas... terram inuisibilem et incompositam... nominauit...*	464)... اللاّتشكلّ... سمّاه بالأرض اللاّمرئيّة واللامنظمة
XXII, 31 matière informe... *materies informis...*	465) المادة اللاّمتشكّلة
XXII, 31 (dans le livre la **Genèse**)... *in libro Geneseos:* ce livre a été cité et commenté plusieurs fois dans les **Confessions.**	466) في سفر التكوين
XXIV, 33 tant de possibilités (d'interprétations)... *tam multa uera...* Augustin les passera en revue plus loin, à partir de XXVIII, 38 et jusqu'à XXXI, 42	467) التأويلات الصحيحة
XXIV, 33 «dans le principe»... «au début même de la création... *in ipso faciendi «exordio»...*	468) (في) بداية عملية الخلق (بالذات)
XXV, 34 cette prétention... cette témérité fondée , non sur la science, mais sur l'audace. *ista temeritas non scientiae, sed audaciae est...*	469)... المجازفة ترتكز لا على العلم، بل على الجرأة...
XXV, 35 ces deux préceptes - *duo praecepta*	470) (الوصيّتان)
XXVI, 36... sur toutes les doctrines de mensonge et d'orgueil... *culmine omnium falsarum superbarumque doctrinarum...*	471) هذيان كلّ مذاهب الضلال والكبرياء
XXVII, 37... en longues sinuosités verbales... *per longiores loquellarum anfractus*	472) في منعرجات كلامية أطول
XXVII, 37... (les) conceptions charnelles *(quae) opinantur (a carne)*	473) المنهج المتّسم بالجسمانية

XXVIII, 38... d'autres... voltigent joyeux,... (et) cherchent (les fruits)... *alii... uolitant lae - tantes et... scrutantes eos*	474) هناك أناس آخرون... يرفرفون سعداء، باحثين عنها (أي الثمار بين الأوراق)
XXVIII, 38 les admirables vicissitudes de l'Univers... *pulchras uarietationes*	475) بديع تحوّلات الكون
XXIX, 40 (aux points de vue) de l'éternité, du temps, de la préférence (et) de l'origine *aeternitate..; tempore,.. electione;... origine*	476) (من جهة).. الديمومة ومن جهة الزّمن ومن جهة الأفضليّة ومن جهة المصدر
XXIX, 40 le chant, c'est le son organisé *cantus est formatus sonus...*	477) الغناء تشكّل الأصوات...
XXX, 41.. à la vérité... d'établir la concorde *concordiam pariat ipsa ueritas...*	478) فلتلد الحقيقة ذاتها الوفاق...
XXXI. 42.. pareille grâce... *hoc... de te meruisse..*	479) هذه الموهبة...
XXXII, 43 (que) je dise... ce que votre Vérité a voulu me dire par ces paroles... *dicam, quod mihi per eius uerba tua ueritas dicere uoluerit*	480) قلت على الأقل ما قد أراد حقّك أن يقوله لي، بواسطة ذلك الكلام
الكتاب الثالث عشر والأخير	
I, 1... (de vous) (je veux) recueillir du bonheur pour moi - même, qui tiens de vous mon être capable de bonheur... *de te mihi bene sit, a quo mihi est, ut sim cui bene sit*	481) أتقبل منك قابليّة السعادة... (أي منك تأتي السعادة وإمكانية تقبلّها)
II, 2 Un corps spirituel, même informe, est encore supérieur à un corps organisé *spiritale informe praestantius, quam si formatum corpus esset...*	482) الكائن الروحاني اللامتشكل أفضل من الجسم المتشكل...

II, 3 pour un corps, être et être beau... n'est pas la même chose, autrement nul corps ne serait laid *corpori non hoc est esse, quod pulchrum esse alioquin deforme esse non posset...*	483) وكون الجسم مطلقا ليس مثل كونه جميلا، وإلّا لاستحال أن يوجد جسم قبيح...
III, 4 vivre n'est pas la même chose que vivre heureux *aliud uiuere, aliud beate uiuere...*	484) ليست الحياة والحياة السعيدة لديك شيئا واحدا...
V, 6 l'informité fluide et oscillante de la création spirituelle... *spiritalis informitatis uagabunda deliquia*	485) السيول التائهة للاّتشكل الروحاني
VII, 8 (pas)d'espaces où nous nous engloutissions, et hors desquels nos émergions *neque enim loca sunt, quibus mergimur et emergimur*	486) ليس لنا أماكن،نرسب فيها ونطفو
VIII, 9 l'ange est tombé, l'âme de l'homme est tombée *defluxit angelus, defluxit anima hominis*	487) لقد هوى الملاك، وهوى روح الإنسان
IX, 10 l'huile versée dans l'eau monte au - dessus de l'eau *oleum infra aquam fusum supra aquam attollitur...*	488) الزيت المراق في الماء يطفو على الماء
IX, 10 l'eau versée dans l'huile descend au - dessous de l'huile *aqua supra oleum fusa infra oleum demergitur...*	489) أمّا الماء المراق على الزيت فيرسب تحته
X, 11 «Que la lumière soit», qui créa la lumière! *«fiat lux», et fieret «lux»:* célèbre formule biblique	490) «فليكن النُّور» وهذا النداء بَعث النُّور!
XI, 12 être, connaître , vouloir. Je suis, je connais, je veux... *esse, nosse, uelle,Sum enim et scio et uolo...*	491) الكيان، والمعرفة، والإرادة فأنا أكون، وأعرف، وأريد...

XIII, 14... ouvrit les «cataractes» de ses dons *aperuit «cataractas» donorum suorum*	492) وفتح «شلاّلات» هباته: مثال جيد عن أسلوب أوغستينوس في الاعترافات، وهو أسلوب زاخر بالصور المحسوسة المستعملة للتعبير عن معان مجردة مغرقة في الدلالة الدينية الصوفية. وقد حاولنا أن نعبر عنها في ترجمتنا العربية وفي معجمنا الثلاثي اللغة بكل ما أمكن من الدقة.
XIV, 15... porté sur le flot ténébreux de notre vie intérieure *super interius nostrum tenebrosum et fluidum*	493) فوق السيل المظلم الجارف
XV, 17 livres qui anéantissent... l'orgueil,... l'ennemi, l'avocat... *libros... destruentes superbiam,... et inimicum defensorem»*	494) كتبا... أخرى تدمر التكبر... التكبر «للعدوّ وللمحامي»
XV, 18... ce firmament, constitué au - dessus de l'infirmité des peuples d'en - bas *firmamentum quod firmasti super infirmitatem inferiorum populorum... **Noter, ici, les allitérations expressives.***	495) القبّة (الزرقاء)... ثبتها فوق ضعف الشعوب السفلية...
XVI, 19... votre science est et veut immuablement, votre volonté est et sait immuablement *scientia tua scit et uult inconmutabiliter, et uoluntas tua est et scit inconmutabiliter*	496) وعلمك يكون، ويريد بلا تقلّب، وإرادتك تكون وتريد، بلا تقلب
XVIII, 22... faire la distinction entre les choses intelligibles, et les choses sensibles entre le jour et la nuit... *inter intelligibilia et sensibilia tanquam inter diem et noctem*	497) نفرّق بين المعقولات والمحسوسات، وبين النهار والليل
XIX, 24 Va, déracine les buissons touffus de l'avacrice... *uade, extirpa siluosa dometa auaritiae*	498) اذهب، اقتلع أدغال البخل الكثيفة... (أي أصبحْ كريما)

XIX, 25 et brillez au firmament! *et lucete «in firmamento»* à l'adresse des «faibles de ce monde» ou ces *«infirma mundi»*	499) واسطعوا في «القبّة الزرقاء»
XX, 28... le genre humain, avec ses curiosités profondes, son orgueil tempêtueux, sa fuyante mobilité *genus humanum profunde curiosum et procellose tumidum et instabiliter fluidum*	500) الجنس البشريّ ذو الفضول اللاّنهائي، والكبرياء العصوف، والسيل المتقلّب
XXI, 29... délices mortelles (**dues à l'amour de ce monde**)... *deliciis... mortiferis (i.e ab amore huius saeculi...)*	501) الملاذ القاتلة (يعني حبّ هذه الدنيا)
XXI, 30 l'âme ne vit qu'en fuyant les choses dont la convoitise la fait périr *euitando uiuit anima, quae appetendo moritur*	502) لا تحيا الروح إلاّ وهي تتجنب ما تموت بالتّوق إليه
XXII, 32... votre volonté (est quelque chose) de bon, agréable et parfait *uoluntas... bonum et beneplacitum et perfectum...*	503) «إرادة الإلـه... التي هي طيبة ورائقة ومكتملة»
XXIII, 34 cette «réunion des eaux» qu'est la mer...*congregationis aquarum, quod est mare...*	504) «عُصْبة المياهِ» التي هي البحر...
XXIV, 35 les poissons et les monstres marins,et les oiseaux *pisces et coetos..., et uolatilia*	505) الحيتان، والأغوال، والطيور...
XXIV, 36 (Ainsi) croissent et se mutliplientles productions vivantes des eaux! *Ita crescunt et multiplicantur fetus aquarum*	506) حتى تنمو سلالة البشر وتتكاثر
XXIV, 37 multitude, fécondité, accroissement...*multitudines et ubertates et incrementa...*	507) تنوعات وخصوبات ونموّات...

XXV, les divins mystères - *diuinorum mysteriorum*	508) الأسرار الإلـٰهيّة
XXVI, 39 être dans l'abondance et supporter la détresse -... *abundare et penuriam pati*	509) الرخاء... المجاعة... (أي أقدر أن أشبع وأن أجوع)
XXVI, 40... comme un champ qui a renouveau de fertilité - *tamquam reuirescente fertilitate agri...*	510) كالحقل المخضوضر من خصبه..
XXVII, 42 l'âme se nourrit... de ce qui... est joie *animus pascitur, unde laetatur*	511) تتغذى النفس مما تنبسط به
XXVIII, 43 (un corps).. est bien plus beau par l'harmonieuse combinaison (de ses membres) *quorum ordinatissimo conuentu completur uniuersum*	512) بائتلافها (أي الأعضاء) يكتمل (جمال) المجموع
XXIX, 44... de votre puissante voix, brisant ma surdité, vous me criez...... *dicis uoce forti rumpens meam surditatem*	513)... تقولها... بصوت قويّ،.. قاطعا صممي
XXX, 45... j'ai recueilli sur mes lèvres une goutte de la douceur de votre vérité *elinxi stillam dulcedinis ex tua ueritate*	514) لعقت قطرة من عذوبة حقّك...
XXXI, 46 (le bon est le contraire du mauvais) (ou bien le bien ≠ le mal) *bonum ≠ malum*	515) الطيّب ضدّ السيء (أو الخير ضدّ الشر)
XXXII, 47 la beauté des eaux rassemblées dans les plaines de la mer... *congregatarum aquarum speciem per campos maris...*	516) رونق المياه المتجمعة عبر سهول البحر...
XXXIII, 48 progrès et déclin - *profectum et defectum*	517) تقدّم وتدهور

XXXIV, 49... afin de manifester vos desseins.. et d'ordonner notre désordre - *ut occulta manifestares et inconposita nostra conponeres...*	518) كي تبرز مقاصدك الخفية وتنّظم فوضانا
XXXVII, 52 Notre repos sera vôtre en nous... *erit illa requies tua per nos*	519) راحتنا ستكون بفضلك فينا...
XXXVIII, 53... chez vous... on devra frapper..., et votre porte s'ouvrira à nous -... *ad te pulsetur... sic aperietur... (Ultima Verba)*	520) فليطرقوا له بابك (أي فهم الحقيقة القصوى)... وسيفتح لهم مصراعاها (أي للطارق الباحث عن مغزى حياة الإنسان).

وانتهى المعجم الثلاثي هنا.

اخترنا هكذا ما لا يقلّ عن 520 لفظة أو عبارة أو جملة تكاد تكون كاملة من ترجمتنا العربيّة الجديدة لاعترافات القديس أوريليوس أوغستينوس، انتقيناها من الكتب الثلاثة عشر بمعدل 40 جملة من كل كتاب، وعدنا في كل مرة إلى النص اللاتيني بالذات الذي كان مرجعنا الأساسي في كلّ من التّرجمة ومن المعجم الثلاثيّ المصاحب لها، وأتينا في أقصى اليسار بعيّنات من التّرجمة الفرنسيّة الشهيرة والمنشورة في دار الآداب الجميلة بباريس والمعتمدة في الجامعات الفرنسيّة، حتى تكون الفائدة عامّة وشاملة لشرائح المثقفين في بلادنا، ورجاؤنا أن تكون لعملنا المزدوج هذا الفائدة التي طمحنا إليها ونحن نقوم به، ونعرّف بإحدى أمّهات الأدب اللاتينيّ في المقاطعة الإفريقية في أواخر القرن الرّابع بعد الميلاد (397-398).

ولنختم هذا المعجم الثلاثي بما قاله جان بايّي عن هذا الكتاب القيّم والعالميّ بحقّ:

«لكن الاعترافات، حيث تختلط المحنة والمأساة بالاندفاعات الزهدية وأرقى درجات التجريد والتحليق، قد اكتسبت بذلك طرافة فريدة، وقد حررها القديس أوغستينوس في اندفاع الفنان الحق، بأسلوب رقيق مليئ في الآن نفسه بشذرات التزويق ومظاهر العظمة، لكنه معبّر ومؤثر كلما وجد السبيل إلى التعبير والتأثير، عن ,
Jean BAYET, **Littérature Latine** , librairie Armand COLIN, Paris, .1965, page 486

وسيجد القارئ فائدة جمة في قراءة كامل الفصل المخصص لمؤلف الاعترافات من ص 483 إلى ص 492 من الكتاب المذكور.

وفي الختام نوّد أن نشير إلى كون اعترافات أوغستينوس قد ترجمت إلى العربيّة، ترجمها الخور أسقف يوحنّا الحلو، في صيدا في العاشر من حزيران 1962، وأنها قد نشرت في بيروت بدار المشرق ISBN2 - 7214 - 51049، وأنّها تحمل في الطبعة السّابعة التي اطلّعنا عليها عنوان التّراث الروحيّ والتاريخ التالي: في الخامس عشر من آذار 2003. أمّا عدد الصّفحات فهو 327، وينقسم الكتاب المنجز بمطبعة ليزار ش.م.م. إلى جزءين: مقدّمة قصيرة عن حياة أسقف عنّابة الكبير من الصفّحة الأولى إلى الصفحة السّادسة، ثم ترجمة كاملة للإعترافات عينها، كتابا بعد كتاب، مشفوعة بعناوين دقيقة ومفيدة لمعرفة محتوى الكتب الثّلاثة عشر.

وقد أعجبنا كثيرا بأناقة هذه التّرجمة الشّيّقة والصادرة عن رجل دين له معرفة عميقة بخصائص ذلك النّصّ الكبير الذي خصّه الأستاذ الدكتور عبد الوهّاب بوحديبة، رئيس المجمع التّونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة»، بمقدّمة فائقة المعالم. وإن لم يذكر الخور أسقف اللبنانيّ أيّ نصّ اعتمده في ترجمته إلى العربيّة، هل رجوعا إلى اللاتينيّة أم إلى اللّغات الحيّة كالفرنسيّة والإنجليزية، إلّا أنّنا نظنّ أنّه عالم باللّغة الأصلية للكتاب بحكم ثقافته الواسعة والبيّنة.

ولا نشكّ في كون القارىء الكريم سيجد ضالّته في كتابينا اللّذين يتكاملان ويفيدانه كثيرا، وإن كان هدفاهما مختلفين. فهما متقيّدان بالحقّ وبالأمانة العلمية أوّلا وآخرا. فالخور أسقف يوحنّا الحلو قام بعمله في نطاق إبراز أصالة التّراث الرّوحيّ في ربوع لبنان، ولذا لم يأت بأيّة تعليقات وملاحظات لغوية، أو أدبيّة، أو حضاريّة، أو فلسفيّة، أو لاهوتيّة، والحال أنّ الكتاب في جزءيْه اللذين نقلناهما يزخر بها، وذاك ما جعلنا نسّد هذا الفراغ بأن نشفع ترجمتنا العربية، الصادرة بعد نصف قرن، بأهمّ ملاحظاتنا الخاصة وكذلك بالايضاحات والتقييمات التي أتت في كتاب العلاّمة بيار دي لابريول (PIERRE DE LABRIOLLE) المنشور بباريس في اللّغتين اللاّتينية والفرنسّة، بدار الآداب الجميلة، سنة 1925 لأول مرّة، وللمرّة الرابع عشرة منذ عشر سنين تحت العددين التاليين:

ISSN0184 - 7155 وIBSN2 - 251 - 01209 - 5. فعسانا نكون قد وفّقنا وأحسنا صنعا في عمل علميّ جسيم شيّق مثل هذا!

الفهرس